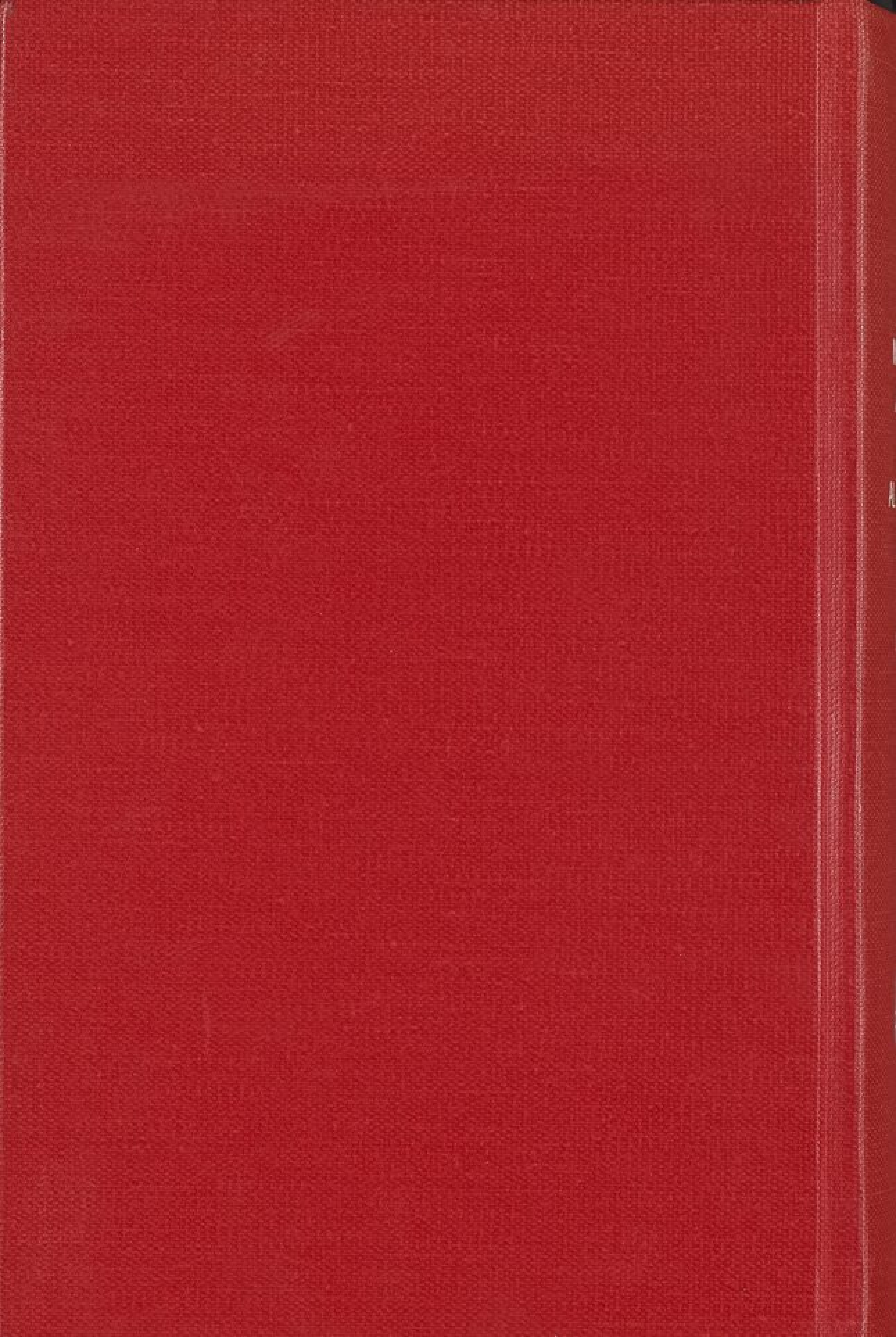


DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE



[redacted]

الجواهر

التى حلى بها حضرات أصحاب الفضيلة علماء الاسلام

جيد

منتهى آمال الخطباء

و

منار المسترشدين النبلاء

لحضرة صاحب الفضيلة والإرشاد ، الأستاذ الكبير ،

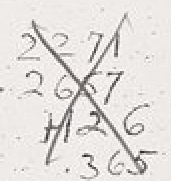
والعلامة القدير ، الشيخ :

ابو يوسف مصطفى الحمامي

احد علماء الازهر الشريف

وخطيب الحرم الزينبي بالقاهرة

حفظه الله



بسم الله الرحمن الرحيم

هذه جواهر حضرات أصحاب الفضيلة العلماء — فى تقدير الديوان وصاحبه . وهى الكلمات التى رجونا حضرة القارئ فى المقدمة أن يطلع عليها ، ولعل من يراها لاينتهى من مطالعتها حتى تبلغ عقيدته المنتهى فى الجزم بأن الديوان ما وقعت عين الزمان على نظيره — ولو علم القارئ من هم أولئك العلماء أصبح لا حد لاجلاله لهذا الديوان — وإنى ألفت القراء عامة لفتة خاصة — إلى وصول هؤلاء القادة إلى هذا الحد فى الفرح بخدمة الاسلام والمسلمين ، وتشجيع الخادم لهما هذا التشجيع الذى ما كنت أظن قط أن تسخو به نفس — ولكن لاغرابة فهم ورثة الأنبياء وكفى ، وهل ينتظر أن يكون فى الدنيا قلوب أصفى من قلوب ورثة الأنبياء — وإذا لم يقل هداة الدنيا للمحسن أحسنت فمن يقول ؟ فلا يستغرب القارئ ما يرى لاسيما بعد أن يعلم أن حضرات أصحاب الفضيلة الكاتبين صفوة الصفوة اليوم من شموس الاسلام ، وخاصة الخاصة من الهداة الكرام .

وبعد فانى أعرف حق المعرفة قدر نفسى ، وجزى الله حسن الظن بالمؤمنين خيرا . وليسمع حضرة الناظر مايقولون : داموا ملاذا للاسلام والمسلمين آمين .

جوهرة

جمال الزمان ، وبركة العصر ، العالم الحجة ، وبطل الدفاع عن بيضة الاسلام اليوم ، والصاعقة الماحقة لآثار الالحاد والملحدين ، الشيخ يوسف الدجوى أحد هيئة كبار العلماء . قال لاحرم الله الدنيا من أنوار هدايته :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وأصحابه .

﴿ أما بعد ﴾ فانه ينبغى من الخطيب أن يكون متصفا بصفات ثلاثة (١) أن يكون من العلماء بالله وبدينه . (٢) وأن يكون عارفا بزمانه . (٣) وأن يكون ذا بيان قوى إن قال أو كتب — فانه إذا كان عالما بالله عز وجل كان من أهل الخشية له سبحانه وتعالى ، ومعروف أن هذه الخشية تلزم الجادة ، وما أحلى خطيب

القوم إذا كان مستقيما ، فانه يكون داعيا إلى الله بحاله ومقاله ـ وإذا كان عالما بدين ربه عرف كيف يقود الناس إلى ما يرضى ربهم ، ينبو به علمه عن أن يدعو عباد الله إلى معصية يزعم أنها طاعة ، أو ينفرهم عن طاعة يظن أنها معصية ، وما أجل الخطيب إذا رقى المنبر ولم يسمع الناس منه إلا الحق الصراح ـ أما علمه بزمانه فبه يكون مع الناس كالطبيب الماهر يعرف من مريضه الداء فيصف له الدواء المناسب فيوشك أن يصبح وقد زايله المرض وعاودته الصحة ، وهذا الوصف هو خاصة الخطيب التى ان عرى عنها لم يكن له من الخطابة الا اسمها ، وهو بعيد عن حقيقتها بعد الظلمة من النور ، فانه اذا لم يعرف ما عليه الناس كان فى ناحية وهم فى ناحية ، ومن يتكلم مع قوم فى غير ما هم عليه كيف ينفعهم ـ أما قوة البيان فهى روح الخطابة وقوامها ، فان الخطيب اذا كان عالما بالله وبدينه ملما بأحوال زمانه ولكنه ألكن اللسان تمتام ـ كان لا قيمة لعلمه فوق المنبر ولا لمبلغ يقظته وثقوب نظره ، وماذا عسى أن يقول من علمه ومن إحاطته بما عليه الناس وهو اذا أراد أن ينطق كان لسانه كالجواد الشموس الذى تدفعه للأمام فيرجع هو للوراء ، ومثله لا ينفع الناس ، وانما هو ممثل بارع يمثل فصول العجمة والعى كل أسبوع على منبره ويدع سامعيه بعضهم فى خجل له وبعضهم فى ضحك عليه ، وكيف ينفع هذا ـ أما العالم البصير ان كان قوى البيان واستوى على أعواد منبره ـ فهو حلية من حلى الدنيا ، وزينة من زينة الوجود ، وروضة للأبصار تمتع بالنظر اليها ، ولذة للأسماع تطرب بسماعها ، وغذاء بالغ النفع للأرواح تتغذى به ، كيف لا وهو اذا نطق كان كالبحر ينثر اللآلئ والجواهر على من حوله فلا يسعهم إلا التسابق إلى التقاط ما ينثر ، يتدفق تدفقا ويسيل سيلا ، لايهجم على رذيلة الا قضى عليها ، وصورها فى نفوس السامعين بصورة بشعة مخيفة من رآها لايسعه إلا أن يفر منها فرارا ، ولا يعطف على فضيلة إلا أنعشها وأحياها ، وجعل قلوب السامعين تكاد تطير من شوق اليها ، وما أجدر خطيب المسلمين أن يكون هكذا .

ويسرنى أن أذكر من هذا الطراز الأعلى من الخطباء مثالا كما وصفنا وفوق ما وصفنا ، هو حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل العالم العامل الشيخ «مصطفى أبو سيف الحمامى» ، خطيب المسجد الزينبى ، وأحد أكابر علماء الأزهر

الشريف ، نعم هو كما وصفنا وفوق ما وصفنا ، فانه إن خطب لانت لموعظته القلوب القاسيه ، وانقادت النفوس المستعصية الآبيه ، كيف لا وهو يخطب بقلبه قبل لسانه (وإذا خرجت الموعظه من القلوب وصلت إلى القلوب) . ولا غرو فهو الخطيب المصقع الذى حاز قصب السبق فى ميادين الخطابة — أما إن كتب فهو فارس الميدان، وحامل لواء البرهان ، ومن شاء فليرجع إلى مؤلفاته الكثيرة التى ملأت الدنيا هدى ونورا .

وبين يدىّ الآن من هذه المؤلفات الجليلة ديوان « منتهى آمال الخطباء ، ومنار المسترشدين النبلاء » اطلعت عليه فوجدته ديوانا جديرا أن يسمى منتهى الآمال ، حقيقا أن تشدّ إليه الرّحال ، وماذا أقول فى ديوان عرف منشئه الداء ، ووصف الدواء ، وخاض فى كل موضوع من الموضوعات فأتى فيه بالعجب العجاب ، شأن الطبيب الحاذق ، والمرشد الوامق ؛ فلم يدع وسيلة من وسائل السعادة إلا أرشد إليها ، ولا ذريعة من ذرائع الفساد إلا أتى عليها ، كل ذلك بعبارة تسمو فى مستواها عن العبارات ، عبارة تقطر حلاوة وتسيل لطفا ؛ فهو ملك البيان — وهذا ديوانه ، وسابق حلبة الميدان ، وهذا برهانه — أما مقدمة (١) الديوان فهى مقدمة تفوق المقاصد ؛ أتى فيها من التحقيق ما يقمع كل مكابر ، ومن الحق الصراح ما تنشرح به الصدور ، وتقرّ به العيون ، ومن السنة النبوية ما يذعن له العلماء ، ويشهد له أساطين الكبراء ، وما هى بالأولى للأستاذ ، فكم عهدنا له من أياد بيضاء ، ومنن غرّاء ، ومهاجمات ذل بها حزب الشيطان ، وعزّ بها حزب الرحمن ، فجزاه الله أحسن ما جازى به العلماء العاملين ، والمجاهدين المخلصين ، بمنه وكرمه ، آمين .

يوسف الدجوى

من هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

---

(١) يتكلم فضيلة الشيخ عن المقدمة ، وكان بها الفصل الذى جرد وجعل كتابا مستقلا طبع وحده وانتشر باسم : « غوث العباد ، ببيان الرشاد » وهكذا تكلم الشيخ الشنقيطى ، والشيخ العرفى عن المقدمة وبها ذلك الفصل — أما السيد البيلاوى ، والشيخ الكوثرى فتكلما عنها بعد ذلك التجريد فليعلم .

جوهرة

العالم الكبير ، والمحدث الشهير ، أحد بحار العلم الزواخر ، والغارة الشعواء على كل من انحرف عن الحق الظاهر ، خادم العلم بالحرمين الشريفين ، ونزيل مصر الآن ، ومدرس علم السنة النبوية بقسم التخصص بالأزهر الشريف . قال أطال الله حياته للإسلام والمسلمين :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي قال ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله ومصطفاه ، وعلى آله وأصحابه وكل من بإحسان تلاه .

﴿ أما بعد ﴾ فقد اطلعت على جملة وافرة من الديوان المسمى « منتهى آمال الخطباء ومنار المسترشدين النبلاء » لفضيلة الأستاذ المحقق ، العلامة المدقق ، صاحب الفيض الرباني ، والفتح المبين الصمداني « أبي سيف الشيخ مصطفى الحمامي » خطيب المسجد الزينبي الذي انتفع بدروسه ووعظه ومصنفاته الجم الغفير ، فكان سواء في ذلك الكبير والصغير ، فإذا هو ديوان وافق اسمه مسماه وطابقه ، ودل عليه دلالة المطابقة ، فهو والله « منار المسترشدين النبلاء » كما هو « منتهى آمال الخطباء » ، قد دل على أن مؤلفه حفظه الله هو فارس ميدان البلغاء ، ورئيس الخطباء المحدثين النبلاء ، فقد كان ديوانه هذا دواء لأمراض القلوب ، وشفاء لكل عليل مطبوب ، فقد اشتمل على نيف ومائتي خطبة شرعية ، تناسب جلالة الرحاب الزينبية ، لم يبق ولم يذر من أمور الديانة ، شيئا يحتاج للبيان الا بينه غاية الابانة ، مع مكافحة الأحوال السيئة العصرية ، بنصوص صريحة وأذواق نافعة فيضيه ، فن أجال طرفه في رياضه بانصاف وجده بني خطبه على الكتاب والسنة ، ورد فيها أقوال من حجبوا عن الحق بما للضلالة من دجنه .

أما مقدمة الديوان فهي لعظم مزيتها كادت تغني عن ضخام المجلدات ، لما اشتملت عليه من جيل الصفات في دقائق المعتقدات ، فالأولى أن تجعل رسالة مستقلة ، ليرد عذب حياضها أكابر العلماء الأجله ، إذ ذكر فيها على سبيل الاختصار ما يحتاجه العلماء مما لم يجمعه غير الأسفار الكبار :

فقل ما شئت فيه من مديح　　تجده فوق ما نطق المديح

جزى الله مؤلفه عن أهل زمانه أحسن الجزاء ، وعامله الله على جميل صنعه بواسع رحمته يوم اللقاء ، وأبقاه لنفع الأمة دهرا طويلا فى العافية ، مع نعم وافرة غير عافية ، ولولا ضيق الوقت وكراهة الاسهاب، لأطلت فى بيان مزايا هذا الديوان لأولى الألباب ، ولكن فى الجمل التى كتبناها لأولى الأبصار كفاية ، لمن كان ذا قلب سليم وألقى السمع فى البداية والنهاية .

قاله بلسانه ، وقيده ببنانه ، خادم نشر العلم بالحرمين الشريفين ، محمد حبيب الله ابن الشيخ سيدى عبد الله بن مايابى الجكنى ثم اليوسفى نسبا الشنقيطى اقليما ، وفقه الله .

جوهرة

العلامة المحقق ، والبحاثة المدقق ، الملتهب غيرة على الاسلام ، والمحتدم غضبا على فرق الزيغ اللئام ، الأستاذ الشيخ محمد سعيد العرفى شيخ العلماء بوادى الفرات .
قال نفع الله الأمة بعلمه وفضله :

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم على هدايتك وافضالك ، ونشكرك شكرا يليق بعظمتك وجلالك ، فانا لانحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، ونسألك أن تصلى وتسلم على سيدنا محمد وعلى آل محمد إنك حميد مجيد .

﴿ أما بعد ﴾ فان دعامة الدين الاسلامى العظمى هى العلم ولزوم انتشاره ، وكان من أسباب وجوب سماع خطبة الجمعة ـ افساح مجال للتعليم الاجبارى مايحتاج اليه المسلم من أمر دينه ، ومعرفة أحكامه ، وما تنطوى عليه الشريعة من الأسرار العجيبة، والحكم البليغة ، وهذا الموقف العظيم يحتاج الى أن تشغله صفوة الأمة ، وخلاصة علمائها المرشدين ، ولذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم القائم بنفسه فى الخطبة بحيث لم ينب عنه أحدا حتى التحق بالرفيق الأعلى ، فى حين أنه قد صلى خلف بعض

أفراد أمته ، وقد سلك الخلفاء الراشدون من بعده هذا المنهج القويم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

مما لامراء فيه أن الخطابة مقدسة لدى جميع الأمم ، وفى عامة العصور ، لما للخطيب من المكانة السامية ، والمقام الرفيع ، والتأثير البليغ فى نفوس سامعيه ، وما ينجم عن ذلك من تطور فى أفكارهم ، وتثقيف لأذهانهم ، وهذا هو السر فى أن الشعوب كافة تفخر بخطبائها ، وتحفظ لهم كرامة تليق بهذا المنصب الجليل .

ولقد أتيح لى أن أطلع على ماكتبه الأستاذ العلامة ، والجهبذ النحرير ، صاحب الفضيلة الشيخ «مصطفى أبوسيف» خطيب ومدرس جامع السيدة زينب رضى الله عنها من خطبه فى ديوانه الثالث المسمى «منتهى آمال الخطباء ومنار المسترشدين النبلاء» فوجدته قد أتى بالعجب العجاب ، جمع الى آية البلاغة تبيان الحقائق ، والاخلاص فى النصح ، ولكنه عذب سلسبيل ، وكيف لا ومؤلفه ذلك الخطيب المصقع ، والبحر الطامى فى جميع العلوم ، والحائز قصب السبق فى مضمار الكتابة والبلاغة ، ولا بدع أن يعرب لنا يراعه عما تشتمل عليه نفسه الكبيرة من الأخلاق العالية ، والمزايا الكاملة ، فيرى الناس نبراسا من شموسه النيرة يستنير بها الحريت ، عرف الداء نفصص له الدواء ، ولم يخف عليه ملمس العلة ، فعالجها بحكمته ، وأتى بما لا يستغنى عنه خطيب أراد أن يقوم بارشاده الأمة ، وبذل النصح على اعواد المنابر ، فجاء بالسهل الممتنع ، قريب التناول للمستفيد ، جامع لشتات الفضائل ، حاو لأنواع الترهيب ، كاشف عن المساوى التى كانت سبب كوارث الأمة ، وتوالى النكبات عليها ، بحيث لو أصغى الى نصائحه أشقى الناس لأخذت بضبعه ، وأوصلته الى طريق الهدى والسداد . نعم لقد أتى بالفوائد الجة ، والحكم الكثيرة ، والنصائح البليغة ، فأوضح طرق الآداب ، وبين جادة الصواب ، ولم يبق للسالك عذرا ، ولا للمسترشد مقالا ، فجزاه الله عن الاسلام أفضل الجزاء .

ولكن لو دريت أنه أتى فى المقدمة بما بهر العقول من تبيان مجد الاسلام ، وعظمة مقام النبوة ، ورفعة أصحاب الكمال ، بأبلغ العبارات ، وأفصح الجمل ، وأرصن الكلم ، وأحسن الأساليب ، مدللا على ذلك بالحجج الناصعة ، والبراهين القاطعة ، بحيث لو قلت يجب على كل طالب علم متمسك بدينه — أن يطالعها ليغترف

من بحرها الزاخر ، وعبابها الخضم - لما جادلني الاحسود مكابر ، أو جاهل متفيقه - وذلك لأن المؤلف دفع أقوال أرباب الضلالة بما لامزيد عليه ، وعرف الحق جليا ، فقصم بسيفه كل تلك الضلالات التي حجبوها بستار شفاف سموه السلف والسنة ، وهم أبعد الناس عنها ، ولا بأس اذا قلت : أبعد الناس عن الدين ، رغما عن تقشفهم ، فان ذلك لا يخدع المؤمن بعد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحقر أحدكم صلاته عند صلاتهم وصيامه عند صيامهم إيمانهم لا يجاوز حناجرهم » ولا أرى منصفا يراني مغاليا على الذين يرون من معتقداتهم انتقاص مقام الرسالة ، ومن سلك هذا المنهج ممن على قدمه من الصديقين والأبرار ، وما أقول عن عقيدة التسامح وحسن الظن إلا أنها أفسحت المجال لكل ضليل تسول له نفسه الانتقام من الدين الاسلامي باسم التمسك وكثرة العبادة والتنطع الذي يخدع كل غر يراهم لأول وهلة فيتوهم عبادا وزهادا ، فهم كالصائد الذي يرمي الطعم ليصطاد البلهاء ، حيث أن من فحص تراجم المتنطعين يراهم سلالة أبناء الأقوام الزائغة الضالة الذين ورثوا عن الاسلاف الحقد على الاسلام ، ويحفظون الانتقام منه بكل الطرق الممكنة .

على أن هذه المقدمة مقدمة الجامي قد طهرت عقيدة المطالع من أدران الزيغ ، وهدمت كل شبه هؤلاء الضالين ، ولم تترك لهم مجالا لاضلال الحق والمغفلين ، بعد أن أرانا مؤلفها كيف تكون البطولة في الدفاع المجيد عن أساس معتقد أهل السنة والجماعة - مبتهلين الى الله تعالى أن يجعل عمله مبرورا مقبولا لدى الله والناس ، مثمرا أحسن الثمر ، نافعا في الدنيا والآخرة ، أدام الله سيف مؤلفه مصلتا في وجوه أعداء الدين ، وأبقاه للأمة زائدا عن كيان الاسلام هجمات خصمائه الضالين ، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد عدد ما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون وسلم تسليما كثيرا .

محمد سعيد العرفي

جوهرة

سراج من سرج الأئمة الكبار ، و بدر من بدورنا الذين يستضاء بهم فى هذه الديار ، وعلم من أعلام الارشاد فى هذا العصر ، وأحد أركان صرح الهداية بهذا القطر ، فرع الشجرة النبوية ، ونقيب عموم الأشراف بديارنا المصرية ، حضرة صاحب الفضيلة والسيادة السيد محمد الببلاوى خطيب الحرم الحسينى ، قال لازال قابضا بيد الحكمة على زمام الارشاد :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم الى الخلق كافة ليخرجهم من ظلمات الكفر الى نور الايمان ، وفرض أن يكون فى أمته من بعده طائفة يقومون مقامه يدعون الناس الى الحق ، وأخبر أنهم أحسن العباد قولا وأنهم هم المفلحون ، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة هى منار الهداية ، وعلم الرشاد ، وآية النبل والفضل ، والمفتاح الوحيد الذى لا تنفتح دار الكرامة الا به ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله سيد الداعين الى الله وخير من تشرفت المنابر بأقدامهم الشريفة ، وسعدت الآذان بسماع خطبهم ومواعظهم الحكيمة ، وقرت العيون برؤية أشخاصهم الجليلة ، وجنت العقول من رياض آدابهم مايهزأ بأحلى الثمار ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وكل من تحرى منهجهم النير ووراءهم سار .

﴿ أما بعد ﴾ فقد يسرت لى المقادير الالهية أن أطلع على ديوان «منتهى آمال الخطباء ومنار المسترشدين النبلاء» لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ «مصطفى أبو سيف الحمامى» أحد أفاضل علماء الأزهر الشريف وخطيب المسجد الزينبى — فرأيت ديوانا ليس بكثير عليه ، أن تشد الرحال اليه ، وتضرب آباط الابل فى سبيل الوصول الى مادعا اليه من آداب ، وما عنى بتمحيصه من حقائق ، وما نصب على طريق الحق من أعلام ، حتى لا يشتبه فى سلوكها سائر الى الله عز وجل ، وما أعد فى ظلمات المعضلات من سرج يمشى فى نورها طالب الحق ، كيف لا وهو «منار المسترشدين النبلاء» — ديوانا لا يفعل غريبا ، ولا يأتى بديعا ، من يضاعف وزنه بالذهب ، ليقبل عليه بوجهه الميمون ، ويفضى اليه بسره المصون ، ويمشى أمامه

مرشدا أمينا ينحيه عن كل مكروه حتى يفتح له باب دار الكرامة ان شاء الله تعالى ـ ديوانا له لسان اذا تكلم استعذبت حديثه الاسماع ، وصبت الى بيانه الفطر السليمة ، وكان الدر دون كلماته ، ـ ديوانا وضع بين باصرتيه لوح هذا الوجود ـ وهو لوح لا تنتهى عجائبه ـ وجلس فى منتهى اليقظة والانتباه ، كل همه أن يعرف ما يضر اخوانه وما ينفعهم ، فان رأى ماينفعهم فى معاشهم أو معادهم سارع فى تقديمه اليهم ، مع تواضع محبوب ، وشفقة نادرة ، واخلاص لايشوبه من الرياء شيء ان شاء الله تعالى ، وان رأى مايضرهم وثب عليه وثبة الأسد وأخذ بتلابيبه وعرضه على الناس فى صورته الحقيقية محذرا التحذير كله أن يتقدموا منه ، أو يلتفتوا اليه ، مسترشدا فى ذلك كله بالمرشد الحكيم وهو الوحى الالهى ـ ديوانا عوده الكرم الالهى أن يفيض عليه من خزائن إلهامه ـ الكثير المبارك ، لذلك تراه اذا أنفق أنفق عن سعة ، ماضاق عليه هذا الكرم يوما فرأيناه احتاج لأن يلتفت يمنة أو يسرة يستجدى غيره بعض ماينفق ، وله مع ذلك أن يتحدث بنعمة الله تعالى عليه إذ يسر له بدون أدنى كلفة ـ أن يلبس عرائس الحقائق مبرهنا عليها ـ من حلل الخطابيات مايبهر الأبصار ويسبي البصائر . ولهذا نحن لانتردد فى أن الديوان « منتهى آمال الخطباء » ـ ديوانا لاتقع العين عليه إلا وتراه ـ ان كانت منصفة ـ جديرا أن ينشد بحق :

أيا لائمى دعنى أغالى بقيمتى   فقيمة كل الناس مايحسنونه

أما مقدمة الديوان فلست أرى عبارة تفى ببيان ضخامتها وجزالتها وفائدتها وحسن مناسبتها لما وضع الديوان له ، ومن أحب أن يتحقق ما أقول فيها فهى ذه بين يديه فليتأملها ثم ليتأملها ، وانى كفيل أنه لابد أن يحكم عليها الحكم الذى يتلاءم مع قدرها السامى وفضلها الفريد ، وانى أسأل الله تعالى ـ وهو ذو الكرم الذى لايحد ـ أن ينفع بهذا الديوان وهذه المقدمة النفع المناسب لقدرهما ـ وأن يتقبلهما من مؤلفهما ـ وأن يجزيه عن الأمة الاسلامية خير الجزاء ـ اللهم آمين .

محمد البيلاوى

نقيب الأشراف

(ى)

جوهرة

علم من أعلام الدنيا ، وطود من أطواد العلم الشامخة ، وبطل من أبطال الجهاد لاعلاء كلمة الله ، بل وقائد من القوّاد العظام ؛ الذين لاتكلّ سواعدهم من الذود عن حياض الاسلام ، الأستاذ الشيخ محمد زاهد الكوثرى وكيل المشيخة الاسلامية بالاستانة سابقا ، قال أكثر الله من أمثاله بين قادة الأمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى وسع مدارك أتقياء العلماء ، فى فهم أسرار الكتاب الكريم والسنة النقية البيضاء ، حتى استقاموا على طريقة سداها ولحمتها الشريعة الغراء ، فبالهم من قادة للمسترشدين إلى سنن الأنبياء وسير الأصفياء ، يضاعف الله لهم الأجور من غير أن ينقص أجور المسترشدين ، كما يضاعف أوزار الفاتنين ، بدون أن ينقص أوزار المفتونين ، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد سيد الأولين والآخرين ، وعلى آله الأطهار الطيبين ، وأصحابه الهداة المهتدين ، وأتباعهم الغرّ الميامين ، صلاة وسلاما دائمين الى يوم الدين .

﴿ وبعد ﴾ فان الخطابة خطب جسيم ، ومقامها فى الشرع عظيم ، لم يقم بأعبائها غير النبيّ صلى الله عليه وسلم طول مقامه بين ظهرانى الأمة ، وعلى طريقته مشى الخلفاء الراشدون وهداة الأئمة ، وكم من خطيب بارع بين الأقدمين ، كان اذا قام يخطب بين جماهير المسلمين ، يهدى الله بخطبته مئات وألوفا من المسرفين ، فينخرطون فى سلك عباد الله الصالحين المصلحين ، كما كان يقع فى مواعيد سبط ابن الجوزى وخطبه فى الجامع الأموى ، وهكذا كان الأمر حينما كانت العلوم تقصد لذاتها ، لالعاجل منافعها ولذاتها .

كانت الأمة إذ ذاك من السمو بالدرجة التى لاتسامى ، لما أن قيادتها كانت بيد ورثة الأنبياء شموس الاسلام ، وهداة الأمة وبركتها ، رضى الله عنهم ، ومعروف أن القيادة اذا صلحت سارت قافلة الأمة فى غاية الأمن لاتخشى غائلة ، ولما قلّ هذا الطراز من الهداة فى العصور المتأخرة رأينا الأمة على ماهى عليه اليوم من الانحطاط الذى لايخفى على أحد ـ وكدنا نيأس من صلاح الأمة من طريق الخطابة والخطباء ، مع

أنه الطريق الوحيد لذلك ، فانا لم نكن نرى من يمسك زمام القيادة فى هذا الأمر عن جدارة واستحقاق فيؤتسى به فى مشارق الأرض ومغاربها ، وانا نحمد الله عز وجل على أن أزال من نفوسنا هذا اليأس بما أطلع علينا فى سماء الارشاد – بدرا أزال بنوره الوضاء ، حوالك الظلمات فى هذا العصر ، وهو حضرة صاحب الفضيلة العلامة الجليل ، والفهامة النبيل ، أعلم الخطباء فى مصره ، وأخطب العلماء فى عصره ، مالك أزمة البراعة ، فى القاء النصح على الجماعة ، ذلك الحبر البحر الطامى ، الشيخ «مصطفى أبوسيف الحمامى» خطيب الحرم الزينبى بمصر القاهرة، حفظه الله وأكثر مفاخره ومآثره ، وهو صاحب «منتهى آمال الخطباء ، ومنار المسترشدين النبلاء» ثالث دواوينه الكبار ، وأهمها فى القدر والمقدار ، دوّنه حاويا من روائع الخطب المنبرية مايحق له كل اجلال وإكبار ، فافتتح فاتحته بمقدمة جليلة تجلّ عن الوصف ، أرجو القارئ أن يعافينى من وصف جلالة قدرها ، وأن يتفضل هو بالاطلاع عليها ليعرف كيف هى ؟ ثمّ مضى على سرد تلك الخطب الزاهية فصلا إثر فصل ، مبتدئا بخطبته المنوّهة بنعمة العقل ، الذى يرتكز عليه كل سعادة وكل نبل ، ولم يدع فى خطبه موضوعا من المواضيع التى تهمّ الجمهور وتعمّ شئونهم ، إلا وقد وفاه حقه من البيان الذى يملأ أسماعهم وعيونهم ، وقد عنى عناية خاصة بمداواة أمراض القلوب ، لحملها على الاقبال الى علام الغيوب ، ولو أخذنا نسرد مافى خطبه من المزايا ، فى قمع تلك البدع والرزايا ، واستقصاء موبقات العصر ، والعوائد الضارّة بمصر ، لطال بنا الكلام ، من غير أن نقوم بواجب المقام ، وقد خرّج الأحاديث إثر كل خطبة وعلق تعليقات بديعة على مواضع يحتاج اليها الناظر ويعرف قدرها الفاضل المحقق ، فهاك الديوان ، وهو لما قلنا شاهد عيان ، وكم لمؤلفه الجليل من مواقف شريفة ، فى إحياء السنن وإماتة البدع السخيفة ، وكم له من مؤلفات تخاطفها الناس ، علما منهم ببركات تلك الأنفاس ، ولاعجب فى ذلك فان هذا المؤمن المخلص الطاهر السيرة ، النقىّ السريرة ، مؤلف تلك المؤلفات الشهيرة – ممن فجر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ، ومكنه من زرع بذورها فى القلوب الميتة بعذب بيانه ، وقد طال أمد اضطلاعه بالكتاب والسنة حتى امتاز ، بأن ورث بذلك من أخصّ أسرار الاعجاز ، ما يمتلك به قلوب جمهور المسترشدين على اختلاف مداركهم وعقولهم، فانجذبت ألبابهم

(ل)

الى مايدعو اليه من الحق بحسن قبولهم ، فترى الألوف المتحشدة فى الحرم الزينبى أثناء إلقائه الخطب ، مستمعين اليه بأذن واعية جاثين على الركب ، تسيل عيونهم ، وتنهمل شئونهم ، وتبدو عليهم آثار التوبة والانابة ، وتظهر على دعواتهم أنوار الاجابة : وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . فحق لنبلاء الخطباء ، ونبهاء العلماء ، وسائر المسترشدين النجباء ، فى جميع الأنحاء ، أن يستبشروا بظهور هذا الكتاب ، الحقيق بكل اعجاب ، فان فيه ضالتهم المنشودة ، وبغيتهم المقصودة ، ولهم فيه أسوة حسنة ، وقدوة صالحة ، وذكرى للذاكرين ، وعظة للمتعظين ، فجزى الله سبحانه مؤلفه على ذلك أحسن جزاء ، وأدام النفع به فى جميع الأنحاء ، انه سميع قريب مجيب الدعاء ، وله الحمد فى الآخرة والأولى ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

كتبه الفقير اليه سبحانه

محمد زاهد الكوثرى

عفى عنه

جوهرة

أحد العارفين بالله ، بل الولى الذى ليس فى ولايته الكبرى أدنى اشتباه ، من ملأت الدنيا تآليفه النيرة ، وكان السيف الذى لا يغمد عن أعداء الاسلام ، الشيخ محمد الجنبيهى المعروف بالمسكين ، كتب — رحمه الله — هذه القصيدة سنة ١٣٤٢ هـ يظهر بها ما يكنه من ناحيتى وناحية خطبي وارشادى ، ولا تزال محفوظة عندى لليوم بخطه الكريم ، أنشرها هنا تبركا بكلامه نفعنا الله به ، قال أمطر الله جدثا ضمه فيوض كرمه واحسانه :

بسم الله الرحمن الرحيم

كل المواعظ جمعت	ياقوم فى خطب الخطيب
هل تدر من أعنيه يا	من وصفه الفطن اللبيب
أعنى أبا سيف الذى	ان قال يارب أجيب
شاب(١) سما عن صبوة	ورقى المنابر عن قريب

(١) لا يمد لفظ شاب للوزن .

فتراه فى ارشاده يهدى الى الرب الرقيب
فاذا أردت مكملا فى حاله فهو الحسيب
فاق الشيوخ تقدمو ه وقد حذا حذو الحبيب
يهدى الضليل بحاله ومقاله السلس العجيب
فلسانه يصف الهدى والقلب أواه منيب
يا «مصطفى» لك لهجة فى الزجر كالسهم المصيب
تذر الدموع على الخدو د كأنها الودق الصبيب
لافضّ فوك ولا خلت منك المنابر ياخطيب
فلأنت أشفى واعظ للقلب يانعم الطبيب
فالجأ لربك فى القبو ل فانه الربّ المجيب
لتنال فوز ذوى التقى ومكانة العبد الأديب
إذ أنت «حامى» وكم طهرت من شك مريب
لازلت تنذرنا اللقا وتخيفنا اليوم العصيب
حتى نلوذ بأحمد الفاخر الحسب النسيب
صلى عليه حبيبه ماهتزّ غصن أو قضيب

المسكين : محمد الجنبيهى
عفا الله عن زلاته آمين .

جوهرة

حكيم ينثر جواهر الحكمة ، وعالم من أكابر العلماء ، وغيور يلتهب غيرة على دينه ، وأديب لايبعد من يقول انه من أعلام الأدب ، وشاعر تقول قصيدته هذه انه من الشعراء القليلى الأمثال ، هو حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان الشدموهى أحد أفاضل المدرسين بالمدارس الملكية ، قال أحيا الله به دولة العلم والأدب :

«الى منار الاسلام الحمامى»

أصبت مفاخرا وأصبت قيلا فغرّد بلبلا أو نح هديلا
هو الاسلام تنشره بنودا على الدنيا وتقرأه فصولا

حمى متمنـــع أمسى مباحا وروض أزهر أضحى محيـلا
ففاخر بـــه الدنيا جميعا وأكثر فى نواحيـــه العويلا
تأمل هل ترى الاصروحا من الاســـلام توشك أن تزولا
وهـــل أبقت لنا الأيام إلا يـــسيرا من مفاخره قليلا
سوى عبث يهجنها الليالى فلاقت بعـــد اشراق أفولا
ومبعث عزة عز المـــوالى لديه وأصبح المولى ذليـــلا
طغى الغرب الظلوم بفاتنات من الأحداث سممت العقولا
مضـــت بالدين والدنيا جميعا وجرت فى معاقلنا الذيولا

❁

« أباسيف » وأنت أخو مضاء يقد الدرع والسيف الصقيلا
صـــيالا . ذل من ضعف جانا وعزما . أنكر الدين الخليـــلا
ومثلك أوسع الاســـلام نصرا يعز به ، وأولاه الجميـــلا
اذا اعتكرت سماء المجـــد يوما بغاك الى هدايتـــه دليلا
سما لك فيـــه آيات جسام بهرن كواكبا ، وجرين نيلا
ملكت بهن ناصيـــة المعالى وحزت بهن ذكرا لن يزولا
وأنت اليوم تفعم جانبيـــه هـدى غضا ، ومنتهجا نبيلا
خـــلود فى المكارم تبتغيها ومثلك مصطفى أطلب الجليلا
منارك . هل رأيت الروض رفت خمائله أو الراح الشـــمولا
رشادك . هل رأيت الشمس تحيي أشـــعتها الجوانب والحقولا
عطائك . هل رأيت البرء يسرى فتنعش روحه قلبا عليـــلا
مواهب جـــل مولاها فجلت رأينا الله فيها والرســـولا

❁

أخى وموفق الداعـــين رأيا وأوضحهم الى الحسنى سبيلا
عقلت شواردى وبهرت شعرى فلن جـــوانما وجنا خجولا
لدى عف الخلائق لوذعى أشم مناقبا ، وأجل قيـــلا
أبر فعاد منثورى نثارا لديه ، وعاد منظومى فضـــولا

⁂

دعاة الدين أن تبـقى لواه | يرفّ على جوانبه ظليـلا
يسلسل مجده ، ويذود عنه | ويروى فضـله جيلا فجيلا

عبد الجواد رمضان

خاتمة هذه الجواهر القيمة

وانا نختم هذه الجواهر الغالية بجوهرة أستاذ العلماء فى هذا العصر ، شمس العلم التى لاتغرب وان غربت شمس السماء، وبحر الفضل الذى لايتغير وان تكاثرت الدلاء ، حضرة صاحب الفضيلة أستاذنا الشيخ محمد بخيت المطيعى ـ أخرنا تقريظه ـ وان كان حقـه التقديم على الجميع ـ تفاؤلا بأن يكون الختام مسكا ، قال مد الله فى أجله ملاذا للعلم والعلماء :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بيـده قلوب عباده يصرفها كما يشاء ، وأشهد أن لاإله إلا الله شهادة العارفين الفضلاء ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله سيد المهتدين الهادين ، اللهمّ صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

﴿أما بعد﴾ فقد اطلعت على ديوان «منتهى آمل الخطباء ومنار المسترشدين النبلاء» لولدنا الأستاذ الفاضل الشيخ «مصطفى أبو سيف الحمامى» خطيب مسجد السيدة زينب رضى الله عنها ، فوجدته ديوانا ما أرقّ مبانيه ، وما أدقّ معانيه . جمع من أنواع الوعظ والارشاد ، ماياخذ بمجامع القلوب، كيف لا ومؤلفه من صفت سريرته ، وحسنت سيرته ، فلبست عباراته حللا من الاخلاص فألانت القلوب القاسية ، وامتزجت بأرواح السامعين فانقادت لطاعة الله الأشباح المتعاصيه ، فاذا انذر خشعت القلوب والأبصار ، واذا بشر اشرأبت الأعناق الى معارج الأطهار الأبرار ، فجزاه الله عن الأمة الاسلامية خيرا ، وأجزل له على ما أفاد أجرا ، يكون له يوم القيامة ذخرا ، انه السميع ذو الانعام ، المحسن المتفضل على الدوام آمين .

محمد بخيت المطيعى الحنفى

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين آمين .

منتهى آمال الخطباء

و

منار المسترشدين النبلاء

تأليف

حضرة صاحب الفضيلة العالم الجليل الشيخ

ابو يوسف مصطفى الحمامي

احد علماء الازهر الشريف

وخطيب الحرم الزينبي ، حفظه الله

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر

وباشر طبعه محمد أمين عمران

محرم سنة ١٣٥١ هـ — رقم ٤٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم

١ — مقدمة

يامَنْ تنتهى إليه الآمال ، إذا عزَّ مُراد ، وبيده وحده كلُّ نوال ، ترجوه العباد ، يامَنْ أبدع هذا الوجود ، من غير نصير ، وأبقاه بمحض الفضل والجود ، وإليه المصير ، يامَنْ تشهد ذرّاتُ الأرضِ والسموات ، وما فيهما من عوالم ، بأنَّه ليستْ لحكمته أبداً غايات ، ولا لعلمه من خواتم ، يامَنْ يهدى وإنْ عظم الإغواء ، لأنَّه مالكُ القلوب ، ويُضِلُّ وإنْ بالغ فى الوعظ الخطباء ، هو علَّامُ الغيوب .

أحمدك يا مولاى وأنا أعرف مَنْ أنت ، وما لك مِنْ نِعَم ، حمداً به أستزيدُ ما علىَّ به أنعمتَ ، يا دائم الكرم ، أحمدك ثم أحمدك ليس فقط باللسان ، وما حمدُ هذا العضو الصغير ، بل تحمدك كلُّ جوارحى معها الجنانُ ولا أزالُ فى تقصير . كيف لا وكلُّ نعمة أنت مُسديها ، مضتْ أو تكون ، لا فرق بين ظاهرها وخافيها ، ومنها حمدى الممنون ، لذلك أحمدك ولا أحمدُ سواك ، لأنّه ليس لسواك إنعام ، وإنْ أنعم غيرُك فمن نُعماك ، يا ذا الجلال والإكرام . لكنْ للوقوف عند تأديبك المحبوب ، أحمدُ مظاهر الإحسان حمداً على ضربٍ من المجاز المندوب ، والحقيقةُ لا تخفى على الأذهان .

وأشهد أن لا إله إلا أنت ، شهادة المؤمنين ، يؤمن بها معى كما آمنت ، جميع العالمين ، من لم يشهد بمقاله شهد الحال ، رغم أهل الجحود ، فإن خلق ذرة محال ، ثم محال على غير رب الجود ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا رسول الله ، إلى الخلق أجمعين ، وما من مخلوق إلا وهو رحمته المهداه ، حتى الملائكة والنبيين ، يارب صل وسلم وبارك عليه ، كما كرمك يشاء ، وأدم توجيه كل ذلك إليه ، وجازه عنا خير الجزاء ، وصل يا سيدى على هداة خلقك الأنبياء ، وعلى من أرسل الجميع إليه ، ممن تفضلت فأنعمت عليهم فغدوا سعداء ، يعرفون المنعم ويرغبون فيما لديه .

« أما بعد » فإلى كل من يتسنم ذروة المنابر ، وإلى كل من يريد سلوك سبيل الرشاد ، أقدم بيد الأدب والإخلاص .

(منتهى آمال الخطباء ، ومنار المسترشدين النبلاء)

أو

صيقل القلوب ، من أدران الذنوب

وهو الديوان الذى عززت به أخويه « تاج الخطب المنبرية » و « النفحات الزينبية » وبه يبلغ ما كتبته من الخطب قريبا من أربعمائة خطبة ، كل خطبة لها قيمتها وفائدتها إن شاء الله .

٢ – ما الذى دعا إلى هذا الاكثار

والذى حرضنى على الإكثار من الخطب إلى هذا الحد الذى لا أعلم كاتبا وصل إليه قبلى – ظنى أن الخطبة بعد طبعها ونشرها تلقى بألسنة

مُرْشِدِي الخَلْقِ الخُطَبَاءِ عَلَى مَا لاَ يَعْلَمُ عَدَدَهُ إلاَّ اللهُ مِنَ المُؤْمِنِينَ فى مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ، وَلاَ تَخْلُو تِلْكَ الجُمُوعُ العَظِيمَةُ مِنْ فِطَرٍ سَلِيمَةٍ ، وَاسْتِعْدَادَاتٍ طَيِّبَةٍ ، تَتَلَقَّى النَّصِيحَةَ بِالقَبُولِ ، فَتَمُدُّ يَدَ المَتَابِ إِلَى ثِيَابِ الفُسُوقِ ، فَتُمَزِّقُهَا تَمْزِيقًا ، وَتُبَادِرُ إِلَى لِبَاسِ التَّقْوَى الَّذِى لاَ يَتَدَنَّسُ وَلاَ يَبْلَى وَلاَ تَنْظُرُ العُيُونُ إِلَيْهِ إلاَّ بِكُلِّ إِجْلاَلٍ وَاحْتِرَامٍ ، فَتَلْزَمُ لِبَاسَهُ لُزُومَهَا لِمَا بِهِ حَيَاتُهَا « وَلأَنْ يَهْدِىَ اللهُ عَلَى يَدَيْكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ » - وَلأَنِّى أَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ اليَوْمَ أَعْرَضُوا عَنِ العِلْمِ الإِلهِيِّ الَّذِى لاَ تَصْلُحُ النُّفُوسُ إلاَّ بِهِ - كَمَا يُعْرِضُ الكَرِيمُ عَمَّا لاَ يَنْبَغِى ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَزَاحِمْهُمْ فى مَجَالِسِهِمْ ، وَلاَ تَتَهَيَّبْ أَنْ تَقُولَ لَهُمْ : هذَا حَلاَلٌ وَهذَا حَرَامٌ ، وَانْظُرْ إِلَى أَىِّ حَدٍّ يَكُونُ فِرَارُهُمْ مِنْكَ إِذَا رَأَوْكَ ، إِذًا لاَ بُدَّ مِنْ حِيلَةٍ يَصِلُ بِهَا المُرْشِدُ إِلَى إِيصَالِ إِرْشَادِهِ إِلَيْهِمْ لأَنَّ تَرْكَهُمْ بِذَلِكَ الإِعْرَاضِ خَطَرٌ لاَ يُدَانِيهِ خَطَرٌ ، وَلاَ حِيلَةَ أَنْفَعُ مِنَ التَّلَطُّفِ بِهِمْ حَتَّى إِذَا مَا حَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ وَدَخَلُوا المَسْجِدَ لِيُؤَدُّوا فَرِيضَتَهَا وَثَبَ هُوَ وَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ أَعْلَى المِنْبَرِ مَا هُمْ فى حَاجَةٍ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ دِينِهِمْ أَوْ دُنْيَاهُمْ فَيَسْمَعُونَهُ رَغْمَ أُنُوفِهِمْ ، وَإِذَا سَمِعُوا انْتَفَعُوا عِلْمًا وَعَمَلاً ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَفِعُ عِلْمًا فَقَطْ ، وَكَمْ وَرَاءَ العِلْمِ مِنْ فَوَائِدَ ، وَلاَ بُدَّ مِنْ أَحَدِ هذَيْنِ الأَمْرَيْنِ « فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ »

٣ — أصناف من الأمة لا ينتفعون بالخطباء

وَإِنَّا نُنَبِّهُ هُنَا عَلَى أَصْنَافٍ مِنَ الأُمَّةِ وَقَعَ فى النَّفْسِ اليَأْسُ مِنْ صَلاَحِهِمْ

مِنْ طَرِيقِ الخَطِيبِ إِنْ تَمَادَوْا عَلَى مَاهُمْ عَلَيْهِ ، نَذْكُرُهُمْ هُنَا لَعَلَّهُمْ يَتَنَبَّهُونَ .

٤ — صنف منهم

صِنْفٌ أَخَذَتِ الدُّنْيَا سَمْعَهُ ، وَبَصَرَهُ ، وَعَقْلَهُ ، وَأَنْسَتْهُ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ وَأَحْبَابَهُ بَلْ وَأَنْسَتْهُ دِينَهُ وَرَبَّهُ ، وَأَصْبَحَ لَا مُتَّسَعَ فِى قَلْبِهِ لِسِوَاهَا ، فَهُوَ مَعَهَا كَمَا يَقُولُ القَائِلُ :

عَرَفْتُ هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا

وَكَيْفَ يَنْتَفِعُ مِثْلُ هٰذَا بِعِلَاجِ الخَطِيبِ مَهْمَا كَانَ نَاجِعًا وَمُفِيدًا ؟ .

٥ — صنف آخر

وَصِنْفٌ بَلَغَ بِهِ الْإِعْجَابُ بِنَفْسِهِ مَبْلَغًا جَعَلَهُ غَيْرَ مُسْتَعِدٍّ لِأَنْ يَسْمَحَ بِالِالْتِفَاتِ إِلَى إِنْسَانٍ ، وَإِذَا كَانَ لَا يَلْتَفِتُ فَكَيْفَ يُقْبِلُ عَلَى الخَطِيبِ وَيَتَحَرَّى سَمَاعَ مَا يَقُولُ لِيَنْتَفِعَ بِهِ ، إِنَّمَا يَسْمَعُ الخَطِيبَ مَنْ يَظُنُّ بِنَفْسِهِ النَّقْصَ فَهُوَ يَحْرِصُ عَلَى سَمَاعِهِ لِيَتَكَمَّلَ بِمَا سَمِعَ مِنْهُ مِنْ آدَابٍ . أَمَّا هٰذَا المَغْرُورُ المَفْتُونُ فَهُوَ نُسْخَةٌ مِنْ شَخْصِ القَائِلِ .

فَلَا وَأَبِيكَ لَا أَخْشَى انْتِقَاصًا وَلَا وَأَبِيكَ لَا أَرْجُو ازْدِيَادَا

وَمَنْ لَا يَسْمَعُ مِنَ الخَطِيبِ أَنَفَةً وَكِبْرًا كَيْفَ يَنْتَفِعُ بِهِ ؟

٦ — صنف آخر

وَصِنْفٌ يَدْخُلُ المَسَاجِدَ بِحُكْمِ العَادَةِ وَهَوَاهُ فِى خَارِجِهَا ، فَإِذَا جَلَسَ بِهَا كَانَ كَمَنْ يَجْلِسُ عَلَى جَمْرٍ ، وَهٰذَا بِالضَّرُورَةِ يَكُونُ شَبَحُهُ بِالمَسْجِدِ ، وَقَلْبُهُ

فى أوْدِيَةِ مَحْبُوبَاتِهِ ، وَمَنْ فى الدُّنْيَا يُصَدِّقُ أَنَّ هذَا يَسْمَعُ صَوْتَ الخَطِيبِ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِهِ ؟ .

٧ — صنف آخر

وَصِنفٌ سَمِعَ أَنَّ خُطَبَ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم كَانَتْ قَصِيرَةً فَذَهَبَ خَيَالُهُ فى هذَا القِصَرِ إِلَى آخِرِ حَدٍّ مُمْكِنٍ ، وَهذَا الصِّنْفُ لَا يَنْجُو مِنَ اعْتِرَاضِهِ وَتَشْنِيعِهِ خَطِيبٌ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ لِأَنَّهُ لَا يَسْمَعُ خُطْبَةً مَهْمَا قَصُرَتْ إِلَّا وَتَكُونُ دُونَ مَا تَخَيَّلَ فى خُطَبِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم ، وَكَيْفَ يَنْتَفِعُ بِالْخَطِيبِ مَنْ يَعْتَرِضُ وَيُشَنِّعُ عَلَيْهِ ، وَيَرَاهُ بَعِيدًا عَنْ عَمَلِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم ، وَإِنَّا مُبَيِّنُونَ فَسَادَ هذَا الخَيَالِ فِيمَا يَأْتِى مِنْ هذِهِ المُقَدِّمَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، فَلْيَنْتَظِرِ القَارِئُ الكَرِيمُ .

٨ — صنف آخر

وَصِنفٌ يَغْضَبُ وَتَمْلِكُهُ الحِدَّةُ إِذَا سَمِعَ خَطِيبًا الْتَزَمَ تَقْيِيدَ خُطَبِهِ بِفَوَاصِلَ وَمَقَاطِع ، وَلَا يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ الخُطْبَةُ إِلَّا نَثْرًا مُرْسَلًا لَا رَائِحَةَ فِيهَا لِتِلْكَ المَقَاطِعِ، وَكَيْفَ يَنْتَفِعُ رَجُلٌ بِخُطْبَةٍ هُوَ مِنْهَا غَضْبَانُ وَعَلَيْهَا سَاخِطٌ ، وَلَا وَجْهَ لِهذَا الصِّنْفِ فى ذٰلِكَ فَإِنَّ الخُطْبَةَ لَيْسَتْ إِلَّا كَلَامًا يُقْصَدُ بِهِ حَثٌّ عَلَى فَضِيلَةٍ، أَوْ تَنْفِيرٌ مِنْ رَذِيلَةٍ، وَهذَا يَتَحَقَّقُ بِأَىِّ كَلَامٍ مُطْلَقٍ أَوْ مُقَيَّدٍ، وَلَوِ الْتَفَتَ هذَا الصِّنْفُ لَرَأَى عَمَلَ خُطَبَاءِ هذِهِ الأُمَّةِ عَصْرًا بَعْدَ عَصْرٍ لِلْيَوْمِ عَلَى رِعَايَةِ تِلْكَ الفَوَاصِلِ فى خُطَبِهِمْ وَهذِهِ دَوَاوِينُهُمْ بَيْنَ أَيْدِينَا عَلَى بُعْدِ عُصُورِهِمْ

لَيْسَ فِيهَا دِيوَانٌ وَاحِدٌ لَمْ يُبْنَ عَلَى تِلْكَ الْمَقَاطِعِ ، وَأَنَا إِذَا قُلْتُ عَمَلَ الْخُطَبَاءِ فَإِنِّي أَقُولُ عَمَلَ هٰذِهِ الْأُمَّةِ بِأَسْرِهَا فَإِنَّ الْخُطَبَاءَ يَقُولُونَ ، وَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَبَاقِي الْأُمَّةِ يَسْمَعُ وَيُقِرُّ بِمَا فِيهِمُ الْبَاقِي مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَمَاذَا يَقُولُ الْإِنْسَانُ فِي رَجُلٍ يَغْضَبُ مِنْ عَمَلِ أُمَّةٍ بَلْ خَيْرِ أُمَّةٍ رَآهَا هٰذَا الْوُجُودُ ، بَلْ لَوْ نَظَرَ هٰذَا الصِّنْفُ لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَهُوَ أَبْلَغُ الْكَلَامِ - لَوَجَدَهُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ مُقَيَّدًا بِالْفَوَاصِلِ ، فَلَوْ كَانَ هٰذَا التَّقْيِيدُ عَيْبًا فِي الْكَلَامِ يَغْضَبُ السَّامِعُونَ مِنْهُ لَتَنَزَّهَ عَنْهُ الْكِتَابُ الْكَرِيمُ ، بَلْ لَوْ تَأَمَّلَ هٰذَا الصِّنْفُ قَلِيلًا لَرَأَى أَنَّ سُورَةَ ق الَّتِي كَانَ يَلْتَزِمُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخُطْبَةَ بِهَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ عَلَى مَا يَأْتِي - أَشَدُّ ظُهُورًا فِي رِعَايَةِ الْفَوَاصِلِ ، وَلَسْتُ أَسْتَبْعِدُ أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ هُوَ الْأَصْلَ الَّذِي يَسْتَنِدُ إِلَيْهِ خُطَبَاءُ الْأُمَّةِ فِي كُلِّ عَصْرٍ فِي الْتِزَامِ الْمَقَاطِعِ فِي خُطَبِهِمْ ، بَلْ وَلَا أَسْتَبْعِدُ أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ مِنَ الْأَدِلَّةِ الَّتِي بَنَى عَلَيْهَا السَّادَةُ الْمَالِكِيَّةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمُ اشْتِرَاطَ السَّجْعِ فِي الْخُطَبِ بِحَيْثُ تُعَادُ الْخُطْبَةُ لَوْ كَانَتْ نَثْرًا كَمَا رَأَيْتُ ذٰلِكَ فِيمَا كُتِبَ عَلَى ابْنِ تُرْكِي ، وَعَلَى الزُّرْقَانِي ، وَعَلَى أَبِي الْحَسَنِ ، وَأُشِيرَ إِلَيْهِ فِي الشَّرْحِ الصَّغِيرِ - مِنْ كُتُبِهِمْ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْخُطَبَاءِ وَجْهٌ فِي الْتِزَامِ الْمَقَاطِعِ فِي خُطَبِهِمْ إِلَّا رِعَايَةَ هٰذَا الْمَذْهَبِ لَكَانَ كَافِيًا وَفَوْقَ الْكِفَايَةِ ، كَيْفَ لَا ؟ وَمَنْ خَطَبَ نَاثِرًا يَكُونُ فَاعِلًا مَا بِهِ يَنْفَضُّ مِنْ حَوْلِهِ كُلُّ الْمَالِكِيَّةِ فَلَا يَنْتَفِعُونَ بِوَعْظِهِ ، وَلَا يُصَلُّونَ خَلْفَهُ ، وَمَذْهَبُ الْمَالِكِيَّةِ مِنَ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ الْمُحْتَرَمَةِ الْمَعْمُولِ بِهَا عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَّةِ ، وَمَعْرُوفٌ أَنَّ مَذْهَبَ سَيِّدِنَا مَالِكٍ يَنْقُلُ عَمَلَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَبْلَهُ وَيَعْتَبِرُهُ حُجَّةً لِلْعَمَلِ لَا تُقَابِلُهَا

حُجَّةٌ حَتَّى وَلاَ الحَدِيثُ الصَّحِيحُ ، وَمَعْنَى هذا أَنَّ سَيِّدَنا مَالِكاً رَضِيَ اللهُ عَنهُ رَأى الخُطَبَ قَبلَهُ مُقيَّدَةً بِالسَّجْعِ فَجَعَلَهُ شَرْطاً فى الخُطَبِ ، وَيُؤَيِّدُ هذا أَنَّ عُلَماءَ الفَرائِضِ نَقَلُوا فى كُتُبِهِمْ ، وَمَعَاذَ اللهِ أَنْ يَنْقُلُوا إِلاَّ صَحِيحاً : أَنَّ سَيِّدَنا عَلِيّاً رَضِيَ اللهُ عَنهُ كانَ يَخْطُبُ يَوْماً عَلَى المِنْبَرِ وَيَقُولُ : الحَمْدُ لِلهِ الَّذِي يَحْكُمُ بِالحَقِّ قَطْعاً ، وَيَجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ، وَإِلَيْهِ المَآلُ وَالرُّجْعَى ، وَحِينَئِذٍ سَأَلَهُ سَائِلٌ عَنْ مَسْأَلَةٍ فى الإِرْثِ تُسَمَّى لِلآنَ المِنْبَرِيَّةَ ، فَقالَ فى جَوابِها وَهُوَ مَاضٍ فى خُطْبَتِهِ : صارَ ثُمْنُ المَرْأَةِ تُسْعاً . وَسَيِّدُنا عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ مِنْ أَصْحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَحَدُ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ الَّذِينَ قالَ لَنا فِيهِمْ نَبِيُّنا ﷺ « عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي »

وَهذا النَّقلُ عَنهُ يَقُولُ فى وُضُوحٍ : إِنَّ السَّجْعَ فى الخُطَبِ يَرْجِعُ إِلَى عَهْدِ الصَّحابَةِ رِضْوانُ اللهِ تَعالَى عَلَيْهِمْ . إِذَنْ مَنْ يُقَيِّدُ خُطَبَهُ بِالفَواصِلِ أَفْقَهُ مِمَّنْ يُطْلِقُها لِأَنَّ فِعْلَهُ هذا لا يُنْكِرُهُ عَلَيْهِ مَذْهَبٌ مِنَ المَذاهِبِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ - فِيما أَعْلَمُ - إِنَّ تَقْيِيدَ الخُطَبِ بِفَواصِلَ لَيْسَ بِسائِغٍ فِيها ، لٰكِنْ هذا مَذْهَبُ عالِمِ المَدِينَةِ يَقُولُ : إِنَّ النَّثْرَ المُطْلَقَ فى الخُطَبِ لَيْسَ بِسائِغٍ وَتُعادُ الخُطْبَةُ لِفَقْدِهِ . إِذَنْ نَقُولُ : الخُطْبَةُ المُقَيَّدَةُ مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِها بَيْنَ المَذاهِبِ الأَرْبَعَةِ وَالخُطَبُ المُرْسَلَةُ مُخْتَلَفٌ فى صِحَّتِها ، وَلا شَكَّ أَنَّ العَمَلَ إِذا كانَ مُتَّفَقاً عَلَى صِحَّتِهِ خَيْرٌ مِنهُ إِذا كانَ مُخْتَلَفاً فِيهِ . ثُمَّ هؤُلاءِ عُلَماءُ الإِسْلامِ صَغِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ مُتَقَدِّمُهُمْ وَمُتَأَخِّرُهُمْ لا تَكادُ تَرَى لِأَحَدِهِمْ كِتاباً إِلاَّ وَتَراهُ بَدَأَهُ بِخُطْبَةٍ سَجْعِيَّةٍ يَقُولُ فِيها ما يَقُولُ ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْها إِلَى ما يُرِيدُ فى تَأْلِيفِهِ

وهاهي ذه الكتب بين أيدينا ناطقة بما نقول، فهل أجمع هؤلاء العلماء، وهم أئمة الإسلام، وقادة الخلق، وورثة الأنبياء — على ما تنفر منه الطباع وتأباه الأسماع، ويعاب فاعله من أجله، ويهجر شر هجر لفعله، بل هؤلاء علماء البلاغة ونقاد الكلام وصيارفه أجمعوا على أن السجع من محسنات الكلام التي تزيده حلاوة في السمع وجمالاً بين سائر الكلام، وأقر هذا علماء الإسلام بلا مخالف، وهاهم أولاء لليوم يتعلمون أنه نوع من المحسنات اللفظية التي هي أحد قسمي علم البديع، فليقل لنا صنف المعترضين على الخطب المقيدة: أي الفريقين نصدق؟ فريقهم أم فريق كل علماء الإسلام، وإذا صدقناهم فهل يرضون لنا هذا الموقف، لكننا لا ننكر مع هذا كله أن من السجع ما يذم، وتنفر منه الطباع، وتمجه الأسماع حقاً، ويلمنه الإنصاف لمناً، وذلك هو السجع المتكلف الذي يصدر عن ضعف في قائله وذوق مريض — يحكم عليه حرف الفقرة الأخير، فلا يجد في قواميس محفوظاته إلا كلمة بعيدة عن المعنى فيوردها ويحكم على المعنى أن يتبعها وهو غير مستعد لأن يتبعها، وكهذا في الذم السجع الذي يصدر عن خبيث فصيح يريد أن يروج معنى باطلاً فيضعه في أسجاع حلوة طلية لتنسى النفوس قبح المعنى لحلاوة اللفظ وانسجامه، فيكون ذلك أشبه بالكهان الذين كانوا يروجون أكاذيبهم بأسجاعهم الطلية الحلوة. أما السجع الذي يكون عن فطرة سليمة، وذوق صحيح، وقوة بيان، ولا يعبر إلا عن الحق فهو سجع لا وجه أبدا لمن يستقبحه إلا إذا كان مطبوعا على

فِطْرَةٍ تَسْتَقْبِحُ الجَمالَ الَّذِى طُبِعَتِ النُّفُوسُ عَلَى حُبِّهِ فِى كُلِّ شَىْءٍ .

(إِذَا مَحَاسِنِى اللَّاتِى أُدِلُّ بِهَا   كانَتْ ذُنُوبِى فَقُلْ لِى كَيْفَ أَعْتَذِرُ)

كُلُّ هذا تَقُولُهُ غَيْرَ مُلْتَفِتِينَ لِحَقِيقَةٍ وَاقِعَةٍ مَلْمُوسَةٍ هِىَ إِلْفُ الخُطَبَاءِ فِى جَمِيعِ نَوَاحِى الأَرْضِ لِهٰذَا النَّوْعِ مِنَ الخُطَبِ بِحَيْثُ لَوْ كُلِّفُوا أَنْ يَخْطُبُوا مِنْ دِيوَانِ نَثْرٍ — وَلَيْسَ فِى الدُّنْيَا دِيوَانُ نَثْرٍ — لَكانَ هذا التَّكْلِيفُ مِنَ الأُمُورِ الَّتِى تَعُدُّهَا عَادَاتُهُمْ مُحَالاً ، وَلَنَبَذُوا ذٰلِكَ الدِّيوَانَ كَمَا يُنْبَذُ كُلُّ غَرِيبٍ لَيْسَ بِمَعْرُوفٍ :

(وَلِلنَّاسِ عَادَاتٌ إِذَا لَمْ تَقُمْ بِهَا   فَأَنْتَ بَغِيضٌ عِنْدَهُمْ وَثَقِيلُ)

وَمَنْ فِى الدُّنْيَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ أَنْ يَتْعَبَ فِى كِتَابَةِ دِيوَانِ نَثْرٍ ، ثُمَّ يَصْرِفَ مَا يَصْرِفُ فِى طَبْعِهِ ، وَتَكُونَ النَّتِيجَةُ إِهْمَالَ مَا كَتَبَ وَطَبَعَ . وَإِنِّى أُحِبُّ أَنْ لَا يَفْهَمَ القَارِئُ الكَرِيمُ أَنِّى بِمَا تَقَدَّمَ أَمْنَعُ الخُطْبَةَ النَّثْرِيَّةَ مَنْعاً ، لَيْسَ هذا غَرَضِى ، وَمَوْضُوعَ كِتَابَتِى ، أَنَا أُرِيدُ أَنْ يَرَى مَا ذَكَرْتُ صِنْفُ المُعْتَرِضِينَ عَلَى الخُطَبِ المُقَيَّدَةِ بِالفَوَاصِلِ ، وَمَا أَكْثَرَهُمْ فِى هذا الزَّمَانِ ، فَإِذَا رَأَوْهُ وَجَدُوا أَنْ لَا وَجْهَ لَهُمْ فِى الاعْتِرَاضِ فَأَقْلَعُوا عَنِ اعْتِرَاضِهِمْ وَأَقْبَلُوا عَلَى الخُطَبَاءِ الَّذِينَ يُقَيِّدُونَ خُطَبَهُمْ وَانْتَفَعُوا بِهِمْ بَدَلَ اعْتِرَاضِهِمْ ذٰلِكَ وَتَشْنِيعِهِمْ بِلَا عِلْمٍ ، إِنَّ مَذْهَبِى وَهُوَ مَذْهَبُ الإِمَامِ الأَعْظَمِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ : أَنَّ أَىَّ ذِكْرٍ لِلَّهِ تَعَالَى بِقَصْدِ الخُطْبَةِ يَكْفِى خُطْبَةً ، فَكَيْفَ يُظَنُّ بِى أَنِّى لَا أُجِيزُ أَنْ تَكُونَ الخُطْبَةُ نَثْراً ؟

٩ — صنف آخر

وَصِنفٌ لا يَنتفِعُ بالخُطَباءِ ، لا لأنَّهُ يدخُلُ المَساجِدَ ، ويُصَلِّى الجُمُعَةَ ويكونُ مِنهُ مابِهِ لا يَنتفِعُ ، لو كانَ هذا لَهانَ الأمرُ ، ولكِنَّهُ لا يَنتفِعُ لأنَّهُ لا يَدخُلُ المَساجِدَ ولا يَعرِفُها . وهذا الفريقُ قِسمانِ : قِسمٌ لا يُصَلِّى أصلاً لا جُمُعَةً ولا غيرَها لِغَفلَةٍ استَحكَمَت عِندَهُ جَعَلَتهُ لا يُقَدِّرُ ما يترتَّبُ عَلى تَركِ الصَّلاةِ مِن عُقوباتٍ فى الدُّنيا والآخِرَةِ ، ولهذا لا يدخُلُ المَساجِدَ حَتَّى يَسمَعُ الخَطِيبَ وَيَنتفِعُ بِهِ . والقِسمُ الثانى طائِفَةُ (المُتفَرنِجِينَ) الَّذِينَ يُسَمُّونَ أنفُسَهُم مَرَّةً (مُتمَدِّنِينَ) وأُخرى مُتنَوِّرِينَ ، وتارَةً أهلَ الثَّقافَةِ ، وأُخرى المَثَلَ الأعلى ، ولقد كَثُرُوا اليَومَ ثُمَّ كَثُرُوا وَهُم كُلَّ يَومٍ فى ازدِيادٍ ، وهذا الفريقُ طَرِيقُ عَدَمِ انتِفاعِهِ بالخَطِيبِ لَيسَ تَركَ الصَّلاةِ فَحَسبُ ، بَل لأنَّهُ يَرى المَساجِدَ ، وَمَن يَعتادُ المَساجِدَ ، بَل وَيَرى الدِّينَ جُملَةً مِنَ الأضاحِيكِ وَالخُرافاتِ ، وأحَطُّ مَخلُوقٍ فى نَظَرِهِ مَن يَنطِقُ بِلَفظِ الدِّينِ ، أو يُخاطِبُ رَجُلاً مِن أهلِ الدِّينِ ، وأكبَرُ سُبَّةٍ يَتَسابُّونَ بِها فيما بَينَهُم كَلِمَةُ (شَيخ) إذا وَجَّهَها أحَدُهُم لأخِيهِ تَنزِلُ عَلَيهِ كالصَّاعِقَةِ لا يُطِيقُ سَماعَها ، ولا يَحتَمِلُ شُعُورُهُ الرَّقِيقُ ألَمَها ، وَيَجعَلُ يُرغِى وَيُزبِدُ ، وَيَقُومُ وَيَقعُدُ ، وَيُوَجِّهُ إلى مَن رَماهُ بِها أشَدَّ أنواعِ الاحتِجاجاتِ ، وَرُبَّما بَتَّ حَبلَ صِلَتِهِ بِهِ ما دامَ حَيّاً ، وَلِماذا هذا كُلُّهُ ؟ لأنَّهُ شُبِّهَ بِوَرَثَةِ الأنبِياءِ العُلَماءِ ، لأنَّ هذِهِ الكَلِمَةَ يُعَبِّرُ بِها النَّاسُ عَنِ العالِمِ . وهذا الفريقُ نَذكُرُهُ لا لأنَّهُ مِن أهلِ الإسلامِ الَّذِينَ يُهِمُّنا أن يَنتَفِعُوا بِمَواعِظِ الخُطَباءِ ، وَنأسَفُ عَلى حِرمانِهِم مِن فَوائِدِ تِلكَ المَواعِظِ ، لا لا . إنَّنا

إنما نذكرهم ليحذروا فإنهم عندنا أشد خطراً من المسلول والمجذوم والأجرب وأمثالهم من أرباب الأمراض المعدية فإن هؤلاء عدواهم غاية ما تنتهي إليه أن تصل بالمؤمن إلى الموت الذي لا بد له منه وبعده يلاقي ما يلاقي من أنواع الكرامات الإلهية ، وأما أولئك فعدواهم – أعاذنا الله – لا عاقبة لها إلا النار الأبدية يلاقي فيها من وصلت إليه عدواهم أشد أصناف العذاب وآلمها ، كما يلاقيها أولئك الذين رقت عواطفهم إلى درجة أنهم لا يحتملون أن يقال لأحدهم (أنت شيخ) فليحذرهم المؤمنون ثم ليحذروهم .

١٠ — الباقي بعد هذه الأصناف مقصود الخطيب

إنا إذا قطعنا النظر عما سبق من الأصناف بقي لنا من عباد الله من هم موضع أمل الخطيب ، ومحل رجائه ، ومكان غرسه الذي لا يلبث أن ينمو ويثمر ثماره النافعة الطيبة ، كما أن الخطيب عندهم أحب شخص تقع عليه أعينهم وتسمع مقاله آذانهم ، ولا يعلم إلا الله قدر نفع الخطيب بهم ونفعهم بالخطيب ، ولا يزال هذا الوجود بخير ما دام هذا الطراز فيه ، وقد ترى أحدهم فتزدريه ، وما هو عند الله تعالى بالمزدرى .

وإذا كان هذا الديوان في خطب الجمعة فمن أنسب المناسبات أن يعنى ببيان شيء مما اختص به هذا اليوم العظيم ، ليكون المكلف على بصيرة مما يأتي فيه ويذر ، وإنا نتحف القارئ الفاضل بذلك في هذه المقدمة فنقول:

13

١١ — أي فضل يوم الجمعة ؟

رَوَى مُسْلِمٌ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدمُ ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ » وَالحَدِيثُ بِظَاهِرِهِ هٰذَا لَا يَسْمَحُ أَنْ يَكُونَ فَوْقَ يَوْمِ الجُمُعَةِ يَوْمٌ ، بَلْ وَلَا أَنْ يُسَاوِيَهُ يَوْمٌ .

١٢ — هل يوم الجمعة عيد ؟

رَوَى مَالِكٌ وَابْنُ مَاجَهْ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ السَّبَّاقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي جُمُعَةٍ مِنَ الجُمَعِ « يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ إِنَّ هٰذَا يَوْمٌ جَعَلَهُ اللهُ عِيداً فَاغْتَسِلُوا ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طِيبٌ فَلَا يَضُرُّهُ أَنْ يَمَسَّ مِنْهُ وَعَلَيْكُمْ بِالسِّوَاكِ »

١٣ — هل يوم الجمعة موعد مؤتمرات إسلامية ؟

اعْتَادَتِ الأُمَمُ الرَّاقِيَةُ اليَوْمَ أَنْ تَعْقِدَ اجْتِمَاعَاتٍ — تُسَمِّيهَا مُؤْتَمَرَاتٍ — مِنْ وَقْتٍ لِآخَرَ يَجْتَمِعُ فِيهَا ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهَا وَيَأْخُذُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُبْدِي لِإِخْوَانِهِ مَا عِنْدَهُ مِنْ ضَارٍّ لِلْأُمَّةِ يُبَيِّنُ مَبْلَغَ ضَرَرِهِ ، وَيَقْتَرِحُ بَعْدَ ذٰلِكَ القَضَاءَ عَلَيْهِ وَاسْتِئْصَالَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ — وَمِنْ نَافِعٍ يَشْرَحُ وُجُوهَ نَفْعِهِ وَيَقْتَرِحُ العَمَلَ عَلَى إِيجَادِهِ ، وَمِنْ هٰذِهِ الآرَاءِ تَتَجَلَّى أُمُورٌ يَرَاهَا المُؤْتَمَرُ ضَرُورِيَّةً لِصَلَاحِ الأُمَّةِ فَيُصْدِرُ أَمْرَهُ النِّهَائِيَّ بِهَا تُنَفَّذُ فِي الأُمَّةِ فِعْلاً وَتَرْكاً ، هٰذِهِ المُؤْتَمَرَاتُ هِيَ آخِرُ خُطْوَةٍ مِنْ خُطَى الرُّقِيِّ وَصَلَتْ إِلَيْهَا الأُمَمُ الغَيْرُ

الإسلامية في هذا الزمان ، هذه الخطوة التي هي وليدة الأزمنة المتأخرة عند غيرنا خلقنا نحن — معشر الأمة الإسلامية — عليها من مبدأ وجودنا مضى علينا عندنا ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن ، وليست هذه المؤتمرات عندنا كما هي عند تلك الأمم تعقد بعد فترات طويلة بل هي عندنا تتكرر كل أسبوع في يوم معين ولا يكون ذلك المتكرر في مكان واحد بين الأمة ، بل في كل بلد إسلامي بل تتعدد في البلد الواحد إذا كان كبيراً لا يحتمل أهله مكان واحد ، ذلك اليوم المعين الذي تجتمع فيه تلك المؤتمرات الإسلامية الأسبوعية هو يوم الجمعة وهو أفضل أيام الأسبوع لأجل هذه الاجتماعات وما يكون فيها ، وأما الأمكنة التي يفد إليها أعضاء المؤتمرات فهي المساجد بيوت الله تعالى وهي أفضل الأماكن لما يكون فيها يومياً وأسبوعياً من خير عظيم ، وأما أعضاء المؤتمر فهم كل مكلف من رجال المسلمين ، وليس حضور أولئك الأعضاء إليهم إن شاءوا حضروا ، وإن شاءوا لم يحضروا ، بل ذلك أمر واجب عليهم إن لم يقوموا به كانوا مهددين بعذاب عظيم ، وهم أفضل أهل الإسلام لمحافظتهم على أفضل أعمال الإسلام ، وأما خطباء هذه المؤتمرات فهم فريق من علماء الأمة يرتقون المنابر في كل أسبوع ، ومن فوقها يتحدثون مع إخوانهم أعضاء المؤتمر في شؤون مختلفة تتعلق بصلاح دينهم ودنياهم ، وليست هذه الخطب اختيارية للخطباء أن يتركوها ، بل هي أمر محتم لا بد منه لهذا الاجتماع ، وكلها تدور إما على تشخيص ما بالأمة من أدواء شخصية أو اجتماعية

ثُمَّ وَصْفِ الأَدْوِيَةِ الَّتِي تَقْتَلِعُهَا مِنْ جُذُورِهَا إِنِ اسْتُعْمِلَتْ، وَإِمَّا عَلَى وَصْفِ مَا بِهِ تُحْفَظُ صِحَّةُ مَنْ لَا مَرَضَ عِنْدَهُ لَا فِي دِينِهِ وَلَا فِي دُنْيَاهُ. وَقَدْ يُدَوِّنُ بَعْضُ الخُطَبَاءِ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ مَعَ إِخْوَانِهِ كُلَّ أُسْبُوعٍ، فَيَجْتَمِعُ مِنْ ذٰلِكَ الكَثِيرُ الطَّيِّبُ، ثُمَّ يَطْبَعُهُ وَيَنْشُرُهُ يَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ أَرَادَ كَهٰذَا الدِّيوَانِ وَشَقِيقِهِ – كَمَا تُحْفَظُ مَحَاضِرُ المُؤْتَمَرَاتِ وَتُطْبَعُ وَتُوَزَّعُ. قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إِذَا كَانَتْ هٰذِهِ المُؤْتَمَرَاتُ فِي الأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ قَبْلَ كُلِّ أُمَّةٍ وَبِهٰذِهِ الكَثْرَةِ، وَخُطَبَاؤُهَا مَنْ تَذْكُرُ فَضْلًا وَعِلْمًا فَمَا لِهٰذِهِ الأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ فِي تَأَخُّرٍ فِي عَهْدِهَا الأَخِيرِ عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الأُمَمِ الَّتِي عَنْهَا أَخَذَتْ هٰذِهِ المُؤْتَمَرَاتِ؟ فَأَقُولُ إِنَّ جَوَابَ هٰذَا السُّؤَالِ أَلِيمٌ وَشَدِيدٌ وَلَا بُدَّ مِنَ الإِشَارَةِ إِلَيْهِ لِيَسْكُتَ السَّائِلُ سُكُوتَ اقْتِنَاعٍ. لِيَقُلْ لِي السَّائِلُ بِإِنْصَافٍ: هَلْ لِمَنْ لَا يُطَاعُ رَأْيٌ، وَهَلْ يَنْفَعُ الدَّوَاءُ المَرِيضَ إِذَا لَمْ يَتَنَاوَلْهُ، وَمَا قِيمَةُ الِاقْتِرَاحِ إِذَا لَمْ يُنَفَّذْ مُقْتَضَاهُ؟ إِنَّ غَيْرَنَا إِذَا قَرَّرُوا أَمْرًا عَمِلُوا بِكُلِّ مَا فِي وُسْعِهِمْ عَلَى تَنْفِيذِهِ فَانْتَفَعُوا بِآثَارِهِ، لِذٰلِكَ تَقَدَّمُوا فِي دُنْيَاهُمُ التَّقَدُّمَ الَّذِي نَرَاهُ، وَأَمَّا نَحْنُ فَيَصْدَعُ خُطَبَاؤُنَا كُلَّ أُسْبُوعٍ بِحَقَائِقَ جَلِيلَةٍ يُوصُونَ بِهَا إِخْوَانَهُمْ، وَلَا يَرَوْنَ فِي الخَارِجِ مَنْ يَعْمَلُ عَلَى تَنْفِيذِهَا كَأَنَّ الكَلَامَ لِغَيْرِهِمْ لَا يَعْنِيهِمْ سَمَاعُهُ وَلَا تَنْفِيذُهُ مَعَ أَنَّهُمْ لَا سَعَادَةَ لَهُمْ بِغَيْرِهِ، وَأُمَّةٌ هٰذَا حَالُهَا كَيْفَ تَتَقَدَّمُ فِي دِينٍ أَوْ فِي دُنْيَا، لِتَتَأَكَّدْ أَيُّهَا السَّائِلُ أَنَّ هٰذِهِ المُؤْتَمَرَاتِ إِذَا وَجَدَتْ مَنْ يُنَفِّذُ مَا يُلْقَى فِيهَا مِنَ اقْتِرَاحَاتٍ، وَيَعْمَلُ بِاهْتِمَامٍ عَلَى اسْتِعْمَالِ مَا يُوصَفُ بِهَا مِنْ عَقَاقِيرَ كَانَ لَهَا مِنْ حُسْنِ الأَثَرِ مَا يَبْهَرُكَ مِنْ تَقَدُّمٍ لَا يُسْبَقُ، وَفَضْلٍ لَا يُجَارَى، وَسُمُوٍّ

لا يطاول كما كان ذلك فى صدر الأمة، فما بعده بعصور متطاولة، ومن منافع هذه المؤتمرات الأسبوعية القهرية تعارف يحدث بين متناكرين، وتقرب يكون بين متباعدين، وصفاء يحل محل التنافر بين متعادين، وتجديد عهد بالإخوان يزيدهم حبا لبعضهم، فإن البعيد عن العين بعيد عن القلب، كما يقول المثل السائر: وكل خير إنما يكون بعد التحاب، ومنافع دنيوية كثيرة تتبادل بين الناس لولا الالتقاء ما تبادلوها، أما المنافع الأخروية فقد أشرنا إلى بعضها فيما يأتى.

١٤ — من تجب عليه الجمعة، ومن تسقط عنه؟

روى أبو داود أنه صلى الله عليه وسلم قال «الجمعة حق واجب على كل مسلم إلا على أربعة: عبد مملوك، أو امرأة، أو صبي، أو مريض» وروى الدارقطني أنه صلى الله عليه وسلم قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا مريضا، أو مسافرا، أو امرأة، أو صبيا، أو مملوكا، فمن استغنى بلهو أو تجارة استغنى الله عنه، والله غني حميد.

١٥ — هل فى ترك الجمعة شىء؟

روى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: (لقد هممت أن آمر رجلا يصلى بالناس، ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم» وروى مسلم كذلك أنه صلى الله عليه وسلم قال: «لينتهين أقوام عن ودعهم (أى تركهم) الجمعات، أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من

الغافلين . » وروى أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه، ومالك، وأحمد والدارمي أنه ﷺ قال : « من ترك ثلاث جمع تهاونا بها طبع الله على قلبه » وهو وعيد غني عن كل تعليق يبين غلظه وشدته .

١٦ — ماذا يفعل المؤمن يوم الجمعة ، وماذا له على ذلك ؟

روى البخاري وأبو داود واللفظ له أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من اغتسل يوم الجمعة ولبس من أحسن ثيابه ومس من طيب إن كان عنده ، ثم أتى الجمعة فلم يتخط أعناق الناس ، ثم صلى ما كتب الله له ، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يفرغ من صلاته كانت كفارة لما بينه وبين جمعته التي قبلها . » وروى أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « من غسل (أي باشر أهله فكان سببا في غسلها) واغتسل وبكر وابتكر (أي دنا من الخطيب حتى سمع باكورة خطبته وأولها) ومشى ولم يركب ودنا من الإمام ولم يلغ (أي يتكلم والخطيب يخطب) كان له بكل خطوة يخطوها عمل سنة أجر صيامها وقيامها » وروى أبو داود أنه صلى الله عليه وسلم قال : « يحضر الجمعة ثلاثة نفر : فرجل حضرها يلغو فذلك حظه منها ، ورجل حضرها بدعاء فهو رجل دعا الله إن شاء أعطاه وإن شاء منعه ، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحدا فهي كفارة إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام ، وذلك بأن الله يقول : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . » وتقدم من حديث مالك وابن ماجه قوله صلى الله عليه وسلم

« وعليكم بالسواك » . هذه آداب ينبغي أن يشتد حرص المؤمن على فعلها لما يترتب عليها من خير جزيل وأجر كبير . أما الغسل فلنظافة البدن ، وإزالة ما لعله يكون به من عرق ورائحة كريهة تؤذي المسلمين وهذا الإيذاء ليس بالأمر الهين ، ولذلك شدد الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الغسل حتى قال : « غسل الجمعة واجب على كل محتلم » . كما رواه البخاري ومسلم ، وبظاهره أخذ بعض الأئمة فقال : إن هذا الغسل فريضة . وأما لبس أحسن ثيابه فلأن اليوم يوم عيد — وليتجمل المؤمن عند لقاء إخوانه — وكي لا يكون دنساً قبيح المنظر تشمئز منه النفوس . وأما مس الطيب إن كان عنده فلكي تغلب الرائحة الطيبة ما لعله يحدث من رائحة كريهة بسبب رشح الأبدان الذي يحصل عادة عند ازدحام الناس — وحتى يكون محسناً إلى إخوانه ، فإنه إذا أساءهم بالرائحة الكريهة يكون محسناً إليهم بالرائحة العطرة ، ولكي يقابل الملائكة بهذه الرائحة الزكية ، فإن اليوم يوم مشهود تشهده الملائكة . وأما عدم تخطي أعناق الناس فللبعد عن إيذائهم لأن التخطي يؤذيهم ، وهذا الأدب يراعى إذا لم يترك الناس أمامهم فرجاً بالمسجد ، فإن فعلوا ذلك سقطت مراعاتهم وجاز تخطيهم ليسد ما أمامهم من الفرج . وأما الصلاة النافلة فلأنها الصلاة وكفى ، كيف لا وهي خير موضوع وضع للتقرب إلى الله تعالى . وأما الإنصات فلأنه الذي به سماع الذكرى ، والخير كله في هذه الذكرى ، فإذا لم ينصت شوش على غيره وفاته هو السماع فيفوته الخير الذي ينتظره من أسبوع . وأما

التَّبْكِيرُ فَلِأَنَّ الْمُبَكِّرَ يَجْلِسُ فِي الْمَسْجِدِ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ وَمَا دَامَ هَكَذَا فَهُوَ فِي صَلَاةٍ لَهُ مَا لِلْمُصَلِّي مِنْ ثَوَابٍ . وَأَمَّا الْمَشْيُ فَلِأَنَّ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً تُكْتَبُ وَسَيِّئَةً تُمْحَى . وَأَمَّا الدُّنُوُّ مِنَ الْخَطِيبِ فَلِأَنَّهُ يُمَكِّنُهُ مِنْ سَمَاعِ الْمَوْعِظَةِ . وَأَمَّا السِّوَاكُ فَلِأَنَّهُ يُنَظِّفُ الْفَمَ وَيُزِيلُ رَائِحَتَهُ الَّتِي لَا تُنَاسِبُ إِنْ كَانَتْ . مَنْ كَانَ يَطْمَعُ فِي كُلِّ مَا تَضَمَّنَتْهُ الْأَحَادِيثُ السَّابِقَةُ مِنَ الْخَيْرِ فَلْيُوَاظِبْ عَلَى الْآدَابِ الَّتِي وَصَّتْ عَلَيْهَا تِلْكَ الْأَحَادِيثُ فَإِنَّ تِلْكَ الْآدَابَ هِيَ السَّبَبُ فِي كُلِّ ذَلِكَ الْخَيْرِ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْآدَابِ هَيِّنَةٌ سَهْلَةٌ لَا تَصْعُبُ عَلَى إِنْسَانٍ لَهُ رَغْبَةٌ فِي الْخَيْرِ .

١٧ — أى فضل التبكير

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم قَالَ : إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَقَفَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ . وَمَثَلُ الْمُهَجِّرِ (أَيِ الْمُبَكِّرِ) كَمَثَلِ الَّذِي يُهْدِي بَدَنَةً ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي بَقَرَةً ثُمَّ كَبْشًا ثُمَّ دَجَاجَةً ثُمَّ بَيْضَةً فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ طَوَوْا صُحُفَهُمْ وَيَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ . لِيَكُنْ ذَلِكَ عَلَى بَالِ الْقَارِئِ حَتَّى لَا يَتَسَاهَلَ فِي التَّبْكِيرِ وَلْيَكُنْ عَلَى بَالِ الْخَطِيبِ أَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَنِ تَسْمَعُهُ فَلْيَنْظُرْ مَا ذَا يَقُولُ وَكَيْفَ يَقُولُ .

١٨ — هل يختص يوم الجمعة وليلتها بكثرة الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم

رَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ وَابْنُ عَدِيٍّ وَسَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ فِي سُنَنِهِ

أنَّهُ صلى الله عليه وسلم قالَ : أكْثِرُوا الصَّلاةَ عَلَيَّ فى اللَّيْلَةِ الغَرَّاءِ وَالْيَوْمِ الأَزْهَرِ فإنَّ صَلاَتَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيَّ .

١٩ — متى يجب السعى إلى الجمعة ويحرم التأخير

قالَ رَبُّنَا عزَّ وَجلَّ : « يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أيْ إذَا حَانَ وَقْتُ صَلاةِ الجُمُعَةِ وَأَذَّنَ المُؤَذِّنُ يُنَادِيكُمْ لَهَا فَوَاجِبٌ عَلَيْكُمْ أنْ تَسْعَوْا إليْهَا ، وَحَرَامٌ عَلَيْكُمْ أنْ تَتَأَخَّرُوا عَنْهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَلَوْ كُنْتُمْ مَشْغُولِينَ بِعُقُودِ بُيُوعٍ لِأَنَّكُمْ إنْ تَمَادَيْتُمْ عَلَى بُيُوعِكُمْ يُوشِكُ أنْ تَمْتَدَّ بِكُمُ المُسَاوَمَاتُ إلَى أنْ تَفُوتَ عَلَيْكُمُ الصَّلاةُ ، وَإعْرَاضُكُمْ عَنِ الصَّلاةِ بِشُغْلِكُمْ بِدُنْيَاكُمْ عَنْهَا حَتَّى تَفُوتَ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ لاَ شَكَّ فى ذَلِكَ .

٢٠ — أى شىء فى تخطى رقاب المسلمين يوم الجمعة

رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَأَحْمَدُ أنَّهُ صلى الله عليه وسلم قالَ : (مَنْ تَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ يَوْمَ الجُمُعَةِ اتَّخَذَ جِسْراً إلَى جَهَنَّمَ) وَرَوَى أحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ وَغَيْرُهُمْ أنَّهُ صلى الله عليه وسلم قالَ لِمَنْ رَآهُ يَتَخَطَّى الرِّقَابَ « اجْلِسْ فَقَدْ آذَيْتَ وَآنَيْتَ » أيْ أنَّكَ لَمْ تَقْتَصِرْ فى الإسَاءَةِ عَلَى التَّأَخُّرِ عَنِ المَسْجِدِ فى هَذَا الْيَوْمِ الَّذِي يَنْبَغِى فِيهِ التَّبْكِيرُ بَلْ أضَفْتَ إلَى ذَلِكَ إيذَاءَكَ لِلنَّاسِ بِتَخَطِّى أعْنَاقِهِمْ وَهَذَا لاَ يَلِيقُ بِالرَّجُلِ المُسْلِمِ الحَرِيصِ عَلَى الخَيْرِ .

٢١ — هل يقيم احدا إذا أراد الجلوس ويجلس مكانه

رَوَى مُسْلِمٌ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم قَالَ : (لَا يُقِيمَنَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ثُمَّ يُخَالِفَ إِلَى مَقْعَدِهِ فَيَقْعُدَ فِيهِ وَلَكِنْ يَقُولُ افْسَحُوا . وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ نَافِعٍ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم نَهَى أَنْ يُقِيمَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَقْعَدِهِ وَيَجْلِسَ فِيهِ . قِيلَ لِنَافِعٍ فِي الْجُمُعَةِ ؟ قَالَ : فِي الْجُمُعَةِ وَفِي غَيْرِهَا . وَسِرُّ هَذَا النَّهْيِ لَا يَخْفَى ، فَإِنَّ إِقَامَةَ الرَّجُلِ مِنْ مَكَانِهِ لِلْجُلُوسِ فِيهِ تَجْرِبَةٌ لَا تُحْتَمَلُ وَإِيذَاءٌ أَلِيمٌ وَكِبْرٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُسَاعِدَ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ ، أَمَّا إِنْ قَامَ لَكَ أَخُوكَ مِنْ مَكَانِهِ وَعَرَضَهُ عَلَيْكَ فَلَا بَأْسَ أَنْ تُجِيبَهُ ، وَقَدْ يُطْلَبُ مِنْكَ أَنْ تُجِيبَهُ وَالْقَرَائِنُ فِي مِثْلِ هَذَا هِيَ الْحَكَمُ .

٢٢ — هل يختص يوم الجمعة بساعة يستجاب الدعاء فيها

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم قَالَ : إِنَّ فِي الْجُمُعَةِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ فِيهَا خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ .

٢٣ — أى ساعة هـــذه الساعة

رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ابْنِ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ فِي شَأْنِ سَاعَةِ الْجُمُعَةِ هِيَ مَا بَيْنَ أَنْ يَجْلِسَ الْإِمَامُ إِلَى أَنْ تُقْضَى الصَّلَاةُ .

٢٤ — هل ينبغى أن يكون الخطيب يوم الجمعة على منبر

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَيِّدِنَا سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّ مَوْلَانَا الرَّسُولَ

صلى الله عليه وسلم أرْسَلَ إلَى فُلَانَةَ امْرَأَةٍ قَدْ سَمَّاهَا سَهْلٌ مُرِي غُلَامَكِ النَّجَّارَ أَنْ يَعْمَلَ لِي أَعْوَاداً أَجْلِسُ عَلَيْهِنَّ إذَا كَلَّمْتُ النَّاسَ فَأَمَرَتْهُ فَعَمِلَهَا ثُمَّ جَاءَ بِهَا فَأَرْسَلَتْ إلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَأَمَرَ بِهَا فَوُضِعَتْ هَاهُنَا، الحَدِيثَ .

٢٥ — ماذا يفعل الامام إذا صعد المنبر

رَوَى ابْنُ مَاجَهْ وَالشَّافِعِيُّ فِي الْأُمِّ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم كَانَ إذَا صَعِدَ الْمِنْبَرَ سَلَّمَ أَيْ سَلَّمَ عَلَى النَّاسِ بِقَوْلِهِ : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ » وَهٰذَا الحَدِيثُ أَخَذَ بِهِ الْأَكْثَرُونَ مِنْهُمُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ الزُّبَيْرِ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَالْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ .

٢٦ — ما ذا يفعل الامام بعد السلام على الناس

رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَخْطُبُ خُطْبَتَيْنِ يَجْلِسُ إذا صَعِدَ الْمِنْبَرَ حَتَّى يَفْرُغَ « أُرَاهُ الْمُؤَذِّنَ » ثُمَّ يَقُومُ فَيَخْطُبُ ثُمَّ يَجْلِسُ لَا يَتَكَلَّمُ ثُمَّ يَقُومُ فَيَخْطُبُ . وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَخْطُبُ قَائِماً ثُمَّ يَقْعُدُ ثُمَّ يَقُومُ كَمَا تَفْعَلُونَ الآنَ .

٢٧ — هل ينكر على الامام إذا خطب جالساً من غير عذر

رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ أَنَّهُ دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَعَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ أُمِّ الْحَكَمِ يَخْطُبُ قَاعِداً فَقَالَ انْظُرُوا إلَى هٰذَا الْخَبِيثِ يَخْطُبُ قَاعِداً ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً) .

٢٨ — ما الذى ينبغى أن يكون عليه الامام وهو يخطب

روى مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم كانَ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ ، وَعَلَا صَوْتُهُ ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ : صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ ، لِيَسْمَعْ هٰذَا بَعْضُ الْخُطَبَاءِ الَّذِينَ إِذَا خَطَبُوا كانُوا كَأَنَّهُمْ فى نُعَاسٍ فَيُورِثُونَ النَّاسَ النُّعَاسَ .

٢٩ — هل يحتبى الانسان والخطيب يخطب

روى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم نَهَى عَنِ الْحَبْوَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ ، وَالْحَبْوَةُ أَنْ يَنْصِبَ الْإِنْسَانُ سَاقَيْهِ وَهُوَ جَالِسٌ وَيَجْمَعَهُمَا إِلَى ظَهْرِهِ بِعِمَامَةٍ وَنَحْوِهَا أَوْ يَأْخُذَهُمَا بِيَدَيْهِ ، وَهِىَ جِلْسَةُ نَوْمٍ وَكَسَلٍ ، وَلَا يَنْبَغِى أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُ هٰكَذَا وَقْتَ الْعِظَةِ الْأُسْبُوعِيَّةِ الَّتِى بِهَا يَنْتَبِهُ مِنْ غَفْلَتِهِ ، وَيَحْيَا قَلْبُهُ ، وَالنَّهْىُ نَهْىُ تَنْزِيهٍ .

٣٠ — هل يقول الخطيب أما بعد بعد حمد الله والثناء عليه

روى الْبُخَارِىُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ : صَعِدَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه صلى وسلم الْمِنْبَرَ ، وَكَانَ آخِرَ مَجْلِسٍ جَلَسَهُ مُتَعَطِّفًا مِلْحَفَةً عَلَى مَنْكِبَيْهِ وَقَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ بِعِصَابَةٍ دَسِمَةٍ ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ إِلَىَّ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ هٰذَا الْحَىَّ ، الْحَدِيثَ ، وَرَوَى الْبُخَارِىُّ أَيْضًا عَنْ أَبِى حُمَيْدٍ السَّاعِدِىِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَامَ عَشِيَّةً بَعْدَ الصَّلَاةِ فَتَشَهَّدَ وَأَثْنَى عَلَى اللهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ ، وَرَوَى

البُخَارِيُّ كَذَلِكَ عَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ أَنَّهُ قَالَ : قَامَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَسَمِعْتُهُ حِينَ تَشَهَّدَ يَقُولُ أَمَّا بَعْدُ . وَنُطْقُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِلَفْظِ أَمَّا بَعْدُ فِى خُطَبِهِ رَوَاهُ اثْنَانِ وَثَلَاثُونَ صَحَابِيًّا ، فَلَا يَنْبَغِى لِخَطِيبٍ أَنْ يُغْفِلَهُ فِى خُطْبَةٍ .

٣١ – هل يرقى الواعظ المنبر فى غير يوم الجمعة ليعظ لمناسبة

رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم صَلَّى الظُّهْرَ ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ ، وَكَانَ لَا يَصْعَدُ عَلَيْهِ إِلَّا يَوْمَ جُمُعَةٍ قَبْلَ يَوْمِئِذٍ ، الحَدِيثَ ، وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ : صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم صَلَاةً ، ثُمَّ رَقِيَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ فِى الصَّلَاةِ وَفِى الرُّكُوعِ (أَىْ فِى شَأْنِهِمَا) إِنِّى لَأَرَاكُمْ مِنْ وَرَائِى كَمَا أَرَاكُمْ . وَمِنْ هٰذَا الْوَادِى الحَدِيثُ الَّذِى رَوَاهُ أَبُو حُمَيْدٍ السَّابِقُ فِى الْبَابِ قَبْلَ هٰذَا ، وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ هٰذَا هُنَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ خَاصًّا بِيَوْمِ الْجُمُعَةِ لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِالْخَطِيبِ حَتَّى إِذَا مَا عَرَفَهُ أَحْيَا هٰذِهِ السُّنَّةَ وَقَامَ مِنْ وَقْتٍ لِآخَرَ بَيْنَ قَوْمِهِ خَطِيبًا يَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ فِى غَيْرِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ إِذَا رَأَى مَا يَدْعُو إِلَى ذَلِكَ .

٣٢ – ماذا على المرء إذا تكلم والخطيب يخطب

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم قَالَ : مَنْ تَكَلَّمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ فَهُوَ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ، وَالَّذِى يَقُولُ لَهُ أَنْصِتْ لَيْسَتْ

لَهُ جُمُعَةٌ ، وَإِنَّمَا حَبِطَ ثَوَابُ جُمُعَتِهِ وَهُوَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا لِأَنَّهُ يُنْكِرُ بِمُنْكَرٍ وَهُوَ قَوْلُهُ : أَنْصِتْ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ . وَرَوَى مُسْلِمٌ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم قَالَ : مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَمَنْ مَسَّ الْحَصَا فَقَدْ لَغَا . لِيَسْمَعْ هٰذَا أَقْوَامٌ لَا يَحْلُو لَهُمُ الْكَلَامُ إِلَّا وَالْخَطِيبُ يَخْطُبُ لِيَسْمَعُوا أَنَّ مَنْ مَسَّ الْحَصَا يَحْبَطُ ثَوَابُهُ لِمَا أَنَّهُ يَتَشَاغَلُ بِهِ عَنْ سَمَاعِ الْخَطِيبِ ، فَكَيْفَ بِالْكَلَامِ ، فَكَيْفَ بِالْإِعْرَاضِ عَمْدًا وَالتَّرَفُّعِ عَنِ السَّمَاعِ ؟ .

٣٣ — هل فى البعد عن الخطيب شىء

رَوَى أَبُو دَاوُدَ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم قَالَ : احْضُرُوا الذِّكْرَى وَادْنُوا مِنَ الْإِمَامِ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ لَا يَزَالُ يَتَبَاعَدُ حَتَّى يَتَأَخَّرَ عَنِ الْجَنَّةِ وَإِنْ دَخَلَهَا ، وَالسِّرُّ فِى هٰذَا وَاضِحٌ فَإِنَّ الْبَعِيدَ قَدْ لَا يَسْمَعُ الذِّكْرَى إِذَا كَانَ الْمَسْجِدُ كَبِيرًا فَلَا يَسْمَعُ صَوْتَ الْخَطِيبِ لِبُعْدِهِ عَنْهُ فَيَرْجِعُ خَائِبًا لَمْ يَنَلْ أَىَّ مَنَالٍ مِنْ بَرَكَةِ الْعِظَةِ الْأُسْبُوعِيَّةِ ، وَإِنْ سَمِعَ الْبَعْضَ فَقَدْ يَفُوتُهُ الْبَعْضُ الْآخَرُ فَيَكُونُ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَقَلَّ فَائِدَةً مِنَ الْقَرِيبِ السَّامِعِ لِكُلِّ مَا يُقَالُ . لِيَسْمَعْ هٰذَا أُنَاسٌ يَتَعَمَّدُونَ الْبُعْدَ عَنِ الْخَطِيبِ لِأَنَّ رُءُوسَهُمْ تَتَصَدَّعُ ، وَشُعُورَهُمْ يَنْجَرِحُ ، إِذَا سَمِعُوا صَوْتَ الْخَطِيبِ كَمَا تَسْمَعُهُمْ يُصَرِّحُونَ بِذٰلِكَ ، وَهٰؤُلَاءِ يَتَغَيَّرُ إِحْسَاسُهُمْ مِنْ سَمَاعِ الْخَيْرِ بِاعْتِرَافِهِمْ وَلٰكِنَّهُمْ يُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الْهَادِئَةَ الصَّافِيَةَ فِى أَحْضَانِ الرَّذِيلَةِ ، فَهُمْ كَالْجُعَلِ الَّذِى تُؤْذِيهِ رَائِحَةُ الْوَرْدِ وَيَنْتَعِشُ كُلَّ الْانْتِعَاشِ إِذَا غَرِقَ فِى الْعَذِرَةِ .

٣٤ — هل يكون السامعون جلوساً وقت الخطبة

رَوَى أبو دَاوُدَ عَنْ جابرٍ أَنَّهُ قالَ : لَمَّا استَوَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ الجُمُعَةِ عَلَى المِنْبَرِ قالَ اجْلِسُوا فَسَمِعَ ذٰلِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَجَلَسَ عَلَى بابِ المَسْجِدِ فرآهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقالَ : تَعالَ يا ابْنَ مَسْعُودٍ. لِيَنظُرِ القَارِئُ ثُمَّ لِيَنظُرْ في هذا الأدَبِ البَدِيعِ. رَضِيَ اللهُ عَنكَ يا ابْنَ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللهُ عَنكَ يا ابْنَ مَسْعُودٍ.

٣٥ — هل يقتصد الخطيب فى خطبته

رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ جابرِ بنِ سَمُرَةَ أَنَّهُ قالَ : كانَتْ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم خُطْبَتَانِ يَجْلِسُ بَيْنَهُمَا يَقْرَأُ القُرآنَ وَيُذَكِّرُ النَّاسَ ، فَكانَتْ صَلاتُهُ قَصْداً وَكانَتْ خُطْبَتُهُ قَصْداً . وَرَوَى مُسْلِمٌ كَذٰلِكَ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم قالَ : « إنَّ طُولَ صَلاةِ الرَّجُلِ وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ (أىْ خَلِيقٌ أَنْ يُقالَ فِيهِ إنَّهُ لَفَقِيهٌ) فَأَطِيلُوا الصَّلاةَ وَاقْصُرُوا الخُطْبَةَ وَإِنَّ مِنَ البَيَانِ سِحْرًا .

٣٦ — إلى أى حد يكون القصد فى الخطبة

رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ عَنْ أُخْتِهَا قالَتْ : أَخَذْتُ قٓ وَالقُرآنِ المَجِيدِ مِنْ فِي رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ الجُمُعَةِ وَهُوَ يَقْرَأُ بِهَا عَلَى المِنْبَرِ فى كُلِّ جُمُعَةٍ . وَرَوَى مُسْلِمٌ كَذٰلِكَ عَنْ أُمِّ هِشَامٍ بِنْتِ حارِثَةَ ابْنِ النُّعْمَانِ قالَتْ : مَا حَفِظْتُ قٓ إلَّا مِنْ فِي رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَخْطُبُ بِهَا كُلَّ جُمُعَةٍ . وَرَوَى مُسْلِمٌ أَيْضاً عَنْ جابرٍ أَنَّهُ قالَ : كانَتْ خُطْبَةُ

27

النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الجُمُعَةِ يحمَدُ اللهَ ويُثنِي عليه . الحديث ، وروى البُخاريُّ أنّ عُمَرَ بنَ الخطّابِ رضِيَ اللهُ عنهُ قرأ يومَ الجمُعَةِ على المِنبرِ بسُورةِ النّحلِ حتّى إذا جاء السّجْدةَ نزَلَ فسجدَ وسجدَ النّاسُ حتّى إذا كانَ الجُمُعَةُ القابِلَةُ قرأَ بها حتّى إذا جاءَ السّجْدةَ قالَ : يا أيُّها النّاسُ إنّما نمُرُّ بالسّجْدةِ فمَنْ سجدَ فقدْ أصابَ ومَنْ لمْ يسْجُدْ فلا إثمَ عليهِ ولمْ يسْجُدْ عُمَرُ رضِيَ اللهُ عنهُ . ليَسمَعْ هذا مَنْ يستطيلُونَ الخُطَبَ اليومَ ويكادونَ يخرُجونَ مِنْ دِينِ الإسلامِ إذا رأوْا خطيباً أطالَ فى خُطبتِهِ بعضَ الإطالَةِ ، فهاهُمْ أُولاءِ يرَوْنَ أنّ رسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ يقرأُ سُورةَ قَ باستمرارٍ فى إحدَى خُطبتَيْهِ ، بلْ ليسَتْ سُورةُ قَ كلَّ إحدَى خُطبتَيْهِ ، فإنّهُ كانَ يسبِقُها ما يسبِقُها مِنْ حَمدٍ للهِ تعالَى وثناءٍ عليهِ كما تقدّمَ فى حديثِ جابرٍ — وليَنظُرْ بأيِّ قدْرٍ كانَتْ خُطبتُهُ الثّانيةُ — ولا ينسَوْا أنّ الكلِمَةَ تخرُجُ مِنْ بينِ شفتَيْهِ صلى الله عليه وسلم لا تُساويها الملايينُ ينطِقُ بها سِواه — وليَعلَمُوا أنّ الّذينَ كانُوا يسمَعُونَهُ صلى الله عليه وسلم هُمْ أصحابُهُ رضِيَ اللهُ عنهُمْ بقُلوبِهِمُ الصّافيَةِ الرّقيقَةِ، وعقُولِهِمُ الرّاجحَةِ النّافذَةِ، وإيمانِهِمُ النّيّرِ العظيمِ، فتأثُّرُهُمْ بالكلِمَةِ يسمَعُونَها مِنهُ صلى الله عليه وسلم لا يُدانيهِ أبدًا تأثُّرُنا بالملايينِ نسمَعُها مِنْ خطيبِنا اليومَ — وإذا كانَتْ هذهِ إطالَتَهُ صلى الله عليه وسلم والحالَةُ ما ذكَرْنا ، فكيفَ لا يُطيلُ خطيبُنا اليومَ ثمّ يُطيلُ وهوَ لا يُسمّى خطيباً علَى الحقيقَةِ إلاّ إذا رغّبَ فى فضيلَةٍ أوْ فضائلَ ، أوْ نفّرَ مِنْ رذيلَةٍ أوْ رذائلَ ، أوْ رغّبَ ونفّرَ فى آنٍ واحدٍ ، وهوَ لا يُمكِنُهُ أنْ يفعَلَ ذلكَ ببِضْعِ كلِماتٍ

يفوه بها ثم ينتهي — وغير خاف أن أمامه ما أمامه من قلوب قست ثم قست حتى صارت كالحجارة أو أشد قسوة — ومن عقول ضعفت ثم ضعفت حتى أصبحت لا تكاد تعي ولا تمسك شيئاً لكثرة ما انتابها من آثار الموبقات التي لا تكاد تفارقها طرفة عين — ومن مشاغل دنيوية تنام وتستيقظ معها — ثم ماذا يقول هؤلاء المتضجرون الساخطون الشاكون دائماً من الخطباء ومن طول خطبهم ؟ وهاهم أولاء يسمعون بآذانهم ، ويقرءون بألسنتهم أن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يخطب في الصحابة بسورة النحل في بعض إحدى خطبته — هل جهل ابن الخطاب — وهو صاحب الرسول ﷺ بل أقرب أصحابه كلهم إليه بعد الصديق — ما عليه هؤلاء وبينهم وبينه ﷺ عصور ودهور إن قالوا نعم فليقولوا ، ولا نستبعد ذلك عليهم ، ومن هو ابن الخطاب بالنسبة لحضرات رجالنا اليوم الذين ربما لا يعجبهم سيدنا جبريل لو حاول تعليمهم وإرشادهم . أما أنا فأجزم الجزم كله أنه لو خطب خطيب اليوم كما كان يخطب سيدنا عمر بسورة النحل في بعض إحدى خطبته لما تردد الناس في المبادرة إلى أحد أمرين معه : إما أن يخرجوا من المسجد ويتركوه يخطب لنفسه ، وإما أن ينبوا عليه ويثوروا ثورة الحمر الوحشية ويسمعوه من الطعن واللعن ما يسمعونه بعد أن ينزلوه عن المنبر حقيراً ذليلا ، ولا أعد من البعيد أن يمدوا أيديهم إليه بأنواع الوخز واللكم ، وبعيد بعد السماء من الأرض أن يسمح له أن يعود إلى منبر أبد الآبدين ، ودهر

29

الدَّاهِرِينَ ، وَبِالضَّرُورَةِ عُمَرُ لَا يَصِلُ إِلَى هٰذَا الحَدِّ مِنَ الإِطَالَةِ وَلَا يَصْبِرُ لَهُ عَلَى ذٰلِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ جُمُعَةً وَجُمُعَةً إِلَّا إِذَا كَانَ هٰذَا الطِّرَازُ مِنَ الخُطَبِ مُعْتَادًا فِى ذٰلِكَ العَهْدِ الكَرِيمِ - وَلَوْ لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ مُعْتَادًا وَكَانَ الدِّينُ يَأْبَاهُ لَوَثَبُوا عَلَيْهِ وُثُوبَ الأُسُودِ وَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ الإِنْكَارَ الَّذِى لَا يَسَعُهُ أَمَامَهُ إِلَّا الخُضُوعُ لِمَا يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ حُمَاةُ الدِّينِ الَّذِينَ لَا تَأْخُذُهُمْ فِى اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ - وَإِنْ لَمْ يُعْجِبْكَ أَيُّهَا القَارِئُ كُلُّ مَا تَقَدَّمَ فَاسْمَعْ مَا رَوَاهُ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ فِى مُسْنَدِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا وَهُوَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ فِى خُطْبَتِهِ بِالمَائِدَةِ وَالتَّوْبَةِ : أَىْ أَنَّ بَعْضَ إِحْدَى الخُطْبَتَيْنِ كَانَ مَجْمُوعَ السُّورَتَيْنِ : أَىْ كَانَ بَعْضُ إِحْدَى الخُطْبَتَيْنِ نَحْوًا مِنْ جُزْءٍ مِنْ خَمْسَةَ عَشَرَ جُزْءًا مِنَ القُرْآنِ كُلِّهِ ، وَأَنْتَ لَوْ رَاجَعْتَ خُطَبَاءَنَا اليَوْمَ فِى كُلِّ إِحْدَى خُطْبَتَيْهِمْ لَوَجَدْتَ أَطْوَلَ خُطْبَةٍ يَسْتَغِيثُ النَّاسُ مِنْ طُولِهَا لَا تَزِيدُ أَبَدًا عَنْ رُبُعٍ وَاحِدٍ أَىْ جُزْءٍ مِنْ أَرْبَعِينَ وَمِائَتَىْ جُزْءٍ مِنَ القُرْآنِ - وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ هٰكَذَا فَلْيَقُلْ لَنَا أُولٰئِكَ الخَيَالِيُّونَ أَيْنَ خَيَالُهُمْ فِى قِصَرِ خُطَبِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ خُطَبِهِ الحَقِيقِيَّةِ ، وَلْيَقُولُوا لَنَا أَيْنَ خُطَبُنَا اليَوْمَ مِنْ خُطَبِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَلَعَلَّ هٰؤُلَاءِ المَسَاكِينَ يَنْدَهِشُونَ إِذَا سَمِعُوا سَيِّدَنَا عَمْرَو بْنَ أَخْطَبَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ : صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الفَجْرَ وَصَعِدَ المِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ فَنَزَلَ فَصَلَّى ثُمَّ صَعِدَ المِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ العَصْرُ ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى ثُمَّ صَعِدَ المِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ (أَىْ مِنْ حَوَادِثِ الدُّنْيَا

الجسام) فأعلمنا أحفظنا . رواه مسلم - فهذا يوم من طلوع فجره إلى غروب شمسه مضى وهو ﷺ يخطب وأصحابه يسمعون - وهذه الخطبة - وإن لم تكن فى يوم جمعة - تدل دلالة واضحة على أنه ينبغي للخطيب أن يصدع بما يقتضيه الحال ، وإن طال دون أن يحسب أي حساب للسامعين وملالهم وسآمتهم ، وعلى أنه ينبغي للمؤمنين أن يقبلوا عليه حينئذ لأنه من أجلهم يطيل ، وفى سبيل إفادتهم يتعب - والحق الذى لا يناسب لمثلي أن يخفيه عن القارئ أن هذا القلق والامتعاض والشكوى من الخطباء بحجة أن بعضهم يطيل الخطبة ليس له سبب - فيما أرى - إلا مرض فى القلب أزمن حتى أعضل ، وغدا القلب لا يقوى معه على سماع ما يلقيه الخطيب من آداب وحكم وإلا فإنا نعلم علما ليس بالظن أن المؤمن لا يشبع من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة كما أخبرنا رسولنا صلى الله عليه وسلم ، وكما نراه بأعيننا فى صالحي المؤمنين .

٣٧ - هل من دليل على التزام الخطباء عظة خاصة فى الخطبة الثانية

وأظن أن القارئ الفاضل يتفق معي كل الاتفاق على أن التزام رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة ق فى إحدى خطبتيه - كما تقدم - يصلح ثم يصلح أن يكون سندا للخطباء فى التزامهم خطبة واحدة كل أسبوع - يسمونها النعت - تكون هي الثانية من الخطبتين ، فإن هذا التزام ، وذاك التزام ولا فرق .

٣٨ - الخطيب الذى يقول ولا يفعل

رَوَى الطَّبَرَانِيُّ فى الكَبِيرِ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إِنَّ أُنَاساً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ يَنْطَلِقُونَ إِلَى أُنَاسٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقُولُونَ بِمَ دَخَلْتُمُ النَّارَ ؟ فَوَاللهِ مَا دَخَلْنَا الْجَنَّةَ إِلاَّ بِمَا تَعَلَّمْنَا مِنْكُمْ ، فَيَقُولُونَ إِنَّا كُنَّا نَقُولُ وَلاَ نَفْعَلُ »

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِى النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ (أَىْ أَمْعَاؤُهُ) فَيَدُورُهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ فَتَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ ، فَيَقُولُونَ يَا فُلاَنُ مَا شَأْنُكَ أَلَسْتَ كُنْتَ تَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ فَيَقُولُ كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الشَّرِّ وَآتِيهِ » قَالَ وَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِىَ بِى بِأَقْوَامٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ . قُلْتُ مَنْ هَؤُلاَءِ يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَالاَ يَفْعَلُونَ » - يَا مَلاَذَ اللاَّئِذِينَ ، وَيَا أَمَلَ الرَّاجِينَ ، وَيَا مَفْزَعَ الخَائِفِينَ ، وَيَا مَعَاذَ الْمُسْتَعِيذِينَ ، وَيَا غِيَاثَ الْمُسْتَغِيثِينَ ، وَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ . بِكَ أَلُوذُ ، وَإِيَّاكَ وَحْدَكَ أَرْجُو ، وَإِلَيْكَ أَفْزَعُ ، وَبِكَ أَسْتَعِيذُ وَأَسْتَغِيثُ مِنْ تِلْكَ الْمَقَارِيضِ وَمِنْ دَارِهَا ، وَمِنْ كُلِّ مَا يُقَرِّبُ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ - اللَّهُمَّ اجْعَلْ شَخْصِى عَلَمَ هِدَايَةٍ لِعِبَادِكَ قَبْلَ قَوْلِى ، وَبَاعِدْ بَيْنِى وَبَيْنَ مَا يُغْضِبُكَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ اللَّهُمَّ آمِينَ اللَّهُمَّ آمِينَ .

٣٩ — هل الناس فى الانتفاع بالموعظة سواء

قالَ رَبُّنا عزَّ وَجلَّ (مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا) وَإِذا كانَتِ الْهِدايَةُ بِيَدِ اللهِ تعالى لِأنَّهُ خالِقُ الْقُلُوبِ وَمالِكُها يُصَرِّفُها كما يَشاءُ — فَلَيْسَ بِعَيْبٍ أَبَدًا عَلَى خَطِيبٍ مَهْما كانَ بَلِيغًا مُخْلِصًا أَنْ يَكُونَ فى سامِعِيهِ مَنْ لا يَهْتَدِي بِعِظَتِهِ وَلا يَتَأَثَّرُ بِها ، بَلْ لَيْسَ بِنَقْصٍ فى الخَطِيبِ أَنْ يَزْدادَ ضَلالًا أَكْثَرُ سامِعِيهِ أَوْ كُلُّهُمْ — هذا العَبْدُ الشَّكُورُ سَيِّدُنا وَمَوْلانا نُوحٌ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْكِى عَنْهُ رَبُّهُ قَوْلَهُ (رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائى إِلَّا فِرارًا ، وَإِنِّى كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فى آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبارًا) — بَلْ هذا سَيِّدُ الأَنْبِياءِ وَإِمامُ المُرْشِدِينَ جَمِيعًا يَقُولُ لَهُ رَبُّهُ (وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) وَيَقُولُ (إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُداهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِى مَنْ يُضِلُّ) — بَلْ يَقُولُ لَهُ (إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ) وَهكَذا كُلُّ الأَنْبِياءِ لَمْ يَهْتَدِ بِإِرْشادِهِمْ كُلُّ أُمَمِهِمْ ، بَلْ تَمادَى عَلَى ضَلالِهِ مِنْهُمْ مَنْ لا يَعْلَمُ قَدْرَهُمْ فى الكَثْرَةِ إِلَّا اللهُ تَعالَى — إِنَّما العَيْبُ فى الخَطِيبِ أَنْ يَنْحَطَّ فى عِظَتِهِ إِلَى دَرَجَةٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ فى أَرْقَى مِنْها — لَوْ كانَ هذا مِنْهُ كانَ مَسْئُولًا عَنْ تَقْصِيرِهِ فى حَقِّ سامِعِيهِ ، فَإِنَّهُ راعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ إِنْ لَمْ يَسْأَلْهُ النَّاسُ سَأَلَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

٤٠ — ماذا يقرأ الامام فى الجمعة وفى فجرها

رَوَى مُسْلِمٌ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم كانَ يَقْرَأُ فى الفَجْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ

33

« الٓمٓ تَنزِيلُ » وَ « هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » وَأَنَّهُ كَانَ صلى الله عليه وسلم يقرأ في صَلاَةِ الجُمُعَةِ سُورَةَ الجُمُعَةِ وَالْمُنَافِقِينَ ، وَرَوَى مُسْلِمٌ كَذَٰلِكَ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَفِي الْجُمُعَةِ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ، وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ .

٤١ — هل يتنفل المرء قبل صلاة الجمعة وبعدها

رَوَى ابْنُ مَاجَهْ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَرْكَعُ قَبْلَ الْجُمُعَةِ أَرْبَعاً لاَ يَفْصِلُ فِي شَيْءٍ مِنْهُنَّ ، وَرَوَى مُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَهْ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم قَالَ : إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمُ الْجُمُعَةَ فَلْيُصَلِّ بَعْدَهَا أَرْبَعاً .

٤٢ — هل لقراءة سورة الكهف يوم الجمعة فضل

أَخْرَجَ الْحَاكِمُ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي السُّنَنِ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم قَالَ : مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ ـ وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَالضِّيَاءُ فِي الْمُخْتَارَةِ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : مَنْ قَرَأَ الْكَهْفَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَهُوَ مَعْصُومٌ إِلَى ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ تَكُونُ ، وَإِنْ خَرَجَ الدَّجَّالُ عُصِمَ مِنْهُ .

٤٣ — ما الداعي إلى ذكر ما تقدم من الآداب

وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الآدَابِ الْخَاصَّةِ بِيَوْمِ الْجُمُعَةِ ـ لِأَنِّي أَعْلَمُ حَقَّ الْعِلْمِ أَنَّ الْوُجُودَ لاَ يَزَالُ بِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يُهِمُّهُ أَمْرُ آخِرَتِهِ ، وَيَشْتَاقُ الشَّوْقَ كُلَّهُ إِلَى مَا يَنْفَعُهُ بِهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، وَمَا أَشْقَاهُ مَنْ يَعِيشُ حَتَّى

يَنقطع هذا الصنفُ من النَّاسِ ، ولكى يَتنبَّهَ الغافلونَ لِكنوزٍ مِن الآدابِ فى إمكانِهم بكلِّ سُهولةٍ أن يتناولوا منها كلَّ أسبوعٍ ما يَرفعُ مِن درجاتِهم عِندَ ربِّهم سبحانَهُ وتعالى — والنفسُ مقتنعةٌ كلَّ الاقتناعِ أنَّ هذهِ الجواهرِ الغاليةِ أهلاً من المؤمنينَ — وما أكثرَهُم إن شاءَ اللهُ — إذا لمحُوها تسابقُوا إليها وبذلُوا كلَّ ما فى وُسعِهم لاقتنائِها والتحلِّى بها .

٤٤ — هل من الصواب فى شىء أن يُلزم كل خطيب بالاستقلال بارشاد الناس

وإنِّى لا أرى مِنَ الصَّوابِ فى شىءٍ أن يُكلَّفَ بالاستقلالِ بإرشادِ الخلقِ مَن لم تُخلقْ فيهِ القوَّةُ البيانيةُ ، فإنَّهُ إن أطاعَ هذا التَّكليفَ أضاعَ سامعيهِ ، لأنَّ المفروضَ فيهِ أنَّهُ عاجزٌ عن أن يستقلَّ بالإرشادِ ، لأنَّ آلةَ الإرشادِ لم تُخلقْ فيهِ ، وهى ملكةُ البيانِ ، فالذى يُكلِّفُهُ أن يستقلَّ — وحالُهُ ما ذكرنا — كمن يُكلِّفُ الأعمى أن يُبصرَ ، والأصمَّ أن يسمعَ ، والزَّمِنَ أن يمشىَ ، وفاقدَ حاسَّةِ الذوقِ أن يُميِّزَ حلوًا من مُرٍّ ، ومعلومٌ أنَّ ذلكَ لا يكونُ إلَّا إذا خُلِقَ فى هؤلاءِ ما فقدوهُ خلقًا جديدًا — وقد يكونُ هذا التَّكليفُ سببًا فى ارتكابِ الخطيبِ ما لا يليقُ بمركزِهِ السَّامِى — يرى من نفسِهِ العجزَ عن امتثالِ ذلكَ التَّكليفِ ، ويرى مع هذا أنَّ الظهورَ بمظهرِ العجزِ عارٌ عليهِ ، ونقصٌ فيهِ فيفرُّ من هذا الموقفِ المُخزى إلى حيثُ يُغيرُ على مالِ غيرِهِ فيرشدُ بهِ مدَّعيًا أنَّهُ لهُ هوَ ، فيكونُ بذلكَ فاعلًا رذيلتينِ : الرَّذيلةُ الأولى تظاهُرُهُ بطاعةِ التَّكليفِ وهوَ عاصيهِ ، والرَّذيلةُ

الثانية نسبة ما لغيره إلى نفسه، وما أولى قادة العباد بالبعد عن ذلك، ولو ترك الخطباء وشأنهم يعملون كما يعمل الخطباء من أول الأمة إلى اليوم، لرأيت الحال غير الحال، كنت ترى من منح ملكة البيان يأبى كل الإباء أن يهدي بهدي غيره، بل يغضب كل الغضب إذا كلف بذلك ويقول: أنا أرى الطريق بعيني فكيف أكلف أن أضع يدي على كتف غيري وأمشي بمشيه، وأتقيد بطريقه، وترى العاجز يشعر بعجزه، ويرى مع ذلك أنه مطالب بعظيم وهو نصيحة عباد الله تعالى، فلا يرى بدا من الاستعانة بالأقوياء، وبذلك يقوم بوظيفته حق القيام، ولا عيب عليه في ذلك ولا عار، بل ذلك هو الكمال فإنه اعتراف منه بأن ربه الحكيم العليم قاسم الحظوظ، وموزع النعم على عباده كما اقتضته حكمته - لم يمنحه من نعمة قوة البيان ما به يستقل بوظيفته، إنما العيب الفاضح أن يكذب على الله وعلى الناس بأنه متصف بذلك الوصف وهو عار عنه، وهل من ذلك حاله يصح أن يكون خطيباً للناس؟ إن كثيراً من الناس يقتحمون هذه الرذيلة وهم ليسوا بملزمين ذلك الإلزام، ولقد رأيت بعيني رأسي من هذا الفريق أناساً دعواهم في الإرشاد طويلة وعريضة، ومع ذلك أغاروا على ديواني (تاج الخطب) و (النفحات) وانتهبوا منهما ما انتهبوا ونشروه في كتب ومجلات على أنه محاضرات لهم أو مقالات أو خطب ولم يشيروا أدنى إشارة إلى المكان المأخوذ منه ما نشروه، وقد لا يغيب عنهم أني ربما أطلع على تلك الكتب والمجلات، وهي جرأة لا أدري ماذا أفعل معها،

وإذا كان هذا فعل أناس لم يكلفوا أن يشتغلوا فما ظنّ القارئ بالمكلف وهو عاجز عن الامتثال .

٤٥ — أىّ الدواوين الثلاثة أجلّ

وإذا كان لي أن أفضل أحد دواويني الثلاثة (والكلُّ كلامي) على أخويه فإني لا أتردد في تفضيل هذا الديوان عليهما من قبل أني اشترطت فيه ما لم أشترطه فيهما وذلك الشرط هو إلقائي الخطبة بالفعل بالحرم الزينبي بمصر حتى تسمح نفسي بأن تعدّها صالحة لأن تدرج في عداد خطبه وهو شرط يعرف نتيجته من وقف مثل هذه المواقف الضخمة .

٤٦ — رجاء إلى حضرات القراء

كنت أنظر إلى هذا الديوان بعين الإكبار والإجلال ، ويجرى في نفسي أنه الدرة اليتيمة في عقد الدواوين متقدمة كانت أو متأخرة ليس له بينها نظير ، ولا يسمو إلى مستواه منها ديوان ، وقد يحسن التقدير منشئ الشيء لأنه أعلم بحقيقة ما أنشأ ، ولكن كان يقف في وجه هذا النظر أن العمل ربما زين لعامله فرآه عظيما وهو ليس بعظيم ، كالولد قد يزين في عين أبيه وهو ليس هنا ولا هناك ، ولما اطلع حضرات أصحاب الفضيلة العلماء عليه ، وأصدروا كلماتهم فيه وهم هم — حمدت ربي عز وجل على ما يسر على يدي ، وترجحت عندي كفة النظرة الأولى ، وعلمت أني ما كنت مبالغا في تقديري ، ولست أرى بأسا من أن أرجو حضرات القراء أن يرجعوا إلى تلك الكلمات التي قالها أولئك الجهابذة الأكابر في هذا الديوان ،

ويقرءوها بتأمل فإنهم إن قرءوها رأوا الديوان بالعين التي رآه بها حضرات أولئك القادة الهداة، وحينئذ يقبلون عليه ويعظم انتفاعهم به، وهذا ما أحب وله كتبت ما كتبت، ولي رجاء آخر هو ألا ينظر حضرات المطلعين إلى الديوان بعنوان أنه ديوان لا يتناوله إلا الخطباء بل ينظروا إليه نظرهم إلى كتاب إرشاد عام لا تقف هدايته عند واحد من الأمة دون غيره يخطب به الخطيب، ويطالعه المسترشد في خاصة نفسه، ويقود به المرشد في دروسه العامة من يقتدي به في دينه أو دنياه.

٤٧ — دعوات لعل مولاى الكريم يتقبلها

وإني أمد يد الضراعة والافتقار إلى ربي الذي كل كرم من فيض كرمه — أن يجعل هذا الديوان خالصا لوجهه العظيم، وأن ينفع به المرشدين والمسترشدين، وأن يديمه مرجعا عاما يرجع إليه الفضلاء من عباده، وأن يجريه في العالم بحرا خضما عذبا تتفرع منه جداول الحكمة إلى أراضي القلوب فتحييها: كما أبتهل إليه — وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه — ابتهال من بلغ من الحاجة منتهاها — أن يقبل متابي، وأن يطهر من درن الذنوب قلبي وجميع جوارحي، وأن يأخذ بناصيتي دائما إلى ما يحب؛ وأن يعاملني ووالدي ومشايخي وأحبابي وجميع المسلمين في دنيانا وأخرانا بإحسانه الذي لا تتصور له غاية، ولا ينتهي أبدا إلى نهاية، اللهم آمين اللهم آمين، اللهم آمين؟

مصطفى أبو سيف الحمامى

١ - العقل

الحَمْدُ للهِ الَّذِي مَا شَرَّفَ بِخِطَابِهِ فِي كِتَابِهِ إِلاَّ أُولِي الأَلْبَابِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةً إِنَّمَا يَعْتَرِفُ بِهَا كَامِلُ العَقْلِ فَاضِلُ الآدَابِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي لَوْلاَهُ مَا فُتِحَ لَنَا مِنَ الخَيْرِ بَابٌ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ كُمَّلِ العُقُولِ وَالإِيمَانِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : العَقْلُ جَوْهَرَةٌ غَالِيَةٌ دُونَ قَدْرِهَا الأَثْمَانُ وَكُلُّ مَا يُقَدَّرُ بِالأَثْمَانِ ، بَلِ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لاَ قِيمَةَ لَهَا بِجَانِبِ هَذَا العَقْلِ العَظِيمِ الشَّانِ ، وَكَيْفَ لاَ يَكُونُ قَدْرُ العَقْلِ هَكَذَا وَهُوَ الَّذِي بِهِ الإِنْسَانُ إِنْسَانٌ ، وَلَوْلاَهُ مَا كَانَ أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ الوَاحِدِ مِنَّا وَبَيْنَ أَيِّ حَيَوَانٍ . لاَ تَقِفْ بِالعَقْلِ عِنْدَ هَذَا الحَدِّ بَلِ ارْفَعْ قَدْرَهُ حَتَّى عَلَى العِلْمِ وَشَرَفِهِ المَعْلُومِ ، فَإِنَّ العِلْمَ ثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ العَقْلِ وَلَوْلاَهُ مَا كَانَتْ عُلُومٌ وَلاَ فُهُومٌ ، بَلِ ارْتَقِ بِالعَقْلِ فَوْقَ هَذَا وَقُلْ لَوْلاَهُ مَا كَانَ دِينٌ وَلاَ عُرِفَ الحَيُّ القَيُّومُ ، وَبِهَذَا تَعْلَمُ حَقَّ العِلْمِ أَنَّ العَقْلَ مُقَدَّمٌ فِي الرُّتْبَةِ حَتَّى عَلَى الأَدْيَانِ . إِنَّ العَقْلَ هُوَ الَّذِي رَفَعَكَ إِلَى دَرَجَةِ أَنْ خَاطَبَكَ رَبُّ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ ، وَهُوَ الَّذِي بِهِ صَلَحْتَ لأَنْ تَكُونَ مِنْ خَدَمِهِ تَعَالَى تُؤَدِّي مَا لَهُ مِنْ وَاجِبَاتٍ ،

وَهُوَ الَّذِى بِهِ كُنْتَ أَهْلاً لِأَنْ تَكُونَ مِنْ ضُيُوفِهِ تَعَالَى فى دَارِ الْكَرَامَاتِ ، بَلْ هُوَ الَّذِى سَمَا بِكَ إِلَى حَدٍّ أَنْ تَرَى رَبَّ الْخَلْقِ وَأَنْتَ فى دَارِ الرِّضْوَانِ . إِنَّ قِيمَةَ كُلِّ شَىْءٍ إِنَّمَا تُقَدَّرُ بِقَدْرِ مَا لَهُ مِنْ آثَارٍ ، وَمَا سَمِعْتَ مِنْ آثَارِ الْعَقْلِ لاَ يُدَانِيهِ فِيهَا غَيْرُهُ مَهْمَا كَانَ لِذَلِكَ الْغَيْرِ مِنْ مِقْدَارٍ ، إِذَنْ هُوَ أَجَلُّ مِنْحَةٍ مَنَحَهَا اللهُ لَنَا فِى هَذِهِ الدَّارِ ، بَلْ لاَ تَكُونُ الْجَنَّةُ جَنَّةً إِذَا سُلِبَ الْعَقْلُ فِيهَا مِنَ الْإِنْسَانِ .

إِذَا عَلِمْتَ هَذَا فَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ تَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُهُمْ بِتَفَاوُتِ مَا لَهُمْ مِنْ عُقُولٍ ، فَإِنَّ الْعَقْلَ هُوَ الَّذِى لَهُ الْهَيْمَنَةُ عَلَى مَا يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ وَمَا يَقُولُ ، فَكُلَّمَا كَانَ الْعَقْلُ أَقْوَى كَانَ أَقْدَرَ عَلَى دَفْعِ النَّفْسِ عَمَّا لَهَا مِنْ فُضُولٍ ، وَمِنْ هَذَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُولَ إِنَّ أَعْقَلَ النَّاسِ أَتْقَاهُمْ لِمَوْلاَنَا الدَّيَّانِ ، أَمَّا إِذَا ضَعُفَ الْعَقْلُ فَيَضْعُفُ دَفْعُهُ لِلنَّفْسِ عَمَّا لَهَا مِنْ شَهَوَاتٍ ، فَرُبَّمَا كَانَ الرَّجُلُ كَالْفِيلِ وَلاَ يَعْرِفُ الْخَيْرَ وَإِنَّمَا مَيْدَانُهُ الْمُنْكَرَاتُ ، وَرُبَّمَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ نَحِيلَ الْبَدَنِ قَصِيرَهُ وَهُوَ كَالْأَسَدِ فِى مَيَادِينِ الْخَيْرَاتِ ، إِذَنْ مَوَازِينُ الرِّجَالِ عُقُولُهُمْ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ نَفْسَهُ فَلْيَزِنْهَا بِهَذَا الْمِيزَانِ .

(حديث) الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِىَّ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِىُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَالْحَاكِمُ .

(آخر) ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدى صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردى، ولا استقام دينه حتى يستقيم عقله. رواه الطبرانى فى الكبير والصغير والبيهقى فى الشعب.

٢ – معرفة ربنا عز وجل وآثارها

الحمد لله الذى بمعرفته سما من سما إلى أعالى الدرجات، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة من ثمراتها سعادة الأبد فى الجنات، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله الذى ختمت به الرسالات: اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أهل الولاء لرب الآلاء.

(أما بعد) فيا عبد الله، لم يعرف الناس اليوم ربهم المعرفة التى تليق بماله من عظمة وجلال، ولو عرفوه هذه المعرفة ماصدق العقل أن يكونوا بهذه الحال، إن العارف بالله تعالى يخشاه فتعقله هذه الخشية عما لا ينبغى من الأفعال، كيف لا وهذا القرآن يقول إنما يخشى الله من عباده العلماء. العارف بالله تعالى لا يجرؤ أن يحرك لسانه بكلمة من منكرات الأقوال، لأنه يؤمن أنه تعالى يسمعه مهما أسر وبالغ فى إسرار ما قال، ولا يجرؤ أن يستعمل عضوا من أعضائه فى عمل ليس بحلال، لأنه يؤمن أنه تعالى يراه مهما اختفى واجتهد فى الاختفاء. وكذلك لا يقوى العارف بالله على أن يعزم على

فِعلِ شيءٍ مِنَ المَحظُوراتِ ، وَلاَ أَنْ يَنطوِيَ عَلَى رَذِيلَةٍ كالْكِبْرِ وَالْحِقْدِ وَالنِّفاقِ وَغيرِ ذلِكَ مِنَ الرَّذائِلِ المَمْقُوتَاتِ ، لِأَنَّهُ يُؤْمِنُ أَنَّ مَا فِي قَلْبِهِ لاَ يَخْفَىٰ عَلَى مَنْ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي السَّماوَاتِ ، فَلاَ يَسْتَرِيحُ حَتَّى يَكُونَ بَاطِنُهُ كَظَاهِرِهِ مُطَهَّراً مِنْ كُلِّ فَحْشاءٍ. وَكَذَلِكَ لاَ تَسْمَعُ مِنْ فَمِ الْعَارِفِ عِنْدَ نُزُولِ الْبَلاَيَا إِلاَّ الحَسَنَ الجَمِيلَ، لِأَنَّهُ يُؤْمِنُ أَنَّ الْمُتَصَرِّفَ وَحْدَهُ فِي كُلِّ هٰذَا الْكَوْنِ مَوْلاَهُ الْجَلِيلُ، فَلاَ يَغْضَبُ لِنَحْوِ مَوْتِ عَزِيزٍ أَوْ فَقْدِ مَالٍ أَوْ مَرَضٍ شَدِيدٍ طَوِيلٍ ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ غَضَبَهُ حِينَئِذٍ إِنَّمَا يَتَوَجَّهُ عَلَى مَنْ مِنْ آثَارِ حِكْمَتِهِ حِكْمَةُ جَمِيعِ الْحُكَمَاءِ. وَكَذَلِكَ لاَ يَصْدُرُ عَنِ الْعَارِفِ حَسَدُ أَمْرِئٍ عَلَى نِعْمَةٍ وَلاَ يَخْطُرُ عَلَى بَالِهِ هٰذَا الْحَسَدُ، لِأَنَّهُ يُؤْمِنُ أَنَّ رَبَّهُ قَسَمَ النِّعَمَ وَلَيْسَ لِقِسْمَتِهِ مِنْ مَرَدٍّ ، وَلاَ يَيْأَسُ الْعَارِفُ مِنْ زَوَالِ شِدَّةٍ مَهْمَا اسْتَحْكَمَتْ وَلاَ مِنْ حُصُولِ خَيْرٍ مَهْمَا سَمَا وَابْتَعَدَ ، لِأَنَّهُ يُؤْمِنُ أَنَّ رَبَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً كَانَ وَإِنْ بَدَا مُحَالاً فِي نَظَرِ الْجُهَلاَءِ. وَلاَ يُقْنِطُ الْعَارِفُ مُؤْمِناً مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وَإِنْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ ، وَلاَ يُؤَمِّنُ مُسْتَقِيماً مِنَ الْعَذَابِ وَإِنْ قَدَّمَ الْكَثِيرَ مِنْ صَالِحَاتِ الْأَعْمَالِ ، لِأَنَّهُ يُؤْمِنُ أَنَّ رَبَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً وَأَنَّ لَهُ الْحُجَّةَ الْبَالِغَةَ فِيمَا يُجْرِي مِنَ الْأَفْعَالِ ، هٰذَا مَثَلٌ لِمَنْ يَعْرِفُ اللهَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ فَأَيْنَ مِنْهُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَهُمْ فَضِيحَةُ الْعُقَلاَءِ.

(حديث) لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّى وَلاَ بِالتَّحَلِّى وَلَكِنْ هُوَ مَا وَقَرَ فِى الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ . رَوَاهُ ابْنُ مَنْصُورٍ وَالدَّيْلَمِيُّ وَابْنُ النَّجَّارِ .

٣ — مفتاح السعادة فى الدنيا والآخرة

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَتَحَ بَابَ السَّعَادَةِ لِعِبَادِهِ إِذْ وَصَفَ لَهُمْ نَفْسَهُ فَعَرَفُوه ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً مَنْ غَفَلَ عَنْهَا تَعَرَّضَ لِكُلِّ مَكْرُوه ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ شَمْسُ الْهِدَايَةِ لِمَنْ تَبِعُوه : اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ بِمُرَاقَبَتِهِمْ لِلَّهِ كَمَدُوا الشَّيْطَانَ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللَّهِ : إِنَّ مِفْتَاحَ سَعَادَةِ الْمَرْءِ فِى دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ أَنْ يُرَاقِبَ مَوْلَاه ، بِحَيْثُ يَكُونُ فِى كُلِّ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِهِ مُسْتَحْضِرًا عَظَمَتَهُ وَجَلَالَهُ وَلَا يَنْسَاه ، مُؤْمِنًا بِأَنَّهُ تَعَالَى يَرَاهُ أَيْنَمَا كَانَ وَيَعْلَمُ سِرَّهُ وَنَجْوَاه ، مَنْ كَانَ هٰكَذَا أَوْرَثَهُ ذَلِكَ خَشْيَةَ رَبِّهِ فِى سِرِّهِ وَالْإِعْلَانَ . فَإِذَا خَشِىَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ وَقَفَ وَلَا بُدَّ عِنْدَ مَا حَدَّهُ لَهُ مِنْ حُدُود ، يَفْعَلُ أَوَامِرَهُ وَيَجْتَنِبُ نَوَاهِيَهُ لَا يَحْمِلُهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا إِجْلَالُهُ لِهَذَا الْمَعْبُود ، وَمِنْ أَبْعَدِ الْبُعْدِ أَنْ يَتَقَدَّمَ الْعَبْدُ إِلَى مَعْصِيَةٍ وَخَالِقُهُ لَهُ مَشْهُود ، خُصُوصًا وَهُوَ يُوقِنُ أَنَّهُ تَعَالَى يُجَازِيهِ عَلَى كُلِّ مَا قَدَّمَ مِنْ طَاعَةٍ أَوْ عِصْيَان . فَإِذَا وَصَلَ الْعَبْدُ إِلَى هٰذِهِ الْحَالَةِ كَانَ وَلَا شَكَّ مِنْ صَفْوَةِ

المؤمنين ، وهؤلاء الصفوة لله تعالى بهم عناية فوق تصور المتصورين ، هو تعالى أخبر عن مبلغ هذه العناية فى الكتاب المبين ، أخبر تعالى – فى جلاله وقدسه – أنه معهم لما هم عليه من تقوى ومن إحسان . وإذا كان الأمر هكذا فمن يغلبك أيها التقى ومعك الغالب القاهر ، ومن يذلك ومعك من بيده ناصية كل جبار غادر ، ومن يحوجك ومعك من كل العوالم تتقلب فى بحبوحة جوده الباهر ، ومن يشقيك ومعك من لا سعادة إلا وهى من فيض كرمه المنان . فراقب ربك أيها المؤمن فإن بالمراقبة عز سلفنا عزا تندهش عند تقدير عظمته الأفكار ، وهذه المراقبة لا تتيسر لك إلا إذا عرفت ربك معرفة التقى البار ، وأقرب طريق لتلك المعرفة أن تطيل التفكر فى هذا العالم الذى يموج بالأسرار ، فسر فى تلك الطريق يا هذا تصل إلى ما وصل إليه أحباب الرحمن .

(حديث) إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت . رواه الطبرانى .

٤ — هل يقال لماذا لمولانا

الحمد لله الذى يسأل لأنه الرب ولا يسأل لأنه الحكيم العليم ، وأشهد أن لا إله إلا الله الذى لا يفعل إلا الصواب لأنه الخلاق العظيم ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله الذى علمنا أن من

المُحَالِ أنْ يظلِمَ ربُّنَا لِأنَّهُ المَالِكُ الكَرِيم ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِي الخُضُوعِ لِرَبِّهِمْ وَالإِذْعَانِ .

(أمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ . إِنَّ للهِ تَعَالَى عِلمًا أَحَاطَ كُلَّ الإِحَاطَةِ بِهٰذِهِ الكَائِنَاتِ ، صَغِيرُهَا كَكَبِيرِهَا عِنْدَهُ وَخَفِيُّهَا كَظَاهِرِهَا فِى الأَرْضِ كَانَتْ أَمْ فِى السَّمَاوَاتِ ، هُوَ القَائِمُ بِشُؤُونِ الكُلِّ فَمُحَالٌ أَنْ تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهَا حَرَكَةٌ مِنَ الحَرَكَاتِ ، بَلْ يَعْلَمُ المُسْتَحِيلَ الَّذِى لَا يَقْبَلُ الوُجُودَ وَيَعْلَمُ مَاذَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ لَوْ كَانَ . هٰذَا شَأْنُ اللهِ تَعَالَى أَمَّا الخَلْقُ فَكُلُّهُمْ جَهَالَاتٌ وَتَخَبُّطَاتٌ ، لَا يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ مَا تَحْتَ كُرْسِيِّهِ وَلَا مَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ مَهْمَا كَانَ مِنَ الوَاضِحَاتِ ، بَلْ وَلَا يَعْلَمُ حَتَّى نَفْسَهُ الَّتِى بَيْنَ جَنْبَيْهِ عَلَى أَىِّ حَالٍ هِىَ مِنَ الحَالَاتِ ، بَلْ يَهُمُّ أَحَدُهُمْ أَنْ يَنْطِقَ بِالكَلِمَةِ فَلَا يَجِدُهَا وَيُذْهِبُهَا مِنْهُ النِّسْيَانُ . بَلْ لَوْ كُلِّفَ الإِنْسُ وَالجِنُّ وَالمَلَائِكَةُ أَنْ يُحِيطُوا بِحَالِ نَمْلَةٍ وَاحِدَةٍ لَعَجَزُوا العَجْزَ المُبِينَ ، وَمَنْ فِى العَالَمِ كُلِّهِ يَعْلَمُ مَتَى تَجُوعُ أَوْ تَمُوتُ النَّمْلَةُ أَوْ تَمْرَضُ أَوْ تَشْفَى مِنْ دَائِهَا الدَّفِينِ ، وَمَنْ يَعْلَمُ إِذَا عَثَرَتْ مَاذَا عِنْدَهَا مِنَ الأَلَمِ وَمَتَى يَذْهَبُ هٰذَا الأَلَمُ المُهِينُ ، وَمَنْ يَعْلَمُ عَدَدَ خَطَوَاتِهَا وَأَنْفَاسِهَا وَمَتَى وَلِمَاذَا تَحْدُثُ عِنْدَهَا المَسَارُّ وَالأَحْزَانُ . وَإِذَا كَانَ هٰذَا جَهْلَ العَالَمِ كُلِّهِ بِالنِّسْبَةِ لِنَمْلَةٍ وَاحِدَةٍ فَكَيْفَ بِبَاقِى العَوَالِمِ ، وَإِذَا كَانَ هٰذَا عَجْزَنَا عَنِ العِلْمِ فَوَاضِحٌ عَجْزُنَا عَنِ الخَلْقِ وَالإِبْدَاعِ

الْمُخْتَصّ بِرَبِّنَا الْقَادِرِ الرَّاحِمِ ، بَلْ لَوْلاَ رَبُّنَا لَبَقِينَا فِى مَحْضِ الْعَدَمِ وَمَا شَمَّ رَائِحَةَ الْوُجُودِ مِنَّا جَاهِلٌ وَلاَ عَالِمٌ ، إِذَنْ نَحْنُ عَدَمٌ صِرْفٌ بِالنِّسْبَةِ لِرَبِّنَا ، وَهَلْ يُنْسَبُ مَخْلُوقٌ لِخَالِقِهِ الْمُقْتَدِرِ الْمَنَّانِ . أَلَيْسَ مِنَ الْعَجِيبِ أَنْ نَكُونَ كَذَلِكَ وَاعْتِرَاضَاتُنَا مُوَجَّهَةٌ دَائِماً إِلَى هٰذَا الْخَالِقِ الْحَكِيمِ ، فَيَقُولُ الْفَقِيرُ لِمَاذَا لَمْ يَجْعَلْنِي غَنِيًّا ؟ وَيَقُولُ الْمَرِيضُ لِمَاذَا جَعَلَنِي وَحْدِى السَّقِيمَ ، وَيَقُولُ الْأَعْمَى لِمَاذَا لَمْ يَجْعَلْنِي بَصِيراً ؟ وَيَقُولُ الْمُقْعَدُ لِمَاذَا لَمْ يَجْعَلْنِي مِثْلَ السَّلِيمِ ، وَيَقُولُ مَنْ مَاتَ لَهُ عَزِيزٌ لِمَاذَا أَمَاتَهُ وَالْأَرْضُ مَمْلُوءَةٌ بِالشِّيبِ وَالشُّبَّانِ . إِنَّ هٰذِهِ الْأَسْئِلَةَ تُفْهِمُ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَعْلَمَ مَا لِرَبِّكَ فِى تَصَرُّفَاتِهِ مِنْ أَسْرَارٍ ، وَأَنْتَ لاَ تَعْلَمُ هٰذَا إِلاَّ إِذَا سَمَحْتَ أَنْ تَصِفَ نَفْسَكَ بِأَنَّكَ مِثْلُهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ قَهَّارٌ ، أَمَّا مَا دُمْتَ تَعْتَرِفُ بِأَنَّكَ عَبْدٌ جَاهِلٌ عَاجِزٌ وَهُوَ خَالِقُكَ الْحَكِيمُ الْمُخْتَارُ ، فَوَقَاحَةٌ مِنْكَ هٰذِهِ الْأَسْئِلَةُ لاَ تَرْضَاهَا مِنْ خَادِمِكَ لَكَ وَأَنْتَ وَهُوَ مِثْلاَنِ مُتَسَاوِيَانِ . قُلْ لِى يَا هٰذَا كَيْفَ كَانَ بُغْضُكَ لِوَالِدِكَ وَلِمُعَلِّمِكَ وَهُمَا يُرْغِمَانِكَ فِى صِغَرِكَ عَلَى التَّعْلِيمِ ، أَلَسْتَ كُنْتَ تَتَمَنَّى لَهُمَا الْمَوْتَ مَعَ أَنَّكَ لَوْلاَ هٰذَا التَّعْلِيمُ كُنْتَ مِثْلَ الْبَهِيمِ ، هٰذَا خَطَؤُكَ فِى تَقْدِيرِ عَمَلِ مَنْ تَقْرُبُ مِنْهُمَا وَالْفَرْقُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمَا لَيْسَ بِعَظِيمٍ ، فَقُلْ لِى كَيْفَ يَكُونُ خَطَؤُكَ فِى تَقْدِيرِ عَمَلِ رَبِّكَ وَأَنْتَ الْعَدَمُ وَهُوَ وَاجِبُ الْوُجُودِ الدَّيَّانُ .

(حديث) إنَّ فى بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ فِى الْكُتُبِ - إِنِّى أَنَا اللهُ لَا إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا قَدَّرْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ فطُوبَى لِمَنْ قَدَّرْتُ عَلَى يَدِهِ الْخَيْرَ وَيَسَّرْتُهُ لَهُ ، وَوَيْلٌ لِمَنْ قَدَّرْتُ عَلَى يَدِهِ الشَّرَّ وَيَسَّرْتُهُ لَهُ ، إِنِّى أَنَا اللهُ لَا إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا لَا أُسْأَلُ عَمَّا أَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ، فَوَيْلٌ لِمَنْ قَالَ كَيْفَ وَكَيْفَ ؟ رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوِيه .

٥ — الاخلاص والرياء

الْحَمْدُ لِلّٰهِ عَلَى آلَائِهِ حَمْدَ عَبْدٍ أَخْلَصَ فى كُلِّ مَا لَهُ مِنْ أَعْمَال ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةً يَرْضَى بِهَا رَبُّنَا الْكَبِيرُ الْمُتَعَال ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَخْلَصُ الْمُخْلِصِينَ فى أَفْعَالِهِ وَالْأَقْوَال ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْبَعِيدِينَ كُلَّ الْبُعْدِ عَنْ خُلُقِ الرِّيَاء .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : أَخْلِصْ فى أَعْمَالِكَ كُلِّهَا لَا فَرْقَ بَيْنَ عَمَلٍ وَعَمَل ، سَوَاءٌ أَكُنْتَ تَعْمَلُ لِلْخَلْقِ أَمْ كُنْتَ تَعْمَلُ لِلّٰهِ عَزَّ وَجَل ، وَسَوَاءٌ أَكُنْتَ بَيْنَ الْخَلْقِ وَأَنْتَ تَعْمَلُ أَمْ كُنْتَ فى جَوْفِ جَبَل ، وَسَوَاءٌ أَكُنْتَ وَقْتَ الْعَمَلِ فى سَرَّاءَ أَمْ كُنْتَ فى ضَرَّاء . ذٰلِكَ الْإِخْلَاصُ هُوَ أَنْ تَعْمَلَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ لَا تُرِيدُ جَزَاءً عَلَيْهِ إِلاَّ مِنَ اللهِ ، يَكُونُ ذٰلِكَ قَصْدَكَ قَبْلَ الْعَمَلِ وَحِينَ مُبَاشَرَتِهِ وَبَعْدَ مُنْتَهَاه ، لَا تَذْكُرُهُ بِلِسَانِكَ إِلاَّ تَحَدُّثًا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ أَوْ لِيَقْتَدِىَ

بكَ غافلٌ متّبعٌ لهواه ، بلْ ولا تشيرُ إليهِ أيَّ إشارةٍ ليعلمهُ أحدٌ غيرُ ربِّ الآلاء . بهذا يكونُ العملُ عبادةً حقًّا وتكونُ أنتَ منَ العابدين ، وبهذا يثمرُ عملكَ القبولَ عندَ الناسِ وعندَ ربِّ العالمين ، وبهذا تكونُ أقوى الناسِ لأنَّ وليكَ حينئذٍ يكونُ مولاكَ القويَّ المتين ، وبهذا تكونُ منْ أهلِ الكرامةِ فى هذهِ الدارِ وفى دارِ الجزاء . أمّا إذا عملتَ العملَ الصالحَ ليقبلَ عليكَ الناسُ ويقولوا إنّكَ منَ الصالحين ، فأنتَ إذنْ تكونُ مرائيًا لا تخلصُ العملَ للهِ بلْ تشركُ معهُ الناظرين ، فتكونُ فى دعوى تمحيصِ العملِ للهِ تعالى لستَ بصادقٍ بلْ منَ الكاذبين ، وانظرْ كيفَ يكونُ حالُ امرئٍ يكذبُ على منْ لا يخفى عليهِ شيءٌ فى الأرضِ ولا فى السماء . إنَّ المرائيَ مهما أخفى رياءهُ يظهرُ اللهُ تعالى ما فى قلبهِ للعالمين ، ولذلكَ يكونُ لأعمالهِ منَ السماجةِ فى نفوسِ الناسِ ما لا يحكيهِ اللسانُ المبين ، ولهذا يكونُ مرذولاً ثقيلاً عندَ الناسِ بدرجةٍ لا حدَّ لها عندَ الرائين ، ومنْ هذا تراهُ يتوددُ إلى الناسِ ويضحكُ لهمْ ونفورهمْ منهُ عبرةُ العقلاء . ثمّ هوَ عندَ اللهِ أسوأُ حالاً خصوصاً فى اليومِ الذى يشيبُ الأطفال ، فقدْ يأمرُ بهِ إلى النارِ ولهُ منْ صالحاتِ الأعمالِ أمثالُ الجبال ، فيقولُ يا ربِّ صليتُ وتصدقتُ وصمتُ فيقالُ لهُ

فعلتَ كلَّ ذلكَ ليُقال ، أينَ هذا منَ المُخلصِ الّذِى كلُّ حركاتِهِ جمالٌ لهُ فى دارَيْهِ وعلاء ؟

(حديث) إنّ اللهَ عزّ وجلّ لا يقبلُ منَ العملِ إلّا ما كانَ لهُ خالصاً وابتُغِيَ بِهِ وجهُهُ ، رواهُ أبو داودَ والنّسائيُّ .

٦ — مكارم الأخلاق ورذائلها

الحمدُ للهِ الّذِى جمّلَ بمكارمِ الأخلاقِ مَن اصطفاهُ منَ العالمينَ ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ شهادةً مَنْ دخلتْ شغافَ قلبِهِ ترفّعَ عنْ كلِّ شيْءٍ يشينُ ، وأشهدُ أنّ سيِّدَنا ومولانا محمّداً عبدُهُ ورسولُهُ المبعوثُ ليُتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ للمتأدِّبينَ . اللّهمَّ صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ على سيِّدِنا محمّدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ الّذينَ لمْ ترَ مثلَهُمْ فى دينٍ ولا دُنيا عينُ الزّمانِ .

(أمّا بعدُ) فيا عبدَ اللهِ : إنّ مكارمَ الأخلاقِ أحصاها كلَّها دينُ الإسلامِ ، ما تركَ خُلُقاً منها إلّا وبيّنَهُ لنا البيانَ التّامّ ، وكذلكَ رذائلُ الأخلاقِ شرحَها شرحاً ليسَ معهُ أيُّ إبهام ، وأصبحَ ذلكَ كلُّهُ معلوماً لدَى أهلِ الإيمانِ . وإنّما بيّنَ اللهُ تعالَى مكارمَ الأخلاقِ لنتخلّقَ بها لأنّها حُلَى للعاملينَ ، وكلّما أكثرَ الإنسانُ منها كانَ أجلَّ وأفخمَ فى عيونِ النّاظرينَ ، ولأنّها صلاحٌ صِرفٌ لا يترتّبُ على التّخلّقِ بهِ أيُّ فسادٍ فى العالمينَ ، ذلكَ فوقَ كونِها هيَ السّببَ الوحيدَ الّذِى بهِ يرضَى عنِ العبدِ مولاهُ الدّيّانُ . وأمّا رذائلُ الأخلاقِ فشرحَها ربُّنا لنجتنبَها

لِأَنَّهَا وَصَمَاتُ عَار ، لَا يَتَخَلَّقُ امْرُؤٌ بِخُلُقٍ مِنْهَا إِلَّا وَبِنِسْبَتِهِ يَكُونُ نَصِيبُهُ مِنَ الْإِزْدِرَاءِ وَالِاحْتِقَار ، وَلِأَنَّهُ لَمْ يَقَعْ فَسَادٌ فِى الْأَرْضِ إِلَّا وَهِيَ سَبَبُهُ الَّذِي لَا يَحْتَمِلُ أَيَّ إِنْكَار ، يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ أَنَّهَا هِيَ وَحْدَهَا مُوجِبَاتُ غَضَبِ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْإِنْسَان . وَإِنْ شِئْتَ فَانْظُرْ إِقْبَالَ النَّاسِ عَلَى الصَّادِقِ إِذَا تَكَلَّمَ وَإِعْرَاضَهُمْ عَنِ الْكَاذِبِين ، وَانْظُرِ اطْمِئْنَانَهُمْ لِأَهْلِ الْأَمَانَةِ وَقَلَقَهُمْ مِنْ جِهَةِ الْخَائِنِين ، وَانْظُرِ ارْتِيَاحَهُمْ لِذَوِي الْعَدْلِ وَنُفْرَتَهُمْ مِنَ الظَّالِمِين ، وَانْظُرْ إِجْلَالَهُمْ لِأَهْلِ الْحِلْمِ وَالْوَقَارِ وَاحْتِقَارَهُمْ لِلْحَمْقَى أُلْعُوبَةِ الشَّيْطَان . يَهِيمُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ أَشَدَّ الْهُيَامِ مَنِ اعْتَبَرَ مِثْلَ هَذَا الِاعْتِبَار ، كَمَا أَنَّهُ يَمْتَلِئُ رُعْباً مِنْ رَذَائِلِ الْأَخْلَاقِ وَمَا لَهَا مِنْ آثَار ، وَبِذَلِكَ يَعْلَمُ حَقَّ الْعِلْمِ مَا فِي أَوَامِرِ رَبِّنَا مِنْ مَنَافِعَ وَمَا فِى مَنْهِيَّاتِهِ مِنْ مَضَارّ ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ أَكْبَرُ مُحَرِّضٍ لِلْعَاقِلِ عَلَى أَنْ يُذْعِنَ لِأَوَامِرِ رَبِّهِ وَنَوَاهِيهِ كُلَّ الْإِذْعَان .

(حديث) مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ مِنْ أَعْمَالِ الْجَنَّةِ . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِى الْأَوْسَطِ .

٧ ـ كيف النجاة فى هذا الزمان ؟

الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَمَرَنَا بِالْبُعْدِ عَنْ أَمَاكِنِ الْمَعَاصِي لِأَنَّهَا حُفَرُ نَار ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي نَهَانَا عَنِ الِاخْتِلَاطِ بِالْفُجَّارِ لِأَنَّهُمْ

عدوى الأبرار ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله الذى أمرنا بلزوم البيوت إذا شر الفتن استطار ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وكل بعيد عن الفتن والفاتنين .

(أما بعد) فياعبدالله : أنت فى زمن بلغ فيه الفساد مبلغا ما كان يخطر على الأفكار ، فإذا أردت النجاة منه فالزم بيتك فإن الفتن خارجه تموج كموج البحار ، لا تبارحه إلا لمهمة دينية أو دنيوية فإذا انقضت فالبدار إلى المنزل ثم البدار ، ودع الاجتماع بالناس إلا بمن تأمن غائلتهم من عباد الله الصالحين . فإذا خرجت لمهماتك دينية أو دنيوية فغض بصرك لا تطلق له العنان ، فإنك إن أطلقته رأيت من البلايا ما لا يحصيه العد ولا يأتى عليه البيان ، ترى النساء أسرابا هائمات فى الشوارع والحوارى وهن حبائل الشيطان ، لابسات من الحلى والحلل ما يفتن متعطرات متجملات متعرضات للناظرين . ترى الحانات مفتحة أبوابها لا حرج على من يدخلها فى ليل أو فى نهار ، وترى المومسات واقفات أمام مواخيرهن يتخطفن الأشرار والأخيار ، وترى الغلمان يطوفون فى مختلف الطرق يتلمسون اللوطية الفجار ، وترى الغش فى كل المعاملات بدرجة قل أن ينجو منها أيقظ المتفرسين . ترى مصارف الربا مستعدة دائما لأن تصرف

لِلنَّاسِ مَا بِهِ يَقَعُونَ فِي حَرْبٍ مَعَ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ ، وَتَرَى النَّاسَ هَجَرُوا بُيُوتَ اللّٰهِ تَعَالَى وَعَمَرُوا دُورَ الْمَغَانِي وَالرَّقْصِ جَرْيًا وَرَاءَ شَهَوَاتِهِمُ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَتَرَاهُمْ نَبَذُوا كِتَابَ اللّٰهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ وَأَفْسَدُوا أَخْلَاقَهُمْ بِقِرَاءَةِ الطَّقَاطِيقِ وَالرِّوَايَاتِ ، وَتَرَى الْجُرْأَةَ عَلَى الْكُفْرِ بَلَغَتْ بَيْنَهُمْ مُنْتَهَاهَا حَتَّى أَنْكَرُوا عَلَنًا وُجُودَ رَبِّ الْعَالَمِينَ . إِنَّ هٰذِهِ الْمَنَاظِرَ وَأَمْثَالَهَا بِتَكَرُّرِهَا عَلَيْكَ تَهُونُ عَلَيْكَ الْمَعَاصِي فَتَفْعَلُهَا بِلَا مُبَالَاه ، وَهٰذَا مَا لَا أُرِيدُهُ لَكَ وَلِهٰذَا وَصَّيْتُكَ بِلُزُومِ الْبَيْتِ وَبِغَضِّ بَصَرِكَ إِنْ بَارَحْتَهُ حَتَّى لِلصَّلَاه ، وَإِنَّمَا حَذَّرْتُكَ مِنَ الْاجْتِمَاعِ بِالنَّاسِ لِأَنَّهُمْ أَصْبَحُوا لَا يَجْتَمِعُونَ إِلَّا عَلَى مَا يُغْضِبُ اللّٰه ، وَإِذَا غَلِطْتَ وَجَالَسْتَهُمْ مَرَّةً فَاحْبِسْ لِسَانَكَ وَإِلَّا تَقَوَّلُوا عَلَيْكَ مَا يُوقِعُكَ فِي بَلَاءٍ مُبِينٍ . اسْمَعْ نَصِيحَتِي أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ وَاحْرِصْ عَلَى الْعَمَلِ بِهَا فَإِنَّهُ لَا نَجَاةَ إِلَّا بِذٰلِكَ فِي هٰذَا الزَّمَان ، وَإِنْ خَالَفْتَنِي فَلَا تَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَكَ إِنْ نَزَلَ بِكَ مَا يُطِيلُ عَلَيْكَ الْأَحْزَان ، مَضَتِ الْأَزْمِنَةُ الَّتِي كَانَ الْخُرُوجُ فِيهَا وَالْاجْتِمَاعُ بِالنَّاسِ بَابَيْ رَحْمَةٍ لِلْإِنْسَان ، أَسْأَلُ اللّٰهَ أَنْ يَحْفَظَنِي وَإِيَّاكَ مِنْ فِتَنِ هٰذَا الزَّمَنِ وَأَنْ يُمِيتَنَا عَلَى دِينِهِ غَيْرَ ضَالِّينَ وَلَا مُضِلِّين .

(حديث) إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ

جُنِّبَ الْفِتَنَ ، إنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ ، وَلَمَنِ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهاً .
رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

(آخر) يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مالِ الْمُسْلِمِ غَنَماً يَتَتَبَّعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَابْنُ ماجه .

٨ - الحق وثقله ، والباطل وخفته

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَيَّزَنَا عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ بِمِيزَةٍ عُظْمَى وَهِيَ الْعَقْلُ الْجَلِيلُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي وَعَدَنَا وَتَوَعَّدَنَا لِنَسْلُكَ الْمَسْلَكَ النَّبِيلَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي عَلَّمَنَا كَيْفَ نُقَوِّمُ أَنْفُسَنَا إِذَا انْحَرَفَتْ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ أَحْسَنُوا جِهَادَ أَنْفُسِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ وَالشَّيْطَانِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : لَقَدْ كَانَ مِنَ الْمَعْقُولِ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ خَفِيفاً لِأَنَّهُ صَلَاحٌ وَعَلَيْهِ الثَّوَابُ ، وَأَنْ يَكُونَ الْبَاطِلُ ثَقِيلاً لِأَنَّهُ فَسَادٌ فِي الْأَرْضِ وَعَلَيْهِ الْعِقَابُ ، لَكِنَّا نَرَى الْأَمْرَ مَعْكُوساً فَإِنَّ الْحَقَّ كَأَنَّهُ جَبَلٌ فَوْقَ الرِّقَابِ ، وَأَمَّا الْبَاطِلُ فَحُلْوٌ وَخَفِيفٌ مَهْمَا عَانَى فِي سَبِيلِهِ الْإِنْسَانُ . فَتَرَى الرَّجُلَ يُطْلِقُ لِلِسَانِهِ الْعِنَانَ فِي مَيَادِينِ مُنْكَرِ الْقَوْلِ وَفُحْشِ الْكَلَامِ ، فَيَنْطَلِقُ يَعْدُو لَا يَعْثُرُ عَثْرَةً وَلَوْ

وَاصلَ اللَّيَالِيَ بِالْأَيَّام ، فَإِذَا وَجَّهْتَهُ لِشَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ اسْتَصْعَبَ وَأَبَى الْإِبَاءَ التَّامّ ، كَأَنَّ نُطْقَهُ بِالْخَيْرِ كَارِثَةٌ كُبْرَى فِى الْقُرْبِ مِنْهَا كُلُّ خُسْرَان . وَتَرَاهُ يَذْهَبُ بِكُلِّ نَشَاطٍ إِلَى الْأَنْدِيَةِ الْعُمُومِيَّةِ الْمُفْعَمَةِ بِالْأَلَاعِيبِ الْمُحَرَّمَات ، وَفِى تِلْكَ الْأَلَاعِيبِ وَبَيْنَهَا يَجْلِسُ مَعَ السُّرُورِ السَّاعَاتِ تَتْلُوهَا السَّاعَات ، وَلَوْ رَجَوْتَهُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى مَسْجِدٍ لِيُؤَدِّىَ فِيهِ الصَّلَاةَ مَعَ الْجَمَاعَات ، لَرَأَيْتَهُ كَأَنَّهُ يُحَاوِلُ جَبَلًا يَحْمِلُهُ وَلَوْ ذَهَبَ عَادَ مُسْرِعًا كَأَنَّهُ كَانَ فِى نِيرَان . وَتَرَاهُ لَا يَمَلُّ أَبَدًا مِنْ قِرَاءَةِ أَمْثَالِ الطَّقَاطِيقِ وَالرِّوَايَات ، فَهُوَ دَائِمًا بَيْنَ مُغْرِيَاتٍ عَلَى الْعِشْقِ وَأَكَاذِيبَ وَخُرَافَات ، وَلَوْ نَاوَلْتَهُ كِتَابَ عِلْمٍ أَوْ مُصْحَفًا يَتْلُو بَعْضَ آيَاتِهِ الْبَيِّنَات ، لَسَارَعَ إِلَيْهِ النَّوْمُ وَاسْتَرْخَتْ مَفَاصِلُهُ كَأَنَّهُ تَنَاوَلَ مَا يُذْهِبُ الْعُقُولَ وَيُرْقِدُ الْأَبْدَان . وَتَرَاهُ يَسْهَرُ اللَّيْلَ كُلَّهُ فِى صُنُوفٍ مِنَ الْمَعَاصِى لَا عَاقِبَةَ لَهَا سِوَى النَّار ، لَـٰكِنْ فِى غَايَةِ الثِّقَلِ عَلَيْهِ أَنْ يَسْهَرَ لَحْظَةً فِى طَاعَةِ مَوْلَاهُ الْغَفَّار ، وَتَرَاهُ يَجْلِسُ أَمَامَ شَاعِرِ الزَّنَاتِى وَأَبُو زَيْدٍ الْهِلَالِىِّ فِى صَبْرٍ بَالِغٍ وَوَقَار ، فَإِذَا جَلَسَ أَمَامَ عَالِمٍ يُعَلِّمُهُ دِينَهُ سَئِمَ حَالًا وَقَامَ أَوْ نَامَ نَوْمَ الصِّبْيَان . وَتَرَاهُ يَضِنُّ بِالْمِلِّيمِ فِى سَبِيلِ اللهِ وَيَجُودُ فِى سَبِيلِ الشَّيْطَانِ بِالْقِنْطَار ، وَيُحِبُّكَ مَا دَاهَنْتَهُ وَغَشَشْتَهُ فَإِذَا وَاجَهْتَهُ بِالْحَقِّ غَضِبَ غَضَبَ الصِّغَار ، وَيَحِنُّ كُلَّ الْحَنِينِ لِلْفُجَّارِ وَمَجَالِسِهِمْ وَيَفِرُّ كُلَّ الْفِرَارِ

مِنْ مَجَالِسِ الأَبْرَار ، وَهَكَذَا لَا تَرَاهُ أَمَامَ أَىِّ حَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ إِلاَّ بِهَذَا الشَّأن . إِنَّ السِّرَّ فِي ثِقَلِ الحَقِّ عَلَى النَّفْسِ وَخِفَّةِ البَاطِلِ عَلَيْهَا أَنَّ الحَقَّ قَيْدٌ وَالبَاطِلَ إِطْلَاق ، وَحُبُّ النَّفْسِ لِلإِطْلَاقِ مَعْرُوفٌ لِأَنَّهُ لَا حُكْمَ فِيهِ عَلَيْهَا وَبُغْضُهَا لِلقَيْدِ الحَابِسِ لَهَا لَا يُطَاق ، لَكِنَّكَ لَوْ عَلِمْتَ أَنَّ الصَّلَاحَ وَالإِصْلَاحَ فِي ذَلِكَ القَيْدِ لَأَرْهَقْتَهَا عَلَيْهِ كُلَّ الإِرْهَاق ، وَلَوْ عَلِمْتَ أَنَّ الفَسَادَ وَالإِفْسَادَ فِي ذَلِكَ الإِطْلَاقِ لَفَرَرْتَ مِنْهُ فِرَارَكَ مِنَ الجَرْبَان . تَنَبَّهْ أَيُّهَا الشَّارِدُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ نَفْسِكَ بَلْ قِفْ أَمَامَهَا مَوْقِفَ المُجَاهِدِين ، فَمَا كَانَ مِنْ حَقٍّ تُرْغِمُهَا عَلَيْهِ وَمَا كَانَ مِنْ بَاطِلٍ تَزْجُرُهَا عَنْهُ زَجْرَ الصَّادِقِين ، بِهَذَا تَهْتَدِي فَإِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ : وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِين . أَمَّا أَنَّكَ تَتْرُكُ نَفْسَكَ حَبْلُهَا عَلَى غَارِبِهَا فَهَذَا مِنْ فِعْلِ البَهَائِمِ لَا مِنْ فِعْلِ أَهْلِ الإِيمَان .

(حديث) لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ . رَوَاهُ المَقْدِسِيُّ فِي كِتَابِ الحُجَّةِ وَالطَّبَرَانِيُّ وَالأَصْبَهَانِيُّ وَأَبُو نُعَيْم .

٩ — هل للمامور به أو المنهىّ عنه آية يعرف بها

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ عَبْدٍ حَاسَبَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ يَوْمُ الحِسَاب ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةَ امْرِئٍ أَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ فَلَزِمَ الآدَاب ،

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَصَفْوَةُ أَحْبَابِهِ الْأَنْجَاب ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانَتْ كُلُّ أَعْمَالِهِمْ بِمِيزَان .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللَّهِ : نَرَاكَ تَخْتَفِي إِذَا فَعَلْتَ شَيْئًا مِمَّا نَهَى عَنْهُ مَوْلَانَا السَّمِيعُ الْبَصِير ، لَا تَخْتَفِي أَيَّ اخْتِفَاءٍ بَلْ تُبَالِغُ فِي ذَلِكَ مُبَالَغَةَ الْحَذِرِ الْخَبِير ، أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ يَنْظُرُ النَّاسُ بِعَيْنِ الِاحْتِقَارِ إِلَى فَاعِلِهِ لِأَنَّهُ نَقْصٌ كَبِير ، فَفِرَارًا مِنْ ذَلِكَ الِاحْتِقَارِ تَخْتَفِي ذَلِكَ الِاخْتِفَاءَ وَتَكْرَهُ أَنْ تَرَاكَ عَيْنَان . إِذَنْ كُلُّ مَا تَكْرَهُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ فَهُوَ مِنَ الْمَنْهِيَّات ، هَذَا قَانُونٌ عَامٌّ يَنْبَغِي أَنْ تُلَاحِظَهُ فِي جَمِيعِ الْحَالَات ، أَمَّا مَا تُحِبُّ أَنْ يَرَاكَ النَّاسُ وَأَنْتَ تَفْعَلُهُ فَهُوَ مِنَ الْمَأْمُورَات ، وَالْمَأْمُورَاتُ كُلُّهَا كَمَالَات وَالْكَمَالَاتُ لَا يَكْرَهُ فَاعِلُهَا أَنْ يَرَاهُ إِنْسَان . وَنَرَاكَ أَحْيَانًا تَتَحَرَّجُ أَنْ تَفْعَلَ أَشْيَاءَ بَعْدَ أَنْ يُفْتِيَكَ بِجَوَازِهَا بَعْضُ الْمُفْتِين ، هَذَا التَّحَرُّجُ مِنْكَ بُرْهَانٌ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْفَتَاوَى لَمْ تُصِبِ الْحَقَّ الَّذِي يَرْضَاهُ رَبُّ الْعَالَمِين ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ لَهَا شُعُورٌ وَرَاءَ الْفَتَاوَى تَنْفُذُ مِنْهُ إِلَى الْحَقِّ الدَّفِين ، فَإِذَا أَحْسَسْتَ بِهَذَا التَّحَرُّجِ فَأَطِعْهُ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ إِذَا كُنْتَ سَلِيمَ الْجَنَان . وَنَرَاكَ تُحِبُّ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ فِيكَ مِنَ الْمَدَائِحِ مَا يَرْفَعُ رَأْسَكَ أَيْنَمَا كُنْت ، وَتَكْرَهُ كُلَّ الْكَرَاهَةِ أَنْ تَسْمَعَ مِنْهُمْ كَلِمَةً تَخْدِشُكَ فِي أَيِّ مَكَانٍ

حلَّت، مَا تَكْرَهُ أَنْ يُقَالَ فِيكَ لَا تَفْعَلْهُ يُصَنْ عِرْضُكَ مِمَّا كَرِهْت، وَمَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ فِيكَ بَادِرْ إِلَى فِعْلِهِ تَسْمَعْهُ مِنْكَ فِي الحَالِ الأُذُنَان. وَلَيْسَ مِنَ الإِنْصَافِ أَنْ تَفْعَلَ الشَّرَّ وَتُلْزِمَ النَّاسَ أَنْ يَذْكُرُوكَ بِالْخَيْرَات، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ المَأْلُوفِ أَنْ تَفْعَلَ الْخَيْرَ وَيُذِيعَ النَّاسُ عَنْكَ السَّوْآت، وَاللهُ يَعْلَمُ أَفْعَالَكَ وَنِيَّاتِكَ فَيُنْطِقُهُمْ بِمَا يُنَاسِبُ تِلْكَ الأفْعَالَ وَالنِّيَّات، وَإِذَا غَضِبَ حَاسِدٌ وَقَالَ عَنْكَ سُوءًا سَخِرُوا مِنْهُ وَعَرَفُوا أَنَّهُ غَضْبَان. لَا تَفْعَلِ الْخَيْرَ لِيَمْدَحَكَ النَّاسُ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الرَّذَائِلِ الممْقُوتَةِ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الْعِبَاد، بَلِ اعْمَلْ لِلَّهِ تَعَالَى مُخْلِصاً لَهُ عَمَلَكَ يُعِزُّكَ فِي الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَاد، وَفَكِّرْ طَوِيلاً فِيمَا سَمِعْتَ مِنَ الْقَوَانِينِ تُصْبِحْ وَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ الرَّشَاد، يَسَّرَ اللهُ لَنَا جَمِيعاً مَا يُحِبُّ وَبَاعَدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَا يَكْرَهُ إِنَّهُ الحَنَّانُ الْمَنَّان.

(حديث) مَا كَرِهْتَ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ مِنْكَ فَلَا تَفْعَلْهُ بِنَفْسِكَ إِذَا خَلَوْتَ. رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالتِّرْمِذِيُّ.

(آخر) عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيِّ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي مَا يَحِلُّ لِي وَمَا يَحْرُمُ عَلَيَّ؟ قَالَ الْبِرُّ مَا سَكَنَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَالْإِثْمُ مَا لَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَلَا يَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ. رَوَاهُ أَحْمَدُ.

١٠ ـ نحن ومدارس ومستشفيات المبشرين ×

الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى أَمَرَنَا أَنْ نَجْتَنِبَ الْكُفْرَ وَلَوْ ذَهَبَتْ فِى سَبِيلِ ذَلِكَ الِاجْتِنَابِ الْأَرْوَاح ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ شَهَادَةَ مُؤْمِنٍ يَفْتَدِى دِينَهُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ بِكُلِّ ارْتِيَاح ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى مَضَتْ حَيَاتُهُ الدُّنْيَوِيَّةُ فِى جِهَادٍ لِدِينِهِ وَكِفَاح ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ أَعَزُّوا الدِّينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا الْأَعِزَّاء .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللّٰهِ : تَعَالَ نَبْكِ دَمًا أَسًى وَحَسْرَةً عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ ، تَعَالَ نَمُتْ كَمَدًا وَحُزْنًا عَلَى هٰذَا الْحِمَى الَّذِى هَانَ بَيْنَ الْأَنَام ، تَعَالَ تَعَالَ أُخْبِرْكَ بِمَا جَرَى عَلَى هٰذَا الْحِمَى الَّذِى كَانَ أَمْنَعَ مِنْ أَنْ يُرَام ، اسْمَعْ وَضَعْ يَدَكَ عَلَى قَلْبِكَ وَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ تَعَالَى مِنَ الذُّلِّ بَعْدَ عِزَّةِ الْأَقْوِيَاء . جَاسَ خِلَالَ دِيَارِنَا أَجَانِبُ عَنَّا فِى الْوَطَنِ وَفِى الدِّينِ ، غَمَزُوا قَنَاتَنَا فَصَادَفُوا مِنَّا لِينًا لَا تُبَالِغُ إِذَا قُلْتَ إِنَّهُ يُزْرِى بِكُلِّ لِينٍ ، فَتَقَدَّمُوا ثُمَّ تَقَدَّمُوا بِقُلُوبٍ أَقْوَى مِنَ الْفُولَاذِ غَيْرَ مُكْتَرِثِينَ بِنَا وَلَا مُحْتَرِمِين ، وَفِى صَمِيمِ عَرِينِنَا دَاسُوا بِأَقْدَامِهِمْ مُنْتَهِكِينَ مِنَّا أَقْدَسَ مَا يُقَدِّسُهُ رِجَالُنَا وَالنِّسَاء . بَنَوْا بَيْنَنَا مَدَارِسَ بِحُجَّةِ أَنَّهُمْ يَنْشُرُونَ الْعُلُومَ فِينَا وَيَقْتُلُونَ الْجَهَالَات ، فَتَسَابَقْنَا إِلَيْهَا وَتَهَافَتْنَا عَلَيْهَا وَقَدَّمْنَا لَهَا أَبْنَاءَنَا وَالْبَنَات ، فَتَجَلَّى لَنَا أَنَّهَا مَدَارِسُ تَبْشِيرٍ وَقَامَتْ عَلَى ذَلِكَ

الْبَرَاهِينُ الْقَاطِعَاتُ الْكَثِيرَاتُ ، كَيْفَ لَا وَهُمْ يُمَرِّنُونَ أَبْنَاءَنَا فِى تِلْكَ الْمَدَارِسِ عَلَى عَقَائِدَ وَأَعْمَالٍ هِىَ كُفْرٌ مِنْ غَيْرِ مِرَاءٍ . وَبَنَوْا بَيْنَنَا مُسْتَشْفَيَاتٍ قَالُوا إِنَّهُمْ يُخَفِّفُونَ بِهَا عَنْ مَرْضَانَا الْآلَامَ ، وَقَدْ كَشَفَتْ لَنَا الْأَيَّامُ أَنَّهُمْ بَنَوْهَا لِيَقْتَلِعُوا بِهَا مِنَ الْقُلُوبِ الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ ، فَإِنَّهُمْ يُسَلِّطُونَ عَلَى أُولَئِكَ الْمَرْضَى الْمَسَاكِينِ خُطَبَاءَ بَرَعُوا فِى زُورِ الْكَلَامِ ، فَيَخْطُبُونَ فِيهِمْ بِمَا يُرَغِّبُهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَيُرَغِّبُهُمْ فِى دِينٍ هُوَ الشَّقَاءُ بِعَيْنِهِ وَالْبَلَاءُ . إِذَنْ هُمْ يَتَظَاهَرُونَ بِتَطْبِيبِ أَبْدَانِنَا وَهُمْ يَسْلَخُونَنَا مِنْ دِينِ الدَّيَّانِ ، يَدْعُونَنَا لِنَسْتَرِيحَ مِنْ أَلَمٍ وَقْتِيٍّ فَيَقْذِفُونَنَا فِى عَذَابٍ أَبَدِيٍّ وَرَبُّنَا عَلَيْنَا غَضْبَانُ ، يَدْعُونَنَا بِمَدَارِسِهِمْ لِيُذْهِبُوا ظُلْمَةَ جَهْلِنَا وَهُمْ يُطْفِئُونَ مِنْ قُلُوبِنَا نُورَ الْإِيمَانِ ، وَلَعَلَّكَ تَسْمَعُ مِنْ يَوْمٍ لِآخَرَ أَخْبَارَ مَنْ يَرْتَدُّونَ مِنْ بَنَاتِنَا وَالْأَبْنَاءِ . إِنَّ حِمَى الْإِسْلَامِ نَامَتْ آسَادُهُ فَتَسَلَّلَتْ إِلَيْهِ ثَعَالِبُ الْمُبَشِّرِينَ تَقْتَنِصُ أَشْبَالَهُ الْكِرَامَ ، أَوْ قُلْ هَانَ الْإِسْلَامُ عَلَى أَهْلِهِ فَهَانَ عَلَى غَيْرِهِمْ وَأَكْبَرُ الْبَلَايَا أَنْ تَقُولَ هَانَ الْإِسْلَامُ ، كَانَ سَلَفُنَا إِذَا سَمِعُوا كَلِمَةً فَقَطْ تُهِينُهُ قَامُوا وَقَعَدُوا حَتَّى لَا يَذِلَّ وَلَا يُضَامَ ، فَكَيْفَ لَوْ رَأَوُا الْأَجْنَبِيَّ عَنْ دِينِهِمْ يَصِيدُ أَبْنَاءَهُمْ وَبَنَاتِهِمْ صَيْدَ الظِّبَاءِ . لِتَعْلَمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لَكَ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى تِلْكَ الْمُسْتَشْفَيَاتِ وَلَوْ قَتَلَتْكَ الْأَسْقَامُ ، وَلَا يَجُوزُ لَكَ أَنْ تُدْخِلَ أَبْنَاءَكَ تِلْكَ الْمَدَارِسَ وَلَوْ عَاشُوا فِى صُفُوفِ الْعَوَامِّ ، وَمَنْ رَضِيَ بِتَكْفِيرِ مَنْ

بِتِلْكَ المَدَارِسِ وَالمُسْتَشْفَيَاتِ فَهُوَ كَافِرٌ فِي نَظَرِ الإِسْلَامِ ، فَتَجَنَّبُوا تِلْكَ المَدَارِسَ وَالمُسْتَشْفَيَاتِ وَأَمَامَكُمْ مَدَارِسُنَا وَمُسْتَشْفَيَاتُنَا مُفَتَّحَة أَبْوَابُهَا صَبَاحَ مَسَاء .

(حديث) ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ : مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ . رَوَاهُ الشَّيْخَانِ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

١١ — خطر المبشرين والوقاية منه *

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الدَّعْوَةَ إِلَى دِينِهِ مِنَ الفَرَائِضِ الإِسْلَامِيَّه ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي أَمَرَنَا بِالدِّفَاعِ عَنْ شَرِيعَتِهِ بِمَا تَقْتَضِيهِ الحِكْمَةُ القُرْآنِيَّه ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي كَانَتْ وَظِيفَتُهُ الدَّعْوَةَ إِلَى هٰذِهِ المِلَّةِ الحَنِيفِيَّه ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِي الغَيْرَةِ المُمْتَازَةِ عَلَى دِينِ السَّلَامِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ . لَقَدِ انْتَشَرَ المُبَشِّرُونَ اليَوْمَ فِي أَنْحَاءِ الأَرْضِ انْتِشَارَ الجَرَادِ ، لَا تَتَّجِهُ إِلَى جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِ الدُّنْيَا إِلَّا وَتَجِدُهُمْ هُنَاكَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَمُ الفَسَادِ ، يَدْعُونَ إِلَى دِينِهِمْ وَلَا يُفَرِّقُونَ فِي هٰذِهِ الدَّعْوَةِ بَيْنَ طَائِفَةٍ وَطَائِفَةٍ مِنَ العِبَادِ ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى عَظِيمَةِ

العظائم وهى مواجهتهم بهذه الدعوة لأهل الإسلام . إن هؤلاء المبشرين مسوقون إلى ما يعملون بيد مال كثير ، جمعت لهم الملايين ووضعت بين أيديهم يصرفون منها كما شاءوا بلا تقتير ، فقاموا قومتهم هذه فى كل ناحية من نواحى المعمورة بلا أى نكير ، وبهذا أصبحوا خطراً لا يدانيه خطر على أهل الحق الكرام . بذلوا كل ما يطيقون فى إغواء الناس واعتناقهم ما إليه يدعون ، ليبرهنوا لمن ينفقون عليهم أنهم بما ينفقون عليهم جديرون ، يكذبون فى دعوتهم يدلسون يقبحون الحق يزينون الباطل وهم يعلمون ، ويغرون بالنساء من يحب النساء وبالمال من يحب المال ليصيدوا أشباه الأنعام . ومن شباكهم حفلات وعظ يدعون إليها كثيراً من البله الأغرار ، وكثيراً ما يقوم فيها منهم واعظ يدعى أنه كان من علماء الأزهر الكبار ، يغرر بالبسطاء ليقتدوا به فى ترك الإسلام ويصبحوا من عداد الكفار ، فليفهم هذا كل مسلم وليهجر حفلاتهم هذه هجره لأفحش حرام . ولقد اخترعوا فى هذه الأيام طريقة للتكفير وهى طريقة فى غاية الخطر ، هى أن ينوموا المرء تنويماً مغناطيسياً ليسيطروا على روحه سيطرة الراعى على البقر ، فيصبح رهن إشارتهم لا يخالفهم وكيف يخالف مسلوب الإرادة معدوم النظر ، والعلاج النافع لهذا أن يفر الإنسان منهم فراره من

السبُع المُفترس الهجّام. إنّ الدّعوة إلى الدين فريضةٌ علينا نحنُ لأنّ دِيننا هو الحقّ الصّريح، لكننا أهملنا هذه الفريضة ثمّ أهملناها حتّى كأنّها حرامٌ علينا قبيح، ومع ذلك سكتنا أمام أولئك المبشّرين سُكوتاً أفهمهُم أنّ موقفهُم صحيح، وبهذا أصبحُوا في باطلهم أقوى منّا في حقّنا فانظرُوا ثمّ انظرُوا يا ذوي الأفهام. تعلّمُوا أيّها النّاسُ وعلّمُوا أولادكُم العلمَ الإلهيّ وهو علمُ الدّين، فإنّ هذا العلمَ هوَ السّلاحُ الوحيدُ الواقي من هجمات المُبطلين أمثال المُبشّرين، وأنتم تعلمُونَ أنّ اللصّ لا يستطيعُ السّطوَ إلاّ على من لا سلاحَ معهُ من المُهملين، ولمّا أهملنا في هذا الزّمن علمَ الدّين أغارَ علينا لصُوصُ المُبشّرين كأنّنا أغنام.

(حديث) ما عُبدَ اللهُ بشيْءٍ أفضلَ من فقهٍ في دينٍ ولفقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشّيطانِ من ألفِ عابدٍ، ولكلِّ شيْءٍ عمادٌ وعمادُ هذا الدّينِ الفقهُ. رواهُ البيهقيّ في الشّعبِ واللّفظُ لهُ، ورواهُ التّرمذيّ وابنُ ماجه مُختصراً.

١٢ - المؤمن وعداوته وقتله

الحمدُ للهِ حمدَ عبدٍ يُوالي إخوانهُ المؤمنينَ مُوالاةَ الأخِ المُخلصِ الأمين، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاّ اللهُ شهادةَ رجلٍ يرى أنّ عداوةَ أهلِ الإيمانِ بلاءٌ حاضرٌ مُبين، وأشهدُ أنّ سيّدنا ومولانا مُحمّداً عبدُهُ

وَرسُولُهُ الَّذِى بَيَّنَ مَا فِى قَتْلِ الْمُؤْمِنِ عَلَى الْقَاتِلِينَ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ عَبْدٍ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمٍ .

(أَمَّا بعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : يَنْبَغِى أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ حَبِيبُ اللهِ تَعَالَى وَوَلِيُّهُ الْمُحْتَرَم ، وَأَنَّهُ قَدْ يُقْسِمُ عَلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَيَفْعَلَنَّ كَذَا فَيَبَرُّهُ فِى الْقَسَمِ ، وَيَنْبَغِى أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنَ الْكَعْبَةِ عِنْدَ مَوْلَانَا الْحَكَمِ ، بَلْ يَنْبَغِى أَنْ تَتَأَكَّدَ أَنَّ مَنْزِلَةَ الْمُؤْمِنِ الْأَدِيبِ أَرْفَعُ عِنْدَ رَبِّنَا مِنْ مَنْزِلَةِ الْمَلَكِ الْكَرِيمِ . وَيَنْبَغِى أَنْ تَعْلَمَ فَوْقَ هٰذَا أَنَّ هٰذِهِ الدُّنْيَا خُلِقَتْ لِلْمُؤْمِنِ يَعْمُرُهَا بِتَقْوَاه ، وَأَنَّ دَارَ الْكَرَامَةِ فِى الْآخِرَةِ خُلِقَتْ لِلْمُؤْمِنِ جَزَاءَ طَاعَتِهِ لِمَوْلَاه ، إِذَنْ يَنْبَغِى أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ خَيْرَىِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنَّمَا خُلِقَا لِهٰذَا الْمُؤْمِنِ الَّذِى لَا يُشْرِكُ أَحَدًا مَعَ اللهِ ، هٰذَا مَبْلَغُ قَدْرِ الْمُؤْمِنِ وَهٰذَا مَا لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ مِنْ إِجْلَالٍ وَتَعْظِيمٍ . وَبِمَا أَنَّ الْمُؤْمِنَ بِهٰذَا الْقَدْرِ السَّامِى حَذَّرَ رَبُّنَا مِنْ عَدَاوَتِهِ كُلَّ التَّحْذِيرِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى تَوَعَّدَ مَنْ عَادَاهُ بِالْحَرْبِ وَهُوَ إِذَا حَارَبَ بَطَشَ الْبَطْشَ الْخَطِيرِ ، إِذْ أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنْ شَاءَ أَزَالَ الْعَالَمَ كُلَّهُ فِى لَمْحَةٍ لِأَنَّهُ الْفَعَّالُ الْقَدِيرِ ، وَانْظُرْ أَنْتَ مَاذَا يَكُونُ لِلْعَبْدِ الْعَاجِزِ إِذَا حَارَبَهُ خَالِقُهُ الْقَدِيرُ الْعَلِيمِ . هٰذَا وَعِيدُ مَنْ عَادَى الْمُؤْمِنَ فَقَطْ أَمَّا مَنْ قَتَلَهُ مُتَعَمِّدًا فَسَمَاعُ جَزَائِهِ يَهُزُّ الرَّاسِيَات ، كَيْفَ لَا وَقَتْلُهُ هٰذَا أَهْوَنُ مِنْهُ عِنْدَ رَبِّنَا زَوَالُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَات ،

وَحَسْبُكَ فِي عِظَمِهِ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَوِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لَأُلْقُوا جَمِيعاً فِي دَارِ الْإِهَانَاتِ ، فَانْظُرْ أَنْتَ إِذَا صَدَرَ هَذَا الْقَتْلُ مِنْ وَاحِدٍ فَقَطْ مَاذَا يُلَاقِي مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَلَقَدْ حَدَّدَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ جَزَاءَ قَاتِلِ الْمُؤْمِنِ فَقَالَ قَوْلاً وَاضِحاً حَكِيماً ، وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ، تَدَبَّرْ هَذَا تَجِدْهُ وَعِيداً يَقْصِمُ الظُّهُورَ وَيَقْطَعُ نِيَاطَ الْقُلُوبِ وَيُبْدِي الْمُسْتَقْبَلَ أَسْوَدَ بَشِعاً ذَمِيماً ، وَإِنَّمَا كَانَ جَزَاءُ الْقَتْلِ بِهَذِهِ الدَّرَجَةِ لِأَنَّهُ أَقْسَى اعْتِدَاءٍ عَلَى أَحَدِ جُنُودِ بَارِئِنَا الْحَكِيمِ . إِنَّ هَذَا الْجَزَاءَ – مَعَ عِظَمِهِ – لَمْ يُبَالِ بِهِ النَّاسُ وَهُمْ عَنْهُ فِي غَفَلَاتٍ ، فَإِنَّ حَوَادِثَ الْقَتْلِ لَا تَنْقَطِعُ لَيْلاً وَلَا نَهَاراً فِي جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ ، سَئِمَتْ حِكَايَتَهَا الصُّحُفُ السَّيَّارَةُ وَمَلَّ قِرَاءَتَهَا الْمُتَتَبِّعُونَ لِحَوَادِثِ الْكَائِنَاتِ ، أَمَا آنَ لَنَا أَنْ نَنْتَهِيَ عَنْ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ الشَّنِيعَةِ لِيُعِيذَنَا رَبُّنَا مِنْ ذَلِكَ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ .

(حديث) الْمُؤْمِنُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ بَعْضِ مَلَائِكَتِهِ . رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه وَابْنُ النَّجَّارِ .

(آخر) لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لَكَبَّهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّارِ . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ .

(آخر) لَزَوالُ الدُّنيا أهْوَنُ عَلى اللهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ .
رَواهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسائِيُّ .

١٣ — ماذا فعل المال بالناس؟

الحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَنا فِي هٰذِهِ الحَياةِ لِنَسْتَخْدِمَها لِحَياتِنا الأُخْرَوِيَّه ، وَأشْهَدُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ شَهادَةَ مُؤْمِنٍ لَمْ تَغُرَّهُ زَخارِفُ هٰذِهِ الحَياةِ الدُّنْيَوِيَّه ، وَأشْهَدُ أنَّ سَيِّدَنا وَمَوْلانا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي حَذَّرَنا الدُّنيا وَابْتِساماتِها الخِداعِيَّه ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبارِكْ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَأصْحابِهِ أهْلِ اليَقَظَةِ المُفْلِحِين .

(أمَّا بَعْدُ) فَيا عَبْدَ اللهِ : لَقَدْ أصْبَحَ النّاسُ اليَوْمَ مَعَ المالِ بِحالَةٍ تَسْتَثِيرُ فِي القُلُوبِ الأحْزان ، حالَةٍ مَعْذُورٌ مَنْ يَعْجَبُ لَها وَيَطُولُ عَجَبُهُ لِأنَّها ما كانَتْ تَتَصَوَّرُها الأذْهان ، حالَةٍ لا يَبْعُدُ عَنِ الحَقِّ مَنْ يَقُولُ إنَّها الجُنُونُ بِذٰلِكَ المالِ الفَتّان ، حالَةٍ تَنْطِقُ أنَّهُمْ لا يَسْتَنْكِفُونَ مِنْ عَمَلِ أيِّ شَيْءٍ يُوصِلُهُمْ لِلْمالِ مَهْما يَشِين . فَتَرى أُناساً يُذِلُّونَ أنْفُسَهُمْ إلى حَدٍّ يُخَيِّلُ أنَّهُمْ يَعْبُدُونَ أرْبابَ اليَسار ، فَتَسْألُ لِماذا يُذِلُّ هٰؤُلاءِ أنْفُسَهُمْ فَيُقالُ لَكَ يَطْمَعُونَ فِي دِرْهَمٍ أوْ دِينار ، يَرْضَوْنَ ذٰلِكَ الذُّلَّ وَيَتَنازَلُونَ اخْتِياراً عَنْ شَرَفِ الأفاضِلِ الأحْرار ، لِأجْلِ مَتاعٍ إذا اكْتُسِبَ بِذُلٍّ نَزَعَ البَرَكَةَ مِنْهُ رَبُّ العالَمِين . وَتَرى أُناساً يَقْتُلُونَ وَيُزَوِّرُونَ وَيَسْرِقُونَ وَيَغُشُّونَ

وَيَحْتَالُونَ فتَسْأَلُ لِمَاذَا يقتحمون هذه الموبقات ، فتُجاب بِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذلك ليصلوا إلى بعض ما بالدُّنْيَا من عُرُوضٍ فانيات ، يُغْضِبُونَ رَبَّهُمْ باقتراف تلك المهلكات التي توعدوا عليها بالنار دار الإهانات ، لأجل مال ضمن لهم منه ربنا ما يكفيهم وصرح لهم بذلك في الكتاب المبين . وأرجوك أن تصدقني إذا أخبرتك أن أناسا يعرضون نساءهم في سوق الفسوق ، ويبيعون عفافهن لطالب الفجور بهن ويتمنون بكل جوارحهم رواج هذه السوق ، ولو سألت لماذا انحط هؤلاء عن البهائم التي ذكرها على الغيرة على أنثاه مخلوق ، لقيل لك للمال فعلوا هذا فإذا لمحوه هان عليهم سقوطهم عند الخالق والمخلوقين . ولا تشك في أن بيننا أناسا آباؤهم مسلمون وهم كانوا من المسلمين ، ولكنك تراهم يمرقون من الإسلام واحدا واحدا بحالة تدهش الناظرين ، فإذا سألت لماذا يكفر هؤلاء وهم يعلمون أن عاقبتهم العذاب الأبدي المهين ، قيل لك لأجل المال كفروا وإن كانوا بعد قليل يتركون هذا المال صاغرين . هذه حقائق تبرهن لك أن الشرف والدين يبذلان اليوم عوضا للمال ، وتفهمك أن الجنة بنعيمها الأبدي يعرض عنها لهذا العرض القريب الزوال ، وتدلك أن فتنة المال تنسي الرب وتنسي الدين وتنسي الآخرة وما بها من أهول ، وتبين

لك أن الناس جنوا بالمال وهل يفعل ما قلنا سوى المجنونين .
لقد ضحك هذا المال على أجيال مضت لا يعلم عددها إلا الله ، كل جيل منها ملكه واغتر به وبينما هو فى غروره نزل به الموت فطواه ، فوثبت ورثته لتقسيم ماله وبقيت عليه تبعاته ولم ينفعه منه إلا ما قدمته يداه ، فاعتبر بمن تقدمك أيها المؤمن وأطل التفكر فى الموت تعرف قدر المال والماليين .

(حديث) الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له ، رواه أحمد والبيهقى فى الشعب .

١٤ ـ متناقضات نحن متلبسون بها

الحمد لله الذى أمر بطاعته ووعد عليها عز هذه الدار وعز تلك الدار ، وأشهد أن لا إله إلا الله الذى نهى عن معصيته وتوعد عليها بذل الدنيا وعذاب دار القرار ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله الذى علمنا أن الطاعة سبب البركة فى الأعمال والأعمار ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وكل عبد منيب .

(أما بعد) فيا عبد الله : نحن فى زمن يعجب العاقل كثيرا لما يرى فيه من متناقضات ، نعم يرى فيه متناقضات لا يخطئ من يعد ظهورها من البديهيات ، نحن متلبسون بها ولكننا عنها وعن

تناقضها فى غفلات مستديمات ، وإذا أحببت أن تعرف ذلك فاسمع أشرح لك هذا العجب العجيب . كثرت المطابع اليوم فكثرت كتب العلم خصوصاً كتب العلم الديني ، وخف ثمنها ثم خف بحيث لا يعسر شراؤها على فقير ولا غني ، ومع ذلك كثر جهلنا بدين ربنا حتى كأننا فى عصر جاهلي ، أليس ذلك تناقضاً صدوره من هذه الأمة الجليلة أمر غريب . أين هذا من عهد مضى كان أهله يلاقون الأهوال فى سبيل حديث واحد لا كتاب ، كان الرجل ربما يسافر فى طلب ذلك الحديث الواحد شهراً للذهاب وشهراً للإياب ، أما الكتاب - إن وجد - فكان يبذل ثمنه بلا عد ولا حساب ، ومع ذلك كانوا فى العلم بحاراً زواخر لا يبلغ اليوم عشر معشار أبلدهم أنجب نجيب . وكثر الوعظ والإرشاد فى هذا الزمن إلى حد ليس له نظير ، فأسست له الجمعيات وألقيت كالمطر المحاضرات فوق ما بالمساجد من وعظ كثير ، ومع ذلك نرى أنواع الفسق والفجور تموج بيننا كما تموج أمواج البحر الكبير ، أليس ذلك من التناقض الذى لا يخفى دهشته منه من أطباء القلوب طبيب . احفظ هذا وارجع إلى سلفنا الذين ما كان بينهم ما يدانى هذه العنايات ، فلا كانت جمعيات تؤسس للوعظ ولا محاضرات تلقى ولا يجوب الأقطار لهذا ملقو العظات ، وإنما

كَانَ مَنْ يَنْهَمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ يَتَخَوَّلُونَهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ لَا يَوْمِيًّا بَلْ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ ، وَمَعَ ذَٰلِكَ كَانُوا مَلَائِكَةً فِي اسْتِقَامَتِهِمْ وَاجْتِهَادِهِمْ فِيمَا يَرْضِي مَوْلَانَا الرَّقِيبِ . وَكَثُرَ الْمَالُ فِي هٰذَا الْجِيلِ ثُمَّ كَثُرَ إِلَى حَدِّ مَا كَانَ يَخْطُرُ عَلَى الْأَفْكَارِ ، وَمَعَ ذٰلِكَ كَثُرَ بُخْلُنَا حَتَّى مَنَعْنَا الزَّكَاةَ الَّتِي جَزَاءُ مَنْعِهَا النَّارُ ، وَكَثُرْنَا ـ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ـ الْيَوْمَ ثُمَّ كَثُرْنَا حَتَّى امْتَلَأَتْ بِمِئَاتِ الْمَلَايِينِ مِنَّا الْأَقْطَارُ ، وَبِقَدْرِ هٰذَا صَارَ ذُلُّنَا وَقَدْ كُنَّا آلَافًا فَقَطْ وَعِزُّنَا بِلَا مِثْلٍ وَلَا ضَرِيبٍ . لَعَلَّكَ تَقُولُ لِمَاذَا حَلَّ بِنَا كُلُّ هٰذَا الْبَلَاءِ فِي هٰذَا الزَّمَانِ ، فَأَقُولُ نَزَعَ اللهُ الْبَرَكَةَ مِنْ عُقُولِنَا وَأَبْدَانِنَا وَأَعْمَالِنَا بِشُؤْمِ الْعِصْيَانِ ، إِنَّ الْعِزَّ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى وَقَدْ هَجَرْنَاهَا فَكَانَ جَزَاؤُنَا هٰذَا الْهَوَانُ ، فَهَلْ لَنَا أَنْ نَتُوبَ إِلَى رَبِّنَا وَنَلْزَمَ طَاعَتَهُ لِيُلْبِسَنَا مِنْ عِزِّهِ الثَّوْبَ الْقَشِيبَ .

(حديث) يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ وَتَبْقَى حُفَالَةٌ كَحُفَالَةِ الشَّعِيرِ أَوِ التَّمْرِ لَا يُبَالِيهِمُ اللهُ تَعَالَى بَالَةً . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَأَحْمَدُ .

١٥ — هل الناس اليوم مثلهم بالأمس مع المحتاجين

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي يُفَرِّجُ فِي الدَّارَيْنِ كُرَبَ مَنْ يُفَرِّجُ كُرُبَاتِ الْمَكْرُوبِينَ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي أَجْزَلَ الْأَجْرَ لِمَنْ يَمُدُّ يَدَ الْمَعُونَةِ لِلْمُحْتَاجِينَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ سَيِّدُ مَنْ أَجَابَ دَاعِيَ الْمَلْهُوفِينَ ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا

محمدٍ وعلى آله وأصحابه ذوي النفوس الطيبات .

(أما بعدُ) فيا عبدَ الله : إنَّ قرضَ المعسرِ من مكارمِ الأخلاقِ التي يحرصُ عليها دينُ الإسلام ، ولذلك لا يسمحُ به من الناسِ إلا فريقُ الكرام ، وإن شئتَ أن تعرفَ قدرَهُ لتصدرَ عليه أعدلَ الأحكام ، فانظرِ المرءَ يمدُّ يدَهُ للقرضِ في أيِّ الأوقات . إنَّهُ لا يمدُّ يدَهُ لذلكَ إلا وهوَ في أشدِّ الحاجةِ إلى المال ، إمّا لدينٍ أضجرَهُ أو لِهمةٍ فجأتْ أو لجوعٍ أو عُرْيِ العيال ، حينئذٍ تراهُ يمدُّ يدَهُ ملهوفاً وكلُّهُ رجاءٌ أن تحققَ لهُ الآمال ، فانظرْ أنتَ أيَّ جزاءٍ يكونُ جزاءُ من يغيثُهُ وهوَ في تلكَ الكرُبات . لهذا كانَ سلفُنا إذا تخيلُوا الحاجةَ عندَ امرئٍ تسابقُوا إليهِ وأسعفُوه ، وقدْ يكون حينئذٍ ليسَ بذي حاجةٍ كُبرى إلى ما قدمُوه . كانُوا يفعلونَ ذلكَ عطفاً عليهِ ومُساعدةً لهُ لا أن يُقرضُوه ، وقدْ يكونُونَ أشدَّ احتياجاً منهُ وقتَ هاتيكَ المُساعدات . خفَّ بعدَ ذلكَ هذا التعاطفُ عندَ أهلِ هذا الدين ، غيرَ أنهمْ لم يقصرُوا قطُّ في قرضِ أهلِ الحاجةِ المكرُوبين ، فكنتَ ترى الرجلَ يعرجُ على أخيهِ سراً يطلبُ منهُ عشراتِ الجنيهاتِ والمئين ، وكما أخذَها سراً يردُّها سراً بلا سنداتٍ عليهِ ولا (كمبيالات) . ماتَ كلُّ هذا في زمانكَ هذا ورحمَ اللهُ تلكَ الأيام ، وأصبحنا كأنَّ قرضَ المعسرِ تغيرَ حكمُهُ من مطلوبٍ فعلُهُ

لحرام ، فإذا ذهبتَ اليومَ لامرئٍ تقترضُ منهُ مبلغاً ولو لأطفال أيتام ، بادركَ بالمفاوضةِ في ربحِ ما تطلبُ ولو شاهدَ الأيتامَ في حالِ المماتِ . نسيَ النّاسُ ربحَ الآخرةِ ومحّضوا النظرَ لربحِ هذهِ الدّار ، وغدتْ قلوبهم لا تشعرُ برحمةٍ ولا حنانٍ على أهلِ الإعسار ، ولو غلطَ أحدهُمْ مرّةً واقرضَ معسراً كانَ طلبهُ الرّدّ من نار ، أقرضِ المعسرَ وأمهلهُ أيها المؤمنُ يظلّكَ اللهُ في ظلّهِ يومَ لا ظلّ إلاّ ظلالهُ الوارفات.

(حديث) مَنْ أنظرَ معسراً أو وضعَ عنهُ أظلّهُ اللهُ في ظلّهِ يومَ لا ظلّ إلاّ ظلّهُ . رواهُ أحمدُ ومسلمٌ.

١٦ — هل للانسان عذر إن ضلّ

الحمدُ للهِ حمدَ عبدٍ برهنَ على صدقِ إيمانهِ بلزومِ عملِ الصّالحات ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ شهادةَ إنسانٍ هجرَ المعاصيَ لإنّها لا تليقُ بالمؤمنينَ والمؤمنات ، وأشهدُ أنّ سيدَنا ومولانا محمّداً عبدهُ ورسولهُ الذي عملُ المعاصي عليهِ منَ المستحيلات ، اللهمّ صلّ وسلّمْ وباركْ على سيّدنا محمّدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ وعلى كلّ عبدٍ بفعلِ الصّالحاتِ نبيل .

(أمّا بعدُ) فيا عبدَ الله : إنّ ربّنا عزّ وجلّ أكرمنا فخلقنا ممتازينَ عنْ سائرِ الحيوانات ، وهبنا عقولاً تُدركُ الحسنَ والقبيحَ والنّافعَ والضّارّ باستعداداتِها السّامياتِ ، ولوْ جعلَها ربّنا مناط

التَّكْلِيفِ وَحْدَهَا لَكَانَ لِلْاعْتِذَارِ أَبْوَابٌ مُفَتَّحَات ، فَكَانَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَقُولَ يَارَبِّ إِنِّي مَافَعَلْتُ إِلَّا مَارَأَيْتُ أَنَّهُ حَسَنٌ وَجَمِيل . سَدَّ رَبُّنَا بَابَ هَذَا الْاعْتِذَارِ سَدًّا مُحْكَمًا فَأَرْسَلَ الرُّسُلَ الْكِرَام ، فَجَاءُونَا بِشَرَائِعَ وَاضِحَةٍ بَيَّنَ لَنَا رَبُّنَا فِيهَا الْحَلَالَ وَالْحَرَام ، مَا تَرَكَ شَيْئًا نَحْتَاجُهُ فِى دِينِنَا وَدُنْيَانَا إِلَّا وَبَيَّنَهُ لَنَا الْبَيَانَ التَّام ، فَأَصْبَحْنَا أَمَامَنَا طَرِيقَانِ بَيِّنَانِ لَا يَخْفَيَانِ حَتَّى عَلَى ذِى نَظَرٍ كَلِيل . أَمَّا الطَّرِيقُ الْأَوَّلُ فَطَرِيقُ مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِين ، وَهُوَ فِعْلُ الْإِنْسَانِ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ وَتَرْكُهُ مَا نَهَاهُ عَنْهُ مَعَ حُسْنِ الْيَقِين ، وَأَمَّا الطَّرِيقُ الثَّانِى فَطَرِيقُ مَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُتَمَرِّدِينَ وَالْكَافِرِين ، وَهُوَ الْخُرُوجُ عَلَى الشَّرَائِعِ وَاسْتِبَاحَةُ مَا حُرِّمَ دُونَ اكْتِرَاثٍ بِوَعِيدِ مَوْلَانَا الْجَلِيل . بَيَّنَ ذَلِكَ رَبُّنَا وَوَعَدَ مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْأَوَّلَ جَنَّاتِ النَّعِيم ، لَهُ فِيهَا مَا تَشْتَهِي نَفْسُهُ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا يَتَقَلَّبُ فِى ذَلِكَ التَّكْرِيم ، وَتَوَعَّدَ مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الثَّانِيَ بِنَارٍ لَا يَعْلَمُ مَبْلَغَ حَرَارَتِهَا إِلَّا خَالِقُهَا الْحَكِيم ، كُلَّمَا طَالَ بِهَا الْأَبَدُ ازْدَادَتْ شِدَّةً عَلَى ذَلِكَ الْمُتَمَرِّدِ الْكَافِرِ الذَّلِيل . إِنْ كُنْتَ مُصَدِّقًا بِهَذَا أَيُّهَا الْأَخُ فَمَالِي أَرَاكَ تَفْعَلُ هَذَا الْحَرَامَ وَذَاكَ الْحَرَام ، إِنَّ مَثَلَكَ حِينَئِذٍ مَثَلُ مَنْ يُلْقِي نَفْسَهُ فِى النَّارِ وَلَهَا أَمَامَ عَيْنَيْهِ الْتِهَابٌ وَضِرَام ، وَإِنْ كُنْتَ مُكَذِّبًا فَإِنَّا لَا نُخَاطِبُكَ لِأَنَّكَ مَعْدُودٌ حِينَئِذٍ مِنْ أَهْلِ

الْكُفْرِ الطَّغَام ، وَلاَ أَظُنُّكَ تَرْضَى أَبَدًا أَنْ تَكُونَ مِنْ هذَا الفَرِيقِ الخَبِيثِ الضِّلِّيل . إِذَنْ عَلَيْكَ أَنْ تُقبِلَ عَلَى صَالِحَاتِ الأَعْمَالِ حَيْثُ إِنَّهَا الطَّرِيقُ المُوصِّلُ لِلجِنَان ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَفِرَّ مِنَ المَعَاصِي حَيْثُ إِنَّهَا الطَّرِيقُ المُفْضِي إِلَى النِّيرَان ، هذَا هُوَ البُرْهَانُ الصَّادِقُ عَلَى أَنَّكَ بِالرُّسُلِ وَبِشَرَائِعِهِمْ مُؤْمِنٌ صَادِقُ الإِيمَان . أَمَّا هُيَامُكَ فِي أَوْدِيَةِ الْهَوَى مَعَ دَعْوَاكَ الإِيمَانَ فَهَبْ ظُنُونٌ وَمَثَارُ عَجَبٍ طَوِيل .

(حديث) سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَتَجَارَى بِهِمُ الأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ لاَ يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلاَ مَفْصِلٌ إِلاَّ دَخَلَهُ . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيث .

١٧ — الغضب

الحَمْدُ للهِ حَمْدَ عَبْدٍ لاَ يَنْتَصِر لِنَفْسِهِ فَيَنْتَصِرُ لَهُ مَوْلاَهُ القَدِيرُ الْحَكِيم ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةَ امْرِئٍ رَضِيَ أَنْ يَكُونَ مَغْلُوبًا فِي الشَّرِّ لِيَغِيظَ الشَّيْطَانَ الرَّجِيم ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي شَهِدَ لَهُ رَبُّهُ بِأَنَّهُ عَلَى خُلُقٍ عَظِيم ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْحُلَمَاءِ الأَمْجَاد .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ الله : لاَ تَفْتَحْ بَابَ قَلْبِكَ لِلْغَضَبِ يَدْخُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ إِذَا أَسَاءَكَ إِنْسَان ، سُدَّ عَلَى الْغَضَبِ كُلَّ المَنَافِذِ وَحُلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِكَ بِكُلِّ مَا فِيكَ مِنْ إِمْكَان ، فَإِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ

مُتأجِجة إِذا دخلت القلب ألهبت فيه النيران ، والقلب إذا أحس بهذه الجمرة يهيج هيجاناً دونه هيجان الآساد . والقلب ملك الجوارح وقائدها الأعلى لا تستطيع أن تخالف ما له من إشارات ، فإذا ما هاج هاجت لا تهدأ أبداً ما دامت ثوراته متأججات ، والجوارح إذا هاجت بطشت ولا تقف عند حد في بطشاتها العنيفات ، فالمتهيج يشتم ويضرب ويطلق ويقتل ولو أباه ويكفر رب العباد . فإذا ما فعل بالناس شرًا حقدوا عليه ولا بد وانتقموا منه في الحال ، فكم ذبح وكم رمي بالرصاص وكم دس السم لمن تهيج وآذى بأقواله والأفعال ، وكم أحرق بيته وكم أفسدت مزروعاته وكم أوذي في أقاربه نساء ورجال ، وكم بقرت بطون بهائمه وكم لاقى من البلايا والكوارث ما يهز الأطواد . وكم وقع في أيدي الحكومة فجلدته آلم الجلد بسياط كأنها من نار ، وكم زجته في ظلمات السجون عشرات السنين لا يبارحها في ليل ولا في نهار ، وكم شغلته دهوراً في أعمال شاقة يكل منها وينهد أشد بغل وأقوى حمار ، وكم نصبت له المشانق ففاضت روحه مخنوقاً بها معلقاً في حبالها على رءوس الأشهاد . كل هذا البلاء قاده إليه الغضب ولولا الغضب ما حل به كل هذا البلاء ، وللغضب بلايا أخرى أخروية كل ما سمعت من الأهوال بجانبها هباء ، فإن المرء يغضب

فيعصى الله تعالى فيغضب الله عليه فيلقيه فى دار الأشقياء ، وهناك يلاقى من آلام العذاب ما تحترق لتصوره القلوب وتتفتت الأكباد.

إن الغضب أيها المؤمن زمام يقودك الشيطان منه إلى شقاء الدنيا والآخره ، فالمرء ما دام فى غضب فهو من حزب الشيطان تجارته بائرة وصفقته خاسره ، أما الحليم فاقتدى بربه وتخلق بأخلاق أنبيائه وأوليائه فحفظ من الشيطان وحبائله الماكره ، ولضبط نفسه عند الغضب يعيش ويموت ويبعث بعيداً عن المكاره والأنكاد .

(حديث) عن أحد أصحاب النبي ﷺ أن رجلاً قال يا رسول الله أوصني قال لاتغضب . قال : ففكرت حين قال رسول الله ﷺ ما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله . رواه أحمد .

١٨ — الكبر

الحمد لله حمد عبد عرف قدر نفسه فرضى عنه مولاه ، وأشهد أن لا إله إلا الله الذى جعل العزة لمن أطاعه والذل لمن تمرد وعصاه ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله أجل مخلوق أخلص لله ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وكل عبد للفضيلة نصير .

(أما بعد) فيا عبد الله : كثر بيننا اليوم أناس يرى أحدهم قدر نفسه فوق ما تتصور الأفهام ، ويجزم كل الجزم أنه رفيع

75

المقام رفعة كل رفيع معها تحت الأقدام، لا تذكر أمامه عظيما إلا ابتسم وهز رأسه ساخراً بما له من مقام، ولذلك تراه صعباً شرساً ذا إباء واستعصاء حتى على خالقه القدير. وكذلك تراه حاد الطبع حساس الشعور يتألم حتى من مر النسيم، ناري المزاج يلتهب التهاباً لكلمة لا تعجبه صدرت من ذي قلب سليم، ذا ناموس مقدس يخدشه حتى صوت بعوضة بناديه الكريم، ولا تتعجب إذا قلت لك إنه ربما تأفف من لمس الحرير. مسكين هذا ثم مسكين إلى حد يستحق معه والله الرثاء، فإنك بينما تراه بهذه العزة تراه في حال ذل تفزع العقلاء، تراه غارقا في حمأة المعاصي وذل المعاصي تهوى له المراكز الشماء، إذن هو يتحامى مر النسيم وفي الوقت عينه يلقى نفسه عمداً في عذاب السعير. قولوا لذلك المسكين أنت لا تكون عزيزاً أبداً والله تعالى عليك غضبان، كما أنك لا تكون رفيع القدر أبداً وأنت في قاذورات المعاصي نائم يقظان، إن العزة والرفعة ليستا بالدعوى وليس حصولهما بيد أي إنسان، ولكنهما بيد الله وحده يمنحهما لكل سراع إلى الامتثال إذا دينه الأسمى يشير. كذبوا ألف مرة كل من يقول إن عاصيا يكون رفيع المقدار، وكيف يكون العاصي رفيع المقدار وعذاب النار له في انتظار، ولا تصدقوا أبداً من يقول إن طائعا

يَكُونُ مُنْحطَّ الْقَدْرِ أَوْ فى صَغَارٍ ، وَكَيْفَ يَكُونُ الطَّائِعُ مُنْحَطًّا ذَلِيلاً وَجَنَّةُ الْخُلْدِ تَكَادُ إِلَيْهِ مِنْ شَوْقٍ تَطِير . قُولُوا لِذَلِكَ الْمِسْكِينِ إِنَّ رِقَّةَ الشُّعُورِ لَيْسَتْ كَمَا تَدَّعِى أَيُّهَا الْمَفْتُونُ الْمَغْرُور ، فَإِنَّ مَنْ يَتَّقِى صَوْتَ بَعُوضَةٍ لاَ يُمْكِنُ أَبَداً أَنْ يَسْتَخِفَّ بِغَضَبِ الْمُنْتَقِمِ الْغَيُور ، وَمَنْ يَتَأَفَّفُ مِنْ لَمْسِ الْحَرِيرِ لَيْسَ بِمَعْقُولٍ أَنْ يَتَحَمَّلَ النَّارَ وَهِىَ تَتَأَجَّجُ وَتَفُور ، قُولُوا كُلَّ ذَلِكَ أَيُّهَا النَّاسُ لِذَلِكَ الْمِسْكِينِ لَعَلَّهُ يَفْطَنُ لِمَا بِهِ مِنْ كِبْرٍ كَبِير .

(حديث) لاَ يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فى الْجَبَّارِينَ فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ . رَوَاهُ التِّرْمِذِىُّ .

(آخر) إِنَّ فى جَهَنَّمَ وَادِياً يُقَالُ لَهُ هَبْهَبُ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُسْكِنَهُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى وَالطَّبَرَانِىُّ وَالْحَاكِمُ .

١٩ — بانى نفسه وهادم غيره

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ عَبْدٍ لاَ يَعْرِفُ لِنَفْسِهِ قِيمَةً وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ وَاللهِ عَظِيم ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةً لاَ يَلْفِظُ مُرَاعِيهَا إِلاَّ بِكُلِّ قَوْلٍ كَرِيم ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ذُو الْخُلُقِ الْعَظِيمِ وَالْمَقَامِ الْفَخِيم ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ عَبْدٍ لِلتَّوَاضُعِ حَلِيف .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : كَثُرَ بَيْنَنَا الْيَوْمَ أُنَاسٌ أَنَانِيُّونَ هُمْ

وَرَثَةُ عَدُوِّ اللهِ إبْلِيسَ اللَّعِينِ ، لاَ يَفْتَأُ أَحَدُهُمْ يَقُولُ أَنَا أَنَا مَادِحًا نَفْسَهُ لِلسَّامِعِينَ ، وَكَمَا تَسْمَعُهُ الْيَوْمَ تَسْمَعُهُ غَدًا وَكَمَا يَقُولُ هٰذِهِ السَّنَةَ يَقُولُ بَعْدَ سِنِينَ ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ إلاَّ لِيَمْدَحَ نَفْسَهُ وَيُغَالِيَ فِى هٰذَا الْمَدْحِ السَّخِيفِ . وَالَّذِي يَقْصِدُهُ مِنْ وَرَاء هٰذَا الْمَدْحِ أَنْ يَعْتَقِدَ النَّاسُ أَنَّهُ رَجُلٌ عَظِيمٌ ، وَهُمْ إذَا اعْتَقَدُوا فِيهِ ذٰلِكَ عَظَّمُوهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ كُلَّ التَّعْظِيمِ ، فَيَعِيشُ مَعَهُمْ عَزِيزَ الْجَانِبِ مَحْبُوبَ الطَّلْعَةِ مَوْضِعَ الْإِجْلاَلِ وَالتَّكْرِيمِ ، إذَا قَامَ أَوْ مَشَى أَوْ جَلَسَ الْتَفُّوا حَوْلَهُ وَهُمْ لَفِيفٌ لَفِيفٌ . لِيَعْلَمْ هٰذَا الَّذِي يَمْدَحُ نَفْسَهُ أَنَّ النَّاسَ يَتَّهِمُونَهُ وَلَوْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، وَكُلَّمَا غَلاَ فِى مَدْحِ نَفْسِهِ غَلَوْا فِى تَكْذِيبِهِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْكَاذِبِينَ ، فَلَوْ مَكَثَ أَلْفَ سَنَةٍ يَمْدَحُ نَفْسَهُ لَكَانَتِ النَّتِيجَةُ تَحْقِيرَهُ عِنْدَهُمْ أَجْمَعِينَ ، فَيَنْعَكِسُ قَصْدُهُ عَلَيْهِ وَيَعِيشُ بَيْنَهُمْ وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَرِيفٍ . وَلْيَعْلَمْ كَذٰلِكَ مَادِحُ نَفْسِهِ أَنَّ الْعَظَمَةَ لاَ تُكْتَسَبُ بِالْقَوْلِ ـ بَلْ بِجَلاَئِلِ الْأَعْمَالِ ، فَإذَا جَلَّتْ أَعْمَالُهُ عَظَّمَهُ النَّاسُ رَغْمَ أُنُوفِهِمْ نِسَاؤُهُمْ وَالرِّجَالُ ، عَلَى أَنَّ تَعْظِيمَ النَّاسِ لاَ قِيمَةَ لَهُ إنَّمَا الْقِيمَةُ لِتَعْظِيمِ رَبِّنَا ذِي الْجَلاَلِ ، وَالْعَبْدُ مَا دَامَ مُلْتَفِتًا لِتَعْظِيمِ الْخَلْقِ لاَ يَنَالُ أَبَدًا تَعْظِيمَ مَوْلاَنَا اللَّطِيفِ . وَمِنْ عَجَائِبِ مَادِحِ نَفْسِهِ هٰذَا أَنَّكَ لاَ تَسْمَعُهُ يَمْدَحُ أَحَدًا سِوَاهُ ، بَلْ لَوْ ذُكِرَ أَمَامَهُ ذُو مَجْدٍ حَاوَلَ نَسْفَ مَجْدِهِ بِكُلِّ قُوَاهُ ، يَخْتَلِقُ مِنَ الْمَطَاعِنِ

مَا تَنْهَدُّ لَهُ الْجِبَالُ الشَّامِخَةُ وَيَرْمِيهِ بِهَا بِلَا مُبَالَاةٍ ، يَخْشَى أَنْ يَسْلَمَ لِذِي قِيمَةٍ عِنْدَ النَّاسِ قِيمَتُهُ فَيُشَارِكَهُ فِي الْعَظَمَةِ عِنْدَهُمْ وَلَوْ بِشَيْءٍ طَفِيفٍ . هٰذَا الْخُلُقُ السَّافِلُ فَشَا الْيَوْمَ بَيْنَنَا وَلَا سَبَبَ لَهُ سِوَى الْكِبْرِيَاءِ ، وَالْكِبْرِيَاءُ خُلُقٌ لَا يَكُونُ فِي أَحَدٍ إِلَّا وَيَكُونُ مَمْقُوتًا عِنْدَ النَّاسِ وَعِنْدَ رَبِّ الْآلَاءِ ، وَلَوْ كَانَ ذٰلِكَ الْأَنَانِيُّ عَظِيمًا عِنْدَ النَّاسِ لَاكْتَفَى بِذٰلِكَ عَنْ مَدْحِ نَفْسِهِ أَمَامَهُمْ تِلْكَ الْمَدَائِحَ الشَّنْعَاءَ ، فَلْيَعْلَمْ هٰذَا كُلُّ مَنْ يُحَاوِلُ هَدْمَ غَيْرِهِ لِيَكُونَ لَهُ مِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ مَجْدٌ طَرِيفٌ .

(حديث) لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَأَحْمَدُ .

(آخر) لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ بِهَا وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ ، فَقُلْتُ مَنْ هٰؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالْبَيْهَقِيُّ وَالضِّيَاءُ .

٢٠ — الظلم

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي حَرَّمَ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى لَا يَظْلِمَ إِنْسَانًا إِنْسَانٌ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ الَّذِي لَمْ يُبِحْ بِلَا حَقٍّ دَمًا وَلَا عِرْضًا وَلَا مَالًا لِكَائِنٍ مَنْ كَانَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي عَلَّمَنَا الْإِنْصَافَ فِي كُلِّ شَانٍ ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا

مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ كَعَدْلِهِمْ يَعْدِلُونَ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : لَقَدْ وَصَلَ النَّاسُ الْيَوْمَ فِى ظُلْمِ بَعْضِهِمْ إِلَى حَدٍّ تَقْصُرُ عَنْ شَرْحِ بَعْضِهِ الْعِبَارَاتُ ، حَدٍّ لَوْ حُكِىَ لِمَنْ لَمْ يَرَهُ بَادَرَ إِلَى الْجَزْمِ بِأَنَّهُ مِنَ الْمُفْتَرَيَاتِ ، حَدٍّ يَجْمَعُ إِلَى غَضَبِ الْخَلْقِ غَضَبَ مَوْلَانَا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ ، ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَتَهَيَّبُونَ ظُلْمًا إِلَّا إِذَا رَأَوْا بِجَانِبِهِ عَصَا الْقَانُونِ . فَإِذَا أَمِنَ أَحَدُهُمْ بَطْشَ ذَلِكَ الْقَانُونِ بَطَشَ هُوَ بَطْشَةَ الْجَبَّارِينَ ، فَإِذَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ شَتْمَ امْرِئٍ شَتَمَهُ مَهْمَا كَانَ نَقِيَّ الْعِرْضِ وَالدِّينِ ، وَإِذَا اشْتَهَتْ ضَرْبَهُ مَالَ عَلَيْهِ مَيْلَةً لَا رَحْمَةَ مَعَهَا بِالشِّمَالِ وَبِالْيَمِينِ ، وَإِذَا هَمَّتْ بِأَكْلِ مَالِهِ نَفَّذَ ذَلِكَ بِغَايَةِ الْجَرَاءَةِ وَبِطُرُقٍ شَتَّى مَسْلَكُهَا يَهُونُ . وَإِنْ سَوَّلَتْ لَهُ أَنْ يَطْعَنَ فِى حَسَبِ امْرِئٍ أَوْنَسَبِهِ طَعَنَ طَعْنًا تَقْشَعِرُّ مِنْهُ الْأَبْدَانُ ، وَإِذَا زَيَّنَتْ لَهُ أَنْ يَقْتُلَهُ مُتَعَمِّدًا أَرَاقَ دَمَهُ فِى الْحَالِ غَيْرَ نَدْمَانَ ، وَهَكَذَا لَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ لَوْنٌ مِنَ الظُّلْمِ إِلَّا سَارَعَ إِلَى فِعْلِهِ مُسَارَعَةَ الشُّجْعَانِ ، كَأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِالْمَوْتِ وَلَا بِالْبَعْثِ وَلَا بِأَنَّ الْجَزَاءَ عَلَى الْأَعْمَالِ سَيَكُونُ.

كُلُّ النَّاسِ الْيَوْمَ هَكَذَا إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ مِنَ الْعِبَادِ الصَّادِقِينَ ، وَلِذَلِكَ تَرَى نِيرَانَ الظُّلْمِ تَشْتَعِلُ فِى أَنْحَاءِ الدُّنْيَا بِحَالَةٍ تُزْعِجُ النَّاظِرِينَ ، لِتَعْلَمَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ أَنَّ حَيَاتَكَ هَذِهِ لَا بُدَّ أَنْ تَنْتَهِيَ وَلَوْ عِشْتَ آلَافَ

السِّنِين ، وَلاَ بُدَّ أَنْ تَحْيَا حَيَاةً أُخْرَى فِيهَا يُخْذَلُ الظَّالِمُون وَيَنْتَصِرُ عَلَيْهِمُ المَظْلُومُون . حَيَاةً يُجَاءُ فِيهَا بِالظَّالِمِ فَتُؤْخَذُ حُقُوقُ المَظْلُومِينَ مِمَّا لَهُ مِنْ حَسَنَات ، فَإِنْ لَمْ تَفِ حَسَنَاتُهُ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ المَظْلُومِينَ بِقَدْرِ حُقُوقِهِمْ وَطُرِحَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ السَّيِّئَات ، وَلَيْسَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلاَّ النَّارُ الَّتِي لاَ يَتَحَمَّلُهَا هُوَ بَلْ وَلاَ الأَرْضُ وَالسَّمَاوَات ، يَرَى فِيهَا مِنْ ضُرُوبِ الآلاَمِ وَصُنُوفِ العَذَابِ مَالاَ يَتَصَوَّرُهُ المُتَصَوِّرُون . فَلْيَتَمَادَ عَلَى ظُلْمِهِ مَنْ رَضِيَ لِنَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ فِى ظُلُمَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ أَيْنَمَا سَار ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ تُفَرَّقَ حَسَنَاتُهُ وَتُضَافَ إِلَيْهِ أَوْزَارٌ فَوْقَ مَالَهُ مِنْ أَوْزَار ، لِيَتَمَادَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ النَّارَ مَأْوَاهُ وَفَوْقَ النَّارِ غَضَبُ الجَبَّار ، وَمَنْ أَشْفَقَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَحْذَرْ ظُلْمَ العِبَادِ كَمَا يَحْذَرُهُ الفُضَلاَءُ المُنْصِفُون .

(حديث) الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ . رَوَاهُ البُخَارِىُّ وَمُسْلِمٌ .

(آخر) أَتَدْرُونَ مَا المُفْلِسُ ؟ قَالُوا المُفْلِسُ مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ فِينَا وَلاَ مَتَاعَ ، فَقَالَ إِنَّ المُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَة بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا . فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِى النَّار . رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِىُّ .

٢١ ـ القهاوى والبرص

الحَمْدُ لِلّٰهِ حَمْدَ عَبْدٍ لاَ يُضِيعُ مِنْ حَيَاتِهِ نَفَساً لِأَنَّهَا أَصْلُ كُلِّ النِّعَم ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللّٰهُ شَهَادَةَ عَبْدٍ لِبُعْدِهِ عَنْ أَمَاكِنِ النَّقْصِ مُحْتَرَم ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَفْوَةُ اللّٰهِ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَم ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانَتْ حَيَاتُهُمْ بِالْخَيْرَاتِ عَامِرَات .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّٰهِ : كَانَ النَّاسُ فِيمَا مَضَى لاَ تَرَاهُمْ وَقْتَ الْفَرَاغِ إِلاَّ بِالدِّيَار ، وَلاَ تَزَالُ هٰذِهِ الْعَادَةُ مُحَافَظاً عَلَيْهَا لِلْيَوْمِ مِنْ أَفَاضِلِنَا الْأَخْيَار ، هُمْ فِى أُنْسٍ بِعَائِلاَتِهِمْ وَعَائِلاَتُهُمْ فِى أُنْسٍ بِهِمْ لَيْلَهُمْ وَالنَّهَار ، شَرُّهُمْ بَعِيدٌ عَنِ النَّاسِ وَشَرُّ النَّاسِ بَعِيدٌ عَنْهُمْ بِمُلاَزَمَتِهِمْ بُيُوتَهُمُ الْمُبَارَكَات ، لاَ تَذْهَبُ لِزِيَارَةِ أَحَدِهِمْ إِلاَّ وَتَجِدُهُ حِلْسَ بَيْتِهِ كَأَنَّهُ فِى انْتِظَار ، وَلاَ تَطْلُبُ مِنْهُ مَكَاناً تُقَابِلُهُ فِيهِ إِلاَّ قَالَ لَكَ الدَّارَ الدَّار ، أَيْنَ مِنْ هٰؤُلاَءِ أُنَاسٌ بَيْنَنَا لاَ يَعْرِفُونَ بُيُوتَهُمْ إِلاَّ لِعُذْرٍ قَهَّار ، مَنْ رَآهُمْ لاَ يَشُكُّ فِى أَنَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بُيُوتِهِمْ عَدَاوَات . عَائِلاَتُهُمْ فِى شَوْقٍ دَائِمٍ إِلَيْهِمْ مِنْ طُولِ الْغِيَاب ، وَهُمْ فِى شَوْقٍ دَائِمٍ إِلَى عَائِلاَتِهِمْ وَذَاكَ الْغِيَابُ هُوَ كُلُّ الْأَسْبَاب ، اسْتَحْوَذَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْدِيَةُ الْعُمُومِيَّةُ (الْقَهَاوِى وَالْبُرَصُ) اسْتِحْوَاذاً يُذَكِّرُكَ بِمِلْكِ الرِّقَاب ، فَهُنَاكَ إِقَامَتُهُمْ وَهُنَاكَ لِقَاؤُهُمْ وَهُنَاكَ زِيَارَاتُهُمْ

وَبُيُوتُهُمْ مِنْهُمْ خَاوِيَات . تَذْهَبُ فى الصَّبَاحِ المُبَكِّرِ إِلَى تِلْكَ الأَنْدِيَةِ فَتَرَاهُمْ هُنَاكَ جَالِسِين ، وَتَذْهَبُ فى المَسَاءِ المُتَأَخِّرِ إِلَيْهَا فَلاَ تَجِدُهُمْ بَارَحُوهَا بَلْ تَجِدُهُمْ بِهَا مَاكِثِين ، مَلَّتْ مِنْهُمْ أَرْضُهَا وَسَمَاؤُهَا وَكَرَاسِيهَا وَحِيطَانُهَا وَأُنْتِنَسَ بِهِمْ مَا بِهَا مِنْ شَيَاطِين ، وَعَجِيبٌ وَاللهِ أَنْ يَرْضَى بِحَالَتِهِمْ هٰذِهِ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحَسَرَات . أَضَاعُوا حَيَاتَهُمْ بِتِلْكَ الأَنْدِيَةِ وَحَيَاتُهُمْ هٰذِهِ هِىَ رَأْسُ المَال ، فَإِنَّهُمْ بِدُونِهَا لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ مَا يُرْضِى رَبَّهُمْ مِنْ صَالِحَاتِ الأَعْمَال ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ مَادَامَ حَيًّا يَفْعَلُ الخَيْرَ فَإِذَا مَاتَ طُوِيَتْ صَحِيفَةُ الأَفْعَال ، وَهٰؤُلاَءِ أَخَذَتْهُمْ تِلْكَ الأَمَاكِنُ فَمَضَتْ كُلُّ حَيَاتِهِمْ وَكَأَنَّهُمْ أَمْوَات . مَا صَلَّوْا بِهَا وَلاَ صَامُوا وَلاَ ذَكَرُوا رَبَّهُمْ وَلاَ تَصَدَّقُوا عَلَى مِسْكِين ، لٰكِنَّهُمْ يَلْعَبُونَ أَلاَعِيبَ مُحَرَّمَةً (كَالضُّمْنَةِ وَالطَّاوْلَةِ) فَهِىَ طَاعَتُهُمْ أَجْمَعِين ، وَيُضَيِّعُونَ أَمْوَالاً هُمْ فى حَاجَةٍ إِلَيْهَا لِيَقُومُوا بِشُؤُونِ نِسَائِهِمْ وَالبَنِين ، فَاهْجُرْ تِلْكَ الأَمَاكِنَ يَا هٰذَا فَإِنَّكَ مَسْئُولٌ عَمَّا تُضِيعُ بِهَا مِنْ أَمْوَالٍ وَسَاعَات .

(حديث) لَنْ تَزُولَ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ : عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ ؟ رَوَاهُ البَزَّارُ وَالطَّبَرَانِىُّ وَالتِّرْمِذِىُّ وَالبَيْهَقِىُّ .

٢٢ – عظماء هذا الزمان

الحمدُ لله الذى وعد برفع أهل التواضع وتوعد بخفض أهل الكبرياء، وأشهدُ أن لا إله إلا الله الذى يعامل أهل العفو بالعفو ويشدد على اللؤماء، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله الذى علمنا الحلم على من أساء، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أهل السماحة الكرماء.

(أما بعد) فيا عبد الله: ابتهل إلى الله تعالى أن لا يجعلك من عظماء هذا الزمان، فإنه إن جعلك منهم كنت ولا شك متوعداً بالنيران، وأنت لا ترضى لنفسك أبداً أن تكون من هذا الفريق فريق الشيطان، وهل يرضى عاقل لنفسه أن يكون من أهل الشقاء. إن عظماء زماننا أناس نفخ الشيطان فى آنافهم بمنفاخ الغرور، فانتفخوا ثم انتفخوا حتى لم يبق فيهم متسع لنفخ هذا الغرور، فأصبحوا وقد ملأ الكبر لحومهم ودماءهم وعظامهم والشعور، وإن شئت أن تتحقق ذلك فتفضل وجالس أولئك العظماء. جالسهم لترى بعينيك ما أقول وفوق هذا الذى أقول، وإنى أوصيك - إن جالستهم - أن تكون فى الملق بدرجة تتجاوز حد المعقول، فإنك إن غفلت وصدرت منك حركة لا تعجبهم رأيت منهم ما يتركك فى ذهول، تحمر منهم الوجوه وتنتفخ

الْأَوْدَاجُ وَتَضْطَرِبُ الْأَعْصَابُ وَيَشْتَدُّ الْغَضَبُ أَيَّ اشْتِدَاد . وَحِينَئِذٍ يُبَادِرُكَ أَحَدُهُمْ بِقَوْلِهِ مَا هٰذِهِ الْحَرَكَةُ يَا قَلِيلَ الْأَدَبِ ، جَرَحْتَ إِحْسَاسِي أَهَنْتَنِي غَيَّرْتَ شُعُورِي وَمِزَاجِي وَخَرَجْتَ عَمَّا وَجَب ، فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُدَافِعَ عَنْ نَفْسِكَ (كَفَرْتَ وَحَلَّ حَرْقُكَ) وَكُنْتَ مَوْضِعَ عَجَب ، وَلاَ تَسْتَبْعِدْ أَنْ يُشْبِعَكَ ضَرْبًا وَقَدْ يَفْتِكُ بِكَ لِيُرْضِيَ مَا بِهِ مِنْ كِبْرِيَاء . ما هؤُلاَء عُظَمَاء وَلاَ يَعْرِفُونَ الْعَظَمَةَ وَلٰكِنَّهُمْ مِنَ الْجَبَابِرَةِ الْعَاتِين ، وَفِعْلُهُمْ هٰذَا فَوْقَ فِعْلِ الْخَالِقِ الرَّازِقِ بِعِبَادِهِ الْمُذْنِبِين ، فَإِنَّهُ يَعْفُو عَنْهُمْ وَيَغْفِرُ لَهُمْ وَيَرْحَمُهُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين ، وَيَعِدُ بِالْجَنَّةِ الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاس وَعْدًا بِفَضْلِهِ وَاجِبَ الْأَدَاء . إِنَّ الْعَظِيمَ الْمُطْلَقَ رَبُّنَا وَهٰذَا فِعْلُهُ بِالْمُذْنِبِينَ وَتَحْرِيضُهُ عَلَى الْعَفْوِ عَمَّا لَهُمْ مِنْ إِسَاءَات ، وَأَعْظَمُ الْخَلْقِ نَبِيُّنَا وَمَا غَضِبَ لِنَفْسِهِ قَطُّ وَإِنَّمَا كَانَ يَغْضَبُ إِذَا انْتُهِكَتِ الْحُرُمَات ، وَفُضَلاَءُ الْأُمَّةِ عَلَى قَدَمِ نَبِيِّهِمْ هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ يُعْرِضُونَ عَنْ أَرْبَابِ السَّفَاهَات ، وَمَنْ لاَ يَقْتَدِي بِرَبِّهِ وَلاَ بِنَبِيِّهِ وَلاَ بِأَفَاضِلِ الْأُمَّةِ فَلَيْسَ بِعَظِيمٍ بَلْ مِنْ أَحَطِّ الْأَدْنِيَاء .

(حديث) أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ (١) لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ ، أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ كُلُّ عُتُلٍّ (٢)

(١) من يستضعفه الناس . (٢) الأكول المنيع الجافي الغليظ اه قاموس

185

جوّاظٍ[1] جعظريٍّ[2] مستكبرٍ . رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

٢٣ — الفجرة واحترام الناس لهم

الحمدُ للهِ الذي يقدّرُ الناسَ بمقدارِ خوفِهم منه ووقوفِهم عندَ مالَهُ من حدود ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ شهادةَ من غفلَ عنها انفتحَ لهُ من الشرِّ كلُّ بابٍ موصود ، وأشهدُ أنَّ سيدَنا ومولانا محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ خيرُ من رآهُ هذا الوجود : اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ وباركْ على سيدِنا محمدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ وكلِّ من نزّهَ نفسَهُ عن الشائنات .

(أمَّا بعدُ) فيا عبدَ اللهِ : إنَّ الفجرةَ من الناسِ فرقٌ شتّى يجمعُهم وصفُ الفجور ، والفجورُ هذا ملكةٌ في الفاجرِ لا يرى معها بأسًا من الإقدامِ على أيِّ محظور ، بل من الفجرةِ من يتلذّذُ بارتكابِ المحظورِ كما يتلذّذُ التقيُّ بامتثالِ المأمور ، فالفجورُ إذن ليسَ درجةً واحدةً بل درجاتٍ قد تتباعدُ كما تبعدُ الأرضُ عن السماوات . فمن الفجرةِ من يطلقُ لسانَهُ في ميادينِ منكرِ القولِ ولا يتوقّى حتى الأعراضَ والأنساب ، ومنهم من لا يمسكُ يدَهُ حتى عن اغتيالِ الأموالِ وقتلِ أهلِ الاستقامةِ الأنجاب ، ومنهم من إذا شاءَ اقتحامَ أيِّ نوعٍ من أنواعِ الكفرِ اقتحمَهُ غيرَ هيّاب ، وعلى قدرِ غفلةِ المرءِ عن ربِّهِ تكونُ درجةُ جرأتِهِ على المحظورات . إنَّ

---

(١) المتكبر الجافي اهـ قاموس . (٢) الفظ الغليظ اهـ قاموس .

هؤلاء الفجرة يخافهم الناس على دمائهم وعلى أعراضهم وعلى الأموال، خوفاً لا تكون مبالغاً إذا قلت إنه كخوفهم من السبع المغتال، لهذا إذا قابلوهم أو جالسوهم أبدوا لهم من الاحترام ما لا يبدونه لأجلاء الرجال، وكلما كان الفاجر أجرأ كلما كان احترام الناس له أرق عند المقابلات. إن هذا الاحترام احترام كاذب سببه كما قلنا الخوف من أولئك الأشرار، ولذلك ترى الناس وهم بعيدون عنهم يقولون فيهم ما يناسب ما لهم من أقدار، فإذا أصيب أحدهم بمصيبة طار الناس بها فرحاً صغارهم كالكبار، أما يوم موته فهو يوم عيد تشترك في الفرح به حتى السيدات المخدرات. إن الاحترام الحق هو الذي يكون من الناس لما يرونه لك من كمال، ولذلك ينطوي لك عليه الناس حياً وميتاً حاضراً وغائباً لا يخالف في هذا متضال، لا بل يزداد في غيبتك عن حضورك وفي موتك عن حياتك ينم عليه الحال والمقال، ومن هذا حاله تكون القلوب معه تحزن لأحزانه وتسر لما له من مسرات. فإذا رأيت الناس يحترمونك أيها المؤمن لشرك فعز نفسك أكبر عزاء، فإن شر الناس من يحترمه الناس لشره فتنبه لهذا تنبه الأذكياء، واعمل على تكميل نفسك بمكارم الأخلاق وصالحات الأعمال ومخافة رب الآلاء، وابعد عن الفجرة وأعمالهم بكل ما تستطيع تعش وتمت وتبعث في أحسن الحالات.

(حديث) إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ .

٢٤ — شهوة البطن

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ النَّارَ مَثْوَى عَبِيدِ الْبُطُونِ وَشَبَّهَهُمْ فِى كِتَابِهِ بِالْأَنْعَامِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةَ عَبْدٍ لَا سُلْطَانَ عَلَيْهِ لِشَرَابٍ وَلَا لِطَعَامٍ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي مَا خَضَعَ يَوْمًا لِغَيْرِ مَا لِمَوْلَاهُ مِنْ أَحْكَامٍ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ دَعَائِمِ الْإِسْلَامِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللَّهِ : مَضَى الصَّدْرُ الْأَوَّلُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَا حُكْمَ فِيهِ لِشَهْوَةٍ مِنَ الشَّهَوَاتِ ، وَالَّذِي كَانَ مَاضِيَ الْحُكْمِ إِذْ ذَاكَ هُوَ الْعُقُولُ الْخَاضِعَةُ لِمَا لِرَبِّنَا مِنْ آيَاتٍ ، فَكَانَتِ الشَّرِيعَةُ تُفْتِي فَيَأْمُرُ الْعَقْلُ فَتَنْبَعِثُ الْجَوَارِحُ لِفِعْلِ مَا لَهُ مِنْ مَأْمُورَاتٍ ، لِذَلِكَ كَانَتِ الْأُمَّةُ فِى ذَلِكَ الزَّمَنِ أُمَّةَ حِكْمَةٍ وَعِزٍّ وَنِظَامٍ . انْتَهَى ذَلِكَ الْعَهْدُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ سِوَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ ، وَأَصْبَحْنَا نَحْنُ فِى زَمَنٍ لَا تَصَرُّفَ فِيهِ إِلَّا لِلشَّهْوَةِ وَحُكْمِهَا الْجَبَّارِ ، تُصْدِرُ أَوَامِرَهَا لِصِغَارِنَا وَكِبَارِنَا فَلَا تَتَلَكَّأُ فِى تَنْفِيذِهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَإِنْ شِئْتَ فَانْظُرْهُمْ تَرَ ذَلِكَ مُتَحَقِّقًا فِى خَوَاصِّهِمْ وَالْعَوَامِّ . انْظُرْ فَقَطْ شَهْوَةَ الْبَطْنِ الْيَوْمَ وَمَا لَهَا عَلَى النَّاسِ مِنْ سَطْوَةٍ وَسُلْطَانٍ ، انْظُرْ ذَلِكَ ثُمَّ انْظُرْهُ لِتَرَى

بعينى رأسك ما تحار فيه الأذهان ، ألست تراهم من أجل تلك الشهوة لا يفرقون بين ما حلله وحرمه الديان ، حتى أصبح التحرى فى الكسب كأن الله نسخه من واجب لحرام . إن لهذه الشهوة مطالب كثيرة لا يقوم بها إلا مال كثير ، فتشير هى للبدن أن يجمعه فلا يسعه إلا أن يحقق ما تشير ، يسرق يرابى يغش يطفف المكيال والميزان يدبر طرق النصب والإحتيال أتقن تدبير ، يرتشى يأكل أموال الناس بالباطل بل ربما كفر بالله ليصل إلى جمع ذاك الحطام . ويا ليته ينتظر من وراء هذا كله فائدة من الفوائد الجليلة الروحيه ، ليكون ذلك برهانا قائما على أنه من أرباب الهمم العليه ، ما كان ذلك والذى يعمل له إنما هو إرضاء شهواته البهيميه ، فهو فى الحقيقة كبهيم استملح مرعى فرعى حتى فجأه الموت الزؤام . إن إرضاء شهوة البطن يا هذا لا نتيجة له إلا قوة البدن وغفلة القلب عن رب العباد ، والقوة والغفلة هما زمام المرء الذى منه يقوده الشيطان إلى كل فساد ، فخفف من طاعتك لتلك الشهوة بل جاهدها أصدق جهاد ، وحسبك فى طاعتها أن تعطيها من الحلال ما رسمه لها سيد الرسل الكرام .

(حديث) ماملأ ابن آدم وعاء شرا فى بطن بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه

وَثُلُثٌ لِنَفْسِهِ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ .

(آخر) المُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي اللهِ . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ .

٢٥ — شهوة الفرج

الحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي رَفَعَ إِلَى دَرَجَاتِ كِبَارِ المُجَاهِدِينَ كُلَّ مَنْ جَاهَدَ هَوَاه ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةَ عَبْدٍ لَا يُعْطِي نَفْسَهُ مِنْ شَهَوَاتِهَا إِلَّا مَا وَافَقَ رِضَى مَوْلَاه ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَسْرَعُ أَحْبَابِهِ إِلَى مَوَاقِعِ رِضَاه ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ عَبْدٍ أَخْضَعَ لِدِينِهِ مَالَهُ مِنْ شَهَوَاتٍ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : لَقَدْ طَغَتْ شَهْوَةُ الفَرْجِ الْيَوْمَ عَلَى النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ طُغْيَانًا لَيْسَ فَوْقَهُ طُغْيَان ، وَأَصْبَحَ سُلْطَانُهَا عَلَى أَفْرَادِهِ شِيبًا وَشُبَّانًا لَا يُدَانِيهِ سُلْطَان ، كَيْفَ لَا وَقَدْ بَلَغَ مِنَ الْقُوَّةِ مَبْلَغًا أَصْبَحَ بِهِ يَمْلِكُ مِنْهُمُ الْقُلُوبَ وَالْأَبْدَان ، وَيَتَصَرَّفُ فِيهَا كَمَا يَشْتَهِي دُونَ أَنْ يُنَازَعَ فِي شَيْءٍ مِنَ التَّصَرُّفَات . وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَرَى ذٰلِكَ بِعَيْنَيْكَ فَزُرْ أَيَّ مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِ هٰذِهِ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّه ، فَإِنَّكَ تَرَى فِيهَا لِهٰذِهِ الشَّهْوَةِ مَا لَا يُحْصَى مِنَ الْأَمَاكِنِ السِّرِّيَّةِ وَالعَلَنِيَّه ، وَتَرَى بِالشَّوَارِعِ وَالْحَارَاتِ سُيُولًا تَتَدَفَّقُ مِنَ النَّاسِ

يَصْطَادُونَ لِهٰذِهِ الشَّهْوَةِ الْبَهِيمِيَّه ، أَلَيْسَ ذٰلِكَ خُضُوعًا لِسُلْطَانِ شَهْوَةِ الْفَرْجِ وَتَنْفِيذًا لِمَا يُصْدِرُ مِنْ إِرَادَات . إِنْ لَمْ تَكْتَفِ بِهٰذَا فَانْظُرْ إِلَى بُيُوتٍ هَوَتْ فِى هُوَّةِ هٰذِهِ الشَّهْوَةِ وَكَانَتْ تُطَاوِلُ فِى رِفْعَتِهَا السَّمَاء ، وَانْظُرْ إِلَى خَزَائِنَ خَوَتْ وَكَانَ بِهَا مِنَ الأَمْوَالِ مَالاَ يَضْبُطُهُ إِحْصَاء ، وَانْظُرْ إِلَى مَلاَيِينَ مِنَ الأَرْوَاحِ ذَهَبَتْ قَتْلاً أَوْ بِأَمْرَاضٍ تَسْرِى مِنْ هٰذِهِ الْفَحْشَاء ، أَلاَ يَكْفِيكَ هٰذَا بُرْهَانًا عَلَى أَنَّ سُلْطَانَ شَهْوَةِ الْفَرْجِ صَارَ لاَ يُحَدُّ بِغَايَات . وَإِنْ لَمْ تَقْتَنِعْ بِكُلِّ هٰذَا فَالْتَفِتْ لِقَوْمٍ لَمْ تَكْفِ بِلاَدُهُمْ لِشَهَوَاتِهِمْ فَكَمَّلُوا بِبِلاَدٍ أَجْنَبِيَّه ، وَالْتَفِتْ لِآخَرِينَ لَمْ تُشْبِعْهُمُ النِّسَاء فَضَمُّوا إِلَيْهِنَّ الْغِلْمَانَ وَهُمُ الْمَعْرُوفُونَ بِاللُّوطِيَّه ، وَالْتَفِتْ لِلْحَرَائِرِ اللاَّتِى أَصْبَحْنَ لاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ بِحُرَّاسٍ وَمَعَ ذٰلِكَ يُلاَقِينَ بِالطُّرُقِ كُلَّ بَلِيَّه . أَلَسْتَ تَفْهَمُ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ أَنَّ سُلْطَانَ شَهْوَةِ الْفَرْجِ غَدَتْ طَاعَتُهُ فَوْقَ كُلِّ الطَّاعَات . فَإِنْ شِئْتَ غَيْرَ هٰذَا فَأَضِفْ إِلَيْهِ ازْدِحَامَ مَسَارِحِ الْفُحْشِ لَيْلاً بِالْجِنْسِ الْخَشِنِ وَالْجِنْسِ اللَّطِيف ، وَأَضِفْ إِلَيْهِ الْمَجَامِعَ الْعَامَّةَ وَازْدِحَامَهَا نَهَارًا بِالْجِنْسَيْنِ ازْدِحَامًا لَيْسَ بِشَرِيف ، فَإِنَّ كُلاًّ مِنْهُمَا يَتَزَيَّنُ لِلآخَرِ وَيَتَحَكَّكُ بِهِ تَحَكُّكًا يَنْصَدِعُ لَهُ قَلْبُ الْحَيِيِّ الْعَفِيف ، وَهَلْ بَعْدَ هٰذَا كُلِّهِ تَتَرَدَّدُ فِى أَنَّ سُلْطَانَ شَهْوَةِ الْفَرْجِ هُوَ الْمُطَاعُ الْيَوْمَ لاَ رَبُّ السَّمَاوَات .

لَقَدِ افْتَضَحَ النَّوْعُ الإِنْسَانِىُّ فَضِيحَةً كُبْرَى بِأَعْمَالِ أَبْنَاءِ هٰذَا الزَّمَان ،

فإنهم بانقيادهم لشهواتهم برهنوا على أنه لا فرق بين الإنسان وأى حيوان ، إن ما تمتاز به عن سائر الحيوانات يا هذا هو أن لا يكون لشهواتك عليك سلطان ، فاحذر أن يحكم عليك غير الإسلام وإلا طالت منك فى داريك الندامات .

(حديث) إنما أخشى عليكم شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى . رواه أحمد والبزار والطبرانى .

٢٦ – علاج أهل الغـــرور

الحمد لله الذى أثنى على قوم فى وجل منه وهم يعملون الصالحات ، وأشهد أن لا إله إلا الله الذى الأمن من مكره أكبر المحظورات ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله أشد الناس خوفاً من ربه وهو سيد المخلوقات ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الهداة المستبصرين .

(أما بعد) فيا عبد الله : لقد أهلك الغرور كثيراً من الناس وهم يظنون أنهم سادة الناجين ، وأهل الغرور هؤلاء لا تجدهم أبداً إلا من أشباه المجانين ، ولو كان عند المغرور شىء من نور البصيرة ما رضى بالغرور وهو هوة الهالكين ، ولأدرك كما أدرك الأفاضل أن من يجهل مستقبله الأبدى مسكين ثم مسكين . فبعض المغرورين يتيه على الدنيا إذا تعلم بعض العلم ويظن أن العلم كل

أَسْبَاب النَّجَاه ، وَهُوَ غَافِلٌ عَنْ شَرِّ الخَلْقِ إِبْلِيسَ الَّذِى طُرِدَ طَرْدًا أَبَدِيًّا وَعِلْمُهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَهُ إِلَّا اللهُ ، وَبَعْضُهُمْ إِذَا عَبَدَ اللهَ زَمَنًا لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالِهِ أَنْ يَغْضَبَ عَلَيْهِ مَوْلَاه ، وَلَوْ تَذَكَّرَ عِبَادَةَ إِبْلِيسَ مَا أَعْجَبَتْهُ عِبَادَتُهُ وَلَوْ بَذَلَ جُهْدَهُ فِيهَا مِئَاتِ السِّنِينِ . وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ رَأَيْتُ وَجَالَسْتُ كَثِيرًا مِنَ الصَّالِحِينَ وَبِهٰذَا يُوقِنُ أَنَّهُ مِنَ المَقْبُولِينَ ، وَنَسِيَ أَنَّ أَشْقَى الكُفَّارِ رَأَوْا وَجَالَسُوا سَادَةَ الصَّالِحِينَ صَفْوَةَ اللهِ المُرْسَلِينَ ، وَبَعْضُهُمْ يَرَى المَالَ يَتَدَفَّقُ إِلَيْهِ تَدَفُّقًا فَيَعْتَقِدُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ كَمَا يُحِبُّ الصَّالِحِينَ ، وَكَأَنَّ هٰذَا لَمْ يُشَاهِدْ بِعَيْنَيْهِ أَنَّ الغَارِقَ إِلَى أُذُنَيْهِ فِى المَالِ فَرِيقُ الكَافِرِينَ . وَبَعْضُهُمْ يَرَى أَنَّ جَاهَهُ يَنْمُو بَيْنَ الخَلْقِ وَيَرَاهُمْ يُعَظِّمُونَهُ فَيَحْسَبُ أَنَّهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ السَّعِيد ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ أَنَّ فِرْعَوْنَ وَصَلَ فِى عِظَمِ الجَاهِ إِلَى أَنِ ادَّعَى الأُلُوهِيَّةَ وَخَضَعَ لَهُ العَبِيد ، وَبَعْضُهُمْ يَرَى نَفْسَهُ جَمِيلَ الخَلْقِ فَيَسْتَدِلُّ بِهٰذَا عَلَى أَنَّهُ بَيْنَ أَهْلِ الفَلَاحِ الوَحِيدُ الفَرِيد ، وَلَوْ رَأَى المُومِسَاتِ لَأَبْصَرَ فِيهِنَّ أَجْمَلَ وَأَنْضَرَ مِنْهُ فِى أَعْيُنِ النَّاظِرِينَ . لِيَعْلَمَ المَغْرُورُ مَعَ هٰذَا أَنَّ رَبَّهُ يَقُولُ : وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ، فَالْعِلْمُ وَالعِبَادَةُ وَالمَالُ وَالجَمَالُ وَالجَاهُ وَغَيْرُ ذٰلِكَ مِنَ النِّعَمِ مَا كَانَتْ تَصِلُ إِلَيْهِ لَوْلَا مَوْلَاه ، فَكَانَ عَلَيْهِ بَدَلَ مَعْصِيَةِ الغُرُورِ بِنَفْسِهِ أَنْ يَشْكُرَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا أَوْلَاه ، فَهُوَ بِحَالِهِ هٰذَا يُعَرِّضُ مَا عَلَيْهِ مِنَ

النِّعَمِ لِلزَّوَالِ وَيُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِلْعَذَابِ الْمُهِينِ . زِدْ عَلَى هٰذَا أَنَّ الْمَغْرُورَ لَا يَرَى لِنَفْسِهِ ذَنْباً فَيَعِيشُ وَيَمُوتُ لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالِهِ مَتَابٌ ، فَكُلُّ مَغْرُورٍ يَقَعُ عَلَيْهِ نَظَرُكَ فَاهِمٌ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ مِنَ النَّاجِينَ يَوْمَ الْحِسَابِ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَرَى فِي شَخْصِهِ نَقْصاً أَبَداً فَلَا يُفَكِّرُ فِي تَكْمِيلِ نَفْسِهِ وَتَنْزِيهِهَا عَمَّا يُعَابُ ، وَسَيَبْدُو لِهٰذَا الْفَرِيقِ مَا لَمْ يَكُنْ يَحْتَسِبُهُ يَوْمَ يُعْرَضُ عَلَى الْحَكَمِ الْعَدْلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

(حديث) يَظْهَرُ الْإِسْلَامُ حَتَّى تَخْتَلِفَ التُّجَّارُ فِي الْبَحْرِ ، وَحَتَّى تَخُوضَ الْخَيْلُ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ ، ثُمَّ يَظْهَرُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَقُولُونَ : مَنْ أَقْرَأُ مِنَّا ، مَنْ أَعْلَمُ مِنَّا ، مَنْ أَفْقَهُ مِنَّا ؟ ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : هَلْ فِي أُولٰئِكَ مِنْ خَيْرٍ ؟ قَالُوا: اللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ: أُولٰئِكَ مِنْكُمْ مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ وَأُولٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ، رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَالْبَزَّارُ وَأَبُو يَعْلَى .

٢٧ — مناظر مؤلمة

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي بَيَّنَ لَنَا الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ بِمَا لِدِينِهِ مِنْ أَنْوَارٍ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ الَّذِي يَسْتَحِيلُ أَنْ يُسَوِّيَ عَدْلُهُ بَيْنَ الْأَخْيَارِ وَالْأَشْرَارِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَجَلُّ مَخْلُوقٍ رَأَتْهُ الْأَعْصَارُ ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ مَا خَضَعُوا يَوْماً لِحُكْمِ الشَّهَوَاتِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللّٰهِ : فِي هٰذَا الْبَلَدِ وَأَمْثَالِهِ مَنَاظِرُ تَنْقَبِضُ

لها نفوس المميزين ، وتذوب كمداً وحسرة لرؤيتها قلوب ذوى البصائر من المؤمنين ، وهى تزداد وتشتد يوماً فيوماً لأن البهيمية عندنا غلبت الدين ، وإنى ذاكر لك شيئاً من تلك المناظر المؤلمات. أدخل المساجد بيوت الله تعالى التى بنيت لعبادة العابدين ، والتى ليس فى دخولها أى ضرر بل كلها خير للداخلين ، أدخلها متحرياً أوقات الصلاة يدهشك خراب فيها مبين ، وربما رأيت أئمتها وحدهم ليس معهم من تقام به الجماعات . أنظر هذا ثم مر على الجهات التى فيها الغلمان والنساء العموميات ، ثم مر على مسارح التمثيل (والسيما توغراف) التى تمثل لك حال العاشقين والعاشقات ، ثم مر على صالات الرقص الخليع وباراته التى لا يستتر من أجسام الراقصات فيها سوى السوآت ، ثم مر على صالات الرقص الإفرنجى التى يتخاصر ويتلاصق فيها الراقصون والراقصات . نعم مر على تلك الأماكن الفاجرة إن كان يليق أو اسأل العارفين ، فإنك لا تجدها خراباً كالمساجد بل مزدحمة داخلاً وخارجاً بالزائرات والزائرين ، أحبوها دون المساجد لأنها مناخ الشيطان وهم جنود الشياطين ، وأما المساجد فمواطن الرحمة وهل يألف جنود الشيطان مواطن الرحمات . ثم لا يغيب عنك فوق هذا أن تلك الأماكن بالوعات أموال ، بحيث لو أردت أن تحصر ما يبعثره زائروها هناك رمت

المُحَال، اُحْفَظْ هذَا وَانْظُرْ هَلْ يَغْلَطُ أَحَدُهُمْ مَرَّةً فَيُوَاسِيَ بِعِلْمِهِ فَقِيرًا ذَا عِيَالٍ، ذلِكَ مَا لاَ يَقَعُ نَظَرُكَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَقَدْ أَصْبَحْنَا لاَ نَعْرِفُ الْخَيْرَاتِ. دَعْ هؤُلاَءِ الَّذِينَ صَارَ الْفَسَادُ مِنْ مَلَكَاتِهِمْ وَكُنْ أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَحِ، فَسَيَكُونُونَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْبَةِ فِى حَيَاتِهِمُ الْأُخْرَى وَتَكُونُ إِنْ سَمِعْتَ نَصِيحَتِي مِنْ أَهْلِ الْفَلاَحِ، وَلاَ تَغُرَّنَّكَ زَخَارِفُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَقَدْ تُصَافِيكَ مَسَاءً وَلاَ تَجِدُهَا عِنْدَ الصَّبَاحِ، وَاعْمَلْ لِحَيَاةٍ إِنْ أَخْطَأَتْكَ الْجَنَّةُ فِيهَا هَوَيْتَ فِى دَارِ الْحَسَرَاتِ.

(حديث) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، فَقَالَ: لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وُجُوهَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

٢٨ ـ كيف يفرح العاصى بالمعاصى وعليه شهود بها

الْحَمْدُ للهِ حَمْدَ عَبْدٍ إِنْ هَفَا نَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ لِيَغْفِرَهُ لَهُ الْغَفَّارُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةَ إِنْسَانٍ يُتْبِعُ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ لِتُذْهِبَ طَاعَاتُهُ الْأَوْزَارَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَشَدُّ النَّاسِ خَوْفًا مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَيِّدُ الْأَخْيَارِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَالْأَصْحَابِ.

(أمّا بعدُ) فيا عبدَ الله : إنَّ المَعْرُوف فى المُؤمِنِ أنّهُ يتوَقّى المَعاصِيَ كما يتوَقّى لَهِيبَ النّيرَان ، فإذا غلِطَ وهفَا رأيْتَ أعْصابَهُ تَضْطَرِبُ وقَلْبَهُ فى خفقَان ، وكُلّمَا تذكّرَ تِلْكَ الهَفْوَةَ احْمَرّ وَجْهُهُ خجَلاً وهاجَتْ عَلَيْهِ الأَحْزَان ، ولاَ يَزَالُ مُوجَعَ القَلْبِ مُنْكَسِرَهُ حتّى يُفَارِقَ الدُّنْيَا ويُوارَى فى التُّرَاب . هٰذا هُوَ المَعْرُوفُ فى المُؤمِنِ ولاَ يُعْرَفُ سِوَاهُ فِى أَهْلِ الإيمَان ، لِأَنّهُمْ يَعْرِفُونَ ـ إنْ عَصَوْا ـ أَنّهُمْ عَصَوْا خالِقَهُمْ ورازِقَهُمْ ذَا القَهْرِ والسُّلْطَان ، احْفَظْ هٰذا وَانْظُرْ ما عَلَيْهِ النّاسُ اليَوْمَ مِنَ الجُرْأَةِ عَلَى العِصْيَان ، تَتَمَثّلْ أمامَكَ حالُهُمْ بِحَالَةِ قَوْمٍ لاَيُؤمِنُونَ بِثَوَابٍ ولاَ بِعِقَاب . تَرَى أحَدَهُمْ يُدَبِّرُ ما يُدَبِّرُ لِإِرَاقَةِ دَمِ واحِدٍ مِنَ المُؤمِنِين ، أوْ لِسَرِقَةِ مالِهِ أوْ لِلزِّنَى بِأَهْلِهِ أوْ لِغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ مَقاصِدِ الفَاسِقِين ، فإذَا وَصَلَ يَوْماً إلَى بُغْيَتِهِ رَقَصَ طرَباً وعَدّ ذٰلِكَ الفَتْحَ المُبِين ، وأيْنَ أيّامُ الأَعْيادِ عِنْدَهُ مِنَ اليَوْمِ الّذِى يَتَمَكّنُ فِيهِ مِنْ مَعْصِيَةِ رَبِّ الأَرْبَاب . لاَتَفْرَحْ أيُّهَا العاصِى بِالمَعاصِى فَإنّ بِهَا تَشْهَدُ عَلَيْكَ الأَرْضُ والسّمَاوَات ، ولاَ تَبْكِى عَلَيْكَ هٰذِهِ ولاَ هٰذِهِ يَوْمَ تَتَجَرّعُ كأْسَ المَمات ، ويَشْهَدُ بِهَا عَلَيْكَ المَلَكَان كاتِبُ الحَسَناتِ وكاتِبُ السّيِّئات ، ويَشْهَدُ بِهَا عَلَيْكَ الحَفَظَةُ الّذِينَ يَتَعَاقَبُونَ عَلَى حِفْظِكَ تَعَاقُبَ الحُرّاسِ الأَنْجَاب . وتَشْهَدُ بِهَا عَلَيْكَ جَوَارِحُكَ الّتِى باشَرَتْ فِعْلَ الذُّنُوب ، ويَشْهَدُ بِهَا عَلَيْكَ مَوْلاكَ

٩٦

الَّذِي تَسْتَوِي الشَّهَادَةُ عِنْدَهُ وَالغُيُوب، وَيَشْهَدُ بِهَا عَلَيْكَ كِتَابُ أَعْمَالِكَ الَّذِي كُلُّ ما فَعَلْتَ بِهِ مَكْتُوب، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَزِعْتَ مِنْهُ وَقُلْتَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهٰذَا الكِتَاب. كُلُّ هٰؤُلَاءِ يَشْهَدُونَ عَلَى العَاصِي بِالمَعَاصِي فَيُسَجِّلُونَ عَلَيْهِ كُلَّ ما قَدَّمَتْهُ يَدَاه، وَلَيْسَ لِذٰلِكَ نَتِيجَةٌ إِلَّا غَضَبُ رَبِّهِ عَلَيْهِ وَإِقْصَاؤُهُ فِي دَارِ الجُنَاه، وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ هٰكَذَا فَعَلَى مَاذَا يَفْرَحُ العَاصِي بِالمَعَاصِي وَالنَّارُ عُقْبَاه، وَإِنْ شِئْتَ يَا هٰذَا أَنْ تَنْسَى شُهُودُكَ ذُنُوبَكَ فَتُبْ إِلَى رَبِّكَ وَأَخْلِصْ فِي المَتَاب.

(حديث) إِذَا تَابَ العَبْدُ أَنْسَى اللهُ الحَفَظَةَ ذُنُوبَهُ وَأَنْسَى ذٰلِكَ جَوَارِحَهُ وَمَعَالِمَهُ مِنَ الأَرْضِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ شَاهِدٌ مِنَ اللهِ بِذَنْبٍ. رَوَاهُ ابْنُ عَسَاكِر.

٢٩ ‹ هل يمدح هـــذا الزمن

الحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ العِلْمُ عِنْدَهُ إِلَّا بِالعَمَلِ الَّذِي يَرْضَاه، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي لَا يُقِيمُ لِأَحَدٍ وَزْنًا إِلَّا إِذَا وَحَّدَهُ وَوَالَاه، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي مَلَأَ الكَوْنَ نُورًا بِهُدَاه، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ بِهَدْيِهِمْ يَهْتَدُون.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ: لَقَدْ أَفْرَطَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي

مَدْحِ هذَا الزَّمَانِ ، زَاعِمِينَ أَنَّهُ عَهْدُ المَدَنِيَّةِ البَاهِرَةِ وَعَصْرُ النُّورِ وَالْعِرْفَانِ ، وَعِنْدَهُمْ أَنَّ الأَزْمِنَةَ السَّالِفَةَ كَانَتْ عُصُورَ جَهْلٍ وَانْحِطَاطٍ وَخِذْلَانٍ ، لِذلِكَ إِذَا أَرَادُوا المُبَالَغَةَ فِي ذَمِّ وَاحِدٍ أَلْحَقُوهُ بِأَهْلِ تِلْكَ القُرُونِ . غَرَّهُمْ مِنْ هذَا العَصْرِ مَا حَدَثَ فِيهِ مِنْ عَجَائِبِ (الْكَهْرَبَاءِ) ، وَمِنْ عَجَائِبِ (التِّلِغْرَافَاتِ وَالتِّلِيفُونَاتِ) الَّتِي تَنْقُلُ بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ مَا لَنَا مِنْ أَنْبَاءٍ ، وَمِنْ عَجَائِبِ المَرَاكِبِ الْبُخَارِيَّةِ الْبَرِّيَّةِ وَالْبَحْرِيَّةِ الَّتِي تَسْبِقُ هُبُوبَ الْهَوَاءِ ، وَمَا إِلَى ذلِكَ مِنْ عَجَائِبِ العِلْمِ الَّتِي كُلَّ يَوْمٍ تَرَاهَا الْعُيُونُ . نَعَمْ غَرَّهُمْ هذَا الجَمَالُ فَقَالُوا إِنَّ هذَا الزَّمَنَ بِكُلِّ ثَنَاءٍ جَدِيرٌ ، لَكِنَّهُمْ نَسُوا أَنَّ هذَا الزَّمَنَ بِعَيْنِهِ أَصْبَحَتْ فِيهِ الأَرْضُ كُلُّهَا مَصَانِعَ لِآلَاتِ الْفَتْكِ وَالتَّدْمِيرِ ، وَصَارَ فِيهِ عِلْمُ الْعُلَمَاءِ وَقْفاً عَلَى التَّفَنُّنِ فِي اخْتِرَاعِ مَا يَقْضِي عَلَى الإِنْسَانِيَّةِ القَضَاءَ الأَخِيرَ ، مِمَّا لَا يَحْمِي مِنْهُ مَالٌ وَلَا رِجَالٌ وَلَا مَا شَيَّدَتْهُ يَدُ الدَّهْرِ مِنْ قِلَاعٍ وَحُصُونٍ . تَمْشِي عَلَى الأَرْضِ فَتُزْعِجُكَ المَدَافِعُ الضَّخْمَةُ وَالغَازَاتُ الخَانِقَةُ (وَالدِّينَامِيتُ وَالمِتْرَلْيُوزَاتُ) ، فَإِذَا طِرْتَ مِنَ الأَرْضِ إِلَى الْهَوَاءِ قَابَلَتْكَ تَسْبَحُ فِي الجَوِّ بِنَارِهَا الطَّيَّارَاتُ ، فَإِذَا فَرَرْتَ مِنَ الأَرْضِ وَمِنَ الْهَوَاءِ إِلَى الْبَحْرِ اصْطَدَمْتَ بِنَارِ الأَلْغَامِ وَالغَوَّاصَاتِ ، وَهكَذَا لَا تَجِدُ بَرّاً وَلَا بَحْراً وَلَا هَوَاءً إِلَّا وَهُوَ بِأَنْوَاعِ المُهْلِكَاتِ مَشْحُونٌ . وَكَذلِكَ نَسُوا أَنَّ النَّاسَ فِي هذَا الزَّمَنِ

أَصْبَحُوا لاَ عُهودَ لَهُمْ وَلاَ أَمانَات ، وَلاَ دِينَ لَهُمْ يَمْتَثِلُونَ أَحْكَامَهُ إلاَّ مَا تُصْدِرُهُ لَهُمُ الْأَهْوَاءُ وَالشَّهَوَات ، وَ بِذَلِكَ تَبدَّلَ أَمْنُ العَالَمِ خَوْفاً وَحَلَّتِ الرَّذَائِلُ مَحَلَّ الْأَخْلاَقِ الْكَرِيمَات ، أَزَمَنٌ هٰذا حَالُهُ يَسْمَحُ بِمَدْحِهِ إلاَّ رَجُلٌ أَعْمَى الْبَصِيرَةِ مَفْتُون . إنَّ الْعِلْمَ وَالِاخْتِرَاعَ مَهْمَا بَلَغَا لَا قِيمَةَ لَهُمَا فِي نَظَرِ الْعُقَلاَء ، مَا دَامَ النَّاسُ فِي ضَلاَلٍ فِي دِينِهِمْ وَفِي بُعْدٍ عَنِ الصَّفَاء ، فَإِذَا اخْتَرَعُوا لَنَا مَا بِهِ يَطْمَئِنُّ النَّاسُ فِي أَوْطَانِهِمْ وَيُصْبِحُونَ مِنَ الْأَتْقِيَاء ، فَكُلُّ مَدْحٍ قَلِيلٌ عَلَيْهِمْ وَإِلاَّ فَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لاَ يَعْقِلُون .

(حديث) إِذَا رَأَيْتَ كُلَّمَا طَلَبْتَ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ الآخِرَةِ وَابْتَغَيْتَهُ يُسِّرَ لَكَ ، وَإِذَا أَرَدْتَ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَابْتَغَيْتَهُ عُسِّرَ عَلَيْكَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ عَلَى حَالٍ حَسَنَةٍ ، وَإِذَا رَأَيْتَ كُلَّمَا طَلَبْتَ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ الآخِرَةِ وَابْتَغَيْتَهُ عُسِّرَ عَلَيْكَ ، وَإِذَا طَلَبْتَ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَابْتَغَيْتَهُ يُسِّرَ لَكَ ، فَأَنْتَ عَلَى حَالٍ قَبِيحَةٍ . رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ .

٣٠ ـ الصدق والكذب

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي جَعَلَ الصِّدْقَ نَجَاةً لِلصَّادِقِينَ مِنْ مَخَاوِفِ الدُّنْيَا وَالآخِرَه ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللّٰهُ شَهَادَةَ مَنْ صَدَقَ فِيهَا فَازَ بِالْمَقَامَاتِ الْفَاخِرَه ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَمِينُهُ

عَلَى عِبَادِهِ وَشَرَائِعِهِ النَّاهِيَةِ الآمِرَه ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِي اللِّسَانِ الصَّادِقِ وَالقَلْبِ السَّلِيم .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : عَلَيْكَ بِالصِّدْقِ فِي أَحْوَالِكَ كُلِّهَا فَإِنَّ الصِّدْقَ يُمْنٌ عَلَى أَهْلِهِ وَبَرَكَات ، لَيْسَتْ هٰذِهِ البَرَكَاتُ فِي الدُّنْيَا فَقَطْ بَلْ أَعْظَمُ بَرَكَاتِهِ يَوْمَ الحَسَرَات ، أَمَّا بَرَكَاتُهُ فِي الدُّنْيَا فَالعَظَمَةُ وَالجَمَالُ وَاليَسَارُ فِي كُلِّ الحَالَات ، وَلِذٰلِكَ تَجِدُ الصَّادِقَ بَيْنَ النَّاسِ عَظِيمًا لَا يُسَامِيهِ عَظِيم . إِنْ أَخْبَرَ سَارَعُوا إِلَى تَصْدِيقِهِ مَهْمَا كَانَ خَبَرُهُ بَعِيداً عَنِ الأَذْهَان ، وَإِذَا وَعَدَ اطْمَأَنَّتِ القُلُوبُ إِلَى وَفَائِهِ بِالوَعْدِ كُلَّ الاطْمِئْنَان ، وَإِنْ بَاعَ أَوِ اشْتَرَى سُجِّلَ عَقْدُهُ تَسْجِيلاً لَا تُغَيِّرُهُ أَمْكِنَةٌ وَلَا أَزْمَان ، وَإِنْ أَخَذَ أَوْ أَعْطَى لَا يَغِشُّ وَلَا يَخْطُرُ عَلَى بَالِهِ هٰذَا الغِشُّ الذَّمِيم . لِهٰذَا إِذَا رَأَتْهُ العُيُونُ مَلَأَهَا جَمَالاً كَمَا يَمْلَأُ الصُّدُور ، فَإِذَا جَلَسَ كَانَ مَطْمَحَ أَنْظَارِ الجُلَسَاء وَكَانَ بَيْنَهُمُ الجَلِيلَ الوَقُور ، وَإِذَا تَحَدَّثَ بَادَرَتِ الآذَانُ إِلَى الْتِقَاطِ كَلِمَاتِهِ كَمَا يُلْتَقَطُ الدُّرُّ المَنْثُور ، وَلَيْسَ فَوْقَ هٰذَا جَمَالٌ وَعَظَمَةٌ يَنْتَظِرُهُمَا فِي الدُّنْيَا رَجُلٌ كَرِيم . أَمَّا إِنِ احْتَاجَ الصَّادِقُ فَلَا تَشُكَّ فِي أَنَّ حَاجَتَهُ تَزُولُ فِي الحَال ، فَإِنَّهُ إِنْ قَرَعَ بَاباً فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابٌ لَا يُحْوِجُهُ بَابٌ مِنْهَا إِلَى سُؤَال ، النَّاسُ يَعْرِفُونَ مَبْلَغَ صِدْقِهِ فَلَا يَضِنُّونَ عَلَيْهِ بِمَالٍ وَإِنْ كَثُرَ المَال ، كُنُوزُ النَّاسِ مَفَاتِيحُهَا بِيَدَيْهِ وَهُوَ يَسَارٌ يَسُرُّ قَلْبَ

الكظيم . وأما بركات الصدق في الآخرة فحسبك أنه يرضي عنك رب العالمين ، وإذا رضي عنك ربك أدخلك دار كرمه ووقاك دار المجرمين ، ولما أن الصدق هذا قدره قال تعالى : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ، أمرنا أن نكون معهم لنقتدي بهم لنكون في الدارين من أهل التكريم . هذه بركات الصدق وأما الكذب فيسود الوجوه ويطأطئ رءوس الرجال ، وإن احتاج الكاذب أغلقت الأبواب في وجهه إغلاقا لا يفتح بحال ، وإن تكلم بأي نوع من أنواع الكلام كذبه الناس وأهملوه كل الإهمال ، هذا شؤم الكذب في الدنيا وأما شؤمه في الآخرة فعذاب الجحيم . أضف إلى هذا أن الصدق وصف سادة الخلق الأنبياء والمرسلين ، ووصف كل من يعرف لنفسه شرفها فإن الشريف لا يستطيع أن يكون من الكاذبين ، وأما الكذب فوصف الكفار لا يليق إلا بهم وليس من أخلاق المؤمنين ، فانظر من أي الفريقين أنت والسلام على أهل الصدق فإنهم الحقيقون بالتسليم.

(حديث) عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل

يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ .

٣١ – كيف يكون العارفون بالله عز وجل ؟

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي جَعَلَ مَعْرِفَتَهُ جَنَّةً عَاجِلَةً يَتَمَتَّعُ بِلَذَّاتِهَا صَادِقُو الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةً لَا يَشْقَى قَائِلُهَا مَتَى قَالَهَا عَنْ يَقِينٍ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَنْبَأَ بِتَمَيُّزِ مَقَامِ الْعَارِفِينَ ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ بِمَعْرِفَةِ رَبِّهِمْ نَالُوا أَسْمَى مَنَال .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : إِنَّ لِلّٰهِ تَعَالَى رِجَالاً عَرَفُوا أَنَّهُ وَحْدَهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، لَا يَتَحَرَّكُ كَائِنٌ وَلَا يَسْكُنُ إِلَّا وَهُوَ الَّذِي حَرَّكَهُ أَوْ سَكَّنَهُ فِي أَرْضٍ أَوْ فِي سَمَاء ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ الْحَكِيمُ الَّذِي لَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ فِيمَا سَرَّ أَوْ سَاء ، فَالْخَطَأُ فِي أَيِّ فِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِهِ عَلَيْهِ تَعَالَى مُحَال . عَرَفُوا أَنَّهُ لَا يُخْطِئُ لِأَنَّ الْخَطَأَ يَكُونُ إِذَا جُهِلَ الْفِعْلُ مِنْ كُلٍّ أَوْ بَعْضِ الْأَنْحَاء ، فَمِنَ الْجِهَةِ أَوِ الْجِهَاتِ الَّتِي جُهِلَتْ يَقَعُ الْخَطَأُ أَوْ تَقَعُ الْأَخْطَاء ، وَالْجَهْلُ مُحَالٌ عَلَى رَبِّنَا لِأَنَّهُ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاء ، وَإِذَا اسْتَحَالَ الْجَهْلُ عَلَيْهِ تَعَالَى اسْتَحَالَ عَلَيْهِ الْخَطَأُ بِلَا أَدْنَى جِدَال . هٰكَذَا عَرَفَ أُولٰئِكَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ فَاسْتَسْلَمُوا لِجَمِيعِ أَفْعَالِهِ كُلَّ

الاستسلام، لا يخطر على أفكارهم منازعة له في فعل من أفعاله ولا اتهام، فهم قبل أن يفعل وحين الفعل وبعده في رضاء عنه تام، سواء أأغدق عليهم النعم أم والى عليهم صنوف الأهوال. فالبلايا وإن قصمت لا تغيرهم بل يستقبلونها باستسلام الأديب الجليل، والنعم مهما عظمت وتعاقبت لا تنسيهم المنعم بل يشكرونه عليها الشكر الجزيل، فألسنتهم أمام جميع أفعاله تعالى لا تحسن النطق إلا بالحسن الجميل، وأما القلوب فراسخ فيها حبه والرضى عنه رسوخ الجبال. هكذا كن أيها المؤمن لتبرهن على أنك صادق الإيمان، وإلا وقفت موقفا يقوم فيه على تناقضك البرهان، فإن من يقول: رضيت بالله ربا لا يصح أبداً أن يغضب من أفعاله غضب الصبيان، بل يرضى بها تمام الرضى مهما قست لتتفق أقواله والأفعال.

(حديث) ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا. رواه مسلم والترمذي وأحمد.

٣٢ — بأي شيء يتفاضل الناس اليوم ؟

الحمد لله الذي ليس بعظيم عنده إلا من امتثل نواهيه والأوامر، وأشهد أن لا إله إلا الله الذي لا قيمة عنده للمظاهر، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله الذي أخبر أن الله ينظر

لِلقُلُوبِ لَا لِلظَّوَاهِرِ ، اللّهُمّ صلّ وَسلّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيّدِنَا مُحَمّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْأَفَاضِلِ الْأَتْقِيَاء .

(أمّا بعدُ) فيا عبدَ الله : إنّ لِلفَضْلِ فى هذا العَصْرِ أسْبَاباً لَا تَخْفَى عَلَى إِنْسَان ، بِمِقْدَارِ مَا يَكُونُ عِنْدَ المَرْءِ مِنْهَا يَكُونُ مِقْدَارُ فَضْلِهِ عِنْدَ أَبْنَاءِ الزّمَان ، وَلِذَلِكَ يَبْذُلُونَ فى سَبِيلِ تَحْصِيلِهَا مَا عَزّ عَلَيْهِمْ وَهَان ، وَمَنْ لَا سَبَبَ لَهُ مِنْهَا لَا يَحْتَرِمُونَهُ وَلَا يَعُدُّونَهُ مِنَ الفُضَلَا . فَمِنْ تِلْكَ الْأَسْبَابِ الرُّتَبُ الّتِى يَمْنَحُونَهَا مِنْ أَفَنْدِى لِبَاشَا عَظِيم ، وَمِنْهَا الْأَوْسِمَةُ الّتِى فى لَمَعَانِهَا عَلَى الصُّدُورِ شَأْنٌ لِمَنْ يَحْمِلُهَا فَخِيم ، وَمِنْهَا الشّهَادَاتُ الْعَالِيَةُ الّتِى يُعَانُونَ فى سَبِيلِهَا الزّمَنَ الطّوِيلَ وَالتّعَبَ الْأَلِيم ، وَمِنْهَا مَرَاكِزُ الدّوْلَةِ مِنْ أَوّلِ حَاجِبٍ إِلَى مَقَامِ الْوُزَرَاء . وَمِنْهَا المَالُ الْكَثِيرُ الذّهَبُ وَالْفِضّةُ وَالْقُصُورُ المَشِيدَةُ وَالمَزَارِعُ الْكَثِيرَات ، وَمِنْهَا الِاتّصَالُ بِوَاحِدٍ فَأَكْثَرَ مِنْ أَرْبَابِ الْوَجَاهَاتِ وَالمَرَاكِزِ السّامِيَات ، وَمِنْهَا الظُّهُورُ بِمَظْهَرِ فَلَاسِفَةِ زَمَانِنَا الّذِينَ يُنْكِرُونَ حَتّى وُجُودَ رَبّ الْكَائِنَات ، وَمِنْهَا التّمَرُّدُ عَلَى الْخَلْقِ بِالْقَتْلِ وَالسّرِقَةِ وَكُلّ أَنْوَاعِ الْإِيذَاء . هَذِهِ هِىَ أَسْبَابُ فَضْلِ النّاسِ عَلَى بَعْضِهِمْ فِى هذَا الزّمَان ، فَهَلْ رَأَيْتَ عَصْراً أَنْحَسَ مِنْ هذَا الْعَصْرِ الّذِى يَرَى مِنْ أُولِى الْفَضْلِ مُؤْذِىَ الْخَلْقِ وَالْكَافِرَ بِمَوْلَانَا الدّيّان ، ثُمّ أَىّ فَخْرٍ فِى مَالٍ نَمَا أَوْ مَرْكَزٍ سَمَا أَوْ رُتْبَةٍ أَوْ وِسَامٍ وَرَبُّ الدّارَيْنِ

غضبان، وأىُّ قيمةٍ للشهادات المالية حتى العالمية إذا لم يشهد لحاملها ربُّ الآلاء. نعم لهذه الأسباب فضلٌ دنيوىٌّ يفنى ولكن سعادةُ الأبدِ فى الفضلِ عند الله، والفضلُ عند الله بالتقوى فكلما كان المرءُ أتقى كان أرفع عند مولاه، فقد يشترى المملوك وهو أفضلُ من ملءِ الأرضِ من مثلِ مولاه الذى بالمال اشتراه، هكذا فافهم ولا تعرف فضلاً لأحدٍ إلاّ إذا كان من ذوى التقوى النبلاء.

(حديث) أنظر فإنك لست بخيرٍ من أحمر ولا أسود إلاّ أن تفضله بتقوى. رواه أحمد.

٣٣ — التحريض على طاعة الله تعالى

الحمدُ لله حمداً هو رأسُ الشكرِ لما لربنا علينا من نعم، وأشهدُ أن لا إله إلاّ اللهُ شهادةً هى أصلُ ما يمنحنا ربنا من كرم، وأشهدُ أنّ سيدنا ومولانا محمداً عبدُه ورسولُه صفوةُ أحباب مولانا الحكم، اللهمّ صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمدٍ وعلى آله وأصحابه وكلّ عبدٍ عن الخير بحّاثٍ وفعّال.

(أمّا بعدُ) فيا عبدَ الله: إنّ أكبر مصيبةٍ نزلت بالمسلمين اليومَ إقبالُهم على الدنيا وإعراضُهم عن الدين، نعم هذه مصيبةٌ لم يُصب بمثلها ولا بقريبٍ منها جماعةُ المسلمين، أصبحوا إذا أشرت لأحدهم على مالٍ ولو موهوماً طار إليه فى جشعِ الغافلين، ولا

تَسْتَبْعِدُ أَنْ يَدُوسَ شَرَفَهُ وَعِرْضَهُ وَدِينَهُ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ المَالِ . لٰكِنَّكَ لَوْ أَكَّدْتَ لَهُ أَلْفَ تَأْكِيدٍ أَنَّ كَذَا يَنْفَعُكَ فِي دِينِكَ مَا الْتَفَتَ لَكَ أَدْنَى الْتِفَاتٍ ، وَلَا يَلْتَفِتُ لِمَا تُشِيرُ إِلَيْهِ وَلَوْ أَيْقَنَ أَنَّهُ يُرْضِي عَنْهُ رَبَّهُ وَيُدْخِلُهُ أَعْلَى الْجَنَّاتِ ، إِنَّ هٰذَا قَبِيحٌ ثُمَّ قَبِيحٌ لِأَنَّهُ لَيْسَ وَصْفَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَلٰكِنَّهُ وَصْفُ مَنْ يُكَذِّبُ بِالْآخِرَةِ وَيُكَذِّبُ بِمَا بِهَا مِنْ نَعِيمٍ وَنَكَالٍ . إِنْ رَضِيتَ هٰذَا أَيُّهَا الْعَاقِلُ فَتَمَادَ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ هٰذَا الْحَالِ الشَّنِيعِ ، لٰكِنِّي أُبَشِّرُكَ مِنَ الْآنِ أَنَّكَ تَكُونُ فِي آخِرَتِكَ فِي عَذَابٍ أَلِيمٍ فَظِيعٍ ، وَإِنْ لَمْ تَرْضَ ذٰلِكَ وَأَحْبَبْتَ أَنْ تَكُونَ مِنْ ذَوِي الْمَقَامِ الرَّفِيعِ ، فَاسْمَعْ لِي وَأَقْبِلْ عَلَى مَا أَدُلُّكَ عَلَى عَمَلِهِ كُلَّ الْإِقْبَالِ . أَنْتَ خُلِقْتَ لِعِبَادَةِ رَبِّكَ فَاحْرِصْ عَلَى الْفَرَائِضِ مِنْهَا الْحِرْصَ الْعَظِيمَ ، فَإِنَّ الْإِخْلَالَ بِالْفَرَائِضِ يُعَرِّضُكَ لِجَهَنَّمَ وَمَا بِهَا مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، هٰذِهِ الْفَرَائِضُ أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ فَالْزَمْهَا يَا أَيُّهَا الْفَطِنُ الْفَهِيمُ ، ثُمَّ عَلَيْكَ بِالنَّوَافِلِ فَإِنَّ وَرَاءَ عَمَلِهَا مِنَ الْخَيْرَاتِ مَا يَسُرُّ قَلْبَ الْمِفْضَالِ . ذٰلِكَ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَادَ النَّوَافِلَ وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى الْفَرَائِضِ أَحَبَّهُ اللهُ ، وَإِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا كَانَ لَهُ بِهٰذَا الْحُبِّ كُلُّ مَا يَتَمَنَّاهُ ، إِنِ اسْتَعَاذَ بِهِ مِنْ أَيِّ مَكْرُوهٍ أَعَاذَهُ وَإِنْ سَأَلَهُ أَيَّ مَحْبُوبٍ أَعْطَاهُ ، وَلَيْسَ بِكَثِيرٍ هٰذَا عَلَى مَنْ يُحِبُّهُ رَبُّنَا الْغَنِيُّ الْكَرِيمُ ذُو الْفَضْلِ الْهَطَّالِ . وَلَا تَظُنَّ أَنَّهُ تَعَالَى يَفْعَلُ لَهُ

مَا يَفْعَلُ فِى شَىْءٍ مِنَ الإِبْطَاءِ ، بَلْ يُسَارِعُ تَعَالَى فِى فِعْلِ مَا يَمْنَحُهُ لَهُ مِنَ الآلاَءِ ، حَتَّى كَأَنَّهُ عَيْنُهُ الْبَاصِرَةُ ، وَرِجْلُهُ السَّاعِيَةُ ، وَيَدُهُ الَّتِى تَتَنَاوَلُ مَا يَشَاءُ ، هٰذَا شَىْءٌ يُقَرِّبُ إِلَى عَقْلِكَ سُرْعَةَ فِعْلِهِ تَعَالَى لِمَا يُحِبُّهُ أَحْبَابُهُ الأَبْطَالُ . هٰذَا مَقَامٌ مِنَ السُّمُوِّ بِدَرَجَةٍ تَرْقُصُ لِتَصَوُّرِهَا فَقَطْ أَلْبَابُ الفُضَلاَءِ ، وَهُوَ مَعَ سُمُوِّهِ هٰذَا سَهْلُ التَّنَاوُلِ عَلَى غَيْرِ أَهْلِ الْبَطَالَةِ الْكُسَلاَءِ ، وَكَيْفَ لاَ يَسْهُلُ مَا طَرِيقُهُ أَدَاءُ الْفَرَائِضِ وَاعْتِيَادُ النَّوَافِلِ مَعَ إِخْلاَصِ النُّبَلاَءِ ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَقُومَ بِهٰذَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ لِتُكْرَمَ بِتِلْكَ الْكَرَامَاتِ الغَوَالِ .

(حديث) مَنْ عَادَى لِى وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَىَّ عَبْدِى بِشَىْءٍ أَحَبَّ إِلَىَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا ، وَلَئِنْ سَأَلَنِى لَأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَ بِى لَأُعِيذَنَّهُ . رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ .

٣٤ — فضل ذكر الله

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى أَمَرَنَا أَنْ نَذْكُرَهُ كَثِيرًا حَتَّى عِنْدَ لِقَاءِ الأَعْدَاءِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللّٰهُ الَّذِى أَعَدَّ لِلذَّاكِرِينَ كَثِيرًا مَغْفِرَةً وَأَجْرًا بِلاَ إِحْصَاءٍ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى

بِإِرْشَادِهِ عَرَفْنَا كَيْفَ نَذْكُرُ رَبَّ الآلاءِ : اللَّهمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا نِعْمَ الأَصْحَاب .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَاعَبْدَ اللهِ : لَقَدْ ضَاعَ عُمُرُكَ وَأَنْتَ تَسْبَحُ فِى لُجَجٍ مِنَ الْقِيلِ وَالْقَالِ ، لَكَ لِسَانٌ كَالثُّعْبَانِ لاَ عَمَلَ لَهُ إِلاَّ النَّهْشُ فِى أَعْرَاضِ النَّاسِ نِسَائِهِمْ وَالرِّجَالِ ، لاَ تَتْعَبُ وَلاَ تَمَلُّ مِنْ هٰذَا النَّهْشِ وَلَوْ وَاصَلْتَ الأَيَّامَ بِاللَّيَالِ ، كَأَنَّكَ لَمْ تُخْلَقْ إِلاَّ لِتَمْزِيقِ الأَعْرَاضِ وَالطَّعْنِ فِى الأَحْسَابِ وَالأَنْسَابِ . إِنِّى أَرْجُوكَ أَنْ تَتْرُكَ هٰذَا فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ النَّارُ وَغَضَبُ الْجَبَّارِ ، وَأُشِيرُ عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَعْمِلَ لِسَانَكَ فِى شَيْءٍ مِقْدَارُهُ لاَ يُسَاوِيهِ مِقْدَار ، ذٰلِكَ الشَّيْءُ هُوَ ذِكْرُ مَوْلاَكَ الَّذِى فَضْلُهُ دَائِمًا عَلَيْكَ مِدْرَار ، فَإِنَّ الذِّكْرَ عَاقِبَتُهُ الْجَنَّةُ دَارُ الْكَرَامَةِ مَعَ رِضَى رَبِّكَ الَّذِى دُونَهُ كُلُّ ثَوَاب . لَوْ عَرَفْتَ قِيمَةَ إِشَارَتِى لَبَادَرْتَ إِلَى الْعَمَلِ بِهَا كُلَّ الْبِدَار ، فَإِنَّكَ وَأَنْتَ تَذْكُرُ أَفْضَلُ مِمَّنْ يُفَرِّقُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ عَلَى أَهْلِ الإِقْتَار ، وَأَفْضَلُ مِنْ أَنْ تُجَاهِدَ فَتَضْرِبَ عُنُقَ عَدُوِّكَ أَوْ يَضْرِبَ عُنُقَكَ وَتَكُونَ مِنَ الشُّهَدَاءِ الأَبْرَار ، كَيْفَ لاَ وَالذِّكْرُ خَيْرُ الأَعْمَالِ وَأَزْكَاهَا وَأَرْفَعُهَا لِلدَّرَجَاتِ عِنْدَ مَوْلاَنَا الْوَهَّاب . حَسْبُ الذَّاكِرِ أَنْ تَحُفَّهُ الْمَلاَئِكَةُ وَتَنْزِلَ عَلَيْهِ السَّكِينَةُ وَتَغْشَاهُ الرَّحَمَات ، وَمَنْ فِى الْوُجُودِ مِثْلُ الذَّاكِرِ وَهُوَ وَقْتَ الذِّكْرِ يَذْكُرُهُ بَارِئُ الْكَائِنَات ، وَمَنْ فِى الدُّنْيَا نَظِيرُهُ

وَهُوَ بِالذِّكْرِ فى حِصْنٍ حَصِينٍ يَحْفَظُهُ حَتَّى مِنَ الشَّيْطَانِ وَوَسَاوِسِهِ الْفَاتِنَاتِ ، لاَ تَسْتَكْثِرْ هذا عَلَى الذِّكْرِ وَهُوَ أَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ حَتَّى مِنْ عِتْقِ الرِّقَابِ . وَاجْزِمْ أَنَّ مَنْزِلَةَ الذَّاكِرِ بَيْنَ الْغَافِلِينَ تُمَاثِلُ مَنْزِلَةَ الْحَيِّ بَيْنَ الْمَيِّتِينَ ، وَلاَ تَشُكَّ فى أَنَّ هذَا الذِّكْرَ يُكَفِّرُ الخَطَايَا وَلاَ يَدَعُ ذَنْباً لِلْمُذْنِبِينَ ، لاَ تَظُنَّ أَنِّى أَقُولُ مَا أَقُولُ مِنْ عِنْدِى بَلْ هُوَ قَوْلُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، فَأَطِعْنِى وَاذْكُرِ اللهَ حَتَّى يَصِفَكَ بِالْجُنُونِ الجَاهِلُونَ الْغَافِلُونَ أَهْلُ الْحِجَابِ . وَلاَ تَنْسَ أَنَّ الَّذِينَ يَتَفَرَّقُونَ عَنْ مَجْلِسٍ بِلاَ ذِكْرٍ كَأَنَّمَا يَتَفَرَّقُونَ عَنْ جِيفَةِ حِمَارٍ ، وَيَكُونُ مَجْلِسُهُمْ هذَا حَسْرَةً عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَتَنَبَّهُ أَهْلُ الأَوْزَارِ ، بَلْ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَتَحَسَّرُونَ إِلاَّ عَلَى سَاعَةٍ كَانُوا بِهَا فى غَفْلَةٍ عَنِ الأَذْكَارِ ، وَأَظُنُّكَ بَعْدَ هذَا تُلاَزِمُ الذِّكْرَ وَتَعْقِلُ لِسَانَكَ عَنْ كُلِّ مَا يَسُوءُكَ فى يَوْمِ الْحِسَابِ .

(حديث) أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ ، وَأَرْفَعِهَا فى دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوُا الْعَدُوَّ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : ذِكْرُ اللهِ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِىُّ وَالحَاكِمُ وَمَالِكٌ وَابْنُ مَاجَه وَالطَّبَرَانِىُّ وَالْبَيْهَقِىُّ وَابْنُ شَاهِينَ .

٣٥ – فضل الذكر وبعض صيغ منه

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ عَبْدٍ رَطْبِ اللِّسَانِ دَائِمًا بِذِكْرِ اللَّهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي وَعَدَ أَنْ يَكُونَ مَعَ مَنْ يَذْكُرُهُ مَعِيَّةَ كَرَامَةٍ وَمُوَالَاه ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ سَيِّدُ مَنْ وَالَاهُ مَوْلَاهُ وَأَعْطَاه : اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ بِيَقَظَتِهِمْ تُضْرَبُ الْأَمْثَال .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللَّهِ : لَقَدْ غَفَلَتِ الْأَلْسِنَةُ الْيَوْمَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهَا غَفْلَةً تَسُرُّ قَلْبَ الشَّيْطَان ، وَلَمَّا غَفَلَتِ الْأَلْسِنَةُ غَفَلَتِ الْقُلُوبُ عَنْ مُرَاقَبَةِ مَوْلَاهَا الدَّيَّان ، وَلَمَّا غَفَلَتِ الْأَلْسِنَةُ وَالْقُلُوبُ انْدَفَعَتِ الْجَوَارِحُ تَرْكُضُ فِي مَيَادِينِ الْعِصْيَان ، لِدَرَجَةِ أَنَّ الْمَرْءَ يَضْحَكُ بِمِلْءِ فِيهِ وَهُوَ يَكْفُرُ بِرَبِّهِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَال . وَلَوْ تَحَرَّكَتِ الْأَلْسِنَةُ بِذِكْرِ رَبِّهَا لَاسْتَيْقَظَتِ الْقُلُوبُ مِنْ غَفَلَاتِهَا الْقَاتِلَات ، وَلَوِ اسْتَيْقَظَتِ الْقُلُوبُ مَا رَأَيْتَ جَارِحَةً مِنَ الْجَوَارِحِ تَلْتَفِتُ لِشَيْءٍ مِنَ الْمَحْظُورَات ، فَإِنَّ الْغَفْلَةَ هِيَ أَصْلُ الشُّرُورِ وَالْيَقَظَةَ هِيَ أَصْلُ الْخَيْرَات ، وَإِنِّي أَدُلُّكَ عَلَى كُنُوزٍ مِنَ الذِّكْرِ فَاذْكُرْ بِهَا تَسْمُ إِلَى مَا سَمَا إِلَيْهِ عُظَمَاءُ الرِّجَال . أَكْثِرْ مِنْ قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِنَّهَا تَرْجَحُ عَلَى كُلِّ مَا سِوَاهَا حَتَّى عَلَى الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَات ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ جَبَلِ ذَهَبٍ تُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَادِقَ النِّيَّات ، وَسُبْحَانَ

أَللهِ مِائَةٌ مِنهَا تَعدِلُ إِعتَاقَ مِائَةِ رَقَبَةٍ مِنْ أَوْلَادِ إِسْمَاعِيلَ سَادَةِ
السَّادَاتِ ، وَاللهُ أَكْبَرُ مِائَةٌ مِنهَا تَعْدِلُ مِائَةَ بَدَنَةٍ مُقَلَّدَةٍ مُتَقَبَّلَةٍ
تُنْحَرُ بِمَكَّةَ بَلَدِ رَبِّنَا ذِي الجَلَالِ . وَالحَمْدُ لِلهِ مِائَةٌ مِنهَا تَعْدِلُ مِائَةَ
فَرَسٍ مُسْرَجَةٍ مُلْجَمَةٍ تُرْكَبُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا
بِاللهِ دَوَاءٌ مِنْ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ دَاءً أَيْسَرُهَا الْهَمُّ الْمُضْنِي لِمَنْ يَلْقَاهُ ،
وَحَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ تَدْفَعُ عَنْ قَائِلِهَا مِنَ الْكَرْبِ مَا يَعْجِزُ
عَنْ أَنْ يَتَوَقَّاهُ ، وَمَنْ قَالَ : رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ
رَسُولًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ذَاتُ الظِّلَالِ . وَأَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ
مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ تَحْفَظُ قَائِلَهَا مِنْ مِثْلِ الْعَقْرَبِ وَالثُّعْبَانِ ، وَآيَةُ
الْكُرْسِيِّ تَحْفَظُ نَفْسَ وَوَلَدَ وَبَيْتَ وَمَالَ قَائِلِهَا مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَمَنِ
اسْتَغْفَرَ لِنَفْسِهِ مَحَا الِاسْتِغْفَارُ كُلَّ مَا لَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِصْيَانِ ، وَمَنِ
اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ كَانَ لَهُ حَسَنَةٌ بِكُلِّ نَفْسٍ مِنَ النِّسَاءِ
وَالرِّجَالِ . وَاللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ
سِوَاكَ تَقْضِي دَيْنَ الْمَدِينِ ، وَكُلُّ حَرْفٍ مِنَ الْقُرْآنِ لِلنَّاطِقِ بِهِ عَشْرُ
حَسَنَاتٍ فَالتَّالِي لَهُ أَفْضَلُ الذَّاكِرِينَ ، وَإِذَا صَلَّيْتَ عَلَى نَبِيِّكَ مَرَّةً
وَاحِدَةً صَلَّى عَلَيْكَ بِهَا عَشْرًا رَبُّ الْعَالَمِينَ ، كُلُّ هٰذَا قَالَهُ نَبِيُّكَ فَتَيَقَّنْهُ
وَاحْذَرِ الشَّكَّ فِيهِ أَوِ الْجِدَالَ . هٰذِهِ كُنُوزٌ مِنَ الذِّكْرِ إِذَا اعْتَدْتَهَا
جَلَّ ذِكْرُكَ عِنْدَ الْعِبَادِ وَعِنْدَ رَبِّ الْعِبَادِ ، وَكَانَتْ دَرَجَتُكَ فِي الْجَنَّةِ

لا تُسامِيها دَرَجَةُ أحَدٍ مِنْ غيْرِ الذّاكِرِينَ الأَمْجاد ، فَاخْلَعْ رِداءَ الْغَفْلَةِ وَالْبَسْ حُلَّةَ الْيَقَظَةِ حُلَّةَ الْعارِفِينَ الْعُبّاد ، وَلاَ تَمُتْ إلاَّ وَأَنْتَ رَطْبُ اللِّسانِ بِذِكْرِ رَبِّكَ فَإنَّهُ خَيْرُ الأَعْمال .

(حديث) أَفْضَلُ الْعِبادِ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ الذّاكِرُونَ اللهَ كَثِيراً . رَواهُ التِّرْمِذِيُّ وَأَحْمَدُ .

٣٦ – وصايا جليلة مختلفة

الحَمْدُ للهِ الَّذِي قَدَّمَ لَنا جَواهِرَ آدابِهِ فِى كِتابِهِ وَفِى سُنَنِ الرَّسُول ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ الَّذِى مَنْ عَمِلَ بِآدابِهِ وَصَلَ إلَى كُلِّ مَأْمُول ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا وَمَوْلاَنا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى بِهِ لاَحَ كَوْكَبُ الْفَلاَحِ بَعْدَ الأُفُول : اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبارِكْ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحابِهِ حُماةِ الدِّينِ الأَخْيار .

(أَمّا بَعْدُ) فَيا عَبْدَ اللهِ : لاَ تَبْغِ عَلَى النّاسِ فَإنَّ الْبَغْيَ سِلاَحٌ لاَ يُقْتَلُ بِهِ سِوَى الْباغِين ، وَلاَ تَمْكُرْ بِمَخْلُوقٍ فَإنَّ الْمَكْرَ لاَ يَحِيقُ إلاَّ بِالْماكِرِين ، وَلاَ تَغْدِرْ بِأَحَدٍ فَإنَّ الْغادِرَ خَصْمُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ رَبُّ الْعالَمِين ، وَلاَ تَرُدَّ عُذْرَ مَنْ يَعْتَذِرُ إلَيْكَ وَإلاَّ كُنْتَ مِنْ شَرِّ الأَشْرار . وَلاَ تَرْضَ لِنَفْسِكَ رَذِيلَةَ الْبُخْلِ فَإنَّ الْبُخْلَ لَيْسَ مِنْ صِفاتِ أَهْلِ الإيمان ، وَلاَ تُظْهِرِ الشَّماتَةَ لأَخِيكَ الْمُبْتَلَى وَإلاَّ عافاهُ رَبُّهُ وَابْتَلاكَ فَتُصْبِحُ نَدْمان ، وَلاَ تُؤْذِ جِيرانَكَ فَإنَّ مَنْ يُؤْذِى الْجِيرانَ مِنْ أَهْلِ

النِّيرَان ، وَلَا تُرَوِّعْ مُسْلِمًا وَلَوْ بِالْإِشَارَةِ إِلَيْهِ وَإِلَّا رَوَّعَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَوْلَاهُ الْقَهَّار . وَلَا تَكُنْ ذَا وَجْهَيْنِ بَيْنَ النَّاسِ فَإِنَّ ذَا الْوَجْهَيْنِ لَا يَكُونُ وَجِيهًا عِنْدَ اللهِ ، وَلَا تَحْتَقِرْ مُسْلِمًا مَهْمَا كَانَ حَالُهُ وَإِلَّا احْتَقَرَكَ مَوْلَاهُ الَّذِى سَوَّاه ، وَلَا تَتَبَّعْ عُيُوبَ النَّاسِ لِتَفْضَحَهُمْ بِهَا وَإِلَّا فَضَحَكَ رَبُّكَ هُنَا وَيَوْمَ تَلْقَاه ، وَلَا تَكُنْ فَاحِشًا فِى الْقَوْلِ وَإِلَّا كُنْتَ جَافِيًا وَأَهْلُ الْجَفَاءِ فِى النَّارِ . وَلَا تَكُنْ سَيِّئَ الْخُلُقِ مَعَ النَّاسِ وَإِلَّا تَعَرَّضْتَ فِى دَارَيْكَ لِأَخْطَارٍ عِظَام ، وَإِنْ أَمْكَنَكَ أَنْ لَا تَغْضَبَ أَصْلًا فَافْعَلْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِ دَارِ السَّلَام ، وَإِنْ غَضِبْتَ فَلَا تَهْجُرْ أَخَاكَ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَأَنْتَ خَيْرٌ مِنْهُ إِذَا بَدَأْتَهُ بِالسَّلَام ، اقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى : « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ » تَفْهَمْ مَا لِمَقَامِ الْعَفْوِ مِنْ مِقْدَار . وَلَا تَلْعَنْ مُؤْمِنًا فَإِنَّ لَعْنَ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ عِظَمَ قَتْلِ الْمُؤْمِنِين ، وَلَا تَسُبَّهُ بِغَيْرِ اللَّعْنِ فَإِنَّكَ إِنْ سَبَبْتَهُ أَصْبَحْتَ مَعْدُودًا مِنَ الْفَاسِقِين ، وَلَا تُفْسِدْ عَلَى امْرِئٍ زَوْجَتَهُ أَوْ خَادِمَهُ وَإِلَّا تَبَرَّأَ مِنْكَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِين ، وَلَا تَطْعَنْ فِى نِسْبَةِ أَحَدٍ إِلَى أَبِيهِ فَإِنَّ ذَلِكَ الطَّعْنَ مِنْ شَأْنِ الْكُفَّار . وَلَا تُصَدِّقْ دَجَّالًا يُخْبِرُكَ بِالْغَيْبِ فَإِنَّ ذَلِكَ كُفْرٌ بِدِينِ الْإِسْلَام ، وَلَا تُهِنْ يَتِيمًا عِنْدَكَ فَإِنَّ شَرَّ الْبُيُوتِ بَيْتٌ تُهَانُ فِيهِ الْأَيْتَام ، وَلَا تَنْقُلْ عَنْ أَحَدٍ مَا يُغْضِبُ أَخَاهُ وَإِلَّا كُنْتَ نَمَّامًا وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّام ، هٰذِهِ وَصَايَا غَالِيَةٌ

فاحفظها واعمل بها تفز برضوان مولاك الغفار .

(حديث) لا يدخل الجنة نمام، رواه البخاري ومسلم .

٣٧ — فى بر الوالدين وصلة الأرحام

الحمد لله الذى وصى بالوالدين فقال تعالى : « أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير » ، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة عبد لا يخالف والديه إلا إذا أمراه بمعصية مولاه القدير ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله الذى أخبر أن الصدقة للوالدين بعد موتهما بر لهما كبير ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الفضلاء الأخيار .

(أما بعد) فيا عبد الله : أحسن إلى أمك وأبيك ما أمكن لك الإحسان ، وإن حسبت يوماً أنك كافأتهما كنت مخطئاً فى ذلك الحسبان ، وكن فى الأدب معهما فوق ما تكون فى حضرة أفخم سلطان ، واحذر سوء الأدب عندهما وإلا هويت فى هوة شقاء ما لها من قرار . كن كذلك معهما وإن ظلماك وإن ظلماك وإن ظلماك ، لأنهما اللذان لولاهما ما رأيت هذا الوجود ولا رآك ، ولأنهما اللذان رأيا من الأهوال ما رأيا حتى ربياك ، ولولا عنايتهما بك ما طالت حياتك فى هذه الدار . تذكر زمن حمل أمك بك وأنت فى بطنها علة من أكبر العلات ، وتذكر وقت أن كانت

تَلِدُكَ وَهِيَ بِمَا بِهَا لاَ مِنَ الأَحْيَاءِ وَلاَ مِنَ الأَمْوَاتِ ، وَتَذَكَّرْ أَنَّكَ كُنْتَ تَمْتَصُّ دَمَهَا مُدَّةَ الرَّضَاعِ وَسُرُورُهَا بِكَ تَقْصُرُ عَنْ شَرْحِهِ العِبَارَاتُ ، وَتَذَكَّرْ فَزَعَهَا لِمَرَضِكَ وَسَهَرَهَا لِتَمْلِيلِكَ وَتَذَكَّرْ تَنْظِيفَهَا لَكَ مِنَ الأَقْذَارِ . لَيْسَ ذَلِكَ يَوْمًا وَلاَ يَوْمَيْنِ وَلَكِنَّهَا أَسَابِيعُ وَأَشْهُرٌ وَأَعْوَامٌ ، وَمَعَ ذَلِكَ حِرْصُهَا شَدِيدٌ عَلَى أَنْ تَعِيشَ لَهَا وَلَوْ حُرِمَتْ لَذَّةَ الطَّعَامِ وَالمَنَامِ ، وَتَذَكَّرْ كَدَّ وَالِدِكَ فِي تَحْصِيلِ مَا بِهِ تَحْيَا لاَ يَهْدَأُ اللَّيَالِيَ وَلاَ الأَيَّامَ ، وَكُلَّمَا خَشِيَ أَنْ تَجُوعَ هَامَ عَلَى وَجْهِهِ فِي الدُّنْيَا لاَ يَرُدُّهُ إِلاَّ أَنْ يَرَاكَ فِي يَسَارٍ . مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ شَدَّدَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْكَ الوَصِيَّةَ بِهِمَا وَلَوْ كَانَا مِنَ الكُفَّارِ ، وَأَخْبَرَ نَبِيُّكَ أَنَّهُمَا جَنَّتُكَ وَنَارُكَ وَقَدَّمَ بِرَّهُمَا عَلَى الجِهَادِ الرَّفِيعِ المِقْدَارِ ، وَدَعَا أَنْ يُرْغِمَ اللهُ أَنْفَ مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ وَلَمْ يَنْجُ مِنَ النَّارِ ، وَأَخْبَرَ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ فَذَكَرَ عُقُوقَهُمَا بَعْدَ الكُفْرِ بِاللهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ . إِنَّ شَأْنَ الوَالِدَيْنِ عَظِيمٌ فَاحْذَرْ أَنْ تَسْتَهِينَ بِهِ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ ، وَلاَ تَعْجَبْ إِذَا قُلْتُ لَكَ إِنَّ فَلاَحَكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لاَ يَكُونُ إِلاَّ إِذَا رَضِيَ عَنْكَ الوَالِدَانِ ، وَمِنْ تَمَامِ بِرِّهِمَا أَنْ تَصِلَ رَحِمَهُمَا وَأَهْلَ وُدِّهِمَا بِمَا تَسْتَطِيعُ مِنْ إِحْسَانٍ ، وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ خَيْرٍ فِي صِلَةِ الرَّحِمِ وَكُلَّ شَرٍّ فِي قَطْعِهَا كَمَا جَاءَتْ بِذَلِكَ الأَخْبَارُ .

(حديث) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَجُلاً قالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَا حَقُّ الْوَالِدَيْنِ عَلَى وَلَدِهِمَا ؟ قالَ : هُمَا جَنَّتُكَ وَنَارُكَ . رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ .

(آخر) الرَّحِمُ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ : مَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ ، وَمَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

٣٨ — بِمَ يرتفع الانسان وينحط ؟

الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِطَاعَتِهِ يَرْتَقِي الْمُؤْمِنُ حَتَّى يَكُونَ فَوْقَ الْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ الَّذِي عِصْيَانُهُ يَهْوِي بِالْعَبْدِ حَتَّى يَكُونَ دُونَ الْأَنْعَامِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمَبْعُوثُ رَحْمَةً لِلْخَلْقِ خَوَاصِّهِمْ وَالْعَوَامِّ . اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ مِنَ الْأَخْيَارِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : إِنَّ الْإِنْسَانَ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِ أَمْرَيْنِ هُمَا الرُّوحُ وَهٰذَا الْجُثْمَانُ ، وَهُمَا أَمْرَانِ بَيْنَهُمَا مِنَ التَّبَايُنِ وَالِاخْتِلَافِ مَا لاَ يَخْفَى عَلَى إِنْسَانٍ ، فَالرُّوحُ مِنَ الْعَالَمِ الْأَعْلَى عَالَمِ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِسْمُ مِنَ الْعَالَمِ الْأَسْفَلِ عَالَمِ الْحَيَوَانِ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا لَهُ أَحْوَالٌ تَخُصُّهُ بِهَا يَتَمَيَّزُ وَيَتَبَيَّنُ مَا لَهُ مِنْ مِقْدَارٍ . فَأَمَّا عَالَمُ الْحَيَوَانِ الَّذِي مِنْهُ الْبَدَنُ فَعَالَمُ شَهْوَةٍ لاَ عَقْلَ مَعَهَا يُمَيِّزُ قَبِيحاً مِنْ حَسَنٍ ، فَمِنْ هٰذِهِ الشَّهْوَةِ وَبِقَهْرِهَا يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَنْكِحُ وَهٰكَذَا كُلَّمَا تَحَرَّكَ أَوْ سَكَنَ ، خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى لِمَنَافِعِ الْإِنْسَانِ يَرْكَبُهُ وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ أَثْقَالَهُ وَيُصْلِحُ

أرضَهُ ويأكُلُهُ ويبيعُهُ بالثمن . فإذا ماتَ لم يُبعثْ لحياةِ الأبدِ لأنَّ هذهِ الحياةَ مخصوصةٌ بالمكلَّفين خيارِهم والأشرار . وأمَّا عالَمُ الملائكةِ الذي منهُ الرُّوحُ فعالَمُ عقلٍ ليسَ للشهوةِ ولا لمقتضياتها عليهِ سبيل ، فهوَ عالَمُ علمٍ وعرفانٍ وخيرٍ لا يُشابُ من الشرِّ بكثيرٍ ولا بقليل ، لذاتهُ التي لا تُفارقُهُ في ليلهِ ونهارهِ طاعةُ مولاهُ وأمَّا العصيانُ فمستحيل ، فهوَ عالَمُ اللذةِ الروحيةِ كاملةً في هذهِ الدارِ وتُضاعَفُ في تلكَ الدار . فإذا غلبتْ شهوتُكَ عقلَكَ يا هذا فأصبحتَ طوعَها ولو أمرتكَ بالموبقات ، فاعلمْ أنَّ جُزءَكَ الحيوانيَّ غلبَ عليكَ فأصبحتَ في المعنى كسائرِ الحيوانات ، وإذا غلبَ عقلُكَ شهوتَكَ فرأيتَ نفسَكَ لا تصبو إلاَّ إلى الطاعات . فتيقَّنْ أنْ قد غلبَ جُزؤُكَ الملكيُّ فصرتَ حكماً من الملائكةِ الأطهار . تأمَّلْ نفسَكَ ثمَّ تأمَّلها فإنْ كُنتَ ممَّن غلبتْ عليهمُ الشهوات ، فتداركْ نفسَكَ بالمتابِ وإلاَّ كُنتَ أحطَّ من البهائمِ لأنَّها لا تُقذفُ مثلَكَ في دارِ الحسرات ، وإنْ كُنتَ من السيطرةُ لعقولِهم فبشِّرْ نفسَكَ ثمَّ بشِّرها وازددْ من الكمالات ، ولا تتردَّدْ حينئذٍ في أنَّكَ خيرٌ من كثيرٍ من الملائكةِ بفضلِ مشقةِ جهادِكَ المختار .

(حديث) إيَّاكُمْ والهوى فإنَّ الهوى يُصِمُّ ويُعمي . رواهُ السجزيُّ في الإبانة .

(آخر) أَفْضَلُ الْجِهَادِ أَنْ يُجَاهِدَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ وَهَوَاهُ . رَوَاهُ ابْنُ النَّجَّار .

٣٩ — التحريض على العناية بالأرواح

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي كَتَبَ الْفَلَاحَ لِمَنْ زَكَّى رُوحَهُ فَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِ الْكَمَالِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ الَّذِي جَعَلَ الْخَيْبَةَ لِمَنْ دَنَّسَ رُوحَهُ بِخَبِيثِ الْأَفْعَالِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمَثَلُ الْأَكْمَلُ فِي أَفْعَالِهِ وَالْأَقْوَالِ : اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ حَرِيصاً عَلَى مَا لِرُوحِهِ مِنْ كَمَالَاتِ

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللّٰهِ : أَرَى لَكَ مِنَ الْعِنَايَةِ بِبَدَنِكَ مَالَا تُسَامِيهِ مِنْكَ عِنَايَات . بَلْ أَرَى كُلَّ حَيَاتِكَ ذَاهِبَةً فِيمَا تَبْذُلُ لِخِدْمَةِ هٰذَا الْبَدَنِ مِنْ مَجْهُودَات . أَلَسْتَ لَيْلَكَ وَنَهَارَكَ فِي كَدٍّ تَجْمَعُ بِهِ الْأَمْوَالَ الْوَفِيرَات ، وَهَلْ كُلُّ تِلْكَ الْأَمْوَالِ إِلَّا وَسِيلَةٌ تَصِلُ بِهَا إِلَى مَا لِهٰذَا الْبَدَنِ مِنْ لَذَّات . إِنَّ جَمِيلاً أَنْ تُعْنَى بِبَدَنِكَ وَلٰكِنْ لَا إِلَى هٰذَا الْإِفْرَاطِ الَّذِي لَا يَرْتَضِيهِ إِنْسَان ، فَإِنَّ الْبَدَنَ مَهْمَا أُكْرِمَ مَآلُهُ تُرَابُ الْقَبْرِ تَتَمَتَّعُ بِلَذِيذِ لَحْمِهِ هُنَاكَ الدِّيدَان ، وَالَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تَصْرِفَ كُلَّ تِلْكَ الْعِنَايَةِ إِلَى رُوحِكَ الَّذِي لَا يَفْنَى فِي زَمَنٍ مِنَ الْأَزْمَان ، وَالَّذِي بِهِ أَنْتَ صَفْوَةُ هٰذَا الْعَالَمِ وَعَلَى الْعِنَايَةِ بِهِ تَتَوَقَّفُ سَعَادَتُكَ فِي هٰذِهِ الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَات . لِهٰذَا الرُّوحِ غِذَاءٌ لَعَلَّكَ لَمْ تُفَكِّرْ فِي

تحصيله يوماً من الأيام . مع أن منفعته دنيا وأخرى أجل كثيراً من منفعة غذاء الأجسام . ذلك الغذاء هو أنواع الطاعات كالإخلاص والشكر والذكر والصلاة والصيام ، وأنواع العلوم والمعارف أوحاها ربك أو أودعها فى هذه المصنوعات . نعم أنت فى شغل شاغل عن هذا الغذاء الملكى بتحصيل ذلك الغذاء البهيمى ، لذلك تشب وتشيب وتموت وأنت فى جهل تام بضروريات دينك الإسلامى ، وربما مرت عليك الأعوام بل الحياة كلها دون أن يغلط لسانك بذكر إلهى ، والظاهر أنك نسيت الآخرة وما يوصل لها فى سبيل هذا البدن وما له من شهوات . وكذلك لهذا الروح أمراض تطرأ عليه تضعف أو تمنع قيامه بأوامر مولاه العظيم ، وتلك الأمراض هى قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق والجهل بالشرع الحكيم ، ولهذا كله دواء هو أن تتوب إلى الله تعالى وتتخلق بضد الفعل أو الخلق الذميم . فهل خطر ببالك يوماً يا هذا أن تداوى روحك من تلك الأمراض المضلات . أنت تهرول إلى طبيب الأجسام ومعك ما معك من المال إذا نزل بدنك مرض صغير ، وأما العالم طبيب الأرواح فلا تزوره مجاناً ولو أصاب روحك مرض خطير . هذا قبيح جداً بمن يدين بدين الإسلام ويؤمن باليوم الأخير . فالتفت

لِرُوحكَ يَا هذَا وَاعْلَمْ أَنَّ غِذَاءهُ وَدوَاءهُ عِنْدَ الْعُلَماء فَلَا تُبَارِحْ مَجَالِسَهُمُ النَّيِّرَات .

(حديث) إذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فَارْتَعُوا . قالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا رِيَاضُ الجَنَّةِ ؟ قالَ مَجَالِس العِلْمِ . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ .

٤٠ — هل حالنا مع الآخرة كحالنا مع الدنيا ؟

الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَمَرَنَا أَنْ نُسَارِعَ إِلَى الجَنَّةِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَات ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي خَوَّفَنَا مِنَ النَّارِ لِنَفِرَّ مِنْهَا بِتَرْكِ السَّيِّئَات ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَخِيرَتُهُ مِنْ هٰذِهِ الْكَائِنَات ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اقْتَدَى بِهِمْ وَاسْتَقَام .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عبدَ الله : اعْتَادَ النَّاسُ أَنَّ مَنْ طَلَبَ شَيْئاً مِنْ نَفَائِسِ الدُّنْيَا لَا يَهْدَأُ وَلَا يَنَام ، بَلْ يَسْعَى لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ سَعْيَ النَّشِطِ الْهُمَام ، وَكُلَّمَا سُدَّ بَابٌ فِي وَجْهِهِ قَرَعَ أَبْوَاباً كَمَا هُوَ دَأْبُ الحَرِيصِ الْمِقْدَام ، وَكُلَّمَا نَظَرَ إِلَى قَدْرِ مَا يَطْلُبُ هَانَ عَلَيْهِ السَّعْيُ وَمَا لَهُ مِنْ مَتَاعِبَ وَآلَام . وَالْعَجِيبُ أَنَّهُ لَا يَمَلُّ وَلَا يَسْأَمُ وَإِنْ وَاصَلَ السَّعْيَ سِنِين ، وَأَعْجَبُ مِنْ هذَا أَنَّهُ لَا يَنْثَنِي عَنْ مَطْلُوبِهِ وَإِنْ مُسَّ شَرَفُهُ وَأُهِين ، وَإِنِ اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ الْوُصُولُ اسْتَعَانَ بِذَوِي الْوَجَاهَةِ الْمُحْتَرَمِين ، وَلَا يَزَالُ هٰكَذَا يُوَاصِلُ السَّعْيَ حَتَّى يَصِلَ

مُبْتهجاً إلى ما لهُ مِنْ مَرام . أَنْتَ تَطْلُبُ الجَنَّةَ يا هذا ولاَ نَفِيسَ أَنْفَسُ منها لِأَنَّها لاَ تَفنىٰ ولاَ تَبِيد ، وَلِأَنَّ لكَ فِيهَا مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ دُونَ أَىِّ تَقْيِيد ، وَلِأَنَّكَ خالِدٌ فِيها أَبداً دُونَ أَنْ يُكَدِّرَ بِأَىِّ مُكَدِّرٍ ذٰلِكَ العَيْشُ الرَّغِيد ، فَهَلْ سَعَيْتَ لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا كَمَا تَسْعَىٰ فَقَطْ لِذٰلِكَ الفَانِى مِنَ الحُطَام . المُشاهَدُ أَنَّكَ لاَ تَسْعَىٰ لِتِلْكَ الجَنَّةِ وَلاَ يَخْطُرُ لَكَ السَّعْىُ إِلَيْهَا عَلَى بَال ، وَلَوْ أَنَّكَ سَاوَيْتَهَا فِى السَّعْىِ إِلَيْهَا بِأَىِّ مَطْلَبٍ دُنْيَوِيٍّ لَكُنْتَ مِنْ عُظَمَاءِ الرِّجَال ، وَالسَّعْىُ إِلَى الجَنَّةِ لاَ يَكُونُ بِالْكَلاَمِ وَلاَ بِالْأَحْلاَمِ وَلٰكِنْ بِصَالِحَاتِ الْأَعْمَال ، وَهَلْ تَزْهَدُ أَنْتَ فِى شَىْءٍ كَمَا تَزْهَدُ فِى تِلْكَ الْأَعْمَالِ الْفِخَام . وَكَذٰلِكَ جَرَتِ الْعَادَةُ أَنَّ مَنْ خَافَ شَيْئاً مِنْ مُؤْلِمَاتِ الدُّنْيَا يَفِرُّ مِنْهُ كُلَّ الْفِرَار ، يَذْهَبُ هُدُوءُهُ وَطُمَأْنِينَتُهُ وَرُبَّمَا ذَهَبَ نَوْمُهُ لاَ اخْتِيَاراً بَلْ ذَهَابَ اضْطِرَار ، وَلاَ يَطْمَئِنُّ بَعْضَ الِاطْمِئْنَانِ إِلاَّ إِذَا احْتَرَسَ مِنْهُ بِكُلِّ مَا لَهُ مِنْ أَعْوَانٍ وَأَنْصَار ، يَفْعَلُ كُلَّ ذٰلِكَ لِئَلاَّ يَصِلَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَذَى مَا يُكَدِّرُ صَفْوَهُ التَّام . النَّارُ أَكْبَرُ مَخُوفٍ يَا هذَا فَهَلِ احْتَطْتَ لَهَا كَمَا تَحْتَاطُ لِمَخُوفَاتِ هذِهِ الدَّار ، أَنْتَ الْفَارِسُ الَّذِى لاَ يُجَارَى فِى مَيَادِينِ الآثَامِ فَهَلْ هذَا احْتِيَاطُكَ لِاتِّقَاءِ النَّار ، إِنْ أَرَدْتَ الجَنَّةَ يَا هذَا فَاعْمَلْ صَالِحًا وَإِنْ أَرَدْتَ النَّجَاةَ مِنَ النَّارِ فَاتْرُكِ

الْأَوْزَار ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ غَيْرَ هٰذَا فَقَدْ بَرْهَنْتَ عَلَى أَنَّكَ لَسْتَ مِنْ ذَوِى الْأَفْهَام .

(حديث) مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا ، وَلَا مِثْلَ الْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ .

٤١ — القلب

الْحَمْدُ لِلّٰهِ حَمْدَ عَبْدٍ كُلُّ عِنَايَتِهِ أَنْ يَصْلُحَ قَلْبُهُ كُلَّ الصَّلَاحِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ شَهَادَةً عَاقِبَةُ الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا أَكْبَرُ فَلَاحٍ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى اتِّبَاعُهُ لِكُلِّ خَيْرٍ مِفْتَاح ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانَتِ الْقُلُوبُ لَهَا عِنْدَهُمُ الشَّأْنُ الْكَبِير .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللّٰهِ : إِنَّ فِى بَدَنِكَ هٰذَا عُضْوًا هُوَ مَلِكُ كُلِّ مَا فِى الْبَدَنِ مِنْ أَعْضَاء ، سُلْطَانُ مُلْكِهِ عَلَيْهَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيهَا كَمَا يُحِبُّ وَيَشَاء ، وَخُضُوعُهَا لَهُ خُضُوعٌ هِىَ مَعَهُ فِى طَاعَةٍ عَمْيَاء ، وَانْظُرْ أَنْتَ مَاذَا يَكُونُ لِلْمَلِكِ الْمُطَاعِ فِى جُنُودِهِ مِنْ تَأْثِير . إِذَنْ بِقَدْرِ صَلَاحِ أَوْ فَسَادِ هٰذَا الْعُضْوِ يَكُونُ صَلَاحُ أَوْ فَسَادُ كُلِّ هٰذَا الْبَدَن ، لِأَنَّ كُلَّ الْبَدَنِ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَحِيدَ قِيدَ شَعْرَةٍ عَمَّا لِذَاكَ الْعُضْوِ مِنْ سَنَن . فَلَوْ سَلَكَ وَلَوْ طَرِيقَ الْكُفْرِ سَارَعَ الْبَدَنُ وَرَاءَهُ بِلَا أَدْنَى وَهَن ، وَإِذَا أَرَادَ وَلَوْ مَقَامَ الصِّدِّيقِينَ صَدَعَ الْبَدَنُ

بما أراد دون أي تأخير. ذلك العضو الذي بهذا المركز في الجسم هو قلبك أيها الرجل الهمام، وهو وإن كان في غاية الخطر عليك لكن بيدك منه الزمام، ذلك أن له جواسيس عن أخبارها يصدر كل ما له من أحكام، فإن طابت الأخبار كانت الأحكام مثلها وإلا خبثت خبثاً لا يعرف له تقدير. تلك الجواسيس بيدك أنت تصريفها وتوجيهها إلى أي الجهات، فإن شئت توجهت إلى الشر وإن شئت توجهت إلى الخيرات، فإن وجهتها إلى الخير أوصلته للقلب وإن إلى الشر أوصلته غير مقصرات، وإذا كانت شهوده بيدك فأحكامه بيدك لا يخفى ذلك على بصير. تلك الجواسيس هي حواسك التي أخطرها على القلب سمعك والبصر، فكم نظرة تحرك لها ولم يسكن حتى أورد الجسم سقر، وكم كلمة سمعها شغلته حتى ورط البدن كله في الخطر، فإذا قصرت سمعك وبصرك على ما ينبغي عشت في صفاء لا يشاب بتكدير. وإذا أردت مع هذا أن يتم صلاح قلبك كل التمام، بحيث لا يعتريه فساد ما امتد بك في هذه الحياة المقام، فتباعد عن المعاصي تباعدك عن النار المحرقة والجوهر السام. لأنه بالمعاصي يقسو وهو إذا قسا يكون البدن دائماً في شر مستطير.

(حديث) أَلَا وَإِنَّ فِى الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِىَ الْقَلْبُ . رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيث .

٤٢ – بيان قيمة الحياة والتحريض على المحافظة عليها

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى جَعَلَ اجْتِنَابَ أَسْبَابِ الضَّرَرِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ التَّعَرُّضَ لِأَذَى الْمُؤْذِيَاتِ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى أَمَرَ أَنْ نَفِرَّ مِنْ ذَوِى الْأَمْرَاضِ الْمُعْدِيَاتِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِى الِاحْتِيَاطِ الْحُكَمَاءِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللَّهِ : إِنَّ رَأْسَ مَالِ الْإِنْسَانِ هُوَ حَيَاتُهُ فِى هٰذِهِ الدَّارِ ، بِهَا يَتَمَكَّنُ أَنْ يَعْمَلَ لِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَلِسَعَادَةِ دَارِ الْقَرَارِ ، يَفْعَلُ الْخَيْرَ يَتْرُكُ الشَّرَّ فِى خُشُوعٍ وَإِخْلَاصِ الْعَبِيدِ الْأَخْيَارِ ، وَيَكْتَسِبُ مِنَ الدُّنْيَا مَا بِهِ يَتَجَمَّلُ وَيَعِيشُ كَمَا يَعِيشُ الْفُضَلَاءُ النُّبَلَاءُ . كُلُّ هٰذَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَعْمَلَهُ وَيَتَمَادَى عَلَيْهِ بِلَا أَىِّ مَلَلٍ ، مَا طَالَتْ بِهِ الْحَيَاةُ وَلَمْ يَحُلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذٰلِكَ انْتِهَاءُ الْأَجَلِ ، فَإِذَا مَاتَ طُوِيَتْ صَحِيفَتُهُ وَانْقَطَعَ مِنْ زِيَادَةِ أَعْمَالِهِ كُلُّ أَمَلٍ ، وَأَصْبَحَ فِى دَرَجَةِ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ يَتَحَرَّكَ حَرَكَةً لِدِينِهِ أَوْ دُنْيَاهُ فِيهَا رَجَاء . بِهٰذَا الْقَدْرِ الضَّخْمِ حَيَاتُكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الْجَلِيلُ ، الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا بِالنِّسْبَةِ لَهَا

لاَ تُساوِى وَلاَ قَدْرَ فَتِيلٍ ، وَأَىُّ قِيمَةٍ لِلدُّنْيا عِنْدَ مَعْدُومٍ لاَ يَنْتَفِعُ مِنْها بِكَثِيرٍ وَلاَ بِقَلِيلٍ ، إِنَّمَا قِيمَتُهَا لِحَيٍّ يَنْتَفِعُ بِهَا لِدَارِهِ الْأُولَى أَوْ لِدَارِ الْجَزَاءِ . إِذَنْ مِنْ آكَدِ الفَرائِضِ أَنْ تَبْذُلَ فِي سَبِيلِ حِفْظِ حَيَاتِكَ مَا تَسْتَطِيعُ مِنْ مَجْهُودَاتٍ ، وَمِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ تُعَرِّضَهَا لِلْخَطَرِ بِعَدَمِ الْحَذَرِ مِنَ المادِّيَاتِ ، وَمِنْ أَبْشَعِ أَنْوَاعِ الْجَهْلِ أَنْ تُسَلِّمَ حَيَاتَكَ لِدَجَّالٍ مُتَطَبِّبٍ يَفْتِكُ بِهَا أَشَدَّ الْفَتَكَاتِ ، وَفِي الْقُطْرِ مَا لاَ يُحْصَى مِنْ نَوَابِغِ الْحُكَمَاءِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ مَا الدَّاءُ وَمَا الدَّوَاءُ . وَمِنَ الْأُمُورِ الَّتِي كَثِيراً مَا كَانَتْ سَبَباً فِي أَشَدِّ الْأَخْطَارِ ، قَذَارَةُ الْبَدَنِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ وَالدَّارِ ، وَكَذَلِكَ الِاخْتِلَاطُ بِذَوِى الْأَمْرَاضِ الْمُعْدِيَةِ الَّتِي يَعْرِفُهَا صِغَارُنَا وَالْكِبَارُ ، وَلاَ يَقْتَصِرُ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ بَلْ مِثْلُهُ عَدَمُ الِاكْتِرَاثِ بِكُلِّ سَبَبٍ يُفْضِي إِلَى إِيذَاءٍ . مِنْ كُلِّ ذَلِكَ فَتَحَفَّظْ يَا هَذَا لِتَحْفَظَ حَيَاتَكَ الْغَالِيَةَ الْفَاخِرَه ، وَلاَ تَسْتَكْثِرْ كُلَّ ذَلِكَ الِاحْتِيَاطِ عَلَيْهَا فَلَوْلاَهَا مَا كَانَتْ دُنْيَا وَلاَ آخِرَه ، وَلاَ تَنْسَ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ حَيَاتِكَ إِنَّمَا هُوَ طَاعَةُ اللهِ تَعَالَى لاَ طَاعَةُ شَهَوَاتِكَ الْفَاجِرَه ، وَلَوْلاَ طَاعَةُ اللهِ تَعَالَى لَكَانَتِ الْحَيَاةُ عَلَى صَاحِبِهَا بَلاءً لاَ يُضَاهِيهِ بَلاءٌ .

(حديث) خَيْرُ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ . وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ ، وَسَاءَ عَمَلُهُ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ .

(آخر) اتقوا المجذوم كما يتقى الأسد. رواه البخاري في التاريخ.

٤٣ – قيمة المال بين النعم

الحمد لله الذي لا تحصى نعمه وكلها من العظمة بمكان، وأشهد أن لا إله إلا الله الذي قيمة المال بين نعمه لا تخفى على يقظان، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله الذي بكماله لا بماله كان صفوة الأكوان، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن على ولائهم يقيم.

(أما بعد) فيا عبد الله: أفرط الناس اليوم في تقدير المال حتى عدوه النعمة التي ليس لها نظير، ولو قلت إنهم لا يعرفون لله عليهم نعمة سواها عبرت أحكم تعبير، فالسعادة عندهم هي كثرة المال وقلته هي الشقاء الكبير، لذلك إذا أعطوا منه كثيراً رضوا عن الله تعالى وإلا سخطوا السخط العظيم. خطأ شنيع هذا من الناس وغفلة من أشد الغفلات، المال نعمة جليلة ولكن أين هو من نعمة الدين وهي نعمة النعمات، هذا الدين لولاه كنت تحرم من دار النعيم الأبدي وتخلد في دار الإهانات، وأين من هذه النعمة مال لا يتردد في قرب زواله الرجل الفهيم. ما المال وما قيمته إذا

قارنته بنعمة صحة الأجسام ، ما تفعل بمال الدنيا بأسرها لو لم تؤد المعدة وظيفتها فى الشراب والطعام ، وما حاجتك بالمال إذا ذهب عقلك وأصبحت مثل الأنعام ، وما قدر المال عندك إذا ذهب سمعك وبصرك وصرت أحط من أسفل بهيم . بل أى منفعة لك بالمال إذا امتنع البول أو الغائط عن أن يجرى مجراه ، وأى لذة فى المال لمن ذهب ذوقه فأردأ طعام عنده يساوى أحلاه ، وما درجة المال عند رجل تعطلت عن الحركة يداه ورجلاه ، تأكد يا هذا أن مال العالم كله أحقر من أن ينسب لأحقر عضو من هذا البدن الكريم . بل أين هذا المال من نعمة الهواء الذى لولاه ما بقى لحظة نبات ولا حيوان ، وأين هذا المال من نعمة الماء الذى لولاه لمات كل حى وهو ظمآن ، وأين هذا المال من نعمة النبات الذى لولاه ما عاش حيوان ولا إنسان ، وأين هذا المال من نعمة الكواكب النيرة التى لولاها ما صلح للحياة هذا الوجود الفخيم . لعلك من هذه المقارنات فهمت قيمة المال بين جميع الآلاء ، فتأكد ذلك واحمد الله تعالى ولو لم يعطك من المال سوى ما يقوتك ويقوت الأبناء ، فإذا كنت مع ذلك معافى فى بدنك آمنا فى نفسك من بلايا الإعتداء ، فأنت ومن يملك الدنيا بحذافيرها تستويان حينئذ عند النظر السليم .

(حديث) مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِى سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِى جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا. رَوَاهُ التِّرْمِذِىُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَالْبُخَارِىُّ فِى الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ .

٤٤ ـ الرحمة بالخلق

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى مِنْ عَدْلِهِ مُعَامَلَةُ الْعَامِلِينَ بِمِثْلِ مَا يَعْمَلُونَ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِى اخْتَصَّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَرْحَمُونَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى مِنْهُ تَعَلَّمَ الرَّحْمَةَ الرَّاحِمُونَ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الرُّحَمَاءِ بَيْنَهُمْ كَمَا وَصَفَهُمُ الْقُرْآنُ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللَّهِ : ارْحَمْ خَلْقَ اللَّهِ تَعَالَى يَرْحَمْكَ فَإِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَرْحَمُ الرُّحَمَاءَ ، لَا تُفَرِّقْ فِى هَذِهِ الرَّحْمَةِ بَيْنَ عَاقِلٍ وَمَا لَيْسَ مِنْ فَرِيقِ الْعُقَلَاءِ ، الْكُلُّ خَلْقُهُ تَعَالَى تُرْضِيهِ الرَّحْمَةُ بِأَيِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ وَإِنِ ازْدَرَاهُ الْجُهَلَاءُ ، وَتُغْضِبُهُ الْقَسْوَةُ عَلَى أَيِّ مَخْلُوقٍ مِنْهُمْ مَتَى كَانَ مِنْ جِنْسِ الْحَيَوَانِ . انْظُرْ كَيْفَ أَخْبَرَ نَبِيُّنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَحِمَ بَغِيًّا وَجَعَلَهَا مِنْ أَهْلِ النَّعِيمِ ، لَمَّا رَحِمَتْ كَلْبًا وَسَقَتْهُ وَكَانَ فِى عَطَشٍ أَلِيمٍ ، وَانْظُرْ كَيْفَ أَخْبَرَ أَنَّهُ تَعَالَى غَضِبَ عَلَى مُسْتَقِيمَةٍ وَجَعَلَهَا مِنْ أَهْلِ الْجَحِيمِ ، لَمَّا حَبَسَتْ هِرَّةً حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا وَعَطَشًا وَلَمْ تَأْخُذْهَا عَلَيْهَا رَحْمَةٌ وَحَنَانٌ . وَإِذَا كَانَ تَعَالَى رَحِمَ زَانِيَةً لِرَحْمَتِهَا كَلْبًا وَالزِّنَى

مِنْ أَفْحَشِ الفَاحِشَاتِ ، وَالْكَلْبُ حَيَوَانٌ يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ فِي الحَقَارَةِ بَيْنَ سَائِرِ الحَيَوَانَاتِ ، فَمَاذَا عَسَى أَنْ تَكُونَ رَحْمَتُهُ تَعَالَى بِعَبْدٍ كُلُّ تَقَلُّبَاتِهِ رَحَمَاتٌ ، لَيْسَ فَقَطْ عَلَى كَلْبٍ وَأَشْبَاهِهِ بَلْ عَلَى صَفْوَةِ هٰذَا الْوُجُودِ الْإِنْسَانِ . وَإِذَا كَانَ تَعَالَى غَضِبَ عَلَى مُسْتَقِيمَةٍ لِقَسْوَتِهَا عَلَى هِرَّةٍ وَأَدْخَلَهَا دَارَ النَّكَالِ ، وَالْهِرَّةُ بَيْنَ الحَيَوَانَاتِ مَعْرُوفٌ أَنَّهَا حَيَوَانٌ صَغِيرٌ لَيْسَ بِذِي بَالٍ ، فَقُلْ لِي كَيْفَ يَكُونُ غَضَبُهُ تَعَالَى عَلَى امْرِئٍ لَا يَعْرِفُ إِلَّا الْقَسْوَةَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، لَيْسَ فَقَطْ عَلَى هِرَّةٍ وَأَمْثَالِهَا وَلٰكِنْ عَلَى هٰذَا الْإِنْسَانِ الرَّفِيعِ الشَّأْنِ . مِنْ هٰذَا تَفْهَمُ أَنَّ الرَّحْمَةَ بِالْخَلْقِ عَمَلٌ صَالِحٌ ذُو دَرَجَةٍ مُمْتَازَةٍ بَيْنَ صَالِحَاتِ الْأَعْمَالِ ، وَتَفْهَمُ أَنَّ الْقَسْوَةَ عَلَى الْخَلْقِ عَمَلٌ مُنْكَرٌ يُفْزِعُ تَصَوُّرُ عَاقِبَتِهِ عُقَلَاءَ الرِّجَالِ ، خُصُوصاً إِذَا كَانَتِ الرَّحْمَةُ أَوِ الْقَسْوَةُ عَلَى هٰذَا الآدَمِيِّ الْمِفْضَالِ ، فَاحْذَرْ إِذَنِ الْقَسْوَةَ عَلَى الخَلْقِ وَالْزَمِ الرَّحْمَةَ بِهِمْ وَاخْصُصْ إِخْوَانَكَ بَنِي آدَمَ بِمَزِيدِ الْإِحْسَانِ . نَفِّسْ أَحْزَانَهُمْ خَفِّفْ آلَامَهُمْ أَرْشِدْ حَائِرَهُمْ وَاسِ فَقِيرَهُمْ وَالْمِسْكِينَ ، أَزِلْ شَحْنَاءَهُمْ فَرِّجْ كُرُوبَهُمْ أَعِنْهُمْ عَلَى مَا اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِمْ انْصُرْ عَادِمَ النَّاصِرِينَ . خُذْ بِيَدِ أَعْمَاهُمْ عُدْ مَرِيضَهُمْ شَيِّعْ جَنَائِزَهُمْ ادْعُ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ لِلْمُذْنِبِينَ ، هٰكَذَا فَافْعَلْ تَكُنْ مِنَ الرُّحَمَاءِ الَّذِينَ بِمِقْدَارِ رَحْمَتِهِمْ بِالْخَلْقِ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمٰنُ .

(حديث) بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ(١) بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ(٢) مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا(٣) فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

(آخر) دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي(٤) هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ(٥) الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

٤٥ – مابه يتحاب الناس

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعَدَّ لِأَهْلِ الصَّفَاءِ مِنْ أَنْوَاعِ الْكَرَامَةِ مَالَا يُحِيطُ بِهِ إِحْصَاءٌ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةَ عِبَادٍ لَا يَعْرِفُونَ فِي قُلُوبِهِمْ لِلْخَلْقِ إِلَّا مُنْتَهَى الصَّفَاءِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الدَّاعِي بِحَالِهِ وَمَقَالِهِ إِلَى دَوَامِ الْوَلَاءِ : اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانَ الصَّفَاءُ بَيْنَهُمُ الْعَجَبَ الْعَجِيبَ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللَّهِ : أَحِبَّ إِخْوَانَكَ مِنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ حُبَّ الصَّادِقِينَ الْأَوْفِيَاءِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى عَقَدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ فِي كِتَابِهِ عَقْدَ الْإِخَاءِ ، وَلَعَلَّكَ تَفْهَمُ مِنْ لَفْظِ الْأَخِ مَالَا يُسِيغُ لَكَ فِي مُعَامَلَتِهِ

---

(١) أي يلم بالركية ويقاربها ، والركية البئر ذات الماء.

(٢) امرأة زانية فاجرة .

(٣) خفها . (٤) أي بسبب قطة . (٥) هوام الأرض وحشراتها .

إلاَّ الوَفاء ، وَمَنْ عرَفَ أنَّهُ أخوكَ ثُمَّ لاَ يَصفُو لكَ فحالُهُ حالٌ مُرِيب .
وَلاَ تعتبرْ حُبّكَ لِأخيكَ حُبًّا إلاَّ إذا تَرَتَّبَتْ عليهِ الآثار ، وهكذا
كُلُّ شيْءٍ لاَ تَترَتَّبُ عليهِ آثارُهُ لاَ يَستحِقُّ الاعْتِبار ، وآثارُ حُبّكَ
لِأخيكَ أَنْ تهتمَّ بشُؤُونِهِ كُلِّها نافِعِها والضَّارّ ، اهْتِمامًا تعرِفُهُ أنتَ مِنْ
نَفْسِكَ وَيعرِفُهُ مِنكَ البعيدُ والقَريب . فَإِنْ رأَيْتَهُ يَنْتظِرُ خيرًا تسعَ
جُهْدَكَ فى أنْ يصِلَ إليهِ فى الحال ، فَإِنْ وَصَلَ إليهِ تُشارِكْهُ فى الفَرَحِ
بهِ وتُهنِّئْهُ تهنِئَةَ الأخِ المِفْضال ، وَإنْ رأَيْتَهُ يتوَقَّعُ شرًّا تُدافِعْ عنْهُ
ذلكَ الشرَّ دِفاعَ الأبْطال ، فَإِنْ نَزَلَ بِهِ تُشارِكْهُ فى آلامِهِ وتُخفِّفْها عنْهُ
بِتَسْلِيَةِ الأديب . وَإنْ غابَ عنكَ غَيْبَةً غيرَ مُعتادَةٍ تَسألْ لِماذا هذا
الغِياب ، فقدْ يكونُ مشغولاً بِمُهِمّ أوْ مُسافِرًا أوْ مُصابًا بِبعضِ
الأوْصاب ، فَإِنْ كانَ مشغولاً تُعِنْهُ على شُغْلِهِ أوْ مُسافِرًا تدعُ لهُ
بِحُسْنِ الإياب ، وَإنْ كانَ مَريضًا تعُدْهُ وتُحرِّضْهُ على امْتِثالِ إشاراتِ
الطَّبيب . فَإِنْ شُفِيَ تُهنِّئْهُ بذلكَ مُتمنِّيًا أنْ تطولَ حياتُهُ فى ما يُرْضِي
العَليمَ الخبير ، وتغتبِطْ بِلِقائِهِ كُلَّما لاقيْتَهُ مُتحرِّيًا فى مُخاطبتِهِ ما يجبُرُ
القَلْبَ الكسير ، وَإنْ ماتَ فى ذلكَ المرَضِ تلْزَمْهُ حتّى يستقِرَّ فى
مَنْزِلِهِ الأخير ، وتُجْرِ عليهِ بعْدَ ذلكَ مِنْ دَعَواتِكَ وصدَقاتِكَ ما ينفعُهُ
فى ذلكَ المنزِلِ الرَّهيب . إنْ فعلْتَ ذلكَ برهنْتَ على أنَّكَ أخٌ حقًّا
لِأهلِ الإيمان ، وحينئذٍ يُحبُّونَكَ وَيُعامِلُونَكَ كما تُعامِلُهُمْ لِأنّهُمْ

يَتَأَثَّرُونَ بِالإِحْسَانِ، وَكَذَلِكَ يُحِبُّكَ رَبُّكَ لِأَنَّهُ يُكْرِمُ مَنْ يُكْرِمُ حَتَّى أَدْنَى حَيَوَانٍ، وَمَنْ أَسْعَدُ مِنْكَ إِذَا جَمَعْتَ بَيْنَ مَحَبَّةِ النَّاسِ وَمَحَبَّةِ مَوْلَاكَ الرَّقِيبِ.

(حديث) الْمُؤْمِنُ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ، وَخَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ. رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ وَالضِّيَاءُ فِي الْمُخْتَارَةِ.

٤٦ — التحريض على الحياء من الله

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَجْزَلَ نِعْمَتَهُ عَلَى مَنْ صَدَقَ فِي خِدْمَتِهِ لِأَنَّهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةَ عَبْدٍ حَالَفَتْهُ الْعِزَّةُ فِي حَيَاتِهِ لِأَنَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي انْفَتَحَتِ الْبَصَائِرُ بِأَتْبَاعِهِ لِأَنَّهُ جَاءَ بِالنُّورِ الْمُبِينِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ نَهَجَ نَهْجَهُمْ وَوَرَاءَهُمْ سَارَ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللَّهِ: إِنَّ مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ أَنْ يَعْصِيَ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ مَوْلَاهُ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ عَجِيبًا لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ يَجْزِمُ أَنَّ مَوْلَاهُ يَرَاهُ وَيَعْلَمُ سِرَّهُ وَنَجْوَاهُ، وَمَعْرُوفٌ أَنَّ أَحَدَنَا يَسْتَحِي أَنْ يَفْعَلَ مَا يُغْضِبُ أَخَاهُ وَهُوَ يَرَاهُ، مَعَ أَنَّ أَخَاهُ لَا يَمْلِكُ لَهُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا لَا فِي هَذِهِ الدَّارِ وَلَا فِي دَارِ الْقَرَارِ. وَإِذَا كَانَ هَذَا حَالَهُ مَعَ أَخِيهِ

فعجيبٌ جدًا أن لا يكونَ كذلكَ معَ الله، معَ أنَّهُ تعالَى هُوَ الذي أوجدَهُ مِنَ العدمِ وهُوَ الذي يحفظُ عليهِ الحياه، وهُوَ الذي أسبغَ عليهِ النِّعمَ ظاهرةً وباطنةً وأدامَ ذلكَ عليهِ ووالاه، ولَوْ شاء لسلبَهُ كلَّ نعمةٍ وتركَهُ فى هذا الوُجودِ عبرةً لاولِى الأبْصار. أضِفْ إلَى ذلكَ أنَّهُ تعالَى هُوَ الَّذي يُميتُهُ ويُعامِلُهُ فِي قبْرِهِ بما يُناسِبُ ما لَهُ مِنْ أعْمال، وهُوَ الَّذي يبعثُهُ بعْدَ موْتِهِ ويسُوقُهُ إلَى ذلكَ الموْقفِ الَّذي هوْلُهُ يُشيبُ الأطفال، وهُوَ الَّذي يُحاسِبُهُ علَى ما كانَ مِنْهُ فى حياتِهِ الأُولَى مِنَ الأفعال، وهُوَ الَّذي بناء علَى ذلكَ يامُرُ بِهِ إمَّا إلَى الجنَّةِ وإمَّا إلَى دارِ العذابِ النَّار. نعَمْ مِنْ أعجبِ العجب أنْ يُجاهِرَ المؤمِنُ ربَّهُ بالمعْصيةِ وهُوَ يعلَمُ أنَّهُ مالِكُ دُنْياهُ وأُخراه، معَ أنَّهُ كما سمِعْتَ يَسْتحِي أنْ يُجاهِرَ بذلكَ أخاهُ الَّذي بيْنَهُ وبيْنَهُ كُلُّ المُساواه، ألَيْسَ مِنَ المُناسِبِ علَى الأقلِّ أنْ يهابَ المُؤمِنُ ربَّهُ كما يهابُ أخاه، أمْ أنَّ ربَّنا لا يُساوِي عِنْدَنا واحِداً منَّا فِيما لَهُ مِنْ هيْبَةٍ ووقار. إنَّ البُرْهانَ علَى أنَّكَ تستحِي مِنْ ربِّكَ أيُّها المؤمِنُ أنْ تكُونَ بعيداً دائماً عنْ معاصِيه، فتحْبِسَ لِسانَكَ وعيْنَيْكَ وأُذُنيْكَ وبطْنَكَ وفرْجَكَ ويديْكَ ورِجليْكَ عمَّا لا يُرْضِيه، أمَّا أنَّكَ تعْصِيهِ وتدَّعِي أنَّكَ تستحِي منْهُ فهذا ما يُكذِّبُكَ فِيما تدَّعِيه، أسألُهُ تعالَى أنْ يرْزُقَنِي وإيَّاكَ الحياء مِنْهُ فإنَّ أهلَ الحياء منْهُ هُمْ خِيارُ الأبْرار.

(حديث) أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحْيِيَ مِنَ اللهِ كَمَا تَسْتَحْيِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ. رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ.

(آخر) اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ مَنِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَلْيَحْفَظِ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْيَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ. رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ وَأَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ.

٤٧ — نصائح غالية

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي تَعْظِيمُ أَوَامِرِهِ وَاحْتِرَامُهَا شَأْنُ أَهْلِ الصِّدْقِ فِى الْإِيمَانِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي الْجُرْأَةُ عَلَى نَوَاهِيهِ آيَةُ أَهْلِ الْخُسْرَانِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي اتِّبَاعُهُ أَمَانٌ مِنَ النِّيرَانِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ عُشَّاقِ الْفَضَائِلِ وَالْكَمَالَاتِ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : اسْتَوْصِ بِوَالِدَيْكَ خَيْراً فَإِنَّهُمَا جَنَّتُكَ إِنْ أَطَعْتَهُمَا وَنَارُكَ فِى حَالِ الْعِصْيَانِ، وَصِلْ أَقَارِبَهُمَا لِأَجْلِهِمَا وَلَوْ بِالسُّؤَالِ عَنْ حَالِهِمْ يَصِلْكَ رَبُّكَ بِكُلِّ إِحْسَانٍ، وَبِرَّ أَحْبَابَهُمَا الَّذِينَ كَانُوا يَوَدُّونَهُمَا تَكُنْ مِنَ الْبِرِّ فِى أَعْلَى مَا يَطْمَحُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ، وَاكْفُلِ الْأَيْتَامَ إِنِ اسْتَطَعْتَ ذَلِكَ تَكُنْ مَعَ نَبِيِّكَ فِى دَارِ

'135

الكرامات . واعطف على الضعفاء واحترمهم وجالسهم فإن ذلك خلق الأنبياء والمرسلين ، واتق الله فى المرأة فقد شدد فى الوصية بها سيد العالمين ، وإذا تصدقت فتصدق مما تحب فإنك لا تنال البر إلا بهذا الخلق المتين ، واعلم أن النفقة على عيالك لها من الأجر ما ليس لسواها من النفقات . وأدب أبناءك ونساءك وحل بينهم وبين المعاصى فإنك عن الجميع مسئول ، ووال أهل بيت النبوة وودهم وراع حرمتهم لأجل مولانا الرسول ، ووقر العلماء والشيوخ الكبار بإخلاص يوقرك غيرك توقيراً ليس بمملول ، وارحم كل خلق الله تعالى يرحمك هو فى الحياة وبعد الممات . وراع حقوق جيرانك حق الرعاية إن كنت تؤمن بمولاك الواحد القهار ، وأحب الصالحين وتحبب إليهم وتجنب الفاسقين فإنك مع من أحببت فاسقين أو أخيار ، وعامل الناس بظواهرهم وأما سرائرهم فكل أمرها للعليم بالأسرار ، وأخبر من تحب بأنك تحبه فإن بذلك تدوم وتنمو بينكما المودات . واستدم خشية ربك ومخافته فإن الخائفين هنا يكونون يوم القيامة فى أمان ، وكن مع ذلك حسن الظن به تعالى فإنه يعاملك بظنك به ظن عقوبة أو غفران ، واجتهد أن لا يدخل حب الدنيا فى قلبك فإن عاقبة حبها الخسران ، وارض بما آتاك ربك منها يرض هو عنك يوم الحسرات . واجتهد

أَنْ تَبْكِيَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ فَإِنَّ الْبَكَّائِينَ لَا يَدْخُلُونَ النَّارَ حَتَّى يَعُودَ فِي الضَّرْعِ اللَّبَنُ ، وَاقْتَصِدْ فِي نَفَقَتِكَ عَلَى بَيْتِكَ فَإِنَّ الْمُقْتَصِدَ لَا يَفْتَقِرُ وَإِنِ اشْتَدَّ الزَّمَنُ ، وَإِنْ أَمْكَنَكَ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ كَسْبِ يَدِكَ فَافْعَلْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ طَعَامٍ يَتَوَخَّاهُ أَهْلُ الْفِطَنِ ، وَأَكْرِمْ ضُيُوفَكَ وَلَا تَتَكَلَّفْ مَالَا تَسْتَطِيعُ فَإِنَّ الْكِرَامَ يُعَامِلُهُمُ اللَّهُ بِالْكَرَمِ فِي كُلِّ الْحَالَاتِ .

(حديث) مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

٤٨ — مكارم الأخلاق

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَا بَعَثَ رَسُولًا إِلَّا وَمَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ لِمَا جَاءَ بِهِ قِوَامٌ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً هِيَ يَنْبُوعُ أَخْلَاقِ الْكِرَامِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي بِهِ تَمَّمَ اللَّهُ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ كُلَّ التَّمَامِ : اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ شَاكَلَهُمْ فِي أَخْلَاقِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللَّهِ : إِنَّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ الَّتِي هِيَ آدَابُ الْإِسْلَامِ جَمَالٌ لَا يُمَاثِلُهُ جَمَالٌ ، وَنَصِيبُكَ مِنْ ذَاكَ الْجَمَالِ يَكُونُ عَلَى

قَدْرِ مَا تَتَخَلَّقُ بِهِ مِنْ تِلْكَ الْخِلَالِ ، فَإِنْ أَكْثَرْتَ أَوْ أَقْلَلْتَ مِنْهَا كَانَ جَمَالُكَ بِنِسْبَةِ ذَلِكَ الْإِكْثَارِ أَوِ الْإِقْلَالِ ، وَلِذَلِكَ لَمَّا تَخَلَّقَ نَبِيُّنَا بِجَمِيعِهَا كَانَ أَجْمَلَ خَلْقِ اللهِ أَجْمَعِينَ . وَكَذَلِكَ قُلْ إِنَّ تَرْكَ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ شَيْنٌ لِتَارِكِهَا كَبِيرٌ ، وَعَلَى قَدْرِ مَا تَتْرُكُهُ مِنْهَا يَكُونُ شَيْنُكَ عِنْدَ الْكَبِيرِ مِنَّا وَالصَّغِيرِ ، فَمَهْمَا أَكْثَرْتَ أَوْ أَقْلَلْتَ مِنْ تَرْكِهَا كَانَ شَيْنُكَ بِنِسْبَةِ ذَلِكَ التَّقْدِيرِ ، وَلِذَلِكَ لَمَّا تَرَكَهَا الْكَافِرُ كُلَّهَا كَانَ لَا نِهَايَةَ لِقُبْحِ الْكَافِرِينَ . لَيْسَ ذَلِكَ الْجَمَالُ أَوِ الْقُبْحُ عِنْدَنَا فَقَطْ بَلْ هُوَ كَذَلِكَ عِنْدَ الدَّيَّانِ ، بِهِ يَمْدَحُ وَيَذُمُّ وَبِهِ يُدْخِلُ الْجِنَانَ وَيُدْخِلُ النِّيرَانَ ، فَقُلْ لِي بِرَبِّكَ أَيُّ نَصِيبٍ نَصِيبُكَ مِنْ تِلْكَ الْخِلَالِ الْحِسَانِ ، لِنَعْرِفَ مَا قَدْرُكَ وَمَا قِيمَتُكَ عِنْدَ الْعَالَمِينَ وَعِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ . إِنَّ الْأَلَمَ لَيَمْلَأُ الْجَوَانِحَ عَلَى هَذِهِ الْأَخْلَاقِ وَعَلَى عُشَّاقِهَا الْفُضَلَاءِ النُّبَلَاءِ ، مَاتَتْ وَمَاتُوا وَهَلْ بَعْدَهُمْ يُحِبُّ رَجُلٌ فَاضِلٌ طُولَ الْبَقَاءِ ، أَيْنَ أَهْلُ الْإِخْلَاصِ الَّذِينَ كَانُوا يَرَوْنَ الْمَوْتَ خَيْرًا مِنْ حَيَاةِ الرِّيَاءِ ، وَأَيْنَ أَهْلُ الصِّدْقِ الَّذِينَ كَانُوا قَطْعُ أَلْسِنَتِهِمْ أَخَفُّ عِنْدَهُمْ مِنْ أَنْ يَنْطِقُوا كَاذِبِينَ . أَيْنَ أَهْلُ الْعَفْوِ الَّذِينَ كُنْتَ تَشْبَعُ مِنْ إِيذَائِهِمْ وَهُمْ لِحِلْمِهِمْ كَالْجِبَالِ ، بَلْ أَيْنَ مَنْ كَانُوا يُجْزِلُونَ لَكَ الْإِحْسَانَ وَقَدْ لَاقَوْا مِنْ إِسَاءَاتِكَ الْأَهْوَالَ ، وَأَيْنَ مَنْ كَانُوا إِذَا رَأَوْا كُرْبَةً فَرَّجُوهَا وَإِنْ بَذَلُوا فِي سَبِيلِهَا الْأَرْوَاحَ وَالْأَمْوَالَ ، بَلْ أَيْنَ مَنْ كَانُوا إِذَا رَأَوْكَ

أَحْوَجَ لِمَا فى أَيْدِيهِمْ قَدَّمُوهُ إِلَيْكَ مَسْرُورِينَ . أَيْنَ أَهْلُ الرِّضَى عَنْ رَبِّهِمْ وَإِنْ فَعَلَتْ أَفَاعِيلَهَا بِهِمُ النَّكَبَاتُ ، وَأَيْنَ أَهْلُ الشُّكْرِ لِلْمُنْعِمِ عَلَيْهِمْ وَإِنْ غَمَرَتْهُمُ النِّعَمُ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ ، مَاتَ كُلُّ هٰؤُلَاءِ وَبَلِيَّةٌ مِنْ أَكْبَرِ الْبَلَايَا أَنْ نَقُولَ هٰذَا الطِّرَازُ مَاتَ ، فَهَلْ لَكَ يَا هٰذَا أَنْ تَسْلُكَ سَبِيلَهُمْ لِتَكُونَ فى هذا الزَّمَانِ مَثَلاً لِلْعَامِلِينَ .

(حديث) إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ . رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ وَالْبُخَارِيُّ فِى الْأَدَبِ ، وَالْحَاكِمُ .

٤٩ — هل يفرح الانسان بالنعم وهو يعصى بها مولاه ؟

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى مِنْ أَكْبَرِ نِعَمِهِ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ مِنْ أَهْلِ الشُّكْرِ الْكِرَامِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ شَهَادَةً أَجَلَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا لَهَا مِنْ حُطَامٍ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى مَا شُغِلَ عَنِ الْمُنْعِمِ بِمَا لَهُ مِنْ إِنْعَامٍ : اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ لَمْ تَغُرَّهُمُ الزَّخَارِفُ الْفَانِيَاتُ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللّٰهِ : كَثِيراً مَا يَغْلِبُ عَلَى أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ فَرَحُهُمْ بِمَا رُزِقُوهُ مِنْ أَمْوَالٍ ، وَقَدْ يَصِلُ بِهِمْ ذٰلِكَ الْفَرَحُ إِلَى أَنْ يَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فِى الْحَالِ وَفِى الْمَآلِ ، وَلِذٰلِكَ تَسْمَعُهُمْ

يقولون سعيد الدنيا سعيد الآخرة ويؤكدون هذا المقال، وبناء على هذه الفكرة يتسابقون فى ميادين المعاصى دون تفكير فى العاقبات. لتعلم يا هذا أن سعادة الآخرة تتبع صالح العمل ولا صلة لها أبدا بكثرة الأموال، فقد يملك الرجل الدنيا بأسرها وهو عند الله تعالى خالد فى النكال، ومن ربط سعادة الآخرة بكثرة المال فهو إما كافر أو جاهل من صفوة الجهال، فانظر كيف قلب الناس نعمة المال معصية تسوؤهم فى الحياة وبعد الممات. وليست نعمة المال وحدها النعمة التى جعلوها موبقة فاجره، بل للمال أمثال لا تحصى من النعم جعلوها موبقات وهى نعم فاخره، فنعمة الأبصار رزقوها ليهتدوا بها وينظروا الكون وآياته الباهره، فرأوا خيرا من ذلك أن وجهوها إلى وجوه الغوانى وإلى تمهيد طرق المضرات. ونعمة الآذان أوتوها ليسمعوا بها ما ينفعهم فى داريهم من حكم ومن أحكام، فلم يعجبهم ذلك وسمعوا بها ما يهلكهم من منكر القول وخبيث الكلام، ونعمة العقول منحوها ليدبروا بها آيات الله الكونية والشرعية تدبر فهم وإفهام، فلم يستحسنوا ذلك واستعملوها فى تدبير الدواهى وإحكام الطرق التى توصلها للمؤمنين والمؤمنات. ونعمة الألسنة وهبت لهم ليعبروا بها عما يخطر بأفكارهم من منافع دنيوية وأخرويه، فأبوا أن يطلقوا

لها أعنة القول إلا فى ميادين الطعن فى الأعراض النقية، ونعمة قوة الأبدان أعطوها ليتوسلوا بها إلى الإكثار من الأعمال المرضية، فعكسوا الأمر وأفرطوا فى استخدامها فيما تشتهيه نفوسهم من أنواع الأذيات. إن حمقا عظيما أن يفرح الإنسان بأى نعمة وهو يعصى بها ربه العليم الحكيم، وكيف يفرح الرجل العاقل بشىء ليس له من ورائه إلا العذاب الأليم، إنما يفرح العبد بالنعمة إذا استعملها فى الصالحات فوصلته للنعيم المقيم، هكذا فاعرف دينك ولا تغتر بما عليه الجاهلون من جهالات.

(حديث) لا تغبطن فاجراً بنعمة إن له عند الله قاتلاً لا يموت (١). رواه البيهقى.

٥٠ — الاحسان والاساءة وأثرهما عند الناس

الحمد لله الذى يحسن إلى من أحسن ويسىء إلى من أساء، وأشهد أن لا إله إلا الله الذى أمرنا أن نعامل العدو كأنه أجل الأصدقاء، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله الذى ما واجه أحداً بغلظة وجفاء، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين كانوا فى تراحمهم ما لهم من مثال.

---

(١) أى لابد أن يموت وسبب موته لا يموت قبله وبعد الموت يلاقى من جزاء فجوره مايلاقى، والذى مآله ذلك لا ينبغى للعاقل أن يتمنى أن يكون مثله.

141

(أمَّا بعْدُ) فيا عبدَ الله : إنَّ الإنْسانَ خُلِقَ ميَّالاً بِفِطرَتِهِ إلى الإحْسانِ ، وكَذلِكَ خُلِقَ نفَّاراً بطَبْعِهِ مِنَ الإساءةِ ولَوْ مِنْ أحبِّ إنْسانٍ ، بَلِ الحَيَوانُ الأعْجَمُ يُشارِكُ الإنْسانَ فى هذا وهُوَ حيَوانٌ ، وإنْ شِئْتَ فعَوِّدْ حيَوانًا إحْسانَكَ أوْ إساءتَكَ تعْرِفْ مِنْهُ ذلِكَ الحَالَ . إذَنْ لا تعْجَبْ مِنْ حُبِّ النَّاسِ لكَ إذا عامَلْتَهُمْ بِما يُحِبُّونَ ، ولا تُؤاخِذْهُمْ بِبُغْضِهِمْ لكَ إذا رأَوْا مِنْكَ ما يَكْرَهُونَ ، على هذا طُبِعَ النَّاسُ مِنْ بَدْءِ وُجُودِهِمْ وغَيْرُهُ لا يعْرِفُونَ ، يُحِبُّونَ مَنْ أحْسَنَ إليْهِمْ رَغْمَ آنافِهِمْ وحُبُّهُمْ لِمَنْ يُسِيءُ إليْهِمْ مُحالٌ . ومِنَ الإحْسانِ البالِغِ أنْ تُسَرَّ وتَفْرَحَ بِما يُسَرُّ بِهِ أخُوكَ الإنْسانُ ، فإنَّكَ بِذلِكَ تَكُونُ مُحْسِنًا إليْهِ ومُحِبًّا أنْ يَصِلَ إليْهِ مِنْ غَيْرِكَ الإحْسانُ ، ومِنَ الإساءةِ الكُبْرى أنْ تغْتَمَّ وأخُوكَ بِما أنْعَمَ اللهُ عليْهِ فَرْحانُ ، فإنَّ ذلِكَ هُوَ رذِيلَةُ الحَسَدِ الَّتِي قَلَّ أنْ تُوجَدَ بِقَلْبٍ رَضِيَ عَنْ ربِّهِ ذِي الجَلالِ . ومِنْ أفْضَلِ الإحْسانِ أنْ تتأَلَّمَ لِما نزَلَ بِأخِيكَ مِنَ الآلامِ ، فإنَّهُ بِذلِكَ يعْرِفُ أنَّكَ تشْعُرُ بِشُعُورِهِ كما تقْتَضِي أُخُوَّةُ الإسْلامِ ، ومِنْ أفْحَشِ أنْواعِ الأذى أنْ يغْتَمَّ أخُوكَ وأنْتَ فى سُرُورٍ تامٍّ ، فإنَّ ذلِكَ هُوَ الشَّماتَةُ الَّتِي لا يتَصَوَّرُها رجُلٌ يعْرِفُ لِنَفْسِهِ شرَفَ الرِّجالِ . إذا أحَطْتَ عِلْمًا بِهذا فكُنْ دائمًا مَصْدَرَ إحْسانٍ لِلْعالَمِينَ ، وكُنْ كأنْفُسِهِمْ فى أفْراحِهِمْ وأحْزانِهِمْ بِإخْلاصِ المُؤْمِنِينَ لا بِرِياءِ

الْمُنَافِقِينَ ، إِذَا أَطَعْتَنِي وَكُنْتَ هَكَذَا أَحَبُّوكَ وَقَابَلُوا إِحْسَانَكَ بِإِحْسَانِهِمْ شَاكِرِينَ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ شُكْرُ اللهِ تَعَالَى لَكَ فِى دَارَيْكَ وَهُوَ غَايَةُ الآمَالِ . وَاحْذَرْ جُهْدَكَ أَنْ تُسِيءَ الْخَلْقَ أَوْ تَشْمَتَ بِهِمْ إِذَا نُكِبُوا بِنَكَبَاتٍ ، فَإِنَّهُمْ بِذَلِكَ يُبْغِضُونَكَ وَيُسِيئُونَكَ وَيَتَمَنَّوْنَ لَكَ الْبَلِيَّاتِ ، وَأَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ غَضَبُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْكَ وَهُوَ أَقْسَى الرَّزِيَّاتِ ، وَفَّقَنِى اللهُ وَإِيَّاكَ لِلإِحْسَانِ لِلْخَلْقِ وَجَنَّبَنَا الْمُسِيءَ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ .

(حديث) الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللهِ فَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَى اللهِ مَنْ أَحْسَنَ إِلَى عِيَالِهِ . رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ وَالْبَزَّارُ وَأَبُو يَعْلَى .

(آخر) لاَ تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ ، فَيَرْحَمَهُ اللهُ وَيَبْتَلِيكَ . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ .

(آخر) وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

٥١ — دواء القلوب إذا قست

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى كَتَبَ الْمَوْتَ عَلَى الْعِبَادِ لاَ فَرْقَ بَيْنَ صَغِيرِهِمْ وَالْكَبِيرِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ الَّذِى أَخْبَرَ أَنَّهُ يُعَامِلُنَا بَعْدَ الْمَوْتِ بِمَا عَمِلْنَا عَظِيمًا كَالْحَقِيرِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى أَمَرَنَا أَنْ نُكْثِرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ لِأَنَّهُ أَكْبَرُ

نذير : اللهمّ صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين كانوا في الاستعداد للموت أحسن مثال .

(أما بعد) فيا عبد الله : إنّ القلب إذا قسا دواؤه النافع أن تزور المقابر ، لترى هناك بعينيك ما صار إليه الأصاغر منا والأكابر ، ترى هناك الملوك والوزراء والجبابرة صرعى في ضيق تلك الحفائر ، وقد كانت الدنيا على سعتها تضيق عما لهم من آمال . ترى هناك أحباب الله تعالى رسله وأنبياءه والصالحين ، وترى مخالفيه تعالى المتمردين على شرائعه من العصاة والكافرين ، حكم القهار على الجميع بالموت فلبوا طائعين أو مكرهين ، وأصبح الكل لا أنيس لهم في قبورهم إلا ما قدموا من أعمال . تمر على حبيب الله تعالى فيكلمك إن كنت من ذوي الأفهام ، يقول أنا في روضة من رياض الجنة أتقلب فيما لمولاي من إنعام ، كافأني بذلك ربي لأني ما جاوزت ما حدّ لي من حلال وحرام ، فقف عند ما حدّ لك وها أنت ذا قادر على ذلك تصبح مثلي في خير حال . وتمر على عدو الله تعالى فيقول لك كلاما تتقطع له القلوب حسرات ، يقول إن الحكم العدل يعذبني عذابا لا تحتمله الجبال الراسيات ، ويشفع ذلك بقوله أنا أستحق ذلك لأني اغتررت بالدنيا وزخارفها الفانيات ، فلم أعبأ بأوامر ربي ولا نواهيه واقتحمت موبقات الأفعال . ويضيف إلى

الْمُنَافِقِينَ ، إِذَا أَطَعْتَنِي وَكُنْتَ هَكَذَا أَحَبُّوكَ وَقَابَلُوا إِحْسَانَكَ بِإِحْسَانِهِمْ شَاكِرِينَ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ شُكْرُ اللَّهِ تَعَالَى لَكَ فِي دَارَيْكَ وَهُوَ غَايَةُ الآمَالِ . وَاحْذَرْ جُهْدَكَ أَنْ تُسِيءَ الْخَلْقَ أَوْ تَشْمَتَ بِهِمْ إِذَا نُكِبُوا بِنَكَبَاتٍ ، فَإِنَّهُمْ بِذَلِكَ يُبْغِضُونَكَ وَيُسِيئُونَكَ وَيَتَمَنَّوْنَ لَكَ الْبَلِيَّاتِ ، وَأَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ غَضَبُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكَ وَهُوَ أَقْسَى الرَّزِيَّاتِ ، وَفَّقَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكَ لِلإِحْسَانِ لِلْخَلْقِ وَجَنَّبَنَا الْمُسِيءَ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ .

(حديث) الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ فَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ مَنْ أَحْسَنَ إِلَى عِيَالِهِ . رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ وَالْبَزَّارُ وَأَبُو يَعْلَى .

(آخر) لاَ تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ ، فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ .

(آخر) وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

٥١ — دواء القلوب إذا قست

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَتَبَ الْمَوْتَ عَلَى الْعِبَادِ لاَ فَرْقَ بَيْنَ صَغِيرِهِمْ وَالْكَبِيرِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ الَّذِي أَخْبَرَ أَنَّهُ يُعَامِلُنَا بَعْدَ الْمَوْتِ بِمَا عَمِلْنَا عَظِيمًا كَانَ أَوْ حَقِيرًا ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَمَرَنَا أَنْ نُكْثِرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ لِأَنَّهُ أَكْبَرُ

نذير : اللهمّ صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمّد وعلى آله وأصحابه الذين كانوا فى الاستعداد للموت أحسن مثال .

(أمّا بعدُ) فيا عبد الله : إنّ القلب إذا قسا دواؤه النّافع أن تزور المقابر، لترى هناك بعينيك ماصار إليه الأصاغر منّا والأكابر، ترى هناك الملوك والوزراء والجبابرة صرعى فى ضيق تلك الحفائر، وقد كانت الدنيا على سعتها تضيق عمّا لهم من آمال . ترى هناك أحباب الله تعالى رسله وأنبياءه والصالحين، وترى مخالفيه تعالى المتمردين على شرائعه من العصاة والكافرين، حكم القهّار على الجميع بالموت فلبّوا طائعين أو مكرهين، وأصبح الكلّ لا أنيس لهم فى قبورهم إلاّ ما قدّموا من أعمال . تمرّ على حبيب الله تعالى فيكلمك إن كنت من ذوى الأفهام، يقول أنا فى روضة من رياض الجنّة أتقلّب فيما لمولاى من إنعام، كأنّى بذلك ربّى لأنّى ما تجاوزت ماحدّ لى من حلال وحرام، فقف عند ما حدّ لك وها أنت ذا قادر على ذلك تصبح مثلى فى خير حال . وتمرّ على عدوّ الله تعالى فيقول لك كلاماً تتقطّع له القلوب حسرات، يقول إنّ الحكم العدل يعذّبنى عذاباً لا تحتمله الجبال الراسيات، ويشفع ذلك بقوله أنا أستحق ذلك لأنّى اغتررت بالدنيا وزخارفها الفانيات، فلم أعبأ بأوامر ربّى ولا نواهيه واقتحمت موبقات الأفعال . ويضيف إلى

ذٰلِكَ قَوْلَهُ وَصَلَ بِى الْغُرُورُ إِلَى أَنِّى لَمْ أَعْتَذِرْ لِرَبِّى يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ مِمَّا جَنَيْت ، لِذٰلِكَ صِرْتُ إِلَى مَا أَنَا فِيهِ مِمَّا لَوْ رَأَيْتَهُ صَعِقْتَ فَزَعًا وَقَضَيْت ، ثُمَّ يَقُولُ اعْتَبِرْ بِى إِنْ كُنْتَ عَاقِلاً وَابْتَعِدْ جُهْدَكَ عَنْ مِثْلِ مَا اقْتَرَفْتُ وَأَتَيْت ، وَإِلاَّ أَصْبَحْتَ عَنْ قَرِيبٍ فِى حُفْرَةٍ مِثْلِى تُعَانِى مَا أُعَانِى مِنَ الْأَهْوَال . أَلاَ تَعْجَبُ مَعِى يَا هٰذَا مِمَّنْ يَزُورُونَ الْقُبُورَ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاء ، يُقَالُ لَهُمْ ذٰلِكَ وَهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَنَامُونَ عَلَى الْقُبُورِ وَيَأْتُونَ مِنَ الْكَبَائِرِ مَا تَهْتَزُّ لَهُ السَّمَاء ، مَاتَتِ الْقُلُوبُ فَأَصْبَحَتْ لاَ تَنْتَفِعُ حَتَّى بِزَاجِرِ الْمَوْتِ وَهُوَ أَبْلَغُ زَاجِرٍ لِلْأَحْيَاء ، فَزُرِ الْقُبُورَ مُعْتَبِراً يَا هٰذَا لِتَنْتَبِهَ مِنْ هٰذِهِ الْغَفْلَةِ وَتَعْلَمَ أَنَّ الْمَوْتَ مَهْمَا طَالَ الْأَجَلُ هُوَ الْمَآل .

(حديث) كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ أَلاَ فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُرِقُّ الْقَلْبَ ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ ، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ ، وَلاَ تَقُولُوا هُجْراً [١] . رَوَاهُ الْحَاكِمُ .

(آخر) لَأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ فَتَخْلُصَ إِلَى جِلْدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبْرٍ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِىُّ وَابْنُ مَاجه .

---

(١) قبيحاً من الكلام .

٥٢ — الناصح والمداهن

الْحَمْدُ للهِ الَّذِى جَعَلَ النَّصِيحَةَ عَلَيْنَا لِبَعْضِنَا مِنْ آكَدِ الْوَاجِبَاتِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ الَّذِى خَصَّ بِالْفَلاَحِ مَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرَاتِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ شَمْسُ الْهَادِينَ لِلصَّالِحَاتِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا بُدُورَ الْهِدَايَةِ فِى الْكَائِنَاتِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : إِنَّ مِنْ أَخَصِّ صِفَاتِ الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ حُبَّهُ لِلنَّاصِحِينَ ، وَكُلَّمَا بَالَغَ النَّاصِحُ فِى نُصْحِهِ كَانَ أَشَدَّ حُبًّا فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَمَّا الْمُدَاهِنُ الَّذِى يُحَسِّنُ لِكُلِّ امْرِئٍ حَالَهُ وَلَوْ كَانَ حَالَ الْمُجْرِمِينَ ، فَلاَ يُحِبُّهُ الْمُؤْمِنُونَ وَيَرَوْنَ صُحْبَتَهُ بَلِيَّةً مِنْ أَكْبَرِ الْبَلِيَّاتِ . فَإِنَّهُ إِنْ صَحِبَ مُسْتَقِيمًا خَيَّلَ لَهُ أَنَّهُ كَصَفْوَةِ الْعِبَادِ الْأَنْبِيَاءِ ، فَيَغُرُّهُ بِنَفْسِهِ وَالْمَرْءُ إِذَا اغْتَرَّ هَوَى فِى هُوَّةِ الْأَشْقِيَاءِ ، وَإِذَا صَحِبَ مُعْوَجًّا أَفْهَمَهُ بِمُدَاهَنَتِهِ أَنَّهُ مِنْ خِيَارِ الْفُضَلاَءِ ، وَمَتَى فَهِمَ ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ تَمَادَى عَلَى اعْوِجَاجِهِ فَيَمُوتُ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ اللَّعَنَاتِ . وَأَمَّا النَّاصِحُ فَيُفْهِمُ الْكَامِلَ مَهْمَا كَانَ كَمَالُهُ أَنَّهُ مُقَصِّرٌ فِى شُكْرِ مَوْلاَهُ ، وَمَتَى فَهِمَ تَقْصِيرَهُ جَدَّ فِيمَا بِهِ رُقِيُّهُ فِى دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ ، وَيَرَى الْمُعْوَجَّ فَيُفْهِمُهُ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ نَقْصٍ فِى دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ، وَمَتَى عَرَفَ الْعَاقِلُ

نَقصهُ أَقْلَعَ عَنْهُ وَأَصْبَحَ مِنْ أَهْلِ الْكَمَالاَتِ. أَظُنُّكَ مِنْ هٰذَا فَهِمْتَ أَنَّ الْمُدَاهِنَ جُنْدِيٌّ خَطِرٌ مِنْ جُنُودِ الشَّيْطَانِ ، بِسَبَبِ مُدَاهَنَتِهِ كَمْ ضَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ السَّوِيِّ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ ، كَمَا أَظُنُّكَ فَهِمْتَ أَنَّ النَّاصِحَ جُنْدِيٌّ بَاسِلٌ مِنْ جُنُودِ الرَّحْمٰنِ ، وَعَلَى يَدَيْهِ كَمِ اهْتَدَى إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ عِبَادٌ مِنْ أَهْلِ الضَّلاَلاَتِ. هٰذِهِ قِيمَةُ النَّاصِحِ وَالْمُدَاهِنِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ الإِيمَانِ ، لٰكِنِّي أَرَى الْمُؤْمِنِينَ عَكَسُوا الأَمْرَ عَكْساً كُلِّيّاً فِى هٰذِهِ الأَزْمَانِ ، لاَ مُنْتَهَى لِحُبِّهِمْ مَنْ وَافَقَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ وَلَوْ كُفْراً بِرَبِّ الإِحْسَانِ ، وَلاَ غَايَةَ لِبُغْضِهِمْ مَنْ أَرْشَدَهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْكَرَامَاتِ. لَيْسَ ذٰلِكَ فَقَطْ فِى طَبَقَةِ صِغَارِ النَّاسِ فَنَعْذِرَهُمْ بَلْ فِى جَمِيعِ الطَّبَقَاتِ ، يَقُولُ النَّاصِحُ كَلِمَةَ الْحَقِّ لِأَخِيهِ فَيَغْضَبُ وَقَدْ يَقْتُلُهُ بِهَا أَشْنَعَ الْقِتْلاَتِ ، وَأَمَّا الْمُدَاهِنُ فَبِكَلِمَةٍ مِنْ مُدَاهَنَاتِهِ يَمْلِكُ الْقُلُوبَ وَقَدْ يُرْفَعُ فَوْقَ رُءُوسِ السَّادَاتِ ، وَهَلْ مِنَ الْعَقْلِ أَوْ مِنَ الدِّينِ بُغْضُ الْمُحْسِنِينَ وَحُبُّ أَرْبَابِ الإِسَاءَاتِ.

(حديث) مَا أَهْدَى الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ هَدِيَّةً أَفْضَلَ مِنْ كَلِمَةِ حِكْمَةٍ يَزِيدُهُ اللهُ بِهَا هُدًى ، أَوْ يَرُدُّهُ بِهَا عَنْ رَدًى. رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ.

٥٣ – قيمة العادات فى الأمم

الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي شَرَعَ لَنَا الشَّرَائِعَ لِنَكُونَ فى كُلِّ تَقَلُّبَاتِنَا عَلَى أَحْسَنِ حَال، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي لَا يَرْضَى مَاخَالَفَ شَرَائِعَهُ مِنَ الْأَفْعَال، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ذُو الْهَدْيِ الصَّالِحِ فى جَمِيعِ الْأَحْوَال، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أُولِي الْعَادَاتِ الْحِسَانِ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ: إِنَّ الْمِيزَانَ الَّذِي بِهِ تُعْرَفُ مَقَادِيرُ الْأُمَمِ هُوَ مَا لَهَا مِنْ عَادَات، فَإِنْ سَمَتْ عَادَاتُ أُمَّةٍ سَمَتْ هِيَ لِأَنَّ مَظْهَرَهَا مِنَ الْمَظَاهِرِ السَّامِيَات، وَإِنِ انْحَطَّتْ عَادَاتُ أُمَّةٍ انْحَطَّتْ هِيَ لِأَنَّ مَظْهَرَهَا مِنَ الْمَظَاهِرِ السَّافِلَات، ذَلِكَ مَا لَا يُنْكِرُهُ أَحَدٌ وَلَا يَحْتَاجُ فى ثُبُوتِهِ لِبُرْهَان. وَلَا يَخْفَى عَلَيْكَ أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ دِينُنَا الَّذِي لَهُ نَخْضَعُ وَبِهِ نَدِين، وَهُوَ كَمَا تَعْلَمُ وَحْيٌ إِلَهِيٌّ لَا سَعَادَةَ إِلَّا لِلْعَامِلِ بِهِ مِنَ الْعَالَمِين، فَيَجِبُ إِذَنْ أَنْ تَكُونَ عَادَاتُنَا فَوْقَ كُلِّ الْعَادَاتِ لِأَنَّهَا تَسْتَنِدُ إِلَى ذَلِكَ الدِّين، وَهَلْ ذَلِكَ هُوَ الْوَاقِعُ الَّذِي لَا يُخَالِفُهُ الْعِيَان. إِنَّ الْوَاقِعَ الَّذِي نُشَاهِدُهُ بِأَعْيُنِنَا أَنَّ عَادَاتِنَا لَا تَسُرُّ الْأَحْيَاء، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ وَاضِحاً فَانْظُرْ إِلَى تِلْكَ الْعَادَاتِ نَظَرَ الْمُسْتَيْقِظِينَ الْفُضَلَاء، انْظُرْ مَآتِمَنَا وَأَفْرَاحَنَا تَعْرِفْ أَنَّا بِلَا شَكٍّ سُفَهَاء، بَلْ قَلِيلٌ وَصْفُ السَّفَهِ عَلَى مَنْ يَبِيعُ حَتَّى بَيْتَهُ لِأَجْلِ الْأَفْرَاحِ وَالْأَحْزَان.

وَانظُرْنَا إذَا تبادَلْنَا المَنافِعَ فى أَنكِحَتِنَا وَمُبَايَعَاتِنَا وَالمُقَارضَات، وَالَّذِى يُرِيكَ صُورَتَنَا الحَقِيقِيَّةَ فى ذلِكَ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى دُورِ الخُصُومَاتِ وَالحُكُومَات، فَإِذَا فَعَلْتَ ذلِكَ رَأَيْتَ هُنَاكَ مِنَ العَجَائِبِ وَالغَرَائِبِ مَا تَضِيقُ عَنْ شَرْحِهِ العِبَارَات، وَلاَ أَدْرِى عَلَى أَىِّ حَالٍ كُنَّا نَكُونُ إِذَا لَمْ يَحْرُسْنَا قَانُونٌ وَلاَ إِيمَان. وَالْتَفِتْ قَلِيلاً إِلَى مَجَالِسِنَا الخَاصَّةِ وَتَأَمَّلْ مَا فِيهَا لَنَا مِنَ آدَاب، تَجِدْهَا تَنْعَقِدُ عَلَى مُؤَامَرَاتٍ فَاجِرَةٍ وَعَلَى طَعْنٍ فى الأَعْرَاضِ وَالأَنْسَاب، وَادْخُلْ بُيُوتَنَا وَاخْرُجْ إِلَى شَوَارِعِنَا تَرَ مِنْ رِجَالِنَا وَنِسَائِنَا العَجَبَ العُجَاب، وَلاَحِظْ جِوَارَنَا فى بُيُوتِنَا وَصِنَاعَاتِنَا وَزِرَاعَاتِنَا تَرَ مَا يُحَرِّضُكَ عَلَى تَرْكِ الأَوْطَان. وَلَوْ لَمَحْتَ عَظِيمَنَا مَعَ حَقِيرِنَا وَغَنِيَّنَا مَعَ فَقِيرِنَا وَقَوِيَّنَا مَعَ الضُّعَفَاء، لَهَالَكَ مَا تَرَى مِنَ احْتِقَارِ بَعْضِ الطَّبَقَاتِ لِبَعْضِهَا وَكُلُّهُمْ إِخْوَةٌ أَشِقَّاء، وَلَوْ شَاهَدْتَنَا وَقَدِ اغْتَنَى بَيْنَنَا فَقِيرٌ أَوِ افْتَقَرَ وَاحِدٌ مِنَ الاغْنِيَاء، لَرَأَيْتَ مِنْ حَسَدِ مَنِ اغْتَنَى وَالشَّمَاتَةِ بِمَنِ افْتَقَرَ مَا تَنْزَعِجُ لِسَمَاعِ وَصْفِهِ الآذَان. هذَا شَىْءٌ قَلِيلٌ مِنْ عَادَاتِنَا ذَكَرْتُهُ لَكَ يَا نَصِيرَ الفَضِيلَه، فَقُلْ لِى بِرَبِّكَ أَيَلِيقُ أَنْ نَعْتَادَ مِثْلَ هذِهِ العَادَاتِ وَنَحْنُ الأُمَّةُ النَّبِيلَه، ابْتَعِدْ أَنْتَ بَعْدَ المَشْرِقَيْنِ عَنْ كُلِّ ذلِكَ وَإِلاَّ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الرَّذِيلَه، وَلَوْ أَنَّا تَفَقَّهْنَا فى دِينِنَا وَجَعَلْنَا الخَيْرَ عَادَتَنَا مَا كُنَّا عَلَى مَا عَلَيْهِ نَحْنُ الآن.

(حديث) الْخَيْرُ عَادَةٌ، وَالشَّرُّ لَجَاجَةٌ[(١)]، وَمَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِى الدِّينِ. رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ.

٥٤ معاملة الناس المالية لبعضهم أمس واليوم

الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى جَعَلَ أَمْوَالَ النَّاسِ نَارًا إِذَا أُخِذَتْ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةَ عَبْدٍ أَحْسَنَ مُعَامَلَةَ الْخَلْقِ لِيُحْسِنَ مُعَامَلَتَهُ الْخَلَّاقُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى بِدِينِهِ اقْتَلَعَ جُذُورَ الشِّقَاقِ وَغَرَسَ أُصُولَ الْوِفَاقِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ بِهِمْ انْتَعَشَ الْحَقُّ وَانْخَذَلَ الضَّلَالُ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ: كَانَ النَّاسُ لِعَهْدٍ لَيْسَ بِبَعِيدٍ إِذَا عَامَلُوا بَعْضًا عَامَلُوا بِصِدْقٍ وَوَفَاءٍ، كَانَ إِيمَانُهُمْ بِاللهِ تَعَالَى هُوَ الْقَاضِيَ الْقَاهِرَ الَّذِى لَا يُرَدُّ لَهُ قَضَاءٌ، كَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا أَعْطِيَ لَا يَحْتَاجُ فِى التَّوَثُّقِ عَلَى مَالِهِ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّ اللهَ عَلِمَ هَذَا الْعَطَاءَ، وَكَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا أَخَذَ لَا يَهْدَأُ لَهُ بَالٌ إِلَّا إِذَا رَدَّ لِأَخِيهِ مَا أَخَذَ مِنْهُ مِنْ مَالٍ. مَا كَانَ يَجُولُ بِخَوَاطِرِهِمْ أَبَدًا أَنْ يَقُولُوا أَعْطَيْنَا وَهُمْ كَاذِبُونَ، وَمَا كَانُوا يَتَصَوَّرُونَ يَوْمًا أَنْ يَقُولُوا مَا أَخَذْنَا وَقَدْ أَخَذُوا مَا يُنْكِرُونَ، لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ

---

(١) اللجاج التمادى على الأمر: أى أن الانسان لايصل الى فعل الشر إلا إذا تمادى فى فعل أسبابه ولو لم يتماد ما وقع فيه.

أَنَّهُمْ إِنْ أَفْلَحُوا فِى تَزْوِيرِهِمْ ذَلِكَ هُنَا لاَ يُفْلِحُونَ يَوْمَ يُحَاسَبُونَ ، فَإِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ أَنَّ الَّذِى يُحَاسِبُهُمْ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ سِرِّهِمْ وَعَلاَنِيَتِهِمْ حَالٌ مِنَ الأَحْوَالِ . هٰكَذَا كَانَتِ المُعَامَلَةُ بَيْنَهُمْ وَهِىَ مُعَامَلَةُ أَهْلِ الصِّدْقِ فِى الإِيمَانِ ، لِذَلِكَ كُنْتَ لاَ تَرَى حَرَكَةً وَلاَ تَسْمَعُ كَلِمَةً تُكَدِّرُ صَفَاءَ الإِخْوَانِ ، أَيْنَ مِنْ هٰذِهِ المُعَامَلَةِ الصَّافِيَةِ مُعَامَلاَتُ النَّاسِ فِى هٰذَا الزَّمَانِ ، تِلْكَ المُعَامَلاَتُ الَّتِى ضَجَّتِ السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ مِمَّا هِىَ عَلَيْهِ مِنَ اخْتِلاَلٍ وَاعْتِلاَلٍ . تَكُونُ فِى بَيْتِكَ فَيَدْخُلُ عَلَيْكَ بَعْضُ الإِخْوَانِ تَسِيلُ دُمُوعُهُ وَهُوَ مُكْتَئِبٌ حَزِينٌ ، فَتَسْأَلُهُ عَنْ حَالِهِ فَيَقُولُ أَثْقَلَ الدَّيْنُ ظَهْرِى أَوْ تَرَكْتُ العِيَالَ مِنَ الجُوعِ بَاكِينَ ، وَيَكْتُبُ لَكَ وَثِيقَةً بِمَا يُرِيدُ أَخْذَهُ وَيُشْهِدُ عَلَيْهَا مِنْ فُضَلاَءِ المُؤْمِنِينَ ، وَبِالضَّرُورَةِ أَنْتَ لاَ يَسَعُكَ أَمَامَ بُؤْسِهِ ذَلِكَ إِلاَّ أَنْ تُعْطِيَهُ مَا طَلَبَ دُونَ إِمْهَالٍ . فَإِذَا وَصَلَ إِلَى يَدِهِ مَا أَعْطَيْتَهُ أَخَذَهُ وَتَرَكَكَ تَهْوِى فِى مَهَاوِى الاِنْتِظَارِ ، فَإِذَا طَالَبْتَهُ مَا طَلَكَ ثُمَّ مَا طَلَكَ ثُمَّ وَاجَهَكَ أَخِيراً بِالسَّفَهِ بَعْدَ الإِنْكَارِ ، فَإِذَا حَاكَمْتَهُ طَعَنَ بِالتَّزْوِيرِ فِى وَثِيقَتِكَ وَفِى شُهُودِكَ مَهْمَا كَانُوا مِنَ الأَخْيَارِ ، وَرُبَّمَا وَصَلَ بِطَعْنِهِ ذَلِكَ إِلَى سِجْنِكَ لِيُكَافِئَكَ عَلَى تَفْرِيجِ كَرْبِ العِيَالِ . وَكَذَلِكَ تَكُونُ فِى بَيْتِكَ فَلاَ تَشْعُرُ إِلاَّ وَقَدْ فَجَأَكَ مِنَ المَحَاكِمِ إِعْلاَنٌ ، يَتَضَمَّنُ طَلَبَكَ أَمَامَ القَاضِى لِيَحْكُمَ عَلَيْكَ بِدَيْنٍ لَمْ تَسْتَدِنْهُ وَلَمْ يَمُرَّ لَكَ بِحُسْبَانٍ ،

فَإِذَا طَعَنْتَ بِالتَّزْوِيرِ أَبْرَزَ الطَّالِبُ لَكَ صَكًّا مَخْتُومًا بِخَتْمِكَ وَعَلَيْهِ مِنَ الشُّهُودِ وُجَهَاءُ أَعْيَانٍ ، وَلَا تُبَارِحُ مَجْلِسَ الْقَاضِي إِلَّا مَحْكُومًا عَلَيْكَ مَمْدُودًا مِنْ أَهْلِ الْمُمَاطَلَةِ الْأَنْذَالِ . هٰذِهِ حَالَةٌ أَفْزَعَتِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَضْجَرَتِ الْمَحَاكِمَ وَأَغْضَبَتِ الْعَلِيمَ الْحَكِيمَ ، وَمِنْهَا أَصْبَحَ النَّاسُ عَلَى مَالِهِمْ وَعَقَارِهِمْ فِي رُعْبٍ مُقْلِقٍ مُسْتَدِيمٍ ، وَأَمَّا سُوءُ الْمُعَامَلَةِ فِي الْمُبَايَعَاتِ النَّاجِزَةِ فَحَدِّثْ عَنْهُ وَلَا حَرَجَ فَالْغِشُّ فِيهَا عَظِيمٌ ، وَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّ دِرْهَمَ الْحَرَامِ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ مَا كَانُوا أَبَدًا بِهٰذِهِ الْحَالِ .

(حديث) مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللهُ عَنْهُ ، وَمَنْ أَخَذَهَا يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَأَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ .

(آخر) مَنِ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ فَلَيْسَ مِنَّا ، وَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ . رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ .

(آخر) مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ .

٥٥ — مملكة المنزل

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي جَعَلَ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ وَأَرْسَلَ لِتَعْلِيمِنَا الْأَنْبِيَاءَ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي يَسْأَلُ الْآبَاءَ هَلْ أَنْقَذُوا مِنَ الْجَهْلِ الْأَزْوَاجَ وَالْأَبْنَاءَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ

الَّذِى أَخْبَرَ أَنْ كُلَّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِى النَّهْجِ الْقَوِيمِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : إِنَّ بَيْتَكَ مَمْلَكَةٌ صُغْرَى أَنْتَ فِيهَا مَلِكٌ صَغِيرٌ ، وَرَعِيَّتُكَ مَنْ تَعُولُ مِنْ نِسَاءٍ وَأَوْلَادٍ كَبِيرُهُمْ فِى هٰذَا كَالصَّغِيرِ ، الْكُلُّ أَنْتَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ سُؤَالاً تَسْعَدُ بِهِ أَوْ تَشْقَى فِى الْيَوْمِ الْأَخِيرِ ، فَوَاجِبٌ عَلَيْكَ أَنْ تُدَبِّرَ شُؤُونَهُمْ تَدْبِيرَ مَلِكٍ حَكِيمٍ . عَلِّمْ أَزْوَاجَكَ وَأَوْلَادَكَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ دِينِهِمْ فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِذٰلِكَ لَا خَيْرَ فِيهِ ، وَعَلِّمْ أَبْنَاءَكَ حِرَفاً يَعِيشُونَ مِنْ كَسْبِهَا فَإِنَّ الْعَاطِلَ نَكْبَةٌ عَلَى نَفْسِهِ وَمُوَاطِنِيهِ ، وَعَلِّمْ بَنَاتِكَ كَيْفَ يَقُمْنَ بِشُؤُونِ بُيُوتِهِنَّ وَأَزْوَاجِهِنَّ قِيَاماً تَرْتَضِيهِ ، إِذَا كَانَ هٰذَا انْتَظَمَتْ مَعَارِفُ مَمْلَكَتِكَ وَانْتِظَامُ الْمَعَارِفِ أَسَاسُ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ . وَأَتْقِنْ عَمَلَكَ الَّذِى تُبَاشِرُهُ وَوَصِّ بِذٰلِكَ الْأَبْنَاءَ ، وَاحْذَرِ الْغِشَّ فِى أَىِّ عَمَلٍ فَإِنَّ الْغِشَّ دَأْبُ الْمُنَافِقِينَ الْأَدْنِيَاءِ ، وَمَتَى عُرِفْتَ بِالْإِتْقَانِ رَاجَ عَمَلُكَ عِنْدَ كُلِّ الْعُقَلَاءِ ، وَمَتَى رَاجَ عَمَلُكَ كَانَتْ أَشْغَالُ مَمْلَكَتِكَ فِى تَقَدُّمٍ مُسْتَدِيمٍ . وَمَتَى تَقَدَّمَتْ أَشْغَالُكَ تَقَدَّمَتْ مَالِيَّةُ مَمْلَكَتِكَ بِاطِّرَادٍ ، فَإِنَّ الْأَشْغَالَ هِىَ الْيَنْبُوعُ الْوَحِيدُ الَّذِى مِنْهُ الْأَمْوَالُ تُسْتَفَادُ ، وَإِذَا تَوَفَّرَتْ مَالِيَّتُكَ قُمْتَ بِشُؤُونِ أَفْرَادِ رَعِيَّتِكَ كَمَا يُرِيدُونَ وَفَوْقَ الْمُرَادِ ، وَإِذَا كَانَ هٰذَا سَعِدَتْ دَاخِلِيَّةُ مَمْلَكَتِكَ وَأَصْبَحْتَ فِى أَمْنٍ مِنَ الِاضْطِرَابِ الذَّمِيمِ .

وَعَامِلْ عِبَادَ اللهِ تَعَالَى صَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ حَقِيرَهُمْ وَعَظِيمَهُمْ مُعَامَلَة شَفَقَةٍ وَحَنَانٍ ، وَلاَ تَسْمَحْ لِفَرْدٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ أَنْ يَصْدُرَ مِنْهُ اعْتِدَاءٌ عَلَى أَيِّ إِنْسَانٍ ، إِذَا كَانَ هٰذَا أَحَبَّكَ النَّاسُ وَأَمِنْتَ مِنْ بَلاَيَاهُمْ كُلَّ الأَمَانِ ، وَهٰذَا هُوَ المَعْنَى الَّذِي بِهِ خَارِجِيَّةُ مَمْلَكَتِكَ تَتَمَهَّدُ وَتَسْتَقِيمُ . بِهٰذَا كُلِّهِ أُوصِيكَ وَأُشَدِّدُ عَلَيْكَ فِي هٰذَا الإِيصَاءِ ، وَأَرْجُو أَنْ لاَ تُهْمِلَ فِي تَعْلِيمِ رَعِيَّتِكَ فَاقْبَلْ هٰذَا الرَّجَاءَ ، وَتَأَكَّدْ أَنَّ كُلَّ دَاهِيَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ أَوْ أُخْرَوِيَّةٍ إِنَّمَا تَصْدُرُ عَنِ الجَهْلِ وَتَنْزِلُ عَلَى رُءُوسِ الجُهَلاَءِ ، فَأَبْعِدْ أُسْرَتَكَ عَنِ الجَهْلِ وَإِلاَّ حَلَّ بِكَ فِي دَارَيْكَ مِنْ جَهْلِهِمْ ضَرَرٌ جَسِيمٌ .

(حديث) كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَأَحْمَدُ مِنْ حَدِيث .

٥٦ — آداب سامية

الحَمْدُ لِلهِ الَّذِي فِي طَاعَتِهِ عِزُّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لِلطَّائِعِينَ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ الَّذِي فِي مَعْصِيَتِهِ ذُلُّ الدَّارَيْنِ لِلْعَاصِينَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَطْوَعُ العَالَمِينَ لِرَبِّ العَالَمِينَ ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ عَبْدٍ إِلَى الطَّاعَاتِ حَنَّانٍ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : تُبْ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا فَإِنَّ التَّوْبَةَ بَابُ كُلِّ الخَيْرَاتِ ، وَاعْتَنِ بِتَعَلُّمِ الْعِلْمِ الدِّينِيِّ فَإِنَّهُ الَّذِي

لَوْلَاهُ مَا أَفْلَحَ أَحَدٌ مَهْمَا أَتَى مِنْ عِبَادَاتٍ ، وَأَخْلِصْ كُلَّ أَعْمَالِكَ لِرَبِّكَ فَلَوْلَا الْإِخْلَاصُ لَكَانَتْ أَعْمَالُكَ مُوجِبَةً لِلْعُقُوبَاتِ ، وَلَاحِظْ عَظَمَةَ رَبِّكَ فِى كُلِّ حَالَاتِكَ تَبْعُدْ بِذَلِكَ عَنْ كُلِّ عِصْيَانٍ . وَقِفْ أَمَامَ نَفْسِكَ مَوْقِفَ الْمُجَاهِدِ فَإِنَّ الْهِدَايَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بَعْدَ الْجِهَادِ ، وَاعْمَلْ مِنَ الْخَيْرِ مَا تُطِيقُ لِتَدُومَ عَلَيْهِ فَإِنَّ خَيْرَ الْأَعْمَالِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ الْعِبَادُ ، وَأَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ فَإِنَّ الْغَفْلَةَ عَنْ ذَلِكَ تُجَرِّئُكَ عَلَى عَمَلِ الْفَسَادِ ، وَفَكِّرْ كَثِيراً فِى الْجِنَانِ وَنَعِيمِهَا الْأَبَدِىِّ فَإِنَّ ذَلِكَ يُحَرِّضُكَ عَلَى عَمَلِ مَا يُوَصِّلُكَ لِتِلْكَ الْجِنَانِ . وَاصْبِرْ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ فَإِنَّ الصَّابِرِينَ يُوَفَّوْنَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَالْتَزِمِ الصِّدْقَ فَإِنَّهُ جَمَالٌ لَا يُسَامَى وَثِقَةٌ لَا حَدَّ لَهَا عِنْدَ النَّاسِ شِيبِهِمْ وَالشُّبَّانِ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ التَّوَكُّلَ قُوَّةٌ لَا تُغْلَبُ وَرَاحَةٌ لَا تَعَبَ مَعَهَا حَتَّى فِى يَوْمِ الْمَآبِ ، وَأَطِلِ التَّفَكُّرَ فِى هَذِهِ الْأَكْوَانِ وَأَسْرَارِهَا تَزْدَدْ بَصِيرَةً بِرَبِّ الْأَكْوَانِ . وَإِذَا بَدَا لَكَ خَيْرٌ فَبَادِرْ إِلَيْهِ فَإِنَّ مَوَانِعَ الْخَيْرِ عَدَدُ الْمَطَرِ ، وَتَحَرَّ مُوَافَقَةَ نَبِيِّكَ فِى كُلِّ أَعْمَالِكَ فَإِنَّ مُخَالَفَتَهُ خَطَرٌ عَلَيْكَ أَىُّ خَطَرٍ ، وَارْضَ عَنْ رَبِّكَ فِيمَا سَرَّ أَوْ سَاءَ فَإِنَّ الرِّضَى عَنْهُ جَنَّةٌ عَاجِلَةٌ وَأَمَّا الْجَزَعُ فَسَقَرٌ ، وَاجْتَهِدْ فِى الدَّلَالَةِ عَلَى الْخَيْرِ فَإِنَّ الدَّالَّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ عِنْدَ مَوْلَانَا الدَّيَّانِ . وَأَعِنْ إِخْوَانَكَ عَلَى شُؤُونِهِمْ يُعِنْكَ رَبُّكَ عَلَى شُؤُونِكَ

وَذٰلِكَ جَزَاءٌ عَظِيم ، وَابْذُلْ نَصِيحَتَكَ لَهُمْ فَإِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ وَالْغِشُّ لاَ يَصْدُرُ أَبَدًا مِنْ رَجُلٍ كَرِيم ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ بِرِفْقٍ فَإِنَّ الْفَلاَحَ مَخْصُوصٌ بِهِ هٰذَا الْفَرِيقُ الْفَخِيم ، وَاحْرِصْ عَلَى خُلُقِ الْأَمَانَةِ فَإِنَّ الْخِيَانَةَ دَأْبُ الْمُنَافِقِينَ وَمَعَاذَ اللّٰهِ أَنْ تَكُونَ شَأْنَ أَهْلِ الْإِيمَان . وَاسْتُرْ عَوْرَاتِ النَّاسِ إِذَا اطَّلَعْتَ عَلَيْهَا يَسْتُرْ لَكَ رَبُّكَ مَا لَكَ مِنْ عَوْرَات ، وَاقْضِ لَهُمْ حَوَائِجَهُمْ إِذَا قَدَرْتَ عَلَيْهَا يَقْضِ لَكَ رَبُّكَ مَا لَكَ مِنْ حَاجَات ، وَاشْفَعْ فِى غَيْرِ حَدٍّ تُؤْجَرْ عَلَى ذٰلِكَ وَإِنْ لَمْ تُقْبَلْ مِنْكَ الشَّفَاعَات ، وَاتَّخِذِ الْإِصْلاَحَ بَيْنَ النَّاسِ حِرْفَةً فَإِنَّ أَجْرَ ذٰلِكَ لاَ يَعْلَمُ قَدْرَهُ غَيْرُ مَوْلاَكَ الْمَنَّان .

(حديث) أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ ؟ قَالُوا بَلَى ، قَالَ إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ (١) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَأَحْمَدُ .

---

(١) الحلق إزالة الشعر بنحو الموسى ، والمراد هنا أن العداوة بين الناس تصل بهم إلى أن تزيل دينهم ودنياهم ولا تبقى منهما شيئا كالموسى لا تبقى من الشعر شيئاً ، وذلك أن الغضب يغتال من كلٍّ من المتعادين عقله ويتركه كالوحش الهائج ينتظر لعدوه غفلة ، فإذا كانت وثب هو وبطش البطشة القاضية على كلّ شيء من نفس ومال وعيال دون تفكير فى العواقب الدنيوية والأخروية ، وهل يفكر من قضى الغضب على عقله ، وليس بغريب على من هذا حاله أن يصبح بلا دين ولا دنيا ، بل ليس بغريب أن يذهب هو من هذا الوجود .

٥٧ — قيمة المال والتحريض على المحافظة عليه

الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي أَوْجَبَ عَلَيْنَا المُحَافَظَةَ عَلَى المَالِ وَحَرَّمَ الإِهْمَال، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ الَّذِي رَفَعَ إِلَى مَنَازِلِ الشُّهَدَاءِ مَنْ قُتِلَ دِفَاعًا عَنِ المَالِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي وَصَفَ المُؤْمِنَ بِالحَذَرِ فِي كُلِّ حَالٍ، اللّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الهُدَاةِ الأَطْهَار.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّهِ: أَنْتَ مَا دُمْتَ فِي هٰذِهِ الحَيَاةِ مُحْتَاجٌ إِلَى المَالِ، تَحْفَظُ بِهِ مُهْجَتَكَ وَتَسْتُرُ عَوْرَتَكَ أَنْتَ وَمَا لَكَ مِنْ عِيَال، فَهُوَ ضَرُورِيٌّ لَكَ لَا تَسْتَغْنِي عَنْهُ فِي حَالٍ مِنَ الأَحْوَال، وَلَوْ حِيلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَا عِشْتَ طَوِيلًا فِي هٰذِهِ الدَّار. بَلْ فِي وُسْعِكَ أَنْ تَقُولَ لَوْلَا المَالُ مَا انْتَظَمَ عَمَلٌ لِلدُّنْيَا وَلَا لِلدِّين، فَكُنْتَ لَا تَرَى مَا تَرَى مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا وَعِبَادَةِ العَابِدِين، وَكَيْفَ يَعْمَلُ أَيَّ عَمَلٍ مَنْ عَرَضَهُ الجُوعُ وَالعُرْيُ لِلهَلَاكِ المُبِين، وَلِمَا أَنَّ المَالَ هٰذَا قَدْرُهُ أَوْجَبَ اللّهُ تَعَالَى قَطْعَ يَدِ المُؤْمِنِ فِي سَرِقَةِ بَعْضِ دِينَار. وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَعْرِفَ قِيمَةَ المَالِ عِنْدَنَا مَعْشَرَ بَنِي الإِنْسَان، فَانْظُرْ نِيرَانَ الحُرُوبِ الَّتِي تَلْتَهِبُ بَيْنَ الأُمَمِ وَالأَفْرَادِ مِنْ آنٍ لِآن، وَفِي تِلْكَ الحُرُوبِ تَذْهَبُ الآلَافُ وَالمَلَايِينُ مِنْ نُفُوسِ الشُّجْعَان، وَلَيْسَ كُلُّ ذٰلِكَ إِلَّا تَنَافُسًا عَلَى المَالِ وَمَا لَهُ مِنْ آثَار. إِذَنْ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُحَافِظَ عَلَى مَالِكَ

مُحَافَظَةَ الرَّجُلِ الْبَصِيرِ ، فَلَا يَخْرُجُ مِنْ يَدِكَ دِرْهَمٌ إِلَّا لِمَنْفَعَةٍ لَكَ هُنَا أَوْ فِى يَوْمِ الْمَصِيرِ ، وَلَا تُهْمِلُ دِرْهَمًا حَتَّى يَتَمَكَّنَ مِنَ اخْتِلَاسِهِ لِصٌّ حَقِيرٌ ، وَإِلَّا كَانَ النَّدَمُ عَاقِبَتَكَ فِى هٰذِهِ الدَّارِ وَفِى دَارِ الْقَرَارِ . الْغِشُّ الْيَوْمَ لَا تَخْلُو مِنْهُ مُعَامَلَةٌ فَاحْتَرِسْ فِى الْبَيْعِ وَاحْتَرِسْ فِى الشِّرَاءِ ، وَاعْرِفْ حِيَلَ الْمُحْتَالِينَ وَإِلَّا صَادُوكَ بِمَا لَهُمْ مِنْ دَهَاءٍ ، وَاحْذَرِ النَّشَّالِينَ وَإِلَّا سَلَبُوكَ شِئْتَ أَوْ لَا تَشَاءُ ، وَأَحْكِمْ أَقْفَالَ بَيْتِكَ وَإِلَّا اقْتَحَمَهُ الْخَوَنَةُ حَتَّى فِى رَابِعَةِ النَّهَارِ . تَوَثَّقْ بِالْكِتَابَةِ فِى مُعَامَلَاتِكَ ثُمَّ بِالرَّهْنِ أَوْ بِالضَّمَانِ ، وَلَا تَضْمَنْ أَنْتَ أَحَدًا فَالضَّمَانُ أَصْبَحَ بَابَ الْخَرَابِ وَالْخُسْرَانِ ، لَا تَتَسَاهَلْ فِى الْعَمَلِ بِهٰذِهِ الْوَصَايَا وَأَنْتَ أَدْرَى بِمَبْلَغِ فَسَادِ أَهْلِ الزَّمَانِ ، وَإِلَّا ضَاعَ مَالُكَ فَيَضِيعُ لَكَ مِنْ خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا لَا يُحَدُّ بِمِقْدَارٍ .

(حديث) الْمُؤْمِنُ كَيِّسٌ (١) فَطِنٌ حَذِرٌ . رَوَاهُ الْقُضَاعِيُّ .

(آخر) مِنْ فِقْهِ الرَّجُلِ أَنْ يُصْلِحَ مَعِيشَتَهُ وَلَيْسَ مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا طَلَبُ مَا يُصْلِحُكَ . رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ وَابْنُ عَدِيٍّ .

٥٨ — إمارة النساء

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى جَعَلَ الرَّجُلَ أَمِيرًا عَلَى الْمَرْأَةِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ الَّذِى خَصَّ الرَّجُلَ بِمَزَايَا بِهَا صَارَ ذَا السُّلْطَانِ ،

(١) كيس : أى عاقل . فطن : أى لا يخدع ولا تخفى عليه خفايا الأمور . حذر : أى محترس محتاط لا يتمكن منه عدوه .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى حَذَّرَ مِنْ إِمَارَةِ النِّسْوَانِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ عَلَى مِنْهَاجِهِمْ يَسِيرِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : إِنَّ فِى زَمَانِكَ هٰذَا رِجَالاً فِى غَايَةِ الضَّعْفِ أَمَامَ النِّسَاءِ ، الْمَرْأَةُ مَعَ أَحَدِهِمْ حَبْلُهَا عَلَى غَارِبِهَا تَفْعَلُ مَاتَشَاءُ وَتَتْرُكُ مَا تَشَاءُ ، وَلَا تَعْجَبْ إِذَا قُلْتُ لَكَ إِنَّ الْوِلَايَةَ الْمُطْلَقَةَ لِلنِّسَاءِ عَلَى هٰؤُلَاءِ ، وَهٰذَا الطِّرَازُ لَيْسَ بِقَلِيلٍ عِنْدَنَا بَلْ تَأَكَّدْ أَنَّهُ كَثِيرٌ وَكَثِيرٌ . تَجْلِسُ مَعَ أَحَدِهِمْ فَتَرَى رَجُلاً مِنْ أَوْجَهِ وَأَجَلِّ الرِّجَالِ ، وَقَدْ يُعْجِبُكَ أَنْ تُعَامِلَهُ لِتَشْرُفَ بِمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مِنَ الِاتِّصَالِ ، وَقَدْ تُبْرِمُ مَعَهُ عَقْدَ التَّعَامُلِ إِبْرَامًا لَيْسَ لِلنَّقْضِ مَعَهُ مَجَالٌ ، فَإِذَا أَحَسَّ بِأَنَّهُ لَا يُعْجِبُ الْمَرْأَةَ سَارَعَ إِلَى نَقْضِهِ مَهْمَا لَحِقَهُ مِنْ تَحْقِيرٍ . وَقَدْ يَهُمُّ أَنْ يَقْضِيَ حَاجَتَهُ مِنْهَا فَتَأْبَى فَيَسْكُتَ فِى ذُلِّ الْكِلَابِ ، وَقَدْ يَغْلَطُ فَيَشْتَرِى شَيْئاً فَتُعِيدُهُ بِهِ ثُمَّ تُعِيدُهُ حَتَّى يَمَلَّ الذَّهَابَ وَالْإِيَابَ ، وَقَدْ يَتُوبُ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ مَعْصِيَةٍ فَإِذَا شَعَرَ بِعَدَمِ ارْتِيَاحِهَا نَقَضَ الْمَتَابَ ، فَهُوَ فِى كُلِّ حَرَكَاتِهِ رَهْنُ إِشَارَتِهَا كَأَنَّهُ مَعَهَا قِرْدٌ تُرَقِّصُهُ صَغِيرٌ . أَمَّا هِيَ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهَا فِى أَيِّ حَرَكَةٍ تَتَحَرَّكُهَا فِى لَيْلٍ أَوْ فِى نَهَارٍ ، فَإِذَا اعْتَرَضَ عَلَيْهَا مَرَّةً (كَفَرَ وَحَلَّ حَرْقُهُ) مَهْمَا أَنَابَ وَتَدَفَّقَ دَمْعُهُ الْمِدْرَارُ ، وَلَا أَدْرِى كَيْفَ رَضِيَ أُولٰئِكَ الرِّجَالُ هٰذَا الذُّلَّ

الْبَالِغَ وَهٰذَا الِاحْتِقَار ، مَعَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَهُمْ هُمُ الْقَوَّامِينَ عَلَى النِّسَاءِ لِفَضْلِهِمْ وَإِنْفَاقِهِمُ الْوَفِيرِ . لَا تَكُنْ كَأُولٰئِكَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ وَاحْذَرْ أَنْ تُطِيعَ النِّسَاءَ ، فَإِنَّهُنَّ نَاقِصَاتُ عَقْلٍ كَمَا قَالَ الْقُرْآنُ وَنَطَقَ بِهِ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلِأَنَّهُنَّ نَاقِصَاتُ دِينٍ كَمَا صَرَّحَتْ بِذٰلِكَ صِحَاحُ السُّنَّةِ الْغَرَّاءِ ، وَهَلْ مِنَ الْإِنْصَافِ أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ نَاقِصَةَ عَقْلٍ وَدِينٍ ثُمَّ تَكُونَ هِيَ الْأَمِيرَ . وَلِأَنَّهُنَّ سَرِيعَاتُ الِانْفِعَالِ وَعُقُولُهُنَّ أَضْعَفُ مِمَّا لَهُنَّ مِنْ شَهَوَات ، وَهَلْ مَعَ نَقْصِ الدِّينِ يُؤْتَمَنُ عَقْلٌ نَاقِصٌ تَسَلَّطَتْ عَلَيْهِ الشَّهَوَاتُ وَالِانْفِعَالَات ، إِنَّ مَنْ يُطِيعُ هٰذَا الْعَقْلَ لَا يُفْلِحُ أَبَدًا مَهْمَا ظُنَّ بِهِ مِنَ الْكَمَالَات ، وَلِهٰذَا السِّرِّ وَحْدَهُ يَنْبَغِي أَنْ تُحِيلَ مَا عَلَيْهِ مُطِيعُو النِّسَاءِ مِنْ تَأْخِيرٍ .

(حديث) لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ .

٥٩ — كيف يداوى المغرور ؟

الْحَمْدُ لِلّٰهِ حَمْدَ امْرِئٍ فَهِمَ مَنْ هُوَ فَلَزِمَ حَدَّهُ فِي كُلِّ حَال ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةً تَحْرُسُ مُلَاحِظَهَا مِنْ غُرُورِ الْجُهَّال ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي حَذَّرَنَا الْغُرُورَ الْقَتَّال ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِي الدِّينِ الْمَتِينِ .

(أمّا بعدُ) فيا عبدَ الله : فى هذا النوعِ نوعِ الإنسانِ غرورٌ وصلَ بهِ إلى أن ادّعى أفرادٌ منهُ الربوبيّة ، وأنتَ لا تستطيعُ اليومَ أن تبرّئ أفرادَهُ من ربوبيّةٍ فيهم خفيّة ، انظرْ علوَّ أحدِهم وكبرياءهُ وعظمتَهُ وجبروتَهُ إنْ رأى نفسَهُ فى قوّةٍ دنيويّة ، وانظرْ بطشَهُ بمَنْ لا يعظّمُهُ وانظرْ إقبالَهُ على مَنْ يعظّمُهُ منَ المتملّقين . قولوا أيّها النّاسُ لذلكَ المغرورِ المتألّهِ إنّكَ بهذا تقيمُ على عجزكَ البرهانَ ، أمّا العاقلُ فلا يستطيعُ أنْ يتألّهَ ومعهُ براهينُ ضعفهِ أينما كانَ ، قولوا لهُ إنَّ النّومَ يغشاكَ فيصرعُكَ دونَ احترامٍ لكَ ولا استئذانٍ ، فأينَ كبرياؤكَ وأينَ جبروتُكَ وهوَ يعتدي عليكَ هذا الاعتداءَ المهينَ . قولوا لهُ إنَّ الفقرَ يهجُمُ عليكَ فيسلبُكَ كلَّ ما تملكُ منْ درهمٍ أوْ دينارٍ ، ويتركُكَ عرضةً للجوعِ الأليمِ وموضعَ شماتةٍ لكلِّ منْ يعرفُكَ منْ فريقِ الأشرارِ ، فلمَ لمْ تُظهرْ عظمتَكَ وتطرُدْهُ عنْ مالكَ بحضرةِ المتكبّرِ الجبّارِ ، إنَّ استسلامَكَ لهُ وهوَ يجرّدُكَ برهانٌ على عجزكَ منْ أوضحِ البراهينِ . قولوا لهُ إنَّ أنواعَ الأمراضِ تنتابُكَ وكلٌّ منها لهُ إليكَ رجعاتٌ ، فإذا نزلَ بكَ بعضُها جعلكَ تستغيثُ فلا تغاثُ منْ آلامهِ المبرّحاتِ ، فلمَ لمْ تُبيّنْ قوّتَكَ وتبطشْ بهذا العدوِّ القاسي لتستريحَ منْ وطآتهِ العنيفاتِ ، أليسَ خضوعُكَ لما يُنزلُهُ بكَ منَ الآلامِ دليلاً على أنّكَ منَ

العَاجزِين . قُولُوا لَهُ إِنَّ الْهَرَمَ لَهُ عَلَى شَبَابِكَ حَمَلاَتٌ ثُمَّ حَمَلاَتٌ ، وَلاَ يَزَالُ يُوَالِي حَمَلاَتِهِ هٰذِهِ حَتَّى يَقْضِيَ عَلَيْهِ وَيَتَبَوَّأَ مَكَانَهُ مِنْ جَوَارِحِكَ الْكَرِيمَاتِ ، وَحِينَئِذٍ تُصْبِحُ وَقَدْ ذَهَبَتْ قُوَّاتُكَ وَوَلَّتْ لَذَّاتُكَ وَظَلَّتْ أَيَّامُكَ مُنَغَّصَاتٍ ، أَلَيْسَ سُكُوتُكَ أَمَامَ الْهَرَمِ وَهَجَمَاتِهِ دَلِيلاً عَلَى أَنَّكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ . قُولُوا لَهُ إِنَّ الْمَوْتَ يَزُورُكَ فَيَخْطَفُكَ وَيُلْقِيكَ فِى حُفْرَتِكَ بِلاَ مُبَالاَه ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَالِكَ وَأَهْلِكَ وَأَحْبَابِكَ تَفْرِيقاً لَيْسَ بَعْدَهُ فِى هٰذِهِ الدُّنْيَا مُلاَقَاه ، أَمَا كَانَ مِنَ الصَّوَابِ - يَاصَرِيعَ الْغُرُورِ - أَنْ تُظْهِرَ جَبَرُوتَكَ أَمَامَ مَا يُرِيدُ أَنْ يُعْدِمَكَ الْحَيَاه ، إِنَّ وُقُوفَكَ أَمَامَهُ مَكْتُوفَ الْيَدَيْنِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّكَ مِنَ الْعَجَزَةِ الْمَسَاكِين . قُولُوا لَهُ أَنْتَ عَبْدٌ فَقِيرٌ ضَعِيفٌ يَتَصَرَّفُ فِيكَ إِلٰهٌ غَنِيٌّ قَدِير ، بَلْ قُولُوا لَهُ إِنَّ أُمُورَ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِتَدْبِيرِ هٰذَا الْإِلٰهِ تَسِير ، فَلاَ إِنْسِيٌّ وَلاَ جِنِّيٌّ وَلاَ مَلَكٌ إِلاَّ وَهُوَ تَحْتَ قَهْرِ هٰذَا التَّدْبِير ، قُولُوا لَهُ كُلَّ ذٰلِكَ لِيَعْرِفَ مَنْ هُوَ لَعَلَّهُ يَسْتَعِيذُ بِاللّٰهِ تَعَالَى مِنَ الْغُرُورِ وَالْمَغْرُورِين .

(حديث) بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَخَيَّلَ (١) وَاخْتَالَ وَنَسِيَ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالَ ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ وَاعْتَدَى وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الْأَعْلَى ، بِئْسَ

(١) أى ذهب خياله فى نفسه إلى أنه الذى لا يدانى كمالا ، ولهذا اختال وتكبر على العباد ظاناً أنه فى مستوى فوق مستواهم .

العَبْدُ عَبْدٌ سَهَا وَلَهَا وَنَسِيَ المَقَابِرَ وَالبِلَى ، بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ عَتَا(١) وَطَغَى وَنَسِيَ المَبْدَأَ وَالمُنْتَهَى . رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وَالبَغَوِيُّ وَالطَّبَرَانِيُّ وَالحَاكِمُ وَابْنُ عَدِيٍّ وَالبَيْهَقِيُّ .

٦٠ — الحبّ والبغض فى الله وآثارهما

الحَمْدُ لِلّٰهِ حَمْدَ عَبْدٍ هَوَاهُ عِنْدَ أَعْتَابِ الصَّالِحِينَ أَيْنَمَا كَانُوا وَأَيْنَمَا كَانَ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ شَهَادَةَ إِنْسَانٍ بِحُبِّهِ لِلصَّالِحِينَ أَقَامَ عَلَى صِدْقِ إِيمَانِهِ أَصْدَقَ بُرْهَانٍ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ المُرْسَلُ إِلَى الثَّقَلَيْنِ الإِنْسِ وَالجَانِّ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ خَيْرِ أُمَّةٍ رَأَتْهَا الأَيَّامُ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّٰهِ : كُلُّنَا نَعْلَمُ أَنَّ مَنِ امْتَثَلَ مَا كُلِّفَ بِهِ يُحِبُّهُ مَوْلَاهُ الخَبِيرُ العَلِيمُ ، وَنَعْلَمُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَمْتَثِلْ ذَلِكَ التَّكْلِيفَ يُبْغِضُهُ هَذَا المَوْلَى الكَرِيمُ ، جَاءَ ذَلِكَ فِى كِتَابِ رَبِّنَا وَسُنَّةِ رَسُولِهِ الرَّءُوفِ الرَّحِيمِ ، فَهُوَ مَعْنًى مَنْ شَكَّ فِيهِ أَصْبَحَ بَعِيداً عَنْ دِينِ الإِسْلَامِ . إِذَنْ لِلّٰهِ تَعَالَى أَحْبَابٌ هُمُ الصَّالِحُونَ وَغَيْرُ أَحْبَابٍ هُمُ المُتَمَرِّدُونَ ، فَأَحْبَابُهُ هُمْ أَهْلُ الكَرَامَةِ فِى الدَّارَيْنِ وَغَيْرُ أَحْبَابِهِ هُمُ المُهَانُونَ ، فَإِنْ أَنْتَ أَحْبَبْتَ أَحْبَابَهُ وَأَبْغَضْتَ غَيْرَ أَحْبَابِهِ أَكْرَمَكَ بِمَا لَا يَتَصَوَّرُهُ المُتَصَوِّرُونَ ، وَإِنْ عَكَسْتَ الأَمْرَ أَعْلَنَكَ

(١) أى استكبر وتجاوز الحد .

بحرب لا تحتملها وإن كنت الجلد الهمام . وحبك للصالحين وبغضك للمتمردين هو المعروف بالحب والبغض فى الله ، أى أنك تحب الصالح لأن الله يحبه وتبغض المتمرد لبغض الله إياه ، وهذا أوثق عرى الإيمان وأقواها لا تستثنى صلاة ولا زكاه ، وهو البرهان الذى لا مغمز فيه على صدق العبودية لرب الأنعام . فتوسل أيها المؤمن بحب الصالحين والقرب منهم وخدمتهم إلى كل المطالب ، فإن الله تعالى يحسن إليك كما أحسنت إليهم ويمنحك فوق الرغائب ، لا تفرق فى ذلك بين حيهم وميتهم ولا بين حاضرهم وبين الغائب ، فإن الذى يكرمك هو ربهم وأما هم حيهم وميتهم فوسائل لهذا الإكرام . تردد إلى منازلهم أحياء وإلى رياض قبورهم أمواتا فإنها مهبط الكرامات ، واخصص بمزيد العناية روضة سيد الخلق ورياض آل بيته واحظ هناك بالمنح الإلهيات ، واحذر قطع العلائق بينك وبين أحبابه تعالى وإلا قطع عنك ما له من بركات ، واعلم أن من أحب قوما حشر معهم كراما كانوا أو من فريق اللئام . ثم أنت إذا تعودت مجالسة الصالحين أورثوك خشية الله تعالى ورغبوك فى الصالحات ، أما إذا جالست الفاسقين فإنهم يجرئونك على الله تعالى وانتهاك ما له من حرمات ، فالجنة إذن فى مجالس الصالحين والنار فى مجالس الفسقة عبيد الشهوات ،

وَإِذَا أَحطْتَ عِلْمًا بِهٰذَا كُلِّهِ فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا يَحْلُو وَالسَّلَامُ .

(حديث) مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا حَشَرَهُ اللهُ فِى زُمْرَتِهِمْ . رَوَاهُ الطَّبَرَانِىُّ وَالضِّيَاءُ .

(آخر) مَنْ أَحَبَّ لِلّٰهِ ، وَأَبْغَضَ لِلّٰهِ ، وَأَعْطَى لِلّٰهِ ، وَمَنَعَ لِلّٰهِ ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

٦١ — الجدل والاحتجاج بالقدر

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى أَرْسَلَ إِلَيْنَا نَبِيَّهُ بِشَرِيعَةٍ بَيِّنَةٍ وَاضِحَةٍ مَنْ عَرَفَهَا لَا يَحَار ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةً مَنْ تَيَقَّنَهَا لَمْ يُنَازِعْ رَبَّهُ فِيمَا يَخْتَار ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى تَرَكَنَا عَلَى الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ لَيْلُهَا كَالنَّهَار ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ مَنِ اسْتَسْلَمَ لِفِعْلِ مَوْلَاهُ الدَّيَّان .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : إِنَّ لِلشَّيْطَانِ فِى صَيْدِهِ عِبَادَ اللهِ تَعَالَى فَخًّا فِى غَايَةِ الْخَطَرِ ، مَنْ وَقَعَ فِيهِ مِنَ النَّاسِ قَبَضَ عَلَيْهِ وَأَلْقَاهُ بِسَقَر ، وَمَعَ خُطُورَتِهِ هٰذِهِ تَجِدُهُمْ يَتَهَافَتُونَ عَلَيْهِ دُونَ أَىِّ حَذَر ، كَأَنَّهُ عَمَلٌ صَالِحٌ يَتَسَابَقُ إِلَيْهِ الْيَقِظُونَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَان . ذٰلِكَ الْفَخُّ هُوَ الْجَدَلُ وَالِاحْتِجَاجُ بِمَا سَبَقَ فِى عِلْمِ اللهِ وَأَرَادَهُ لِلْعِبَاد ، هٰذَا الْجَدَلَ وَهٰذَا الِاحْتِجَاجُ تَسْمَعُهُمَا دَائِمًا مِنْ جُنُودِ الشَّيْطَانِ عُشَّاقِ الْمَعَاصِى هُوَاةِ الْفَسَاد ، يَفْعَلُ أَحَدُهُمْ مِنَ الْمُوبِقَاتِ مَا يَفْعَلُ فَإِذَا نَهَيْتَهُ قَالَ هٰذَا

ما علِمَ ربُّنا وأراد ، يدفعُ اللَّوْمَ عن نفسِهِ بذلك ويُبرّرُ إقدامَهُ على العِصيان . هذا الاحتجاجُ يحدثُ عند أولئك الضالّين جُرأةً على اقتحامِ الكبائر ، وربّما استباحوها بذلك الاحتجاجِ وقد يجاهرون بأنّهم أُمِروا بها كَكُلِّ الأوامر ، وقد سبقهم المشركون إلى هذا فاحتجّوا على حُسْنِ شِركهم بهذا الاحتجاجِ الجائر ، فهم أشبهُ بالمشركين في هذا وهو شبَهٌ لا يرتضيهِ لنفسِهِ إلّا أهلُ الخسران . لِيَعلمْ أولئك المحتجّون أنّ اللَّوْمَ لا يُدفعُ عنهم بتلك الاحتجاجات ، ولو دُفِعَ ما أوجبَ اللّهُ إقامةَ الحدودِ على مُقترِفي الجنايات ، فكان يزني المجرمُ بنسائهم ويسرقُ أموالَهم ويُريقُ دماءَهم الغاليات ، ولو غضِبوا قلنا لهم لا تغضبوا هذا ما علِمَهُ وأرادَهُ مولانا الرّحمٰن . وعلى هذا لا نكونُ في حاجةٍ إلى الشّرائعِ السّماويّه ، ولا إلى الرُّسُلِ يُخرِجون النّاسَ من ظُلمةِ الكفرِ إلى نورِ المِلّةِ الإسلاميّه ، ولا إلى الحكوماتِ تضربُ على أيدي المجرمين ليسلكوا السّبيلَ المرضيّه ، وهذا هو الانسلاخُ عن الأديانِ كلِّها وعن العقلِ والانحيازُ إلى عالَمِ الحيوان . وليعلموا كذلك أنّ اللّهَ لا يأمرُ بالفحشاءِ ولا يرضاها ولكنّهُ يأمرُ بالطّاعات ، أمّا ما علِمَهُ ربُّنا وأرادَهُ منّا فهو ما سنختارُهُ بعدَ وجودِنا لأنّ العلمَ تابعٌ للمعلومات ، وإذن لا قيمةَ لتلك

الْمُجَادَلَاتِ وَالِاحْتِجَاجَاتِ الَّتِي تَنِمُّ عَنْ جَهَالَاتٍ مُرَكَّبَات ، وَلَعَلَّهُمْ بَعْدَ هٰذَا يَتْرُكُونَ الْجَدَلَ وَالِاحْتِجَاجَ وَيَقِفُونَ عِنْدَ تَكَالِيفِ دِينِهِمْ خَيْرِ الْأَدْيَان .

(حديث) مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ . رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَأَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ .

٦٢ — أيّ الوسيلتين تقدّم : وسيلة الدنيا أم وسيلة الآخرة

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي أَكْرَمَنَا بِدِينِهِ لِنَكُونَ بِالْعَمَلِ بِهِ مِنَ الْأَخْيَار ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ الَّذِي مَنَحَنَا نِعْمَةَ الْعَقْلِ نُمَيِّزُ بِهَا النَّافِعَ مِنَ الضَّارّ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ سَيِّدُ مَنْ رَجَّحَ الْآخِرَةَ عَلَى هٰذِهِ الدَّار ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ مَنْ قَدَّمَ الْبَاقِيَاتِ عَلَى الْفَانِيَات .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّٰهِ : إِنَّمَا خَلَقَنَا رَبُّنَا فِي هٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَعْبُدَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين ، وَإِنَّمَا أَمَرَنَا أَنْ نَسْعَى عَلَى أَرْزَاقِنَا لِأَنَّ هٰذَا السَّعْيَ عَلَى تِلْكَ الْعِبَادَةِ مُعِين ، فَالسَّعْيُ وَسِيلَةٌ فَقَطْ وَالْمَقْصِدُ الَّذِي لَهُ خُلِقْنَا هُوَ عِبَادَةُ رَبِّ الْعَالَمِين ، وَلَوْ أَمْكَنَ أَنْ نَعِيشَ بِلَا سَعْيٍ مَا تَوَجَّهَ إِلَيْنَا أَمْرٌ بِغَيْرِ الْعِبَادَات . وَالسِّرُّ فِي هٰذَا أَنَّ السَّعْيَ وَسِيلَةُ الْحَيَاةِ مَحْدُودَةٍ هِيَ حَيَاتُنَا فِي هٰذِهِ الدَّار ، أَمَّا الْعِبَادَةُ فَوَسِيلَةٌ لِلْحَيَاةِ

الأَبَدِيَّةِ وَهِيَ حَيَاتُنَا فِي دَارِ القَرَارِ، وَلَاشَكَّ أَنَّ وَسِيلَةَ الحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ أَهَمُّ كَثِيراً مِنْ وَسِيلَةِ حَيَاةٍ مَحْدُودَةِ المِقْدَارِ ، وَلِذَلِكَ أَخْبَرَنَا رَبُّنَا أَنَّا إِنَّمَا خَلَقْنَا لَهَا لِنُعْطِيَهَا مَاتَسْتَحِقُّ مِنَ العِنَايَاتِ . لَمْ نَفْهَمْ هَذَا أَوْ فَهِمْنَاهُ وَلَمْ نَهْتَمَّ بِهِ أَيَّ اهْتِمَامٍ ، فَكَأَنَّا لَا نُؤْمِنُ بِرَبِّنَا عَزَّ وَجَلَّ وَلَا نَدِينُ بِدِينِ الإِسْلَامِ ، ذَلِكَ أَنَّا قَنِعْنَا بِهَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَجَمْعِ مَالَهَا مِنْ حُطَامٍ ، فَفِي هَذَا السَّبِيلِ وَحْدَهُ كَدُّنَا وَلَهُ نَبْذُلُ كُلَّ مَالَنَا مِنْ مَجْهُودَاتٍ . فَلِأَجْلِ هَذَا الحُطَامِ الفَانِي يَجُوبُ المَرْءُ القِفَارَ وَيَخُوضُ البِحَارَ وَيَسْهَرُ اللَّيَالِيَ مُسْتَعْذِباً كُلَّ عَنَاءٍ ، بَلْ لِأَجْلِ هَذَا الحُطَامِ الفَانِي يَقْتُلُ الآبَاءُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَقْتُلُ الأَبْنَاءُ أُمَّهَاتِهِمْ وَالآبَاءَ ، بَلْ لِأَجْلِ هَذَا الحُطَامِ الفَانِي تَقُومُ الحُرُوبُ عَلَى سَاقِهَا بَيْنَ الأُمَمِ وَكَالأَنْهَارِ تَسِيلُ الدِّمَاءُ ، وَمَعْنَى كُلِّ هَذَا أَنَّ العُقَلَاءَ يَتَقَدَّمُونَ إِلَى شَقَاءِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لِأَجْلِ هَذِهِ الأَعْرَاضِ الزَّائِلَاتِ . أَمَّا حَيَاةُ الأَبَدِ فَخَلْفَ الظُّهُورِ وَالعَمَلُ لَهَا لَا يَخْطُرُ عَلَى الحُسْبَانِ ، وَلِذَلِكَ لَا تَرَى اهْتِمَاماً بِهَا وَلَا تَسَابُقاً إِلَى مَا أُعِدَّ فِيهَا لِأَهْلِ الإِيمَانِ ، وَمَنْ رَأَيْتَهُ يَعْمَلُ لَهَا فَعَادَةٌ عَمِلَهُ ذَلِكَ أَوْ لِعِلَّةٍ يَدِقُّ إِدْرَاكُهَا عَنِ الأَذْهَانِ ، وَأَمَّا العَامِلُ اليَوْمَ لِلْآخِرَةِ حَقًّا فَلَمْ يُفْقَدْ وَلَكِنْ عِلْمُهُ عِنْدَ رَبِّ الكَائِنَاتِ . إِنَّ الإِعْرَاضَ عَنِ البَاقِي لِأَجْلِ الفَانِي لَا يُمْكِنُ أَبَداً أَنْ يَكُونَ مِنْ تَصَرُّفَاتِ العَقْلِ السَّلِيمِ ، وَكَذَلِكَ لَا يُمْكِنُ أَبَداً أَنْ يَصْدُرَ هَذَا

التَّصَرُّفُ مِنْ رَجُلٍ لَهُ دِينٌ قَوِيمٌ ، إِذْنْ مَرَضُ العَقْلِ وَالدِّينِ لَازِمٌ لِكُلِّ مَنْ شَغَلَهُ الحُطَامُ الفَانِي عَنِ النَّعِيمِ المُقِيمِ ، فَتَنَبَّهْ أَيُّهَا المُؤْمِنُ وَرَجِّحِ البَاقِي عَلَى الفَانِي تُشْفَ مِنْ مَرَضِكَ وَتَسْتَحِقُّ دَارَ الكَرَامَاتِ.

(حديث) مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالحَاكِمُ .

٦٣ — بمن يعتز العبد

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ عَبْدٍ لَمْ يَعْتَزَّ يَوْمًا بِغَيْرِ خَالِقِهِ القَدِيرِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً هِيَ عِزُّ الرَّجُلِ البَصِيرِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي كَمْ بِأَتْبَاعِهِ اعْتَزَّ حَقِيرٌ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ انْتَصَرُوا بِالإِسْلَامِ وَبِهِمُ الإِسْلَامُ انْتَصَرَ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللَّهِ : لَقَدْ سَلَكَ النَّاسُ مَسَالِكَ شَتَّى لِيَكُونُوا بِهَا فِي هَذِهِ الحَيَاةِ أَعِزَّاءَ ، وَكُلٌّ أَجْهَدَ فِكْرَهُ فِي اخْتِيَارِ مَا يُفْضِي سُلُوكُهُ إِلَى تِلْكَ المَكَانَةِ الشَّمَّاءِ ، وَكُلٌّ ضَلَّ الطَّرِيقَ المُوَصِّلَ فَبَاءَ بِخَيْبَةِ مَا كَانَ لَهُ مِنْ رَجَاءٍ ، وَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى سَبِيلِ العِزَّةِ إِلَّا أَفْرَادٌ صَحِبَهُمُ التَّوْفِيقُ فِي ذَاكَ السَّفَرِ . فَبَعْضُهُمْ سَلَكَ طَرِيقَ إِيذَاءِ الخَلْقِ لِيَعْتَزَّ بِسِلَاحِ هَذَا الإِيذَاءِ ، فَأَطْلَقَ لِسَانَهُ فِي مَيَادِينِ السَّبِّ وَالطَّعْنِ وَاللَّعْنِ وَالنَّمِّ يَجْرِي فِيهَا كَمَا يَشَاءُ ، وَأَرْسَلَ يَدَهُ فِي أَوْدِيَةِ الضَّرْبِ

وَالسَّرِقَةِ وَالْقَتْلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ مُوبِقَاتٍ تَهْتَزُّ مِنْهَا السَّمَاءُ ، وَهٰذَا لِشَرِّهِ يَكُونُ عَزِيزاً وَلٰكِنْ مَا قِيمَةُ عِزَّةٍ تُوصِّلُ لِسَقَرَ . وَبَعْضُهُمْ يَعْتَزُّ بِالْمَالِ فَيَقْضِي كُلَّ حَيَاتِهِ فِي جَمْعِ الْمَالِ الْكَثِيرِ ، وَبَعْضُهُمْ يَعْتَزُّ بِالْمَنَاصِبِ فَيَسْعَى وَيُوَاصِلُ السَّعْيَ حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَنْصِبٍ كَبِيرٍ ، وَبَعْضُهُمْ يَعْتَزُّ بِالْأُسَرِ الْقَوِيَّةِ أَوْ بِوَجِيهٍ لَهُ بَيْنَنَا قَدْرٌ خَطِيرٌ ، وَهٰؤُلَاءِ يَعِزُّونَ وَلٰكِنْ بِانْتِهَاءِ مَنْ بِهِ عِزُّهُمْ يَعُودُونَ إِلَى الذُّلِّ وَلَا مَفَرَّ . وَبَعْضُهُمْ عَلَتْ هِمَّتُهُ وَبَعُدَ نَظَرُهُ وَلَاحَظَتْهُ الْعِنَايَةُ فَأَبَى عِزّاً يَزُولُ ، فَأَخَذَ يَبْحَثُ هُنَا وَهُنَا فَلَمْ يَرَ إِلَّا طَرِيقاً وَاحِداً يُوَصِّلُهُ إِلَى مَا لَهُ مِنْ مَأْمُولٍ ، وَذٰلِكَ الطَّرِيقُ هُوَ مَعْرِفَةُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي لَا يَزُولُ وَلَا يَحُولُ ، وَالْإِقْبَالُ الدَّائِمُ عَلَى أَنْوَاعِ مَا بِهِ يَرْضَى فِيمَا نَهَى وَأَمَرَ . إِنَّ هٰذَا الْفَرِيقَ هُوَ الَّذِي صَحِبَهُ التَّوْفِيقُ وَجَرَى بِسَعَادَتِهِ الْقَلَمُ ، فَإِنَّ رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي لَهُ الْعِزَّةُ وَهُوَ الَّذِي لَا يَلْحَقُهُ عَدَمٌ ، فَمَنْ لَازَمَ الْاعْتِزَازَ بِهِ دَامَ عِزُّهُ لَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَقَطْ بَلْ وَفِي قَبْرِهِ وَيَوْمَ حَشْرِ الْأُمَمِ ، وَهٰذَا الْعِزُّ مُحَالٌ أَنْ يَكُونَ لِمَنِ اعْتَزَّ بِفَانٍ وَبِهِ اغْتَرَّ . الْتَفِتْ قَلِيلاً يَا هٰذَا إِلَى الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ لَحِقُوا بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى مِنْ آلَافِ السِّنِينِ ، وَالْتَفِتْ إِلَى مَنِ انْتَقَلَ بَعْدَهُمْ مِمَّنِ اقْتَفَى آثَارَهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ، أَلَسْتَ تَرَى أَفْئِدَةَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ دَائِماً وَتَتَقَرَّبُ بِحُبِّهِمْ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَلَيْسَ هٰذَا عِزّاً لَا يَنَالُهُ غَيْرُهُمْ

وَإِنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِمَا بِهَا مِنْ بَدْوٍ وَحَضَر . أَتَسْتَطِيعُ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ أَنْ تَكُونَ كَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَامَ عَلَى فَلَاحِهِمُ الْبُرْهَان ، كُنْ هَكَذَا وَاحْذَرْ أَنْ تَعْتَزَّ بِغَيْرِهِ تَعَالَى وَإِلَّا كَانَ نَصِيبُكَ فِي دَارَيْكَ الْهَوَان ، هَذِهِ نَصِيحَةٌ أُؤَكِّدُ عَلَيْكَ فِي التَّمَسُّكِ بِهَا مَا دَامَ التَّمَسُّكُ بِهَا فِي الْإِمْكَان، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ تَهَاوَنْتَ بِالْعَمَلِ بِهَا كُنْتَ مُعَرَّضًا دَائِمًا لِلْخَطَر .

(حديث) مَنِ اعْتَزَّ بِالْعَبِيدِ أَذَلَّهُ اللهُ . رَوَاهُ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ.

٦٤ — الرفق والعنف وآثارهما

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَمَّلَ بِحِلْيَةِ الرِّفْقِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي طَهَّرَ مِنْ رَذِيلَةِ الْعُنْفِ أَحْبَابَهُ وَأَهْلَ وِدَادِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي مَا وَصَلْنَا لِلْخَيْرِ إِلَّا بِإِرْشَادِهِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ إِلَيْهِ انْتَسَب .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ تَرَاهُ سَيِّءَ الْخُلُقِ عَنِيفًا فِي كُلِّ حَال ، إِنْ قَالَ فَعُنْفٌ قَوْلُهُ أَوْ فَعَلَ فَعُنْفٌ مَالَهُ مِنْ أَفْعَال، يَنْطِقُ بِالْكَلِمَةِ فَلِعُنْفِهَا تُحْدِثُ مِنَ الشَّرِّ مَا لَا يَحْكِيهِ الْمَقَال ، وَيَفْعَلُ الْفِعْلَ فَيَكُونُ كَجَمْرٍ صَادَفَ هَشِيمًا فَتَأَجَّجَ وَالْتَهَب . إِنَّ مِثْلَ هَذَا لَا تَطُولُ مَعَهُ عِشْرَةُ نِسَاءٍ وَلَا صَدَاقَةُ رِجَال ، وَلَا يَجِدُ قَلْبًا يَحْنُو عَلَيْهِ وَلَوْ كَانَ فِي أَشَدِّ الْأَحْوَال ، وَلَوْ قِيلَ لَكَ إِنَّ الْبَهَائِمَ تَنْفِرُ مِنْهُ لِعُنْفِهِ

فَصَدِّقْ هذَا المَقَال ، وَلاَ تَسْتَبْعِدْ إِذَا قِيلَ لَكَ إِنَّهُ يُلاَقِي مِنَ الْبَهَائِمِ فَضْلاً عَنِ الآدَمِيَّةِ مَا يُلاَقِي مِنْ بَلاَيَا وَكُرَب . لِلنَّاسِ عُذْرٌ وَاضِحٌ فى نُفُورِهِمْ مِنْ هذَا الْعَنِيفِ السَّيِّئِ الأَخْلاَق ، وَلاَ لَوْمَ عَلَيْهِمْ إِذَا فَارَقُوهُ الْفِرَاقَ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ مِنْ تَلاَق ، فَإِنَّ الطِّبَاعَ الْبَشَرِيَّةَ مُتَّفِقَةٌ عَلَى بُغْضِ الْعَنِيفِ اتِّفَاقًا لاَ يُسَامِيهِ اتِّفَاق ، وَكَيْفَ يُحِبُّ النَّاسُ مَنْ يُؤْذِيهِمْ بِأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ بِسَبَبٍ وَبِغَيْرِ سَبَب . فَالْعَنِيفُ شُؤْمٌ عَلَى نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ شُؤْمًا عَلَى سِوَاه ، وَلاَ يَقْتَصِرُ شُؤْمُهُ عَلَى دُنْيَاهُ بَلْ يَتَجَاوَزُهَا إِلَى أُخْرَاه ، فَإِنَّهُ بِعُنْفِهِ يُؤْذِي الْعِبَادَ وَمَنْ يُؤْذِي الْعِبَادَ يَغْضَبُ عَلَيْهِ اللهُ ، وَلَعَلَّكَ مِنْ هذَا فَهِمْتَ أَنَّ مَنْ حُرِمَ الرِّفْقَ يَعِيشُ وَيَمُوتُ وَيُبْعَثُ فى تَعَب . أَمَّا الرَّفِيقُ ـ جَمَّلَكَ اللهُ ـ فَهُوَ الْعَبْدُ الْحَسَنُ الْخُلُقِ الْوَقُورُ الْحَلِيم ، الَّذِي أَيْنَمَا كَانَ وَمَتَى كَانَ تَصْبُو إِلَيْهِ الْقُلُوبُ وَبِهِ تَهِيم ، لِأَنَّهُ إِنْ قَالَ فَأَحْلَى مِنْ كُلِّ حُلْوٍ قَوْلُهُ لِأَنَّهُ الأَدِيبُ الْحَكِيم ، وَإِنْ فَعَلَ فَكُلُّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِهِ تُعَلِّمُ حُسْنَ الأَدَب . لَيْسَ بَنُو آدَم وَحْدَهُمُ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَهْلَ الرِّفْقِ بَلْ يُشَارِكُهُمْ فى ذٰلِكَ سَائِرُ الْحَيَوَانَات ، وَإِنْ شِئْتَ فَانْظُرْ مَبْلَغَ حَنِينِ تِلْكَ الْحَيَوَانَاتِ إِلَيْهِمْ وَلَوْ رَأَتْهُمْ فِي أَشَدِّ الظُّلُمَات ، فَكُنْ رَفِيقًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ تَجْمَعْ بَيْنَ حُبِّ الْكَائِنَاتِ وَبَيْنَ حُبِّ رَبِّ الْكَائِنَات ، وَلَيْسَ بَعْدَ حُبِّ اللهِ وَحُبِّ عِبَادِهِ لِذَوِي النُّهَى أَيُّ أَرَب .

(حديث) مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهْ .

(آخر) إِنَّ اللهَ تَعَالَى رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

٦٥ — نحن وسلفنا فى العناية بالقلوب

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ امْرِئٍ عَالَجَ قَلْبَهُ حَتَّى طَهَّرَهُ مِنْ رَذَائِلِ الْأَخْلَاقِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةً لَا يَبْقَى مَعَ الْإِخْلَاصِ فِيهَا إِعْجَابٌ وَلَا نِفَاقٌ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي عَلَّمَنَا فَضْلَ سَلَامَةِ الْقُلُوبِ عِنْدَ الْخَلَّاقِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْخَبِيثَاتِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : لَقَدْ كَانَتِ الْقُلُوبُ مَوْضِعَ الْعِنَايَةِ كُلِّهَا عِنْدَ سَلَفِنَا الصَّالِحِينَ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهَا كَالْقَادَةِ وَالْجَوَارِحُ مَعَهَا كَالْجُنُودِ الْخَاضِعِينَ ، إِذَا مَالَتْ إِلَى صَلَاحٍ أَوْ فَسَادٍ تَبِعَتْهَا الْجَوَارِحُ كَالْأُمَرَاءِ تَسْتَتْبِعُ الْمَأْمُورِينَ، عَلِمُوا أَنَّ بِهَا سَعَادَتَهُمْ وَشَقَاءَهُمْ فَبَذَلُوا فِي صَلَاحِهَا كُلَّ مَا لَهُمْ مِنْ مَجْهُودَاتٍ . كَانَ وَاجِبًا عَلَيْنَا أَنْ نَكُونَ كَمَا كَانُوا فِي الْعِنَايَةِ بِهَاتِيكَ الْقُلُوبِ ، مَا فَعَلْنَا ذَلِكَ وَالَّذِي كَانَ أَنَّا أَهْمَلْنَاهَا إِهْمَالًا لَهُ الْأَكْبَادُ تَذُوبُ ، وَلِذَلِكَ كَثُرَتْ أَمْرَاضُهَا وَتَشَعَّبَتْ وَأَعْضَلَتْ فَعَزَّ شِفَاؤُهَا الْمَطْلُوبُ ، وَمَنْ وَصَلَ قَلْبُهُ

173

إلى هذا الحد فهو مرشح لأن يهوى فيا للكفر من هوات . أزمن في قلوبنا مرض العجب ولهذا يعتقد صغيرنا وكبيرنا في نفسه الكمال ، ومن اعتقد كمال نفسه هوى لأنه إذن لا يلتفت لما به كمال الرجال ، ومرض العجب هذا ينتج مرضاً آخر هو مرض الكبر وصف الأراذل الجهال ، والمتكبر لا ينظر إليه بعين الرضى عبد ولا رب لا في هذه الدار ولا في دار الجزاءات . نعم نحن مرضى بداء الكبر والكبر يلد مرض الحسد ، والمتكبر الحسود يتمنى زوال نعم الخلق لئلا يساويه في مستواه أحد ، فإذا أحس بامرئ ساماه تميز منه غيظاً وعليه ظلماً حقد ، وهذا الحقد ربما حمل على قتل من لا ذنب له إلا نعم ربه المتواليات . ليس هذا كل ما بقلوبنا بل عندنا كذلك مرض الرياء ، وهو مرض لا يفلح صاحبه لأنه يلاحظ الناس مع ربه في طاعاته ليجازوه بالثناء ، وكذلك من أمراضنا داء الشح الذي وصل بنا إلى منع الزكاة حق الفقراء ، وغير ذلك كثير من أمراض قلوبنا وكلها أمراض مهلكات . نحن لا نهتم بقلوبنا ولا بأمراضها وإنما نهتم بجمال الظواهر ، فنبالغ في تحسين مساكننا وملابسنا ومراكبنا لتقع موقع الإعجاب عند النواظر ، أنظر فقط عنايتنا بصقل ثيابنا وتلميع نعالنا

لِتَعْجَبَ لِبَرِيقِهَا الْبَاهِرِ ، وَلَوْ كَانَتْ عِنَايَتُنَا بِقُلُوبِنَا كَعِنَايَتِنَا فَقَطْ بِنِعَالِنَا مَا كُنَّا بِهٰذِهِ الْحَالاَتِ الْمُخْزِيَاتِ .

(حديث) إِنَّ اللهَ لاَيَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلٰكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَهْ .

٦٦ — كيف تكون المعاملات فى هذه الدار

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى لِتَنْظِيمِ شُؤُونِنَا أَنْزَلَ شَرَائِعَهُ السَّمَاوِيَّات ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةَ مَنْ أَيْقَنَ بِهَا أَحْسَنَ فِى كُلِّ الْمُعَامَلاَت ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَسْبَقُ الْعَالَمِ الْعَامِلِ فِى الصَّالِحَات ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ خَلْفَهُمْ يَسِير .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : يَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ مَا دُمْتَ فِى هٰذِهِ الدَّارِ فَأَنْتَ فِى دَارِ مُعَامَلاَت ، وَأَنَّ لَكَ دَاراً أُخْرَى أَبَدِيَّةً فِيهَا تَسْتَوْفِى مَالَكَ عَلَى هٰذِهِ الْمُعَامَلاَتِ مِنْ جَزَاءات ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ هُنَا أَوْ أَسَأْتَ كَانَ جَزَاؤُكَ هُنَاكَ إِحْسَاناً أَوْ إِسَاءات ، هٰكَذَا وَعَدَ رَبُّكَ وَهُوَ عَلِيمٌ بِكُلِّ أَعْمَالِكَ وَعَلَى جَزَائِكَ عَلَيْهَا قَدِير . مِنْ هٰذَا تَعْلَمُ قَطْعاً أَنَّ شَأْنَ هٰذِهِ الْمُعَامَلاَتِ شَأْنٌ عَظِيم ، عِظَماً لاَ يَعْرِفُ قَدْرَهُ إِلاَّ الرَّجُلُ الْبَعِيدُ النَّظَرِ الْحَكِيم ، فَإِنَّ عَلَيْهَا يَتَرَتَّبُ غَضَبُ اللهِ تَعَالَى وَعِقَابُهُ أَوْ رِضَاهُ وَالنَّعِيمُ الْمُقِيم ، وَشَىْءٌ هٰذَا قَدْرُهُ لاَ يَتَرَدَّدُ فِى بَذْلِ

غَايَةِ العِنَايَةِ بِهِ رَجُلٌ بَصِير . هٰذِهِ المُعَامَلاَتُ تَارَةً تَكُونُ مَعَ العِبَادِ وَتَارَةً تَكُونُ مَعَ مَوْلاَكَ الشَّكُور ، وَمَا أُنْزِلَتِ الشَّرَائِعُ إِلاَّ لِتُعَلِّمَكَ كَيْفَ تَكُونُ مُعَامَلَةُ الخَلْقِ وَمُعَامَلَةُ هٰذَا المَوْلَى الغَيُور ، فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ كَيْفَ تُعَامِلُ الخَلْقَ فَمَعْرِفَةُ ذٰلِكَ شَيْءٌ مَيْسُور ، وَهوَ أَنْ تَجْعَلَ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِي مُعَامَلَةِ صَغِيرِهِمْ وَالكَبِير . أَنْتَ تَكْرَه إِسَاءَتَهُمْ لَكَ وَتُحِبُّ إِحْسَانَهُمْ فَاحْذَرْ إِسَاءَتَهُمْ وَلاَ تُعَامِلْهُمْ بِغَيْرِ الإِحْسَان ، فَكَمَا تَكْرَهُ أَنْ لاَ يَهْتِكُوا لَكَ عِرْضًا فَلاَ تَهْتِكْ عِرْضَ إِنْسَان ، وَكَمَا تَكْرَهُ أَنْ لاَ يَمَسُّوا مَالَكَ بِسُوءٍ فَلْيَكُونُوا مِنْكَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ فِي أَمَان ، وَكَمَا تَكْرَهُ أَنْ يَتَعَرَّضُوا لِشَخْصِكَ بِشَرٍّ فَكُنْ لِأَشْخَاصِهِمْ خَيْرَ حَفِيظٍ وَنَصِير . وَكَمَا تُحِبُّ أَنْ يُرِيحُوكَ إِذَا جَاوَرُوكَ فَلاَ تُقَصِّرْ فِي رَاحَتِهِمْ عِنْدَ كُلِّ جِوَار ، وَكَمَا تُحِبُّ أَنْ يَصْدُقُوكَ فِي وُعُودِهِمْ وَعُقُودِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ فَاسْبِقْهُمْ أَنْتَ فِي هٰذَا المِضْمَار ، وَكَمَا تُحِبُّ أَنْ يَفْرَحُوا لِفَرَحِكَ وَيَحْزَنُوا لِحُزْنِكَ فَكُنْ كَذٰلِكَ مَعَهُمْ بِإِخْلاَصِ الأَخْيَار ، وَكَمَا تُحِبُّ أَنْ لاَ يَتَكَلَّمُوا فِيكَ إِلاَّ بِخَيْرٍ فَلاَ تَكُنْ أَنْتَ مَعَهُمْ بِلِسَانٍ شِرِّير . وَأَمَّا مُعَامَلَتُكَ مَعَ رَبِّكَ فَهِيَ أَنْ تَسْمَعَ لَهُ وَتُطِيعَ بِلاَ رِيَاءٍ فِيمَا نَهَى وَأَمَر ، بَقِيَتْ مُعَامَلَتُكَ لِنَفْسِكَ وَهِيَ أَنْ تَرُوضَهَا عَلَى الخَيْرِ دُونَ أَنْ تُثْقِلَ عَلَيْهَا إِثْقَالَ الضَّجَر ، هٰذِهِ كُلُّ المُعَامَلاَتِ الَّتِي لاَ تَتَجَاوَزُ مَيْدَانَهَا وَعَلَيْهَا جَزَاؤُكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرّ ،

وَهَا أَنْتَ ذَا قَدْ عَرَفْتَهَا وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ الدُّخُولُ فِي رَوْضِ عَمَلِهَا النَّضِير .

(حديث قدسى) يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ وَأُوفِيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ شَرًّا فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثٍ قُدْسِيٍّ .

٦٧ — الأولياء والأدب معهم، والتوسل بهم وزيارتهم، ونداؤهم فى الشدائد، وشفاعتهم

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اصْطَفَى مِنْ عِبَادِهِ أَوْلِيَاءَ تَوَلاَّهُمْ بِعِنَايَتِهِ الرَّبَّانِيَّه ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ الَّذِي يَحُوطُ أَوْلِيَاءَهُ فِي دَارَيْهِمْ بِرِعَايَتِهِ السَّرْمَدِيَّه ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي مَا كَانَتْ وِلاَيَةٌ إِلاَّ بِاتِّبَاعِ سَبِيلِهِ المَرْضِيَّه ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ عَبْدٍ بِمَوَاقِعِ رِضَى مَوْلاَهُ بَصِير .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : كُلُّ مُؤْمِنٍ تَرَاهُ يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى وَيَجْتَنِبُ المَعَاصِيَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ الأَوْلِيَاءِ ، وَاجِبٌ عَلَيْكَ أَنْ تُحِبَّهُ وَتُوَالِيَهُ سَوَاءٌ مِنَ الأَمْوَاتِ أَمْ مِنَ الأَحْيَاءِ ، وَحَرَامٌ عَلَيْكَ حُرْمَةً غَلِيظَةً أَنْ تُعَادِيَهُ أَوْ تَتَسَبَّبَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الإِيذَاءِ ، وَإِذَا تَهَاوَنْتَ بِشَأْنِهِ فَعَادَيْتَهُ فَاسْتَعِدَّ لِحَرْبٍ يُعْلِنُهَا عَلَيْكَ بَارِئُكَ القَدِير . تَقَرَّبْ إِلَى اللَّهِ

بِحُبٍّ مِثْلِ هذا أو زِيارَتِهِ في بَيْتِهِ أو قَبْرِهِ الّذي هُوَ رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الْجِنانِ ، وَتَأكَّدْ كُلَّ التّأكُّدِ أنَّ حُبَّهُ وَالسَّعْيَ لِزِيارَتِهِ أوثَقُ عُرَى الإيمانِ ، وَتَوَسَّلْ بِهِ في جَميعِ مَهامِّكَ فإنَّهُ مِنْ أهْلِ الْوَجاهَةِ عِنْدَ مَوْلانا جَزِيلِ الإحْسانِ ، وَلا تَسْتَبْعِدْ أنْ تُقْضَى حاجاتُكَ بِهذا التَّوَسُّلِ الّذي كَثيرًا ما صَدَرَ مِنْ سَيِّدِ الْخَلْقِ الْبَشيرِ النَّذيرِ . أنْتَ تَتَوَسَّلُ إلى الشِّبَعِ بِالأكْلِ وَإلى الرِّيِّ بِالشُّرْبِ وَإلى الْوِلادَةِ بِزَواجِ النِّساءِ ، وَما مِنْ مَقْصِدٍ مِنْ مَقاصِدِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ إلاّ وَتَتَوَسَّلُ إلَيْهِ بِوَسيلَةٍ جَعَلَها لَهُ فاطِرُ السَّماءِ ، سُنَّةَ اللهِ تَعالَى في خَلْقِهِ اطَّرَدَتْ عَلَى جَعْلِ بَعْضِ الأشْياءِ وَسيلَةً لِبَعْضِ الأشْياءِ ، وَإذا كانَ الْفاعِلُ في الْجَميعِ رَبَّنا فَأيُّ غَرابَةٍ في كَوْنِ التَّوَسُّلِ بِالأوْلِياءِ سَبَبًا لِتَيْسيرِ الْعَسيرِ . الْوَلِيُّ عَبْدٌ ضَعيفٌ لا يَسْتَطيعُ فِعْلَ شَيْءٍ وَكُلُّ الّذي لَهُ أنَّهُ حَبيبُ اللهِ ، وَمَنْ أحَبَّ حَبيبَ اللهِ لأنَّ اللهَ يُحِبُّهُ أسْعَفَهُ رَبُّهُ بِما يَرْضاهُ ، وَإذا لَمَحْتَ أثَرًا لِوَلِيٍّ فَتَبَرَّكْ بِهِ وَاحْرِصْ عَلَيْهِ حِرْصَكَ عَلَى أنْفَسِ شَيْءٍ تَهْواهُ ، فَقَدْ شُرِبَ بَوْلُ الرَّسُولِ وَدَمُهُ وَكانَتْ تَفْلَتُهُ وَعَرَقُهُ وَماءُ وُضُوئِهِ يَتَناهَبُهُ الْكَبيرُ مِنَ الصَّحابَةِ وَالصَّغيرُ . ما أنْكَرَ الرَّسُولُ عَلَى مَنْ كانُوا يَتَناهَبُونَ ذلِكَ وَيَتَسابَقُونَ إلَيْهِ تَسابُقَ الْفُرْسانِ ، وَما أنْكَرَ عَلَى مَنْ كانَ إذا ظَفِرَ بِشَعْرَةٍ مِنْ شَعَراتِهِ أوْ بِقِطْعَةٍ مِنْ ثَوْبِهِ عَدَّها فَوْقَ الأثْمانِ ، وَلا لَوْمَ عَلَيْكَ إذا نادَيْتَ أيَّ وَلِيٍّ عِنْدَ حُلُولِ

كَارِثَةٍ مِنْ كَوَارِثِ الْأَزْمَانِ ، فَأَنْتَ تُنَادِى النَّاسَ كُلَّ يَوْمٍ لِلشَّدَائِدِ وَلَمْ يَعُدَّ هٰذَا قَادِحًا فِى تَوْحِيدِكَ رَجُلٌ خَبِيرٌ . شُدَّ رَحْلَكَ إِلَى زِيَارَةِ أَىِّ وَلِىٍّ حَيًّا أَوْ فِى رَوْضَةِ قَبْرِهِ الْفَيْحَاءِ ، وَأَنْتَ بِذٰلِكَ تَكُونُ فَاعِلاً مَا بِهِ تَهْمِى عَلَيْكَ الْبَرَكَاتُ لِصِلَتِكَ حَبِيبَ مَوْلَى الآلاَءِ ، وَأَمَّا حَدِيثُ شَدِّ الرِّحَالِ فَخَاصٌّ بِالْمَسَاجِدِ وَالْأَ حَرُمَ السَّفَرُ لِمِثْلِ طَلَبِ الْعِلْمِ أَوْ صِلَةِ الْأَقَارِبِ الْأَحْيَاءِ ، وَاجْزِمْ بِأَنَّ اللّٰهَ تَعَالَى كَمَا أَكْرَمَ الْأَوْلِيَاءَ بِذٰلِكَ فِى الدُّنْيَا يُكْرِمُهُمْ بِالشَّفَاعَةِ فِى الْيَوْمِ الْآخِرِ .

(حديث) سُئِلَ رَسُولُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنِ الْأَوْلِيَاءُ فَقَالَ الَّذِينَ إِذَا رُءُوا ذُكِرَ اللّٰهُ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ وَابْنُ أَبِى شَيْبَةَ وَابْنُ أَبِى حَاتِمٍ وَالْبَزَّارُ وَابْنُ الْمُنْذِرِ .

٦٨ — الطاعات وما توصل إليه

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى مَنْ تَعَوَّدَ طَاعَتَهُ نَالَ دَرَجَاتِ الْأَحْبَابِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللّٰهُ الَّذِى إِذَا أَحَبَّ أَمْرًا أَحْسَنَ إِلَيْهِ بِلاَ حِسَابٍ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَيْرُ مَنْ حَافَظَ عَلَى الْفَرَائِضِ وَالآدَابِ ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِى الْكَرَامَاتِ الْبَاهِرَاتِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّٰهِ : إِنَّ اللّٰهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ جَعَلَ فِعْلَهَا حَتْمًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَنَدَبَ إِلَى نَوَافِلَ زَائِدَةٍ عَنِ الْفَرَائِضِ كُلِّهَا

خيرٌ للعاملين ، وهذه وهذه يُحِبُّ ربُّنا أنْ يتقرّبَ بها إليه جميعُ المُكلَّفين ، لكنِ التقرُّبُ إليه بالفرائضِ أحبُّ إليه مِنَ التقرُّبِ بالنّوافلِ الزّائدات . ولو اقتصرَ المؤمنُ على الفرائضِ كانَ قائمًا بما يَرْضى عنهُ مولاه ، فيكونُ يومَ تُبلَى السّرائرُ آمِنًا مِمّا يَخافُ منهُ العُصاه ، ويكونُ جديراً بدارِ الكرامةِ لهُ فيها ما تقرُّ بهِ عيناه ، فإنّهُ لمْ يُخالِفْ ربَّهُ بلْ قامَ بما وجبَ عليهِ مِنْ تكاليفهِ المُحترَمات . ويزدادُ العبدُ فضلاً إذا أضافَ إلى تلكَ الفرائضِ ما تيسّرَ لهُ مِنْ أنواعِ النّوافلِ ، كأنْ يُصلّيَ نفلاً ويصومَ ويتصدّقَ ويحُجَّ ويكونَ ذاكراً غيرَ غافلٍ ، فإذا صارَ ذلكَ مِنْ عاداتهِ يفعلُهُ بهمّةِ النّشطِ لا بفتورِ المُتكاسلِ ، أحبّهُ ربُّهُ عزّ وجلّ حُبًّا يترتّبُ عليهِ ما يترتّبُ مِنْ شتّى الكرامات . إنْ سألَهُ فعلَ أيِّ محبوبٍ أجابهُ في الحالِ بما أحبّ ، وإنْ طلبَ منهُ دفعَ أيِّ مكروهٍ أقرَّ عينَهُ في الوقتِ بما طلب ، بلْ لوْ أقسمَ عليهِ ليفعلَنَّ كذا أبرَّ قسمَهُ وليسَ في ذلكَ عجب ، فإنّهُ حبيبُهُ والمحبّةُ تأبى إلاّ إسعافَ المحبوبِ بما لهُ مِنْ رغبات . وإنْ شئتَ أنْ يكونَ هذا عندكَ في مرتبةِ حقِّ اليقين ، فأدِّ الفرائضَ واعتدْ فعلَ النّوافلِ سالكاً في ذلكَ منهجَ المُخلصين ، إنْ فعلتَ هذا رأيتَ مِنْ أنواعِ برِّهِ مالا تستبيحُ حكايتَهُ للكثيرين ، لِما أنّهُ يكونُ مِنَ العظمِ بالدّرجةِ الّتي لا يُطيقُ سماعَها إلاّ ذوو الدّرجاتِ

السَّامِيَات ، إِنَّ كَثِيراً مِمَّنْ عَمِيَتْ بَصَائِرُهُمْ يَضْحَكُونَ مِنْ هٰذَا وَيَسْتَنْكِرُونَهُ كُلَّ الِاسْتِنْكَار ، وَهُمْ مَعْذُورُونَ فِى ذٰلِكَ فَإِنَّ الْأَعْمَى يُنْكِرُ الشَّمْسَ فِى رَابِعَةِ النَّهَار ، إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِهٰذَا رَجُلٌ صَفَتْ سَرِيرَتُهُ وَعَرَفَ مَا لِلطَّاعَاتِ مِنْ أَسْرَار ، فَلَزِمَهَا فَرَائِضَ وَنَوَافِلَ حَتَّى وَصَلَ لِدَرَجَةِ الْمَحْبُوبِيَّةِ لِبَارِىءِ الْكَائِنَات .

(حديث) إِنَّ اللّٰهَ تَعَالَى قَالَ : مَنْ عَادَى لِى وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَىَّ عَبْدِى بِشَىْءٍ أَحَبَّ إِلَىَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِى أَعْطَيْتُهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَ بِى لَأُعِيذَنَّهُ . رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ .

٦٩ — ماذا يفعل الاقبال على الدنيا والاعراض عن الآخرة

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى إِنَّمَا يُسْعِدُ مَنْ هَمُّه حَيَاةُ الْأَبَدِ لَا حَيَاةُ الْفَنَاء ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ الَّذِى إِنَّمَا يُبَارِكُ فِى حَيَاةِ الْأَتْقِيَاء ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى لَمْ تَفُزِ الدُّنْيَا مِنْهُ بِلَفْتَةِ اعْتِنَاء ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْمُتَّقِينَ الْأَوْفِيَاء .

(أمّا بعدُ) فيا عبدَ الله : لقد أصبحَ النَّاسُ وما يتعلّقُ بالدُّنيا أهمُّ عندهم ممّا يتعلّقُ بالدّين ، ولذلك لا تراهم في ليلهم ونهارهم إلاّ مشغولين بالدُّنيا شغلَ العاشقين المستغرقين ، وأمّا الدّينُ فلا يخطرُ على بالهم وإن خطرَ فطيفٌ يمرُّ مرورَ المستعجلين ، ولعلّكَ معي في أنّ هذه الحالةَ لا تتّفقُ مع الإيمانِ بحياةِ الجزاء . نعم أنا أصارحُكَ القولَ بأنّ الشيطانَ بلغَ في تهوينِ الدّينِ عندنا غايةَ المراد ، وهل تشكُّ في ذلك وأنت ترى المرءَ يرتدُّ عن دينه فلا يُسألُ عن هذا الارتداد ، ولذلك نزعَ الله البركةَ من أعمارِنا وأعمالنا وأموالنا والأولاد ، وأصبحنا وقد ضربَ الذُّلُّ سرادقَهُ علينا ونحنُ كأنّا لسنا من الأحياء . أمّا عدمُ البركةِ في أعمارنا فلأنّ أحدنا يمرُّ عليه الشهرُ والعامُ بل وعشراتُ الأعوام ، ولو سألتَه هل لكَ من حياتكَ أثرٌ نافعٌ لتلجلجَ في الكلام ، ينظرُ وراءهُ فلا يجدُ أثراً ويتبيّنُ له أنّ الأيامَ مرّتْ سُدًى تتلوها الأيام ، ومن أجلِ هذا يتلعثمُ خجلاً من جوابٍ يتضمّنُ له من العارِ ما يُفزعُ العقلاء . هذا عدمُ البركةِ في أعمارِنا وأمّا عدمُ البركةِ فيما لنا من أعمال ، فلأنّ أحدنا ما دامَ مستيقظاً يتحركُ ولا تنقطعُ أقوالُهُ ولا الأفعال ، وكلُّها تدورُ بينَ حرامٍ أو مكروهٍ أو عبثٍ لا يليقُ أنْ يصدرَ من رجال ، وأمّا الخيرُ فلا يعرفُهُ وبهذا كانت أعمالُنا لا بركةَ فيها دونَ أيِّ مراء . وأمّا عدمُ

الْبَرَكَةِ فِى أَمْوَالِنَا فَلِأَنَّ الْوَاحِدَ مِنَّا يَكُونُ عِنْدَهُ مِنَ الْمَالِ الشَّىْءُ الْكَثِيرُ، وَتَرَاهُ يُبَعْثِرُهُ فِى سَبِيلِ شَهَوَاتِهِ الْفَاجِرَةِ أَوْ يَكْنِزُهُ وَلَا يَرَاهُ صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ، وَلَوْ دَعَوْتَهُ إِلَى سَبِيلِ خَيْرٍ فَرَّ مَذْعُوراً وَلَوْ إِلَى الزَّكَاةِ حَقِّ الْفَقِيرِ، وَأَىُّ بَرَكَةٍ فِى مَالٍ يَغْضَبُ عَلَى صَاحِبِهِ رَبُّهُ وَيُدْخِلُهُ النَّارَ دَارَ أَهْلِ الْجَفَاءِ. وَأَمَّا عَدَمُ الْبَرَكَةِ فِى أَوْلَادِنَا فَلِأَنَّهُمْ فِى صِغَرِهِمْ يَكُونُونَ شَيَاطِينَ يُتْعِبُونَ فِى التَّرْبِيَةِ آبَاءَهُمْ وَالْأُمَّهَاتِ، فَإِذَا شَبُّوا شُغِلُوا بِشَهَوَاتِهِمْ عَمَّا يَجِبُ لِلْوَالِدَيْنِ مِنْ صُنُوفِ الْبِرِّ وَالْكَرَامَاتِ، وَأَكْثَرُهُمْ يَكُونُ طُولَ حَيَاتِهِ حَرْباً عَلَى وَالِدَيْهِ يُرِيهِمَا مَا يُرِيهِمَا مِنْ أَنْوَاعِ الْإِهَانَاتِ، وَأَىُّ بَرَكَةٍ فِى أَوْلَادٍ هٰذَا حَالُهُمْ مَعَ الْأُمَّهَاتِ وَالْآبَاءِ. إِنَّ نَزْعَ الْبَرَكَةِ مِنْ كُلِّ ذٰلِكَ عِقَابٌ لَنَا عَلَى إِقْبَالِنَا عَلَى الدُّنْيَا وَإِعْرَاضِنَا عَنِ الدِّينِ، وَذٰلِكَ إِنْذَارٌ لَنَا بِأَنَّ عِقَابَنَا عَلَى ذٰلِكَ فِى الْآخِرَةِ يَكُونُ أَشَدَّ إِنْ لَمْ نَتُبْ إِنَابَةَ الصَّادِقِينَ، فَيَا أَيُّهَا الْمُحِبُّ لِلْآخِرَةِ وَيَا أَيُّهَا الْمُحِبُّ لِلدُّنْيَا تُبْ إِلَى اللّٰهِ وَأَقْبِلْ عَلَى الدِّينِ وَحَسْبُكَ مِنَ الدُّنْيَا زَادُ الْمُسَافِرِينَ، وَإِنْ أَبَيْتَ إِلَّا مَا أَنْتَ عَلَيْهِ فَلَا تَلُمْ إِلَّا نَفْسَكَ إِذَا أَصَابَكَ مَا يُصِيبُ الْأَشْقِيَاءَ.

(حديث) إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً وَفِتْنَةُ أُمَّتِى الْمَالُ. رَوَاهُ التِّرْمِذِىُّ وَالْحَاكِمُ.

٧٠ ـ الصلاة

الحَمْدُ للهِ الَّذِى جعلَ الصَّلاَةَ كَنهرٍ يغتَسِلُ فيهِ أحدُنَا فِى اليَوْمِ الْوَاحِدِ خَمْسَ مرّاتٍ ، وأَشْهَدُ أنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةَ مَنْ رَاعَاهَا لاَ يُقصِّرُ فِى أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ ، وَأَشْهدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى كَانَتْ قُرَّةُ عَيْنِهِ فِى هٰذِهِ الصَّلَوَاتِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ لاَ يَلْوِى إِلاَّ إِلَى الصَّالِحَاتِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَاعَبْدَ اللهِ : لَقَدْ تَغَيَّرَ النَّاسُ الْيَوْمَ فِى أَحْوَالِهِمُ الدِّينِيَّةِ تَغَيُّراً يُدْهِشُ النَّاظِرِينَ ، تَغَيُّراً مَنْ أَنْعَمَ النَّظَرَ فيه ظَنَّ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ فَرِيقِ الْمُؤْمِنِينَ ، هٰذِهِ الصَّلاَةُ ـ وَهِىَ عَمُودُ الإِسْلاَمِ ـ أَعْرَضُوا عَنْهَا غَيْرَ نَادِمِينَ وَلاَ مُكْتَرِثِينَ ، جَهِلُوا مَاهِىَ الصَّلاَةُ وَأَىُّ قِيمَةٍ قِيمَتُهَا وَمَا مَنْزِلَتُهَا بَيْنَ سَائِرِ الطَّاعَاتِ . لِتَعْلَمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ أَنَّ الصَّلاَةَ خَيْرُ مَوْضُوعٍ وُضِعَ لِلتَّقَرُّبِ إِلَى الرَّحْمٰنِ ، فَلَيْسَ فِى صَالِحَاتِ الإِسْلاَمِ كُلِّهَا خَيْرٌ مِنْهَا سِوَى الإِيمَانِ ، وَلِذٰلِكَ هِىَ تُطَهِّرُ الْمُصَلِّىَ مِنْ جَمِيعِ ذُنُوبِهِ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ كَالزِّنَا وَالْبُهْتَانِ ، وَيَزِيدُكَ مَعْرِفَةً بِهَا أَنْ تَعْرِفَ فَضْلَ مَا لَهَا مِنْ مُتَعَلَّقَاتٍ . ذٰلِكَ أَنَّكَ إِنْ تَوَضَّأْتَ لَهَا ذَهَبَتْ ذُنُوبُ أَعْضَاءِ وُضُوئِكَ مَعَ ذَهَابِ الْمَاءِ ، فَإِذَا تَشَهَّدْتَ بَعْدَ الْوُضُوءِ فُتِحَتْ لَكَ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ تَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا تَشَاءُ ، فَإِذَا مَشَيْتَ إِلَى

الْمَسْجِدِ كَانَ لَكَ بِكُلِّ خَطْوَةٍ تَخْطُوهَا خَطِيئَةٌ تُحَطُّ وَدَرَجَةٌ تُرْفَعُ فِي دَارِ الْجَزَاءِ ، فَإِذَا انْتَظَرْتَ الصَّلَاةَ كُنْتَ فِي صَلَاةٍ مَا انْتَظَرْتَهَا لَكَ مَا لِلْمُصَلِّي مِنْ حَسَنَاتٍ ، وَأَمَّا الْمُؤَذِّنُونَ لَهَا فَيَشْهَدُ لَهُمْ كُلُّ مَا يَسْمَعُهُمْ حَتَّى مِثْلُ الْأَشْجَارِ وَالْأَحْجَارِ ، وَيَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَطْوَلَ النَّاسِ أَعْنَاقًا وَبِهَذَا يَعْرِفُهُمُ النُّظَّارُ ، وَمَنْ قَالَ مِثْلَ مَا يَقُولُونَ ثُمَّ دَعَا فِي النِّهَايَةِ أُجِيبَ مَهْمَا سَأَلَ مِنْ أَوْطَارٍ ، وَأَمَّا تَنْظِيفُ الْمَسَاجِدِ فَهُوَ مَهْرُ الْحُورِ الْعِينِ فِي الْجَنَّاتِ . وَمَنْ بَنَى لِهَذِهِ الصَّلَاةِ مَسْجِدًا فَجَزَاؤُهُ قَصْرٌ يُبْنَى لَهُ فِي الْجَنَّةِ دَارِ النَّعِيمِ ، هَذَا قَلِيلٌ مِنْ فَضْلِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا وَكُلُّهُ عَنْ نَبِيِّكَ فَانْظُرْ مَا فَضْلُهَا هِيَ أَيُّهَا الرَّجُلُ الْفَهِيمُ ، وَلِمَا أَنَّهَا بِهَذَا الْقَدْرِ كَانَ جَزَاءُ مَنْ تَثَاقَلَ عَنْهَا أَنْ يُهَشَّمَ دِمَاغُهُ ثُمَّ يَعُودُ فَيَعُودُ هَذَا التَّهْشِيمُ ، وَكَانَ تَارِكُهَا كَافِرًا عِنْدَ بَعْضِ الْأَئِمَّةِ يُقْتَلُ كُفْرًا إِنْ لَمْ يَتُبْ وَيُخَلَّدُ فِي دَارِ الْحَسَرَاتِ . هَذِهِ الصَّلَاةُ الَّتِي بِهَذَا الْقَدْرِ أَضَاعَهَا النَّاسُ فِي هَذَا الزَّمَانِ ، فَبَعْضُنَا يَفْعَلُهَا بَاطِلَةً وَبَعْضُنَا نَسِيَهَا كُلَّ النِّسْيَانِ ، وَبَعْضُنَا يَسْتَغْفِلُ فَاعِلَهَا وَيَضْحَكُ عَلَى عَقْلِهِ وَيَسْخَرُ بِهِ بَيْنَ الْإِخْوَانِ ، دَعْكَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ يَا هَذَا وَأَدِّهَا كَمَا يَنْبَغِي تَحْظَ بِمَا أُعِدَّ لِفَاعِلِيهَا مِنْ كَرَامَاتٍ .

(حديث) أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ ؟ قَالُوا لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ

قالَ فَذٰلِكَ مثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللّٰهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

(آخر) الْعَهْدُ الَّذِى بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا (١) فَقَدْ كَفَرَ . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَأَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ وَابْنُ حِبَّانَ.

٧١ ـ الزكاة

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى فَرَضَ رُبُعَ الْعُشْرِ فى نَقْدٍ بَلَغَ نِصَاباً وَمَضَى عَلَيْهِ عَامٍ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ الَّذِى أَوْجَبَ الْعُشْرَ أَوْ نِصْفَهُ فِيمَا أَخْرَجَهُ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ إِنْعَامٍ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى عَلَّمَنَا مَا لِزَكَاةِ أَمْوَالِنَا مِنْ أَحْكَامٍ ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَعَلَى كُلِّ عَبْدٍ عَلَى الْخَيْرِ مِقْدَامٍ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّٰهِ : لَمْ يَبْقَ مِنْ شَكٍّ فى أَنَّ أَغْنِيَاءَنَا تَرَكُوا فَرِيضَةَ الزَّكَاةِ مِنْ زَمَنٍ بَعِيدٍ ، تَرَكُوهَا وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْمُبَالَاةِ بِتَرْكِهَا وَلَا بِمَا لَهُ مِنْ وَعِيدٍ ، لَا يُوَاسِي أَحَدُهُمْ فَقِيراً بِحَبَّةٍ مِمَّا خَرَجَ مِنَ الْأَرْضِ وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يُؤَدِّيَ حَقَّهُ لِفُقَرَاءِ الْعَبِيدِ ، وَلَا يَمْنَحُ بَائِساً فَلْساً وَعِنْدَهُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ آلَافٌ مَرَّتْ عَلَيْهَا

---

(١) أى مستحلا تركها فاهما أن لا شىء فيه، هذا ماعليه الجمهور، وبعضهم أخذ بظاهره فحكم بالكفر على من ترك الصلاة وهو يوقن أنها أحد أركان الاسلام .

عشَرَاتُ الأَعْوَام . هٰذِهِ حَالَةٌ يُخْشَى عَلَى صَاحِبِهَا أَنْ يَكُونَ مِنْ فَرِيقِ الْكُفَّار ، فَإِنَّ الْكَافِرَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِى لَا يُبَالِى بِفِعْلِ كَبَائِرِ الأَوْزَار ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَلِهَفْوَةٍ صَغِيرَةٍ يَكَادُ يَقْتُلُهُ الرُّعْبُ مِنْ رَبِّهِ الْعَلِيمِ الْقَهَّار ، وَإِذَا كَانَ هٰذَا حَالَهُ لِهَفْوَةٍ فَكَيْفَ لَا يُبَالِى بِتَرْكِ أَحَدِ أَرْكَانِ الإِسْلَام . لِيَعْلَمِ الأَغْنِيَاءُ أَنَّهُمْ بِمَنْعِ الزَّكَاةِ بَرْهَنُوا عَلَى أَنَّهُمْ أَشِحَّاءُ ضَنِينُون ، وَأَهْلُ الشُّحِّ أَيْنَمَا كَانُوا وَمَتَى وُجِدُوا ثَقِيلٌ ظِلُّهُمْ عِنْدَ النَّاسِ وَمُبْغَضُون ، وَلِذٰلِكَ تَسْمَعُ مِنْ وَقْتٍ لِآخَرَ أَنْ قَدْ سَطَا عَلَيْهِمْ مَنْ يَنْهَبُ مِنْهُمْ مَا يَمْلِكُون ، وَكَثِيرًا مَا تَسْمَعُ أَنَّهُمْ قُتِلُوا وَمَا قُتِلُوا إِلَّا لِهٰذَا الشُّحِّ وَصْفِ اللِّئَام . هٰذَا حَالُهُمْ عِنْدَ النَّاسِ وَأَمَّا عِنْدَ اللّٰهِ فَشَىْءٌ تَنْصَدِعُ لَهُ الْقُلُوبُ وَتَنْهَمِرُ الْعُيُون ، فَإِنَّ أَمْوَالَهُمْ تَارَةً تُمَثَّلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِثَعَابِينَ هَائِلَةٍ تَنْهَشُ فِى أَشْدَاقِهِمْ وَهُمْ بِهَا مُطَوَّقُون ، وَتَارَةً تُمَثَّلُ بِصَفَائِحَ أُحْمِىَ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَيَذُوقُونَ مِنَ الْكَىِّ بِهَا مَا يَذُوقُونَ ، وَتَارَةً يُعَذَّبُونَ بِحِجَارَةٍ مُحْمَاةٍ تُوضَعُ عَلَى أَثْدَائِهِمْ فَتَخْرُجُ مِنْ أَكْتَافِهِمْ وَبِالْعَكْسِ وَهِىَ آلَامٌ جِسَام . لِيَتَمَادَ الأَغْنِيَاءُ عَلَى مَنْعِ الزَّكَاةِ إِنِ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَتَحَمَّلُوا هٰذَا الْعَذَابَ الأَلِيم ، وَلْيَذُوقُوا مَعَهُ عَذَابَ جَهَنَّمَ فَإِنَّ مَانِعَ الزَّكَاةِ فِى النَّارِ كَمَا قَالَ الرَّسُولُ الْكَرِيم ، وَقَدْ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا إِنْ كَانُوا يَسْتَحِلُّونَ ذٰلِكَ الْمَنْعَ الْخَبِيثَ الذَّمِيم ، إِذَنْ مَانِعُ الزَّكَاةِ شَقِىٌّ فِى الدُّنْيَا شَقِىٌّ فِى الآخِرَةِ وَهُوَ حُكْمٌ

يطيش الأحلام . أد الزكاة أيها الغني يحبك الناس لأنها بر إليهم وإحسان ، وتعش بينهم آمنا يدعون لك بالمزيد لتزيدهم من إحسانك الهتان ، ويحبك الله تعالى ومن أحبه الله عاش ومات وبعث فى خير وفى أمان ، ولعلك بعد هذا لا تتردد فى إخراج الزكاة لينزاح عنك الشقاء وتكون من أهل الفوز الكرام .

(حديث) ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها فى نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . رواه البخارى ومسلم من حديث.

(آخر) مانع الزكاة يوم القيامة فى النار . رواه الطبرانى فى الأوسط .

٧٢ — من هم خاصة ربنا

الحمد لله الذى ما ركن إليه أحد إلا نجح فى داريه النجاح الباهر ، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة عباد الله الموقنين الأكابر ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله صفوة الأوائل والأواخر ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ذوى القدر الكبير .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى عِبَاداً عَرَفُوهُ فَلَاذُوا بِهِ فِي كُلِّ حَالٍ ، فَوَجَدُوا مِنْ لُطْفِهِ وَرِعَايَتِهِ مَا لَا يَجِدُهُ مِنَ الْأُمَّهَاتِ الْأَطْفَالُ ، فَلَزِمُوا بَابَهُ ثُمَّ لَزِمُوهُ فَعَاشُوا فِي أَحْضَانِ كَرَمِهِ لَا تُزْعِجُهُمْ قَلَاقِلُ وَلَا أَهْوَالٌ ، وَهٰكَذَا يَكُونُ كُلُّ مَنْ لَاذَ بِهٰذَا اللَّطِيفِ الشَّكُورِ الْخَبِيرِ . نَعَمْ لَزِمُوا بَابَهُ وَمَا بَرِحُوا هٰذَا الْحِمَى يَوْماً مِنَ الْأَيَّامِ ، يَسْكُبُونَ الْعَبَرَاتِ وَيُرَدِّدُونَ الزَّفَرَاتِ مَخَافَةَ أَنْ يُعْزَلُوا عَنْ هٰذَا الْمَقَامِ ، يُكَابِدُونَ صِيَامَ الْأَيَّامِ وَيُعَانُونَ قِيَامَ اللَّيَالِي فِي رُكُوعٍ وَسُجُودٍ وَقِيَامٍ ، هُمْ فِي نَاحِيَةٍ وَالشَّيْطَانُ وَجُنُودُهُ فِي نَاحِيَةٍ وَالْجِهَادُ بَيْنَهُمَا جِهَادُ عَدُوٍّ قَدِيرٍ . لِذٰلِكَ هَدَى تَعَالَى قُلُوبَهُمْ فَسَكَنَتْ لِمَجَارِي أَفْعَالِهِ وَإِنْ تَحَرَّكَتِ الْجِبَالُ ، وَحَفِظَ جَوَارِحَهُمْ فَمَا مَالَتْ يَوْماً إِلَّا لِمَا يُرْضِيهِ مِنْ أَفْعَالٍ ، وَأَعَزَّهُمْ بَيْنَ خَلْقِهِ عِزّاً قُلْ مَا تَشَاءُ عَنْهُ وَلَا حَرَجَ عَلَيْكَ فِي هٰذَا الْمَقَالِ ، وَذَلَّلَ لَهُمْ مَا صَعُبَ عَلَى غَيْرِهِمْ وَيَسَّرَ لَهُمْ أَرْزَاقَهُمْ كُلَّ التَّيْسِيرِ . حَبَّبَهُمْ إِلَى الْقُلُوبِ وَإِنْ بَعُدَتْ أَشْبَاحُهُمْ عَنْ تِلْكَ الْقُلُوبِ ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَسْرَارِهِ مَا لَوْ ذَاقَهُ الْمُلُوكُ لَشَقُّوا عَلَى حِرْمَانِهِمْ مِنْهُ الْجُيُوبَ ، وَأَطْلَعَهُمْ عَلَى مَا سَيَكُونُ لَهُمْ لِيَفْرَحُوا بِفَضْلِهِ وَلَا تُفْزِعُهُمْ فَجَآتُ الْكُرُوبِ ، إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الْمِنَحِ الَّتِي لَا تُحْصَى وَلَا يُحِيطُ بِهَا تَعْبِيرٌ . هُمْ عَبِيدُهُ ، هُمْ أَحْبَابُهُ ، هُمْ خَاصَّتُهُ مِنَ الْكَائِنَاتِ ، كَانُوا لَهُ فَكَانَ لَهُمْ وَأَطَاعُوهُ فَأَطَاعَهُمْ وَأَرْضَوْهُ

فَأرْضَاهُمْ بِفُيُوضَاتِهِ الْمُنْهَمِرَاتِ ، هُمْ مَوْجُودُونَ بَيْنَنَا وَلَكِنْ مَنْ يَعْرِفُ مَا بَيْنَ مَلِكِ الْمُلُوكِ وَخَاصَّتِهِ مِنْ مَوَدَّاتٍ ، فَهَلْ لَكَ يَا هَذَا أَنْ تَلُوذَ بِهِ كَمَا لاَذُوا لِتُكْرَمَ بِمَا أُكْرِمُوا بِهِ مِنْ خَيْرٍ كَثِيرٍ .

(حديث) عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَلاَ أُخْبِرُكَ عَنْ مُلُوكِ الْجَنَّةِ ؟ قُلْتُ بَلَى ، قَالَ : رَجُلٌ ضَعِيفٌ مُسْتَضْعَفٌ ذُو طِمْرَيْنِ (١) لاَ يُؤْبَهُ (٢) لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ . رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه .

٧٣ — أين الناس اليوم من المؤمن حقا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ صَالِحَ الْعَمَلِ جَمَالاً لِلْمَرْءِ لاَ يُسَامِيهِ جَمَال ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ الَّذِي نَهَى وَشَدَّدَ فِي النَّهْيِ عَنْ قَبِيحِ الْأَفْعَال ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَكْمَلُ الْخَلْقِ بِآدَابِهِ الْعَوَال ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ حَرِيصٍ عَلَى الْخَيْرَاتِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللَّهِ : يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ حَقًّا أَنَّ سَعَادَتَهُ الدُّنْيَوِيَّةَ وَالْأُخْرَوِيَّةَ فِي صَالِحَاتِ الْأَعْمَال ، وَيَعْلَمُ بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ هَذِهِ السَّعَادَةِ أَنَّ عَمَلَ هَذِهِ الصَّالِحَاتِ كَمَال ، وَيَعْلَمُ فَوْقَ هَذَا أَنَّ لُزُومَ الصَّالِحَاتِ حِصْنٌ عَظِيمٌ يَقِي مِنَ الْأَهْوَال ، فَلِعِلْمِهِ هَذَا لاَ تَرَاهُ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ يَسْمَحُ بِتَرْكِ عَمَلٍ مِنَ الصَّالِحَاتِ . إِنْ بَدَا لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ فِي الدَّمَاء

(١) ثوبين باليين ،
(٢) لا يلتفت إليه ولا يعتنى به .

أُشْتَدَّ حِرْصُهُ عَلَيْهِ وَإِلَيْهِ طَارَ ، وَإِنْ سَنَحَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ تَحْتَ الأَرْضِ عَانَاهُ حَتَّى قَضَى مِنْهُ الأَوْطَارَ ، صَعُبَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَرَى عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يَتَجَمَّلُ بِهِ لِلْخَالِقِ الْمُخْتَارِ ، وَمَنْ بِهِ ذَرَّةٌ مِنَ الْعَقْلِ يَتْرُكُ زِينَةً هِيَ أَجْمَلُ الزِّينَاتِ . إِذَا كَانَ الأَمْرُ هٰكَذَا فَقُلْ لِي مَا الَّذِي جَرَى فِي هٰذَا الزَّمَانِ ، أَذَهَبَتْ عُقُولُ النَّاسِ فَأَصْبَحُوا مَجَانِينَ لاَ يُدْرِكُونَ هٰذَا الْمَعْنَى الْوَاضِحَ الْبُرْهَانِ ، أَمْ جَاءَ دِينٌ جَدِيدٌ يُحَرِّضُ النَّاسَ عَلَى عَدَمِ احْتِرَامِ الأَدْيَانِ ، أَمْ فَسَدَتِ الأَمْزِجَةُ فَأَصْبَحَتْ تَرَى الْقَبِيحَ جَمِيلاً وَتَرَى الْجَمِيلَ مِنَ الْقَبِيحَاتِ . إِنَّ ذٰلِكَ هُوَ الَّذِي كَانَ فَيَا حَسْرَتَا عَلَى أَبْنَاءِ هٰذِهِ الأَيَّامِ ، وَإِنْ لَمْ تُصَدِّقْ فَانْظُرْ جُيُوشَ الْمُتَفَرِّجِينَ عَلَى الْمُغَنِّيَاتِ وَالرَّاقِصَاتِ عَارِيَاتِ الأَجْسَامِ ، أَوِ انْظُرْ زُمَرَ الْهَائِمِينَ فِي الشَّوَارِعِ وَرَاءَ النِّسَاءِ الْهَائِمَاتِ أَشْنَعَ هُيَامٍ ، أَوِ انْظُرْ مَنِ اسْتَغْنَوْا بِالنِّسَاءِ الْعُمُومِيَّاتِ عَنِ الْحَرَائِرِ الْحَلِيلاَتِ . وَلاَ تَنْسَ مَنْ هَجَرُوا بُيُوتَ اللهِ تَعَالَى وَعَمَرُوا الْحَانَاتِ بُيُوتَ الشَّيَاطِينِ ، وَلاَ تَنْسَ مَنِ اسْتَخَفُّوا بِحَرْبِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَهُمْ جَمَاعَةُ الْمُرَابِينَ ، وَتَذَكَّرِ الْوُحُوشَ قَتَلَةَ النُّفُوسِ وَأَكَلَةَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ حَتَّى أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ، وَلاَ يَغِبْ عَنْ بَالِكَ الأَلْسِنَةُ الضَّارِيَةُ الَّتِي تَنْهَشُ دَائِمًا فِي أَعْرَاضِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ . وَلَقَدْ تَرَكُوا حَتَّى حُقُوقَ الأُخُوَّةِ مَعَ مَا فِيهَا مِنْ عَظِيمِ

الثَّوَاب ، فَلَوْ لَمْ تَزُرْ أَخَاكَ لاَ يَزُورُكَ وَلَوْ لَمْ تعزه لاَ يُعَزِّيكَ حَتَّى فِي أَكْبَرِ مُصَاب ، وَلَوْ لَمْ تُهَنِّئْهُ لاَ يُهَنِّئُكَ وَلَوْ لَمْ تُسَلِّمْ عَلَيْهِ رَأَيْتَهُ لَكَ فِي اجْتِنَاب ، وَهٰكَذَا خَرَجَتْ هٰذِهِ الحُقُوقُ مِنْ بَابِ الصَّالِحَاتِ إِلَى بَابِ المُبَادَلاَت . لَمْ يَتْرُكِ النَّاسُ فَقَطْ صَالِحَ الْعَمَلِ الَّذِي هُوَ كَمَالُهُمْ وَجَمَالُهُمْ وَسَعَادَتُهُمُ الأَبَدِيَّة ، بَلْ فَعَلُوا - كَمَا سَمِعْتَ - أَشْنَعَ الأَفْعَالِ حَتَّى تَجَاهَرُوا بِالْكُفْرِ بِرَبِّ الْبَرِيَّه ، مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ ضَرَبَنَا اللهُ بِمَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ الذُّلِّ وَلاَ نَدْرِي مَا الْبَقِيَّه ، فَهَلْ لَنَا أَنْ نَتُوبَ مِنْ كُلِّ هٰذَا وَنُرْضِيَ رَبَّنَا بِالصَّالِحَاتِ لِيُرْضِيَنَا بِعِنَايَاتِهِ الْبَاهِرَات .

(حديث) يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

٧٤ — اهل الجنة وأهل النار

الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَعَدَّ الجَنَّةَ لِمَنْ لَزِمَ الأَدَبَ مَعَهُ وَمَعَ الْعِبَاد ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ الَّذِي أَعَدَّ النَّارَ لِمَنِ اسْتَهَانَ بِأَوَامِرِهِ وَنَسِيَ يَوْمَ التَّنَاد ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَفْوَةُ أَهْلِ الرَّشَادِ وَالإِرْشَاد ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الطِّرَازِ الأَوَّلِ مِنَ الأَخْيَار .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : كُلُّنَا يُحْسِنُ الظَّنَّ بِنَفْسِهِ فَيَظُنُّ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجِنَان ، وَكُلُّنَا يُنَزِّهُ نَفْسَهُ فَيَرْفَعُ قَدْرَهَا عَنْ أَنْ تَكُونَ

مِنْ أَهْلِ النِّيرَانِ ، هٰذِهِ دَعْوَى وَالدَّعَاوَى كَاذِبَةٌ إِنْ لَمْ يَقُمْ عَلَيْهَا الْبُرْهَانُ ، فَهَلْ لَدَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا مَا يُبَرْهِنُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَا النَّارِ ، إِنِّي ذَاكِرٌ لَكَ صِفَاتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَصِفَاتِ أَهْلِ النَّارِ . لِتَكُونَ مِيزَانًا يَتَمَيَّزُ بِهِ فَرِيقُ الْأَخْيَارِ مِنْ فَرِيقِ الْأَشْرَارِ . فَاعْرِضْ نَفْسَكَ عَلَى ذٰلِكَ الْمِيزَانِ عَرْضَ ذَوِي الْإِنْصَافِ الْأَحْرَارِ . وَبَعْدَ ذٰلِكَ احْكُمْ عَلَيْهَا حُكْمَ مُحَقِّقٍ لَا حُكْمَ اغْتِرَارٍ . أَمَّا أَهْلُ الْجَنَّةِ فَقَوْمٌ عَرَفُوا أَنَّ هٰذِهِ الدَّارَ دَارُ فَنَاءٍ لَا دَارُ بَقَاءٍ ، وَعَرَفُوا أَنَّ دَارَ الْبَقَاءِ دَارٌ أُخْرَى هِيَ دَارُ الْجَزَاءِ ، فَعَاشُوا بَيْنَ الْعِبَادِ لَمْ يَتَكَبَّرُوا لِسَرَّاءَ وَلَمْ يَتَضَعُوا لِضَرَّاءَ ، هُمْ رَاضُونَ عَنِ اللّٰهِ تَعَالَى وَإِنْ أَحَاطَتْ بِهِمْ كُلُّ الْمَضَارِّ . أَقْبَلُوا عَلَى الْعِلْمِ فَتَعَلَّمُوا مِنْهُ مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ، لَمْ يَرْتَضُوا الْجَهْلَ يَعِيشُونَ بِهِ كَمَا يَعِيشُ الْبَهِيمُ ، ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَى الْعَمَلِ فَعَمِلُوا مِنْهُ مَا يُرْضِي رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، فَهِمُوا أَنَّهُمْ عَبِيدٌ فَخَدَمُوا مَوْلَاهُمْ خِدْمَةَ الْعَبِيدِ الْأَبْرَارِ . كُلُّهُمْ مَنْفَعَةٌ لِخَلْقِ اللّٰهِ تَعَالَى لَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ لِمَخْلُوقٍ أَدْنَى إِيذَاءٍ ، هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ لَا يَعْرِفُونَ الْغِلْظَةَ عَلَى الْخَلْقِ وَلَا الْجَفَاءَ ، مَحْفُوظَةٌ أَسْمَاعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ وَكُلُّ جَوَارِحِهِمْ عَمَّا يُغْضِبُ رَبَّ الْآلَاءِ ، وَإِذَا هَفَوْا بَادَرُوا بِالْاعْتِذَارِ إِلَى رَبِّهِمْ الَّذِي بِكَرَمِهِ يَقْبَلُ مِنْهُمْ هٰذَا الِاعْتِذَارَ . وَأَمَّا أَهْلُ النَّارِ فَقَوْمٌ أَعْرَضُوا عَمَّا لَهُ خُلِقُوا

وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهِمُ الْغَفَلَاتُ ، أَطَاعُوا شَهَوَاتِهِمْ وَعَصَوْا رَبَّهُمْ وَتَعَالَوْا عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ ، ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ رَكَنُوا إِلَى زُخْرُفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَسُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَأَهْوَالَهُ الْمُذْهِلَاتِ ، فَهُمْ يَفْعَلُونَ أَشْنَعَ الْمَعَاصِي وَيَتْرُكُونَ آكَدَ الْفَرَائِضِ دُونَ أَنْ يُبَالُوا بِغَضَبِ الْجَبَّارِ . لَا يُهِمُّهُمْ تَعَلَّمُوا دِينَهُمْ أَمْ جَهِلُوهُ عَمِلُوا بِهِ أَمْ تَرَكُوا الْعَمَلَ ، إِنْ سَنَحَتْ لَهُمْ فُرْصَةٌ لِإِيذَاءِ مَخْلُوقٍ تَقَدَّمُوا بِلَا أَيٍّ وَجَلٍ ، هَذِهِ صِفَاتُ الْفَرِيقَيْنِ فَاحْمَدِ اللَّهَ تَعَالَى إِنْ كُنْتَ مِنَ الْفَرِيقِ الْأَجَلِّ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنَ الْفَرِيقِ الثَّانِي فَتَدَارَكْ نَفْسَكَ قَبْلَ الْمَوْتِ بِالنَّدَمِ وَالِاسْتِغْفَارِ .

(حديث) طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ ، قِيلَ مَنِ الْغُرَبَاءُ ؟ قَالَ أُنَاسٌ صَالِحُونَ قَلِيلٌ فِي أُنَاسِ سُوءٍ كَثِيرٍ مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ . رَوَاهُ أَحْمَدُ .

٧٥ — نصائح قويمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي آتَانَا عُقُولاً نَخْتَارُ بِهَا الْمَنَافِعَ وَنَجْتَنِبُ الْمَضَارَّ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةَ مُحْتَرِسٍ لَا يَقَعُ فِي شِبَاكِ الْأَشْرَارِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي عَلَّمَنَا الِاحْتِيَاطَ لِنَنْجُوَ مِنَ الْأَخْطَارِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِي الْعُقُولِ النَّيِّرَاتِ .

(أمّا بعدُ) فيا عبدَ الله : إذا أردتَ الشروعَ فى مُهِمٍّ من أُمورِكَ فاستشِرِ الرجالَ العُقلاءَ الأخيار ، فإنك بذلك تُضيفُ عقولاً إلى عقلِكَ وتتبيَّنُ ما فى مُهمِّكَ من منافعَ ومضارّ ، ولا تغترَّ بنفسِكَ فإنَّ الغرورَ بالنفسِ شأنُ الحمقى الأغرار ، وكم ندمَ المغرورُ بنفسِهِ وكم حمِدَ المستشيرُ عاقبةَ الاستشارات . وإنِ استخرتَ مع الاستشارةِ تكُن استنرتَ فى مُهمِّكَ بنورٍ على نور ، والاستخارةُ أن تُصلِّىَ ركعتينِ وتدعوَ بالدعاءِ الواردِ ثمّ تشرعَ فى الأمور ، فببركةِ ذلكَ يتيسَّرُ الأمرُ إن كانَ خيراً أو يتعسَّرُ إن كانَ من نوعِ الشرور ، ولذلكَ كانَ يُعلِّمُها رسولُ الله أصحابَهُ كما كانَ يُعلِّمُهُم آياتِ ربِّنا البيِّنات . وإن أردتَ أن تُزوِّجَ بنتَكَ فلا تُزوِّجْها إلاّ صالحًا فإنّه لا يُتعِبُها على أىّ حال ، وإن زوَّجتَها فاسقاً فلا تلُمْ إلاّ نفسَكَ إذا لاقيتَ أنتَ وهىَ فى الدارينِ منهُ الأهوال، وإذا أردتَ أن تُزوِّجَ ابنَكَ فلا تُزوِّجْهُ إلاّ صالحةً فإنّ الصالحةَ هىَ منتهى الآمال ، وإن زوَّجتَهُ لمالٍ أو جمالٍ أو حسَبٍ فتحمَّلْ أنتَ وهوَ ما وراءَ ذلكَ من مؤلمات . وإن سرَّكَ أن تُقضَى حاجاتُكَ فاكتُمْ ما يتعلَّقُ بها من أسرار ، فإنّ إذاعةَ الأسرارِ تُمكِّنُ الأشرارَ من إحباطِ مساعى الأخيار ، وادَّخِرْ من كسبِكَ لأوقاتِ حاجاتِكَ تكُنْ من أحكمِ الحكماءِ بذلكَ الادّخار، واكتُمْ حالَكَ فقراً وغنًى يظُنَّكَ الناسُ غنيًّا وإن بلغتَ فى

الفقر الغايات . وإن نزلت بك مصيبة فتجلد يرض عنك ربك ويكمد الأعداء ، وفى الجزع أمام البلايا غضب ربك وشماتة عدوك وغم الأحباء ، وإن أردت أن لا يكون لك عدو فلا تؤذ أحداً أى إيذاء ، وإن أردت أن تكون محبوباً لدى الجميع فانفعهم بلا علل ولا منات . وإن بعت أو اشتريت أو استدنت أو داينت فسجل ذلك وأشهد عليه عدول المؤمنين ، وأرجوك أن تسمع نصيحتى وإلا ابتلعك الناس فرحين بابتلاعك ومسرورين ، وإن صاحبت فلا تصاحب إلا من توقن أنه من الصالحين ، فإن أكثر ما ترى من البلايا إنما كان بسبب أصحاب لا يخافون يوم الحسرات .

(حديث) لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقى . رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن حبان والحاكم .

٧٦ — بماذا حفت الجنة والنار

الحمد لله حمد إنسان قدر العواقب وعمل لها فكان سديد النظر ، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة عاقل يدوس ما يشتهى إذا كان يعقبه ضرر ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله خير عبد أرضى ربه ونفسه قهر ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وكل مجاهد عظيم .

(أمّا بعدُ) فيا عبدَ الله: الجنّةُ دارٌ بها مِنْ أنواعِ النّعيمِ ما لا يدخلُ تحتَ خيالِ إنسان، وحسبُكَ أنْ تعلَمَ عنها أنّ كلّ ما تشتهي فيها تُسعَفُ بهِ مهما كان، والنّارُ دارٌ بها مِنْ ألوانِ العذابِ ما لا يتصوّرُهُ جنان، وكلّما تمادى الأبدُ بأهلها زيدُوا عذاباً كما يقولُ القرآنُ الكريم. هذهِ هِيَ الجنّةُ أيّها الأخُ وهذهِ هِيَ النّارُ وهُما موجودتانِ الآن، كلٌّ منهما تنتظرُ أهلَها العاملِينَ لها كما ينتظرُ الماءَ البارِدَ الظمآن، فقُلْ لي أيُّ عقلٍ العقلُ الّذي يُعرِضُ عنِ الجنّةِ ويُقبلُ على النّيران، أي يُعرِضُ عنْ أسْمَى لذّةٍ ويُقبلُ على أشدّ ألمٍ أليم. ألَسْتَ معي في أنّ العقلَ الّذي هذا شأنُهُ إنّما هُوَ عقلُ المجانين، فإنّ العاقِلَ لا يرفُضُ أجلّ كرامةٍ ويختارُ بدلَها أقسى ما يُذِلُّ ويُهين، ومعَ ذلكَ لا تندهِشْ إذا قُلتُ لكَ إنّ ذلكَ العقلَ هُوَ عقلُنا المسكين، فإنّا نتسابقُ إلى المعاصِي وهِيَ تُدنِي مِنَ النّارِ وتُبعِدُ عنْ دارِ النّعيم. لعلّكَ تعتذِرُ عنّا بأنّ أعمالَ الجنّةِ لا تُشتهى وأعمالَ النّارِ كلّها شهوات، فمثلُ القتلِ والزّنى واللّواطِ والرّبا والسّحرِ والطّعنِ واللّعنِ أعمالٌ محبّبات، يخفُّ على الإنسانِ عملُها لأنّهُ يشعُرُ عندَ مباشرتِها بلذّات، ومثلُ الصّلاةِ والزّكاةِ والحجِّ والصّيامِ أعمالٌ تكرهُها النّفوسُ وتعترِفُ بهذا الكُرهِ الذّميم. أمّا الصّلاةُ فتتكرّرُ بمقدّماتِها خمسَ مرّاتٍ في اليومِ معَ خمولِ الصّيفِ وبردِ الشّتاء، وأمّا الزّكاةُ

فَـالٌ يُخْرَجُ عَنْهُ وَالْمَالُ حُبُّهُ عِنْدَ النُّفُوسِ لَا يَخْفَى عَلَى الْعُقَلَاء ، وَأَمَّا الْحَجُّ فَأَعْمَالٌ يَلْزَمُ لَهَا مَالٌ وَسَفَرٌ طَوِيلٌ إِلَى مَكَانِ الْأَدَاء ، وَأَمَّا الصِّيَامُ فَتَرْكٌ لِلْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَنَاكِحِ وَأَنْتَ بِمَشَقَّةِ هٰذَا عَلِيم . إِذَا اعْتَذَرْتَ بِهٰذَا فَإِنِّي لَا أُنْكِرُ أَنَّ أَعْمَالَ الْجَنَّةِ لَا تُشْتَهَى بِخِلَافِ عَمَلِ النَّار ، وَلٰكِنِّي لَا أُسَلِّمُ أَنَّ ذٰلِكَ يُبَرِّرُ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ وَيَصْلُحُ لِلِاعْتِذَار ، نَحْنُ أَيُّهَا الْأَخُ خُلِقْنَا هُنَا لِلِابْتِلَاء لَا لِلتَّلَذُّذِ بِأَعْمَالِ الْفُجَّار ، وَالْمُبْتَلَى لَا يَكُونُ أَبَدًا كَمَا يَشْتَهِي بَلْ كَمَا يَشَاءُ مُبْتَلِيهِ الْحَكِيم . إِنَّ الْحِكْمَةَ تَقْضِي أَنْ نَتْرُكَ الْمَعَاصِيَ مَهْمَا كَانَتْ لَذَّاتُهَا عَظِيمَات ، فَإِنَّهُ لَا قِيمَةَ لِلَذَّاتٍ تَنْقَضِي وَتَنْقَضِي دَارُهَا كُلُّهَا ثُمَّ تَعْقُبُهَا آلَامٌ مُبَرِّحَات ، وَكَذٰلِكَ تَقْضِي الْحِكْمَةُ أَنْ نَفْعَلَ الطَّاعَاتِ مَهْمَا كَانَتْ تِلْكَ الطَّاعَاتُ مَكْرُوهَات ، فَإِنَّ قَهْرَ النَّفْسِ أَسْمَى مَا يُفْعَلُ إِذَا كَانَتْ عَاقِبَتُهُ رِضَى رَبِّنَا وَالنَّعِيمَ الْمُقِيم .

(حديث) حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ [١] وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ [٢] . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

---

(١) أي من أراد الجنة وهي أنفس نفيس وأحب محبوب اعترضته في طريقه اليها مكاره كثيرة فإن لم يكن قويّ الارادة صادق العزيمة صدّته تلك المكاره عن الوصول إلى تلك الدار الكريمة وهو أقرب ما يكون اليها — وتلك المكاره هي التكاليف الالهية فانها إلزامات للنفس ليس لها أن تتركها وهذا قهر والنفوس مجبولة على كراهة القهر والنفور منه .

(٢) النار أهول عذاب وأشده وآلمه يقتضي الطبع الهروب منه والبعد عنه ما أمكن البعد — ومن له ذرّة من العقل ثم يدنو من ألم هو أعظم ألم — ولكن هي أشبه بهوّة بعيدة القرار على حافتها ملاذ ومحبوبات فطرت النفس على اشتهائها والحنين اليها فمن قصر نظره وضعفت إرادته

٧٧ — هل القلوب مع العلم كالأرض مع الماء

الحَمْدُ للهِ الذى أَوْحَى مِنَ الْعِلْمِ مَا أَوْحَى لِيَعْلَمَهُ وَيَعْمَلَ بِهِ عِبَادُهُ الْمُكَلَّفُونَ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةَ أَقْوَامٍ إِذَا سَمِعُوا الْخَيْرَ بَادَرُوا إِلَى الْعَمَلِ بِمَا يَسْمَعُونَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمَبْعُوثُ لِكُلِّ مَنْ يَعْقِلُونَ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ الْمُعَلِّمِينَ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : أُحِبُّ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْقُلُوبَ مَعَ الْعِلْمِ تُشْبِهُ الْأَرْضَ مَعَ الْمَاءِ ، فَالْأَرْضُ مِنْهَا أَرْضٌ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهَا الْمَاءُ تَشَرَّبَتْهُ وَأَنْبَتَتْ مَا يَنْفَعُ الْأَحْيَاءَ ، كَذَلِكَ الْقُلُوبُ مِنْهَا مَا يَسْمَعُ الْعِلْمَ فَيَعِيهِ وَيَتَأَثَّرُ بِهِ لَا تَأَثُّرَ رِيَاءٍ ، بَلْ تَأَثُّرًا يَجْعَلُهُ يَعْمَلُ بِهِ وَيَزِيدُ فَيُعَلِّمُهُ سِوَاهُ لِيَكُونَ بِهِ مِنَ الْعَامِلِينَ . هٰذِهِ الْقُلُوبُ هِىَ خَيْرُ الْقُلُوبِ وَأَسْمَاهَا وَأَوْلَاهَا بِالثَّنَاءِ الْعَظِيمِ ، لِأَنَّهَا لَمَّا سَمِعَتِ الْعِلْمَ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ وَعَلِمَتْهُ فَاهِمَةً أَنَّهُ الْوَحْىُ الْكَرِيمُ ، وَلَمْ تَقِفْ عِنْدَ هٰذَا الْحَدِّ بَلْ تَكَمَّلَتْ بِالْعَمَلِ بِهِ كَمَا أَمَرَ خَالِقُنَا الْحَكِيمُ ، وَرَأَتْ أَنْ تُكَمِّلَ غَيْرَهَا فَعَلَّمَتْهُ لِيَتَكَمَّلَ بِهِ مَنْ يَجْهَلُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَمِنْهَا أَرْضٌ

وغفل عن تلك الهوة وما يفعل التردى فيها — أجاب داعى شهوته وهو داع شديد السطوة قاهر السلطان وتقدم إلى تلك الملاذ ثم تقدم، وليس ببعيد حينئذ أن تزلق قدمه فيهوى فى ذلك العذاب الفظيع — وتلك الملاذ هى مناهى الله تعالى التى منعنا منها ، ومعروف أن أحب شىء إلى الانسان ما منع منه .

إذا نزل عليها الماء أمسكته وحفظته من الضياع ، فإذا رآه الناس سارعوا إليه وانتفعوا به بكل أنواع الانتفاع ، ولكنها هى لا تستفيد منه ولا تنبت ما يخفف آلام الجياع ، فكل حظها من الماء هو إمساكها له لينتفع به من يريد من المحتاجين . كذلك القلوب منها ما يسمع العلم فيحفظه ومنه يتعلمه ويعمل به الجاهلون ، ولكنه هو لا ينتفع بالعمل به فهو وأهل الجهالة يستوون ، وهذه القلوب أحسنت من ناحية حفظه وتبليغه لمن لا يعلمون ، وأساءت من ناحية عدم العمل والعمل هو المقصود من هذا العلم الثمين ، ومنها أرض لا تنتفع بالماء ولا تمسكه ولا تخرج أبدا شيئا من النبات ، هكذا طبيعتها ولو دام الماء ينهمر عليها أياما وشهورا وسنوات ، كذلك من القلوب ما لا يقبل العلم ولو عالجته حتى الممات ، وإذا كان لا يقبله فهو لا يعمل به ولا يدخل عمله هذا تحت تصور المتصورين . وهذه القلوب هى شر القلوب وأخبثها وأشقاها دون أى مراء ، لأنها لا حظ لها فى الفضيلة لا علما ولا عملا فهى كالبهيمة العجماء ، بل البهيمة خير منها لأنها لا تلاقى ما تلاقى تلك القلوب من سوء الجزاء ، ولعلك من هذا عرفت درجات الناس فى أنفسهم وعند رب العالمين . إذا علمت هذا فقل لى من أى هذه القلوب قلبك يا أيها الأخ المفضال ، وأنت من نشأتك تسمع الإرشاد بالعلم من

فَوْقَ المَنابِرِ لا تَغِيبُ أُسْبُوعًا عَنْ هذا المَجالِ ، فَإِنْ كانَ مِنَ الفَرِيقِ الأَوَّلِ فَاحْمَدِ اللّٰهَ وَازْدَدْ وَإِلاَّ فَبادِرْ إِلى صَلاحِ الحالِ ، جَعَلَنِي اللّٰهُ وَإِيّاكَ مِنْ خَيْرِ فَرِيقٍ لِنَكُونَ يَوْمَ القِيامَةِ مِنَ المُفْلِحِينَ .

(حديث) مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللّٰهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصابَ أَرْضًا فَكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الماءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ(١) وَالعُشْبَ(٢) الكَثِيرَ، وَكانَتْ مِنْها أَجادِبُ(٣) أَمْسَكَتِ الماءَ فَنَفَعَ اللّٰهُ بِها النّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصابَ مِنْها طائِفَةً أُخْرَى إِنَّما هِيَ قِيعانٌ(٤) لا تُمْسِكُ ماءً وَلا تُنْبِتُ كَلَأً فَذٰلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللّٰهِ وَنَفَعَهُ ما بَعَثَنِي اللّٰهُ تَعالَى بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذٰلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللّٰهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ . رَواهُ البُخارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسائِيُّ .

٧٨ — القلوب وآثارها

الحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي أَمَرَنا بِالعِنايَةِ بِقُلُوبِنا لِأَنَّها مَدارُ صَلاحِ الأَبْدانِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ اللّٰهُ شَهادَةَ امْرِئٍ عُنِيَ بِقَلْبِهِ فَطَهَّرَهُ مِمّا لا يَرْتَضِيهِ الرَّحْمٰنُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا وَمَوْلانا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَمُصْطَفاهُ مِنْ جَمِيعِ الأَكْوانِ ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبارِكْ عَلَى سَيِّدِنا

---

(١) النبات مطلقاً . (٢) النبات الرطب .

(٣) واحدها جدبة بفتح فكسر ضد خصبة .

(٤) مفردها قاع وهي الأرض المستوية الملساء .

مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ أَخْلَصَ لَهُ فِى الْوَلَاءِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : إِنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ يَدْعُو إِلَى تَطْهِيرِ الْقُلُوبِ مِنْ أَخْلَاقِهَا الْخَبِيثَاتِ ، لَا يَدْعُو إِلَى ذٰلِكَ مُطْلَقَ دُعَاءٍ بَلْ يُحَرِّضُ عَلَيْهِ بِأَبْلَغِ الْعِبَارَاتِ ، ذٰلِكَ لِأَنَّ الْقُلُوبَ عِنْدَهُ لَهَا الْمَقَامُ الْأَسْمَى بَيْنَ جَمِيعِ الْجَوَارِحِ ظَاهِرَاتٍ أَوْ بَاطِنَاتٍ ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهَا إِذَا أَصْدَرَتْ أَمْرًا لَا يَعْصِى أَمْرَهَا عُضْوٌ مِنَ الْأَعْضَاءِ . لِهٰذَا كَانَتْ هٰذِهِ الْقُلُوبُ مَوْضِعَ الْعِنَايَةِ مِنْ سَلَفِنَا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ وَالرِّضْوَانُ ، لِذٰلِكَ كَانُوا فِى اتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ الْمَثَلَ الَّذِى تُقْسِمُ أَنَّهَا مَا رَأَتْ نَظِيرَهُ الْأَكْوَانُ ، وَكَانُوا فِى عَفَافِ الْأَنْفُسِ بِالدَّرَجَةِ الَّتِى لَيْسَ مَعَهَا لِلشَّهْوَةِ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَكَانُوا فِى الْعِزَّةِ بِحَيْثُ لَوْ حَلُّوا أَىَّ جِهَةٍ كَانُوا فِيهَا هُمُ الْأَعِزَّاءُ . كَانُوا يَضِنُّونَ بِالنَّفَسِ الْوَاحِدِ أَنْ يَنْقَضِىَ دُونَ أَنْ يَسْتَفِيدُوا فَوَائِدَ فِيهِ ، فَكَانَ نَهَارُ أَحَدِهِمْ مَا بَيْنَ طَلَبِ عِلْمٍ لِإِرْشَادِ جَاهِلٍ لِإِعَانَةِ مُسْلِمٍ لِقِيَامٍ بِشُؤُونِ بَنِيهِ ، أَمَّا اللَّيْلُ فَكَانَتْ تَتَجَافَى فِيهِ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى رَبِّهِمْ بِمَا يَرْتَضِيهِ ، وَإِنْ أَكَلُوا أَوْ نَامُوا أَوْ ضَاجَعُوا نِسَاءَهُمْ فَلِكَىْ يَكُونُوا عَلَى الْعِبَادَةِ أَقْوِيَاءَ .

هٰكَذَا كَانَ سَلَفُنَا وَفَوْقَ هٰذَا كَانُوا عَلَيْهِمْ مِنْ رَبِّنَا الرَّحَمَاتُ ، لِذٰلِكَ بَارَكَ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ فِى أَعْمَارِهِمْ فَكَانَتْ — مَهْمَا قَصُرَتْ — بِجَلَائِلِ الْأَعْمَالِ حَافِلَاتٍ ، وَإِنْ كُنْتَ فِى شَكٍّ مِنْ هٰذَا فَارْجِعْ إِلَى

آثَارِهِمْ فَهِيَ بِهِ شَاهِدَات ، وَلاَ سَبَبَ لِهٰذَا كُلِّهِ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَنُونَ بِسَلاَمَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ أَمْرَاضِهَا كُلَّ الاعْتِنَاء . أَمَّا نَحْنُ فَلاَ قِيمَةَ لِلْقُلُوبِ عِنْدَنَا وَلِذٰلِكَ بَرَحَتْ بِهَا الأَمْرَاضُ وَالآفَات ، وَمِنْ هٰذَا تَرَى جَوَارِحَنَا لَيْلَهَا وَنَهَارَهَا فِي أَوْدِيَةِ المُوبِقَاتِ هَائِمَات ، وَلِذٰلِكَ نَزَعَ اللهُ الْبَرَكَةَ مِنْ أَعْمَارِنَا وَأَعْمَالِنَا وَأَمْوَالِنَا وَأَبْنَائِنَا وَالْبَنَات ، وَلاَ سَبَبَ لِذٰلِكَ إِلاَّ مَرَضُ قُلُوبِنَا وَإِهْمَالُنَا لِمَا لِمَرَضِهَا مِنْ دَوَاء .

(حديث) أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيث .

٧٩ – هل يستقيم الغافل عن الله تعالى

الحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي مِنْ مُرَاقَبَةِ جَلاَلِهِ كُلُّ جَمَالٍ وَجَلاَل ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةَ مَنْ تَحَقَّقَ بِمُقْتَضَاهَا سَمَا إِلَى سَمَاءِ الْكَمَال ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الأُسْوَةُ الحَسَنَةُ لَنَا فِي أَقْوَالِهِ وَالأَفْعَال ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُ فِيمَا نَهَى وَأَمَر .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ الله : إِنَّ الْعَبْدَ مَا دَامَ فِي دَائِرَةِ الْغَفْلَةِ عَنِ اللهِ تَعَالَى لاَ يَسْتَقِيم . فَإِنَّ الاسْتِقَامَةَ سَبَبُهَا الْيَقَظَةُ وَالْغَافِلُ عَنِ الْيَقَظَةِ فِي بُعْدٍ عَظِيم . إِذَنْ لاَ تَسْتَبْعِدْ عَنْ هٰذَا الْغَافِلِ خَبَرًا يُحْكَى عَنْهُ أَيَّ

فعلٍ ذميم ، ولو قيل لك إنه كفر باللّٰه تعالى فلا تستبعد عنه هذا الخبر . والسرّ فى هذا أن الغافل ليس بمتذكّرٍ ما لربّه من عظمةٍ وجلال ، وليس بمتذكّرٍ أنه تعالى يراه أينما كان ويعلم كلّ ماله من أحوال ، وليس بمتذكّرٍ أنه تعالى توعّد أمثاله الغافلين بالنار دارِ النكال ، فلخلوّ قلبه من كلّ هذا كانت جرْءته على ما يأتى وعلى ما يذر . ولما أن الغافل هذا حاله حذّرنا منه مولاه الذى سوّاه ، فقال تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه) نهانا ربّنا عن طاعته لأن من أطاع من ذلك شأنه أرداه ، وهل تنتظر خيرًا لمن يمشى وراء من يعدو بكلّ قوّته لسقر . إن هذا الغافل لو تنبّه واستيقظ مما هو فيه من غفلات ، بأن تفكّر وأطال هذا التفكّر فيما بعد الموت من عقبات ، ولو وازن ـ مع هذا ـ بين هذه الدار وبين الجنة وما لها من لذات ، لو كان هذا لكان قريبًا أن يصبح على ما ينبغى أن يكون عليه فضلاء البشر . وأقرب من هذا فى صلاحه أن يتذكّر دائمًا عظمة مولاه المنان ، وأن لا يغفل عن ملاحظة أنه تعالى لا يخفى عليه شىء من سره والإعلان ، إذا لزم هذا التذكّر فمؤكّد أنه ينقلب ملكًا وكان الشيطان ، وهل إذا طلعت شمس الهداية فى سماء القلوب يبقى لظلمة القلوب أثر .

(حديث) الشَّيْطَانُ يَلْتَقِمُ قَلْبَ ابْنِ آدَمَ فَإِذَا ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ عِنْدَهُ ، وَإِذَا نَسِيَ اللهَ الْتَقَمَ قَلْبَهُ . رَوَاهُ الحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ .

(آخر) تَحَوَّلُوا عَنْ مَكَانِكُمُ الَّذِى أَصَابَتْكُمْ فِيهِ الْغَفْلَةُ . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالْبَيْهَقِيُّ .

٨٠ – طول الأمل

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ مُنْتَبِهٍ لَمْ تَغُرَّهُ الدُّنْيَا وَلَا مَا لَهَا مِنْ مَتَاعٍ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةَ مَنْ تَيَقَّنَهَا قَصُرَتْ آمَالُهُ وَالْأَطْمَاعُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى مَا سَمِعَتْ بِمِثْلِ قِصَرِ أَمَلِهِ الْأَسْمَاعُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ، وَمَنْ آثَارَهُ يَقْتَفُونَ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : إِنَّ أَحَدَنَا إِذَا مَرَّ عَلَيْهِ الْعَامُ وَالْأَعْوَامُ سَلِيمًا قَوِيًّا يَغْتَرُّ وَيَطُولُ مِنْهُ الْأَمَلُ ، وَيَشْتَدُّ أَمَلُهُ كُلَّمَا صَفَتْ لَهُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَامْتَدَّ بِهِ الْأَجَلُ ، وَلِذَلِكَ تَرَى أَحَدَهُمْ مُحْدَوْدِبَ الظَّهْرِ أَبْيَضَ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ وَأَمَلُهُ مَضْرِبُ الْمَثَلِ ، هَذِهِ حَالَةٌ لَا فَرْقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَالَةِ مَنْ بِالْمَوْتِ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّ طُولَ الْأَمَلِ هُوَ الَّذِى جَعَلَهُمْ يُحِبُّونَ الدُّنْيَا حُبًّا أَخَذَ بِأَسْمَاعِهِمْ وَالْأَبْصَارِ ، وَجَعَلَهُمْ إِذَا عَمِلُوا لَا يَعْمَلُونَ إِلَّا لَهَا وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَلَا تَخْطُرُ لَهُمْ عَلَى الْأَفْكَارِ ، نَعَمْ جَعَلَهُمْ لَا تَقَعُ الْأَعْيُنُ عَلَيْهِمْ إِلَّا وَهُمْ مَشْغُولُونَ بِهَا شُغْلًا يَسْتَوْقِفُ

الأَنْظَار ، كَأَنَّ رَسُولاً جَدِيداً جَاءَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ لاَ يَمُوتُونَ وَلاَ يُبْعَثُون . إِنَّ طُولَ الأَمَلِ هُوَ الَّذِي جَعَلَهُمْ يَتَنَازَعُونَ وَيَتَخَاصَمُونَ وَيَتَقَاتَلُونَ عَلَى المَالِ ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَهُمْ يَبْنُونَ القُصُورَ وَيُشَيِّدُونَهَا تَشْيِيدَ مَنْ لاَ يَطْرَأُ عَلَيْهِ زَوَال ، وَهُوَ الَّذِي هَوَّنَ عِنْدَهُمُ المَعَاصِيَ بِأَنْوَاعِهَا حَتَّى الكُفْرَ بِرَبِّنَا ذِي الجَلاَل ، وَلَوْ كَانَ المَوْتُ وَمَا بَعْدَهُ عَلَى بَالِهِمْ لَقَصُرَتْ آمَالُهُمْ وَلَزِمُوا دَائِرَةَ مَا بِهِ يُفْلِحُون . تَنَبَّهْ أَيُّهَا المُؤْمِنُ وَاقْطَعْ بِسَيْفِ اليَقَظَةِ حَبْلَ هَذَا الأَمَلِ الطَّوِيل ، وَاعْلَمْ أَنَّ طُولَ الأَمَلِ أَخْطَرُ شَيْءٍ عَلَى دِينِ الرَّجُلِ الجَلِيل ، فَإِنَّهُ يُنْسِيهِ الآخِرَةَ وَنِسْيَانُ الآخِرَةِ هُوَ الدَّاهِيَةُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا مِنْ مَثِيل ، وَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي إِيمَانِ امْرِئٍ وَصَلَ إِلَى هَذَا الحَدِّ مِنَ الفُتُون . لِيَقُلْ لِي طَوِيلُ الأَمَلِ أَيْنَ بَنُو آدَمَ مِنْ وَالِدِنَا الأَكْبَرِ سَيِّدِنَا آدَمَ لِلآن . وَأَيْنَ مَا بَنَوْا وَمَا جَمَعُوا وَأَيْنَ مَا أَكَلُوا وَمَا لَبِسُوا أَلَيْسَ كَأَنَّهُ مَا كَان . سَتَكُونُ أَيُّهَا المُؤْمِنُ عَمَّا قَرِيبٍ مِثْلَهُمْ فَاسْتَعِدَّ وَذَرْ أَهْلَ الآمَالِ الطَّوِيلَةِ طُعْمَةً لِلنِّيرَان . ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُون .

(حديث) عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبَعْضِ جَسَدِي فَقَال : كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ القُبُورِ . رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَأَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ .

٨١ - النصيحة (١)

الحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي عَظَّمَ مِنْ شَأْنِ النَّصِيحَةِ حَتَّى جَعَلَهَا نَفْسَ الدِّينِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ شَهَادَةً بِهَا تَطْهُرُ الْقُلُوبُ مِنَ الْغِشِّ اللَّعِينِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ سَيِّدُ مَنْ مَحَّضَ النَّصِيحَةَ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِي الصَّفَاءِ فِي سِرِّهِمْ وَالْإِعْلَانِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّٰهِ : إِنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ لَا يَقْتَصِرُ فِي تَكْلِيفِكُمْ عَلَى مَا تُؤَدُّونَهُ مِنْ مَشْهُورِ الْعِبَادَاتِ ، بَلْ يُكَلِّفُكُمْ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ تَبْذُلُوا النَّصِيحَةَ لِإِخْوَانِكُمْ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى اخْتِلَافِ الطَّبَقَاتِ ، وَلَقَدْ شَدَّدَ الدِّينُ فِي هٰذِهِ النَّصِيحَةِ تَشْدِيدًا يُفْهِمُ أَنَّهَا عِنْدَهُ مِنْ أَهَمِّ الْوَاجِبَاتِ ، فَارْعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا لِأَنَّهَا لِسَعَادَةِ الْبَشَرِ فِي دَارَيْهِمْ مِنْ أَعْظَمِ الْأَرْكَانِ . فَنَصِيحَةُ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ تَكُونُوا مَعَهُمْ جَمِيعًا عَلَى اتِّفَاقٍ وَصَفَاءٍ ، تُحِبُّونَ لَهُمْ مَا تُحِبُّونَهُ لِأَنْفُسِكُمْ وَتَكْرَهُونَ لَهُمْ مَا تَكْرَهُونَهُ لَهَا وَالْجَمِيعُ فِي هٰذَا سَوَاءٌ ، وَنَصِيحَةُ الْعُلَمَاءِ أَنْ تُوَقِّرُوهُمْ وَتَتَلَقَّوْا بِالْقَبُولِ مَا يَرْوُونَهُ لَكُمْ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْغَرَّاءِ ، وَنَصِيحَةُ الْمُلُوكِ أَنْ تُحِبُّوهُمْ مِنْ قُلُوبِكُمْ حُبًّا لَا رِيَاءَ فِيهِ وَلَا بُهْتَانَ . وَأَنْ تَبْتَهِلُوا إِلَى اللّٰهِ تَعَالَى أَنْ يُسَدِّدَهُمْ وَيُوَفِّقَهُمْ كُلًّا فِيمَا يَأْتِي وَيَذَرُ ، وَأَنْ

(١) هذه الخطبة ألقيت والخطبتان بعدها على هذا الترتيب لمناسبات يمكن فهمها من نفس الكلام

207

تلزموا طاعتهم فإنهم ظل الله في أرضه يدفع بهم عن عباده كل خطر، فواجب أن تلتفوا حول عروشهم وإن أمروا أو نهوا تذعنوا لهم في الحال كل الإذعان. ومن آكد ما يراعى نحوهم أن تتضامن الأمة فيما بينها وتستأصل منابت العداوات، ليكون ذلك عونا لهم على تدبير شؤون الدولة تدبيرا يفضي إلى أطيب الثمرات، وأما إذا تنافرت الأمة فلا تلومن إلا نفسها إن كان مالا يحمد في العاقبات، فإن التنافر معول من أخطر المعاول التي يخشى منها على ما للدول من بنيان. والزموا طاعة الله تعالى يؤيدكم وهو إذا أعان كان الصلاح والإصلاح، وعليكم بالإخلاص في كل أعمالكم فإن الأعمال بلا إخلاص كالأشباح من غير أرواح، وليكن على بالكم أن الركون إلى الله تعالى والاستعانة به في المهمات سر النجاح، واستعينوا على كل هذا بمراقبته عز وجل فإنها تورث خشيته وخشيته تعالى ينبوع كل إحسان.

(حديث) الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. رواه مسلم.

٨٢ — من الحارس للدين والدنيا

الحمد لله الذي من فيض جوده كل ما في هذا الوجود من جود، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تبيض بها الوجوه وترتفع الرءوس

فى اليَوْمِ المَشْهود ، وَأَشهدُ أَنَّ سيِّدَنا ومولانا محمداً عبدُهُ ورسولُهُ المبعوثُ رحمةً لِكلِّ موجود، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ على سيِّدِنا محمّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِهِ العُلماءِ الحُكماء.

(أمَّا بعدُ) فيا عبدَ الله : إنَّ هذا النوعَ الإنسانيَّ بحسبِ فِطرتِهِ يَصْبو إلى العُدْوان ، متى استطاعَ أنْ يعتدىَ اندفعَ إلى ذلكَ بِقلبٍ كأنَّهُ قُدَّ من صوّان ، فهوَ بهذهِ الحالةِ محتاجٌ أشدَّ الاحتياجِ إلى ما يُخمِدُ منهُ ذاكَ الطُّغيان ، وإلاَّ غلبَ عليهِ طبعُهُ وكانَ منهُ منْ أنواعِ التعدِّى ما يُسرِعُ بهِ إلى الفَناء . لذلكَ أرسلَ اللهُ إليهِ الرُّسلَ وأوجبَ أنْ يقومَ بالأمرِ بعدَهُمْ وُلاةٌ أخيار ، فكانَ ذلكَ وبهما سارَتْ سفينةُ الوُجودِ دونَ أنْ تقِفَها عواصِفُ الأشْرار ، فأمَّا الرُّسُلُ فأقامُوا على النّاسِ أيقظَ حارسٍ مِنَ الدِّينِ يمنعُهُمُ البغىَ فى جهرِهِمْ والإسرار ، ومعَ ذلكَ كانُوا حُماةً للدِّينِ والدُّنيا عنْ أنْ يعتدىَ عليهما أحدٌ أىَّ اعتداء . وأمَّا وُلاةُ الأمرِ فهُمْ خُلفاءُ الرُّسُلِ على حِراسةِ الدُّنيا والدِّين ، إذا رأوْا عابثاً بهما أوْ بأحدِهما أخذُوا على يديهِ أخذَ الأقوياءِ الغيُورِين ، فهُمْ بعدَ الرُّسُلِ رحمةٌ مِنْ أكبرِ الرَّحماتِ لعبادِ اللهِ حتَّى غيرِ المستقيمين ، ولولاهُمْ ما اطمأنَّ مُقيمٌ ولا أمِنَ مُسافرٌ ولَكانَ الضُّعفاءُ أُلعوبةً فى يدِ الأقوياء . فاربِطوا قلوبَكُمْ على

حُبِّهِمْ وَأَكْثِرُوا مِنَ الدُّعَاءِ لَهُمْ بِالتَّأْيِيدِ فِيمَا لَهُمْ مِنْ تَصَرُّفَاتٍ ، وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا لَهُمْ إِنْ أَمَرُوا فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَأْمُرُونَ بِمَا لَكُمْ فِيهِ الْخَيْرَاتُ وَالْبَرَكَاتُ ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا فَإِنَّ التَّفَرُّقَ نَارٌ وَقُودُهَا مَا لِلْمُتَفَرِّقِينَ مِنْ قُوَّاتٍ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْحَيَاةَ لَا تَطِيبُ إِلَّا إِذَا كَانَتِ الْقُلُوبُ مَعَ بَعْضِهَا فِي اتِّفَاقٍ وَصَفَاءٍ . وَهٰذِهِ مَنَاهِلُ الْعِلْمِ فَانْهَلُوا مِنْهَا فَإِنَّ الْأُمَمَ بِلَا عِلْمٍ عَدَمٌ ، وَانْظُرُوا إِلَى مَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ فِي تِجَارَاتِهِمْ وَصِنَاعَاتِهِمْ فَإِنَّ الْمَالَ عَصَبُ الْأُمَمِ ، وَعَضُّوا بِالنَّوَاجِذِ عَلَى دِينِكُمْ وَلُغَتِكُمْ وَعَادَاتِكُمْ فَإِنَّهَا شَخْصِيَّتُكُمْ وَمَا لَكُمْ مِنْ شَمَمٍ ، وَلْتَكُنِ الْآخِرَةُ أَكْبَرَ هَمِّكُمْ فَإِنَّ الدُّنْيَا وَإِنْ طَالَ أَمَدُهَا إِلَى الْانْتِهَاءِ .

(حديث) السُّلْطَانُ ظِلُّ (١) اللهِ فِي الْأَرْضِ يَأْوِي إِلَيْهِ الضَّعِيفُ وَبِهِ يَنْتَصِرُ الْمَظْلُومُ ، وَمَنْ أَكْرَمَ سُلْطَانَ اللهِ فِي الدُّنْيَا أَكْرَمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . رَوَاهُ ابْنُ النَّجَّارِ .

٨٣ — آداب كريمة

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي كُلُّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِ هٰذَا الْوُجُودِ بُرْهَانٌ عَلَى أَنَّهُ قَدِيرٌ وَحَكِيمٌ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي عَمَّ نَوَالُهُ وَإِمْهَالُهُ لِذَلِكَ

(١) أى كالظل فى أن كلا يريح من عناء عظيم فان الظل الحقيق يحفظ من حرارة الشمس التى لو بقى المرء فيها طويلا لقتلته كما أن السلطان بهيبته وقوته يخيف القوى فيمنعه قهراً عن الاغارة على الضعيف ولولاه لاشتعلت الأرض فتنا من قتل ونهب وغير ذلك من البلايا .

هُوَ كَرِيمٌ وَحَلِيمٌ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَفْوَةُ الْهُدَاةِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ حَمَوُا الدِّينَ وَالدُّنْيَا كَمَا تَحْمِي عَرِينَهَا الْآسَادُ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : ابْتَدِرُوا السَّعَادَةَ فِي امْتِثَالِ مَا أَمَرَكُمُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ صَالِحَاتٍ ، وَارْفَعُوا قَدْرَ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَقِفُوا مَوْقِفَ مَنْ يُجَاهِرُ بِالْعِصْيَانِ بَارِئَ الْكَائِنَاتِ ، وَأَنِيرُوا قُلُوبَكُمْ بِالْاعْتِقَادِ الْحَقِّ الَّذِي لَا يَتَزَلْزَلُ وَإِنْ تَزَلْزَلَتِ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ ، وَاسْتَبِقُوا مَا يُكْسِبُكُمُ الْحَمْدَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى وَعِنْدَ الْعِبَادِ . أَطِيعُوا اللهَ تَعَالَى أَيُّهَا النَّاسُ يُطِعْكُمْ فِيمَا تُحِبُّونَ ، وَأَعِزُّوا دِينَهُ يُعِزَّكُمْ وَمَنْ أَعَزَّهُ مَالِكُ الْمَمَالِكِ لَا يَهُونُ ، وَدَافِعُوا عَنْ آيَاتِهِ يُدَافِعْ عَنْكُمْ كُلَّ مَا تَكْرَهُونَ ، وَتَأَكَّدُوا أَنَّ الْعِزَّةَ إِنَّمَا تُكْتَسَبُ بِاتِّبَاعِ سَبِيلِ الرَّشَادِ . وَاحْمِلُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى التَّخَلُّقِ بِالْحِلْمِ وَإِنْ كَانَ مُرًّا فَإِنَّهُ لَمْ يَنْدَمْ حَلِيمٌ ، وَاحْبِسُوا أَلْسِنَتَكُمْ عَلَى الصِّدْقِ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْوِي بِالرَّجُلِ الشَّرِيفِ الْكَرِيمِ ، وَلْيَكُنِ الْوَفَاءُ دَيْدَنَكُمْ فِي وُعُودِكُمْ وَعُهُودِكُمْ وَعُقُودِكُمْ فَنَقْضُ ذَلِكَ حَقِيرٌ وَذَمِيمٌ ، وَاحْرِصُوا أَنْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْأَمَانَةِ فَالْخَائِنُ مَنْبُوذٌ فِي كُلِّ وَادٍ . وَاحْفَظُوا شَرَفَكُمْ وَوَجَاهَتَكُمْ بِاجْتِنَابِ النَّمِيمَةِ فَالنَّمَّامُ لَا يُعَدُّ مِنْ صُفُوفِ الْكِرَامِ ، وَاسْتُرُوا

عُيُوبَ النَّاسِ كَمَا سَتَرَ اللهُ عُيُوبَكُمْ وَهُوَ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا لَكُمْ مِنْ مَذَامّ ، وَاشْكُرُوا نِعَمَ اللهِ تَعَالَى يُدِمْهَا عَلَيْكُمْ وَيَزِدْكُمْ مِنْهَا وَهُوَ رَبُّ الإِنْعَام ، وَاحْذَرُوا الْغَفْلَةَ عَنْهُ تَعَالَى فَإِنَّهَا أَصْلُ كُلِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ الْبَلاَيَا عَلَى الْبِلاَدِ وَالْعِبَاد . وَمَحِّضُوا النُّصْحَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّ الْغِشَّ لَيْسَ مِنْ أَخْلاَقِ الْمُؤْمِنِين ، وَأَخْلِصُوا لِلهِ أَعْمَالَكُمْ كُلَّهَا فَإِنَّ الرِّيَاءَ يُحْبِطُ ثَوَابَ أَعْمَالِ الْمُرَائِين ، وَلْيَكُنْ لِكُلٍّ مِنْكُمْ عَمَلٌ يَعِيشُ مِنْ كَسْبِهِ وَإِلاَّ كَانَ خَطَراً عَلَى الدُّنْيَا وَالدِّين ، وَمَنْ غَلَبَ فَهَفَا فَلْيَفْزَعْ إِلَى التَّوْبَةِ فَإِنَّهَا تَمْحُو الذُّنُوبَ وَإِنْ كَانَتْ مِثَالَ الأَطْوَاد . وَإِنْ شِئْتُمْ مُبَارَاةَ الأُمَمِ فَهَذِهِ مَيَادِينُ الْعَمَلِ فَاعْمَلُوا مَا يَعْمَلُون ، نَافِسُوهُمْ فِى تِجَارَاتِهِمْ وَصِنَاعَاتِهِمْ وَعُلُومِهِمْ وَتَفَانَوْا فِى مَصْلَحَةِ بِلاَدِكُمْ كَمَا يَفْعَلُون ، وَأَمَّا أَنْ تُخْلِدُوا إِلَى الْكَسَلِ ثُمَّ تَطْمَعُوا أَنْ تَلْحَقُوا بِهِمْ فَهَذَا مَا لاَ يَكُون ، وَاجْتَثُّوا شَجَرَةَ التَّنَافُرِ مِنْ أُصُولِهَا فَإِنَّ الْمَجْدَ مُحَالٌ أَنْ يُبْنَى إِلاَّ عَلَى الاتِّحَاد .

(حديث) ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ آوَاهُ اللهُ فِى كَنَفِهِ [1] ، وَنَشَرَ عَلَيْهِ رَحْمَتَهُ ، وَأَدْخَلَهُ جَنَّتَهُ : مَنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ ، وَإِذَا قَدَرَ غَفَرَ ، وَإِذَا غَضِبَ فَتَرَ ، رَوَاهُ الحَاكِمُ وَالْبَيْهَقِيُّ .

---

(١) الكنف الجانب أى جعله فى حمايته ورعايته .

٨٤ — الأمانة

الحَمْدُ للهِ الَّذِى بِخُلُقِ الْأَمَانَةِ أَسْعَدَ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ شَاءَ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةَ مَنْ لَاحَظَهَا بَرِئَ مِنَ الْخِيَانَةِ وَأَهْلِهَا اللُّؤَمَاءِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَفْوَةُ الصَّفْوَةِ مِنْ أَهْلِ الْوَلَاءِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِى النُّفُوسِ الصَّافِيَاتِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : إِنَّ هٰذَا الْوُجُودَ كُلَّهُ لَا يَهْدَأُ وَلَا يَصْفُو إِلَّا إِذَا كَانَ خُلُقُ الْأَمَانَةِ يَسُود ، أَمَّا إِذَا غَلَبَ خُلُقُ الْخِيَانَةِ فَانْتَظِرْ أَنْ تَلْتَهِبَ نِيرَانُ الْبَلَايَا كُلُّهَا فِى الْوُجُود ، فَالْأَمَانَةُ إِذَا حَلَّتْ مَحَلاً ضَمِنَتْ فِيهِ السَّعَادَةَ لِأَهْلِهِ وَلَوْ تَبَاعَدَتِ الآبَاءُ وَالْجُدُود ، وَالْخِيَانَةُ إِذَا نَزَلَتْ مَنْزِلاً جَرَتْ مَعَهَا خَرَابُهُ وَشَقَاءُ أَهْلِهِ وَلَوْ كَانُوا إِخْوَةً وَأَخَوَات . وَلَعَلَّكَ لَا تُخَالِفُنِى فِى أَنَّا لَا نَرَى الْيَوْمَ إِلَّا الْخِيَانَةَ وَمَا لَهَا مِنْ آثَار ، وَلِهٰذَا نَرَى نِيرَانَ الْمِحَنِ يَشْتَدُّ لَهِيبُهَا لَا فِى قُطْرٍ وَاحِدٍ بَلْ فِى جَمِيعِ الْأَقْطَار ، هَانَتِ الْأَعْرَاضُ وَالدِّمَاءُ وَالْأَمْوَالُ الْيَوْمَ بِحَيْثُ لَا يُطْمَأَنُّ عَلَيْهَا لَا فِى لَيْلٍ وَلَا فِى نَهَار ، وَأَصْبَحْنَا نَسْتَغِيثُ فَلَا نُغَاثُ مِنْ جِيلٍ كَأَنَّهُ يَرَى الْخِيَانَةَ عَلَيْهِ مِنَ الْوَاجِبَات . إِنَّ الْوُجُودَ الْيَوْمَ فِى تَلَهُّفٍ لِأَنْ يَرَى مِنَ الْأَمَانَةِ وَلَوِ الْخَيَال ، وَفِى حِرْصٍ شَدِيدٍ لِأَنْ يَرَى وَجْهَ أَمِينٍ لِيُرِينَا كَيْفَ يَكُونُ الرِّجَال ، وَفِى شَوْقٍ بَالِغٍ

إِلَى الظَّفَرِ بِمَنْ يُمَثِّلُ لَنَا أَهْلَ الْأَمَانَةِ الْأَبْطَال ، وَفِى تَلَفُّتٍ مُسْتَمِرٍّ لَعَلَّهُ يَسْعَدُ بِإِشْرَاقِ نُورِ أَمِينٍ فِى أَزْمِنَتِنَا هٰذِهِ الْمُظْلِمَات . وَلَعَلَّكَ تَقُولُ وَمَنْ هُوَ هٰذَا الْأَمِينُ فَأَقُولُ لَكَ هُوَ أَكْبَرُ مَظْهَرٍ لِلْكَمَال ، هُوَ الَّذِى إِنْ قَالَ أَوْ فَعَلَ لَا تَرَى وَلَا تَسْمَعُ مِنْهُ إِلَّا مَا نَبُلَ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَال ، وَإِنْ عَامَلَ الْعِبَادَ فَأَنْتَ عَاجِزٌ عَنْ أَنْ تَصِفَ مَا فِى مُعَامَلَتِهِ لَهُمْ مِنْ جَمَال ، وَإِنْ عَامَلَ الرَّبَّ فَعَبْدٌ مَا لِصِدْقِ عُبُودِيَّتِهِ لِمَوْلَاهُ مِنْ غَايَات . أَيْنَ مِنْ هٰذَا مَا ابْتُلِىَ بِهِ الْوُجُودُ الْيَوْمَ مِنْ صُوَرٍ تُشْبِهُ الرِّجَالَ وَمَا هُمْ بِرِجَال ، إِنْ عَامَلُوا الْخَلْقَ رَأَى الْخَلْقُ مِنْهُمْ مِنْ سُوءِ الْمُعَامَلَةِ مَا يُشِيبُ الْأَطْفَال ، وَإِنْ عَامَلُوا الْخَالِقَ فَفُجُورٌ لَا يَنْتَهِى وَجُرْأَةٌ عَلَى الْمَعَاصِى تَنْهَالُ مِنْهَا الْجِبَال ، وَلَوْ رَأَيْتَ الْيَوْمَ أَمِينًا فَهُوَ بَدْرٌ كَامِلٌ بَزَغَ فِى ظُلُمَاتٍ حَالِكَات . بِشَىْءٍ وَاحِدٍ فَقَدَ النَّاسُ الْأَمَانَةَ وَأَصْبَحُوا بِلَا شَرَفٍ وَلَا دِين ، ذٰلِكَ الشَّىْءُ هُوَ غَفْلَةُ قُلُوبِهِمْ عَنْ مُرَاقَبَةِ رَبِّ الْعَالَمِين ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَدَامُوا مُلَاحَظَةَ أَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَعَلَانِيَتَهُمْ مَا كَانُوا مِنَ الْخَائِنِين ، فَأَدِمْ تِلْكَ الْمُلَاحَظَةَ يَا هٰذَا وَإِنِّى ضَامِنٌ أَنْ تَكُونَ فِى الصَّفِّ الْأَوَّلِ مِنْ أَهْلِ الْأَمَانَات .

(حديث) لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ .

رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِى صَحِيحِهِ وَأَحْمَدُ وَالْبَزَّارُ وَالطَّبَرَانِىُّ فِى الْأَوْسَطِ .

(آخر) أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالحَاكِمُ وَالضِّيَاءُ وَالطَّبَرَانِيُّ وَالْبُخَارِيُّ فِى التَّارِيخِ.

٨٥ — هل الناس عندنا أجلّ من الله

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ امْرِئٍ هَمُّهُ التَّجَمُّلُ بِلِبَاسِ التَّقْوَى لِيُرْضِيَ مَوْلاَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ الَّذِى آيَةُ الْعَقْلِ الْعِنَايَةُ بِالْعَمَلِ لِرِضَاهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَجَلُّ الْعَالَمِ بِلِبَاسِ تَقْوَاهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ بَتَرُوا بِسُيُوفِ الإِخْلاَصِ عُنُقَ النِّفَاقِ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ: أَنْتَ لَكَ ثَوْبَانِ ثَوْبٌ تَتَجَمَّلُ بِهِ لِلْخَالِقِ وَثَوْبٌ تَتَجَمَّلُ بِهِ لِلْمَخْلُوقَاتِ، فَأَمَّا ثَوْبُكَ الَّذِى لِلْخَالِقِ فَلِبَاسُ التَّقْوَى الَّذِى هُوَ الأَعْمَالُ الصَّالِحَاتُ، وَأَمَّا ثَوْبُكَ الَّذِى لِلْخَلْقِ فَمَظَاهِرُكَ الدُّنْيَوِيَّةُ الْفَانِيَاتُ الْفَاتِنَاتُ، وَقَدْ رَأَيْنَاكَ تُرَجِّحُ الْعِنَايَةَ بِمَا لِلْخَلْقِ عَلَى الْعِنَايَةِ بِمَا لِلْخَلاَّقِ. فَإِنَّكَ مَعَ الْخَلْقِ تَتَحَرَّى مَوَاقِعَ أَبْصَارِهِمْ فَتُحْسِنُهَا كُلَّ الإِحْسَانِ، لِيَقَعَ فِى النُّفُوسِ حَالُكَ مَوْقِعاً لَيْسَ وَرَاءَهُ سِوَى الإِعْجَابِ وَالاِسْتِحْسَانِ، فَإِذَا لَبِسْتَ اخْتَرْتَ أَنْفَسَ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ وَقَدْ أُتْقِنَ تَفْصِيلُهُ وَخِيَاطَتُهُ أَكْمَلَ إِتْقَانٍ، فَإِذَا أَصَابَهُ مِنَ الْغُبَارِ شَيْءٌ نَبَذْتَهُ لِأَنَّهُ أَصْبَحَ لاَ تَرْتَضِيهِ الأَذْوَاقُ. وَإِذَا

رَكِبْتَ فَأَكْرَمُ وَأَفْخَرُ مَا تَسْتَطِيعُهُ مِنْ أَنْوَاعِ المَرَاكِبِ . وَإِذَا تَزَوَّجْتَ أَبَيْتَ - إِنْ تَمَكَّنْتَ - إِلاَّ أَنْ تَتَزَوَّجَ مِنْ أَعْلَى الطَّبَقَاتِ وَالمَرَاتِبِ، وَإِذَا سَكَنْتَ فَمَسْكَنُكَ - إِنْ أَمْكَنَ - بَيْتٌ لاَ نَظِيرَ لَهُ فِى المَشَارِقِ وَلاَ فِى المَغَارِبِ ، وَهَكَذَا لاَ تَتَحَرَّكُ حَرَكَةً إِلاَّ وَتُرِيدُ أَنْ يَقَعَ عَلَى أَنَّهَا الوَحِيدَةُ فِى بَابِهَا الاِتِّفَاقُ . هَكَذَا مَبْلَغُ عِنَايَتِكَ بِالثَّوْبِ الَّذِى تَتَجَمَّلُ بِهِ لِلْعِبَادِ ، وَأَمَّا الثَّوْبُ الَّذِى تَتَجَمَّلُ بِهِ لِلْخَالِقِ فَلاَ يُهِمُّكَ أَنْ يَكُونَ عَلَى مَا يُرَادُ ، سِيَّانِ عِنْدَكَ نَظُفَ مِنْ أَدْرَانِ المَعَاصِى أَمْ غَمَرَتْهُ كَمَا يَغْمُرُ البَيَاضَ السَّوَادُ ، وَسِيَّانِ رَضِىَ عَنْكَ رَبُّكَ أَمْ غَضِبَ عَلَيْكَ غَضَبَهُ الَّذِى لاَ يُطَاقُ ، إِنَّ خَطَأً لاَ يُدَانِيهِ خَطَأٌ أَنْ تَهْتَمَّ كُلَّ هَذَا الاِهْتِمَامِ بِالخَلْقِ دُونَ مَوْلاَكَ ، كَأَنَّ الخَلْقَ أَجَلُّ قَدْرًا عِنْدَكَ مِنْ رَبِّكَ الَّذِى يَمْلِكُ دُنْيَاكَ وَأُخْرَاكَ ، مَنْ هُمُ الخَلْقُ يَاهَذَا وَمَاقِيمَتُهُمْ حَتَّى تُرَجِّحَهُمْ عَلَى مَنْ أَبْدَعَكَ وَسَوَّاكَ ، إِنَّ عَدَمًا كُلُّ مَا سِوَى رَبِّكَ الَّذِى لَوْلاَهُ مَا كَانَتْ حَيَاةٌ وَلاَ آجَالٌ وَلاَ أَرْزَاقٌ . ثَوْبُ الخَلْقِ فَانٍ يَا هَذَا وَلاَ يُجِلُّكَ مِنْ أَجْلِهِ إِلاَّ عَبِيدُ الدُّنْيَا الجُهَلاَءُ ، وَأَمَّا لِبَاسُ التَّقْوَى فَبَاقٍ وَبِهِ يُجِلُّكَ رَبُّكَ وَمَلاَئِكَتُهُ وَجَمِيعُ الفُضَلاَءِ ، وَأَيْنَ فَانٍ مِنْ بَاقٍ وَأَيْنَ رِضَى الجَهَلَةِ مِنْ رِضَى رَبِّكَ الَّذِى بِهِ تَكُونُ مِنْ فَرِيقِ السُّعَدَاءِ ، وَمَعَ ذَلِكَ إِذَا جَمَعْتَ بَيْنَ جَمَالِ الثَّوْبَيْنِ كُنْتَ فِى مَيْدَانِ الفَلاَحِ مِنَ الحَائِزِينَ قَصَبَ السَّبَاقِ .

(حديث) إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلاَ إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَهْ .

٨٦ — هل كرم الأخلاق تغفيل

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ عَبْدٍ لاَ يُمَكِّنُ أَحَدًا مِنْ خِيَانَتِهِ وَهُوَ لاَ يَخُونُ . وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةَ عَاقِلٍ عَرَفَ أَهْلَ زَمَانِهِ وَفَطِنَ لِمَا يَفْعَلُونَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى عَلَّمَنَا أَنَّ مَنْ يَخُونُ مَنِ ائْتَمَنَهُ الْمُنَافِقُونَ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ جَمَالِ الْأَجْيَالِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : أَتَدْرِى مَا حَالُ النَّاسِ فِى زَمَانِكَ هَذَا - إِنَّهُ حَالٌ لَئِيمٌ ، وَكَيْفَ لاَ يَكُونُ لَئِيمًا حَالٌ يَرَى كَرَمَ الْأَخْلاَقِ تَغْفِيلاً يُزْرِى بِالْكَرِيمِ ، يَرَوْنَ الرَّجُلَ عَطُوفًا فَيُظْهِرُونَ أَمَامَهُ أَنَّ احْتِيَاجَهُمْ إِلَى الْمَالِ عَظِيمٌ ، فَإِذَا أَسْعَفَهُمْ بِمَا طَلَبُوا عَرَفُوا أَنَّهُمْ أَفْلَحُوا فِى خِدَاعِهِ وَفَرِحُوا فَرَحَ الْوَاصِلِ إِلَى الْآمَالِ . وَيَتَعَمَّدُونَ مُصَاحَبَةَ أَرْبَابِ الْمُرُوءَاتِ فَيَقْتَضِى الْحَالُ مَالاً بِهِ يَنْتَفِعُونَ ، فَيَتَقَدَّمُ ذُو الْمُرُوءَةِ خَاضِعًا لِحُكْمِ مُرُوءَتِهِ وَيَبْذُلُ مَا إِلَيْهِ يَحْتَاجُونَ ، وَهُنَا يَتَغَامَزُونَ سُرُورًا فَاهِمِينَ أَنَّهُمْ وَصَلُوا مِنْ غَفْلَتِهِ إِلَى مَا يَبْتَغُونَ ، وَتَضْحَكُ إِذَا سَمِعْتَهُمْ يَدْعُونَ لَهُ وَيُكْثِرُونَ مِنْ مَدْحِهِ لِيَدُومَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ . وَيَدْخُلُونَ بَيْتَ الْكَرِيمِ وَيُكْثِرُونَ مِنْ زِيَارَتِهِ - وَكَرَمُهُ يُحَتِّمُ عَلَيْهِ إِكْرَامَ

217

الزائرين ، فيقدم لهم ما يقدم طيبة بذلك نفسه - أجانب كانوا أو قريبين ، فيتناولون كرامته ويخرجون له ألسنتهم وقت التناول ساخرين به ضاحكين ، ويسألون الله تعالى أن يديم تغفيله ليدوم كرمه هذا الهطال . ويريد أحدهم أن يغتني فيدبر لهذا الغني حيلة من حيله الماكره ، فيشترى أو يؤجر أو يتجر فيما ثمنه مبالغ وافره ، ويعمل من الدهاء ما يعمل ليتقدم إلى ضمانه ذو ثروة ظاهره ، ثم يشهر إفلاسه ليدفع الضامن ديونه ويصبح هو غنيا بهذا الاحتيال . ويصادق أحدهم طيب القلب ويظهر له من الصلاح ما يبرهن على أنه الأمين الوحيد ، فإذا ائتمنه على مال فى بيت أو غيره جرده منه أبشع تجريد ، وإذا ائتمنه على عرض قضى على عفافه كما تقضى النار على الحصيد ، بل إذا ائتمنه على حياته بطش بها كما يبطش بالفريسة السبع المغتال . هذا حال الناس اليوم ولا تستثن إلا من عصمه الله وهم قليل ، سلامة القلب عندهم وكرم الأخلاق تغفيل يستحق عليه صاحبه الكيد الثقيل ، هذه أخلاق ليس لها فى انحطاطها حتى ولا بين الكلاب مثيل ، فإن الكلب يعرف للمحسن إحسانه ويدافع عنه دفاع الأبطال . أما المؤمنون فكرام يتأثرون بالإحسان ويرون من الفرائض أن يكافئوا على الإحسان ، بل يرون مكافأة من ابتدأهم بالإحسان خارجة عن حدود

الْإِمْكَان ، وَهِمَمُهُمُ السَّامِيَةُ فِى مَيَادِينِ التَّفَضُّلِ تَجْعَلُهُمْ يَحْرِصُونَ دَائِمًا عَلَى سَبْقِ الْإِخْوَان ، أَمَّا مَا سَمِعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ الْيَوْمَ فَهِيَ أَشْبَهُ بِأَخْلَاقِ أَهْلِ النِّفَاقِ الْأَنْذَال .

(حديث) مَنْ أَسْدَى إِلَى قَوْمٍ نِعْمَةً فَلَمْ يَشْكُرُوهَا لَهُ فَدَعَا عَلَيْهِمْ اُسْتُجِيبَ لَهُ . رَوَاهُ الشِّيرَازِى .

(آخر) آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اُؤْتُمِنَ خَانَ . رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ وَمُسْلِمٌ .

٨٧ — الحقوق التى على الانسان

الْحَمْدُ لِلّٰهِ حَمْدَ مُؤْمِنٍ لَا يُخِلُّ بِحَقٍّ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ شَدِيدًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ شَهَادَةً تُؤَكِّدُ أَدَاءَ الْحُقُوقِ تَأْكِيدًا ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى بِاتِّبَاعِهِ يُصْبِحُ الْوَغْدُ مَجِيدًا ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أُولِى الْفَضْلِ الْفَرِيد .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللّٰهِ : إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِزَوْجِكَ وَلِأَبْنَائِكَ وَلِرَبِّكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلِوُلَاةِ الْمُؤْمِنِين ، وَإِنَّ عَلَيْكَ أَنْ تُؤْتِيَ كُلَّ ذِى حَقٍّ حَقَّهُ كَمَا أَمَرَكَ الدِّين ، فَإِنْ لَمْ تَقُمْ بِهٰذِهِ الْحُقُوقِ تَعِبْتَ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِين ، فَاسْمَعْ هٰذِهِ الْحُقُوقَ وَاحْرِصْ عَلَى أَدَائِهَا لِيَحْسُنَ حَالُكَ فِى ذٰلِكَ الْيَوْمِ الشَّدِيد . أَمَّا حَقُّ نَفْسِكَ

فَدُنْيَوِىٌّ هُوَ أَنْ تَقُوتَهَا وَتَحْمِيَهَا مِنْ جَمِيعِ الْمَضَرَّاتِ ، وَدِينِيٌّ هُوَ أَنْ تُعَلِّمَهَا مَا يَجِبُ عَلَيْهَا وَتَقُومَ بِتِلْكَ الْوَاجِبَاتِ ، كُلُّ ذٰلِكَ فِى هَوَادَةٍ وَرِفْقٍ لِتَنْقَادَ لَكَ فِى كُلِّ الْإِرَادَاتِ ، وَاحْذَرْ أَنْ تُحَمِّلَهَا مَالاَ تُطِيقُ وَإِلاَّ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْكَ وَجَمَحَتْ جُمُوحَ الشَّيْطَانِ الْمَرِيدِ . وَأَمَّا حَقُّ زَوْجِكَ فَأَنْ تَقُومَ بِمَسْكَنِهَا وَمَأْكَلِهَا وَمَلْبَسِهَا بِقَدْرِ الْمُسْتَطَاعِ ، وَأَنْ تُعَلِّمَهَا مِنْ دِينِهَا مَا يَجِبُ عَلَيْهَا وَأَنْ تَحْفَظَهَا مِنْ فَسَادِ الطِّبَاعِ ، وَأَنْ تُعَاشِرَهَا بِمَعْرُوفٍ أَوْ تُفَارِقَهَا بِمَعْرُوفٍ لاَ أَنْ تُعَاشِرَهَا مُعَاشَرَةَ الرَّعَاعِ ، وَأَنْ تَقْصُرَ طَرْفَكَ عَلَيْهَا مُحَافِظًا عَلَى عَفَافِهَا وَإِلاَّ انْقَلَبَتْ كَالْفَحْلِ الشَّرِيدِ . وَأَمَّا حَقُّ أَبْنَائِكَ فَأَنْ تَتَخَيَّرَ لَهُمْ أُمَّهُمْ مِنْ بَيْتٍ كَرِيمٍ ، وَأَنْ تُعَلِّمَهُمْ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ وَتَكُونَ لَهُمْ أُسْوَةً حَسَنَةً بَعْدَ هٰذَا التَّعْلِيمِ ، وَأَنْ تَقُومَ بِكِفَايَتِهِمْ حَتَّى يَسْتَغْنِيَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَغْنِي بِالْكَسْبِ الْحَكِيمِ ، وَأَنْ تَتَخَيَّرَ لَهُمْ صَالِحَ الْأَزْوَاجِ وَإِلاَّ أَصْبَحْتَ مَعَهُمْ فِى حَالٍ لَيْسَ بِحَمِيدٍ . وَأَمَّا حَقُّ رَبِّكَ فَأَنْ تَعْرِفَهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِى السُّنَّةِ وَالْكِتَابِ ، وَأَنْ تَعْبُدَهُ وَحْدَهُ مُتَقَيِّدًا فِى عِبَادَتِكَ بِمَا شَرَعَهُ لَكَ مِنْ آدَابٍ ، وَأَمَّا حَقُّ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنْ تَكُونَ مَعَهُمْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يَكُونُوا مَعَكَ فِى الْمَكَارِهِ وَالْمَحَابِّ ، تَكُونُ هٰكَذَا مَعَ صَغِيرِهِمْ وَكَبِيرِهِمْ فِى إِخْلَاصِ الرَّجُلِ الرَّشِيدِ . وَأَمَّا حَقُّ وُلَاةِ الْأَمْرِ فَهُوَ أَنْ تُطِيعَهُمْ مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِحَرَامٍ ، وَهُوَ حَقٌّ أَكِيدٌ يَتَرَتَّبُ عَلَى الْإِخْلَالِ بِهِ فِتَنٌ

جِسَام ، وَلِلْحَيَوَانِ الأَعْجَمِ حَقٌّ هُوَ أَنْ تَرْفُقَ بِهِ حَتَّى عِنْدَ الإِعْدَامِ ، هٰذَا كُلُّ مَا يَتَّجِهُ عَلَيْكَ مِنَ الحُقُوقِ فَانْشَطْ لِأَدَائِهَا تُصْبِحْ وَأَنْتَ السَّعِيد .

(حديث) صُمْ (١) وَأَفْطِرْ وَنَمْ وَقُمْ فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا . رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيث .

(آخر) لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ . رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

(آخر) اَلدِّينُ النَّصِيحَةُ (٢) قُلْنَا لِمَنْ قَالَ لِلّٰهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

٨٨ — عظماء صناعيون

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي رَغَّبَنَا فِي التَّوَاضُعِ وَحَذَّرَنَا مِنَ الكِبْرِيَاء ،

---

(١) قاله لسيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص لما أخبرعنه أنه يصوم النهار ، ويقوم الليل والمراد بالزور فى الحديث الزوّار .

(٢) النصيحة لله معناها معرفته كما وصف نفسه ، وعبادته كما شرع ، والنصيحة لكتابه معناها التصديق بأنه كلام الله والعمل بأحكامه ، والنصيحة لرسول الله معناها التصديق بأنه رسول الله وبأن ماجاء به حق ، والعمل على ذلك ، والنصيحة لأئمة المسلمين أى ولاة الأمور : معناها السمع لهم والطاعة وعدم التمرّد عليهم ، والنصيحة لعامة المسلمين معناها حب الخير لهم ، وارشادهم الى ما فيه صلاحهم دنيا وأخرى .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ شَهَادَةً إِنْ تَغَلْغَلَتْ فِى الْقُلُوبِ حَرَسَتْهَا مِنْ مِنْ كُلِّ فَحْشَاء ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى بِاتِّبَاعِهِ صَفَا الْأَصْفِيَاء ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ خِيَارِ الْفُضَلَاء .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللّٰه : نَرَى الرَّجُلَ الْجَلِيلَ فَيَسُرُّنَا مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ فَضْلٍ كَبِيرٍ ، وَتَنْطَوِى قُلُوبُنَا عَلَى إِكْبَارِهِ وَتَنْطَلِقُ أَلْسِنَتُنَا بِثَنَاءٍ عَلَيْهِ كَثِيرٍ ، وَلَا نَزَالُ مَعَهُ هٰكَذَا مَا لَزِمَ التَّوَاضُعَ وَنَظَرَ إِلَى نَفْسِهِ بِعَيْنِ الْبَصِيرِ ، فَإِذَا انْتَفَخَ وَأَخَذَ يُعَظِّمُ نَفْسَهُ وَيَزْهُو عَلَى النَّاسِ سَقَطَ مِنْ عَيْنِ الْعُقَلَاء . هٰذَا نَظَرُ النَّاسِ إِلَيْهِ مَعَ أَنَّهُ فِى ثَنَائِهِ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الصَّادِقِينَ . لٰكِنْ لَمَّا تَوَلَّى هُوَ تَقْدِيرَ نَفْسِهِ ثَقُلَ صِدْقُهُ عَلَى السَّامِعِينَ ، وَكَانُوا يَتَمَنَّوْنَ أَنْ لَوْ سَكَتَ وَتَرَكَ تَقْدِيرَ نَفْسِهِ لِلْعَارِفِينَ ، وَإِذَا كَانَ هٰذَا فِى الصَّادِقِ فَمَا ظَنُّكَ بِأَرْبَابِ الدَّعَاوَى الَّتِى كُلُّهَا زُورٌ وَدَهَاء . مِنْ هٰؤُلَاءِ كَثِيرٌ تَرَى أَحَدَهُمْ يَتَعَسَّفُ وَيَظْهَرُ مَظْهَرَ الْأَتْقِيَاءِ الْمُخْلِصِينَ ، إِذَا جَلَسَ أَوْ مَشَى رَأَيْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْوَقَارِ مَا يُذَكِّرُكَ بِالْخَاشِعِينَ ، وَإِذَا تَكَلَّمَ سَمِعْتَ مِنْهُ عَنْ نَفْسِهِ مَا يُفْهِمُكَ أَنَّهُ مِنْ كِبَارِ الْعَارِفِينَ ، وَلَوْ دَقَّقْتَ فِى أَمْرِهِ عَلِمْتَ أَنَّهُ شَيْطَانٌ يُحِبُّ أَنْ تَرَاهُ مِنَ الْأَوْلِيَاء . وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَكَلَّفُ فِى كُلِّ تَقَلُّبَاتِهِ لِيَغُرَّ النَّاظِرِينَ أَنَّهُ كَثِيرُ الْمَالِ ، وَرُبَّمَا خَدَعَكَ بِالذَّهَبِ

يستعمله فى خاتمه وساعته (وكتينته) وهو استعمال ليس بحلال.
فإذا تحدث عن ثروته سمعت ما يوهمك أن عنده من الذهب أمثال الجبال، ولو حققت أمره تبين لك أنه صعلوك يريد أن تعرفه من الأغنياء. ومنهم من يحشر نفسه بين العلماء ذوى المقام السامى والقدر العظيم، وقد تسول له نفسه أن يطمن فيهم ويصغر من شأنهم الكريم، أما هو فيبالغ فى سعة علمه مبالغات يضحك منها ذو الحزن الأليم، ولو حادثته ظهر لك أنه جهول يطمع أن تعده من العلماء. إن أمثال هؤلاء أشبه بامرأة تحدث ضراتها أنها ذات حظوة عند العشير، وأنه يعطيها من بينهن ويعطيها ويختصها فى خلواته باللطف الكثير، هى تفتخر بذلك وتتعاظم على ضراتها وما أعطاها زوجها قدر نقير، وهكذا هؤلاء يكذبون على ربهم أنه أعطاهم لترى أنهم من العظماء. لعلك تشاركنى أيها الأخ فى اعتقاد أن هؤلاء من أهل الحقارة الأوغاد، ولو كانوا ذوى نفوس عظيمة ما ارتكبوا هذا التزوير على الله وعلى العباد، لا تكن مثلهم فى هذه الرذيلة واظهر دائماً بأقل من مستواك المعتاد، وإن أطعتنى فلا تهتم أن يعظمك إلا واحد فقط هو رب الآلاء.

(حديث) عن إحدى الصحابيات رضى الله عنها قالت: يا رسول الله إن لى ضرة فهل على جناح إن تشبعت من زوجى غير

الَّذِي يُعْطِينِي ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ [1] ثَوْبَيْ زُورٍ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

٨٩ — هل الرواج فى سوق المعاصى من آيات العظمة اليوم

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ مُؤْمِنٍ يَرْفَعُ بِالْتِزَامِ الْفَضِيلَةِ قَدْرَهُ عَنْ مُسْتَوَى أَهْلِ الرَّذَائِلِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةَ مَنْ قَامَ بِحَقِّهَا أَصْبَحَ مَمْدُودًا مِنْ أَرْبَابِ الْفَضَائِلِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي سَمَا فِي الْفَضِيلَةِ إِلَى أَسْمَى الْمَنَازِلِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ بَعِيدٍ عَنِ الْآثَامِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : الْمَعَاصِي حَرَّمَهَا رَبُّنَا لِأَنَّهَا إِفْسَادٌ فِي الْأَرْضِ وَضَرَرٌ يَنْزِلُ بِالْعَالَمِينَ ، وَلِأَنَّهَا ظُلْمٌ لِنَفْسِ الْعَاصِي تُعَرِّضُهُ لِلْإِهَانَةِ هُنَا وَفِي يَوْمِ الدِّينِ ، وَبِهَا تُرَدُّ شَهَادَتُهُ وَلَا تُقْبَلُ أَخْبَارُهُ لَا فِي دُنْيَا وَلَا فِي دِينٍ ، وَبِهَا يُزْهَدُ فِي مُصَاهَرَتِهِ وَيَفِرُّ مِنْ صُحْبَتِهِ أَهْلُ الْوَقَارِ وَالْاحْتِرَامِ . وَبِهَا تَنْظُرُ إِلَيْهِ الْعُيُونُ بِاحْتِقَارٍ وَتَنْطَوِي النُّفُوسُ لَهُ عَلَى الْازْدِرَاءِ ، وَبَعْضُهَا يُقْتَلُ كُفْرًا وَبَعْضُهَا يُقْتَلُ حَدًّا وَبَعْضُهَا يُعَزَّرُ تَعْزِيرَ الرُّقَعَاءِ ، يُفْضَحُ بِذَلِكَ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ مِنْ

---

(١) هو الذى يدعى أن يشهد زورا فيستعير ثوبين نفيسين ويلبسهما ويذهب إلى حيث يشهد فإذا رآه القاضى بهذه الوجاهة استبعد أن يشهد زورا وقبل شهادته فطمته فى الثوبين المستعارين ، وحقيقته من أكابر أهل الحقارة ، والمراد بالمتشبع المدعى معنى فاضلا ليس له .

ثبتت عليه ليكون عبرة للعقلاء ، والنار في انتظاره يلاقي بها يوم القيامة ما يلاقي من الآلام . المعاصي التي هذه عواقبها أصبح فعلها اليوم هيناً جداً على الفاعلين ، ويمكنك أن تجزم أنهم يرتكبونها دون أي مبالاة بالناظرين ، ألم ترهم يعدون وراء النساء في الشوارع نهاراً جهاراً بين سمع السامعين وبصر المبصرين ، كأن أحدهم حمار لمح حمارة فطار وراءها بلا عقل ولا احتشام . يعلنون عن الخمر ويبالغون في مدح أنواعها ويحتسونها على قوارع الطرقات ، والأرض مملوءة بمن يأتون الغلمان كالنساء ولا عار على مأتي ولا آت ، والربا أخذاً وعطاء غدا شقيق البيع والشراء وكل عقودنا المشروعات ، ولماذا أعدد كبائر الإسلام وأنت تعلم أن من المباح اليوم الكفر بالإسلام . دعنا من مقام المجاهرة بالمعاصي وتأكد أنهم أصبحوا بهذه المعاصي يتفاخرون ، هي عندهم من المطالب الغالية ولذلك يتبادلون التهانى بها وعليها يتمادحون ، فمن راج أو راجت في سوق المعاصي فقدره أو قدرها تتمناه العيون ، والكاسد أو الكاسدة في تلك السوق أثقلهم دماً وأحطهم فى المقام . لا تظن أنى أبالغ في هذا بل تأكد أن الواقع بينهم هو ما أحكيه ، ولو بحثت موضوع المعاصي والعاصين لهالك ما تراه من ذلك وما ترويه ، وتستطيع أن تحيل السبب في ذلك إلى أنك في زمن مسخت الإنسانية فيه ، من

أَجْلِ هٰذَا رَأَوُا الْقَبِيحَ جَمِيلاً وَرَأَوُا الْجَمِيلَ قَبِيحاً يُطَأْطِئُ رُءُوسَ الْكِرَامِ . إِنَّ هٰذِهِ الْمَعَاصِيَ وَرَاءَهَا النَّارُ جَزَاءً لَهَا يَا أَيُّهَا الإِخْوَانُ ، فَالَّذِينَ يَأْتُونَ الْمَعَاصِيَ فِي أَفْرَاحٍ سَيَدْخُلُونَ النَّارَ فِي أَحْزَانٍ ، فَمَنْ أَمْكَنَهُ أَنْ يَتَحَمَّلَ عَذَابَ النَّارِ فَلْيَتَمَادَ عَلَى مَا هُوَ فِيهِ مِنْ عِصْيَانٍ ، وَمَنْ عَرَفَ أَنَّهُ لاَ يُطِيقُ عَذَابَهَا فَلْيَبْتَعِدْ عَنِ الْمَعَاصِي وَأَهْلِيهَا اللِّئَامِ .

(حديث) مَنْ أَذْنَبَ وَهُوَ يَضْحَكُ دَخَلَ النَّارَ وَهُوَ يَبْكِي . رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحِلْيَةِ .

٩٠ — أي قيمة لسيادة بعدها النار

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ مُؤْمِنٍ عَرَفَ الدُّنْيَا وَعَرَفَ قَدْرَ زُخْرُفِهَا الْغَرَّارِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةَ كَيِّسٍ عَرَفَ الآخِرَةَ وَعَرَفَ قَدْرَ جَنَّتِهَا وَالنَّارِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي وَصَّانَا أَنْ نَخْتَارَ دَارَ الْقَرَارِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْفُضَلاَءِ الأَخْيَارِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : أَجِلْ طَرْفَكَ فِي الْوُجُودِ الْيَوْمَ وَانْظُرْ نَظْرَةَ تَفَكُّرٍ وَاعْتِبَارٍ ، تَجِدِ السِّيَادَةَ الدُّنْيَوِيَّةَ شَرْقاً وَغَرْباً شَمَالاً وَجَنُوباً لِفَرِيقِ الْكُفَّارِ ، سِيَادَةً فِي الصِّنَاعَةِ وَفِي الْمَالِ وَفِي الْقُوَّةِ وَفِي الاخْتِرَاعِ وَالابْتِكَارِ ، لاَ يَجْحَدُ ذٰلِكَ فِيهِمْ إِلاَّ مُكَابِرٌ أَوْ أَبْلَهُ لاَ يَعْرِفُ مَا لأُولٰئِكَ النَّاسِ مِنْ مِقْدَارٍ . أَمَّا سِيَادَتُهُمْ فِي

الصناعة فدليلها حاجتنا الشديدة إلى وارداتهم حتى للابر ، وأما سيادتهم في المال فميزانياتهم تخبر عنها إخباراً لا يكذبه بشر ، وأما سيادتهم في القوة فالطيارات والغواصات والمدافع الضخمة برهان عليها أبلج من قمر ، وأما سيادتهم في الاختراع (فالكهرباء والراديو والتليفونات والتلغرافات) تشهد بها شهادة الأبرار . لهذه السيادة الواضحة افتتن بهم كثير منا معشر المسلمين ، فتنة يخشى أشد الخشية منها على عقولهم وشرفهم وعلى الدين ، ولا تكذب إذا قلت إن كثيراً منهم جاهروا بموافقة أولئك الناس الماهرين ، وافقوهم في لغتهم وفي لباسهم وفي عاداتهم وفي اعتقادهم الكفار . ما كان يجوز هذا من أفراد يحفظ التاريخ لسلفهم أنهم كانوا سادة العالمين ، والذي كان ينبغي أن ينهضوا للحاق سلفهم ويدعوا لهذا اللحاق جميع المؤمنين ، أما تلك الفتنة فهي برهان على ضعف عقولهم وعلى أنهم من جنود إبليس اللعين ، وإنا نبرأ إلى الله تعالى من كل من يغتر بكافر جنته هذه الدار . لقد حذرنا ربنا من هذه الفتنة فقال تعالى : لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ، وبين قدر ما هم عليه وعاقبته فقال : متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ، هذا بيان ربنا عز وجل وهو وحده العليم بالعباد وبما يسعد العباد ، فهل ترضى أيها العاقل سعادة وقتية كهذه ثم تكون أبدا

فِي النَّارِ . لَـكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، هٰذَا كَلَامُ رَبِّنَا فِي الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا يَحْتَرِمُ أُولٰئِكَ الْمَغْرُورُونَ مِنْهُمْ أَحَدًا ، فَأَيُّهُمَا أَجَلُّ ؟ سِيَادَةٌ مُؤَقَّتَةٌ بَعْدَهَا عَذَابُ الْأَبَدِ أَمْ سِيَادَةٌ أَبَدِيَّةٌ فِي نَعِيمٍ سَرْمَدًا ، أُحْكُمْ وَاخْتَرْ أَيُّهَا الْأَخُ وَاحْذَرْ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا اغْتَرَّ بِهِ أُولٰئِكَ الْمَسَاكِينُ الْأَشْرَارُ .

(حديث) الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْـكَافِرِ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

(آخر) أَمَا تَرْضَى أَنْ تَـكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَهْ .

﴿ ٩١ ـ ماينبغي أن يكون عليه الرجال مع النساء ﴾

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي أَمَرَنَا أَنْ نَقِيَ أَنْفُسَنَا وَأَهْلِينَا عَذَابَ الْجَحِيمِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ الَّذِي رَأَّسَ الرِّجَالَ عَلَى النِّسَاءِ يُلْزِمُونَهُنَّ النَّهْجَ الْقَوِيمَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي بُعِثَ لِلتَّعْلِيمِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ خِيَارِ الْأَبْرَارِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّٰهِ : لَقَدْ وَقَفَ الرِّجَالُ الْيَوْمَ مِنَ النِّسَاءِ مَوْقِفًا يُغْضِبُ اللّٰهَ ، تَرَكُوهُنَّ حَبْلُهُنَّ عَلَى غَارِبِهِنَّ يَفْعَلْنَ مَا يَفْعَلْنَ وَيَتْرُكْنَ مَا يَتْرُكْنَ بِلَا مُبَالَاهْ ، هٰذَا حَرَامٌ عَلَى الرِّجَالِ يُعَذِّبُهُمُ اللّٰهُ تَعَالَى عَلَيْهِ فِي دَارِ الْعُصَاهْ ، لِأَنَّهُمْ رُؤَسَاءُ عَلَى النِّسَاءِ وَكُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ

عن رعيته كما أخبر المختار . علموهن الدين أيها الناس لأنهن ربما كفرن وهن لا يشعرن لجهلهن العظيم ، واحملوهن على الصلاة لانهن ينظرن إليها كأنها شيء ذميم ، وراقبوهن في الصيام لانهن ينفرن منه محافظة على جسمهن الجسيم ، وعلموهن أحكام الحيض والنفاس لأن خلطهن في هذا الباب يدهش الأفكار . وعودوهن الصبر على البلايا وأفهموهن ما في الجزع من الآثام ، ولا تأذنوا لهن في الذهاب إلى المآتم فإنهن يفعلن هناك ما يخرج عن دين الإسلام ، ولا تدخلوا عليهن رجالا أجانب كأبناء الأخوال وأبناء الأعمام ، فإن هذا الدخول أوسع الأبواب التي ينفذ إلى الزنى منه الفجار . ولا تمكنوهن من الخروج من البيوت إلا لضرورة تقتضي ذلك كل الاقتضاء ، بشرط أن تكونوا معهن تصونونهن في الطريق من كل اعتداء ، لأن الناس اليوم أصبحوا بحالة لا يؤمنون معها على أعراض النساء ، وحسبكم ما ترونه بأعينكم نهاراً جهاراً في الشوارع بلا حياء ولا وقار . لقد منع الإسلام أن تخرج المرأة وحدها إلى حج بيت الله الحرام ، وانظروا دين من تحج ودين من يحجون معها من الرجال الكرام ، أترون ربنا يمنع خروج هذه وحدها ويبيح لنساء الشوارع المتبرجات هذا الهيام ، يذهبن وحدهن بين فجرة العباد إلى حيث يردن في ليل أو في نهار . إن أقل ما في الخروج أن ترى المرأة أجمل

مِنْ زَوْجِهَا فَتَحْتَقِرُهُ أَيَّمَا احْتِقَار ، وَتَرَى مِنَ الْحُلِيِّ وَالْحُلَلِ عَلَى نِسْوَةِ غَيْرِهَا مَا يُنَغِّصُ عَلَيْهَا عَيْشَهَا وَيَجْعَلُهَا كَأَنَّهَا فِي نَار ، وَصَفْوَةُ الْقَوْلِ أَنَّ الرِّجَالَ هُمُ الْقَوَّامُ عَلَى النِّسَاءِ فَلْيَكُونُوا مَعَهُنَّ فِي هٰذَا الْمَرْكَزِ الْمُخْتَار ، وَلْيَعْمَلُوا عَلَى صَوْنِهِنَّ وَتَعْلِيمِهِنَّ مَا يُدْخِلُهُنَّ الْجَنَّةَ وَيُبْعِدُهُنَّ عَنْ دَارِ الْأَشْرَار .

(حديث) تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هٰذِهِ الْآيَةَ : قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً . فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ نَقِي أَهْلَنَا نَاراً ؟ قَالَ : تَأْمُرُونَهُمْ بِمَا يُحِبُّهُ اللهُ ، وَتَنْهَوْنَهُمْ عَمَّا يَكْرَهُ اللهُ . رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ .

٩٢ — الكافر والمؤمن

الْحَمْدُ لِلّٰهِ حَمْداً يُكَافِئُ مَالَهُ تَعَالَى عَلَيْنَا مِنْ نِعَمٍ وَإِحْسَانَات ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةَ مُعْتَرِفٍ بِالْعَجْزِ الْكُلِّيِّ عَنْ شُكْرِ مَا لِرَبِّنَا عَلَيْنَا مِنْ مَبَرَّات ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَقَرَّ بِالْعَجْزِ عَنِ الشُّكْرِ حَتَّى بِالْعِبَارَات ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ ذِي قَلْبٍ مُنِير .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : احْمَدِ اللهَ تَعَالَى كَثِيراً ثُمَّ احْمَدْهُ عَلَى أَنْ جَعَلَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِين ، وَازْدَدْ فِي الْحَمْدِ ثُمَّ ازْدَدْ عَلَى أَنَّهُ أَجَارَكَ مِنْ كُفْرِ الْكَافِرِين ، فَإِنَّكَ لَوْ عَلِمْتَ أَحْوَالَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ فِي الدُّنْيَا وَفِي يَوْمِ الدِّين ، لَوْ عَلِمْتَ هٰذَا لَرَأَيْتَ نِعْمَةَ رَبِّكَ عَلَيْكَ لَا تُحَدُّ

قَدْرُهَا بِتَقْدِيرٍ . يَعِيشُ الْمُؤْمِنُ الْمُسْتَقِيمُ هُنَا فِى نُورِ دِينِهِ لَا يَتَحَيَّرُ أَمَامَهُ الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ ، تَفْنَى فِى حَلَاوَةِ إِيمَانِهِ كُلُّ مَرَارَةٍ تَعْتَرِضُهُ فِى هٰذِهِ الدَّارِ دَارِ الْآلَامِ ، فَإِذَا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ رَأَيْتَهُ فِى شَوْقٍ عَظِيمٍ لِنُزُولِ الْمَوْتِ الزُّؤَامِ ، لِأَنَّهُ يَرَى حِينَئِذٍ مِنَ الْبَشَائِرِ مَا يَنْسَى مَعَهُ آلَامَ ذٰلِكَ الْوَقْتِ الْعَسِيرِ . فَإِذَا دَخَلَ قَبْرَهُ قَالَ لَهُ مَرْحَبًا وَأَهْلًا وَاتَّسَعَ لَهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، وَصَارَ لَهُ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ يَتَنَعَّمُ فِيهَا وَلَا سَأَمَ وَلَا ضَجَرَ ، فَإِذَا بُعِثَ بُعِثَ فِى نُورٍ وَاسْتُقْبِلَ بِالْبَشَائِرِ وَرَأَى عَمَلَهُ فِى أَحْسَنِ الصُّوَرِ ، ثُمَّ تُقَدَّمُ لَهُ النَّجَائِبُ فَيَرْكَبُ وَافِدًا إِلَى دَارِ الْكَرَامَةِ لَا خَوْفَ وَلَا خَطَرَ ، لَا يَحْزُنُهُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ فَإِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ رَأَى النَّعِيمَ الْمُقِيمَ وَالْمُلْكَ الْكَبِيرَ . أَمَّا الْكَافِرُ فَيَعِيشُ هُنَا فِى ظُلُمَاتِ كُفْرِهِ يَتَخَبَّطُ تَخَبُّطَ الْحَيْرَانِ ، مَظَاهِرُ سُرُورِهِ الَّتِى تَرَاهَا يُحِيطُ بِهَا مِنْ كُفْرِهِ آلَامٌ كَثِيرَةٌ وَأَحْزَانٌ ، فَإِذَا حَانَتْ وَفَاتُهُ رَأَى مِنَ الْكُرُوبِ مَا تَنْهَدُّ لَهُ مِنْهُ الْأَرْكَانُ ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَنْكَشِفُ لَهُ مَآلُهُ الْأَبَدِىُّ وَمَا لَهُ فِيهِ مِنْ عَذَابٍ خَطِيرٍ . فَإِذَا دَخَلَ قَبْرَهُ قَالَ لَهُ لَا مَرْحَبًا وَلَا أَهْلًا وَصَارَ حُفْرَةً مِنْ حُفَرِ النَّارِ ، فَإِذَا بُعِثَ بُعِثَ أَسْوَدَ الْوَجْهِ أَزْرَقَ الْعَيْنَيْنِ يَمْشِى عَلَى وَجْهِهِ فِى غَايَةِ الصَّغَارِ ، أَصَمَّ أَبْكَمَ أَعْمَى فِى عَطَشٍ وَحَيْرَةٍ لَا يَعْلَمُ إِلَّا اللهُ مَا لَهُمَا مِنْ مِقْدَارٍ ، مَوْقِفُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ وَبِهِ مِنَ الْأَهْوَالِ مَا يُشِيبُ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ .

فَإِذَا دَخَلَ النَّارَ رَأَى مِنَ الْعَذَابِ مَالاَ تَحْتَمِلُهُ الْأَرْضُ وَلاَ السَّمٰوَاتُ، وَلَيْسَ هٰذَا يَوْماً وَلاَ أَلْفاً بَلْ هُوَ مُسْتَمِرٌّ أَبَداً لَيْسَ لَهُ نِهَايَاتٌ، هٰذَا حَالُ الْكَافِرِينَ وَحَالُ صَالِحِي الْمُؤْمِنِينَ كَأَنَّهُ أَمَامَكَ مِنَ الْمُشَاهَدَاتِ، فَاشْكُرْ بِأَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ رَبَّكَ وَبَالِغْ فِي شُكْرِهِ عَلَى أَنْ جَعَلَكَ مِنْ حِزْبِهِ الطَّيِّبِ الْبَصِيرِ.

(حديث) لَوْ قِيلَ لِأَهْلِ النَّارِ إِنَّكُمْ مَا كِثُونَ عَدَدَ كُلِّ حَصَاةٍ فِي الدُّنْيَا لَفَرِحُوا بِهَا، وَلَوْ قِيلَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ إِنَّكُمْ مَا كِثُونَ عَدَدَ كُلِّ حَصَاةٍ لَحَزِنُوا، وَلٰكِنْ جُعِلَ لَهُمُ الْأَبَدُ. رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ.

٩٣ — الرئيس والمرءوس

الْحَمْدُ لِلّٰهِ حَمْدَ عَبْدٍ يَرَى لِلرَّئِيسِ حَقَّهُ لِأَنَّهُ وَلَّاهُ عَلَيْهِ مَوْلَاهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ شَهَادَةً تُؤَكِّدُ عَلَى الرَّئِيسِ الْعَمَلَ لِمَا يُحِبُّهُ الْمَرْءُوسُ وَيَرْضَاهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَيْرُ عَبْدٍ اخْتَارَهُ وَاصْطَفَاهُ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ مُمَاثِلٍ لَهُمْ فِي الشُّؤُونِ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّٰهِ: الْأُمَّةُ جِسْمٌ وَرَأْسُ هٰذَا الْجِسْمِ طَائِفَةٌ مَخْصُوصَةٌ تُعْرَفُ الْيَوْمَ بِالْمُوَظَّفِينَ، فَالْعُضْوُ الْمُفَكِّرُ مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ الْمُدَبِّرُ لِشُؤُونِهَا هُوَ هٰذَا الصِّنْفُ مِنَ الْعَامِلِينَ، وَهٰؤُلَاءِ الْمُوَظَّفُونَ قِسْمَانِ قِسْمُ الرُّؤَسَاءِ وَالْقِسْمُ الْآخَرُ جَمَاعَةُ الْمَرْءُوسِينَ،

وَبَيْنَ يَدَىْ هٰذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ مَصَالِحُ الْأُمَّةِ كُلُّهَا يُعَالِجُونَهَا وَفِيهَا يَعْمَلُونَ . فَوَاجِبٌ عَلَى كُلٍّ مِنَ الرَّئِيسِ وَالْمَرْءُوسِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ عَنْ عَمَلِهِ مَسْئُولٌ ، لِأَنَّهُ رَاعٍ وَرَعِيَّتُهُ الْأُمَّةُ بِأَسْرِهَا رِجَالُهَا وَنِسَاؤُهَا بِيضُهَا وَسُودُهَا شُبَّانُهَا وَالْكُهُولُ ، فَإِنْ قَصَّرَ بِأَىِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ التَّقْصِيرِ سُئِلَ عَنْ تَقْصِيرِهِ فِيمَا يَفْعَلُ وَفِيمَا يَقُولُ ، وَعَلَى قَدْرِ تَقْصِيرِهِ يَكُونُ جَزَاؤُهُ يَوْمَ يُجْزَى بِأَعْمَالِهِمُ الظَّالِمُونَ . وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْجِنَايَةَ عَلَى فَرْدٍ لَيْسَتْ كَالْجِنَايَةِ عَلَى آلَافٍ وَمِئِينَ ، وَتَعْلَمُ أَنَّ الْجِنَايَةَ عَلَى الْآلَافِ وَالْمِئِينَ لَيْسَتْ كَالْجِنَايَةِ عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْمَلَايِينِ ، وَإِذَا كَانَ الْمَجْنِىُّ عَلَيْهِ أُمَّةً كَانَ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْهَا حَقٌّ عَلَى الْجَانِى وَالْحَقُّ الْأَعْلَى لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، هٰذَا مَبْلَغُ جِنَايَةِ التَّقْصِيرِ فِى الْمَصَالِحِ الْعُمُومِيَّةِ فَلْيَعْلَمْهُ الْإِخْوَانُ الْمُؤْمِنُونَ . وَيَنْبَغِى فَوْقَ هٰذَا أَنْ يَكُونَ الْحُبُّ مُتَبَادَلًا بَيْنَ الْمَرْءُوسِينَ وَالرُّؤَسَاءِ ، بِأَنْ يَكُونَ الرُّؤَسَاءُ لِلْمَرْءُوسِينَ كَالْآبَاءِ وَيَكُونَ الْمَرْءُوسُونَ لِرُؤَسَائِهِمْ كَالْأَبْنَاءِ ، يُرْشِدُ الرَّئِيسُ مَرْءُوسِيهِ إِلَى مَا يَجْهَلُونَ وَيُنَبِّهُهُمْ إِلَى مَا يَغْفُلُونَ عَنْهُ فِى رِفْقِ الْفُضَلَاءِ ، وَمَنْ تَكَرَّرَ مِنْهُ تَعَمُّدُ الِاسْتِخْفَافِ بِالْعَمَلِ يُحَذِّرُهُ عَاقِبَةَ ذٰلِكَ وَيُفْهِمُهُ مُقْتَضَى الْقَانُونِ ، وَلَا يَكُنْ كَأُنَاسٍ بِمُجَرَّدِ أَنْ يَتَرَأَّسَ أَحَدُهُمْ يَتَعَالَى وَيَتَأَلَّهُ عَلَى الْمَرْءُوسِينَ ، وَإِنْ هَفَا أَحَدُ مَرْءُوسِيهِ وَبَّخَ وَعَنَّفَ وَبَطَشَ فِى الْحَالِ بَطْشَةَ الْجَبَّارِينَ ، يَعْزِلُ وَيُوَلِّى وَيُبْعِدُ وَيُدْنِى غَيْرَ مُقَدِّرٍ

آثَارَ ذٰلِكَ عَلَى الْعَامِلِينَ ، وَغَافِلاً عَنْ أَنَّ اللّٰهَ يَغَارُ عَلَى عِبَادِهِ وَيُعَامِلُ الْجَبَّارِينَ بِمَا يَعْمَلُونَ . أَمَّا الْمَرْءُوسُ فَعَلَيْهِ أَنْ يُقْبِلَ عَلَى عَمَلِهِ وَأَنْ يُخْلِصَ الْإِخْلَاصَ الصَّادِقَ لِلرَّئِيسِ ، هٰذَانِ وَصْفَانِ لَوِ اجْتَمَعَا فِي مَرْءُوسٍ كَانَ عِنْدَ رَئِيسِهِ الْجَوْهَرَ النَّفِيسَ ، وَلْيَحْذَرِ التَّمَرُّدَ عَلَى الرُّؤَسَاءِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنَ الْفِتَنِ الَّتِي يَرْقُصُ لَهَا إِبْلِيسُ ، كُلُّ هٰذَا يَقْتَضِيهِ الْعَقْلُ وَالدِّينُ وَالنِّظَامُ فَلْيُبَادِرْ إِلَى الْعَمَلِ بِهِ السَّامِعُونَ .

(حديث) كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثٍ .

(آخر) اسْمَعُوا [1] وَأَطِيعُوا وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .

---

(١) النفس بفطرتها ميالة إلى الرئاسة لأن الرئيس بوصفه هذا ممتاز عن المرءوسين وله الكلمة عليهم ومستواه فوق مستواهم فى الهيئة الاجتماعية ، وإن شئت فقل إن حب الرّئاسة لايساويه أى حب لأىّ شيء ، ولذلك قالوا انه آخر مايخرج من قلوب الصديقين — فلو ترك الناس وشأنهم لتسابقوا إلى هذا المركز الممتاز وتنازعوه وتقاتلوا عليه وأبى كل امرئ أن يكون مرءوسا وذلك هو الفوضى التى لا يمكن أن تسير معها سفينة هذا الوجود — فهذا الحديث الكريم نظم لنا هذه الناحية التى عليها يدور نظام هذه الحياة ، وأمرنا هذا الأمر الجازم الذى يرينا أن مخالفة الرئيس — مهما كان منحطا فى شخصيته — لاتسوغ ولاتجوز لنا ، فإذا سمع المؤمن ربه يلزمه على لسان نبيه أن يطيع رئيسه راض وخضع وسكنت سورة نفسه ، وهان عليه أن يكون مرءوسا ، وذلك صالحه خاصة لأنه بذلك يأمن جانب الرئيس فى قوّته وبطشه — وصالح الرئيس لأنه بذلك يستطيع أن يباشر عمله هادئ القلب ، صافى الفكر غير منزعج على مركزه ولاعلى نفسه — وصالح الكافة لأن شؤونهم حينئذ تدار على أحسن حال — وكما أن ربنا شدد علينا أن نسمع ونطيع لولى أمرنا — الولى الأعلى فمن دونه — كذلك شدد عليه تشديداً عظيما فى أن يعدل ولا يظلم فردا من مرءوسيه أو يستخف بحق من حقوقه وتوعد على ذلك توعدا يطيش العقول — توعدا حمل

٩٤ — كيف نحن وسلفنا فى الخوف من الله

الحَمْدُ لله حَمْدَ عَبْدٍ يَرَى الأَمْنَ يَوْمَ القِيامَةِ فى مَخَافَةِ مَوْلاَه ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ الَّذِى مَنْ أَمِنَهُ فى دُنْيَاهُ أَخَافَهُ فى أُخْرَاه ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَيْرُ مَنْ خَافَهُ وَاتَّقَاه ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِى القَلْبِ السَّلِيم .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ الله : لَقَدْ كَانَ سَلَفُنَا لَهُمْ مِنَ اللهِ خَوْفٌ يُنَاسِبُهُمْ كَعَبِيد ، وَلَوْ رَاجَعْتَ تَارِيخَهُمْ لَأَخَذَ بِقَلْبِكَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ وَجَلٍ شَدِيد ، كَانَ أَحَدُهُمْ يَسْمَعُ كَلِمَةَ الذِّكْرَى فَتُذْهِلُهُ

كثيرا من المؤمنين أن يفروا من أى رئاسة هربا من ذلك الوعيد الذى منه قوله صلى الله عليه وسلم : مامن عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة . رواه البخارى ومسلم — فالرئاسة عند أهل البصيرة من الناس ليست لذة ولا ينظرون إليها كما ينظر إليها الحمق من الناس الذين بمجرد أن يلى أحدهم ولو على فرد واحد يصول ويجول ويفعل الأفاعيل بمرءوسه إن رآه تحرك حركة لاتعجبه ولو بلا قصد . وكأنه يريد منه أن يتخذه إلها يعبده مع الله أو من دونه — نعم ليست الرئاسة لذة ولا متعة يتمتع بها الرئيس العاقل ، ولكنها حمل هو أثقل الأحمال ومسئولية كبرى لصاحبها يوم أى يوم — وقوله صلى الله عليه وسلم : كأن رأسه زبيبة . زيادة بيان للعبد الحبشى ، وهذا الصنف من الناس ترى شعور رءوسهم متجعدة كل طائفة منها فى تجعدها كأنها زبيبة — ويخف على المرءوس طاعة رئيسه إذا راعي ماقدمنا ، وأن هذا الرئيس إنما ولاه مولاه العليم الحكيم — وتلزم نفس الرئيس حدها إذا لاحظ أنه مسئول عن كل تصرف من تصرفاته إن أحسن أحسن الله القدير إليه ، وإن أساء أساء إليه بمقدار إساءته — وليس ما ذكر تحقيرا للعبد الحبشى بل هو نص على صنف ليست الولاية فيه بل فى صنف أشرف وأعلى . بل العبد بعنوان أنه عبد ليس من أهل الولاية مطلقا ، ومع ذلك لو تولى بالقهر لا يجوز التمرد عليه ولا مخالفة أمره متى أمر بغيرحرام .

فَيَقِف شَاخِصَ الْبَصَرِ لاَ يُبْدِي وَلاَ يُعِيد ، وَرُبَّمَا هَامَ عَلَى وَجْهِهِ لاَ يَدْرِي مِنْ ذُهُولِهِ إِلَى أَيِّ مَكَانٍ يَهِيم . وَلَعَلَّكَ تَعْجَبُ مِنْ هَذَا لِأَنَّكَ لاَ تَرَاهُ وَلاَ تَسْمَعُهُ فِي هَذَا الزَّمَان ، لاَ تَعْجَبْ وَتَأَكَّدْ مَا أَقُولُ لَكَ وَلاَ تَقِسْ بِزَمَانِكَ تِلْكَ الْأَزْمَان ، بَلْ كَانَ أَحَدُهُمْ يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيَصْعَق وَيَبْقَى أَيَّامًا لاَ يَعِي وَأَهْلُهُ عَلَيْهِ فِي أَحْزَان ، وَقَدْ يَمْكُثُ الْأَشْهُرَ الْمُتَوَالِيَةَ يَعُودُهُ النَّاسُ لِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَضٍ أَلِيم . إِنِّي مُوقِنٌ أَنَّكَ سَتُلَاقِي بِغَايَةِ الدَّهْشَةِ هَذِهِ الْأَخْبَار ، وَلَوْ عَلِمْتَ مَا عَلِمْتُ مَا دَهِشْتَ مِنْ خَبَرٍ تَسْمَعُهُ عَنْ أُولَئِكَ الْأَبْرَار ، بَلْ كَانَ أَحَدُهُمْ يَسْمَعُ الْعِظَةَ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ غَيْرِهِ فَيَمُوتُ وَيُفَارِقُ هَذِهِ الدَّار ، وَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ نُحْصِيَ قَتْلَى مَجَالِسِ التَّذْكِيرِ أَوْ قَتْلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيم . عَرَفَ هَؤُلَاءِ النَّاسُ رَبَّهُمْ فَخَافُوهُ وَلاَ يَخَافُ اللَّهَ إِلاَّ عَارِفُوه ، وَرَقَّتْ قُلُوبُهُمْ ثُمَّ رَقَّتْ لِصَفَائِهَا مِنَ الشَّرِّ الَّذِي تَرَكُوه وَالْخَيْرِ الَّذِي عَمِلُوه ، وَعَرَفُوا مِقْدَارَ آثَارِ رِضْوَانِ اللَّهِ وَغَضَبِهِ فَقَدَّرُوه حَقَّ قَدْرِهِ ثُمَّ قَدَّرُوه ، لِهَذَا كَانَتْ تَنْصَدِعُ قُلُوبُهُمْ إِذَا ذَكَّرَهُمْ أَيُّ مُذَكِّرٍ بِرَبِّهِمُ الْحَكِيم . لاَ تَظُنَّ أَنَّ ذَلِكَ الْخَوْفَ كَانَ مِنْهُمْ لِأَنَّهُمْ فِي الْمَعَاصِي كَانُوا يُسْرِفُون ، لاَ تَظُنَّ ذَلِكَ وَاعْلَمْ أَنَّهُمُ الَّذِينَ يَقُولُ فِيهِمْ رَبُّنَا فِي الْكِتَابِ الْمَصُون ، وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُون ، أَيْ يَفْعَلُونَ مَا يَفْعَلُونَ مِنَ الْخَيْرِ وَقُلُوبُهُمْ فِي رَهْبَةٍ مِنْ يَوْمِ الْعَرْضِ الْعَظِيم . إِنَّ

هؤلاء معذورون كل العذر في خوفهم هذا المزعج القاتل ، فقد سمع بعضهم ورأى آخرون ما كان عليه نبيهم من الخوف وهو سيد كل فاضل ، كان إذا عصفت ريح تغير وجهه وقام خوفاً أن تكون من العذاب النازل ، وإذا كان هذا خوف سيد الخلق فكيف لا يخاف غيره من رب قدير عليم . صفوة الوجود وخير أمته يخافون الله هذا الخوف ونحن آمنون ، نفعل كل موبقة حتى الكفر ونترك كل فريضة ونحن فرحون مسرورون ، كأنا أخذنا على الله وثيقة أن لا يعذبنا ونحن مجرمون متهتكون ، خافوا الله أيها الناس ولا تخالفوه فإن الخوف يعقب جنات النعيم .

(حديث) كان صلى الله عليه وسلم إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه فيقوم ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفاً من عذاب الله . رواه البخاري ومسلم .

٩٥ — عظات نبيلة

الحمد لله الذي أمرنا أن نستعد للموت بفعل ما يرضى وترك ما لا يرضاه ، وأشهد أن لا إله إلا الله الذي وعد المتقين بالجنة وتوعد سواهم بالنار دار الغواه ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله سيد المتقين وإمام الهداه ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ورثة الأنبياء .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : لَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ إِذَا مَاتَ ابْنُكَ أَوْ أَبُوكَ أَوْ أَيُّ حَبِيبٍ ، وَلَا إِذَا بَرَّحَتْ بِكَ الْأَمْرَاضُ وَحَارَ فِي عِلَاجِهَا الطَّبِيبُ ، وَلَا إِذَا ذَهَبَتْ أَمْوَالُكَ وَأَصْبَحْتَ فَقِيراً يَرْثِي لَكَ الْبَعِيدُ وَالْقَرِيبُ ، فَإِنَّ تَمَنِّيَ الْمَوْتِ فِي مِثْلِ هٰذِهِ الْأَحْوَالِ يُعْتَبَرُ عَدَمَ رِضًى بِالْقَضَاءِ . لَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ طُوِيَتْ صَحِيفَتُكَ عَلَى مَا بِهَا مِنْ سَيِّئَاتٍ وَحَسَنَاتٍ ، لٰكِنْ مَا دُمْتَ حَيًّا فَإِنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَزِيدَ حَسَنَاتِكَ كُلَّ يَوْمٍ بِفِعْلِ الصَّالِحَاتِ ، وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْحُوَ سَيِّئَاتِكَ مَهْمَا كَثُرَتْ بِالْمَتَابِ الصَّادِقِ مِنْ تِلْكَ السَّيِّئَاتِ ، وَلِذٰلِكَ كَانَ خَيْرُ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ كَمَا أَخْبَرَ سَيِّدُ الْأَصْفِيَاءِ . لٰكِنْ إِذَا رَأَيْتَ أَنَّكَ أَصْبَحْتَ فِي فِتْنَةٍ مِنْ فِتَنِ الدِّينِ ، وَكَانَتْ هٰذِهِ الْفِتْنَةُ تَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَدَاءِ مَا يَجِبُ عَلَيْكَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَوْ جَعَلَتْكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَحَامَى مَا حَرَّمَ عَلَيْكَ هٰذَا الرَّبُّ الْمَتِينُ ، إِذَا كَانَ هٰذَا فَلَا حَرَجَ أَنْ تَتَمَنَّى الْمَوْتَ فِرَاراً مِنْ هٰذِهِ الْفِتَنِ الْعَمْيَاءِ . وَاحْرِصْ مَا دَامَتْ حَيَاتُكَ أَنْ يَكُونَ قَلْبُكَ مَشْغُولاً بِصَالِحَاتِ الْأَعْمَالِ ، حَتَّى إِذَا حَضَرَتْ وَفَاتُكَ غَلَبَتْ صَالِحَاتُكَ وَمُتَّ عَلَى خَيْرِ حَالٍ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَمُوتُ عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْهِ يَظْهَرُ ذٰلِكَ فِي أَقْوَالِهِ وَالْأَفْعَالِ ، وَلِذٰلِكَ لَا يَذْكُرُ الْعُصَاةُ عِنْدَ مَمَاتِهِمْ دِيناً وَلَا رَبًّا وَإِنَّمَا يَذْكُرُونَ بَلَايَاهُمْ وَهُمْ أَحْيَاءٌ . وَاجْتَهِدْ أَنْ تَتُوبَ إِلَى رَبِّكَ مِنْ مَعَاصِيكَ وَأَنْتَ

تَرْجُو الْحَيَاه ؛ فَإِنَّ التَّوْبَةَ فى هٰذِهِ الْحَالَةِ تقعُ فى وَقْتِهَا فَيَقْبَلُهَا اللهُ ، وَلَا تَــكُنْ كَمَنْ يَتَمَادَى عَلَى مَعَاصِيهِ حَتَّى إِذَا رَأَى الْمَوْتَ تَابَ مِمَّا جَنَاه ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ فى هٰذِهِ الحَالَةِ لَا تُقْبَلُ لِأَنَّ التَّائِبَ حِينَئِذٍ لَيْسَ لَهُ فى الْحَيَاةِ رَجَاء . ثُمَّ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ أَنَّ حَيَاتَكَ هٰذِهِ أَيَّامٌ مَعْدُودَاتٌ مُنَغَّصَات ، وَأَنَّ حَيَاتَكَ الْأُخْرَوِيَّةَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ لَيْسَ لَهَا أَبَدًا نِهَايَات ، فَلَا تَــكُنِ الرَّجُلَ الَّذِى يُرَجِّحُ أَيَّامًا مُنَغَّصَةً عَلَى حَيَاةِ الْأَبَدِ وَكُلُّهَا لَذَّاتٌ صَافِيَات ، أَسْأَلُ رَبِّى أَن يُلْهِمَنِى وَإِيَّاكَ رُشْدَنَا لِنَعْمَلَ لِحَيَاةِ الْأَبَدِ كَمَا يَعْمَلُ النُّبَلَاء .

(حديث) لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ (١) ، رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ وَالنَّسَائِىُّ وَأَحْمَدُ .

٩٦ — الكسب

الْحَمْدُ لِلّٰهِ حَمْدَ امْرِئٍ لَا يُقَصِّرُ فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهِ لِنَفْسِهِ وَالْعِيَال ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ شَهَادَةَ شَحِيحٍ عَلَى دِينِهِ لَا يُدْخِلُ بَطْنَهُ غَيْرَ حَلَال ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى نَهَانَا عَنِ الشَّرَهِ عَلَى الْمَال ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَعَلَى كُلِّ سُمَحَاءِ الْأَخْلَاق .

---

(١) أى يطلب من ربه العتبى أى الرضى بالأنابة والمتاب مما فرط منه لايرضى ربه .

239

(أمَّا بعدُ) فيا عبدَ الله : إنَّ فريضةً عليكَ أنْ تحافظَ على حياتكَ وعلى حياةِ منْ تجبُ لهمْ عليكَ النفقات ، وأنتَ لا تحافظُ على تلكَ الأنفسِ إلاَّ بإعطائها ما للحياةِ منْ ضروريّات ، وهذهِ الضّروريّاتُ لا يُمكنكَ أنْ تحصلَ عليها إلاَّ بمالٍ تبذلُهُ عندَ المبادلات ، إذنْ كسبُ المالِ للمحافظةِ على الحياةِ فريضةٌ بلْ تستطيعُ أنْ تقولَ إنّهُ أوّلُ الفرائضِ على الإطلاق . فاكتسبِ المالَ يا هذا لما قلنا ولكَ على كسبهِ ثوابُ الفرائضِ القطعيّات ، واحذرْ أنْ تفرّطَ في ذلكَ وإلاَّ تعرّضتَ لعذابِ منْ يفعلُ كبائرَ الموبقات ، وإذا أردتَ هذا الكسبَ فبكّرْ فإنَّ البكورَ وقتُ البركات ، ولا تشكَّ في أنَّ ما تكتسبُهُ بكدّكَ وعملِ يدكَ هوَ أفضلُ الأرزاق . وتحرَّ الحلالَ في كسبكَ فإنّهُ ينيرُ القلوبَ وبهِ تنشطُ الجوارحُ على الطّاعات ، وهوَ وصيّةُ اللهِ تعالى ورسولهِ وصالحي عبادهِ كما أنّهُ الطّريقُ للجنّات ، وتوقَّ الحرامَ فإنّهُ يُظلمُ القلوبَ ويُثقلُ الأبدانَ عنْ عملِ الصّالحات ، وهوَ موضعُ نهيِ ربّنا ونبيّهِ وخيارِ خلقهِ وهوَ سبيلُ النّارِ الّتي لا تُطاق . وإذا دخلتَ الأسواقَ فاذكرْ ربّكَ فإنّها مواطنُ غفلةٍ والذّاكرُ فيها لهُ أجرٌ عظيم ، ولا تكنْ شديدَ الحرصِ على جلبِ المالِ فإنَّ ذلكَ يُتعبكَ ولا يأتي بغيرِ ما قسمَ العليمُ الحكيم ، وكنْ سهلاً في بيعكَ سهلاً

فِي شِرَائِكَ تَكُنْ مِنْ أَفَاضِلِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَنَلْ رَحْمَةَ مَوْلَاكَ الرَّحِيمِ ، وَابْتَعِدْ عَنِ الشُّبُهَاتِ فِي كَسْبِكَ وَإِلَّا أَوْشَكَ أَنْ تَقَعَ فِيمَا حَرَّمَ الْخَلَّاقُ . وَإِذَا نَدِمَ مِنْ عَامَلْتَهُ فَأَقِلْهُ يُقِلْكَ رَبُّكَ يَوْمَ الْحَسَرَاتِ ، وَاجْتَنِبِ الْغِشَّ فِي كُلِّ مُعَامَلَاتِكَ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَّا مَنْ غَشَّنَا فِي الْمُعَامَلَاتِ ، وَلَا تُطَفِّفِ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ وَإِلَّا فَالْوَيْلُ لَكَ يَوْمَ تَنْهَتِكُ سَرَائِرُ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَلَا تَحْتَكِرْ طَعَامًا لِيَغْلُوَ فَإِنَّ ذَلِكَ حَرْبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ يَبْرَأُ مِنْكَ وَيَضْرِبُكَ بِالْإِفْلَاسِ خَالِقُكَ الرَّزَّاقُ . وَكُنْ صَادِقًا فَإِنَّ التَّاجِرَ الصَّدُوقَ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ ، وَلَا تَحْلِفْ كَاذِبًا لِتُرَوِّجَ سِلْعَتَكَ وَإِلَّا مُحِقَتْ بَرَكَتُكَ وَقُذِفْتَ فِي أَلِيمِ الْعَذَابِ لَا يَنْظُرُ إِلَيْكَ مَوْلَى الْآلَاءِ ، وَإِذَا شَارَكْتَ فَلَا تَخُنْ شَرِيكَكَ وَإِلَّا رُفِعَتِ الْبَرَكَةُ مِنْ بَيْنِكُمَا وَكُنْتُمَا لِلشَّيْطَانِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ ، وَلَا تَشْتَرِ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ ثَمَنُهُ وَإِلَّا تَرَاكَمَتْ عَلَيْكَ الدُّيُونُ وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الْحُذَّاقِ .

(حديث) لَا أَشْتَرِي شَيْئًا لَيْسَ عِنْدِي ثَمَنُهُ . رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ .

٩٧ معاملات فاشية لا تجوز

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَيَّنَ لِعِبَادِهِ الْمُعَامَلَاتِ كَمَا بَيَّنَ لَهُمُ الْعِبَادَاتِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي يَسْأَلُ الْعِبَادَ هَلْ قَامُوا بِتَكَالِيفِهِ

المُحْتَرَمَات ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الذِى بَلَّغَ الأَحْكَامَ بَيِّنَات ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الوَقَّافِينَ عِنْدَ الشُّبُهَات .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَبِيعَ أَوْ تَشْتَرِى فَوَاجِبٌ عَلَيْكَ أَنْ تَتَعَلَّمَ أَحْكَامَ المُبَادَلاَت ، فَإِنَّ دِينَكَ لاَ يَرْضَى أَنْ يَبِيعَ أَوْ يَشْتَرِىَ مَنْ لاَ يَعْرِفُ كَيْفَ تَكُونُ المُبَايَعَات ، فَإِنَّ مَنْ لاَ يَعْرِفُ ذَلِكَ يَقَعُ فِيمَا حَرَّمَ اللهُ وَهُوَ لاَ يَدْرِى لِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الجَهَالاَت ، وَلِهَذَا كَانُوا فِى الصَّدْرِ الأَوَّلِ لاَ يَسْمَحُونَ بِدُخُولِ السُّوقِ إِلاَّ لِلْفَقِيهِ فِى تِلْكَ المُعَامَلاَت . أَمَّا الْيَوْمَ فَحَدِّثْ عَنِ الجَهْلِ بِهَاتِيكَ المُعَاوَضَاتِ وَأَنْتَ مِنَ التَّكْذِيبِ فِى أَمَان ، لِهَذَا يَشْتَرِى أَحَدُهُمُ الشَّىْءَ المَنْقُولَ وَيَبِيعُهُ قَبْلَ التَّسَلُّمِ وَهُوَ عَقْدٌ يَمْنَعُهُ مَوْلاَنَا الدَّيَّان ، وَيَبِيعُ أَحَدُهُمُ الشَّىْءَ لِأَجَلٍ غَيْرِ مُعَيَّنٍ أَوْ مَعَ جَهَالَةٍ فِى الأَثْمَان ، أَوْ يَبِيعُ المَكِيلَ أَوِ المَوْزُونَ بِمِثْلِهِ لِأَجَلٍ أَوْ مُتَفَاضِلاً أَوْ بِغَيْرِ مِثْلِهِ لِأَجَلٍ وَكُلُّهُ مِنَ المَحْظُورَات . وَيَرْتَهِنُ أَحَدُهُمْ قِطْعَةَ أَرْضٍ أَوْ بَيْتًا أَوْ غَيْرَهُمَا لِيَطْمَئِنَّ عَلَى مَا أَقْرَضَ مِنْ مَال ، فَيَسْتَغِلُّ هَذَا الرَّهْنَ مِنْ وَقْتِ تَسَلُّمِهِ بِكُلِّ أَنْوَاعِ الاِسْتِغْلاَل ، وَهُوَ لاَ يُقْرِضُ مَا يُقْرِضُ إِلاَّ بِهَذَا الشَّرْطِ وَبِدُونِهِ القَرْضُ مُحَال ، وَهُوَ كَمَا تَرَى نَوْعٌ مِنْ أَفْحَشِ أَنْوَاعِ الرِّبَا وَلَيْسَ مِنَ الطَّيِّبَات . وَيَشْتَرِى أَحَدُهُمُ

المَكِيلَ بِكَيْلِهِ وَيُرِيدُ أَنْ يَبِيعَهُ لِأَخِيهِ ، وَهٰذَا الْأَخُ إِذَا أَرَادَ شِرَاءَهُ يَتَسَلَّمُهُ مِنْهُ دُونَ أَنْ يُجْرِيَ كَيْلَهُ فِيهِ ، وَهٰذَا الْعَقْدُ إِذَا عَرَضْتَهُ عَلَى دِينِكَ هَلْ يَرْتَضِيهِ ؟ لَا يَرْتَضِيهِ ، بَلْ لَا بُدَّ عِنْدَهُ أَنْ تُجْرِيَ الْكَيْلَ فِي الشِّرَاءِ الثَّانِي لِيَكُونَ الْعَقْدُ مِنَ الْجَائِزَاتِ . وَتَرَاهُمْ يَبِيعُونَ الثِّمَارَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْدُوَ صَلَاحُهَا وَهُوَ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ حَرَامٌ ، كَحُرْمَةِ تَأْخِيرِهِمْ قَبْضَ بَدَلِ الصَّرْفِ أَوْ بَعْضِهِ عَنِ الْمَجْلِسِ وَهُوَ مُنْكَرٌ فِي الْإِسْلَامِ ، وَمِثْلُهُ أَخْذُ الْعُرْبُونِ عِنْدَ عَدَمِ تَمَامِ الْبَيْعِ وَهُوَ مِنْ عَجَائِبِ هٰذِهِ الْأَيَّامِ ، وَنَظِيرُهُ بَيْعُ مَا لَا يُقْدَرُ عَلَى تَسْلِيمِهِ كَبَيْعِ السَّمَكِ فِي الْمَاءِ وَالطَّيْرِ فِي الْهَوَاءِ وَالْأَجِنَّةِ فِي بُطُونِ الْأُمَّهَاتِ . لَا تَظُنَّ أَنَّ خَبْطَ النَّاسِ فِي الْعُقُودِ يَقِفُ عِنْدَ هٰذَا الْحَدِّ بَلْ غَيْرُ هٰذَا كَثِيرٌ ، لَا يَعْرِفُهُ الْجَرِيءُ فِي دِينِهِ وَإِنَّمَا يَعْرِفُهُ مَنْ يُرَاقِبُ فِي كُلِّ حَرَكَاتِهِ مَوْلَاهُ الْبَصِيرَ ، فَتَنَبَّهْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ وَتَعَلَّمْ مَا يَحِلُّ وَمَا يَحْرُمُ فِي مُعَامَلَاتِكَ لِتَنْجُوَ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَإِنَّ النَّجَاةَ فِي ذٰلِكَ الْيَوْمِ بَعِيدَةٌ عَنِ الْجَاهِلِينَ أَرْبَابِ الْغَفَلَاتِ .

(حديث) يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي (١) الْمَرْءُ مَا أَخَذَ أَمِنَ الْحَلَالِ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ فَإِذْ ذَاكَ لَا تُجَابُ لَهُمْ دَعْوَةٌ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَرَزِينٌ وَاللَّفْظُ لَهُ .

---

(١) فى هذا الحديث اخبار بغيب ما كان وقت الاخبار ، وقد تحقق فى هذا الزمان ثم تحقق فهو من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم .

٩٨ - هل يتنافى التداوى مع التوكل

الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى جَعَلَ الثِّقَةَ بِهِ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ فِى المَكَانَةِ الأُولَى مِنَ الإِسْلَامِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ الَّذِى جَعَلَ لِكُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا لِتَطَّرِدَ عَادَتُهُ فَيَعْرِفَهَا الخَاصُّ وَالعَامُّ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى مَا اسْتَخَفَّ بِالأَسْبَابِ فِى يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ ، اللّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الأُدَبَاءِ الفُضَلَاءِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللّهِ : بَيْنَنَا أُنَاسٌ لَا يَرَوْنَ مِنَ التَّوَكُّلِ التَّدَاوِىَ مِنَ الأَسْقَامِ ، لِذَلِكَ يُنْكِرُونَ عَلَى مَنْ تَدَاوَى لِيَدْفَعَ أَوْ يُخَفِّفَ عَنْ نَفْسِهِ الآلَامَ ، فَمَنِ اسْتَسْلَمَ لِلأَمْرَاضِ تَفْتِكُ بِهِ فَهُوَ وَحْدَهُ عَلَى مَذْهَبِهِمُ المُتَوَكِّلُ المِقْدَامُ ، وَمُنْسَلِخٌ عَنْ مَقَامِ التَّوَكُّلِ كُلُّ مَنْ تَدَاوَى وَلَوْ فَعَلَتْ فِعْلَهَا بِهِ الأَدْوَاءُ . فَمَقَامُ التَّوَكُّلِ عَلَى هَذَا الرَّأْىِ يَأْبَى عَلَى المَرْءِ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنْ جَمِيعِ المُهْلِكَاتِ ، فَإِنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ مُؤْلِمٍ هُوَ المَرَضُ وَمُؤْلِمٍ كَالنَّارِ المُحْرِقَةِ وَالسِّبَاعِ المُفْتَرِسَاتِ ، إِذَنْ يَكُونُ التَّوَكُّلُ عَلَى هَذَا الرَّأْىِ مَعْنَاهُ اسْتِسْلَامَ العَاقِلِ لِكُلِّ المُهْلِكَاتِ ، وَهَلْ يَرْضَى عَاقِلٌ نِسْبَةَ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ فَضْلًا عَنْ نِسْبَتِهِ لِرَبِّ العُقَلَاءِ . إِنَّ رَسُولَ اللّهِ يَا هَذَا دَعَا إِلَى التَّدَاوِى وَدَاوَى نَفْسَهُ وَدَاوَى سِوَاهُ ، حَصَلَ ذَلِكَ كَثِيرًا وَهَاهِىَ تِهِ دَوَاوِينُ السُّنَّةِ مُفْعَمَةً

بالطبِّ الذي أجراه ، فهل كانَ رسولُ اللهِ ـ وهوَ أفضلُ الخلقِ ـ ليسَ مِنْ أهلِ التوكلِ على اللهِ ، أمْ ماذا يقولُه هؤلاءِ ليفهموا مقالتَهمْ هذه لذوي الذكاء . يا هذا إنَّ اللهَ تعالى جرتْ عادتُه أنْ يخلقَ الأشياءَ معَ أسبابِها المعلوماتِ ، فمتى باشرَ الناسُ الأسبابَ أوجدَ ـ إنْ شاءَ ـ معَها المسبباتِ ، فمعَ السعيِ يرزقُ ومعَ الأكلِ يشبعُ ومعَ التداوِي يشفِي منَ المؤلماتِ ، هذا ما عليهِ الناسُ مِنْ أولِ الدنيا ومعهمُ الرسلُ والأنبياءُ . إنَّ التوكلَ على اللهِ يا هذا هوَ أنْ تفعلَ الأسبابَ لا معتمدًا على الأسبابِ ، بلْ تفعلُها موقنًا أنها لا توصلُ إلا بمعونةِ ربِّ الأربابِ ، اعلمْ هذا واحرصْ عليهِ وتداوَ مِنْ أيِّ مرضٍ بهِ تُصابُ ، واحذرْ أنْ تتركَ التداوِيَ وأنتَ مريضٌ وإلا ساءَ حالُكَ ثمَّ ساءَ . هذا لسانٌ نخاطبُ بهِ السوادَ الأعظمَ منَ الأمةِ وهمْ أهلُ الأسبابِ ، الذينَ إنْ لمْ يُسعفوا بالتداوِي جزعوا وكثيرًا ما يشتمونَ مولانا الوهابَ ، أمّا منْ عظمتْ ثقتُهمْ باللهِ وهمُ المنصوصُ أنهمْ يدخلونَ الجنةَ بغيرِ حسابٍ ، فهؤلاءِ أفرادٌ لا كلامَ لنا معهمْ وهمْ مثابونَ على تركِ الدواءِ .

(حديث) لكلِّ داءٍ دواءٌ فإذا أُصيبُ دواءُ الداءِ برأَ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ . رواهُ مسلمٌ وأحمدُ .

٩٩ كيف نحن الآن مع الدين

الحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى أَحْسَنَ إِلَيْنَا بِدِينِ الإِسْلَامِ إِحْسَانًا لَا يُدْرَكُ مَدَاه، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةً بِدُونِهَا لَا يُنَالُ رِضَاه ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَيْرُ دَاعٍ إِلَى تَوْحِيدِ مَوْلَاه ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ بِدِينِهِمْ خُتِمَتِ الأَدْيَان .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : إِنَّ الأَدْيَانَ كُلَّهَا مُجْمِعَةٌ عَلَى النَّهْيِ عَنِ المَعَاصِي وَالأَمْرِ بِالطَّاعَات ، لَمْ تَنْزِلْ شَرِيعَةٌ سَمَاوِيَّةٌ إِلَّا بَيَانُ هٰذَا قَطْعًا لِمَعَاذِيرِ أَرْبَابِ الضَّلَالَات ، وَتَوَعَّدَتِ المِلَلُ كُلُّهَا مَنْ يَعْصِي بِالنَّارِ وَوَعَدَتْ مَنْ يُطِيعُ بِالْجَنَّات ، وَمَا مِنْ شَرِيعَةٍ نَزَلَتْ إِلَّا وَ بَلَّغَهَا لِلْخَلْقِ رَسُولٌ شَهِدَ بِصِدْقِهِ خَالِقُ الأَكْوَان . نَحْنُ كُلُّنَا نُؤْمِنُ بِهٰذَا إِيمَانًا لَا يَعْتَرِيهِ اضْطِرَاب ، وَنَحْكُمُ عَلَى مَنْ يَتَرَدَّدُ فِيهِ بِأَنَّهُ كَافِرٌ مُرْتَاب ، وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ هٰكَذَا يَا ذَوِي البَصَائِرِ وَيَا أُولِي الأَلْبَاب ، فَمَا الَّذِي أَصَابَنَا حَتَّى جَعَلَنَا عَلَى مَا عَلَيْهِ نَحْنُ الآن . نَحْنُ الْيَوْمَ نَزْنِي عَلَنًا وَنَلُوطُ عَلَنًا وَنَشْرَبُ الخَمْرَ عَلَنًا وَنُرَابِي فِي العَلَن ، يَذْهَبُ إِلَى الأَمَاكِنِ المُعَدَّةِ لِذٰلِكَ مَنْ أَرَادَهُ وَيَغْشَى مَا يَغْشَى وَعَلَى غَارِبِهِ الرَّسَن ، أَمَّا قَتْلُ النُّفُوسِ وَالسَّطْوُ عَلَى الأَعْرَاضِ وَالأَمْوَالِ فَهٰذَا شَيْءٌ ضَجَّ مِنْهُ الزَّمَن ، وَلَا أُكْثِرُ عَلَيْكَ فَالكُفْرُ غَدَا يَقْتَحِمُ عَلَنًا بِكُلِّ جُرْأَةٍ

وَاطْمِئْنَان . هٰذَا حَالُنَا فِى المَعَاصِي وَالْأَسَفُ كُلُّ الْأَسَفِ عَلَى حَالِنَا فِى الطَّاعَات ، أَصْبَحْنَا يَأْمُرُ اللّٰهُ فَلَا نَلْتَفِتُ لِأَمْرِهِ وَتُصْدِرُ أَمْرَهَا فَنُسَارِعُ إِلَى مَا تَأْمُرُ الشَّهَوَات ، فَطَاعَاتُنَا الْيَوْمَ قَضَاءُ شَهَوَاتِنَا وَأَحْسَنَ اللّٰهُ عَزَاءَكَ فِى الصَّالِحَات ، وَإِذَا رَأَيْتَ مُطِيعاً فَرِيَاءٌ أَوْ عَادَةٌ طَاعَاتُهُ وَنَادِرٌ مَنْ يُطِيعُ بِإِخْلَاصٍ وَإِذْعَان . وَإِذَا كَانَ إِقْبَالُنَا عَلَى المَعَاصِي فَنَحْنُ عَلَى الْإِهَانَةِ إِذَنْ مُقْبِلُون ، وَإِذَا كَانَ إِدْبَارُنَا عَنِ الطَّاعَاتِ فَنَحْنُ عَنِ الْكَرَامَةِ إِذَنْ مُدْبِرُون ، وَهَلْ قَوْمٌ يُقْبِلُونَ عَلَى الإِهَانَةِ وَيُدْبِرُونَ عَنِ الْكَرَامَةِ يُقَالُ إِنَّهُمْ يَعْقِلُون ، إِنَّ خُرُوجَ أَمْثَالِ هٰؤُلَاءِ مِنْ صُفُوفِ الْعُقَلَاءِ لَا يَخْفَى حَتَّى عَنِ الصِّبْيَان ، هٰذِهِ نَتِيجَةٌ فِى غَايَةِ الْقَسْوَةِ عَلَى أَهْلِ المَعَاصِي فَلْيَسْمَعُوهَا سَمَاعَ اعْتِبَار ، لَعَلَّهُمْ مِنْ تَدَبُّرِهَا يَعْرِفُونَ مَوْقِفَهُمْ فَيَنْتَقِلُوا بِالمَتَابِ مِنْ بَيْنِ الْفُجَّارِ إِلَى مَوَاقِفِ الْأَبْرَار ، هُمُ الْآنَ أَحْيَاءٌ يَسْتَطِيعُونَ إِرْضَاءَ رَبِّهِمْ بِلُزُومِ الِاسْتِقَامَةِ فِى الْبَاقِي مِنَ الْأَعْمَار ، فَلْيُبَادِرُوا إِلَى ذٰلِكَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا وَتَخْرُجَ الْفُرْصَةُ عَنْ حَدِّ الْإِمْكَان .

(حديث) أَغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ ، حَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ . رَوَاهُ الحَاكِمُ وَأَحْمَدُ وَالْبَيْهَقِيُّ فِى الشُّعَبِ وَأَبُو نُعَيْمٍ فِى الْحِلْيَةِ .

١٠٠ ـ التحريض على الصدقة

الحَمْدُ لِلّهِ الّذِي اعْتَبَرَ صَدَقَتَنَا قَرْضاً لَهُ تَعالَى وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّ مَالَنَا مِنْ آلَاءٍ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الّذِي يَتَوَلّى مُكَافَأَةَ المُتَصَدِّقِينَ عَنْ جَمَاعَةِ الفُقَرَاءِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَكْرَمُ مَنْ أَظَلّتْهُ السَّمَاءُ ، اللّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الّذِينَ كَانُوا يُنْفِقُونَ وَاحْتِيَاجُهُمْ إِلَى مَا يُنْفِقُونَ شَدِيدٌ وَأَكِيدٌ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : إِنْ كُنْتَ فِي سَعَةٍ مِنَ العَيْشِ فَاحْمَدِ اللهَ تَعالَى عَلَى أَنْ جَعَلَكَ فِي هٰذَا اليَسَارِ ، وَأَدِمْ شُكْرَهُ يُدِمْ عَلَيْكَ النِّعْمَةَ وَيَزِدْهَا وَهُوَ ذُو العَطَاءِ المِدْرَارِ ، وَمِنْ تَمَامِ شُكْرِ النِّعْمَةِ أَنْ تَعْطِفَ وَلَوْ بِالزَّكَاةِ عَلَى ذَوِي الِاحْتِيَاجِ وَالِافْتِقَارِ ، وَبِغَيْرِ ذٰلِكَ لَا تَكُونُ شَاكِراً وَمَا لِكَافِرِ النِّعْمَةِ إِلَّا زَوَالُهَا وَالعَذَابُ الشَّدِيدُ . تَشَبَّهْ بِرَبِّكَ فِي كَرَمِهِ وَجُودِهِ حَتَّى عَلَى مَنْ تَمَرَّدَ وَفَعَلَ المُوبِقَاتِ ، وَانْتَظِرْ جَزَاءَهُ عَلَى ذٰلِكَ الجُودِ فِي هٰذِهِ الدَّارِ وَيَوْمَ الحَسَرَاتِ ، فَأَمَّا جَزَاؤُكَ هُنَا فَأَنْ يَزِيدَ لَكَ مَالَكَ ثُمَّ يَزِيدَهُ أَضْعَافاً مُضَاعَفَاتٍ ، وَأَمَّا جَزَاؤُكَ فِي الآخِرَةِ فَأَنْ يُجِيرَكَ مِنْ دَارِ عَذَابِهِ وَيُدْخِلَكَ دَارَ الكَرَامَةِ وَالمَزِيدِ . أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَرَاعِ عِنْدَ الإِحْسَانِ الأَدَبَ ، لَا تَمُنَّ عَلَى الفَقِيرِ بِذِكْرِ مَا تُعْطِيهِ وَلَا تُؤْذِهِ بِالتَّعْنِيفِ فَإِنَّ

بِالْمَنِّ وَالْأَذَى تُحْبِطُ الْأَعْمَالَ وَيُغْضِبُ الرَّبَّ ، وَاسْتَرْ عَطَاءَكَ مُخْلِصاً فِيهِ مُوقِناً أَنَّ حَاجَتَكَ إِلَى الثَّوَابِ أَشَدُّ مِنْ حَاجَةِ الْفَقِيرِ إِلَى الذَّهَبِ ، وَإِنْ دَقَّقْتَ النَّظَرَ فَهِمْتَ أَنَّ إِحْسَانَكَ إِنَّمَا هُوَ عَلَى نَفْسِكَ فَعَلَامَ إِيذَاءُ الْعَبِيدِ . لَا تُطِعِ الشَّيْطَانَ فَإِنَّهُ يَأْمُرُكَ بِالْبُخْلِ وَيَنْهَاكَ عَنِ الْعَطْفِ عَلَى الْمَسَاكِينِ ، يُخِيفُكَ إِنْ أَنْتَ تَصَدَّقْتَ أَنْ يَذْهَبَ مَالُكَ وَتُصْبِحَ أُضْحُوكَةَ الشَّامِتِينَ ، نَصِيحَةُ الْعَدُوِّ مُهْلِكَةٌ يَا هَذَا وَقَدْ أَخْبَرَكَ رَبُّكَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَكَ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، فَانْبِذْ نَصِيحَتَهُ وَأَطِعْ رَبَّكَ بِالْإِنْفَاقِ مِنْ أَجْوَدِ مَا تَمْلِكُ تَكُنْ فِي حَيَاتِكَ الْحَمِيدَ السَّعِيدَ .

(حديث) مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً ، وَيَقُولُ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ .

١٠١ — هل الأولى بالحب ربنا . ولماذا

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ عَبْدٍ تَأَمَّلَ فَلَمْ يَرَ جَدِيراً بِالْحُبِّ إِلَّا مَوْلَاهُ الَّذِي سَوَّاهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةَ مُقْتَنِعٍ يَرْبِطُ قَلْبَهُ عَلَى أَنْ لَا مُنْعِمَ سِوَاهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَيْرُ مَنْ صَافَى رَبَّهُ وَوَالَاهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْأَفَاضِلِ الْكِرَامِ .

(أمّا بعدُ) فيا عبدَ الله : أراكَ تُحِبُّ كُلَّ جميلٍ تقعُ عليهِ عينُكَ حُبًّا رُبّما وصلَ إلى حدِّ الهيام ، وقدْ يصلُ بكَ حُبُّ الجمالِ إلى درجةِ أنْ يشغلكَ خيالُهُ حتّى بالمنام ، وقدْ يُجَنُّ بالجمالِ بعضُ المحبّينَ جنونًا يصحبُهُ ماصحِبتْهُ الليالِي والأيّام ، وقدْ يقتلُهُ حُبُّ الجمالِ قتلًا وهلْ يُمكنُ أنْ نُحصِيَ قتلَى الغرام . إنَّ كُلَّ جميلٍ يملكُ قلبَكَ جمالُهُ خلقَهُ اللهُ وخلقَ مالَهُ منْ جمالٍ ، فكُلُّ جمالٍ تراهُ عيناكَ منْ آثارِ جمالِ ربّنا ذي الجلال ، فلوْ كُنتَ عميقَ التفكُّرِ ماشغلكَ جميلٌ وإنْ بلغَ في نظرِكَ الكمال ، بلْ كُنتَ تشتغلُ بصانعِهِ وهلْ منَ العقلِ الاشتغالُ بجمالِ الرّسمِ عنْ جمالِ الرّسّام . وأراكَ تُحِبُّ منْ يُحسِنُ إليكَ بأيِّ نوعٍ منْ صنوفِ الإحسانِ ، وربّما استصغرْتَ في مُكافأتِهِ أنْ تُقدّمَ نفسَكَ عبدًا لهُ بلا أثمانٍ ، وقدْ تراهُ في خطرٍ فتفتدي حياتَهُ بحياتِكَ قريرَ العينِ جذلانَ ، وربّما مُتَّ على عقيدةِ أنّكَ لمْ تقمْ بشكرِ إحسانِهِ حقَّ القيام . حسَنٌ هذا وأحسنُ منهُ شكرُكَ لمولاكَ الرّءوفِ الرّحيمِ ، فإنَّ منْ أحسنَ إليكَ هوَ وإحسانُهُ خلقُ وملكُ هذا المولَى الكريمِ ، ثُمَّ هوَ لمْ يُحسِنْ إليكَ إلّا بعدَ أنْ وفّقَهُ لذلكَ مولاكَ العليم ، وهذا المُحسنُ أحسنَ إليكَ مرّةً أوْ مرّاتٍ وإحسانُ ربِّكَ إليكَ يتوالَى على الدّوام . كُنتَ في حيّزِ العدمِ فأحسنَ إليكَ بإبرازِكَ إلى هذا الوُجودِ ،

وَجَمَالَكَ بَعْدَ وُجُودِكَ سَيِّدًا وَبِمَحْضِ جُودِهِ سَخَّرَ لِخِدْمَتِكَ كُلَّ مَوْجُود ، وَوَهَبَكَ مِنَ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ مَا جَعَلَكَ بَيْنَ الْعَوَالِمِ الْعَظِيمَ الْمَحْسُود ، وَأَغْدَقَ عَلَيْكَ جَلَائِلَ مِنَنِهِ مَا دُمْتَ فِى هٰذَا الْعَالَمِ - يَقِظًا كُنْتَ أَمْ فِى مَنَام . أَمَّا إِحْسَانُهُ إِلَيْكَ فِى آخِرَتِكَ إِنْ كُنْتَ صَالِحًا فَهٰذَا شَىْءٌ فَوْقَ التَّقْدِير ، وَكَيْفَ يُقَدَّرُ إِحْسَانٌ أَبَدِىٌّ يُسْعِفُ بِكُلِّ مَا تَشْتَهِى دُونَ تَأْخِير ، فَإِذَا كُنْتَ تَتَأَثَّرُ بِالْإِحْسَانِ وَتُحِبُّ الْمُحْسِنَ فَمَوْلَاكَ الْمُحْسِنُ الْكَبِير ، فَأَرِنَا حُبَّكَ لِجَلَالِهِ وَطَاعَتَكَ لِأَمْرِهِ فَإِنَّ الْحُبَّ بِلَا طَاعَةٍ حُبُّ كَلَام .

(حديث) أَحِبُّوا اللّٰهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ وَأَحِبُّونِى لِحُبِّ اللّٰهِ ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِى لِحُبِّى . رَوَاهُ التِّرْمِذِىُّ وَالْحَاكِمُ .

(آخر) لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا . رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ وَمُسْلِمٌ .

١٠٢ — هيام الناس اليوم بالعظمة حتى عند الموت

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى جَعَلَ دَارَ كَرَامَتِهِ لِمَنْ لَا يُرِيدُ الْعُلُوَّ فِى الْأَرْضِ وَلَا الْفَسَاد ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ فِى هٰذِهِ الْحَيَاةِ عِظَةً بَالِغَةً لِلْعِبَاد ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى بَيَّنَ لَنَا أَنَّ حُبَّ الْعَظَمَةِ غَىٌّ لَا رَشَاد ، اللّٰهُمَّ صَلِّ

وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِى مَا سَادُوا إِلاَّ بِاحْتِقَارِهِمْ لِلْفَانِيَاتِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : لَقَدْ هَامَ النَّاسُ الْيَوْمَ بِحُبِّ الْعَظَمَةِ هُيَامًا تَجَاوَزَ حَدَّ الْمَعْقُول ، هُيَامًا يُمْكِنُكَ أَنْ تَعرِفَ قَدْرَهُ مِمَّا يَفْعَلُ أَحَدُهُمْ وَيَقُول ، هُيَامًا بِهِ أَصْبَحَ مَظْهَرُهُمُ الَّذِى نَرَاهُ سَمِجًا لَيْسَ بِمُسْتَحْسَنٍ وَلاَ مَقْبُول ، وَهَلْ تَسْتَحْسِنُ الْعُقُولُ مَا لاَ هُوَ عِنْدَ النَّظَرِ السَّلِيمِ سَخَافَاتٌ مُجَسَّمَات . لَقَدْ وَصَلَ حُبُّ الْعَظَمَةِ بِالنَّاسِ إِلَى حَدِّ أَنَّهُمْ حَتَّى عِنْدَ الْمَصَائِبِ يَتَعَاظَمُون ، وَهَلْ أَعْجَبُ مِنْ أَنْ يَكُونُوا أَمَامَ أَكْبَرِ مَوْعِظَةٍ وَبِتِلْكَ الْعَظَمَةِ الْفَارِغَةِ يَتَجَاهَرُون ، تَأَمَّلْهُمْ إِذَا مَاتَ لَهُمْ عَزِيزٌ وَانْظُرْ إِلَى أَىِّ شَىْءٍ يَتَسَابَقُون ، تَجِدْهُمْ يَتْرُكُونَ عَزِيزَهُمْ مُلْقًى وَفِى أَوْدِيَةِ تِلْكَ الْعَظَمَةِ يَهِيمُ رِجَالُهُمْ وَالسَّيِّدَات . أَمَّا الرِّجَالُ فَيَشْتَغِلُونَ بِمَا يَجْعَلُ الْجَنَازَةَ فِى مَسِيرِهَا تَسُرُّ النَّوَاظِرَ ، فَيَذْهَبُ بَعْضُهُمْ فِى الْحَالِ إِلَى دَعْوَةِ حَمَلَةِ الْقَمَاقِمِ وَالْمَبَاخِرِ ، وَيُسْرِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى إِحْضَارِ الْحَانُوتِيَّةِ وَالْمَوْلَوِيَّةِ وَالْوَفَائِيَّةِ وَالْعَسَاكِرِ ، وَيُهَرْوِلُ بَعْضُهُمْ إِلَى الْمُغَنِّينَ إِنْ عَجَزُوا عَنْ إِحْضَارِ الْمُوسِيقَى وَنَغَمَاتِهَا الْمُشْجِيَات . وَلاَ تَظُنَّ أَنَّ اهْتِمَامَهُمْ بِلَيَالِى الْمَأْتَمِ أَقَلُّ مِنْ هٰذَا الاِهْتِمَام ، بَلْ يَعْدُو بَعْضُهُمْ إِلَى مَشَاهِيرِ الْقُرَّاءِ الَّذِينَ بِوُجُودِهِمْ يَبْتَهِجُ الْخَاصُّ وَالْعَامّ ، وَيَسْبِقُ بَعْضُهُمْ إِلَى الْفَرَّاشِ لِتَكُونَ اللَّيَالِى بِفَرْشِهِ الْجَدِيدِ وَنُورِهِ

الْبَاهِرِ فِى جَمَالٍ تَامٍّ ، وَأَمَّا النِّسَاءُ فَيَكُنَّ حِينَئِذٍ بِمَا يَلْزَمُ لِمَجْلِسِهِنَّ الْجَهَنَّمِىِّ مَشْغُولَاتٍ . لِلْعَظَمَةِ الْكَاذِبَةِ وَالْفَخْرِ الْأَحْمَقِ يَشْتَغِلُ الْمُصَابُونَ بِكُلِّ هٰذَا عَنْ مَيِّتِهِمُ الْعَظِيمِ ، فَإِذَا تَمَّ لَهُمْ ذٰلِكَ أَخَذُوا فِى نَقْلِهِ إِلَى مَقَرِّهِ الْجَدِيدِ بِذٰلِكَ الْاسْتِعْدَادِ الْفَخِيمِ ، وَكَانُوا يَحْمِلُونَهُ فِى نَعْشٍ عَلَى الْأَعْنَاقِ رَغْبَةً فِيمَا رَغَّبَ فِيهِ الدِّينُ الْقَوِيمُ ، لٰكِنْ رَأَوُا الْيَوْمَ أَنَّ ذٰلِكَ لَا يُنَاسِبُ عَظَمَتَهُمْ فَغَيَّرُوهُ (بِأُوتُومُبِيلَاتٍ) مُزَخْرَفَاتٍ . فِى وَقْتِ الْفِرَاقِ الْمُذْهِلِ وَالْمُصَابِ الْمُزْعِجِ يَفْعَلُ كُلَّ هٰذَا حَضَرَاتُ الْمُوَاطِنِينَ ، أَلَا تَكُونُ مَعِى يَاهٰذَا إِذَا حَكَمْتُ عَلَى فَاعِلِ ذٰلِكَ أَنَّهُمْ أَصْبَحُوا فِى عُقُولِهِمْ مُصَابِينَ ، بِغَيْرِ ذٰلِكَ لَا يَحْكُمُ الرَّجُلُ الْعَاقِلُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يُنْسِهِمْ جَلَالُ الْمَوْتِ فَخْفَخَةَ الْمُتَكَبِّرِينَ ، نَزِّهْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ ذٰلِكَ يَاهٰذَا فَإِنَّهُ قَضَاءٌ عَلَى الدِّينِ وَعَلَى الْعَقْلِ وَعَلَى الْأَمْوَالِ الْكَثِيرَاتِ .

(حديث) إِنَّ هٰذِهِ الْقُلُوبَ لَتَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ إِذَا أَصَابَهُ الْمَاءُ ، قِيلَ وَمَا جَلَاؤُهَا ؟ قَالَ ذِكْرُ الْمَوْتِ ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ . رَوَاهُ الْبَيْهَقِىُّ .

(آخر) مَاذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِى غَنَمٍ بِأَكْثَرَ فَسَادًا لَهَا مِنْ حُبِّ الْمَالِ وَالشَّرَفِ فِى دِينِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ . رَوَاهُ التِّرْمِذِىُّ وَالنَّسَائِىُّ .

١٠٣ — أي قيمة قيمة الاسلام وحالنا اليوم معه

الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي أَمَرَنَا أَنْ نَكْبَحَ جِمَاحَ نُفُوسِنَا فِي مَيَادِينِ الْهَوَى بِلِجَامِ الْجِهَادِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي حَتَّمَ عَلَيْنَا الْخُضُوعَ لِأَوَامِرِهِ وَإِنْ فَسَدَ النَّاسُ كُلَّ الْفَسَادِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَرَحْمَتُهُ الْمُهْدَاةُ لِجَمِيعِ الْعِبَادِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِي النَّهْجِ الْمُنِيرِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : يَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ دُونَ أَنْ يُخَالِطَ عِلْمَكَ شَيْءٌ مِنَ الظُّنُونِ وَلَا مِنَ الْأَوْهَامِ ، أَنَّ دِينَكَ أَتَمُّ وَأَجَلُّ دِينٍ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ عَلَى جَمِيعِ الْأَنَامِ ، لَيْسَ لِلْبَشَرِ كَمَالٌ إِلَّا وَجَاءَ بِهِ وَحَرَّضَ عَلَى عَمَلِهِ الْخَاصَّ مِنْهُمْ وَالْعَامَّ ، وَلَيْسَ لَهُمْ نَقْصٌ إِلَّا وَبَيَّنَهُ وَنَفَّرَ مِنَ الْقُرْبِ مِنْهُ كُلَّ التَّنْفِيرِ . ضَمِنَ هَذَا الدِّينُ لِمَنِ اعْتَصَمَ بِهِ أَنْ يَكُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ أَعَزَّ مَوْجُودٍ ، وَكَذَلِكَ ضَمِنَ لَهُ فِي حَيَاتِهِ الْأَبَدِيَّةِ أَنْ يَكُونَ فِي نَعِيمٍ لَا يَعْلَمُ قَدْرَهُ إِلَّا رَبُّ هَذَا الْوُجُودِ ، فَالْمُتَمَسِّكُ بِهَذَا الدِّينِ مَوْعُودٌ مِنْ أَكْرَمِ الْأَكْرَمِينَ بِسَعَادَةِ هَذِهِ الدَّارِ وَبِسَعَادَةِ دَارِ الْخُلُودِ ، وَوَعْدُهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُمْكِنُ أَبَداً أَنْ يَكُونَ فِيهِ تَبْدِيلٌ وَلَا تَغْيِيرٌ . هَذَا الدِّينُ الَّذِي بِهَذَا الْقَدْرِ لِأَهْلِهِ الْيَوْمَ مَعَهُ عَجَائِبُ تَحَارُ فِيهَا الْعُقُولُ ، فَإِنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُولَ مُطْمَئِنّاً إِنَّهُ عِنْدَ السَّوَادِ الْأَعْظَمِ مِنْ أَهْلِهِ مَجْهُولٌ ، وَلَيْسَ أَيَّ جَهْلٍ بَلْ جَهْلَ

الْغَافِلِ الَّذِي هُوَ عَنْهُ بِمَا تَقْتَضِي شَهَوَاتُهُ مَشْغُول ، فَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مِنْ بِحَارِ عُلُومِهِ وَلَا مِنْ بَدَائِعِ آيَاتِهِ لَا الْقَلِيلَ وَلَا الْكَثِير . وَلَيْتَهُمْ وَقَفُوا عِنْدَ هٰذَا الْحَدِّ بَلْ أَضِفْ إِلَى جَهْلِهِمْ بِهِ عَدَمَ عَمَلِهِمْ بِنَوَاهِيهِ وَالْأَوَامِرِ ، فَفِي أَيِّ نَاحِيَةٍ تَكُونُ مِنْ نَوَاحِي الْمَعْمُورَةِ يَرُوعُكَ انْتِهَاكُ حُرُمَاتِهِ مِنْ أَصَاغِرِهِمْ وَالْأَكَابِر ، أَوَامِرُهُ لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهَا وَلَا يُعْمَلُ بِهَا وَنَوَاهِيهِ تُقْتَحَمُ نَهَاراً جِهَاراً دُونَ رَادِعٍ وَلَا زَاجِر ، وَلَا تَتَعَجَّبْ إِذَا قُلْتُ لَكَ إِنَّهُمْ يَتَبَرَّعُونَ بِالْكُفْرِ الَّذِي لَا عَاقِبَةَ لَهُ إِلَّا خُلُودُهُمْ فِي السَّعِير . وَلَيْتَهُمْ جَهِلُوهُ وَلَمْ يَعْمَلُوا بِهِ وَكَانَ لَهُمْ عَلَيْهِ غَيْرَةُ الرِّجَالِ الْأَحْرَار ، بَلْ يَرَوْنَ أَعْدَاءَهُ يُهَاجِمُونَهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ مُهَاجَمَةَ مَنْ يُرِيدُ لَهُ الْبَوَار ، يَرَوْنَهُ هٰكَذَا وَهُمْ مَكْتُوفُو الْأَيْدِي مُعْتَقَلُو الْأَلْسُنِ هَادِئُو الْأَفْكَار ، كَأَنَّهُمْ لَا مَعْرِفَةَ لَهُمْ بِهِ وَلَا كَأَنَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ مِنَ الصِّلَاتِ وَلَا قَدْرَ نَقِير . وَلَيْتَهُمْ تَرَكُوا عِلْمَهُ وَالْعَمَلَ بِهِ وَالْغَيْرَةَ عَلَيْهِ وَلَا تَصِلَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ إِسَاءَات ، بَلْ هَاهُمْ أُولَاءِ يَحْمِلُونَ عَلَيْهِ حَمَلَاتٍ دُونَهَا حَمَلَاتُ مَنْ يُضْمِرُ لَهُ أَخْطَرَ الْعَدَاوَات ، بَعْضُهُمْ بِلِسَانِهِ وَبَعْضُهُمْ بِقَلَمِهِ وَبَعْضُهُمْ يُكْرِهُ النَّاسَ عَلَى الِارْتِدَادِ عَنْهُ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ الْمُمْكِنَات ، وَلَا تَسْتَبْعِدْ كُلَّ هٰذَا فَهُوَ حَاصِلٌ مِمَّنْ فِي حَضَانَةِ الْإِسْلَامِ نَشَئُوا حَتَّى صَارَ أَحَدُهُمُ الرَّجُلَ الْكَبِير . مِسْكِينٌ وَأَلْفُ مِسْكِينٍ أَنْتَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ الصَّادِقُ فِي هٰذَا الزَّمَان ، تَرَى كُلَّ هٰذَا بِعَيْنِكَ يَجْرِي عَلَى

الإِسْلَامِ فَيَتَقَطَّعُ قَلْبُكَ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِ وَأَنْتَ عَاجِزٌ حَيْرَان ، أَقْبِلْ أَنْتَ عَلَى العَمَلِ بِدِينِكَ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ عَلَى حَسَبِ الإِمْكَان ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّمَا فَسَدُوا كُلَّمَا كَانَ قَدْرُكَ أَعْلَى لِأَنَّكَ تَكُونُ حِينَئِذٍ المُجَاهِدَ القَدِير .

(حديث) بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيباً وَسَيَعُودُ غَرِيباً فَطُوبَى لِلْغُرَبَاء رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَه .

١٠٤ — الرياء

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا نِعْمَةَ لِغَيْرِهِ فَلَا يَسْتَحِقُّ العِبَادَةَ أَحَدٌ سِوَاه ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي مَا وُجِدَ شَيْءٌ إِلَّا بِإِيجَادِهِ إِيَّاه ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ سَيِّدُ مَنْ أَخْلَصَ وَدَعَا إِلَى الإِخْلَاصِ لِمَوْلَاه ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ المُنَزَّهِينَ فِي طَاعَتِهِمْ عَنْ مُلَاحَظَةِ الأَغْيَار .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : إِنَّ هَذَا العَالَمَ كُلَّهُ عُلْوِيَّهُ وَسُفْلِيَّهُ تَفَرَّدَ بِإِبْدَاعِهِ اللهُ ، وَمُحَالٌ أَنْ يَسْتَطِيعَ خَلْقَ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِهِ غَيْرُ هَذَا الإِلَه ، لَا يَكُونُ شَأْنٌ مِنَ الشُّئُونِ مَهْمَا صَغُرَ إِلَّا وَهُوَ الَّذِي كَوَّنَهُ وَسَوَّاه ، فَهُوَ تَعَالَى وَحْدَهُ المُتَصَرِّفُ فِي هَذِهِ الدَّارِ وَفِي دَارِ القَرَار .

لَا يُمْكِنُ أَبَداً أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ خَيْرٌ لَمْ يُرِدْهُ وَإِنْ تَعَصَّبَ لِإِيصَالِهِ جَمِيعُ العَالَمِين ، وَلَا يُمْكِنُ أَبَداً أَنْ يَسْتَعْصِيَ عَلَيْكَ فَضْلٌ أَرَادَهُ وَلَوْ

ناوأك كلُّ الخلقِ مجتمعين ، إذا أراد إعطاءك قذف في القلوب العطف عليك فأعطوك مقهورين ، وإذا أراد منعك ألهم القلوب ذلك فمنعك أخيارهم كالأشرار . إذن عبثٌ صرفٌ لا فائدة فيه ما يصدر من أهلِ الرياء ، فإنهم يتخلقون بمكارمِ الأخلاقِ ويفعلون أفعال الفضلاء ، لا يخلصون ذلك لربهم ومالكِ نواصيهم بل يخلطونه بأغراضٍ تناسب الأدنياء ، وهي أن يظن الناس بهم خيراً فيعطفوا على فقرائهم ويجلوا أهل اليسار ، ليعلم الفقيرُ المرائي أنه مهما عبد الله تعالى متظاهراً بالصلاح ، ومهما أقبل الناسُ عليه وشغلوا بالثناء عليه مساءهم والصباح ، ليعلم أنه مع كلّ ذلك لا يزيد رزقه مقدار جناحِ بعوضةٍ ولا أقل من الجناح ، وإنما يصلُ إليه ما قدره بقسمته الأزليةِ ربه الحكيمُ المختار . وليعلم الغنيُّ المرائي أنه مهما بعثر ماله وبالغ في أنواعِ العطاء ، ومهما فرّق على جهاتِ البرّ ومهما واسى المساكين والفقراء ، ليعلم أنه مع كلّ ذلك التكلّفِ لا يزيد جاهه مثقال خردلةٍ ولا يزيد الثناء ، وإنما الجاه كالمالِ نعمةٌ لا يعطى أيُّ امرئٍ منها إلا بمقدار . ليعلم المرائي أن رياءه هذا يقول إنه يلتفت إلى الخلق حين يطيع مولاه ، فإنه حينما يفعل الخير يرجو ثناء الخلقِ مع جزاء الله ، ما مقدار الخلق ياهذا حتى من أجلهم يفعل العاقل ما يغضب

عليه ربه في دنياه وأخراه ، فعليك بإخلاص العمل لربك يا هذا فإنه ما أفلح من أفلح إلا بالإخلاص وما له من أسرار .

(حديث) إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عنده فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك رواه ابن ماجه والبيهقي والترمذي وابن حبان .

١٠٥ — هل لم ينه ربنا إلا عن مضار ؟

الحمد لله الذي من لم يعتقد أنه حكيم في كل تصرفاته فليس من المسلمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله الذي شرع ما شرع رحمة بالناس أجمعين ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله ورحمته للعالمين ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه العلماء بأسرار أوامر ونواهي الرحمن .

(أما بعد) فيا عبد الله : إن الله تعالى حرم علينا أشياء ومنعنا من فعلها منعا لا تردد فيه ، ولا تظن أنه حرم شيئا إلا وفي فعله من المضار ما لا ترتضيه ، تناول المحرمات واحدة واحدة وتأمل عواقبها تجد الأمر مثل ما أحكيه ، وإن شئت أن تتحقق هذا المعنى فاسمع ما يبرهن لك عليه أوضح برهان . حرم تعالى الكفر لأنه تمرد على شرائعه وعلى أنبيائه وعلى جلاله وهو الخالق الرزاق ، وحرم

الْقَتْلَ لِأَنَّهُ مِعْوَلُ هَدْمِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَمِنْجَلُ شَرٍّ إِنَّمَا تُحْصَدُ بِهِ الْأَعْنَاقُ، وَحَرَّمَ عُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ لِأَنَّهُ كَسْرٌ لِقَلْبَيْنِ لَوْلَاهُمَا مَا شَمَّ رَائِحَةَ الْوُجُودِ الْعَاقُّ، وَحَرَّمَ شَهَادَةَ الزُّورِ لِأَنَّهَا تَشُلُّ يَدَ الْعَدَالَةِ الَّتِي يَرْهَبُهَا ذَوُو الطُّغْيَانِ. حَرَّمَ الزِّنَا لِأَنَّهُ يَهْدِمُ أَرْكَانَ الْأُسْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ هَدْمًا بِهِ تَسْقُطُ عَنِ الِاعْتِبَارِ، وَحَرَّمَ النَّظَرَ إِلَى النِّسَاءِ الْأَجَانِبِ لِأَنَّهُ الْبَابُ الَّذِي يَدْخُلُ إِلَى الزِّنَى مِنْهُ الْفُجَّارُ، وَحَرَّمَ اللِّوَاطَ لِأَنَّهُ يَفْتَحُ بَابَ الْفُجُورِ لِلنِّسَاءِ وَيَقْتُلُ رُجُولَةَ الْمَفْعُولِ بِهِمْ كِبَارٍ أَوْ صِغَارٍ، وَحَرَّمَ السَّرِقَةَ لِأَنَّ الْمَالَ مَادَّةُ الْحَيَاةِ فَسَارِقُهُ كَأَنَّهُ قَتَلَ الْإِنْسَانَ. حَرَّمَ الرِّبَا لِأَنَّهُ أَخْذٌ لِأَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَقَضَاءٌ عَلَى إِغَاثَةِ الْمُحْتَاجِينَ، وَحَرَّمَ الْخَمْرَ لِأَنَّهُ يُلْحِقُ الْإِنْسَانَ بِالْبَهَائِمِ وَيَفْتَحُ أَبْوَابَ الشَّرِّ كُلَّهَا لِلْمَخْمُورِينَ، وَحَرَّمَ السِّحْرَ لِأَنَّهُ ضَرَرٌ عَظِيمٌ لِلْخَلْقِ وَلِأَنَّ السَّحَرَةَ كَثِيرًا مَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ التَّأْثِيرَ فِيهِ لِلشَّيَاطِينِ، وَحَرَّمَ الْفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ لِأَنَّ بِهِ يَنْتَصِرُ الْبَاطِلُ وَيَقِفُ الْحَقُّ مَوْقِفَ الْخِذْلَانِ. حَرَّمَ الْغِيبَةَ لِأَنَّهَا فَضِيحَةٌ لِلنَّاسِ بِهَتْكِ أَسْتَارِهِمْ وَنَشْرِ مَا لَهُمْ مِنْ عَوْرَاتٍ، وَحَرَّمَ النَّمِيمَةَ لِأَنَّهَا تَقْضِي عَلَى صَفَاءِ الْإِخْوَانِ وَتُضْرِمُ بَيْنَهُمْ نَارَ الْعَدَاوَاتِ، وَحَرَّمَ الْغِشَّ لِأَنَّهُ اسْتِخْفَافٌ بِالْخَالِقِ وَعَدَمُ حَيَاءٍ مِنْهُ تَعَالَى وَهُوَ الْعَلِيمُ بِالْخَفِيَّاتِ، وَحَرَّمَ ضَرَرَ الْعِبَادِ لِأَنَّهُ يُؤْذِيهِمْ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ إِلَّا مُقَابَلَةُ الْعُدْوَانِ بِالْعُدْوَانِ. حَرَّمَ الرِّيَاءَ لِأَنَّ الْمُرَائِيَ ظَاهِرُهُ

كَمَالٌ وَبَاطِنُهُ نَقْصٌ مُبِينٌ ، وَحَرَّمَ الْكِبْرَ لِأَنَّهُ عَجْرَفَةٌ تَشْمَئِزُّ مِنْهَا نُفُوسُ الْمُتَكَبَّرِ عَلَيْهِمْ وَلَوْ كَافِرِينَ ، وَحَرَّمَ الْحَسَدَ لِأَنَّهُ يَحْمِلُ عَلَى الْبَغْيِ وَالْبَغْيُ يَأْتِي عَلَى الدُّنْيَا وَالدِّينِ ، وَهٰكَذَا كُلُّ مُحَرَّمٍ لَهُ ضَرَرُهُ الدُّنْيَوِيُّ فَوْقَ ضَرَرِهِ الْأَكْبَرِ وَهُوَ غَضَبُ الدَّيَّانِ .

(حديث) أَيُّهَا النَّاسُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَلَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ ، وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ . رَوَاهُ فِي شَرْحِ السُّنَّةِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ .

١٠٦ — هل لم يأمر ربنا إلا بمصالح

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَائِعُهُ نُورٌ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِأَهْلِ الْإِذْعَانِ وَالْامْتِثَالِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي مَا أَمَرَ بِأَمْرٍ إِلَّا وَفِيهِ مِنَ الْأَسْرَارِ مَا يَبْهَرُ فُضَلَاءَ الرِّجَالِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي بَابِ الْكَمَالِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ذَوِي الدِّينِ الْقَوِيمِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللَّهِ : إِنَّ رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ خَالِقَنَا فَهُوَ الْعَالِمُ وَحْدَهُ بِمَا يُصْلِحُنَا مِنَ الْأَفْعَالِ ، فَلَمَّا كَلَّفَنَا بِدِينِهِ أَمَرَنَا أَوَامِرَ كُلُّهَا تَدُورُ حَوْلَ مَا يُصْلِحُ حَالَنَا وَالْمَآلَ ، لَا تَتَصَوَّرْ غَيْرَ هٰذَا فِي أَوَامِرِهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ الْحَكِيمُ الْفَعَّالُ ، وَإِنْ أَرَدْتَ أَمْثِلَةً لِهٰذَا الْمَعْنَى فَاسْمَعْ لِي

سَماعَ الفهيم . أمرنا تعالى بالإيمان لأنه الينبوع الذى تنبع منه جميع البركات ، وأمرنا بالصلاة لأنها الصلة بين العبد وربه تذكره به فى كل الاوقات ، وأمرنا بالزكاة لأنها تحبب الأغنياء إلى الفقراء فهى حارس للأموال تحرسها من الغارات ، وأمرنا بالصيام لنتشبه بالملائكة ولتصفو أفكارنا ولنشعر بالجوع فنعطف على الفقير والمسكين واليتيم . وأمرنا بالحج لنتعارف فى تلك الأماكن المقدسة ووراء هذا التعارف ما يعز الإسلام والمسلمين ، وأمرنا بالجهاد ليتخذ منا شهداء وليرفع به رءوسنا بين مخالفينا أجمعين ، وأمرنا بالأدب مع الخلق ليتأدبوا معنا فنعيش عن الكدر بعيدين ، وأمرنا بالإحسان إلى الناس ليكونوا قوة لنا على كل خصيم . وأمرنا بتعلم العلم لأنه أساس العمل ولولاه ما صحت لعامل أعمال ، وأمرنا بالإخلاص لانه الفضيلة التي لا يليق سواها بعظماء الرجال ، وأمرنا بشكر نعمه ليمرننا على كرم الطباع ويجنبنا لؤم الخصال ، وأمرنا بالمتاب لان الاعتذار من الغلط يطفئ غضب الكريم . وأمرنا بالتواضع لأنه يحبب العبد إلى الناس ومتى تبادل العباد المحبة عاشوا فى صفاء ، وأمرنا أن نحبس ألسنتنا على الخير لأن إطلاق الألسنة وراءه كل بلاء ، وأمرنا بغض الأبصار لأن بهذا الغض تحفظ الفروج عن الفحشاء ، وأمرنا بالعفو عمن أساء إلينا ليكون لنا الفضل حتى على

السَّفِيهِ اللَّئِيمِ . وَأَمَرَنَا أَنْ نَصْبِرَ عِنْدَ نُزُولِ الْبَلَايَا لِنَسُرَّ أَحْبَابَنَا وَنَكْمِدَ أَهْلَ الشَّمَاتَةِ الْعُدْوَانِيَّه ، وَأَمَرَنَا بِالْأَمَانَةِ لِأَنَّهَا الْخُلُقُ الَّذِي بِهِ تَسِيرُ سَفِينَةُ هٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَوِيَّه ، وَأَمَرَنَا بِالصِّدْقِ لِأَنَّهُ الصِّفَةُ الَّتِي بِهَا يَدُورُ دُولَابُ أَحْوَالِنَا الْإِنْسَانِيَّه ، وَهٰكَذَا كُلُّ أَمْرٍ يُعْقِبُ بَعْدَ رِضَى اللهِ مِنْ مَصَالِحِ الدُّنْيَا مَا يَطْرَبُ لَهُ اللُّبُّ السَّلِيم .

(حديث) تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي ، وَلَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ . رَوَاهُ الْحَاكِمُ .

١٠٧ — وصايا جليلة

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي شَرَعَ لَنَا مِنَ الْآدَابِ مَا لَوْ رَاعَيْنَاهُ لَكُنَّا مِنَ الْعُظَمَاء ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي إِنَّمَا يَرْفَعُ إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعُلَى فَرِيقَ الْأُدَبَاء ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي بُعِثَ لِيُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ لِلْفُضَلَاء ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَالْأَصْحَاب .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : تَوَاضَعْ لِعِبَادِ اللهِ تَعَالَى يَرْفَعْكَ اللهُ إِلَى أَعَالِي الدَّرَجَات ، وَكُنْ حَسَنَ الْخُلُقِ مَعَهُمْ تَحْظَ بِمَا لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ خَيْرَات ، وَكُنْ رَفِيقاً بِصَغِيرِهِمْ وَكَبِيرِهِمْ فَإِنَّ الرَّفِيقَ مَحْبُوبٌ لِلْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقَات ، وَاعْفُ عَنْهُمْ إِنْ أَسَاءُوكَ يَعْفُ اللهُ عَنْ زَلَّاتِكَ يَوْمَ الْحِسَاب . وَاعْتَزِلْهُمْ إِنْ لَمْ تَجْنِ مِنْ وَرَاءِ اخْتِلَاطِكَ بِهِمْ

مَا يَنفعكَ فى دُنْيَاكَ أَوْ فى الدِّينِ ، وَنَافِسْ فى صَالِحَاتِ الْأَعْمَالِ فَإِنَّ المنَافَسَةَ فِيهَا مِنْ خَصَائِصِ الصِّدِّيقِينَ ، وَزُرِ الْقُبُورَ تَذْهَبْ قَسْوَةُ قَلْبِكَ وَتَغْزُرْ دِمْعَتُكَ وَتَكُنْ مِنَ الزَّاهِدِينَ ، وَالْتَزِمِ الْحَيَاءَ فَإِنَّهُ خُلُقٌ لَا يُوجَدُ فى امْرِئٍ إِلَّا وَكَانَ كَامِلَ الْآدَابِ . وَتَأَنَّ فى أُمُورِكَ كُلِّهَا تَبْعُدْ عَنِ الْخَطَإِ وَتُصِبْ كَبِدَ الصَّوَابِ ، وَاحْفَظْ سِرَّكَ بِصَدْرِكَ فَكَمْ بِإِفْشَاءِ السِّرِّ ضَاعَتْ مَصَالِحُ وَطَارَتْ رِقَابٌ ، وَوَفِّ بِمَا عَاهَدْتَ عَلَيْهِ فَإِنَّ نَقْضَ الْعُهُودِ شَأْنُ الْمُنَافِقِ الْمُرْتَابِ ، وَأَفْشِ السَّلَامَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَتَلَقَّهُمْ بِالْبِشْرِ تَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَحْبَابِ . وَأَطِعْ وُلَاةَ الْأَمْرِ فَإِنَّ طَاعَتَهُمْ يُمْنٌ وَمُخَالَفَتَهُمْ شُؤْمٌ عَلَى مَنْ خَالَفَ وَاسَاءَ ، وَإِذَا وَلِيتَ أَمْرًا فَاعْدِلْ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَتَخَبَّطُ فِيهَا الظَّالِمُونَ يَوْمَ الْجَزَاءِ ، وَاسْتَشِرْ وَاسْتَخِرْ إِذَا أَرَدْتَ الشُّرُوعَ فى أَمْرٍ تَأْمَنْ مِنَ الْأَخْطَاءِ ، وَشَيِّعِ الْجَنَائِزَ حَتَّى تُدْفَنَ يَكُنْ لَكَ بِكُلِّ جَنَازَةٍ مِقْدَارُ أُحُدٍ مَرَّتَيْنِ مِنَ الثَّوَابِ . وَعَلَيْكَ بِصَلَاةِ اللَّيْلِ فَرَكْعَتَانِ فِى جَوْفِهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنْ مَتَاعٍ يَبِيدُ ، وَأَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ رَبِّكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ حَتَّى مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَمِنَ الْجِهَادِ فِى سَبِيلِ مَوْلَاكَ الْحَمِيدِ ، وَاشْغَلْ قَلْبَكَ وَجَوَارِحَكَ بِشُكْرِهِ تَعَالَى يُدِمْ عَلَيْكَ النِّعْمَةَ وَيَرْزُقْكَ الْمَزِيدَ ، وَارْفَعْ إِلَيْهِ تَعَالَى حَوَائِجَكَ بِلِسَانِ الْافْتِقَارِ يُجِبْكَ فَإِنَّهُ إِنْ دُعِيَ أَجَابَ . وَعُدِ الْمَرْضَى تَكُنْ مِنْ جُنَاةِ ثَمَرِ الْجَنَّةِ وَيُصَلِّ

عَلَيْكَ سَبْعُونَ أَلْفاً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ الْكِرَام ، وَصَافِحْ إِخْوَانَكَ مُصَافَحَةَ وُدٍّ تَذْهَبُ أَحْقَادُهُمْ وَيَغْفِرُ لَكَ مَوْلاَكَ مَا لَكَ مِنْ آثَام ، وَصُنْ لِسَانَكَ عَمَّا لاَ يَنْبَغِي فَإِنَّ خَطَرَهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأَخْطَارِ الْجِسَام ، وَاخْتَرْ جَلِيسَكَ مِنْ صَالِحِي عِبَادِ اللهِ تَعَالَى فَإِنَّ اخْتِيَارَ الْجَلِيسِ شَأْنُ الْأَنْجَاب .

(حديث) الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ .

١٠٨ — ماذا يفعل عدم الشعور بعلم الله

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَمَرَنَا أَنْ نَقِفَ عِنْدَ حُدُودِهِ وَلاَ نَتَجَاوَزَهَا فى عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَال ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةً تَحْبِسُ الْجَوَارِحَ فى دَائِرَةِ الْجَائِزِ مِنَ الْأَفْعَال ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي كَانَ إِذَا قَالَ اسْتَحَالَ الْكَذِبُ عَلَى مَا قَال ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ عَبْدٍ مِنْ ذَوِى الْاسْتِقَامَةِ مَعْدُود .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : مَضَى رِجَالٌ مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ كَانُوا يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ خَشْيَةَ الْعَارِفِينَ الْمُوقِنِين ، لِذَلِكَ كَانَتْ أَفْعَالُهُمْ وَأَقْوَالُهُمُ الَّتِي تَصْدُرُ عَنْهُمْ مَوْزُونَةً بِمَا لِلشَّرْعِ مِنْ مَوَازِين ، كَانَتِ الْكَلِمَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ كَأَنَّهَا سُجِّلَتْ بِأَلْفِ سِجِلٍّ وَشَهِدَ عَلَيْهَا أَلْفُ

مِنَ الشَّاهِدِينَ ، لِأَنَّهُمْ يُوقِنُونَ أَنَّ خَالِقَهُمْ سَمِعَهَا وَشَهِدَ عَلَيْهَا وَهُوَ تَعَالَى خَيْرُ الشُّهُود . مَاتَتْ هٰذِهِ الْخَشْيَةُ مِنَ الْقُلُوبِ وَأَعْقَبَتْهَا قَسْوَةٌ أَذْهَلَتِ الْعِبَادَ عَنِ اللّٰهِ ، فَغَدَوْا يَأْتُونَ مَا يَأْتُونَ وَيَذَرُونَ مَا يَذَرُونَ دُونَ سُؤَالٍ عَنْ سُخْطِهِ وَرِضَاه ، وَغَدَتْ جَوَارِحُهُمْ مُطْلَقَةً فِي كُلِّ مَا يُغْضِبُهُ وَقَدْ كَانَتْ مُقَيَّدَةً بِقُيُودِ تَقْوَاه ، وَهٰكَذَا صَارَتْ كُلُّ أَفْعَالِنَا فَوْضَى لَيْسَ لَهَا ضَوَابِطُ وَلَا قُيُود . الْعَيْنُ تَجُولُ فِي مَيَادِينِ الْمَنَاظِرِ الْفَاجِرَةِ وَالْفَرْجُ يَسْرَحُ كَمَا شَاءَ فِي الْمَسَارِحِ الْفَاحِشَات ، وَالْأُذُنُ لَا تَشْبَعُ أَبَدًا مِنْ سَمَاعِ مَا يُسْخِطُ رَبَّهَا وَالْبَطْنُ تَسْتَزِيدُ مِنْ سُحْتِ الْأَقْوَات ، أَمَّا الْيَدُ فَحَدِّثْ عَنْهَا وَلَا حَرَجَ فَشَأْنُهَا فِي تَعَدِّي الْحُدُودِ بَلَغَ الْغَايَات ، وَأَمَّا اللِّسَانُ فَلَيْلُهُ وَنَهَارُهُ يَتَحَرَّكُ فِي مُنْكَرِ الْقَوْلِ وَلَا كَأَنَّ رَبَّهُ السَّمِيعَ مَوْجُود . يَطْعَنُ فِي أَعْرَاضِ النَّاسِ وَأَحْسَابِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ وَلَا يَعِفُّ يَوْمًا عَنْ عِرْضِ أَيِّ بَشَر ، وَيَحْلِفُ بِاللّٰهِ الْعَظِيمِ أَلْفَ مَرَّةٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَا يَعْنِيهِ أَبَرَّ فِي أَيْمَانِهِ أَمْ فَجَر ، أَمَّا طَلَاقَاتُهُ الْآثِمَةُ الْمُحَرِّمَةُ لِلْأَزْوَاجِ فَتَسْمَعُ مِنْهَا كُلَّ يَوْمٍ عَدَدَ الْمَطَر ، وَأَمَّا وُعُودُهُ وَعُهُودُهُ وَعُقُودُهُ فَتُهْمَلُ وَلَا كَأَنَّهُ مُكَلَّفٌ بِاحْتِرَامِ الْعُقُود . بَلْ تُكْتَبُ الْوَثَائِقُ وَتُخْتَمُ وَيَشْهَدُ الشُّهُودُ عَلَيْهَا وَلَا تُقَيِّدُ النَّاسَ فِي هٰذِهِ الْأَيَّام ، لِأَنَّ شُعُورَهُمْ بِعِلْمِ رَبِّهِمْ بِهِمْ غَيْرُ مَوْجُودٍ وَلِذٰلِكَ لَا يَعْبَئُونَ بِالْآثَام ، تَنَبَّهْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ وَاعْلَمْ أَنَّكَ مَسْئُولٌ عَنْ

كُلَّ مَا تَعْمَلُ لَا مُهْمَلٌ كَالْأَنْعَام ، فَانْهَجْ نَهْجَ ذَوِى الِاسْتِقَامَةِ وَرَاقِبْ رَبَّكَ فِي مَصَادِرِكَ وَمَوَارِدِكَ لِتَقِفَ عِنْدَ الْحُدُود .

(حديث قدسى) وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ فِي الآخِرَةِ . رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ .

١٠٩ — العلم الدينى وقدره والناس معه

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَّنَ عِبَادَهُ مِنْ زَوَالِ الدُّنْيَا مَا حَفِظُوا عُلُومَ الدِّين ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةَ عَبْدٍ مَلَأَتْ خَشْيَةُ اللهِ قَلْبَهُ لِأَنَّهُ لِجَلَالِهِ مِنَ الْعَارِفِين ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَنَارَ بِنُورِ دِينِهِ الْعَالَمِين ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ ذِي دِينٍ قَوِيم .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : الْعِلْمُ فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ أُنْثَى أَوْ ذَكَر ، لِيَكُونَ كُلُّ امْرِئٍ عَلَى بَصِيرَةٍ فِيمَا يَأْتِي مِنَ التَّكَالِيفِ وَيَذَر ، وَلَيْسَ الْعِلْمُ أَيَّ فَرِيضَةٍ بَلْ هُوَ أَوَّلُ الْفَرَائِضِ وَأَسَاسُهَا الْمُعْتَبَر ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ تَعَالَى مِنْ مُكَلَّفٍ عَمَلاً إِلَّا وَهُوَ بِأَحْكَامِهِ الدِّينِيَّةِ عَلِيم . زِدْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْعِلْمَ أَجْمَلُ حِلْيَةٍ يَتَحَلَّى بِهَا الْإِنْسَان ، وَهُوَ أَكْبَرُ مَعْنًى يَرْتَفِعُ بِهِ الْمُنْحَطُّ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَان ، وَهُوَ النُّورُ السَّاطِعُ لِمَنْ أَرَادَ الْهِدَايَةَ وَهُوَ الْغِنَى الْعَالِي لِلْبَائِسِ

الحَيْرَان ، ذَلِكَ فَوْقَ كَوْنِهِ السَّبَبَ الَّذِى لَوْلَاهُ مَا فَازَ امْرُؤٌ بِرِضَى مَوْلَاهُ الْكَرِيمِ . هٰذَا هُوَ قَدْرُ الْعِلْمِ الَّذِى هَجَرَهُ النَّاسُ الْيَوْمَ هَجْراً نَسْتَنْكِرُهُ الْعُقُولُ ، هَجْراً يَتَبَيَّنُ لَكَ قَدْرُهُ مِمَّا يَفْعَلُ أَحَدُهُمْ وَيَقُولُ ، أُنْظُرْ إِلَى مُعَامَلَاتِهِمْ وَعِبَادَاتِهِمْ تَجِدْ أَنْ لَيْسَ لَهُمْ عَمَلٌ صَحِيحٌ وَلَا مَقْبُولٌ ، وَاسْمَعْ كَلَامَهُمْ يَظْهَرْ لَكَ أَنَّ كَثِيراً مِنْهُ كُفْرٌ بِرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . إِذَنْ لَيْسَ بِعَجِيبٍ أَنْ تَمُرَّ عَلَى مَجَالِسِ الْعِلْمِ فَتَرَاهَا بِحَالَةٍ تَسُوءُ النَّاظِرِينَ ، يَفِرُّ النَّاسُ مِنْهَا كَأَنَّهَا حُفَرُ نَارٍ مَعَ أَنَّ فِيهَا فَلَاحَهُمْ أَجْمَعِينَ ، فَإِذَا مَرَرْتَ عَلَى مَجَالِسِ لَعِبِهِمْ وَلَهْوِهِمْ رَأَيْتَهَا مُزْدَحِمَةً بِالْوَافِدِينَ ، مَعَ أَنَّكَ لَا تَرَى هُنَاكَ وَلَا تَسْمَعُ إِلَّا مَا يُغْضِبُ الرَّحْمٰنَ وَيُرْضِى الشَّيْطَانَ الرَّجِيمَ . وَكَذٰلِكَ لَيْسَ بِعَجِيبٍ أَنْ تَسْمَعَ مِنْ فِتْيَانِنَا مِنَ الرِّوَايَاتِ وَالطَّقَاطِيقِ مَا لَوْ كُتِبَ لَكَانَ مُجَلَّدَاتٍ ، بِحَيْثُ لَوْ حَفِظُوا عُشْرَهُ مِنَ الْعِلْمِ لَامْتَلَأَتِ الدُّنْيَا مِنْ عُلُومِهِمُ النَّافِعَاتِ ، أَظْلَمَتِ الْقُلُوبُ فَأَصْبَحَتْ تَنْفِرُ مِنَ الْعِلْمِ وَأَنْوَارِهِ وَتَحِنُّ لِلْجَهْلِ وَمَا لَهُ مِنْ ظُلُمَاتٍ ، فَهَلْ لَنَا أَنْ نَتُوبَ مِنْ هٰذِهِ الْحَالَةِ الشَّنِيعَةِ وَنُقْبِلَ عَلَى التَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ .

(حديث) طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ، وَاللّٰهُ يُحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ . رَوَاهُ الْبَيْهَقِىُّ وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ .

(آخر) الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ وَمَا سِوَى ذٰلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ ، أَوْ فَرِيضَةٌ [1] عَادِلَةٌ . رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهْ .

١١٠ — لم خلق الانسان كيف ينبغى أن يكون أمام ذلك

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى خَلَقَنَا لِيَبْتَلِيَنَا فِى هٰذِهِ الدَّارِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ الَّذِى كَمَا يَبْتَلِي بِالشَّرِّ يَبْتَلِي بِالْخَيْرِ الْمِدْرَارِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَفْوَةُ أَهْلِ الرِّضَى الْأَخْيَارِ ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ رَاضٍ عَنْ مَوْلَاهُ الرَّحِيمِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَاعَبْدَ اللّٰهِ : أَنْتَ لَمْ تُخْلَقْ فِى هٰذِهِ الْحَيَاةِ لِتَكُونَ فِيمَا تَشْتَهِى وَتُرِيد ، وَإِنَّمَا خُلِقْتَ لِتُبْتَلَى بِأَنْوَاعِ الْإِبْتِلَاءَاتِ كَمَا

(١) ليس المراد من الفريضة السهام المقدرة للوارثين كما قال بعض الناس فإن هذه الفريضة إنما فرضها الكتاب والسنة ، وليس المراد بها الاجماع كما قال بعض آخر فإن الاجماع لابد له من سند إما من الكتاب أو السنة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى الاجماع معصوم من الخطأ فيكون وصف الفريضة بأنها عادلة وصفا ضائعا لوكان الاجماع المراد . هذا والذى يتعين أن يكون المراد بهذه الفريضة هو القياس وهو فريضة على علماء الاسلام يلحقون به ما يحدث من الحوادث التى لم يرد فيها نص ـ خاص بأشباهها مما نص عليه ، ووصفه بالعدل ليخرج القياس الجائر الذى لا يلاحظ جامعا بين الفرع وأصله أو يلاحظ جامعا ليس بمعتبر فليحرص الناظر على هذه الفائدة التى ألجأنى الى ذكرها هنا حرصى على أن يكون الخطيب أو غيره فاهما ما ينطق به من الأحاديث النبوية حتى إذا ما سئل عن معناها أمكنه أن يفيدها .

يُرِيدُ رَبُّ العَبِيد، فتَارَةً تُبْتَلَى بِالْخَيْرِ لِيَظْهَرَ أَشَاكِرٌ أَنْتَ نِعْمَةَ رَبِّكَ أَمْ كَفُورٌ مَرِيد، وَتَارَةً تُبْتَلَى بِالشَّرِّ لِيَتَجَلَّى أَصَابِرٌ أَنْتَ أَمْ جَزُوعٌ ذَمِيم. مِنَ النَّاسِ مَنْ عَرَفَ هٰذِهِ الحَقِيقَةَ مَعْرِفَةً لَا زَعْزَعَةَ فِيهَا وَلَا اضْطِرَاب، فَخَضَعَ وَرَضِيَ بِكُلِّ مَا يَفْعَلُهُ رَبُّهُ فَبَرْهَنَ عَلَى أَنَّهُ مِنْ ذَوِي الْأَلْبَاب، أَعْطَى الْعُبُودِيَّةَ حَقَّهَا هٰذَا الفَرِيقُ وَقَامَ بِمَا يَنْبَغِي لَهَا مِنْ آدَاب، وَأَيُّ دَرَجَةٍ فَوْقَ أَنْ يَرْضَى الْعَبْدُ عَنْ كُلِّ تَصَرُّفَاتِ مَوْلَاهُ الحَكِيمِ الْعَلِيم. تَعَجَّلَ الرَّاحَةَ هٰذَا الْفَرِيقُ وَسَرَّ أَحْبَابَهُ وَكَمَدَ الْأَعْدَاء، وَأَصْبَحَ بِهٰذَا المَقَامِ مُسْتَحِقًّا مِنْ رَبِّهِ أَجْزَلَ جَزَاء، وَهٰذَا كِتَابُ رَبِّنَا يُنَادِي بِهٰذَا الجَزَاء أَرْفَعَ وَأَحْلَى نِدَاء، فَيَقُولُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ الفَوْزُ الْعَظِيم. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ جَهِلَ هٰذِهِ الحَقِيقَةَ فَوَقَفَ مَوْقِفًا يَسُرُّ الْعَدُوَّ وَيَسُوءُ الحَبِيب، إِنْ أُعْطِيَ مَا يَسُرُّهُ غَفَلَ عَنِ المُعْطِي وَتَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ عَلَى الْبَعِيدِ وَالْقَرِيب، وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يُسِيئُهُ جُنَّ جُنُونًا وَوَصَلَ بِهِ الجَزَعُ إِلَى شَتْمِ مَوْلَاهُ الْقَرِيبِ الحَسِيب، وَهٰذَا هُوَ الْفَرِيقُ الَّذِي يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ كَمَا يَقُولُ الْقُرْآنُ الْكَرِيم. إِنَّ مَنْ هٰذَا حَالُهُ لَا يَسْتَحِقُّ أَبَدًا أَنْ يَمْدَحَهُ وَاحِدٌ مِنَ الْعُقَلَاء، وَإِنَّمَا جَزَاؤُهُ مِنَ الخَلْقِ أَنْ يُحْتَقَرَ وَيُزْدَرَى بَيْنَهُمْ كُلَّ الِازْدِرَاء، أَمَّا جَزَاؤُهُ مِنْ رَبِّهِ فَلَا يَشُكُّ أَحَدٌ فِي أَنَّهُ أَسْوَأُ جَزَاء، إِذْنْ هٰذَا الْفَرِيقُ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَهُوَ فَرِيقُ الشَّيْطَانِ

الرَّجِيم . لَيْسَ فى الدُّنيا يا هذا ما يَسْتَخِفُّ العَاقِلَ مِنْ نَعِيمٍ وَلا مَا يُفْقِدُهُ رُشْدَهُ مِنْ أَلَم ، فَإِنَّ نَعِيمَهَا لاَ بُدَّ يَوْمًا أَنْ يَنْتَهِيَ وَكَذلِكَ أَلَمُهَا مَهْمَا بَرِحَ وَاحْتَدَم ، فَاصْبِرْ قَلِيلاً عَلَى أَلَمِهَا وَنَعِيمِهَا تَخْرُجْ مِنَ الدُّنْيا وَقَدْ نَجَحْتَ فى امْتِحَانِ مَوْلاكَ الحَكَم ، وَكُنْ عَلِيَّ الهِمَّةِ لاَ يُحْزِنُكَ إِلاَّ عَذَابُ النَّارِ وَلاَ يَسُرُّكَ إِلاَّ الجَنَّةُ وَمَا لَهَا مِنْ نَعِيمٍ مُقِيم .

(حديث) مَنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ ، وَابْتُلِيَ فَصَبَرَ ، وَظَلَمَ فَاسْتَغْفَرَ ، وَظُلِمَ فَغَفَرَ ، ثُمَّ سَكَتَ ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَهُ ؟ قَالَ أُولئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ .

١١١ — الجمال المحترم

الحَمْدُ للهِ الَّذِي الفَضْلُ عِنْدَهُ فى جَمَالِ البَوَاطِنِ وَإِنْ لَمْ تَجْمُلِ الظَّوَاهِر ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةً إِنَّمَا تَقْبُحُ البَوَاطِنُ إِذَا لَمْ تَتَيَقَّنْهَا وَتَسْتَنِرْ بِنُورِهَا البَاهِرِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَكْمَلُ الخَلْقِ فى جَمَالِ بَاطِنِهِ وَالظَّاهِرِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَعَلَى كُلِّ أَهْلِ الإِيمَان .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : إِنَّ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنَّا صُورَتَيْنِ صُورَةً بَاطِنَةً وَصُورَةً ظَاهِرَه ، وَكُلٌّ مِنَ الصُّورَتَيْنِ قَدْ تَكُونُ قَبِيحَةً لِدَرَجَةٍ لاَ تُطَاقُ رُؤْيَتُهَا وَقَدْ تَكُونُ جَمِيلَةً لِدَرَجَةٍ بَاهِرَه ، أَمَّا جَمَالُ الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ وَقُبْحُهَا فَمَعْرُوفَانِ لِكُلِّ ذِي عَيْنٍ بَاصِرَه ، وَهُمَا

لا أَثَرَ لَهُمَا وَحْدَهُمَا فى سعادةِ المرْءِ لا عِنْدَ الخَلْقِ ولا عِنْدَ الخلاق. فَقَدْ تكونُ المرْأةُ وحيدةَ الزمنِ جمالاً ولكنْ لِسوءِ سيرتِها يَنْبِذُها زَوْجُها ولا يُفكِّرُ فى تزوُّجِها إنسان، وقد تكونُ مُشَوَّهَةَ الصورةِ ولكنْ لأدبِها وفضلِها يتمنَّاها الملوكُ أربابُ التيجان، وقد يكونُ الرَّجُلُ نادِرَ الجمالِ ولكنْ لانحطاطِهِ يكونُ مُزْدَرًى بَيْنَ الإخوان، وقد يكونُ أشْوَهَ الناسِ صورةً ولكنَّهُ سيِّدُ عصرِهِ على الإطلاق. هذا التاريخُ بَيْنَ أيدينا ما رأيناهُ مرَّةً أشارَ إلى هذا الجمالِ وحدَهُ إشارةَ إجلال، لكنَّهُ رُبَّما ملأ الأرضَ ثناءً على ذى صورةٍ شوهاءَ لِما لَهُ مِنْ كمال، أمَّا ربُّنا وخالقُنا فلا قيمةَ عندَهُ للظواهرِ مهما كانَ لها مِنْ جمال، إنَّما القيمةُ عندَهُ للقلوبِ إذا صفَتْ وتنزَّهتْ عن زيغِ العقيدةِ وسيِّئاتِ الأخلاق. إنَّ القلبَ إذا كانَ هكذا جمُلَتِ الصورةُ الباطنةُ للإنسان، وكُلَّما كانَ القلبُ أصفى كانتِ الصورةُ الباطنةُ أجملَ فى نظرِنا وعندَ الرحمن، فإنَّ القلبَ الذى هذا حالُهُ يقودُ الجوارحَ إلى كُلِّ كمالٍ ويزجرُها عن كُلِّ نقصان، فإذا جمُلَتِ الصورةُ الظاهرةُ مع هذا فقد اتفقَ جمالُ الظاهرِ والباطنِ أيَّ اتفاق. وجمالُ الباطنِ هذا هو المحترَمُ وهو الذى يُحِبُّهُ ربُّنا ويرضاه، وقد مدحَهُ فى كُتُبِهِ المقدَّسةِ ومدحَ أهلَهُ وبيننا وبينَ بعضِهم مِنَ الدهورِ ما لا يعلمُهُ سواه، فكمْ ذكرَ مِنْ نبيٍّ ووليٍّ وأثنى عليهِ

وَأَجْزَلَ فى الثَّنَاءِ جَلَّ عُلَاهُ ، وَكَيْفَ لَا يَمْدَحُهُ وَهُوَ الَّذِى بِهِ سَعَادَةُ الْعِبَادِ فى هذِهِ الدَّارِ وَفى دَارِ التَّلَاقِ . أَمَّا إِذَا قَبُحَتْ صُورَةُ الْبَاطِنِ فَجَمَالُ الظَّاهِرِ لَا يُفِيدُ الْجَمِيلَ وَلَا بِقَدْرِ فَتِيلٍ ، لَا بَلْ يُلْحِقُ بِهِ مِنَ الضَّرَرِ مَا لَا يَعْلَمُ قَدْرَهُ إِلَّا الرَّجُلَ النَّبِيلِ ، فَإِنَّ قُبْحَ الْبَاطِنِ يَدْعُو إِلَى تَرْكِ الْفَضَائِلِ وَيُغْرِى عَلَى كُلِّ فِعْلٍ رَذِيلٍ ، وَلِأَجْلِ هذَا كَانَ أَهْلُهُ فى دَارِيْهِمْ مَصَبَّ لَعَنَاتِ رَبِّنَا وَمَوْضِعَ بَطَشَاتِهِ الَّتِى لَا تُطَاقُ . وَإِنَّمَا تَقْبُحُ الصُّورَةُ الْبَاطِنَةُ إِذَا سَاءَ اعْتِقَادُ الْمَرْءِ أَوْ كَانَ بِقَلْبِهِ شَىْءٌ مِنْ شَيْنِ الصِّفَاتِ ، كَالرِّيَاءِ وَالْحَسَدِ وَالْكِبْرِ وَالْعُجْبِ وَالْحِقْدِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْآفَاتِ ، بَعْدَ هذَا الْبَيَانِ أَكِلُ إِلَيْكَ الْأَمْرَ فى ظَاهِرِكَ وَبَاطِنِكَ وَمَا تُجْرِى فِيهِمَا مِنْ عِنَايَاتٍ ، وَلَعَلَّكَ لَا تَتَرَدَّدُ فى بَذْلِ وُسْعِكَ كُلِّهِ فى إِصْلَاحِ قَلْبِكَ وَتَنْظِيفِهِ مِمَّا بِهِ مِنْ أَدْرَانٍ .

(حديث) إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَهْ .

١١٢ خطـ حالنا وحال سلفنا

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ عَبْدٍ عَرَفَ رَبَّهُ فَأَحَبَّهُ بِكُلِّ قَلْبِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً تَحْمِلُ الْمُوقِنَ بِهَا عَلَى شُكْرِ رَبِّهِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَصَفْوَةُ الصَّفْوَةِ مِنْ حِزْبِهِ ،

اللّهمّ صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد وعلى آله وأصحابه الّذين كانت الآخرة موضع مالهم من عنايات .

(أمّا بعد) فيا عبد الله : كان النّاس فيما مضى يرون الهفوة في دينهم أكبر مصاب ، ولا يهنأ لهم طعام ولا شراب إلاّ إذا غسلوا أثرها بدموع المتاب ، أمّا نحن فضربت علينا الغفلات سرادقاتها وأغلقت علينا الأبواب ، ولهذا ترانا في فرح ومرح ونحن مصابون في ديننا بآلم المصيبات . كان النّاس يتنافسون ويتسابقون دائمًا على صالحات الأعمال ، ما كان يشبعهم منها ما يعملونه بالنّهار فيضيفون إليه ما يعملونه باللّيال ، أمّا نحن فتنافسنا وتسابقنا وموضع عنايتنا هو الأموال ، وأمّا تلك الصّالحات فلا نعرفها ولا تخطر على قلوبنا منها خطرات . كانت الآخرة محطّ نظر النّاس ليس لهم فيما سواها آمال ، وكان همّهم في ليلهم ونهارهم هو كلّ ما يوصل لها من أفعال وأقوال ، أمّا نحن فلا همّ لنا إلاّ الدّنيا وما يوصل لها من أفعال ، ومن أجل هذا قصرنا عليها كلّ مالنا من أفكار ومجهودات . كان المقصود الوحيد للنّاس والمحبوب الفريد لهم هو ربّنا ذا الجلال ، ولحبّه كانوا يحبّون أحبابه ويحبّون كلّ ما يقرّب إليه من أعمال ، أمّا نحن فحالنا ينطق بأنّ مقصودنا الأعلى ومحبوبنا الأغلى لهذا هو المال ، نحبّ أهله ولو كفّارًا ونحبّ

مَا يُقرِّبُ إِلَيْهِ وَلَوْ مِنَ الْمُوبِقَاتِ . وَمِنْ آثَارِ هٰذَا أَنَّنَا نَجْزَعُ أَشَدَّ الْجَزَعِ وَتَعْظُمُ حَسَرَاتُنَا إِذَا ضَاعَ مِنَّا دِرْهَمٌ أَوْ دِينَارٌ ، وَنَفْرَحُ أَشَدَّ الْفَرَحِ وَتَعْظُمُ مَسَرَّاتُنَا إِذَا وَصَلَتْ أَيْدِينَا لِشَيْءٍ مِنْ هٰذَا الْمَالِ الْغَرَّارِ ، وَلَوْ قِيلَ لَنَا غَضِبَ اللّٰهُ تَعَالَى عَلَيْكُمْ مَا بَالَيْنَا بِهَوْلِ هٰذَا الْإِنْذَارِ ، وَقَدْ نُسَرُّ أَكْبَرَ سُرُورٍ إِذَا انْفَتَحَ لَنَا بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْفَاحِشَاتِ . هٰذِهِ مُصِيبَةٌ لَا يُصَابُ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ بِمُصِيبَةٍ أَكْبَرَ مِنْهَا لَا فِي دِينِهِ وَلَا فِي دُنْيَاهُ ، وَأَيُّ مُصِيبَةٍ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُصَابَ الْمُؤْمِنُ بِمَوْتِ قَلْبِهِ مَوْتًا لَا يَشْعُرُ مَعَهُ بِغَضَبِ مَوْلَاهُ ، نَعَمْ هٰذِهِ مُصِيبَةٌ تَجِلُّ عَنِ الْعَزَاءِ وَكَيْفَ يَتَعَزَّى مَنِ اسْتَحَقَّ تَعْذِيبَ الْجُنَاهِ ، وَلٰكِنْ لَا تَيْأَسْ فَحَيَاةُ قَلْبِكَ يُمْكِنُ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهَا بِالْمَتَابِ الصَّادِقِ وَدَوَامِ الطَّاعَاتِ .

(حديث) إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صَقَلَ مِنْهَا وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى يُغَلِّفَ قَلْبَهُ فَذٰلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللّٰهُ فِي كِتَابِهِ : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ .

١١٣ ـ عظات مختلفة

الْحَمْدُ لِلّٰهِ حَمْدَ امْرِئٍ إِذَا سَمِعَ الْمَوْعِظَةَ سَارَعَ إِلَى الْعَمَلِ بِمَا تَقْتَضِيهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ شَهَادَةَ مَنْ أَخْلَصَ فِيهَا نَالَ مَا يَبْتَغِيهِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ السَّنَدُ

الأقوى لمن يقتفيه ، اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن سار سيرهم القويم .

(أما بعد) فيا عبد الله : لا تغضب فإن الغضب غول العقول وزمام الإنسان الذي يقوده منه الشيطان ، ولا تخن فإن الإنسان عزيز ما دام أميناً فإذا ما خان هان ، ولا تحسد أحداً على نعمة فإن الحسد عذاب في الدارين وليس مقتضى الإيمان ، ولا تقل لفاسق يا سيدي فإن من يعصي الله لا يستحق هذا التعظيم . ولا تعن مبطلاً على باطله فإن الإعانة على الباطل من شأن الشياطين ، ولا تواجه بالمدح من يجهل قدر نفسه وإلا ذبحته بمدحك هذا من غير سكين ، ولا تقل لمؤمن يا كافر أو يا عدو الله وإلا كنت مرتكباً كبيرة أو من الكافرين ، ولا تجلس مع من يعصي راضياً بفعله وإلا شاركته في عصيانه الذميم . ولا تبغض أنصار الرسول فإن بغضهم نفاق وحبهم إيمان ، بل ولا تبغض واحداً من أصحاب الرسول وإلا كنت مذموماً يبغضك الرحمن ، ولا تظلم ضعيفاً لا ناصر له وإلا اشتد عليك غضب مولاه الديان ، ولا تأخذ أموال الناس تريد إتلافها وإلا أتلفك ربك العدل الحكيم . ولا تأكل أجرة أجير وإلا كان خصمك حينئذ مولاه القدير ، ولا تكبر المكيال

وَالْمِيزَانَ لِنَفْسِكَ وَتُصَغِّرُهُ لِغَيْرِكَ وَإِلاَّ فَالْوَيْلُ لَكَ فِى الْيَوْمِ الْأَخِيرِ ، وَلاَ تَكْتُمْ شَهَادَةً دُعِيتَ إِلَيْهَا وَإِلاَّ كُنْتَ كَشَاهِدِ الزُّورِ فِى الْإِثْمِ الْكَبِيرِ ، وَلاَ تُرْضِ النَّاسَ بِمَا يُغْضِبُ اللهَ وَإِلاَّ غَضِبَ هُوَ عَلَيْكَ وَأَغْضَبَ عَلَيْكَ حَقِيرَهُمْ وَالْعَظِيمَ . وَلاَ تُحِبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَكَ النَّاسُ قِيَامًا وَإِلاَّ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تَفْعَلُ وَإِلاَّ كُنْتَ سُخْرِيَةً لِلْخَلْقِ وَفِى غَضَبِ مَوْلاَكَ الْقَهَّارِ ، وَلاَ تُضَيِّعْ مَنْ تَعُولُ وَإِلاَّ ضَيَّعَكَ رَبُّكَ هُنَا وَفِى تِلْكَ الدَّارِ ، وَلاَ تَتَعَوَّدِ الشِّبَعَ فَإِنَّ أَهْلَ الشِّبَعِ هُنَا يَكُونُونَ فِى الْآخِرَةِ أَهْلَ الْجُوعِ الْأَلِيمِ . وَلاَ تُقَدِّمْ رِشْوَةً عَنْ نَفْسِكَ وَلاَ عَنْ غَيْرِكَ وَلاَ تَقْبَلْهَا وَإِلاَّ لَعَنَكَ اللهُ ، وَلاَ تَلْعَبِ النَّرْدَ وَمِثْلُهُ غَيْرُهُ مِنَ الْأَلْعَابِ الْمَعْرُوفَةِ وَإِلاَّ كُنْتَ كَمَنْ لَطَّخَتْ بِدَمِ الْخِنْزِيرِ يَدَاهُ ، وَلاَ تُفْشِ سِرَّ إِتْيَانِكَ لِزَوْجَتِكَ وَإِلاَّ كُنْتَ مِنْ شَرِّ الْعُصَاةِ ، وَلاَ تَتَسَبَّبْ فِى لَعْنِ وَالِدَيْكَ وَلاَ تُغَيِّرْ حُدُودَ الْأَرْضِ وَإِلاَّ لُعِنْتَ لَعْنَ الْأَثِيمِ .

(حديث) تَجَشَّأَ رَجُلٌ[1] عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : كُفَّ عَنَّا جُشَاءَكَ فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ شِبَعًا فِى الدُّنْيَا أَطْوَلُهُمْ جُوعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . رَوَاهُ التِّرْمِذِىُّ وَالْبَيْهَقِىُّ وَابْنُ مَاجَهْ .

---

(١) أى خرج من فمه ريح معه صوت .

١١٤ - هل نحن مؤمنون بوعد الله ووعيده

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يُخَافُ غَيْرُهُ لِأَنَّ بِيَدِهِ النَّفْعَ وَبِيَدِهِ الضَّرَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي مَنْ تَعَدَّى حُدُودَهُ كَانَ فِي خَطَرٍ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَفْوَةُ الْخَلْقِ مَلَكِهِمْ وَجِنِّهِمْ وَالْبَشَرِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ مَنْ حَافَظَ عَلَى الآدَابِ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللَّهِ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنَا بِطَاعَتِهِ وَنَهَانَا عَنْ مَعْصِيَتِهِ بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ الْحَكِيمَاتِ، أَمَرَنَا ذَلِكَ الأَمْرَ وَنَهَانَا ذَلِكَ النَّهْيَ عَلَى لِسَانِ رَسُولٍ هُوَ سَيِّدُ الْكَائِنَاتِ، وَوَعَدَنَا عَلَى فِعْلِ مَا أَمَرَ أَنْ يُجَازِيَنَا بِجَنَّةٍ عَرْضُهَا الأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ، وَتَوَعَّدَنَا عَلَى فِعْلِ مَا نَهَى أَنْ يُجَازِيَنَا بِدَارِ انْتِقَامِهِ وَهِيَ النَّارُ. إِنَّ هَذَا الْوَعْدَ وَهَذَا الْوَعِيدَ أَنْتَ تَسْمَعُهُمَا كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الْحَدِيثِ وَالْقُرْآنِ، فَمَا رَأَيْنَاكَ يَوْماً رَغِبْتَ فِي جَزَاءِ طَاعَةٍ وَلَا خِفْتَ مِنْ جَزَاءِ عِصْيَانٍ، مَعَ عِلْمِكَ أَنَّ جَزَاءَ الطَّاعَةِ دَارٌ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَأَنْتَ خَالِدٌ فِيهَا جَذْلَانُ، وَمَعَ عِلْمِكَ أَنَّ جَزَاءَ الْمَعْصِيَةِ دَارٌ ذِكْرُهَا فَقَطْ فَتَّتَ أَكْبَادَ الأَحْرَارِ.

قُلْ لَنَا يَا هَذَا أَمُؤْمِنٌ أَنْتَ أَمْ مُكَذِّبٌ بِهَذَا الْوَعْدِ وَهَذَا الْوَعِيدِ، فَإِنْ كُنْتَ مُكَذِّباً فَصَارِحْنَا بِهَذَا حَتَّى لَا نُبْدِيَ فِي عِلَاجِكَ وَلَا نُعِيدَ، وَإِنْ كُنْتَ مُؤْمِناً فَأَرِنَا آثَارَ إِيمَانِكَ فِيمَا تُرِيدُ وَفِيمَا لَا تُرِيدُ،

فَإِنَّ وُجُودَ الشَّيْءِ بِدُونِ وُجُودِ آثَارِهِ يُسْقِطُهُ فِي نَظَرِ الْعُقَلَاءِ عَنِ الْاعْتِبَارِ . وَلَيْسَ مِنْ آثَارِ الإِيمَانِ أَبَداً أَنْ تَفْعَلَ كُلَّ مَا تَشْتَهِيهِ نَفْسُكَ وَلَوْ أَرْدَاكَ ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ آثَارِ الإِيمَانِ أَبَداً أَنْ تَتْرُكَ بِلَا مُبَالَاةٍ مَا أَوْجَبَهُ عَلَيْكَ مَوْلَاكَ ، إِنَّمَا آثَارُ الإِيمَانِ أَنْ تَكُونَ عِنْدَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مُسَارِعًا إِلَى امْتِثَالِهِمَا وَلَوْ أَضْنَاكَ ، وَمِنْ أَكْبَرِ آثَارِ الإِيمَانِ أَنْ تَرْغَبَ فِيمَا رَغَّبَكَ فِيهِ رَبُّكَ وَأَنْ تَخَافَ مَا أَخَافَكَ مِنْهُ وَهُوَ الْمُنْتَقِمُ الْجَبَّارُ . أَنْتَ تَسْعَى سِنِينَ لَيْلاً وَنَهَاراً بِلَا مَلَلٍ لِتَصِلَ إِلَى عَمَلٍ يَجِيئُكَ مِنْهُ بَعْضُ الْمَالِ ، وَلَا يَهْنَأُ لَكَ أَكْلٌ وَلَا نَوْمٌ إِذَا قِيلَ لَكَ سَيَسْرِقُ اللُّصُوصُ مَالَكَ فِي بَعْضِ اللَّيَالِ ، فَلَوْ خِفْتَ مِنَ النَّارِ وَتَعِبْتَ لِلْجَنَّةِ كَخَوْفِكَ عَلَى مَالِكَ وَتَعَبِكَ لَهُ كُنْتَ مِنْ خِيَارِ الرِّجَالِ ، وَلَكِنَّكَ أَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُهْمِلَ آخِرَتَكَ الْأَبَدِيَّةَ وَتَكْتَفِيَ بِدُنْيَاكَ الْقَصِيرَةِ الْعُمُرِ الْحَقِيرَةِ الْمِقْدَارِ .

(حديث) مَنْ خَافَ أَدْلَجَ [١] وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ .

١١٥ — لماذا تاخرنا اليوم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْقُوَّةَ فِي اتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ وَجَعَلَ الضَّعْفَ فِي

---

(١) الادلاج السير أول الليل : أى من خاف من الله تعالى بادر إلى عمل ما يرضيه فبلغ دار كرامته .

الاختلاف ، وأشهد أن لا إله إلا الله الذى لم يمتن على نبيه بمثل ما كان بين أصحابه من اتفاق وائتلاف ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله الذى علمنا أن تفرق القلوب يرغم الآناف ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ذوى النهج المنير.

(أما بعد) فيا عبد الله : يتساءل كل مؤمن يهتم بأمته لماذا تأخر المسلمون فى هذا الزمان ، وقد كانوا فيما مضى سادة العالم باعتراف القاصى والدان ، يقول هذا ويتعجب من هذا التأخر الذى لا يليق بخير أمة تدين بخير الأديان ، ويتمنى بتلهف أن لو أتيح له من يدله على سبب هذا التأخير. قولوا لهذا السائل أيها الناس إن السبب ظاهر ظهورا لا يحتمل أدنى جدال ، فإن كل جهة من جهات الأمة غدت لا تعرف غيرها ولا بينها وبينها أى اتصال ، بل أصبحت كل بلدة من بلاد الإسلام لا تفكر فى سواها ولو بينها وبينها بضعة أميال ، بل صار كل فرد من أفراد الأمة لا يهتم بغيره ولو كان ذلك الغير والده الكبير. فالأمة التى تعد بمئات الملايين اليوم لا تزيد فى التحقيق عن رجل واحد ، ولا عجب فى هذا إذا كان كل مسلم لا يهمه غيره ولو كان حضرة الوالد ، وإن شئت أن تتحقق هذا فانظر إلى اهتمام المسلمين بأحدهم إذا نزلت به

بَعْضُ الشَّدَائِد ، تَجِدُهُمْ يَرَوْنَهُ فى مِثْلِ النَّارِ الْمُلْتَهِبَةِ وَلاَ يَلْتَفِتُ لَهُ مِنْهُمْ كَبِيرٌ وَلاَ صَغِير . لاَ بَلْ إِذَا رَأَوْهُ هٰكَذَا شَمِتُوا بِهِ وَزَادُوهُ بَلاَءً عَلَى مَا بِهِ مِنْ بَلاَء ، وَلاَ تَتَعَجَّبْ إِذَا قُلْتُ لَكَ إِنَّ نَارَ الْحَسَدِ تَتَأَجَّجُ فى قُلُوبِهِمْ إِذَا رَأَوْهُ فِي سَعَةٍ وَفى رَخَاء ، لاَ تَظُنَّ هٰذَا فى نَاحِيَةٍ مِنَ الْعَالَمِ الْإِسْلاَمِيِّ دُونَ غَيْرِهَا بَلْ فى جَمِيعِ الْأَنْحَاء ، وَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ تَتَقَدَّمَ أُمَّةٌ بَيْنَ الْأُمَمِ وَهِيَ بِهٰذَا الْحَالِ الْحَقِير . قُولُوا لِهٰذَا السَّائِلِ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا نَسِينَا رَبَّنَا وَنَسِينَا دِينَهُ الْكَرِيم ، وَأَصْبَحَ دِينُنَا أَهْوَاءَنَا إِذَا مَالَتْ إِلَى شَيْءٍ فَعَلْنَاهُ وَلَوْ كَانَ يُغْضِبُ مَوْلاَنَا الْعَظِيم ، رَابَيْنَا زَنَيْنَا لُطْنَا شَرِبْنَا الْخَمْرَ قَتَلْنَا سَرَقْنَا زَوَّرْنَا أَنْكَرْنَا صِدْقَ الْقُرْآنِ الْحَكِيم ، وَمَا إِلَى ذٰلِكَ مِمَّا يَقُولُ لِسَانُ حَالِهِ إِنَّا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الْأَخِير . إِنَّ الرِّبَا وَحْدَهُ مِنْ بَيْنِ الْمَعَاصِي تَوَعَّدَ أَنْ يُحَارِبَ فَاعِلَهُ مَوْلاَنَا الْقَدِير ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الرِّبَا أَصْبَحَ بَيْنَنَا كَبَاقِي الْعُقُودِ الْمَشْرُوعَةِ نَفْعَلُهُ كُلُّنَا دُونَ نَكِير ، فَهَلْ تَأَخُّرُنَا هٰذَا كَثِيرٌ عَلَى حَرْبِ رَبِّنَا لَنَا وَقَدْ أَضَفْنَا إِلَى الرِّبَا حَتَّى ذَنْبَ الْكُفْرِ الْخَطِير ، فَلْيَعْلَمْ هٰذَا كُلُّ سَائِلٍ وَمُتَعَجِّبٍ مِنْ تَأَخُّرِنَا بَعْدَ أَنْ كُنَّا فِي عِزٍّ وَفِير .

(حديث) مَا عَثْرَةُ قَدَمٍ ، وَلاَ اخْتِلاَجُ عِرْقٍ [1] ، وَلاَ خَدْشُ عُودٍ إِلاَّ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَمَا يَعْفُو اللّٰهُ عَنْهُ أَكْثَرُ . رَوَاهُ

---

(١) أى حركته واضطرابه .

أَبْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ المنذِرِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِى الشُّعَبِ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَاللَّفظُ لَهُ .

١١٦ — التحذير من الدخول فيما لا يحسنه الانسان

الحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى نَهَانَا أَنْ نَعْمَلَ عَمَلاً إِلاَّ عَلَى ضَوْءِ الْعِلْمِ الجَلِيلِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللّٰهُ شَهَادَةَ عَبْدٍ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ عَلِمَ فَكَانَ الْعَبْدَ النَّبِيلَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ دَلِيلُنَا إِلَى الْخَيْرِ وَنِعْمَ الدَّلِيلُ ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ عَبْدٍ فِى دَائِرَةِ عَمَلِهِ يَسْتَدِيرُ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّٰهِ : كُلُّ امْرِئٍ مِنَّا لَهُ عَمَلٌ اخْتَصَّ بِهِ يُعْرَفُ بِهِ بَيْنَ الإِخْوَانِ ، فَمِنَّا التَّاجِرُ وَمِنَّا السِّيَاسِيُّ وَمِنَّا طَبِيبُ الْأَرْوَاحِ وَمِنَّا طَبِيبُ الْأَبْدَانِ، صَنَائِعُ شَتَّى يَقْتَضِيهَا هٰذَا الْوُجُودُ وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ بِهَا أَىُّ إِنْسَانٍ ، وَإِنَّمَا كُلُّ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ يَسْتَطِيعُونَ الْقِيَامَ بِهَا بِلاَ أَدْنَى تَقْصِيرٍ. فَلَوْ تَكَلَّمْتَ مَعَ السِّيَاسِيِّ تُرِيدُ الِاسْتِفَادَةَ مِنْهُ أَفَادَكَ دُونَ تَلَجْلُجٍ فِيمَا يُفِيدُ ، وَلَوْ وَكَلْتَ إِلَيْهِ أَمْراً سِيَاسِيًّا قَامَ بِهِ كَمَا تُحِبُّ وَتُرِيدُ ، وَلَيْسَ بِغَرِيبٍ عَلَيْهِ ذٰلِكَ لِأَنَّهُ يُعَانِى عِلْمَ السِّيَاسَةِ وَعَمَلَهَا مِنْ زَمَنٍ بَعِيدٍ ، وَلَوْ كَلَّفْتَهُ عَمَلاً فِى غَيْرِ السِّيَاسَةِ عَجَزَ عَنْهُ وَأَخْطَأَ التَّدْبِيرَ . لاَ تَقُلْ إِنَّ السِّيَاسِيَّ يُدِيرُ مَمْلَكَةً فَكَيْفَ لاَ يُحْسِنُ عَمَلاً فِى غَيْرِ السِّيَاسَةِ يُعَانِيهِ ، لاَ تَقُلْ ذٰلِكَ لِأَنَّ الإِنْسَانَ

لا يُحسِنُ إلا ما تعلَّمَهُ ومَرَنَ عليهِ وكانَ يعنيه ، وكذلكَ طبيبُ الأبدانِ فارسُ الميدانِ إذا تكلَّمَ فى أسبابِ مرضِ البدنِ أو أسبابِ ما يشفيه ، وتظلِمُهُ إذا كلَّفتَهُ بعملِ التَّاجرِ أو طبيبِ الرُّوحِ لأنَّهُ فى ذلكَ ليسَ ببصيرٍ . لا تقلْ ذلكَ فى ذى عملٍ دونَ غيرِهِ بلْ قلْهُ فى جميعِ أربابِ الأعمالِ ، فمتى اختصَّ الإنسانُ بعملٍ لا يُجيدُ غيرَهُ وإنْ كانَ منْ فضلاءِ الرِّجالِ ، لهذا إذا لزمَ كلُّ إنسانٍ عملَهُ رأيتَ الوجودَ علَى أحسنِ حالٍ ، وكيفَ لا يكونُ كذلكَ وكلُّ عملٍ منْ أعمالِهِ لا يُباشرُهُ إلاَّ خبيرٌ . أمَّا إذا تدخَّلَ العاملُ فى غيرِ عملِهِ فانتظرْ حينئذٍ الارتباكَ فى الأعمالِ والاختلالَ ، لأنَّهُ يتدخَّلُ بجهلٍ ولا يُنتظرُ إلاَّ الخللُ منْ وراءِ عملِ الجهَّالِ ، إذنْ لا تعجبْ إذا رأيتَ سفينةَ الوجودِ تضطربُ وقدْ تولَّى مالا يُحسنُ منْ فيها منَ العمَّالِ ، ولعلَّكَ منْ هذا البيانِ فهمتَ أنَّ تدخُّلكَ فيما لا تُحسنُ ضررٌ كبيرٌ . فأطِعْنِى والزمْ عملَكَ الَّذى تُحسِنُهُ ودعْ مالا تُحسِنُهُ منَ الأعمالِ ، فإنَّكَ بذلكَ تُريحُ وتستريحُ وتبرهِنُ علَى أنَّكَ الرَّجلُ المِفضالُ ، وإذا لمْ تُطِعْنِى وتدخَّلتَ فيما لا تُحسنُ فلا تلمْ إلاَّ نفسكَ إذا رأيتَ الأهوالَ ، رزقنا اللهُ معرفةَ مقاديرِ أنفُسِنا لنقفَ عندَ تلكَ المقاديرِ .

(حديث) إيَّاكَ وكلَّ أمرٍ يُعتذرُ منهُ . رواهُ الضِّياءُ المقدسيُّ فى المختارةِ .

١١٧ — من العظيم حقاً

الحَمْدُ للهِ الَّذِى لاَ عَظِيمَ عِنْدَهُ إلاَّ مَنْ خَافَهُ وَاتَّقَاه ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ شَهَادَةً بِغَيْرِهَا لاَ تَكُونُ النَّجَاه ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَمُجْتَبَاه ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ خَيْرِ أُمَّةٍ فِى الْعِبَاد .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : يَجِبُ أَنْ تَفْهَمَ أَنَّ قَدْرَكَ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ النَّاسِ هُوَ مَا يَصْدُرُ مِنْكَ مِنْ أَعْمَال ، فَإِنْ نَبُلَتْ أَعْمَالُكَ كُنْتَ نَبِيلاً وَإِلاَّ كُنْتَ مِنَ الأَسَافِلِ الأَنْذَال ، لاَ تَعْتَمِدْ فِى شَرَفِكَ عَلَى شَرَفِ آبَائِكَ وَلاَ عَلَى مَرْكَزٍ مِنَ الْمَرَاكِزِ الْعَوَال ، وَلاَ عَلَى غِنَاكَ الْبَاهِرِ وَلاَ عَلَى جَاهِكَ الْوَاسِعِ فَإِنَّ ذٰلِكَ كُلَّهُ لِلنَّفَاد . لاَ تَغْتَرَّ بِالْتِفَافِ الْجَهَلَةِ عَبِيدِ الدُّنْيَا حَوْلَكَ وَلاَ تَعْظِيمِهِمْ لَكَ كُلَّ التَّعْظِيم ، فَإِنَّهُ تَعْظِيمٌ لاَ لِفَضْلِكَ بَلْ لِخُلُقٍ أَنْتَ تَعْرِفُهُ فِيهِمْ ذَمِيم ، وَلِذٰلِكَ إِذَا افْتَقَرْتَ انْفَضُّوا كُلُّهُمْ مِنْ حَوْلِكَ كَأَنَّكَ أَتَيْتَ بِجُرْمٍ عَظِيم ، وَذَهَبُوا إِلَى غَيْرِكَ يُعَظِّمُونَهُ ـ مَتَى كَانَ غَنِيًّا ـ وَلَوْ كَانَ كَافِراً كُفْرَ عِنَاد . إِنَّ الْعَاقِلَ لاَ يُهِمُّهُ مِثْلُ هٰذَا التَّعْظِيمِ بَلْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الاِحْتِقَارِ وَالاِزْدِرَاء ، وَإِنَّمَا يُهِمُّهُ تَعْظِيمُ وَاحِدٍ فَقَطْ هُوَ مَوْلاَنَا فَاطِرُ الأَرْضِ وَالسَّمَاء ، ذٰلِكَ لِأَنَّ تَعْظِيمَهُ يَنْفَعُ فِى الدُّنْيَا وَيَنْفَعُ فِى الْقَبْرِ

وَينفَعُ فى يوم الجزاء ، وَلاَ يزَالُ مَعَ الْعبْدِ حَتَّى يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ لَهُ فِيهَا مَا يَشْتهِى أَبَدَ الآبَاد . وَمَنْ عَظَّمَهُ اللهُ تَعَالَى عَظَّمَهُ النَّاسُ فَوَصَلَ إِلَى مَا يَقْصِدُهُ أَذْنِيَاءُ الْهِمَمِ ، وَاللهُ تَعَالَى لاَ يُعَظِّمُ مُلْتَفِتاً لِلْخَلْقِ يَعْمَلُ لِيَكُونَ لَهُ فى نُفُوسِهِمْ عِظَم ، وَلاَ يُعَظِّمُ الْعُصَاةَ الْفَاسِقِينَ لِأَنَّهُمْ بِعِصْيَانِهِمْ مُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأُمَمِ ، وَإِنَّمَا يُعَظِّمُ رَبُّنَا مَنْ عَظَّمَهُ وَخَافَ مَقَامَهُ وَبِتَقْوَاهُ اجْتَنَبَ أَنْوَاعَ الْفَسَاد . هٰذَا هُوَ الْعَظِيمُ حَقًّا لِأَنَّ هِمَّتَهُ تَعَلَّقَتْ بِعَظِيمٍ ، تَعَلَّقَتْ بِرِضَى مَالِكِ الْمُلْكِ وَبِجَنَّةٍ نَعِيمُهَا أَبَدِيٌّ مُقِيم ، مِنْ ذٰلِكَ الطِّرَازِ فَكُنْ يَا هٰذَا فَإِنَّهُ اللَّائِقُ بِعَقْلِكَ وَبِدِينِكَ الْقَوِيم ، وَلاَ تَكُنْ كَأُنَاسٍ نِهَايَةُ آمَالِهِمْ أَنْ يُعَظِّمَهُمُ الجُهَلاَءُ الْأَوْغَاد.

(حديث) مَرَّ رَجُلٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ مَا رَأْيُكَ فى هٰذَا ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ ، هٰذَا وَاللهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا رَأْيُكَ فى هٰذَا ؟ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ هٰذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، هٰذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هٰذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِنْ مِثْلِ هٰذَا . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

١١٨ — فضل إعانة الاخوان

الحَمْدُ لِلّهِ حَمْدَ عَبْدٍ هِمَّتُهُ مُتَّجِهَةٌ دَائِماً إِلَى إِعَانَةِ إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ الَّذِي وَعَدَ مَنْ يُعِينُ إِخْوَانَهُ أَنْ يُعِينَهُ وَهُوَ أَكْرَمُ الأكْرَمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي مَضَتْ حَيَاتُهُ فِي خِدْمَةِ خَلْقِ اللّهِ أَجْمَعِينَ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا الْغَوْثَ وَقْتَ الْكُرُبَاتِ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّهِ: إِنَّ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ مَا يَظُنُّهُ النَّاسُ صَغِيراً وَلَيْسَ بِصَغِيرٍ، لِذَلِكَ لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَيْهِ وَلَا يَعْمَلُونَهُ لِأَنَّهُ فِي نَظَرِهِمْ عَمَلٌ حَقِيرٌ، فَيَعِيشُ أَحَدُهُمْ طولَ حَيَاتِهِ تَارِكاً لَهُ وَفِي تَرْكِهِ الْحِرْمَانُ مِنْ خَيْرٍ كَثِيرٍ، وَلَوْ عَرَفَهُ وَفَهِمَ مَبْلَغَ فَضْلِهِ لَشَغَلَ بِالتَّقَرُّبِ بِهِ كُلَّ مَا لَهُ مِنْ أَوْقَاتٍ. مِنْ هَذَا الْوَادِي إِعَانَةُ خَلْقِ اللّهِ تَعَالَى عَلَى مَا لَهُمْ مِنْ شُئُونٍ، لَا فَرْقَ بَيْنَ مَنْ يَعْرِفُونَكَ مِنْهُمْ وَبَيْنَ مَنْ لَا يَعْرِفُونَ، إِعَانَةً تَصْدُرُ مِنْكَ عَنْ إِخْلَاصٍ لَا تَقْصِدُ بِهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَا يُحِبُّونَ، لَا تَبْتَغِي عَلَيْهَا جَزَاءً وَلَا شُكُوراً مُكْتَفِياً بِمَا لِرَبِّكَ مِنْ مَثُوبَاتٍ. إِنَّ مَنْ يَفْعَلُ هَذَا مَعَ النَّاسِ يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ كُلَّ الْإِحْسَانِ، وَالنَّاسُ جُبِلُوا عَلَى حُبِّ مَنْ يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ حُبّاً لَا رِيَاءَ فِيهِ

285

وَلا بُهتان ، وَفى طَبْعِهِمْ مُكافأةُ المُحْسِنِ ما دامت تلك المُكافأةُ فى الإمْكان ، فانظُرْ ـ إذا أحسنتَ ـ كيف تكونُ واحداً وَمَنْ يُكافِئُكَ عشراتٍ ومئات . لَيسَ النّاسُ وَحدَهُمُ الّذِينَ يُكافِئُونكَ بَلْ وَيُكافِئُكَ رَبُّ العالمين ، فتكونُ أنتَ مشغُولاً بإعانةِ النّاس وفى مَعُونَتِكَ رَبُّكَ المُحْسِنُ القادِرُ المَتِين ، فإنّهُ تعالى وَعدَ أن يكون فى حاجةِ مَنْ يكونُ فى حاجةِ إخوانِهِ المُسلمين ، وَإذا كانَ مَنْ بِيَدِهِ الحاجاتُ يُعِينُكَ فأىُّ حاجةٍ لا تُقْضى مِمّا يكونُ لكَ مِنْ حاجات . ما قُيِّدَ الوَعْدُ الكَرِيمُ بِحاجةِ الدُّنيا وَلا بِحاجةِ اليَوْمِ الأخير ، فمن هذا نفهمُ أنّهُ تعالى يكونُ عَوْنَ مَنْ يُعِينُ النّاسَ حَتّى فى اليَوْمِ العَسِير ، وَمَنْ أسعَدُ حالاً مِمّنْ يكونُ النّاسُ وَرَبُّ النّاسِ عَوْنَهُ فى الدُّنيا وَفى يَوْمِ المَصِير ، هذا مَبلغُ فَضْلِ إعانةِ النّاسِ فالْزَمْها تكُنْ فى دارَيْكَ مِنْ أهْلِ السّعادات .

(حديث) مَنْ يكُنْ فى حاجةِ أخِيهِ يكُنِ اللهُ فى حاجتِهِ . رَواهُ ابْنُ أبى الدُّنيا .

(آخر) وَاللهُ فى عَوْنِ العَبْدِ ما كانَ العَبْدُ فى عَوْنِ أخِيهِ . رَواهُ مُسْلِمٌ وَأبو داوُدَ وَالتِّرمِذِىُّ وَالنّسائىُّ وَابْنُ حِبّانَ وَالحاكِمُ مِنْ حديث .

١١٩ — كيف نعامل أحباب ربنا

الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى احْبابُهُ أَهْلُ الطَّاعَةِ الْمُتَّقُونَ وَأَعْداؤُهُ الْمُتَمَرِّدُونَ الْكافِرُون ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلاَّ اللّهُ شَهادَةً يَسْعَدُ الصَّادِقُ فِيهَا وَفِى دَارِ الْأَحْبَابِ يَكُون ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَحَبِيبُهُ الْأَمِينُ الْمَأْمُون ، اللّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ أَحَبَّ عِبَادَ اللّهِ الْأَتْقِياء .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللّهِ : أَنْتَ إِذَا أَحْبَبْتَ إِنْسَانًا حُبًّا صادِقًا أَحْبَبْتَ مَنْ يُحِبُّ ذٰلِكَ الْإِنْسَان ، وَحُبُّكَ هٰذَا لَهُ يَكُونُ عَلَى قَدْرِ حُبِّهِ لِحَبِيبِكَ كَيْفَمَا كَان ، فَإِذَا رَأَيْتَ مَنْ يُعَادِي حَبِيبَكَ هٰذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْعُدْوَان ، وَعَلَى قَدْرِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْعَداوَةِ لِحَبِيبِكَ يَكُون مَا فِى نَفْسِكَ لَهُ مِنَ الْبَغْضاء . بَلْ أَنْتَ تُحِبُّ مَنْ يَذْكُرُ حَبِيبَكَ أَمَامَكَ فَقَطْ بِكَلِمَةِ ثَناء ، وَتُبْغِضُ مَنْ يَذْكُرُهُ بِكَلِمَةِ سُوءٍ مَهْمَا كَانَ مَقَامُهُ بَيْنَ الْعُقَلَاء ، وَكَاذِبٌ فِى حُبِّ مَنْ يُبْغِضُ حَبِيبَ حَبِيبِهِ وَيُحِبُّ مَالَهُ مِنْ أَعْداء ، لِأَنَّ حَقِيقَةَ الْحُبِّ وَطَبِيعَتَهُ لَوْ فَكَّرْتَ فِيهَا وَجَدْتَهَا تَأْبَى ذٰلِكَ كُلَّ الْإِبَاء . لَا بَلْ أَنْتَ تُحِبُّ حِيطَانَ دَارِ حَبِيبِكَ وَأَشْجارَهُ وَتُحِبُّ قُطَطَهُ وَالْكِلَاب ، بَلْ إِذَا وَقَعَتْ عَيْنُكَ عَلَى مَنْ يُحِبُّ هٰذَا لِحَبِيبِكَ كَانَ عِنْدَكَ مِنْ أَحَبِّ الْأَحْبَاب ، بَلْ لَوْ أَبْغَضْتَ مَنْ يُبْغِضُ تُرَابَ نَعْلِ حَبِيبِكَ كَانَ ذٰلِكَ عَادِيًا لَيْسَ بِعُجَاب ، يَعْرِفُ هٰذَا مَنْ

ذاقَ طعْمَ الحُبِّ وعرَفَ حقيقتَهُ كما يعرِفُها الأفاضِلُ الأجلاء .

هكذا شأنُ ربِّكَ معَ أحبابِهِ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّ منْ يُحِبُّهُمْ منَ المؤمنينَ ، ويَعظُمُ حُبُّهُ هذا لِمَنْ يزورُهُمْ ويتحبَّبُ إليهِمْ أحياءً أوْ ميتينَ، كما أنهُ تعالى إذا علِمَ أنَّ أحدًا يُبغِضُهُمْ أبغضَهُ بُغضًا يُذهِلُ ذوي اليقظةِ المتفكِّرينَ ، وقدْ أخبرَنا أنهُ يُعلِنُ حرْبًا على هذا المُبغِضِ وانظرْ كيفَ يكونُ حالُ منْ يحارِبُهُ ربُّ السماءِ . قلْ هذا لِقومٍ ينتفِضُ أحدُهُمُ انتفاضَ المحمومِ إذا ذُكِرَ أمامَهُ حبيبٌ منْ أحبابِ مولاهُ ، وينظرُ بعينِ المقتِ والبُغضِ لِمَنْ يتحبَّبونَ إليهِمْ ويُوالونَهُمْ بعضَ الموالاةِ ، بلْ ويعُدُّ قبورَهُمْ أوثانًا ويرى منْ يزورُهُمْ عابدًا وثنًا دمُهُ حلالٌ لِمَنْ يتولاهُ ، قلْ لِهؤلاءِ كيفَ ترجونَ حُبَّ اللهِ تعالى وهذهِ حالتُكُمْ معَ أحبابِهِ الأصفياءِ . قلْ لأولئكَ المساكينِ إنَّ حُبَّ أحبابِ اللهِ يُدخِلُ الجنةَ وبُغضَهُمْ يُدخِلُ النيرانَ ، لأنَّ بُغضَهُمْ معصيةٌ كُبرى جزاؤُها حرْبُ اللهِ تعالى وحُبُّهُمْ أوثقُ عُرى الإيمانِ ، منْ هذا تعلمُ مبلغَ حُبِّ أحبابِ اللهِ بينَ أنواعِ الطاعاتِ ومبلغَ بُغضِهِمْ بينَ أنواعِ العِصيانِ، إذنْ تقرَّبْ أيها المؤمنُ إلى اللهِ تعالى بحُبِّهِمْ والتحبُّبِ إليهِمْ وأعرِضْ عنْ مُبغِضِهِمْ تنلْ ما تشاءُ .

(حديث) مَنْ عَادَى لِى وَلِيًا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ. رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ مِنْ حَدِيث.

(آخر) عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فقَالَ: أَيُّ عُرَى الْإِسْلَامِ أَوْثَقُ؟ قالُوا الصَّلَاةُ، قالَ حَسَنَةٌ وَمَا هِيَ بِهَا؟ قالُوا صِيَامُ رَمَضَانَ، قالَ حَسَنٌ وَمَا هُوَ بِهِ؟ قالُوا الْجِهَادُ، قالَ حَسَنٌ وَمَاهُوَ بِهِ؟ قالَ إِنَّ أَوْثَقَ [1] عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِى اللهِ وَتُبْغِضَ فِى اللهِ. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبَيْهَقِىُّ.

١٢٠ — القرآن

الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى أَنْزَلَ كِتَابَهُ نُوراً يَهْتَدِى بِهِ النَّاسُ فِى ظُلُمَاتِ الضَّلَالَاتِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةً بِهَا تَجِبُ الْمُحَافَظَةُ عَلَى آيَاتِ رَبِّنَا الْبَيِّنَاتِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى مِنْهُ أَشْرَقَتْ شَمْسُ الْهِدَايَاتِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ مُتَمَسِّكٍ بِهَذَا الدِّينِ الْقَوِيمِ.

---

(١) أى أقوى خصلة من خصال الايمان يتمسك بها المؤمن بها يكون دائما مستمسكا بالايمان — هى الحب فى الله والبغض فيه تعالى أى حبك أخاك لاستقامته وحب ربك له، وبغضك له لاعوجاجه وبغضه تعالى إياه، وفى نحو هذا التعبير تشبيه خصال الايمان بالعرى إحداها عروة كعروة الكوز التى يمسك منها، وكعروة الثوب التى تمسك الزر أن يفلت، والحديث يدل دلالة واضحة على مبلغ الحب فى الله والبغض فيه بين أعمال الاسلام، والسر فى ذلك أن من أحب الصالحين عمل أعمالهم فإن المرء على دين خليله، ومن أبغض الفاسقين كان بعيداً عنهم فلا يسرى إليه شىء من أخلاقهم وأعمالهم السيئة وليس عندنا فى الاسلام أى عمل ينتج هذا.

(أمَّا بعدُ) فيا عبدَ الله : القُرْآنُ كلامُ اللهِ تعالى وكلُّ كلامٍ فيهِ ما يُناسِبُ عِلْمَ المُتَكَلِّمِ بهِ مِنَ الأَسْرارِ ، وعِلْمُ رَبِّنا لا نِهايَةَ لَهُ فَأَسْرارُ كلامِهِ إِذَنْ لا نِهايَةَ لَها مَهْما غاصَتْ في بِحارِها الأَفْكار ، هُوَ حَبْلُ اللهِ المَتينُ وَنُورُهُ المُبينُ وَشِفاؤُهُ النّافِعُ وَالعِصْمَةُ مِنْ ضَلالِ الفُجّار ، وَهُوَ المَأْدُبَةُ الكُبْرى مِنَ اللهِ تَعالى لِعِبادِهِ وَهُوَ لِكُلِّ مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ النَّجاةُ مِنْ عَذابِ الجَحيم . مَنْ قَرَأَ مِنْهُ كُلَّ لَيْلَةٍ عَشْرَ آياتٍ فَقَطْ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغافِلِين ، أَمّا مَنْ قَرَأَ مِائَةَ آيَةٍ مِنْهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فَهُوَ مِنْ عِدادِ القانِتين ، فَإِنَّ الحَرْفَ الواحِدَ مِنْهُ ثَوابُ النُّطْقِ بِهِ عَشْرُ حَسَناتٍ لِلْقارِئين ، تَنْزِلُ السَّكينَةُ عِنْدَ مُدارَسَتِهِ وَتَغْشى الرَّحْمَةُ قُرّاءَهُ وَتَحُفُّهُمُ المَلائِكَةُ وَيَذْكُرُهُمْ رَبُّهُمْ في ذلِكَ المَلإِ الكَريم . تالِيهِ كَجِرابٍ حُشِيَ مِسْكًا تَفُوحُ رائِحَتُهُ العَطِرَةُ عَلى الخَلْقِ في كُلِّ مَكان ، لا يَهُولُهُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ يَوْمَ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ وَتَشيبُ الوِلْدان ، يُعْطى أَفْضَلَ ما أُعْطِيَ السّائِلُونَ إِذا شَغَلَتْهُ تِلاوَتُهُ عَنْ دُعاءِ مَوْلاهُ المَنّان ، يُلْبِسُهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ تاجَ الكَرامَةِ وَحُلَّتَها وَيَرْضى عَنْهُ في ذلِكَ اليَوْمِ العَظيم . قُرّاؤُهُ هُمْ أَهْلُ اللهِ وَخاصَّتُهُ مِنْ كُلِّ هذا الوُجُود ، الظّالِمُ لِنَفْسِهِ مِنْهُمْ وَالمُقْتَصِدُ وَالسّابِقُ لِلْخَيْراتِ لَهُمْ ما يَشاءُونَ في دارِ الخُلُود ، آباؤُهُمْ مِنْ أَجْلِهِمْ يُتَوَّجُونَ يَوْمَ القِيامَةِ تيجانًا تَفُوقُ الشَّمْسَ في

نُورِهَا يُتَوِّجُهُمْ بِهَا رَبُّ الْجُودِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ خَيْرَ النَّاسِ بِذَلِكَ التَّعَلُّمِ وَهَذَا التَّعْلِيمِ . أَغْنَى الْأَغْنِيَاءِ حَافِظُهُ وَهُوَ أَغْبَى الْأَغْبِيَاءِ إِذَا لَمْ يَفْهَمْ هَذَا الْمَقَامَ ، وَكَذَلِكَ هُوَ فِي دَرَجَةٍ لَا يُسَامَى فِيهَا مَهْمَا كَانَ لِسِوَاهُ مِنْ إِنْعَامٍ ، لِذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ لَا يَحْقِدَ حَافِظُهُ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَحْسُدُهُ وَفِي جَوْفِهِ هَذَا الْكَلَامُ ، وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ لَا يَنَامَ عَنْهُ بَلْ يَتْلُوهُ وَيَعْمَلُ بِهِ شُكْرًا لِمَوْلَاهُ الْحَكِيمِ . هَذَا هُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي شُغِلَ النَّاسُ عَنْهُ الْيَوْمَ بِفُحْشِ الطَّقَاطِيقِ وَالرِّوَايَاتِ ، هَذَا هُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي تَعْمَلُ الْأُمَّةُ فِي غَفْلَتِهَا لِلْقَضَاءِ عَلَى تَحْفِيظِهِ لِأَبْنَائِنَا وَالْبَنَاتِ ، لِتَعْلَمُوا أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّ الْيَوْمَ الَّذِي فِيهِ يَنْتَهِي هَذَا الْقُرْآنُ تَنْتَهِي فِيهِ مَعَهُ هَذِهِ الْكَائِنَاتُ ، اعْلَمُوا هَذَا لَعَلَّهُ يُوقِظُكُمْ مِنْ هَذِهِ الْغَفْلَةِ وَيُنَبِّهُكُمْ لِهَذَا الْخَطَرِ الْجَسِيمِ .

(حديث) خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَسِوَاهُمَا .

(آخر) مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ (١) وَغَشِيَتْهُمُ (٢)

---

(١) السكينة طمأنينة القلوب لما يفعل الحكيم العليم .

(٢) أى شملتهم وعمتهم .

الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ[1] الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ[2]. رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُمَا.

١٢١ — السعادة كلها فى العمل بدين الاسلام

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فِي تَقْوَاهُ مِنَ الْخَيْرِ مَالَا يَتَصَوَّرُهُ الْمُتَصَوِّرُونَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةَ عَبْدٍ عَرَفَ قَدْرَ مَعِيَّةِ اللهِ لِلْمُتَّقِي فَلَمْ يَعْرِفْ إِلَّا التَّقْوَى وَمَنْ يَتَّقُونَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ مَهْبِطُ الْوَحْيِ وَسَيِّدُ مَنْ بِهِ يَعْمَلُونَ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْبَرَرَةِ الْفِخَامِ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ قَوِيًّا لَا تَضْعُفُ وَعَزِيزًا لَا تَذِلُّ وَغَنِيًّا لَا تَعْرِفُ الْفَاقَاتِ، وَأَنْ تَكُونَ حَلِيمًا لَا تَغْضَبُ وَعَلِيمًا لَا تَجْهَلُ وَحَكِيمًا مُوَفَّقًا لِلصَّوَابِ فِي كُلِّ التَّصَرُّفَاتِ، وَأَنْ تَكُونَ فِي دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ مَشْمُولًا مِنَ اللهِ تَعَالَى بِجَلِيلِ الْعِنَايَاتِ، إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ كُلُّ ذَلِكَ فَتَمَسَّكْ فِي كُلِّ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِكَ بِدِينِ الْإِسْلَامِ. ذَلِكَ لِأَنَّهُ الدِّينُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى خَالِقُ الْإِنْسَانِ،

---

(١) أى حضروهم والتفوا حولهم إعجاباً بما يعملون.

(٢) من عنده تعالى هم ملائكته المقربون، والعندية عندية مكانة لامكان فإنه تعالى منزه عن المكان. أى إذا اجتمع قوم من المؤمنين فى مسجد من مساجد ربهم يعظمونه بتلاوة كلامه العزيز كافأهم على ذلك بما تقدم وبالقاء إجلالهم وتعظيمهم عند ملائكته، أو أمر سبحانه وتعالى منهم من يصرح بينهم بذلك الاجلال والتعظيم.

وَالخالقُ لا بُدَّ أنْ يعلَمَ ما يُصْلِحُ أوْ يُفْسِدُ مخلوقَهُ فِي سِرِّهِ وَالإعْلاَنِ، بِهذَا العِلْمِ المُحِيطِ أنْزَلَ اللهُ تعالَى دِينَهُ كافِلاً سعادَةَ البَشرِ فِي كُلِّ زَمانٍ وَمكَانٍ، وَلٰكِنْ أنْتَ تعلَمُ أنَّ القانُونَ سِرُّهُ فِي العَمَلِ بِهِ لا فِي وُجُودِهِ بَيْنَ الأنَامِ. فَتَمَسَّكْ بِدِينِكَ يا هذَا يَكُنِ اللهُ مَعَكَ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ كمَالٍ، فَبِعِزَّتِهِ تعزُّ وَبِقُوَّتِهِ تقوَى وَهٰكَذَا يُفِيضُ عليْكَ مِنْ آثارِ كمالِهِ ما يُناسِبُكَ مِنْ جمالٍ وَجلاَلٍ، هُوَ تعالَى وَعدَ بِذٰلِكَ فِي كِتابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَخُلْفُ الوَعْدِ عليْهِ تعالَى مُحالٌ، وَمعَ ذٰلِكَ جرِّبْ يظْهَرْ لكَ ذٰلكَ ظهُورَ البَدْرِ فِي ليَالِي التَّمَامِ. وَإنْ شِئْتَ بُرْهاناً فَارْجِعْ إلَى الصَّدْرِ الأوَّلِ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ وَأصْحابِهِ وَالتَّابِعِينَ، زَمَنَ أنْ كانَتِ الكَلِمَةُ الَّتِي لاَ كلِمَةَ قبْلَها وَلاَ بعْدَهَا هِيَ كَلِمَةَ الدِّينِ، فِي ذٰلِكَ العَهْدِ أنْتَ تعلَمُ أنَّ المُسلِمِينَ كانُوا سادَةَ العالَمِ وَقدْ كانُوا قلِيلِينَ، وَلاَ سببَ لِذٰلكَ إلاَّ أنَّهُمْ خضعُوا لِدِينِهِ فَأخْضَعَ لهُمْ كُلَّ جبَّارٍ ظلاَّمٍ. خفَّتْ بعْدَ ذٰلكَ مكَانَةُ الدِّينِ فِي قلُوبِ أهْلِهِ وَلاَ تزَالُ تخِفُّ لِلآنَ، وَلقَدْ وَصلَ الأمْرُ فِي الاسْتِخْفافِ بهِ أنْ رَماهُ قوْمٌ ينْتَسِبُونَ لهُ بِأنَّهُ كَذِبٌ وَبُهْتانٌ، لِذٰلِكَ هوَتِ الأمَّةُ علَى كَثْرَةِ عدَدِها مِنْ شاهِقِ مجْدِها إلَى ما ترَاهُ العَيْنانِ، وَكيْفَ لاَ تهْوِي وَهِيَ تحَارِبُ مَنْ بِيَدِهِ الرَّفْعُ وَالخفْضُ وَالإهانَةُ وَالإكْرَامُ. لعَلَّكَ اكْتَفيْتَ بِهٰذِهِ المُقارَنَةِ عَنْ أنْ تجرِّبَ وَجزَمْتَ أنَّ السَّعادَةَ كُلَّها

فى العَمَلِ بهذا الدِّينِ الكَرِيم ، وَلاَ تَنْسَ أَنَّ مِنْ آثارِ مُخالفَتِهِ ما تَرَاهُ مِنْ نَارِ التَّفَرُّقِ الَّتِي تَرْعَى فى جِسْمِ الأُمَّةِ كَمَا يُرْعَى الهَشِيم ، فَإِنْ كَانَ لَكَ بِسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ حَاجَةٌ فَتَمَسَّكْ بِدِينِكَ وَإِلاَّ فَأَنْتَ بِالصَّالِحِ لِنَفْسِكَ عَلِيم ، وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ لِلتَّحَصُّنِ بِحِصْنِ هذَا الدِّينِ حَتَّى نُوَافِيَ آخِرَتَنَا فى صُفُوفِ الكِرَام .

(حديث) إِنِّى لَأَعْرِفُ آيَةً لَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ أَخَذُوا بِهَا لَكَفَتْهُمْ (١) : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالحَاكِمُ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ .

١٢٢ — مبلغ شغل الناس بالدنيا وإعراضهم عن الآخرة

الحَمْدُ للهِ حَمْدَ امْرِئٍ عَرَفَ قَدْرَ الدَّارَيْنِ فَاخْتَارَ مِنْهُمَا مَا تَسْتَحِقُّ الاخْتِيَار ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ الَّذِى كَشَفَ لَنَا حَقِيقَةَ هٰذِهِ الدَّارِ وَحَقِيقَةَ تِلْكَ الدَّار ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى لَمْ يَرْكَنْ يَوْماً لِدَارِ الاغْتِرَار ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَخْدِمُونَ دُنْيَاهُمْ لِيَوْمِهِمُ الآخِر .

---

(١) أى كفتهم فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فيعيشون ببركة تقواهم فى يسار وأمان ، وأما فى آخرتهم فلا يحزنهم الفزع الأكبر حتى يدخلوا دار الكرامة بلا سابقة عذاب .

(أمّا بعْدُ) فيا عبْدَ الله : قُضِيَ الأَمْرُ ونَسِيَ النَّاسُ الآخِرَةَ وَمَحَضُوا للدُّنيا كُلَّ ما لَهُمْ مِنْ أَعْمال ، وأَصبَحُوا لاَ يقصِدُونَ بِكُلِّ تصرُّفاتِهِمْ إلاَّ الدُّنيا وأَمّا الآخِرَةُ فلاَ تخْطُرُ لَهُمْ على بال ، أَخذتْ أَسْماعَهُمْ وأَبْصارَهُمْ وعقُولَهُمْ بِزُخْرُفِها الفاني وسِحْرِها القتّال ، وكُلُّ ما ترَى بَيْنَهُمْ مِنَ البَلايَا فَمِنْ أَجْلِ الدُّنْيا وَما لهَا مِنْ متاعٍ حقِير . عجِيبٌ أَنْ يكُونَ كُلُّ هذا الاهْتِمامِ مِنْ أَجْلِ الدُّنْيا — وأَيّامُها معْدُودات ، وكُلُّ ما فِيها مِنْ لذائذَ معْلُومٌ أَنَّها مُنَغّصاتٌ ثُمَّ مُنْتهِيات ، ذلِكَ فوْقَ أَنَّ الأَرْزاقَ فِيها ضَمِنَها خالِقُ الأَرْضِ والسَّمٰوات ، وهَلْ يَشُكُّ مُؤْمِنٌ فى حُصُولِ ما ضَمِنَهُ مَوْلاهُ الغَنِيُّ القَدِير . لقَدْ كانَ الأَحَقُّ والأَجْدَرُ بِكُلِّ هذا الاهْتِمامِ حياتَكَ الثّانِيه ، لِأَنَّها ما تمادَى الأَبَدُ وتطاوَلَ السَّرْمَدُ دائِمَةٌ باقِيَه ، ولِأَنَّكَ إذا أَخطأَتْكَ فِيها دارُ الكَرامَةِ هوَيْتَ فى الهاوِيَه ، وأَنْتَ لاَ تدْرِي أَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ تكُونُ أَمْ مِنْ أَهْلِ السَّعِير . قُلْ لِي بِرَبِّكَ ياهذا أَيُّهُما أَحَقُّ بِالاهْتِمامِ ما ضَمِنَهُ رَبُّكَ أَمْ ما تَرَكَهُ دُونَ ضَمان ، وأَيُّهُما أَوْلَى بِالعِنايَةِ ما هُوَ فانٍ ولاَ بُدَّ أَمْ ما لَيْسَ بِفان ، وأَيُّهُما أَجْدَرُ بِالمُنافَسَةِ فِيها دارُ المُنَغّصاتِ أَمْ دارٌ لاَ تَخْطُرُ المُنَغّصاتُ فِيها علَى الأَذْهان ، ولَعَلَّ الجَوابَ مِنَ الوُضُوحِ بِحَيْثُ لاَ يَتَلَجْلَجُ فِيهِ حَتَّى ذُو جَهْلٍ كَبِير . لقَدْ فَسَدَتْ أَمْزِجَةُ النَّاسِ حَتَّى أَثَّرَ فَسادُها علَى الأَفْهام ، لِذلِكَ رَجَّحُوا فانِيًا

مُنْغَصًا عَلَى بَاقٍ ضِمْنَ صَفْوَةِ مَوْلَى الإِنْعَامِ ، وَهَا هُمْ أُولَاءِ كَمَا تَرَى لَا هَمَّ لَهُمْ وَلَا عَمَلَ إِلَّا لِلدُّنْيَا وَمَا لَهَا مِنْ حُطَامٍ ، وَهَلْ مَنْ ذَلِكَ حَالُهُ بَشَرٌ لَهُ مَا لِلْبَشَرِ مِنْ عَقْلٍ وَمِنْ تَفْكِيرٍ . لَا تَفْهَمْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ يَا هَذَا أَنَّ الشُّغْلَ بِالدُّنْيَا مِنَ الْمَحْظُورَاتِ أَوْ مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ ، وَكَيْفَ تَفْهَمُ ذَلِكَ وَلَوْلَا مَا تَكْتَسِبُهُ مِنْهَا مَا عِشْتَ وَلَا فَعَلْتَ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرَاتِ ، وَإِنَّمَا يُرَادُ أَنْ لَا تَشْغَلَكَ عَنِ الْعَمَلِ لِحَيَاتِكَ الْأَبَدِيَّةِ هَذِهِ الزَّخَارِفُ الْفَانِيَاتُ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ مَنْ شَغَلَتْهُ دُنْيَاهُ عَنْ آخِرَتِهِ أَعْمَى الْقَلْبِ ذُو مَصِيرٍ عَسِيرٍ .

(حديث) أَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا ، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

١٢٣ — التحريض على تعلم العلم الدينى
آثاره وجودا وعدما

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِالْعِلْمِ يَرْفَعُ مَنْ يَشَاءُ وَبِالْجَهْلِ يَخْفِضُ مَنْ يَشَاءُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً أَخْتَصُّ بِالِاعْتِرَافِ بِهَا فَرِيقَ السُّعَدَاءِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي الْجَهْلُ بِمَا جَاءَ بِهِ

آيةُ الشَّقاء ، اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ على سيِّدِنا محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ العُلماء العاملين .

(أمَّا بعدُ) فيا عبدَ الله : لِلعلمِ الدِّينيِّ آثارٌ جليلةٌ كَمْ جلَّ بها رجلٌ حقيرٌ ، وكُلَّما كانَ الرَّجلُ أعلمَ بهِ كانَ أجلَّ عندنا وعندَ مولانا القديرِ ، مضى سلَفُنا الذينَ تنحَني الرُّءوسُ إذا ذُكِروا لِقَدْرِهِمْ المُنْقطِعِ النَّظيرِ، كانُوا رِجالاً مِثلَنا ولكِنْ بِبَركاتِ العلمِ الدِّينيِّ وآثارِهِ الجليلةِ كانُوا خيرَ النَّاسِ بعدَ النَّبيِّين . كانُوا أغنى العالَمِ لِأنَّهمْ رضُوا بقِسمةِ مولانا العليمِ الحكيمِ ، وكانُوا أشجعَ النَّاسِ لِأنَّهمْ علِمُوا أنَّ الأجلَ لا يُطيلُهُ الجُبنُ الذَّميمُ ، وكانُوا في الحِلْمِ كالجبالِ الرَّواسي لِأنَّهمْ وُعِدُوا عليهِ جنَّاتِ النَّعيمِ ، وكانُوا محطَّ رِحالِ الكرمِ لِأنَّهمْ يعلمُونَ أنَّ البُخلَ لا يُرضي ربَّهُمْ بلْ يُرضي إبليسَ اللَّعينَ . كانُوا يستقبلُونَ البلايا مَهْما قستْ بالصَّبرِ الجميلِ لِعلمِهِمْ أنَّها تصرُّفُ الحكيمِ الخبيرِ، وكانُوا يستقبلُونَ النِّعمَ بالشُّكرِ لِجزمِهِمْ أنَّها لِلهِ ليسَ لهُمْ مِنها مقدارُ نقيرٍ، وكانُوا يُحبُّونَ الخيرَ لِبعضِهِمْ لِعلمِهِمْ أنَّ كراهتَهُمْ ذلكَ لا تُحدثُ أيَّ تغييرٍ ، وكانُوا لا يُحبُّونَ الشَّرَّ لِبعضِهِمْ لِعلمِهِمْ أنَّ اللهَ تعالى ليسَ على هوى الظَّالمِينَ . كانُوا لا يتردَّدُونَ في أنَّ اللهَ تعالى يُحيطُ عِلماً بما يُسِرُّونَ وما يُعلِنُونَ ، فكانُوا إذا قالُوا أوْ فعلوا تحرَّوْا ما يُرضيهِ تعالى فيما يقُولُونَ وفيما يفعلُونَ ، وهكذا كانُوا إذا أرادُوا أنْ

يتحرّكوا أو يسكنوا باستشارة العلم يتحرّكون ويسكنون ، لهذا كانوا لليوم موضع إعجاب الشرق والغرب ونالوا فوق هذا رضى ربّ العالمين . هكذا كانوا ببركات العلم الدينيّ وأمّا نحن فكأنّ بيننا وبين هذا العلم معاداه ، يشبّ الواحد منّا ويشيب وهو جاهل كلّ الجهل بما يلزمه فى دينه ودنياه ، اسمه محمّد ولا تميّزه عن غير المسلم لهذا الجهل الذى وصفناه ، لكنّا لا ننكر أنّه العالم الذى لا يبارى فى علوم الشياطين التى بها القضاء على الدين . لهذا ماتت الفضائل وسادت الرذائل بيننا معشر أهل الإسلام ، وبعد أن كنّا سادة الدنيا غدونا أذلّ أهلها باتّفاق أرباب الأفهام ، بشؤم الجهل بالعلم الدينيّ نزلت بنا كلّ تلك البلايا الجسام ، ولو أنّا أحيينا نهضة سلفنا فى العلم والعمل لأصبحنا وقد أحيينا عزّهم الدفين .

(حديث) طلب العلم [1] فريضة على كلّ مسلم ، وإنّ طالب العلم يستغفر له كلّ شىء حتّى الحيتان فى البحر . رواه ابن عبد البرّ فى العلم .

(آخر) العلم علمان فعلم فى القلب فذاك العلم النافع ، وعلم على اللسان فتلك حجّة الله على ابن آدم . رواه ابن أبى شيبة والحكيم الترمذىّ والخطيب .

---

(١) المراد بالعلم هنا كل ما يتعلق بما يجب على العبد من اعتقادات وأعمال فكل واجب اعتقادة وعمله واجب علمه .

١٢٤ ـ هل ضاقت دائرة المعاصي على العصاة اليوم فوثبوا إلى دائرة الكفر

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الشَّرَائِعَ السَّمَاوِيَّةَ نُوراً يَسْتَضِيءُ بِهِ فِي دَارَيْهِ الرَّجُلُ الْبَصِيرُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةً لَا يَرْجِعُ عَنْهَا صَادِقٌ فِيهَا وَلَوْ نُشِرَ بِالْمَنَاشِيرِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ سَيِّدُ الْهُدَاةِ وَبَدْرُ الْإِرْشَادِ الْمُنِيرِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ خَيْرِ الْأُمَمِ كَمَا قَالَ الْقُرْآنُ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ: ضَاقَتِ الْيَوْمَ دَائِرَةُ الْمَعَاصِي مَعَ سَعَتِهَا عَلَى أَهْلِ الْعِصْيَانِ، وَأَصْبَحَتِ الذُّنُوبُ عَلَى كَثْرَتِهَا وَسُهُولَتِهَا لَا تَكْفِي أَبْنَاءَ الزَّمَانِ، وَلِذَلِكَ تَجَاوَزُوهَا وَوَثَبُوا إِلَى دَائِرَةِ الْكُفْرِ وَثْبَةَ الْمُتَمَرِّدِينَ الشُّجْعَانِ، وَهَاهُمْ أُولَاءِ يَرُوحُونَ عَلَنًا وَيَجِيئُونَ فِي ذَاكَ الْمَيْدَانِ. فَبَعْضُهُمْ يَلْعَنُ دِينَ الْإِسْلَامِ نَهَاراً جِهَاراً بِمَسْمَعٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ صَارَ هَذَا اللَّعْنُ عَادَةً كَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ يَأْتُونَهَا غَيْرَ مُكْتَرِثِينَ، وَقَدْ أَصْبَحَ ذَلِكَ مِيرَاثًا يَنْتَقِلُ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ إِلَى بَنَاتِهِمْ وَالْبَنِينَ، وَكَيْفَ يَكُونُ فِي دَائِرَةِ الدِّينِ مَنْ يُعْلِنُ لَعْنَهُ بِكُلِّ مَعْنَى الْإِعْلَانِ. وَبَعْضُهُمْ إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْمَرَضُ يُطْلِقُ لِلِسَانِهِ الْعِنَانَ فِي شَتْمِ الْخَالِقِ الْحَكِيمِ، وَهَكَذَا يَفْعَلُ بَعْضُهُمْ إِذَا مَاتَ لَهُ عَزِيزٌ أَبٌ أَوِ ابْنٌ أَوْ صَدِيقٌ حَمِيمٌ، وَبَعْضُهُمْ لَا يَقِلُّ عَنْ هَذَيْنِ إِذَا افْتَقَرَ

299

وَكَانَ ذَا يَسَارٍ عَظِيمٍ ، وَلَا أَدْرِي مَنْ يَشْتُمُ خَالِقَهُ لِابْتِلَاءِ خَلْقٍ لَهُ كَيْفَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ . وَقَدْ يَصِلُ الكُفْرُ بِبَعْضِهِمْ أَنْ يُمَثِّلَ عَلَى مَسَارِحِ اللَّهْوِ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ، وَفِي شَخْصِ نَفْسِهِ يَعْرِضُ عَلَى الجُمْهُورِ مَا لِذَاكَ النَّبِيِّ مِنْ أَطْوَارٍ وَأَنْبَاءٍ ، بَلْ رُبَّمَا يُمَثِّلُ بَعْضُهُمْ خَالِقَ الخَلْقِ وَقَدْ سَأَلَهُ الكَلِيمُ عَنْ بَعْضِ الأَشْيَاءِ ، فَيَقُولُ لَهُ كُلَّمَا سَأَلَهُ تَأَدَّبْ يَا مُوسَى كَأَنَّهُ اخْتَارَ فَاقِدَ الأَدَبِ لِمَرْكَزِ المُرْسَلِينَ الأَعْيَانِ . وَبَعْضُهُمْ إِذَا رَأَى مُشَوَّهَ الوَجْهِ قَالَ مُسْتَقْبِحًا - كَأَنَّهُ وَجْهُ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ ، وَبَعْضُهُمْ إِذَا لَمَحَ قَوْمًا يُسَارِعُونَ إِلَى الظُّلْمِ قَالَ مُشَبِّهًا كَأَنَّهُمْ زَبَانِيَةُ السَّعِيرِ ، وَبَعْضُهُمْ يُشَبِّهُ الرَّجُلَ الصَّالِحَ بِالعُلَمَاءِ فَيَقُولُ هَذَا شَيْخٌ يُرِيدُ التَّحْقِيرَ ، وَبَعْضُهُمْ ذَهَبَتْ بِعَقْلِهِ وَدِينِهِ المَدَنِيَّةُ الغَرْبِيَّةُ فَغَدَا جُنْدِيًّا مِنْ جُنُودِهَا عَلَى دِينِ الدَّيَّانِ . مَا هٰكَذَا يَكُونُ المُؤْمِنُ أَبَدًا وَلَا هٰكَذَا تَكُونُ أَقْوَالُهُ وَالأَفْعَالُ ، وَكَيْفَ يَقُولُ المُؤْمِنُ أَوْ يَفْعَلُ مَا بِهِ تَهْتَزُّ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ سُهُولُهَا وَالجِبَالُ ، إِنَّ المُؤْمِنَ يَخْتَارُ أَنْ يُنْشَرَ بِالمَنَاشِيرِ وَلَا يَفْعَلُ مَا يُخَلِّدُهُ فِي عَذَابِ دَارِ النَّكَالِ ، هٰكَذَا فَكُنْ أَيُّهَا المُؤْمِنُ وَاحْذَرْ كُلَّ الحَذَرِ عَلَى دِينِكَ مِنْ شَيَاطِينِ هَذَا الزَّمَانِ .

(حديث) ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ،

وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَ فِى النَّارِ . رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ وَمُسْلِمٌ .

(آخر) لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذٰلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذٰلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَلَيُتِمَّنَّ اللهُ هٰذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ . رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ .

١٢٥ — لماذا عز سلفنا وهنا

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى جَعَلَ صَالِحَاتِ الْأَعْمَالِ بُرْهَانًا عَلَى دَعْوَى الْإِيمَانِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ الَّذِى سَيِّئَاتُ الْأَعْمَالِ آيَةٌ عِنْدَهُ عَلَى فُجُورِ الْإِنْسَانِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى أَخْبَرَنَا أَنَّ الْمَعَاصِىَ شُؤْمٌ وَخِذْلَانٌ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ لَمْ يُحِبُّوا الدُّنْيَا فَلَمْ يَرَوُا الْهَوَانَ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : أَتَدْرِى لِمَاذَا كَانَ سَلَفُنَا فِى أَرْقَى دَرَجَةٍ وَأَصْبَحْنَا بَعْدَهُمْ فِى أَحَطِّ مَقَامٍ ، لِأَنَّ الْبَرَاهِينَ قَامَتْ عَلَى صِدْقِهِمْ وَبُعْدِ نَظَرِهِمْ أَظْهَرَ قِيَامٍ ، عَرَفُوا أَنَّ الْآخِرَةَ لَا تَنْتَهِى حَيَاتُهَا أَمَّا حَيَاةُ الدُّنْيَا فَتَنْتَهِى بَعْدَ أَيَّامٍ ، فَوَضَعُوا حَيَاةَ الْأَبَدِ نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ وَعَمِلُوا لَهَا كَمَا أَمَرَ الرَّحْمٰنُ . كُنْتَ لَا تَرَاهُمْ فِى لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ إِلَّا

مشغولين بعمل من صالحات الأعمال ، ولقد كانوا فى كل نفس يتنفسونه يرونه النفس الأخير الذى تنتهى به الآجال ، فلو قيل لهم بعد ساعة تقوم الساعة ما زاد فى الخير منهم الحال ، أما شغلهم بهذه الحياة فما كان إلا لأنه من الوسائل التى تدنى الجنان وتبعد النيران . لهذا كانوا لا يرهبون الموت وكيف يرهبونه وهو الطريق إلى مقصودهم الثمين ، لذلك بلغوا من الشجاعة منتهاها وعاشوا وماتوا وهم سادة العالمين ، أما زهدهم فى هذه الدار وزخارفها فكان موضع العجب من الناظرين ، لأن مقصودهم كان غيرها ولهذا كانوا أكرم أمة تشرف برؤيتها الزمان . أما نحن فقصر نظرنا قصراً من العار أن ينسب لعقلاء الرجال ، وهل يتصور أن العاقل تملك قلبه الدنيا فيجعل كل مقصوده المال ، هذا هو الذى كان منا وأما الآخرة فلا تخطر لنا على بال ، فللدنيا أبداننا وقلوبنا ولها رضانا وسخطنا لا نعرف غير هذا الميدان . لهذا كرهنا الموت ففقدنا الشجاعة فغدونا أذل من تظل السماء ، ولهذا وصلنا فى الشح إلى حد أن منعنا الزكاة وهى حق الفقراء ، هذا هو السبب أيها الأخ فى انحطاطنا وفى عز سلفنا الأجلاء ، ولو أنا سلكنا نهجهم وحافظنا على مجدهم ما أصابنا أبداً هذا الهوان .

(حديث) يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ (١) كَغُثَاءِ السَّيْلِ تُنْزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيُجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنُ، قَالُوا وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ. رَوَاهُ أَحْمَدُ.

١٣٦ — لذات المستقيمين وآلام المعوجين

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ عِبَادٍ اسْتَقَامُوا فَأَصْبَحُوا بِالِاسْتِقَامَةِ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةً مُلَاحَظَتُهَا تُنَجِّي مِنْ أَهْوَالِ مَوَاقِفِ الْمُذْنِبِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الرَّحْمَةُ الْعُظْمَى لِلْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِي الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ: إِنَّ لِأَهْلِ الِاسْتِقَامَةِ لَذَّةً فِي الدُّنْيَا لَا يَذُوقُهَا ذَوُو الْعِصْيَانِ، وَلَوْ ذَاقُوهَا لَسَارَعُوا إِلَيْهَا وَفَارَقُوا مَا هُمْ عَلَيْهِ فِرَاقَ الْآسِفِ عَلَى مَا كَانَ. وَإِنِّي أَضْرِبُ لَكَ أَمْثِلَةً لِلْمُسْتَقِيمِ وَالْعَاصِي

---

(١) الغثاء ما يطفو على وجه السيل مما لا فائدة فيه من رغوة وورق يابس ساقط من الأشجار ونحو ذلك: أى يكون رجال الأمة حينما يجعل فى قلوبهم الوهن، وتنزع مهابتهم من قلوب أعدائهم — لا قيمة لهم ولا فائدة فيهم كذلك الغثاء، ولذلك تتداعى عليهم الأمم كما يتداعى الآكلون على القصعة مع ماهم عليه من الكثرة — وهذا الحديث من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم لمشاهدة ما تضمن مشاهدة لا شك فيها — صلى الله وسلم على قائله.

فاسمعها سماع اليقظان ، لتدرك بنفسك ما فيه الطائع من لذة وما عليه العاصي من عذاب أليم . يقتل العاصي أخاه الإنسان فتبحث عنه الحكومة ويبحث عنه أهل القتيل ، يريد الكل إن عثروا عليه أن ينكلوا به بالقصاص منه أشد التنكيل ، فتضيق الدنيا في وجهه ويلازمه الفزع حتى في مبيته والمقيل ، هذا حال القاتل - وغيره يروح ويغدو وينام ويصحو في أمن عظيم . ويزني الزاني عالماً أنه يهتك عرضاً ويقضي على عفاف ويهدم شرف رجال ، فيجزم أنه لو اطلع عليه في هذه الحالة الشنيعة أعدم في الحال ، لذلك يكاد يموت فزعاً إذا سمع قرع باب أو سمع قرع نعال ، هذا مثل الزاني أما الذي مع امرأته فأنت بحال طمأنينته عليم . ويسرق السارق فاهماً أنه يأخذ مال قوم به يعيشون وبغيره ينهتكون ، فلا يخفى عليه أنه إن رؤى تعرض للقتل إن قاوم وإن استسلم تحكم فيه القانون ، فلشدة وجله قد يقع مغمى عليه إن سمع حركة كلب لظن أنه آدميون ، هذا ما يلاقيه السارق وغيره يأخذ من مال نفسه ما يأخذ وهو بحال الآمن الكريم . ويكذب الكاذب فيسود وجهه وترتفع ضربات قلبه إن أبصر خبيراً بهذا الكذب ، أما الصادق فيقول ما يقول لا يهمه من جاء ولا من ذهب ، ويحضر النمام المجالس فيرتبك الجالسون فلا تدري من تصنع الخرس منهم

وَلاَ مَنْ هَرَب ، أَمَّا الْأَمِينُ عَلَى الْأَسْرَارِ فَيَسْتَقْبِلُهُ الجَالِسُونَ بِكُلِّ تَرْحِيبٍ وَإِجْلاَلٍ وَتَكْرِيم . هٰذِهِ أَمْثِلَةٌ تُفْهِمُكَ لَذَّةَ الطَّائِعِ وَأَلَمَ العَاصِي فى هٰذِهِ الدَّار ، وَأَنْتَ لَوْ تَتَبَّعْتَ المعَاصِيَ كُلَّهَا مَعَ الِاسْتِقَامَةِ تَزْدَادُ بَصِيرَةً بِلَذَّةِ الطَّائِعِينَ وَعَذَابِ أَهْلِ الْأَوْزَار ، أَمَّا فى الآخِرَةِ فَالْأَمْرُ أَعْظَمُ فَإِنَّ جَزَاءَ الطَّائِعِينَ الجَنَّةُ وَجَزَاءَ أَهْلِ المَعَاصِي النَّار ، وَلَعَلَّكَ بَعْدَ أَنْ عَرَفْتَ هٰذَا تَلْزَمُ الطَّاعَةَ لِتَكُونَ فى دَارَيْكَ مِنْ أَهْلِ النَّعِيم .

(حديث) إِنَّ أَوْلِيَائِى مِنْكُمُ المُتَّقُونَ فَإِنْ كُنْتُمْ أُولٰئِكَ فَذَاكَ وَإِلاَّ فَأَبْصِرُوا ثُمَّ أَبْصِرُوا لاَ يَأْتِيَنَّ النَّاسُ بِالْأَعْمَالِ وَتَأْتُونَ بِالْأَثْقَالِ (١) فَيُعْرِضَ عَنْكُمْ . رَوَاهُ الحَاكِمُ مِنْ حَدِيث .

١٢٧ — التحذير من المعاصى

الحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى بِالْإِيمَانِ قَيَّدَنَا عَنْ أَنْ نَقْتَحِمَ مَيْدَانَ العِصْيَان ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللّٰهُ شَهَادَةً إِذَا صَدَقَتْ مَثَّلَتِ المَعْصِيَةَ كَأَنَّهَا ثُعْبَان ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ سَيِّدُ أَهْلِ الْإِيمَان ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَبَرْهَنُوا عَلَى صِدْقِ إِيمَانِهِمْ بِعَمَلِ الصَّالِحَات .

---

(١) أى الذنوب التى تؤخر صاحبها عن السبق إلى دار الكرامة كما يتأخر فى السير عن إخوانه من يحمل حملا ثقيلا .

(أمّا بعدُ) فيا عبدَ الله : أنتَ تعلمُ أنَّ حياتَكَ هذه مهما طالتْ مآلُها للزَّوال ، وأنّكَ إنّما أُوتيتها لتُختبرَ فيها بما كُلِّفْتَ من حرامٍ وحلال ، وستُصبحُ عمّا قريبٍ في حُفرةٍ وحيداً ليسَ معكَ أولادٌ ولا أموال ، وحينئذٍ تكونُ كأنّكَ ما رأيتَ الدُّنيا ولا هي رأتكَ لحظةً من اللَّحظات . ويا ليتكَ إذا زالتْ حياتُكَ تزولُ دونَ أنْ تترتَّبَ عليها آثار ، لوْ كانَ ذلكَ لحُبِّبَ الموتُ إلينا لأنّهُ يكونُ بشيراً بانتهاءِ الآلامِ والمضارّ ، لكنّكَ تعلمُ أنّكَ بعدَ الموتِ تلاقي جزاءَ ما كانَ منكَ قبلَ الموتِ في الاختبار ، فإنْ كنتَ قدْ أحسنتَ رأيتَ قبرَكَ روضةَ نعيمٍ وإلّا رأيتهُ نيراناً محرقات . ويا ليتَ الأمرَ يقفُ عندَ هذا الحدِّ فتبقى في قبركَ على الدَّوام ، فإنّهُ أخفُّ ممّا بعدهُ فتكونُ آلامُكَ فيهِ أخفَّ لوْ كنتَ منْ أهلِ الآثام ، ولكنّكَ تعلمُ أنّكَ ستقومُ منْ قبركَ ولا شكَّ عندكَ في هذا القيام ، وحينئذٍ تسوقُكَ نتيجةُ اختباركَ إمّا إلى نيرانٍ أوْ إلى جنّات . منْ كانَ لا يؤمنُ بهذا فلا كلامَ لنا معهُ لأنّهُ حينئذٍ منَ الكفّار ، فليستعدَّ للعذابِ الأبديِّ الّذي لا يُحدُّ ألمهُ وزمنهُ بمقدار ، وإنْ كنتَ تؤمنُ بهِ كما أخبرَ اللهُ ورسولهُ وأجمعَ عليهِ جميعُ أهلِ الأعصار ، فما لي أراكَ بهذهِ الحالةِ الّتي تُشكّكُ في دينكَ وفي صحّةِ ما لكَ منْ عقيدات . تكدُّ وتكدحُ ليلكَ ونهاركَ فيما يُغضبُ مولاكَ الكريم ،

فَلِسَانُكَ فى مَيْدَانِ الْفُحْشِ وَمُنْكَرِ الْقَوْلِ جَوَادٌ عَظِيم ، وَعَيْنُكَ فى أَوْدِيَةِ النَّظَرَاتِ الْخَائِنَةِ دَائِمًا تَجُولُ وَتَهِيم ، وَفَرْجُكَ لَا يَتَهَيَّبُ أَنْ يَتَجَاوَزَ أَرْضَهُ الطَّيِّبَةَ لِيَبْذُرَ بَذْرَهُ فى أَرَاضٍ خَبِيثَات . وَأَمَّا بَطْنُكَ فَبَالُوعَةٌ هَائِلَةٌ لَا تَعِفُّ حَتَّى عَنْ أَخْبَثِ مَأْكُول ، وَأُذُنُكَ مَنْهَجٌ وَاسِعٌ لَا يَضِيقُ عَنْ أَنْ يَمُرَّ بِهِ أَفْحَشُ مَقُول ، وَرِجْلُكَ سَاعٍ أَحْمَقُ لَا يَنْدَفِعُ إِلَّا حَيْثُ الْمَعَاصِى تَصُول ، وَأَمَّا يَدُكَ فَالْبَاطِشُ الَّذِى لَا يَتَوَقَّى فِيمَا لَهُ مِنْ بَطَشَات . إِنَّ الْمَعَاصِىَ يَعْلَمُ كُلُّ مُؤْمِنٍ أَنَّهَا جَبَّارٌ يَبْدَأُ بِصَاحِبِهِ فَيُلْقِيهِ فى النَّار ، وَهَلْ مِنَ الْعَقْلِ فَضْلًا عَنِ الْإِيمَانِ أَنْ يُقَدِّمَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ لِهَذَا الْجَبَّار ، تَنَبَّهْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ وَبَرْهِنْ فَقَطْ عَلَى أَنَّكَ تُمَيِّزُ النَّافِعَ مِنَ الضَّارّ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ تَقَدَّمْتَ إِلَى الْمَعَاصِى فَإِنَّمَا تَتَقَدَّمُ إِلَى النَّارِ بِخُطًى وَاسِعَات .

(حديث) إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوب ، فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوب كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بَطْنَ وَادٍ فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى حَمَلُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ [1] . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالطَّبَرَانِىُّ وَالْبَيْهَقِىُّ فى الشُّعَبِ وَالضِّيَاءُ الْمَقْدِسِىُّ .

---

(١) أرجو أن يسمع القارئ بكل انتباه — هذه الحقيقة المرعبة — حقيقة أن صغار الذنوب التى يحتقرها الانسان ولا يلقى لها بالاً ، ولا يخاف لها عاقبة — تهلكه إذا أوخذ بها — وتغضب عليه ربه ، وتذيقه من عذاب جهنم ما لا يطيقه — وقد يصل به الاستخفاف بها الى درجة

١٢٨ – الجهل

الحمدُ لله الذى ألزمنا أن نتعلّم من دينه ما يُقوِّمُ الواجبات ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله الذى أفهمنا أنّ الشرّ فى الجهالات ، وأشهدُ أنّ سيدنا ومولانا محمداً عبدُهُ ورسولُهُ خيرُ من تعلّم الشرعيّات ، اللهمّ صلّ وسلّمْ وباركْ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وأصحابه أعداء الجهلِ والجاهلين .

(أمّا بعدُ) فيا عبدَ الله : إنّ ربّنا عزّ وجلّ أمرنا أن نتعلّم دينه لأنّ علم الدين أصلُ كلّ البركات ، امتثل هذا الأمرَ سلفُنا فكانوا كما يحكى التاريخُ على أحسن الحالات ، وخالفناهُ نحنُ اليومَ فكان جهلُنا بهذا الدين مبعثَ كلّ ما حلّ بنا من نكبات ، وكيف لا تحلُّ النكباتُ بأمّةٍ قضتْ على محورِ سعادتها وهو علمُ الدين . عالمُ هذا العلمِ ينكشفُ له الخيرُ والشرُّ ويتبيّنانِ له غايةَ البيان ، فيُقبلُ على الخيرِ إقبالَ الشجاع ويُدبرُ عن الشرّ إدبارَ الجبان ، وبذلك يعيشُ سعيداً فى دُنياه ويأتى آخرتَه فى غايةِ الأمان ، وجاهلُ هذا العلمِ يجهلُ الخيرَ والشرَّ فيُلقيه هذا الجهلُ فى شقاءٍ مُبين. تفرّقتْ

استباحتها ، وفى ذلك الهلاك الكلى الذى لا رحمة معه – وإذا كان ذلك فى صغار الذنوب فليقل لى حضرة القارئ كيف يكون حال أبناء زماننا الذين عندهم مسألة المعاصى كلها حتى الكفر مسألة خفيفة – بل ليقل لى ما رأيه فى أناس لا ينتهى سرورهم وفرحهم إذا انفتح لهم باب من أبواب المعاصى – اللهم لطفا بنا يا مولانا ثم لطفا .

قُلُوبُنَا فَتَفَرَّقَتْ كَلِمَتُنَا حَتَّى أَصْبَحَ كُلُّ امْرِئٍ مِنَّا فِى وَاد ، وَلَوْلاَ جَهْلُنَا مَا أَغْضَبْنَا رَبَّنَا بِهٰذَا التَّفَرُّقِ وَلاَ قَضَيْنَا عَلَى شَخْصِيَّتِنَا بَيْنَ الْعِبَاد ، وَسَادَ بَيْنَ كُلِّ طَبَقَاتِ الأُمَّةِ التَّعَامُلُ بِالرِّبَا وَفِيهِ حَرْبُ رَبِّنَا لِلْعِبَادِ وَالْبِلاَد ، وَأَىُّ جَهْلٍ فَوْقَ جَهْلِ أُمَّةٍ تُثِيرُ عَلَى نَفْسِهَا حَرْبَ رَبِّ الْعَالَمِين . وَكَثُرَ بَيْنَنَا الْقَتْلُ ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى أَصْبَحَ مِنَ الأُمُورِ الْعَادِيَّه ، وَمَنْ أَجْهَلُ مِنْ أُمَّةٍ تَقْضِى بِيَدِهَا عَلَى نَفْسِهَا وَلاَ تُبَالِى بِغَضَبِ رَبِّ الْبَرِيَّه ، وَكَانَتْ كَعَرِينِ الآسَادِ أَعْرَاضُ نِسَائِنَا فَغَدَتْ مُبَاحَةً تِلْكَ الأَعْرَاضُ النَّقِيَّه ، وَمَنْ أَجْهَلُ مِنْ أُمَّةٍ تُقَوِّضُ دَعَائِمَ أُسَرِهَا بِتَضْيِيعِ أَنْسَابِ بَنَاتِهَا وَالْبَنِين . وَمَنْ يَزُورُ الْمَحَاكِمَ يَرَى شَتَّى الْجَرَائِمِ مِنْ سَبِّ دِينٍ لاتِّجَارٍ بِمُخَدِّرٍ لِاسْتِخْفَافٍ بِالْحُكُومَات ، لِسَمِّ أَبْنَاء إِلَى ذَبْحِ آبَاء وَأُمَّهَاتٍ إِلَى إِتْلاَفِ مَزْرُوعَات ، إِلَى شَقِّ بُطُونِ حَيَوَانَاتٍ إِلَى خَطْفِ آدَمِيِّينَ إِلَى فِسْقٍ بِصِبْيَانٍ وَبَنَات ، إِلَى إِغَارَةٍ عَلَى الأَمْوَالِ بِقَطْعِ الْجُيُوبِ وَنَقْبِ الْحِيطَانِ وَالنَّصْبِ وَالِاحْتِيَالِ وَتَزْوِيرِ إِمْضَاءَاتِ غَافِلِين . هٰذِهِ جَرَائِمُ عُقُوبَاتُهَا مَا بَيْنَ جَلْدٍ لِسِجْنٍ لِنَفْىٍ لِشَنْقٍ هُوَ الإِعْدَام ، وَذٰلِكَ عَذَابٌ فِى الدُّنْيَا وَالنَّارُ تَنْتَظِرُ فِى الآخِرَةِ أَهْلَ هٰذَا الإِجْرَام ، وَمَنْ أَجْهَلُ مِنْ أُمَّةٍ تَعْمَلُ مَا بِهِ تَشْقَى فِى الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَام ، فَاقْتُلْ هٰذَا الْجَهْلَ بِسَيْفِ الْعِلْمِ الإِلٰهِىِّ يَا هٰذَا وَمَهْمَا عَلِمْتَ مِنْ غَيْرِهِ فَأَنْتَ مِنَ الْجَاهِلِين .

(حديث) مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِى الدِّينِ[١] . رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِىُّ وَأَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَه .

١٢٩ — هل الصلاة تفرج الكروب

الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى فَضْلُهُ عَلَى عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ كَثِيرٌ وَكَثِير ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الَّذِى يُؤَدِّبُ بِالْمِحَنِ لِيَتَنَبَّهَ الْغَافِلُ الْبَصِير ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَيْرُ بَشِيرٍ وَأَحْنَى نَذِير ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ خَيْرِ أَصْحَابٍ وَآل .

---

(١) أفهمنا هـذا الحديث الكريم أن الأهمّ عند ربنا من العلوم هو علم الدين الذى أوحاه إلى رسله — والسرّ فى ذلك أن هذا العلم أنزله ربنا لأمرين: سياسة الخلق فيما بينهم وبين بعضهم، وسياستهم فيما بينهم وبينه سبحانه وتعالى — يعلمهم ماهى الآداب التى إن تأدب بها العبد مع إخوانه عاش معهم فى صفاء وتحابّ — وماهى الآداب التى إن تأدب بها مع ربه كان فى رضوانه دنيا وأخرى يحييه هنا حياة طيبة ويخلده يوم القيامة فيما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر من أنواع النعيم — هذه ثمرة علم الدين ، ولذلك أخبر نبينا صلى الله عليه وسلم إن من تفقه فيه كان ذلك أمارة أن ربه أراد به خيراً — وإذا كانت هذه نتيجة العلم — والجهل بالدين ضده — فنتيجة الجهل إذن ضدها بلا شكّ أى شقاء الدنيا والآخرة — وجدير بهذه النتيجة من لايدرى ماينبغى أن تعامل به العباد ومايجب أن يعامل به ربّ العباد — ومفهوم الحديث يقول إن إمارة إرادة ربنا الشر بالعبد أن يكون غير متفقه فى دينه: أى يكون جاهلا بما يجب عليه منه — والحديث ينصّ على أهمّ مايجب أن تتجه إليه الهمم من العلوم وهو علم الخير المطلق الذى لايتقيد بحياة دون حياة، وما عداه من العلوم يجب أن يقدر بقدر ثمرته ، وكل علم لايثمر سعادة الآخرة فهو ذو ثمرة محدودة ، ولا يستوى ذو ثمرة محدودة وذو ثمرة لاتحد — فليعرف هذا أبناء الزمان الذين أصبح الدين وعلمه ورجاله سبة عندهم وعيباً لايقوى أحدهم أن ينسب إليه وهم فى الوقت نفسه يتهافتون على علوم هى الكفر بعينه والزندقة الصريحة لاأقل ولا أكثر ويتفاخرون بها فيما بينهم ويحتقرون من عداهم لجهلها، ليفتخروا ويحتقروا فلهم يوم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(أمّا بعدُ) فيا عبدَ الله : إنّ شأنَ الصّلاةِ عظيمٌ جدًّا في دينِنا وفي كلِّ دينٍ ، وأسرارُها العظيمةُ وبركاتُها العميمةُ في كلِّ شأنٍ لا تخفى على المؤمنين ، ومِنْ بركاتِ هذهِ الصّلاةِ أنْ يرضى ربُّنا ويلطفَ ويدفعَ البلايا عنِ المصلّين ، ولذلكَ كانتْ مفزعَ العبادِ وملاذَهُمُ الكريمَ عندَ اشتدادِ الأهوال . ما رفعَ النّاسُ الصّلاةَ إلى هذهِ المنزلةِ بالتّشهّي بلِ الّذي رفعها ربُّ العالمين ، وإنْ شئتَ فاقرأْ قولَهُ تعالى : وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَشِعِينَ ، وقولَهُ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّبِرِينَ ، يأمُرُنا أنْ نفزعَ إلى الصّلاةِ عندَ الشّدائدِ ليدفعَها عنّا وهُوَ الكريمُ الفعّال . علِمَ هذا سيّدُ الخلقِ نبيُّنا فكانَ يلوذُ بها إذا تعسّرتِ الأمور ، وكانَ الأنبياءُ قبلَهُ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِمْ بهذا الحالِ المذكور ، وهكذا كانتِ الأممُ إلى أمّتِنا هذهِ خيرِ أمّةٍ رأتْها الدّهور ، ومَنْ لا يستغيثُ بعوانٍ معهُ إغاثةُ المستغيثِ بهِ في كلِّ حال . ولعلّكَ لا تجهلُ أنّ دينَنا يدعونا إلى الصّلاةِ إذا خفنا منَ الأعداء ، أوْ حدثتْ زلازلُ أوْ نزلتْ صواعقُ أوْ منعَ القطرُ منَ السّماء ، أوْ كثُرتِ الأمراضُ والأوبئةُ أوْ أظلمَ النّهارُ أوِ اللّيلُ في ظلمتهِ أضاء . أوِ انكسفتِ الشّمسُ أوِ انخسفَ القمرُ وما ماثلَ ذلكَ منَ الأحوال . سرُّ هذا أنّ تلكَ البلايا أثرٌ منْ آثارِ غضبهِ

311

تعالى على الإنسان ، وإنما يغضب ربنا على الإنسان إذا عصى وتمادى على العصيان ، فإذا تاب عند الكوارث ولاذ إلى الصلاة وهي خير قربة إلى الرحمن ، رضي تعالى عنه وحينئذ يريه مظاهر إحسانه كما أراه مظاهر متابه بالأقوال والأفعال . هذا كأنه شرع لغيرنا ولذلك لا نفعله مهما اشتدت الحالات ، نسينا ربنا ونسينا أن الأمر بيده ولذلك لا نسترضيه وإن أوجعنا بضرباته القاسيات ، عصرنا عصر إلحاد وكفر فطار رشاش ذلك حتى على المؤمنين والمؤمنات ، تنبهوا أيها الناس واتبعوا أنبياءكم بالفزع إلى الصلاة عند الشدائد تروا الرخاء في إقبال .

(حديث) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانت ليلة ريح كان مفزعه إلى المسجد حتى تسكن ، وإذا حدث في السماء حدث من كسوف شمس أو قمر كان مفزعه إلى الصلاة . رواه ابن أبي الدنيا وابن عساكر .

(آخر) كانوا (يعني الأنبياء) يفزعون إذا فزعوا إلى الصلاة . رواه ابن حبان والنسائي وأحمد .

١٣٠ — هل من يعامل الناس بما يحبون يعامله الله بما يحب

الحمد لله الذي أمرنا بالخيرات فقط ونهانا عن كل الشرور ،

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً تَحْمِلُ مُلَاحِظَهَا عَلَى اجْتِنَابِ الْفُجُورِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى بِاتِّبَاعِهِ تُحْمَدُ عَوَاقِبُ الْأُمُورِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ عَامِلٍ لِيَوْمِ الْمَصِيرِ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللَّهِ: إِنِّى آخِذٌ بِيَدِكَ الْيَوْمَ إِلَى حَيْثُ أُوَصِّلُكَ إِلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْإِحْسَانِ، هَذَا الْكَنْزُ لَكَ فِيهِ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْفَوْزُ فِى الْآخِرَةِ بِدَارِ الرِّضْوَانِ، فَسِرْ مَعِى عَلَى الْمُوَافَقَةِ حَتَّى نَصِلَ لَا تَشْتَغِلْ بِشَاغِلٍ مَهْمَا كَانَ، وَيَا سَعَادَتَكَ ثُمَّ يَا سَعَادَتَكَ إِذَا وَافَقْتَنِى وَلَمْ تُخَالِفْنِى فِيمَا إِلَيْهِ أُشِيرُ. ذَلِكَ الْكَنْزُ هُوَ أَنْ تُعَامِلَ النَّاسَ بِمَا تُحِبُّ أَنْ يُعَامِلَكَ بِهِ اللَّهُ، إِذَا كَانَ مِنْكَ هَذَا فَتَأَكَّدْ أَنَّهُ يُعَامِلُكَ بِمَا تُحِبُّهُ وَتَرْضَاهُ، إِذَا أَسَاءَكَ إِنْسَانٌ فَاعْفُ عَنْ إِسَاءَتِهِ عَفْوًا يُؤَمِّنُهُ مِمَّا يَخْشَاهُ، يُعَامِلْكَ رَبُّكَ بِهَذَا فَيَعْفُو عَنْ إِسَاءَتِكَ فِى الْيَوْمِ الْعَبُوسِ الْقَمْطَرِيرِ. لَا تَكُنْ كَأُنَاسٍ إِذَا أُسِىءَ إِلَيْهِمْ بِمِقْدَارِ ذَرَّةٍ قَابَلُوهَا بِمِثْقَالِ جَبَلٍ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَهُمْ يَوْمٌ يُعَامِلُهُمُ اللَّهُ فِيهِ بِمَا يُنَاسِبُ هَذَا الْعَمَلَ، هُوَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِعِبَادِهِ حَكِيمٌ فِى تَصَرُّفَاتِهِ يُرْضِيهِ الْعَفْوُ عَنِ الزَّلَلِ، وَتُغْضِبُهُ الْقَسْوَةُ فِى الْعُقُوبَةِ وَالْإِسْرَافُ فِى الْمُكَافَأَةِ بِدَفْعِ الْيَسِيرِ بِالشَّدِيدِ الْعَسِيرِ. وَإِذَا كَانَ لَكَ قَرِيبٌ أَوْ صَدِيقٌ وَقَطَعَكَ فَبَدَّلَ وَلَاءَهُ لَكَ بِالْجَفَاءِ، فَاسْتَقْبِلْ قَطْعَهُ هَذَا بِوَصْلِكَ

وَاجْتَهِدْ أَنْ تُكَافِئَ جَفَاءَهُ بِالْوَلَاءِ ، إِذَا فَعَلْتَ هَذَا وَصَلَكَ رَبُّكَ بِفَضْلِهِ وَصْلًا يُنَاسِبُ كَرَمَهُ وَهُوَ رَبُّ الْكُرَمَاءِ ، يَفْعَلُ هَذَا مَعَكَ وَلَوْ كُنْتَ تَنْظُرُ إِلَى نَفْسِكَ بِعَيْنِ الْجَافِي الْكَبِيرِ . لَا تُقَلِّدْ أَقْوَامًا إِذَا تَخَيَّلَ أَحَدُهُمْ حَتَّى مِنْ وَالِدِهِ شَيْئًا مِنَ التَّقْصِيرِ ، هَاجَ وَمَاجَ وَاحْمَرَّ وَاصْفَرَّ وَقَطَعَ حَبْلَ صِلَتِهِ بِهِ الْقَطْعَ الْأَخِيرَ ، وَلَا يَعُودُ إِلَيْهِ مَهْمَا اعْتَذَرَ وَجَاءَ مِنَ الشُّفَعَاءِ بِأَلْفِ أَمِيرٍ ، وَهَذَا يَعْمَلُ لِيُرَدَّ عُذْرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَوْ قَبِلَ الْعُذْرَ لَقُبِلَتْ مِنْهُ الْمَعَاذِيرُ . وَإِذَا سَأَلْتَ أَحَدًا حَاجَةً فَحَرَمَكَ مِنْهَا وَلَمْ يُحَقِّقْ لَكَ الْآمَالَ ، فَلَا تُعَامِلْهُ بِذَلِكَ إِذَا سَأَلَكَ وَأَعْطِهِ حَتَّى بِغَيْرِ سُؤَالٍ ، هَكَذَا كُنْ يُعْطِكَ رَبُّكَ وَيَحْرِمْ مَنْ حَرَمَكَ جَزِيلَ النَّوَالِ ، إِذَا عَلِمْتَ هَذَا فَأَعْطِ أَوِ امْنَعْ فَإِنَّمَا تُعْطِي وَتَمْنَعُ شَخْصَكَ الْفَقِيرَ . وَإِذَا رَأَيْتَ أَحَدًا عَلَى حَالَةٍ لَا تُنَاسِبُ فَاسْتُرْهُ يَسْتُرْكَ مَوْلَاكَ السَّتَّارُ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ فَضَحْتَهُ يَفْضَحْكَ رَبُّكَ هُنَا وَيَوْمَ تُنْهَتَكُ الْأَسْتَارُ ، هَذِهِ مَكَارِمُ أَخْلَاقٍ إِنَّمَا يُحْسِنُ التَّخَلُّقَ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ الْأَخْيَارُ ، فَكُنْ مِنْهُمْ أَيُّهَا الْأَخُ وَلَا تَكُنْ كَأُنَاسٍ إِنَّمَا يُحْسِنُونَ التَّخَلُّقَ بِكُلِّ دَنِيءٍ حَقِيرٍ .

(حديث) ثَلَاثَةٌ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ عِنْدَ اللَّهِ : أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ . رَوَاهُ الْخَطِيبُ .

(آخر) مَنْ سَتَرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ فِي الدُّنْيَا فَلَمْ يَفْضَحْهُ سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . رَوَاهُ أَحْمَدُ .

١٣١ — ماذا فعلت بنا الشهوة البهيمية اليوم

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ عَبْدٍ مَلَكَ مِنْ شَهَوَاتِهِ نَاصِيَتَهَا وَلَمْ يَأْتِ مِنْهَا غَيْرَ الْحَلَالِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةَ مُؤْمِنٍ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ أَمَاكِنِ اللَّهْوِ وَالضَّلَالِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي حَذَّرَ مِنَ الْفِتْنَةِ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَهْلِ التَّقْوَى الْأَجِلَّاءِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللَّهِ : لَقَدْ أَصْبَحَتِ الشَّهْوَةُ الْبَهِيمِيَّةُ الْيَوْمَ أَقْوَى زِمَامٍ يُقَادُ مِنْهُ الْإِنْسَانُ ، عَرَفَ ذَلِكَ أُنَاسٌ فَجَعَلُوهَا شَبَكَةً يَصِيدُونَ بِهَا أَمْوَالَ أَبْنَاءِ الزَّمَانِ ، سَلْ مَوَاخِيرَ النِّسَاءِ سِرِّيَّةً أَوْ عَلَنِيَّةً عَنْ سُيُولِ الذَّهَبِ الرَّنَّانِ ، تُخْبِرْكَ أَنَّهَا تَتَدَفَّقُ هُنَاكَ تَدَفُّقًا وَمَصَبُّهَا الْوَاسِعُ حَيْثُ الْعَاهِرَاتُ مِنَ النِّسَاءِ . وَسَلْ أَمَاكِنَ فِيهَا نِسَاءٌ يَرْقُصْنَ مُخَاصِرَاتٍ لِلرِّجَالِ أَوْ خَلِيعَاتٍ ، تَعْلَمْ أَنَّ أَنْهَارَ الْأَمْوَالِ لِأَجْلِ تِلْكَ الرَّاقِصَاتِ تَجْرِي هُنَاكَ مُنْهَمِرَاتٍ ، وَسَلْ أَمَاكِنَ فِيهَا نِسَاءٌ يَذْكُرْنَ أَدْوَارَ الْغَرَامِ بِأَصْوَاتٍ رَخِيمَاتٍ ، تَتَأَكَّدْ أَنَّ الْأَمْوَالَ تَنْحَدِرُ إِلَى تِلْكَ الْمُغَنِّيَاتِ كَمَا يَنْحَدِرُ إِلَى مَسِيلِهِ الْمَاءُ . وَسَلْ دُورَ التَّمْثِيلِ الَّتِي فِيهَا نِسَاءٌ تُمَثِّلُ الْعَاشِقَاتِ مَعَ الْعَاشِقِينَ ، تَفْهَمْ أَنَّ الْجُيُوبَ

تنفتح هناك لأجل تلك النساء ويسخو بالمال حتى الضنين ، وسل المتاجر التي من مستخدميها غانية أو غلام براق الجبين ، تسمع أنها بين المتاجر رائجة رواجا لا يخفى على أهل الفطنة النجباء . بل انظر إلى رواية غرامية وقد طبع منها آلاف وملايين ، تجد الناس يتخطفونها مهما غلا ثمنها ويبحثون عنها مشتاقين ملهوفين ، بل انظر إلى صحيفة تنشر صورا وقحة فاحشة أو تتحرى لهجة الغراميين ، تجد العيون لا تطمح إلا إليها وسواها بجانبها بحالة كساد شنعاء . بل هذه الأندية العمومية راجت وكثر عاشقوها فى هذه الأيام ، لما وضعوا بها آلات الأغاني وانتقوا لها طقاطيق الغرام ، أما أمكنة الصور المتحركة فلظهور فحشها لا يهدأ فيها الزحام ، لا تظن أنا نحكي عن الرجال خاصة بل الرجال والنساء فيما نحكي سواء . وانظر إلى أناس لم يكفهم كل هذا الفساد الخارجي العظيم ، فاشتروا بأموالهم مفسدا هائلا وأدخلوه بيوتهم يفعل بعائلاتهم ما يفزع الرجل الحكيم ، ذلك المفسد هو (الفونوغراف) الذى يحكي من المغازلات ما يفتن التقي الكريم ، فكيف بعصر تلتهب نيران الشهوات فى أهله ولا دين ولا حياء . من هذا عرفت أن الشهوة الجنسية البهيمية هي محور هذه الفتنة العمومية ، الفتنة التي ألحقتنا بالبهائم وجردتنا من أخص خصائص الإنسانية ، الفتنة التي هدمت

صرح دِيننا وابتلعت أموالنا وقضت على عاداتنا الشرقية ، برهن على وجود إنسانيتك أيها الأخ وسيطر بقوة عزيمتك على هذه الشهوة البلهاء .

(حديث) ما من صباح إلا وملكان ينادِيان ويل للرجال من النساء ، وويل للنساء من الرجال . رواه ابن ماجه والحاكم .

١٣٢ — موازنة بيننا وبين سلفنا فى عمل الصالحات

الحمد لله الذى أنزل دينه ليعمل به عباده فيكونوا من أهل الفلاح ، وأشهد أن لا إله إلا الله الذى خلقنا هنا ليتميز العاصون من أهل الصلاح ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله الذى بعث لتهذيب الأرواح ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والمقتفين .

(أما بعد) فيا عبد الله : أنت فى زمن لا نسىء إذا عددت أهله من حثالة المتدينين ، ولا نعدو الحق إذا قلت إن عدهم من المؤمنين يخجل المؤمنين ، راجع حال المؤمنين حقاً وانظر حالنا اليوم تعجب من الفرق المبين ، وليس ببعيد أن تشك فى أنا يجمعنا مع أولئك السلف جامعة هذا الدين . كان هذا المال بأيديهم لا تجب عليهم فيه الزكاة وهو آلاف ومئات ، وكيف تجب الزكاة على من يرى المحافظة على ماله فى تفريقه فى وجوه الخيرات ، وكانوا

إذا لفتهم أحدهم إلى احتياجه يرون غفلتهم عنه من النقائص الفاحشات ، أين هذا وأين حالنا اليوم وقد بخلنا حتى بالزكاة وهي حق الفقراء والمساكين . كانوا إذا فاتتهم تكبيرة الإحرام مع الإمام آلمهم هذا المصاب ، وكانوا يعزون ثلاثة أيام لفواتها وسبعا لفوات الجماعة بقولهم المصاب من فقد الثواب ، أين ذلك منا اليوم وبيننا من يرى الصلاة شيئا يشوه بها الإنسان ويعاب ، وقد يصرحون أنها لا تليق بأهل النعمة منهم وإنما تليق بأهل الحقارة المعدمين . كانوا من ذوى العشق العالى لطاعة الحج يتمتعون بها فى كل عام ، ولذلك تعد لأحدهم أربعين وخمسين وسبعين حجة فيما عاش من أعوام ، أين هذا من أغنيائنا الذين يرون ذكر الحج أمامهم من الجنايات العظام ، وإنما العظمة والجلال أن يحجوا كل عام أوروبا ويبعثروا هناك الملايين . وحدث ولا حرج عليك فى ولوع سلفنا بالصيام وجوع وعطش الصيام ، وكثير منهم كانوا يصومون يوما ويفطرون يوما كسيدنا داود عليه الصلاة والسلام ، بل منهم من كانوا يصومون الدهر كله لا يفطرون إلا الأيام الحرام ، أما نحن فلا نصوم حتى رمضان بل منا من يسخر بالصائمين . كانوا إذا سمعوا الموعظة صعقوا وربما مكثوا بلا وعي أياما متتاليات ، بل لا تستطيع أن تعد من قتلته الموعظة منهم وغدا من الأموات ، أما نحن فيتلى

عَلَيْنَا كِتَابُ رَبِّنَا فَلَا نُعِيرُهُ أَدْنَى الْتِفَات ، وَلَوْ فُرِضَ أَنْ بَدَا تَأَثُّرٌ عَلَى وَاحِدٍ مِنَّا كَانَ أُضْحُوكَةَ الْجَالِسِين . يَكْفِيكَ مَا سَمِعْتَ مِنَ الْمُقَارَنَاتِ فَإِنَّ الْاسْتِقْصَاءَ تَقْصُرُ عَنْهُ الْعِبَارَات ، وَحَسْبُكَ أَنْ تَعْلَمَ إِجْمَالًا أَنْ قَدِ انْقَطَعَتْ أَوْ كَادَتْ تَنْقَطِعُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلَفِنَا الْمُلَاقَات ، إِنَّ عَاراً وَأَلْفَ عَارٍ أَنْ يَكُونَ سَلَفُنَا كَمَا سَمِعْتُمْ وَنَكُونَ نَحْنُ بِهَذِهِ الْحَالَات ، فَهَلْ مِنَّا مَنْ يَتَذَكَّرُهُمْ وَيَتَشَبَّهُ بِهِمْ لِنُحْيِيَ ذَلِكَ الْفَضْلَ الْمُبِين .

(حديث) مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْبِقَ الدَّائِبَ الْمُجْتَهِدَ ، فَلْيَكُفَّ عَنِ الذُّنُوبِ [1] . رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى .

١٣٣ — أوراق يانصيب وشؤم القمار وأنواع منه

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ ذِي خَشْيَةٍ يَقِفُ عِنْدَ مَا شَرَعَهُ لَهُ رَبُّهُ لَا يَتَعَدَّاه ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً تَجْعَلُ الْحَلَالَ مَقْصِدًا نَتَحَرَّاه ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي حَذَّرَ مِنَ الْحَرَامِ بِهُدَاه ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا بِوَرَعِهِمْ سَادَات .

---

(١) أى مع فعل الفرائض فإن ترك الفرائض من كبائر الذنوب ، وإنما يكون فاعل الفرائض الكاف عن الذنوب فوق الدائب المجتهد إذا كان هـذا الدائب ليس كافاً عن الذنوب أما إذا شارك فاعل الفرائض فى الكف عنها فلا شك أنه يكون حينئذ أسبق لاجتهاده ودوامه على الطاعات .

(أمَّا بعدُ) فيا عبدَ الله : بيننا جمعيات تُصدِرُ للجمهور أوراقاً تُعَدُّ بالآلاف والملايين ، من طريق هذه الأوراق تجمع أموالاً عدُّها يُتعِبُ الحاسبين ، من بين هذه الأوراق تجعل أوراقاً تربح عشرات من الجنيهات ومئين ، وهذه الأوراق الرابحة لو نسبتها لغير الرابحة كانت كقطرة من بحار زاخرات . لا تريد هذه الجمعيات بتلك الأوراق الرابحة أن تحسن إلى الجمهور ، لكنها تريد أن تغرهم وتتقن كل الإتقان هذا الغرور ، تريد أن تصيد الآلاف والملايين من الناس وكلٌّ منهم مسرور ، تلوح لهم بالورقة الرابحة فيطيرون إلى شراء ملايين أوراقها الكاسدات . إنَّ الطمع هو الذي أورد الناس هذه الموارد الفاجرة الخاسره ، ولولا هذا الطمع القبيح ماوقعوا فى هذه الفخوخ الخادعة الجائره ، والعجب أنَّ بعضهم يقول أنا أساعد بما أشترى فى أمور خيرية ظاهره ، لقد كذب هو يشترى ليربح ولولا رجاء الربح ماجادت نفسه بمليمات ، ولو أنك استفتيت الدين فى ربح هذه الجمعيات وربح أوراقها الرابحة ، لأفتاك أنه ربح خبيث لا يستحله أحد من ذوى العقول الراجحة ، فإنَّ طريقه نوع من القمار الذى تحرمه شريعتنا الحنيفية الواضحه ، وتسمية أوراقها (بيا نصيب) تدلك على هذا المعنى دلالة من أظهر الدلالات . وللقمار طرق شتى غير ذلك يعيش منها أرباب الاحتيال

وَالْبَطَالَه ، مِنْهَا صَيْدُ الْحَمَامِ وَلَعِبُ (الضُّمْنَةِ وَالطَّوْلَةِ وَالْكُتُشْبِنَةِ) بِأَنْوَاعِهَا الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْجَهَالَه ، وَمِنْهَا تَحْرِيشُ الدُّيُوكِ وَالْكِبَاشِ عَلَى بَعْضِهَا لِيَنَالَ الْغَالِبُ نَوَالَه ، وَهٰذَا التَّحْرِيشُ بِلَا مُقَامَرَةٍ حَرَامٌ لِأَنَّهُ تَعْذِيبٌ لِهٰذِهِ الْحَيَوَانَاتِ الْبَئِيسَات . وَمِنْهَا الشَّرِكَاتُ الَّتِي يَفْزَعُ النَّاسُ إِلَيْهَا لِتُؤَمِّنَهُمْ عَلَى حَيَاتِهِمْ أَوْ عَلَى الْأَمْوَال ، وَأَنَا لَا أَدْرِي كَيْفَ يَطْمَئِنُّ النَّاسُ إِلَيْهَا وَلَيْسَ بِيَدِهَا بَلْ بِيَدِ اللّٰهِ الْأَمْوَالُ وَالْآجَال ، وَهٰكَذَا كُلُّ لَعِبٍ فِيهِ غَرَامَةٌ عَلَى أَحَدِ اللَّاعِبَيْنِ قِمَارٌ لَا يَجُوزُ بِحَال ، بَلْ فِعْلُ الْعَاقِلِ يَجِبُ أَنْ يُنَزَّهَ عَنِ اللَّعِبِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مُقَامَرَات. إِنَّ الْقِمَارَ أَيُّهَا الْأَخُ دَنَاءَةٌ لَا يَرْضَاهَا لِنَفْسِهِ ذُو شَرَفٍ وَلَا وَقَار ، وَهُوَ حِرْفَةُ الْمَفَالِيسِ لَا يَعْتَادُهُ أَحَدٌ أَبَدًا وَتَعْمُرُ لَهُ دَار ، وَهُوَ مُجَازَفَةٌ لَا يَتَقَدَّمُ إِلَيْهَا رَجُلٌ يَعْرِفُ مَا لِمَالِهِ مِنْ مِقْدَار ، وَهُوَ مَعْصِيَةٌ كُبْرَى لَا يَجْرُؤُ عَلَى اقْتِحَامِهَا رَجُلٌ يَتَذَكَّرُ يَوْمَ الْحَسَرَات .

(حديث) مَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ تَعَالَ أُقَامِرْكَ فَلْيَتَصَدَّقْ (١) . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .

١٣٤ — العبرة بالأرض (٢)

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي كُلَّمَا كَانَ الْعَبْدُ أَعْرَفَ بِأَسْرَارِ خَلْقِهِ كَانَ أَعْرَفَ

---

(١) إذا كان مجرد هذا القول معصية يحتاج إلى الصدقة كفارة لها فما بالك بالمقامرة بالفعل .

(٢) يخطب بعدها بتاليتها لأنا قلنا فى تلك التالية : لقد لفتناك قريبا إلى بعض مافى الأرض من أسرار ، فإذا طال العهد بينهما كان قولنا (قريبا) ضائعا وكذبا ، ثم بالخطبة التالية بعدها مباشرة تكمل العبرة .

بِمَقَامِهِ الْعَظِيمِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ الَّذِى كُلَّمَا كَانَ الْعَبْدُ أَعْرَفَ بِمَقَامِهِ كَانَ أَجَلَّ عِنْدَ هٰذَا الْمَوْلَى الْكَرِيمِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَعْرَفُ الْخَلْقِ بِبَدَائِعِ هٰذَا الْكَوْنِ الْفَخِيمِ ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِى السَّبْقِ الْفَائِقِ فِى مَيَادِينِ الْعِرْفَانِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : إِنَّ هٰذَا الْعَالَمَ كُلَّهُ عُلْوِيَّهُ وَسُفْلِيَّهُ صَنْعَةُ مَوْلَانَا الْقَدِيرِ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ صَانِعٍ يُودِعُ فِى صَنْعَتِهِ مِنَ الْأَسْرَارِ مَا يُنَاسِبُ عِلْمَهُ الْقَلِيلَ أَوِ الْكَثِيرَ ، إِذَنْ أَسْرَارُ هٰذَا الْكَوْنِ لَا تَتَنَاهَى وَلَا يُحِيطُ بِهَا تَقْدِيرٌ ، لِأَنَّ عِلْمَ صَانِعِهِ لَا يَتَنَاهَى لَا يَخْتَلِفُ فِى ذٰلِكَ اثْنَانِ . هٰذِهِ الْأَرْضُ خَلَقَهَا تَعَالَى وَفِيهَا مِنَ الْبَدَائِعِ مَا يُدْهِشُ الْأَفْكَارَ ، خَلَقَهَا لِنَسْتَقِرَّ عَلَيْهَا لِهٰذَا أَوْدَعَ فِيهَا مَا يَجْعَلُهَا صَالِحَةً لِهٰذَا الْاسْتِقْرَارِ ، بَسَطَهَا لِنَسِيرَ عَلَيْهَا إِلَى مَقَاصِدِنَا وَلَوْلَا بَسْطُهَا مَا سَهُلَ عَلَيْهَا الْمَسَارُ ، وَلِنَبْنِيَ عَلَيْهَا وَنَزْرَعَ فِيهَا وَلَوْلَا بَسْطُهَا لَشَقَّ عَلَيْنَا زَرْعُهَا وَالْبُنْيَانُ . وَفِى تُرْبَةِ هٰذِهِ الْأَرْضِ آيَةٌ مَنْ أَعْطَاهَا حَقَّهَا مِنَ التَّأَمُّلِ أَصْبَحَ مِنْ كِبَارِ الْعَارِفِينَ ، تِلْكَ الْآيَةُ هِىَ صَلَاحِيَّةُ تِلْكَ التُّرْبَةِ لِأَنْ يَنْبُتَ فِيهَا مَا يُرِيدُهُ جَمَاعَةُ الزَّارِعِينَ ، إِنْ أَرَادُوا مِنْهَا قَمْحاً أَوْ شَعِيراً أَوْ ذُرَةً مَنَحَتْهُمْ ذٰلِكَ قُوتاً لِلْآكِلِينَ ، وَإِنْ أَرَادُوا مِنْهَا إِدَاماً كَالزَّيْتُونِ أَسْوَدِهِ وَأَخْضَرِهِ وَهَبَتْهُمْ بِلَا شُحٍّ وَلَا امْتِنَانٍ ، وَإِنْ أَرَادُوا

مِنهَا فَاكِهَةً كَالْمَوْزِ وَالْعِنَبِ وَالرُّمَّانِ تَفَحَتهُمْ نَفحَةَ السَّخِيِّ الْعَظِيمِ، وَإِنْ شَاءُوا مِنهَا رِجَالاً أَفَاضِلَ وَنِسَاءً حِسَانًا مَنَحَتْهُمْ مَا يَبْتَهِجُ بِهِ اللُّبُّ السَّلِيمِ، اقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ، وَاقْرَأْ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ مُخَاطِبًا هَذَا النَّوْعَ نَوْعَ الْإِنْسَانِ. لاَ تَعْجَبْ أَنْ تَكُونَ مِنَ الارْضِ فَأَنْتَ مِنْ نُطْفَةٍ وَالنُّطْفَةُ مِنَ الْغِذَاءِ، وَالْغِذَاءُ مِنَ الزَّرْعِ وَالزَّرْعُ أَصْلُهُ الْأَرْضُ مِنْ غَيْرِ مِرَاءٍ، وَأَنْتَ تُشَاهِدُ بِعَيْنِكَ الاشْجَارَ تَنبُتُ مِنَ الْأَرْضِ فَلَسْتَ بِمُحْتَاجٍ فِي ذَلِكَ إِلَى تَفْهِيمِ خُبَرَاءَ، وَتُحْسِنُ كَثِيرًا لَوْ أَطَلْتَ التَّفَكُّرَ فِي اخْتِلَافِ مَقَادِيرِ ثَمَرِ الزَّرْعِ وَطُعُومِهِ وَالْأَلْوَانِ. إِنَّ مُدْهِشًا وَأَلْفَ مُدْهِشٍ تُرَابٌ وَاحِدٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَيُنْبِتُ مُخْتَلِفَ الثِّمَارِ، أَيْنَ ذَلِكَ التُّرَابُ مِنَ الثَّمَرِ الْأَبْيَضِ وَالْأَحْمَرِ وَالْأَخْضَرِ حُلْوِهِ وَمُرِّهِ صِغَارِهِ وَالْكِبَارِ، بَلْ أَيْنَ ذَاكَ التُّرَابُ مِنَ الْإِنْسَانِ دَمِهِ وَلَحْمِهِ عَظْمِهِ وَعُرُوقِهِ حَوَاسِّهِ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمَا بِهِ مِنْ أَسْرَارٍ، آمَنَّا يَارَبَّنَا بِأَنَّ قُدْرَتَكَ لاَ تُحَدُّ فَزِدْنَا عِلْمًا بِبَدَائِعِ صُنْعِكَ لِنَزْدَادَ بَصِيرَةً بِكَ يَا رَحْمَنُ.

(حديث) وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ حِبَّانَ. وَالآيَاتُ هِيَ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ الَّتِي مِنهَا: وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

323

١٣٥ ـ العبرة بالأرض أيضاً

الحَمْدُ للهِ الَّذِى أَبْدَعَ هٰذَا الوُجُودَ عَلَى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وَأَكْمَلِ نِظَامٍ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ الَّذِى يَعْلَمُ هُوَ فَقَطْ مَا بِخَلْقِهِ مِنْ إِحْكَامٍ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى بِأَتْبَاعِهِ قَضَتِ الحَقَائِقُ عَلَى الأَوْهَامِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ ذِى إِحْسَانٍ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : لَقَدْ لَفَتْنَاكَ قَرِيباً إِلَى بَعْضِ مَا فِى هٰذِهِ الأَرْضِ مِنْ أَسْرَارٍ ، وَلاَ تَظُنَّ أَنَّ ذٰلِكَ أَتَى عَلَى كُلِّ مَا أَوْدَعَهُ بِهَا رَبُّنَا الحَكِيمُ ذُو الاقْتِدَارِ ، لاَ تَظُنَّ ذٰلِكَ وَاجْزِمْ أَنَّ مَا عَلِمْتَ وَتَعْلَمُ قَطْرَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ بِحَارٍ كِبَارٍ ، وَاسْمَعِ الآنَ أَذْكُرْ لَكَ مِنْ ذٰلِكَ أَيْضاً مَا يَزْدَادُ بِهِ مِنْكَ الإِيمَانُ . خَلَقَ مَوْلاَنَا الجِبَالَ فِى الأَرْضِ لِيُفْهِمَنَا أَنَّهُ كَمَا خَلَقَ السَّهْلَ خَلَقَ هٰذَا الجَبَلَ الصَّلْدَ الشَّدِيدَ ، وَلِيُرِيَنَا عُيُونَهَا تَتَفَجَّرُ مَاءً وَبِجَانِبِهَا البَرَاكِينُ تَقْذِفُ مِنَ النَّارِ مَا يَلْتَهِمُ البِلاَدَ وَالعَبِيدَ ، وَلِيُبَرْهِنَ بِهَا خُصُوصاً شَوَاهِقِهَا ـ عَلَى مَبْلَغِ مَا لَهُ مِنَ الحَوْلِ وَالقُوَّةِ الَّتِى لاَ تُضْبَطُ بِتَحْدِيدٍ ، وَجَعَلَهَا لِلأَرْضِ كَالأَوْتَادِ لِلْخِيَامِ تَحْفَظُهَا مِنْ أَىِّ اضْطِرَابٍ وَمَيَدَانٍ . وَخَلَقَ فِيهَا مِنَ المَعَادِنِ مَا يَكُونُ بَعْضُهُ نَقْداً يَتَوَسَّطُ بَيْنَ النَّاسِ فِى نَقْلِ المُعَاوَضَاتِ ، وَلِيَكُونَ بَعْضُهُ كَالحَدِيدِ قُوَّةً تَرْدَعُ أَهْلَ العُدْوَانِ عَنِ الاعْتِدَاءَاتِ ، وَلِيَكُونَ بَعْضُهُ أَوَانِى

تَقْوى عَلَى النَّارِ كالنُّحاسِ وَلِيكُونَ بَعْضُهُ زِينَةً كالجَواهِرِ النَّفِيسات ، وَفى بَاقِى المعادِنِ مِنَ الْأَسْرارِ مالا يَأْتِى عَلَى كُلِّ وَصْفِهِ قوىُّ الْبَيان. وَخَلَقَ فِيهَا الْأَنْهارَ وَجَعَلَ ماءَها عَذْباً لِنَشْرَبَ مِنْهُ إذا ظَمِئْنا، وَلِنَغْسِلَ مِنْهُ ثِيابَنا وَأَوانِينَا إذا اتَّسَخَتْ وَنَغْسِلَ أَبْدانَنا إذا اتَّسَخْنا ، وَلِنَسْقِىَ مِنْهُ حَيَواناتِنا إذا عَطِشَتْ وَنَسْقِىَ أَرْضَنا إذا زَرَعْنا ، وَخَلَقَ فِيهَا الْبِحارَ لِيُبَرْهِنَ بِعَظَمَتِها عَلَى قُدْرَتِهِ وَلِيُطْعِمَنا سَمَكَهَا وَلِيَمْنَحَنا لآلِئَها وَالمَرْجان . وَخَلَقَ لَنا فِيهَا النَّارَ لِنَعْتَبِرَ بِهَا وَنَجِدَ فِيما يَقِينا مِنْهَا يَوْمَ تُوقَدُ بِالْفُجّار، وَلِنُنْضِجَ بِهَا مَطاعِمَنا كَاللَّحْمِ وَالْخُبْزِ وَسائِرِ مالا يُؤْكَلُ إلاَّ إذَا صَلُحَ بِهٰذِهِ النَّار ، وَلِنُسَخِّنَ بِهَا الماءَ حِينَما نُرِيدُ اسْتِخْدامَهُ لِلتَّنْظِيفِ أَوْ نُرِيدُ إحالَتَهُ لِبُخار ، وَلِنُسَلِّطَها عَلَى المعادِنِ كَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالحَدِيدِ لِتَلِينَ فَنَعْمَلَ مِنْها ما نَعْمَلُ بِإِتْقان . وَخَلَقَ فِيهَا الحَيَوانَ لِيَكُونَ لَنا بَعْضُهُ فى إعْدادِها وَتَهْيِئَتِها لِلزَّرْعِ مِنْ أَكْبَرِ الآلات ، وَلِنَرْكَبَ بَعْضَهُ إذا أَرَدْنا أَنْ نَنْتَقِلَ إلَى مَكانٍ بَعِيدٍ مِنْ جِهاتِها الْكَثِيرات ، وَلِنَحْمِلَ عَلَى بَعْضِهِ مِنْ أَثْقالِنا ما لا نَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ إلاَّ بِصُعُوباتٍ ثُمَّ صُعُوبات ، وَلِنَأْكُلَ مِنْ لَحْمِ بَعْضِهِ وَسَمْنِهِ وَلِنَلْبَسَ مِنْ صُوفِهِ وَوَبَرِهِ وَلِنَشْرَبَ مِنَ الأَلْبان .

(حديث) تَفَكُّرُ ساعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِيامِ لَيْلَةٍ . رَواهُ الدَّيْلَمِىُّ .

١٣٦ — العبرة بالسماء

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَنَا مَعْشَرَ بَنِي الإِنْسَان ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةَ يَقِظٍ عَنْ آيَاتِ رَبِّهِ لَيْسَ بِغَفْلَان ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي فَتَحَ لَنَا بَابَ الْعِبْرَةِ بِهٰذِهِ الأَكْوَان ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِي الْعِبْرَةِ الْمُهْتَدِين .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : اُنْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَكَ وَأَطِلِ التَّفَكُّرَ فِيمَا بِهَا مِنَ الآيَات ، تَجِدْ مِنَ الْأَسْرَارِ بَدَائِعَ تَرْقُصُ لَهَا سُرُوراً عُقُولُ الجَهَابِذَةِ الْأَثْبَات ، هِيَ سَقْفٌ مَرْفُوعٌ عَظِيمٌ عِظَماً لَا يُسَامَى فِيمَا نَرَى مِنَ الْكَائِنَات ، وَمَعَ ذٰلِكَ لَا تَرْتَكِزُ عَلَى شَيْءٍ وَإِنَّمَا يُمْسِكُهَا أَنْ تَزُولَ رَبُّ الْعَالَمِين . وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ السَّقْفَ كُلَّمَا عَظُمَ كُلَّمَا سَارَعَ إِلَيْهِ التَّشَقُّقُ وَالْفَسَاد ، وَالسَّمَاءُ أَعْظَمُ سَقْفٍ وَلَيْسَ بِهَا أَيُّ خَلَلٍ وَمَبْدَأُهَا إِنَّمَا يَعْلَمُهُ رَبُّ الْعِبَاد ، وَلَوْنُهَا هٰذَا لَوْنُهَا مُنْذُ خُلِقَتْ مَا تَغَيَّرَ وَالدُّهُورُ عَلَى ذٰلِكَ أَشْهَاد ، وَانْظُرْ إِذَا صَبَغْنَا نَحْنُ شَيْئاً لَا نَلْبَثُ أَنْ نَرَاهُ تَغَيَّرَ بَعْدَ حِين . ثُمَّ الْأُولَى مِنْهَا بَعِيدَةٌ عَنَّا بُعْداً جَاءَ تَقْدِيرُهُ بِمِقْدَارِ خَمْسِمِائَةِ عَام ، وَعَجِيبٌ أَنْ نُشَاهِدَهَا مَعَ ذٰلِكَ مُشَاهَدَةً يَسْتَوِي فِيهَا الْخَاصُّ وَالْعَامّ ، مَعَ أَنَّا هُنَا نَكَادُ لَا نَرَى مَا بَعُدَ عَنَّا يَوْماً وَاحِداً مَهْمَا كَانَ مِنَ الْأَجْسَامِ الْعِظَام ، وَمَهْمَا كَانَ

النَّاظِرُ حَدِيدَ الْبَصَرِ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ بَيْنَ الْمُبْصِرِينَ. ثُمَّ هِيَ زَرْقَاءُ كَمَا تَرَاهَا فَزَيَّنَهَا رَبُّنَا وَجَمَّلَهَا بِهٰذِهِ النُّجُومِ الْبَيْضَاءِ، وَإِذَا اشْتَبَهَتِ الطُّرُقُ لَيْلاً عَلَى السَّائِرِينَ اهْتَدَوْا بِهٰذِهِ النُّجُومِ أَيَّ اهْتِدَاءٍ، وَإِذَا حَاوَلَ اسْتِرَاقَ السَّمْعِ جِنِّيٌّ رُمِيَ مِنْهَا بِشِهَابٍ يَدَعُهُ عِبْرَةً لِلْأَحْيَاءِ، وَبِنُورِهَا تَخِفُّ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ إِلَى حَدٍّ يُمْكِنُ مَعَهُ السَّيْرُ لِلسَّائِرِينَ.

وَمِنْ عَجَائِبِ هٰذِهِ الْكَوَاكِبِ أَنَّ السَّيَّارَاتِ مِنْهَا تَسِيرُ مُسْرِعَةً وَهِيَ جَمَادَاتٌ، وَأَنَّ الْقَمَرَ مِنْهَا سِرَاجٌ وَاحِدٌ يُضِيءُ كُلَّ الْكَوْنِ وَيُبَدِّدُ مَا بِهِ مِنْ ظُلُمَاتٍ، وَأَنَّ الشَّمْسَ عَنْ سَيْرِهَا يَكُونُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَعَنْ مَطَالِعِهَا تَكُونُ الْفُصُولُ الْمُخْتَلِفَاتُ، وَلَوْلَاهَا مَا طَابَ لَنَا ثَمَرٌ وَلَا صَلَحَ الْهَوَاءُ لِحَيَاتِنَا وَلَا سَهُلَ السَّعْيُ عَلَى الْأَرْزَاقِ لِلسَّاعِينَ. بَنَى رَبُّنَا هٰذِهِ السَّمَاءَ كَمَا أَخْبَرَ وَأَحْكَمَ بِنَاءَهَا أَيَّمَا إِحْكَامٍ، وَدَعَانَا إِلَى النَّظَرِ إِلَيْهَا وَالِاعْتِبَارِ بِهَا وَهِيَ لِشِدَّةِ ظُهُورِهَا كَأَنَّهَا فِى الْأَمَامِ، وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَعْرِفَ حَقِيقَتَهَا وَهِيَ بِهٰذَا الظُّهُورِ التَّامِّ، إِنَّ الْعَجْزَ عَنْ إِدْرَاكِ حَقِيقَتِهَا مَعَ ظُهُورِهَا هٰذَا آيَةٌ تَبْهَرُ الْمُتَفَكِّرِينَ. هٰذِهِ عِبَرٌ مَعْرِفَةُ مِثْلِهَا مُتْعَةٌ لِلْعُقُولِ وَلَذَّةٌ تَطْرَبُ بِهَا الْأَرْوَاحُ، لَذَّةٌ دُونَهَا كُلُّ مَا تَعْهَدُ فِى هٰذِهِ الدَّارِ مِنْ لَذَائِذِ الْأَشْبَاحِ، وَبِهٰذِهِ الْعِبَرِ تَزْدَادُ بَصِيرَةً بِرَبِّكَ فَتَزْدَادُ أَدَبًا مَعَهُ فَتَكُونُ فِى

آخِرَتِكَ مِنْ أَهْلِ الْفَلَاحِ ، فَاقْرَعْ هٰذَا الْبَابَ بَابَ الْعِبْرَةِ تَنْفَتِحْ لَكَ مِنْهَا كُنُوزُ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ .

(حديث) عَوِّدُوا قُلُوبَكُمُ التَّرَقُّبَ [1] ، وَأَكْثِرُوا التَّفَكُّرَ وَالِاعْتِبَارَ . رَوَاهُ الدَّيْلَمِيُّ فِي مُسْنَدِ الْفِرْدَوْسِ .

١٣٧ — العبرة بالانسان

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي كَرَّمَ بَنِي آدَمَ وَفَضَّلَهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ تَفْضِيلًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ الَّذِي قَالَ : لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ — وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّٰهِ قِيلًا ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ خَلْقِ اللّٰهِ تَعَالَى جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَهْلِ الْعِبْرَةِ بِمَا خَلَقَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّٰهِ : إِنَّ أَبْدَعَ مَا خَلَقَ اللّٰهُ تَعَالَى فِي هٰذَا الْعَالَمِ كُلِّهِ هٰذَا الْإِنْسَانُ ، إِذْ فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ عَلَى قُدْرَةِ رَبِّنَا وَحِكْمَتِهِ مَا تَنْبَهِرُ أَمَامَهُ الْأَذْهَانُ ، لِذٰلِكَ دَعَانَا عَزَّ وَجَلَّ إِلَى النَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي أَنْفُسِنَا لِيَزْدَادَ مِنَّا الْإِيمَانُ ، وَإِنِّي أَلْفِتُكَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ هٰذَا فَأَلْقِ سَمْعَكَ وَأَنْتَ يَقِظٌ فَهِمٌ . أَصْلُ الْإِنْسَانِ كَمَا تَعْلَمُ مَاءٌ قَذِرٌ تَشْمَئِزُّ مِنْهُ .

(١) أى مراقبة الله تعالى ودوام ملاحظة أنه يسمع ويرى ويعلم ما عليه العبد ، وإذا صار ذلك عادة للإنسان تقضى على الغفلة ، وهى سبب كل بلية . ولازم الذكر ، وهو مبدأ كل خير .

نُفُوسُ النَّاظِرِين ، يَتَطَوَّرُ ذَلِكَ المَاءُ فى مَقَرِّهِ إِلَى أَطْوَارٍ شَتَّى ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ رُوحُ الآدَمِيِّين ، وَبِهَذَا يُصْبِحُ ذَلِكَ المَاءُ إِنْسَانًا يَنْمُو شَيْئًا فَشَيْئًا فى ذَلِكَ القَرَارِ المَكِين ، فَإِذَا آنَ زَمَنُ الوَضْعِ رَأَيْنَا قُوَّةً تَدْفَعُهُ إِلَى الخَارِجِ فَإِذَا بِهِ بَيْنَ يَدَيْنَا مَخْلُوقٌ كَرِيم . وَهُنَا تَرَى بِعَيْنَيْكَ ذَلِكَ المَاءَ صَارَ جِسْمًا مِنَ الأَجْسَام ، وَتَرَى ذَلِكَ الجِسْمَ ذَا لَحْمٍ وَدَمٍ وَعُرُوقٍ وَمَفَاصِلَ وَعِظَام ، وَتَرَى لَهُ مِنَ الجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ مَا تَتَحَيَّرُ أَمَامَ أَسْرَارِهَا الأَفْهَام ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَوَّنَ رَبُّكَ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ الحَقِيرِ هَذَا المَخْلُوقَ العَظِيم . فَإِذَا قَوِيَ هَذَا الطِّفْلُ انْطَلَقَتْ رِجْلَاهُ بِالمَشْيِ وَلِسَانُهُ بِالنُّطْقِ بِمَا يَشَاء ، فَإِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ تَمَّ عَقْلُهُ وَأَصْبَحَ يُدَبِّرُ بِنَفْسِهِ مَا يَدْخُلُ تَحْتَ إِرَادَتِهِ مِنَ الأَشْيَاء ، وَأَصْبَحَ يَتَنَاوَلُ بِعَقْلِهِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ يُدْرِكُ مِنْ عَجَائِبِهِمَا مَا يَعْجَبُ لَهُ الأَلِبَّاء ، فَانْظُرْ كَيْفَ جَعَلَ رَبُّكَ ذَلِكَ المَاءَ إِنْسَانًا سَمِيعًا بَصِيرًا مُتَكَلِّمًا عَالِمًا يُدَبِّرُ التَّدْبِيرَ الحَكِيم . وَتَأَمَّلْ طَوِيلًا فى وَضْعِ الأَعْضَاءِ فى مَوَاضِعِهَا تَظْهَرْ لَكَ أَسْرَارٌ مُدْهِشَات ، وَانْظُرْ كَيْفَ اخْتَلَفَتِ الوُجُوهُ وَالأَصْوَاتُ وَالحَرَكَاتُ لِتُعْرَفَ إِذَا عَامَلْتَ أَوِ ارْتَكَبْتَ مَحْظُورَات ، وَصَدِّقْنِي إِذَا قُلْتُ لَكَ إِنَّ أَنَامِلَ جَمِيعِ الخَلْقِ لَيْسَ فِيهَا أُنْمُلَةٌ تُشْبِهُ بَاقِيَ الأُنْمُلَات ، وَانْظُرْ كَيْفَ لَا تَبْلَى الجَوَارِحُ بِالاسْتِعْمَالِ وَإِنْ مَضَى عَلَيْهَا مِئَاتٌ مِنَ السِّنِينَ فى ذَلِكَ الاسْتِعْمَالِ المُسْتَدِيم . هَذِهِ قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرٍ مِمَّا بِكَ

مِنْ أَسْرَارٍ وَالبَاقِي يَعْلَمُهُ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَتَحَقَّقَ هٰذَا فَانْظُرْ كَيْفَ يَبْحَثُ الْحُكَمَاءُ دُهُوراً فِى أَسْرَارِ عُضْوٍ وَاحِدٍ فَلاَ يَصِلُونَ إِلاَّ لِيَسِيرٍ ، فَفِي هٰذَا المَيْدَانِ فَأَطْلِقْ عِنَانَ فِكْرِكَ فَالسَّعَادَةُ كُلُّهَا فِى هٰذَا التَّفْكِيرِ ، كَيْفَ لاَ وَأَنْتَ بِهِ تَزْدَادُ بَصِيرَةً بِمَوْلاَكَ الَّذِي خَلَقَكَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ .

(حديث) تَفَكَّرُوا فِى خَلْقِ اللّٰهِ وَلاَ تَفَكَّرُوا فِى اللّٰهِ . رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِى الْحِلْيَةِ .

١٣٨ — هل من فعل مثل الراقى أو المنحط يكون مثله

الحَمْدُ لِلّٰهِ حَمْدَ عَبْدٍ يَرَى نَقْصَ غَيْرِهِ أَوْ كَمَالَهُ فَيَتَنَبَّهُ لِنَقْصِ نَفْسِهِ وَالْكَمَالِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللّٰهُ شَهَادَةَ مُنْصِفٍ يَسْتَقْبِحُ مِنْ نَفْسِهِ مَا يَسْتَقْبِحُ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ خِلاَلٍ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي كَانَ بَيْنَ أَهْلِ الْكَمَالِ خَيْرَ مِثَالٍ ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِى المَكَانَةِ الَّتِي لاَ تُنَالُ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : إِنَّ فِيكَ قُوَّةً نَقَّادَةً لاَ تَهْدَأُ أَبَدًا عَنْ نَقْدِ الْعِبَادِ ، فَتَرَاكَ حِيناً تَنْظُرُ إِلَى بَعْضِ النَّاسِ فَتَسْتَحْسِنُ مَا هُوَ عَلَيْهِ بِنَظَرِكَ النَّقَّادِ ، وَيَمْتَلِئُ قَلْبُكَ إِجْلاَلاً لَهُ وَتَسْتَدِيمُ عَلَى مَدْحِهِ

فى كُلِّ نادٍ ، وَمَنْ يَضِنُّ بِمَدْحِ امْرِئٍ لاَ يَعْرِفُ إلاَّ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ وَأَعْمَالَ الْكَمَالِ . وَنَرَاكَ حِيناً آخَرَ تَرَى بَعْضَ النَّاسِ فَتَنْفِرُ مِنْهُ نُفُوراً يُرِيبُ ، وَتَسْتَهْجِنُ حَالَهُ وَتَسْتَقْبِحُهُ اسْتِقْبَاحاً لاَ يَتَرَدَّدُ فِيهِ نَظَرُكَ السَّامِي وَفِكْرُكَ النَّجِيبُ ، وَيَمْتَلِئُ قَلْبُكَ احْتِقَاراً لَهُ وَرُبَّمَا اغْتَبْتَهُ بَيْنَ النَّاسِ بِذِكْرِ ذَلِكَ الحَالِ المَعِيبِ ، وَمَنْ لاَيَسْتَهْجِنُ أَخْلاَقاً سَافِلَةً وَأَعْمَالاً مُنْحَطَّةً تُسَوِّدُ وُجُوهَ الرِّجَالِ يَحْسُنُ بِكَ أَيُّهَا الأَخُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ النَّاسَ مِثْلُكَ مُبْصِرُونَ عُقَلاَءُ ، لَهُمْ قُوَّةٌ نَقَّادَةٌ مِثْلُ قُوَّتِكَ تَنْظُرُ إِلَيْكَ وَتَنْقُدُكَ نَقْدَ الأُدَبَاءِ ، فَيَسْتَحْسِنُونَ مِنْكَ مَا نَبُلَ مِنْ أَخْلاَقِكَ وَيَسْتَقْبِحُونَ مِنْكَ حَالَ الأَدْنِيَاءِ ، وَمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ إِنَّ الْجَمِيلَ فِيكَ قَبِيحٌ وَإِنَّ الْقَبِيحَ فِيكَ جَمَالٌ . إِذَنْ إِنِ اسْتَحْسَنْتَ مِنَ النَّاسِ شَيْئاً فَاعْمَلْهُ يَسْتَحْسِنُوهُ مِنْكَ وَيَمْدَحُوكَ ، وَإِنِ اسْتَقْبَحْتَ مِنْهُمْ شَيْئاً فَاتْرُكْهُ يَكُفُّوا عَنْكَ وَلاَ يَذُمُّوكَ ، وَإِنْ فَعَلْتَ مَاتَسْتَقْبِحُهُ مِنْهُمْ وَتَرَكْتَ مَا تَسْتَحْسِنُهُ فَلاَ تَلُمْهُمْ إِذَا قَبَّحُوكَ ، إِذَا لَمْ تَسْمَعْ مِنْهُمْ ذَلِكَ عَلَناً كُنْتَ فِى نُفُوسِهِمْ حَقِيراً تَسْتَحِقُّ غَيْرَ الإِجْلاَلِ . إِذَنْ لَوْ رَأَيْتَ ذَا مَقَامٍ أَسْمَى وَفَعَلْتَ مِثْلَهُ كُنْتَ فِى أَسْمَى الْمَقَامَاتِ ، وَلَوْ فَعَلْتَ مِثْلَ أَسْفَلِ النَّاسِ مَكَانَةً كُنْتَ فِى أَسْفَلِ الْمَكَانَاتِ ، فَإِنَّ ذَا الْمَقَامِ الأَسْمَى مَا سَمَا إِلَيْهِ إِلاَّ بِأَعْمَالِهِ الْجَلِيلاَتِ ، كَمَا أَنَّ ذَا الْمَقَامِ الأَسْفَلِ مَا انْحَطَّ إِلَيْهِ إِلاَّ بِأَسْفَلِ الأَعْمَالِ . إِذَنْ كُلُّ النَّاسِ سَوَاءٌ وَإِنَّمَا تَفَاوَتُ

مَقَامَاتِهِمْ بِالْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ ، هٰذَا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْكُلِّ بَلْ هُوَ عِنْدَهُمْ مَحَلُّ اتِّفَاقٍ ، وَالْخُلُقُ الْجَمِيلُ وَالْعَمَلُ النَّبِيلُ مَا شَرَعَهُ رَبُّنَا فَكَانَ جَمِيلاً عِنْدَ سَلِيمِي الْأَذْوَاقِ ، فَفِي هٰذِهِ الدَّائِرَةِ فَاعْمَلْ أَيُّهَا الْأَخُ تَكُنْ بَيْنَ ذَوِي الْمَقَامَاتِ الْعَوَالِ .

(حديث) إِذَا سَمِعْتَ جِيرَانَكَ يَقُولُونَ قَدْ أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ قَدْ أَسَأْتَ فَقَدْ أَسَأْتَ [1] . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَأَحْمَدُ .

(آخر) الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ [2] الْمُؤْمِنِ . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ وَالضِّيَاءُ الْمَقْدِسِيُّ فِي الْمُخْتَارَةِ .

---

(١) قد يخفى حال الإنسان طويلا على من لم يخالطه كثيراً ، ومن خفى عليه حالك لا يستطيع أن يحكم عليك حكماً صحيحاً ، فربما مدحك وأنت تستحق الذم ، وربما ذمك وأنت جدير بالمدح أما من كنت دائما بمرأى منه ومسمع فإنه يحيط بحالك كل الإحاطة ويمكنه أن يكون فيك رأياً قاطعاً ، وحينئذ إذا قال فيك قال عن تحقيق وأخبر عن حس ، ومن هذا حاله لا يخطئ ، وذلك هو الجار الذي يصبح معك ، ويمسى معك ، ويسمعك شئت أم أبيت ، ويراك شئت أم أبيت ، فلا يمكنك التصنع معه حتى يغتر بك ، فإن قال فيك أحسنت فأنت محسن حقاً عند الله ، وإن قال أسأت فأنت كذلك عند الله ، ولو أنك اعتبرت بغيرك ففعلت ما استحسنه منه وتركت ما استقبحه — ما قال لك جارك يوماً أنت مسىء .

(٢) أى إذا رأى المؤمن فى أخيه عيباً ، وكان فى نفسه ذلك العيب تذكره وعرف أنه معيب به . وكأن أخاه بذلك مرآة له رأى فيه ما بنفسه ، وكذلك يقال فى الكمال ، وذلك هو الاعتبار بالغير ، وهذا المعنى هو ما يعطيه التشبيه — أو معنى كونه مرآة له أنه إذا رأى عيبه لفته له ونبهه عليه ونهاه عنه وأظهره له كما تظهر المرآة لمحاذيها عيبه .

١٣٩ - إلقاء الجرائد بالشوارع وبيع الكتب بالأقه

الحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي أَمَرَنَا أَنْ نُعَظِّمَ مَا عَظَّمَ لِنَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللّٰهُ الَّذِي لاَ يَسْتَخِفُّ بِمَا عَظَّمَ إِلاَّ فَرِيقُ الْكَافِرِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ المُعَظَّمُ اسْماً وَمَعْنًى عِنْدَ اللّٰهِ وَالمُتَّقِينَ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ كُنُوزِ الْخَيْرَاتِ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّٰهِ: إِنَّ مِنْ تَعْظِيمِ رَبِّنَا عَزَّ وَجَلَّ تَعْظِيمَ كُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَذٰلِكَ مِنْ أُصُولِ الإِيمَانِ، فَمَنِ اسْتَخَفَّ بِكِتَابٍ أَوْ آيَةٍ مِنْ كُتُبِهِ أَوْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهِ خَسِرَ كُلَّ الخُسْرَانِ، خَسِرَ الدُّنْيَا بِضَرْبِ عُنُقِهِ وَبِإِلْقَائِهِ كَالْكَلْبِ فِي حُفَرِ أَهْلِ الْكُفْرَانِ، وَخَسِرَ الآخِرَةَ بِحِرْمَانِهِ مِنَ الجَنَّةِ وَبِخُلُودِهِ الأَبَدِيِّ فِي دَارِ الإِهَانَاتِ، قُولُوا ذٰلِكَ أَيُّهَا الإِخْوَانُ لِأُنَاسٍ يُلْقُونَ الجَرَائِدَ فِي الشَّوَارِعِ الْعُمُومِيَّه، تُدَاسُ بِالنِّعَالِ وَتَتَلَوَّثُ بِالأَقْذَارِ تَلَوُّثاً تَسْتَغِيثُ مِنْهُ الْعَوَاطِفُ الإِيمَانِيَّه، وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى وَأَسْمَاءِ رُسُلِهِ وَآيَاتٌ وَأَحَادِيثُ نَبَوِيَّه، قُولُوا لَهُمْ كَيْفَ تُلْقُونَهَا ذٰلِكَ الإِلْقَاءَ الحَقِيرَ بَلْ كَيْفَ تَتْرُكُونَهَا مُلْقِيَات، قُولُوا ذٰلِكَ لِمَنْ يَبِيعُونَ الصُّحُفَ (بِالأُقَّةِ) وَمِثْلَهَا كُتُبُ الْفِقْهِ وَالحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ، يَشْتَرُونَهَا بِحَوَانِيتِهِمْ لِيَلُفُّوا بِهَا (النِّعَالَ وَالطَّعْمِيَّةَ وَالْفَسِيخَ وَالْبَسْبُوسَةَ وَالْفَطِيرَ)، وَقُولُوهُ لِأُنَاسٍ يَجْعَلُونَهَا

أغطية لأثاث منازلهم ويضعونها تحت أوانيهم خوف التقذير ، وقوله لأناس يستنجون بها ويجعلونها مماسح لثياب أطفالهم من المذرات . إن كان عن جهل هذا فيا بلاء أمتنا من هذا الجهل العظيم، وإن كان عن علم فيا شقاء أمتنا من هذا الكفر اللئيم ، إن الورق وحده أيها الناس لا يجوز إلقاؤه لأنه مال قويم ، كيف لا ونحن نستورد منه من مدة لأخرى ما ثمنه مئات الآلاف من الجنيهات . وإذا كان لا يجوز إلقاؤه وحده فبالأولى لا يجوز إلقاؤه بعد أن يطبع فيه فوائد مقصودات ، فإنه من ناحية يرتفع ثمنه لفوائده ومن ناحية أخرى نقوشه محترمات ، وتتغلظ حرمة إلقائه إذا كان فيه اسم لله أو لرسله أو أحاديث أو آيات ، فإذا ضم إلى ذلك إلقاؤه عمداً واستخفافاً صار كفراً صريحاً بفاطر السموات . إن المخلص من هذا كله أن لا تشترى جرائد وإذن لا تجد ما ترميه فى الطرقات ، وإن أبيت إلا شراءها فاحتفظ بها ولا تجعلها وقاية لبيتك من القاذورات ، وإذا لم تستطع ذلك فأحرقها بعد أن تستفيد منها فوائدها المعتادات ، وإذا لم تفعل إلا ما أنت عليه فلا تلومن إلا نفسك إذا ساءت العاقبات .

(حديث) ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ،

وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللّٰهُ مِنْهُ ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِى النَّارِ . رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِىُّ وَالنَّسَائِىُّ وَابْنُ مَاجَهْ .

١٤٠ - الاحتيال والمحتالون

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى لَا تَخْفَى عَلَيْهِ حِيلَةُ مَاكِرٍ وَلَا خَدِيعَةُ مُحْتَالٍ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ شَهَادَةَ مَنْ أَخْلَصَ فِيهَا تَنَزَّهَ عَنِ الْاحْتِيَالِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى أَخْبَرَ أَنَّ الْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ فِى دَارِ النَّكَالِ ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ خَيْرِ أَصْحَابٍ وَآلٍ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّٰهِ : لَقَدْ كَثُرَ أَهْلُ النَّصْبِ وَالْاحْتِيَالِ فِى هٰذَا الزَّمَانِ ، كَثْرَةً تُخِيفُ الْمَرْءَ مِنْهُمْ أَيْنَمَا كَانَ وَمَتَى كَانَ ، وَلِلْكُلِّ حِيَلٌ شَتَّى لَيْسَ حَصْرُهَا فِى الْإِمْكَانِ ، وَإِنِّى ذَاكِرٌ لَكَ الْيَوْمَ حِيَلًا مِنْهَا لِتَعْرِفَهَا لِتَحْرِصَ عَلَى مَالِكَ مِنْ أُولٰئِكَ الضُّلَّالِ فَتَارَةً يَخْتَلِطُ بِكَ الْمُحْتَالُ وَيُظْهِرُ لَكَ مِنَ اللُّطْفِ مَا بِهِ تَطْمَئِنُّ لَهُ كُلَّ الْاطْمِئْنَانِ ، وَحِينَئِذٍ يُقَدِّمُ لَكَ قِطْعَةَ حَلْوَى أَوْ (سِجَارَةً أَوْ قَهْوَةً) أَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ مِنْ تَحِيَّاتِ الْإِخْوَانِ ، فَإِذَا تَنَاوَلْتَهَا أُغْمِىَ عَلَيْكَ لِمَا بِهَا مِنْ مُخَدِّرٍ يَفْعَلُ فِعْلَهُ فِى الْعُقُولِ وَالْأَبْدَانِ ، فَإِذَا صِرْتَ هٰكَذَا سَلَبَكَ وَتَرَكَكَ مُلْقًى عَلَى الْأَرْضِ سُخْرِيَةً لِلنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ . وَتَارَةً يَظْهَرُ لَكَ بِمَظْهَرِ

الأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ تَحْصُلُ بِهِمْ لِلْعِبَادِ الْبَرَكَاتُ ، وَيَكُونُ حَوْلَهُ مَنَاحِيسُ يَحْتَفِلُونَ بِهِ وَيُعَظِّمُونَهُ تَعْظِيمَ الْعِبَادَاتِ ؛ وَهٰؤُلَاءِ يُحَرِّضُونَكَ عَلَى تَقْدِيمِ كِيسِ نُقُودِكَ لِيَدْعُوَ لَكَ فِيهِ بِالْبَرَكَةِ قُطْبُ الْبَرِّيَّاتِ ، فَإِذَا قَدَّمْتَهُ اخْتَلَسَ مَا بِهِ وَتَرَكَكَ فِي انْتِحَابٍ وَإِعْوَالٍ . وَحِينًا يَمْشِي بِجَانِبِكَ وَاحِدٌ فَيُلْقِي آخَرُ أَمَامَكُمَا كِيسًا فِيهِ أَشْيَاءُ ، فَيُبَادِرُ هٰذَا الْمَاشِي مَعَكَ إِلَى الْتِقَاطِهِ وَيَقُولُ لَكَ نَقْتَسِمُهُ بِعَدْلِ الْفُضَلَاءِ ، ثُمَّ يَلْحَقُكُمَا ذٰلِكَ الآخَرُ وَيَقُولُ أَخَذْتُمَا مَالِي أَفَتِّشُكُمَا أَوْ أَشْكُوكُمَا لِوُلَاةِ الْأُمُورِ الْأَجِلَّاءِ ، فَإِذَا فَتَّشَكَ سَلَبَكَ وَقَالَ لَكَ أَنْتَ رَجُلٌ بَرِيءٌ مِفْضَالٌ .

وَحِينًا يَخْطَفُ وَاحِدٌ مِنْ حَانُوتِكَ شَيْئًا وَأَنْتَ مَوْجُودٌ تَرَاهُ ، فَإِذَا عَدَوْتَ وَرَاءَهُ أَخَذَ آخَرُ مَا بِعْتَ بِهِ دُونَ مُمَانَعَةٍ وَلَا مُمَارَاةٍ ، وَمَرَّةً يَذْهَبُ إِلَى بَيْتِكَ وَيَطْلُبُ لَكَ مَبْلَغًا بِأَمَارَةٍ عَرَفَهَا عَنْكَ لَيْسَ فِيهَا اشْتِبَاهٌ ، وَحِينَئِذٍ يَأْخُذُ الْمَبْلَغَ وَاللَّوْمُ عَلَيْكَ لَا عَلَى رَبَّاتِ الْحِجَالِ .

وَمَرَّةً يَدَّعِي أَنَّهُ يَقْلِبُ الْمَعَادِنَ ذَهَبًا لِأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ (الْكِيمِيَاءِ) ، وَرُبَّمَا خَدَعَكَ بِتَجْرِبَةٍ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا لَهُ فِيهَا مِنْ دَهَاءٍ ، ثُمَّ يَطْلُبُ مِنْكَ مِنْ وَقْتٍ لِآخَرَ مَبَالِغَ ثَمَنًا لِلَوَازِمِ ذٰلِكَ وَيُوصِيكَ بِإِخْفَاءِ أَمْرِهِ كُلَّ الْإِخْفَاءِ ، ثُمَّ تَلْتَفِتُ فَلَا تَجِدُ لَهُ أَثَرًا لَا فِي السُّهُولِ وَلَا فِي الْجِبَالِ .

وَمَرَّةً يَظْهَرُ أَمَامَكَ بِالْغِنَى الْمُفْرِطِ وَيُبَعْثِرُ فِي الْجُنَيْهَاتِ ، فَإِذَا اغْتَرَرْتَ بِهِ وَأَمِنْتَهُ وَثَبَ عَلَيْكَ بِشَرِّ الْخِيَانَاتِ ، وَسَاعَةً يُصَرِّحُ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ

الغَيْبَ بتَنْجيمِهِ أَوْ رَمْلِهِ أَوْ وَدعِهِ أَوْ بعيُونِ قَلْبِهِ الثَّاقِبات ، فتُسَارِعُ أَنتَ إِلَى مَنْحِهِ ليُخْبِرَكَ بما يَكُونُ لكَ فِي الاسْتِقْبَال . هٰذِهِ أَمْثِلَةٌ مِنَ الحِيَلِ فاعْرِفْهَا وعَلِّمْهَا حَتَّى النِّسَاء ، واحْتَرِسْ مِنْهَا وَمِنْ أَمْثَالِهَا كَمَا يَحْتَرِسُ ذَوُو الفَطَانَةِ النُّبَلاَء ، وَلاَ تطْمَئِنَّ أَبدًا إِلاَّ لِمَنْ تجْزِمُ أَنَّهُ مِنْ ذَوِي الاسْتِقَامَةِ الأَوْفِيَاء ، وَإِلاَّ اخْتَلَّ حالُكَ بِوُقُوعِكَ فِي فِخَاخِ النَّصَّابِينَ ذَوِي الاحْتِيَال .

(حديث) مَلْعُونٌ مَنْ ضَارَّ مُؤْمِنًا أَوْ مَكَرَ بِهِ. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.

(آخر) مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا وَالمَكْرُ وَالخَدِيعَةُ فِي النَّارِ . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الصَّغِيرِ وَالكَبِيرِ وَابْنُ حِبَّانَ .

١٤١ — الناس اليوم مع شهواتهم

الحَمْدُ للهِ الَّذِي نَصَبَ عَلَى كَمَالِ أُلُوهِيَّتِهِ أَعْلاَمَ الحِكْمَةِ وَآيَاتِ الاقْتِدَار ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةَ مَنْ رَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا كَانَ مِنْ فَرِيقِ الأَخْيَار ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَكَنْزُ مَالَهُ مِنْ أَسْرَار ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ أَمَاتُوا أَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ أَسْمَى مُرَاد .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَعِيشُ أَحَدُهُمْ فِي هٰذِهِ الحَيَاةِ عِيشَةَ سَائِرِ الحَيَوَانَات ، يَتَقَلَّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ فِيمَا تَقْتَضِي شَهَوَاتُهُ دُونَ تَفْكِيرٍ فِي العَاقِبَات ، لَوْ لاَحَتْ لَهُ أَيُّ

شَهْوَةٍ تَهَالَكَ عَلَيْهَا وَلَوْ مِنْ أَكْبَرِ كَبَائِرِ الْمُوبِقَاتِ ، وَلَا تَسْتَرِيحُ نَفْسُهُ أَبَدًا إِلَّا إِذَا وَصَلَ إِلَيْهَا وَبَلَغَ مِنْهَا الْمُرَادَ . مِثْلُ هٰذَا كُلُّ فَرَحِهِ وَسُرُورِهِ فِى أَنْ يَصِلَ إِلَى مَا يَشْتَهِى وَلَوْ كَانَ كُفْرًا بِاللّٰهِ ، وَكُلُّ غَمِّهِ وَحُزْنِهِ فِى أَنْ يُحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَىْءٍ مِنْ مُشْتَهَاهُ ، فَحَبِيبُهُ وَصَفِيُّهُ مَنْ سَارَعَ إِلَى مَرْضَاتِهِ وَيَسَّرَ لَهُ سَبِيلَ مَا يَهْوَاهُ ، وَأَبْغَضُ خَلْقِ اللّٰهِ تَعَالَى إِلَيْهِ مَنْ تَسَبَّبَ فِى بُعْدِهِ عَنْ فَسَادٍ . مِثْلُ هٰذَا مُسِخَتْ إِنْسَانِيَّتُهُ فَهُوَ فِى الْمَعْنَى بَهِيمٌ وَإِنْ كَانَ فِى صُورَةِ إِنْسَانٍ ، لَا بَلْ آثَارُهُ تِلْكَ مَا هِىَ آثَارُ بَهِيمٍ بَلْ آثَارُ شَيْطَانٍ ، وَمِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ أَنْ تَصْدُرَ تِلْكَ الْآثَارُ مِمَّنْ عِنْدَهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ ، فَلْيُرَاجِعْ أَشْبَاهُ هٰذَا أَنْفُسَهُمْ لِيَعْلَمُوا إِلَى أَىِّ حَدٍّ وَصَلَ بِهِمْ سُوءُ الْاِسْتِعْدَادِ . نَعَمْ إِنَّ الْعَقْلَ يَسْتَبْعِدُ أَنْ يَكُونَ بِتِلْكَ الْحَالَةِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ ، وَمَنْ يُوقِنُ أَنَّهُ تَعَالَى يَرَاهُ أَيْنَمَا كَانَ وَيَعْلَمُ حَتَّى مَا كَنَّ فِى طَوَايَاهُ ، إِنَّ بَعِيدًا ثُمَّ بَعِيدًا أَنْ يَتَحَرَّكَ مَنْ هٰذَا حَالُهُ إِلَّا بِمَا يُرْضِى مَوْلَاهُ ، فَاعْرِفْ رَبَّكَ يَا هٰذَا كَمَا يَنْبَغِى لِتَصْدُرَ عَنْكَ أَفْعَالُكَ عَلَى وَفْقِ الصَّلَاحِ وَالسَّدَادِ .

(حديث) لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ . رَوَاهُ فِى شَرْحِ السُّنَّةِ .

١٤٢ – الدجل وكتبه وأهله

الحمدُ لله الذي قضى على الدَّجْلِ والدَّجَّالين بدينه الحق وأنبيائه الفخام، وأشهدُ أن لا إله إلا الله شهادة من راعاها عز بين الأنام، وأشهدُ أن سيدنا ومولانا محمداً عبدُه ورسولُه الذي به تحررت العقولُ من كلّ الأوهام، اللهمّ صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمدٍ وعلى آله وأصحابه الذين لم تتأثر بباطل عقولهم النيرات.

(أما بعدُ) فيا عبدَ الله: إنّ بيدِ الناسِ كُتباً وضعها المهرةُ من دجاجلةِ العباد، لا تكونُ في جهةٍ من جهاتِ الأرضِ إلا وتجدُها منتشرةً هناك انتشارَ الجراد، ليس في صفحةٍ من صفحاتها للناظرين فيها أيُّ فائدةٍ تُراد، وإنما الذي يجدُونه ما أتقنته يدُ الدجلِ من خُرافاتٍ وخُزعبلات. علِمَ أولئك الدجالون ما يحبُّه الناسُ ويميلون إليه الميلَ الشديد، فوضعُوا لكلّ محبوبٍ فوائدَ يزعمُون أنها توصلُ المرءَ إليه متى يريد، ينسبُون بعضها للعلماء وبعضها للرسلِ وبعضها لربّ العرشِ المجيد، وأنتَ تعلمُ أنّ الله تعالى إنما أنزلَ دينَه للعملِ به لا لدجلِ الدجالين والدجالات. فلنصرِ الإنسانِ وخذلانِ أعدائه فوائدُ في تلك الكتبِ لا يضبطُها إحصاء، وللرزقِ وسعتِه فوائدُ وللحبِّ والبغضِ فوائدُ تُعجبُ الجهلاء، ولتفريجِ الكروبِ فوائدُ وفوائدُ أخرى للوجاهةِ عندَ الملوكِ والعظماء، وهكذا لا تصبُو إلى

339

شىء إلا وتجد له من الفوائد عشرات ومئات . أقبل الناس على ذلك الدجل بعضهم يطبعه للتجارة و بعضهم يشتريه ، و بعضهم يحفظه كما يحفظ كتاب الله تعالى ليفوق مواطنيه بالبراعة فيه ، فإذا عرف بينهم بذلك أصبح كعبة القصاد لعارفيه ومن يتصل بعارفيه ، وانهمرت عليه سيول الذهب والفضة من جميع الجهات . شغل الناس بهذه الكتب الملعونة وأهلها عن كتب الإسلام وعلماء الإسلام ، وكل واحد منهم يريد أن يصل بدجلها إلى ما له من مهام ، وأنت لا يخفى عليك أن الكذب لا يوصل إلى خير فى يوم من الأيام ، وإنما يوصل إلى خيبة الأمل فى الدنيا وإلى الإهانة فى دار الحسرات . دعك من ذلك الدجل يا هذا وتعال أدلك على فائدة قالها مولاك العليم الحكيم ، ووعد من قام بها أن ينجو من شدائد الدارين وأن يكون فيهما من أهل النعيم ، تلك الفائدة هى أن تتقى الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى فى إخلاص العبد الكريم ، فهل تهتم بهذه الفائدة الإلهية كما يهتم أهل الخرافات بالخرافات .

(حديث) إنى لأعرف آية لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم : ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . رواه أحمد والنسائى وابن ماجه والحاكم وابن حبان والدارمى .

١٤٣ — النهى عن موبقات

الحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى لَمْ يَتْرُكْ لِأَحَدٍ عُذْراً فَبَيَّنَ مَا يُغْضِبُهُ وَمَا يُرْضِيه، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ الَّذِى يُنَعِّمُ بِالجَنَّةِ مَنْ يُطِيعُهُ وَيُعَذِّبُ بِالنَّارِ مَنْ يَعْصِيه، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى لَا يَخْشَى هَوَانًا مَنْ يَقْتَفِيه، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَعَلَى كُلِّ عَبْدٍ مِنَ المَعَاصِى فَرَّار.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللّٰهِ: لَا تَقُلْ وَلَا تَفْعَلْ مَا بِهِ تَكُونُ كَافِراً فَإِنَّكَ لَا تُطِيقُ العَذَابَ أَبَدَ الآبِدِين، وَلَا تَقْتُلْ مُؤْمِناً فَإِنَّ جَزَاءَ قَاتِلِهِ الخُلُودُ فِى عَظِيمِ العَذَابِ مَغْضُوباً عَلَيْهِ مَلْعُوناً مِنْ رَبِّ العَالَمِين، وَلَا تَعُقَّ وَالِدَيْكَ وَلَوْ بِقَوْلِ أُفٍّ فَإِنَّكَ بِالعُقُوقِ لَا تُفْلِحُ فِى دُنْيَا وَلَا فِى دِين، وَلَا تَزْنِ فَإِنَّ الزِّنَا عَارٌ وَخَرَابُ دَارٍ وَتَعَرُّضٌ لِأَخْطَارٍ وَعَاقِبَتُهُ عَذَابُ النَّار. وَلَا تَلُطْ بِذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَإِلَّا فَانْتَظِرْ أَنْ يَخْسِفَ اللّٰهُ بِكَ الأَرْضَ وَيُذِيقَكَ عَذَابَ الجَحِيم، وَلَا تَشْهَدْ زُوراً وَلَوْ لِنَفْسِكَ وَإِلَّا وَجَبَتْ لَكَ النَّارُ قَبْلَ أَنْ تَنْقُلَ قَدَمَيْكَ مِنْ مَوْقِفِكَ الذَّمِيم، وَلَا تَشْرَبْ خَمْراً فَإِنَّهَا أَصْلُ المَعَاصِى كُلِّهَا فَشَقَاءُ شَارِبِهَا عَظِيم، وَلَا تَقْرَبِ السِّحْرَ فَإِنَّهُ مِنَ الكَبَائِرِ الَّتِى تَجُرُّ صَاحِبَهَا إِلَى أَنْ يَكُونَ يَوْماً مِنَ الكُفَّار. وَلَا تَأْكُلْ مَالَ اليَتِيمِ ظُلْماً فَإِنَّهُ نَارٌ تَدْخُلُ البُطُونَ وَسَعِيرٌ تُحْرِقُ الأَجْسَام، وَلَا تَأْكُلْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ

فإنَّ النَّارَ أوْلَى بكُلِّ جسْمٍ نَبَتَ مِنْ حَرَام ، وَلا تَغُشَّ عِبادَ اللهِ فإنَّ الغِشَّ لا يَلِيقُ أنْ يَصْدُرَ مِنْ مُتَدَيِّنٍ بِالإسْلاَم ، وَلاَ تَتَعامَلْ بِالرِّبَا عَطَاءً أوْ أخْذاً وَإلاَّ فَاسْتَعِدَّ لِحَرْبٍ يُعْلِنُهَا عَلَيْكَ خَالِقُكَ القَهَّار . وَلاَ تَقْطَعْ رَحِمَكَ فَإنَّ قَاطِعَ الرَّحِمِ يَقْطَعُهُ اللهُ تَعالَى عَنْ كُلِّ إكْرَام ، وَلاَ تَتَكَبَّرْ عَلَى النَّاس فَإنَّ المُتَكَبِّرِينَ يَكُونُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أمْثَالَ الذَّرِ يَطَأُهُمُ النَّاسُ بِالأقْدَام ، وَلاَ تَعْمَلِ الصَّالِحَاتِ لِيَمْدَحكَ النَّاسُ فَإنَّكَ تَكُونُ مُرائِياً وَالمُرائِي فِى دَارِ الانْتِقَام ، وَلاَ تَكْذِبْ فِى رُؤْيَا مَنَامٍ وَإلاَّ كُلِّفْتَ أنْ تَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَأنْتَ فِى دَارِ الأشْرَار . وَلاَ تُصَوِّرْ حَيَوَاناً وَإلاَّ كُلِّفْتَ وَأنْتَ فِى النَّارِ أنْ تَخْلُقَ فِيهِ الحَيَاه ، وَلاَ تَلْبَسْ حَرِيراً خَالِصاً فَإنَّ مَنْ يَلْبَسُهُ لاَ خَلاَقَ لَهُ يَوْمَ يَلْقَى مَوْلاَه ، وَلاَ تَسْتَعْمِلِ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ حِلْيَةً أوْ آنِيَةً فَإنَّ بِذَلِكَ يَغْضَبُ الله ، وَلاَ تَحْلِفْ بِاللهِ تَعالَى كَاذِباً فَإنَّهُ يَمِينٌ غَمُوسٌ تَغْمِسُ صَاحِبَهَا فِى دَارِ الفُجَّار ، وَلاَ تَقْتَنِ كَلْباً لِغَيْرِ صَيْدٍ أوْ حِرَاسَةٍ وَإلاَّ نَقَصَ مِنْ أجْرِكَ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطَانِ عَظِيمَان ، وَلاَ تَكْذِبْ فَإنَّ الكَذِبَ يُسَوِّدُ الوُجُوهَ فِى الدُّنْيَا وَيُلْقِي الكَاذِبَ يَوْمَ القِيَامَةِ فِى النِّيرَان ، هٰذِهِ نَوَاهٍ إنْ أنْتَ خَالَفْتَنِي وَفَعَلْتَهَا عِشْتَ وَمُتَّ وَبُعِثْتَ فِى غَضَبِ الدَّيَّان ، وَإنْ سَمِعْتَ نَصِيحَتِي وَتَرَكْتَهَا فُزْتَ بِدَارِ كَرَامَتِهِ دَارِ الأبْرَار .

(حديث) عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّهُ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَهُمَا فِى الْجَنَّةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّهُ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَهُمَا فِى النَّارِ. رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالطَّبَرَانِيُّ وَاللَّفْظُ لَهُ.

١٤٤ — الحسد

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ عَبْدٍ رَضِيَ عَنْ رَبِّهِ فَلَمْ يُصَبْ بِدَاءِ الْحَسَدِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً لَا يَبْقَى مَعَ مُلَاحَظَتِهَا حَسَدٌ فِى جَسَدٍ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمَبْعُوثُ لِلْقَضَاءِ عَلَى الْغَوَايَةِ بِالرُّشْدِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الرَّاضِينَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِى كُلِّ الْحَالَاتِ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ رَذِيلَةَ الْحَسَدِ أَكْثَرُ مَا تَرَاهَا تَكُونُ بَيْنَ الْأَقَارِبِ وَالنُّظَرَاءِ، ذَلِكَ أَمْرٌ نَرَاهُ بِأَعْيُنِنَا لَا نَحْتَاجُ فِى إِثْبَاتِهِ لِبَرَاهِينِ الْحُكَمَاءِ، لَيْسَ ذَلِكَ فِى نَاحِيَةٍ دُونَ نَاحِيَةٍ بَلْ فِى جَمِيعِ الْأَنْحَاءِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ فِى طَبَقَةٍ دُونَ طَبَقَةٍ بَلْ فِى جَمِيعِ الطَّبَقَاتِ. فَتَرَى بَعْضَ النَّاسِ تَلْتَهِبُ فِى قَلْبِهِ نَارُ الْحَسَدِ لِنِعْمَةٍ يَرَاهَا عَلَى قَرِيبٍ أَوْ نَظِيرٍ، وَيَتَمَنَّى أَنْ تَزُولَ تِلْكَ النِّعْمَةُ وَيَحْرِصُ عَلَى زَوَالِهَا الْحِرْصَ الْكَبِيرَ، وَقَدْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ التَّمَنِّى قَلْبَهُ وَيَظْهَرُ عَلَى لِسَانِهِ بِلَا مُبَالَاةٍ بِأَىِّ نَكِيرٍ، وَفِى هَذِهِ الْحَالَةِ لَا تَرَى مِنْهُ فِى مَحْسُودِهِ إِلَّا هَدْمًا بِمَعَاوِلِ فَوَاحِشِ الْكَلِمَاتِ. وَقَدْ لَا يُسْعِفُهُ

الْكَلَامُ وَكُلُّهُ إِيذَاءٌ وَإِغْرَاءٌ عَلَى إِزَالَةِ نِعْمَةِ الْمَحْسُود ، فَيُمَهِّدُ السُّبُلَ لِإِزَالَتِهَا وَيُبَيِّتُ الْمَكَايِدَ وَسَاعِدُهُ لِتَنْفِيذِ ذَٰلِكَ مَمْدُود ، وَقَدْ يَسْتَعِينُ عَلَى ذَٰلِكَ بِإِخْوَانِهِ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بِكُلِّ مَا لَهُمْ مِنْ مَجْهُود ، وَقَدْ يَتَنَغَّصُ عَلَيْهِ أَكْلُهُ وَشُرْبُهُ وَنَوْمُهُ لِأَنَّ نِعْمَةَ مَحْسُودِهِ لَمْ تُزِلْهَا الْكَارِثَات . لَا تَكْتَرِثْ بِذَٰلِكَ أَيُّهَا الْمَحْسُودُ وَاعْلَمْ أَنَّ النِّعَمَ بِيَدِ اللهِ لَا بِيَدِ الْحَاسِدِين ، فَإِذَا شَاءَ بَقَاءَ نِعْمَتِكَ بَقِيَتْ وَلَوْ حَاوَلَ إِزَالَتَهَا جَمِيعُ أَهْلِ الْأَرْضِ مُجْتَمِعِين ، وَلَوْ كَانَتِ النِّعَمُ بِيَدِ مَنْ ضَعُفَ إِيمَانُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْحَسَدِ الظَّالِمِين ، مَا بَقِيَتْ لِلّٰهِ تَعَالَى نِعْمَةٌ عَلَى أَحَدٍ مَعَ أَنَّ نِعْمَهُ لَا تُحْصَى فِي الْكَائِنَات . دَعِ الْحَسُودَ فِي حَسَدِهِ وَتَوَكَّلْ عَلَى مَوْلَاكَ الَّذِي سَوَّاك ، وَلَا تَظُنَّ أَنَّهُ يَنَالُكَ بِسُوءٍ بَلْ يُنْزِلُ بِهِ السُّوءَ مَوْلَاك ، هُوَ وَاللهِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ جَمِيعًا أَضْعَفُ مِنْ أَنْ يُزَحْزِحُوا عَنْكَ مَا مَوْلَاكَ أَوْلَاك ، فَلَا تُتْعِبْ نَفْسَكَ بِالتَّفْكِيرِ فِيهِ وَفِي كُلِّ مَا لَهُ مِنْ حَرَكَات . وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تُسَلِّطَهُ عَلَى نَفْسِهِ يَفْعَلُ بِهَا مَا يَفْعَلُ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَاب ، فَأَهْمِلْهُ وَلَا تَلْتَفِتْ لَا لِأَقْوَالِهِ وَلَا لِأَفْعَالِهِ وَافْرِضْهُ كَلْبًا مِنَ الْكِلَاب ، أَمَّا إِذَا الْتَفَتَّ لَهُ وَنَاوَأْتَهُ فَقَدْ نَفَّسْتَ عَنْهُ وَأَرَحْتَهُ مِنْ نَارٍ فِي قَلْبِهِ فِي الْتِهَاب ، هٰكَذَا فَلْتَكُنْ مُعَامَلَتُكَ لِحَاسِدِكَ قَرِيبِكَ أَوْ نَظِيرِكَ لِيَذُوقَ مَا فِي حَسَدِهِ مِنْ مُؤْلِمَات .

(حديث) لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَتَحَاسَدُوا . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ .

(آخر) لاَ يَجْتَمِعُ فى جَوْفِ عَبْدٍ الْاِيمَانُ وَالْحَسَدُ . رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْبَيْهَقِىُّ .

١٤٥ — بركات العلم اليوم والذى ينبغى لنا إزاءها

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى أَكْرَمَنَا فى هٰذَا الْعَصْرِ إِكْرَامًا لَمْ يَرَهُ دَهْرٌ مِنَ الدُّهُورِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللّٰهُ الَّذِى كَشَفَ لَنَا مِنْ بَدَائِعِ صُنْعِهِ مَا جَعَلَنَا صَفْوَةَ الْعُصُورِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى أَشْرَقَتِ الدُّنْيَا بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ نُورٍ ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ مَنْ شَكَرَ مَوْلاَهُ عَلَى نِعَمِهِ السَّابِغَاتِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَاعِبَادَ اللّٰهِ : نَحْنُ فى عَصْرٍ بَارَكَ اللّٰهُ فِيهِ لَنَا فى عُلَمَاءِ الطَّبِيعَةِ الْأَجِلاَّءِ ، بَرَكَةً عَمَّتْ آثَارُهَا الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ وَكُلَّ مَا لِلْأَرْضِ مِنْ أَنْحَاءٍ ، وَجَّهَ تَعَالَى أَفْكَارَهُمْ إِلَى مَا أَوْدَعَ فى طَبِيعَةِ خَلْقِهِ مِنْ أَسْرَارٍ تَفُوتُ الْإِحْصَاءَ ، وَيَسَّرَ لَهُمُ السَّبِيلَ فَوَصَلُوا مِنْ ذٰلِكَ إِلَى مَا لَمْ تَعْهَدْهُ الْأَرْضُ وَالسَّمٰوَاتُ . أَصْبَحْنَا بِفَضْلِ مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ كَأَنَّنَا فى جَنَّةٍ لاَ نَصَبَ فِيهَا لِلْمُتَّقِينَ ، نُسَافِرُ بَرًّا أَوْ بَحْرًا فَنَقْطَعُ بِالْمَرَاكِبِ الْبُخَارِيَّةِ فى أَيَّامٍ مَا كَانَ يَحْتَاجُ لِسِنِينَ ، وَنَتَكَلَّمُ فى شُئُونِنَا مَعَ بَعْضِنَا (بِالتَّلِيفُونَاتِ) وَبَيْنَنَا مِنَ الْمَسَافَاتِ مَا يُدْهِشُ الْمُتَفَكِّرِينَ ، وَتَنْقُلُ تِلْكَ الْمَرَاكِبُ أَثْقَالَنَا بِقُوَّةٍ وَسُرْعَةٍ تَقِفُ أَمَامَهَا الْأَلْبَابُ

حائرات . بل لو أردنا أن نسابق الطير فى جوه فعلنا وسبقناه بالطيارات ، ولو شئنا أن نزاحم السمك فى جوف بحره كان ذلك وغلبناه بالغواصات ، ولو أردنا أن يكون الليل نهاراً فى بيوتنا حصل ذلك وأسلاك (الكهرباء) كفيلات ، ولو ابتغينا البحر فى أى طبقة من طبقات منازلنا رأيناه فى الحال مياهه السائغات . نعم جالت أفكار العلماء اليوم فى هذا العالم فعثرت على كثير مما له من أسرار ، وها أنت ذا لا تمشى شرقاً ولا غرباً إلا وترى من تلك الأسرار ما تحار فيه الأفكار ، فنحن اليوم نتقلب فى كل أحوالنا فى نعيم لم يحلم به عصر من الأعصار ، وإن شئت فقل إن حيوانات هذا العصر فى راحة لم يتمتع بها بنو العصور السالفات . إن حقاً علينا إزاء كل هذا أن نكون أسبق الأجيال فى ميدان الشكر لله ، ليبرهن كل منا على أنه يحس ويشعر بما اختصه به مولاه وحباه ، لكن ذلك لم يكن وها هو ذا جيلنا أعتى جيل رآه الوجود وأعصاه ، وبرهان ذلك ما تراه أنت بعينيك من موبقات أزعجت الكائنات . إن الجناية يا هذا تكبر ويعظم خطرها كلما عظمت النعم على أهل الجنايه ، إذن جنايتنا لا نهاية لبشاعتها لأن النعم علينا ليس لها نهايه ، إذن سيكون عقاب الله للمجرمين منا أشد

عِقَابٍ يُنْزِلُهُ بِأَهْلِ الْغَوَايَه ، فَمَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ فَلْيَتَمَادَ عَلَى عِصْيَانِهِ وَإِلَّا فَرَبُّنَا يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ .

(حديث) إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالطَّبَرَانِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ .

١٤٦ — بماذا يتباغض الناس

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْإِحْسَانَ إِلَى عِبَادِهِ مِنْ أَجَلِّ الْقُرُبَاتِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ الْإِسَاءَةَ إِلَى خَلْقِهِ مِنَ الْمُوبِقَاتِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي كَانَ يَتَحَرَّى مَا يَسُرُّ الْقُلُوبَ حَتَّى فِى الْمُخَاطَبَاتِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ خَيْرِ الْقُرُونِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللَّهِ : يَتَمَنَّى كُلُّ امْرِئٍ مِنَّا أَنْ يَعِيشَ فِى أَمْنٍ مِنْ ضَرَرِ الْعِبَادِ ، لِتَنْقَضِيَ حَيَاتُهُ فِى هَذِهِ الدَّارِ صَافِيَةً مِنَ الْأَكْدَارِ وَالْأَنْكَادِ ، مَنْ أَحَبَّ ذَلِكَ فَلْيَجْتَنِبْ كُلَّ عَمَلٍ يُثِيرُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُلُوبِ الْأَحْقَادَ ، فَإِنَّ الدَّوَاهِيَ كُلَّهَا عَنْ تِلْكَ الْأَحْقَادِ تَنْشَأُ وَتَكُونُ . وَإِنَّمَا يَحْقِدُ عَلَيْكَ النَّاسُ إِذَا تَعَرَّضْتَ لِدِمَائِهِمْ أَوْ أَعْرَاضِهِمْ أَوِ الْأَمْوَالِ ، إِذَا خَافُوكَ عَلَى ذَلِكَ سَاءَتْ إِقَامَتُكَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَمْ يُرِيقُوا دَمَكَ فِى الْحَالِ ، إِنَّمَا يَأْمَنُ بَلَايَا النَّاسِ مَنْ أَمِنَ النَّاسُ

بلاياه فى الحالِ وفى الاستقبال، مثلُ هذا يتقلب بينهم ليلهُ ونهارهُ فلا يضرّونهُ ولا فى هذا الضررِ يفكرون. كيف يأمنُ ضررَ الناسِ من يهدّدهم بالقتلِ فى كلّ زمانٍ ومكان، أو يسىءُ الظنّ بهم ويتجسّسُ عليهم ويكشفُ من عوراتهم بالصدقِ والبهتان، أو ينمُّ بينهم ليبدّلَ صفوهم كدراً وإخاءهم بنفورٍ وعدوان، أو يعادى من يحبّون ويصافى كلّ المصافاةِ من يكرهون. كيف يأمنُ بلايا الناسِ من يرونهُ يحومُ حولَ نسائهم والبنات، أو يسمعونهُ يتحدّثُ عنهنّ بما يخدشُ أعراضهنّ المصونات، وكيف يطمئنُّ بين الناسِ من يهدّدهم فى أرزاقهم بأنواعِ المهدّدات، يجتهدُ فى إعدامِ ما كانَ منها ويحولُ بينهم وبينَ ما سيكون. كيف يستريحُ بينَ الناسِ من إذا حرّكَ لسانهُ معهم حرّكهُ بأنواعِ الشتائمِ والسباب، أو من يتعالى عليهم ويحتقرهم ويترفّعُ عن مجاملتهم فى المكارهِ والمحابّ، أو من يغشّهم إذا عاملهم أو يخطبُ من ركنت إلى غيرهِ من الخطّاب، إنّ من يعاملُ الناسَ هكذا ويريدُ أن لا يعادوهُ فقد أرادَ منهم ما لا يستطيعون. إنّ فى طباعِ الناسِ يا هذا حبَّ من أحسنَ إليهم وبغضَ من أساءَ ولو أقربَ قريب، ومن الإساءةِ إلى الناسِ أن تعاملهم بشىءٍ مما سمعتهُ الآنَ من الخطيب، واعلم أنّ من يبغضهُ الناسُ يبغضهُ ربّهم ولو كانَ الحسيبَ النسيب، فمن يقوى على تحمّلِ

بُغْضِ اللهِ تعالَى وَعِبادِهِ فَلْيَتَمادَ عَلَى مُعامَلَتِهِمْ بِمَا لاَ يُحِبُّونَ .

(حديث) أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِكُمْ مِنْ شَرِّكُمْ: خَيْرُكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ ، وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ ، وَشَرُّكُمْ مَنْ لاَ يُرْجَى خَيْرُهُ ، وَلاَ يُؤْمَنُ شَرُّهُ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ .

١٤٧ — ماذا فعل المال بالناس اليوم . وما قيمته

الحَمْدُ لله الَّذِي جَعَلَ هذا المَالَ وَسِيلَةً مِنْ وَسائِلِ الآخِرَه ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ الَّذِي أَمَرَ بِالاحْتِرَاسِ مِنَ المَالِ لِأَنَّهُ مِنَ الفِتَنِ الفَاجِرَه ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا وَمَوْلاَنا مُحَمَّداً عَبْدُه وَرَسُولُهُ الَّذِي كَانَ هَمُّهُ آخِرَتَهُ لاَ دارُهُ الحَاضِرَه ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبارِكْ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُ فِي إِخْلاَصِ الكِرَام .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيا عِبَادَ الله : لَقَدْ كانَ سَلَفُنَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فِي مَحَبَّةِ بَعْضِهِمْ آيَةً مِنَ الآيات ، وَكانَ التَّراحُمُ بَيْنَهُمْ بالِغاً مَبْلَغاً يَعُدُّهُ الإِنْصافُ غَايَةَ الغَايَات ، لِذلِكَ كانُوا فِي مَحَبَّةِ الخَيْرِ لِبَعْضِهِمْ عَلَى أَرْقَى مَا يُتَصَوَّرُ مِنَ الدَّرَجَات ، وَهَلْ تَتَصَوَّرُ دَرَجَةً فَوْقَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ فِي أَشَدِّ الجُوعِ وَيُؤْثِرُ أَخاهُ بِمَا لَهُ مِنْ طَعَام . إِنَّ الخَجَلَ لَيَعْلُو وُجُوهَنا إِذا نَحْنُ قارَنَّا بِهؤُلاَءِ أَبْناءَ هذا الزَّمان ، وَهَلْ تَرْضَى العُقُولُ أَنْ تُقارِنَ بَيْنَ كِلاَبِ الدُّنْيا وَبَيْنَ عِبادٍ دُونَهُمْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمن ، نَحْنُ اليَوْمَ فِي حالَةٍ تَصَوُّرُ حَقِيقَتِها فَقَطْ يُثِيرُ فِي قُلُوبِ

المؤمنين الأحزان ، كيف لا ونحن إذا فتشنا ثم فتشنا لا نجد قلبين مع بعضهما معية الإخاء التام . يكون الجار في نهاية الفاقة فلا يلتفت أقل التفات جاره المثرى لما هو فيه ، وينزل بالأخ الشقيق ما ينزل من الكوارث ولا أثر لنزولها عند أخيه ، وتتوالى الفجائع على الأب النسبي وابنه يسمع ويرى ولا يعطف على أبيه ، وبين يدي الوالد يعاني ابنه من الآلام ما يعاني وما كأنه يرى تلك الآلام . لكل الناس اليوم شغل واحد هو المال شغلهم عما عداه ، ملأ القلوب حب هذا المال حتى لم يبق فيها متسع لسواه ، من أجله تستباح الأعراض الغالية ومن أجله تراق الدماء العزيزة ومن أجله يكون الصفاء والمعاداه ، هو القطب الوحيد الذي حوله تدور أفعال الناس في هذه الأيام . القلوب في سرور ما سلم المال وإن انهار بناء الشرف والدين ، والنفوس هادئة ما ابتعد عن المال فإذا مس هاجت هيجان البراكين ، والناس في تواصل ما لم يتعرضوا للمال فإذا تعرضوا انقطعت حتى صلة الوالدين والأقربين ، ولعلك سمعت أن الأولاد يتمنون موت الآباء للإرث فإذا طال أجلهم ذبحوهم ذبح الأغنام . لقد أنسى الناس حب هذا المال ما لهم من مروءة وشرف ودين ، وجعلهم كالكلاب يتقاتلون على الجيفة لينفرد كل بها وراءها لذوي الشمم ضرر مبين ، إن المال من خدم الدين يا هذا

فإذا تجاوز ذلك كان نكبة على الماليين ، فاعرف له هذه المنزلة وتذكر أن الدنيا زائلة وزائل كل ما بها من حطام .

(حديث) الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما ابتغي به وجه الله عز وجل . رواه الطبراني والضياء المقدسي .

١٤٨ – التشاؤم

الحمد لله الذي ما شاء كان ولو أبت جميع الكائنات ، وأشهد أن لا إله إلا الله الذي لا يغير ما قضى لصياح طير أو لرؤية مكروهات ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله الذي ما كان التشاؤم من أخلاقه الساميات ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وكل عبد صادق الإيمان بصير .

(أما بعد) فيا عبد الله : لا يزال بيننا معشر أهل الإسلام من يدين بالخرافات ، ومن يذكرنا بعهد الجاهلية وما كان به من سخافات ، وإن شئت فانظر أهل التشاؤم وما لهم من تصرفات ، لتعلم أن كثيراً بيننا كأنهم ما فارقوا عهد الجاهلية إلى عهد الإسلام المنير . يكون لأحدهم مهمة هو في أشد الحاجة إلى أن تنقضي في الحال ، فيتأهب لها كل التأهب ويعد لها عدة عقلاء الرجال ، ثم يشرع فيها منشرح الصدر مسروراً بهمة الهمام الواسع الآمال ، وبينما تراه كذلك تراه منثنياً عن تلك المهمة خائر القوى في انهزام

حقير . إنه بهذه الهزيمة يثير العجب عند كل ذي عقل سليم ، ويدهش كل ناظر إليه لأن الذي صدر منه تناقض فجائي عظيم ، ويترك المجال واسعا للشامتين لان الذي نزل به حادث أليم ، كما أنه بتلك الهزيمة المخزية يحزن كل ولي له ونصير . وهل تدري لماذا انثنى عن مهمته ورضي من الغنيمة بالإياب ، إني أخشى إن أخبرتك بذلك أن يغلبك الضحك ويستولي عليك الاستغراب ، ومع ذلك لا بأس أن تعلم أن الذي فعل به ذلك صوت بومة أو صوت غراب ، أو رؤية مكروه أو سماع اسمه أو كسر إناء وسوى هذا كثير . إن هذا وأمثاله هو الذي جعله ينثني عن مهمته منهزما ذلك الانهزام ، فاهما أنها لا تقضى مهما قضى في معالجتها الشهور والأعوام ، وأنا لا أدري أي ارتباط بين صوت طائر أو كسر إناء وبين فشل المهام ، ولعل جماعة المتشائمين يفهمون أن ذلك وحي بحيثية المسمى أوحاه العليم الخبير . إن عجبي لعظيم ممن يتشاءم وهو يؤمن أن الأمور كلها بيد مالك الملك لا بيد غراب ولا إناء ، والذي يجب أن يعلم أن كل متشائم إما ضعيف العقل أو ضعيف الإيمان بمولانا مقدر الأشياء ، وإني أوصيك إذا شرعت في أمر أن تمضي فيه بهمة شماء ، جازما أن نجاحه وعدم نجاحه سبق أزلا ومحال أن يكون تبديل ولا تغيير .

(حديث) لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ (١) ، وَلاَ مَنْ تُطُيِّرَ لَهُ ، أَوْ تَكَهَّنَ (٢) أَوْ تُكُهِّنَ (٣) لَهُ ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ ، وَمَنْ أَتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَالْبَزَّارُ وَاللَّفْظُ لَهُ .

(آخر) لَنْ يَلِجَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى مَنْ تَكَهَّنَ ، أَوْ اسْتَقْسَمَ (٤) أَوْ رَجَعَ مِنْ سَفَرٍ تَطَيُّراً . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ .

١٤٩ — شكر النعمة : لافتتاح مسجد

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَرَنَا أَنْ نُطَهِّرَ بَيْتَهُ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ

---

(١) أي تشاءم وكره ما يريد الشروع فيه من الهام ، ورجع عن ذلك بسبب من الأسباب فاهماً أنه لاينجح فيه لذلك السبب ، وأصله أن العرب كانوا يزجرون الطيور أو الوحوش ويهيجونها ، فاذا طار الطائر أو مر الوحش من ناحية اليمين إلى ناحية اليسار سموه بارحا وتشاءموا به ، وإذا عكس الأمر سموه سانحا وتيمنوا به — فالذى يهيج الطير ليحكمه فى أمره هو — من تطير — والذى يهيجه له غيره هو — من تطير له .

(٢) أخبر غيره بالغيب مدعيا أنه يعلمه .

(٣) أى أخبر من الكاهن بأمر غيبي — وأصل ذلك ما كان عليه الكهان قبل بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم فقد كانوا يزعمون أن لهم أتباعا من الجن يخبرونهم بالحوادث المستقبلة فأخبر صلى الله عليه وسلم أن من فعل ذلك أو طلب منه أن يفعل ذلك ليس على طريقة المسلمين ، بل هو لا يزال يتمسك بما كان عليه الجاهلية .

(٤) استقسم أى طلب القسم والحظ الذى قسم له فيما يريد الشروع فيه من الأعمال ، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا أراد أحدهم أمراً مهما كسفر أو تزوج رجع إلى الأزلام وهى قداح ثلاثة مكتوب على أحدها افعل ، وعلى الثانى لا تفعل ، والثالث لاشىء عليه فيمد يده إليها ويأخذ واحدا منها فإن خرج الذى عليه افعل مضى فى فعله ولا بد ، وإن خرج الذى عليه لا تفعل عدل نهائيا عن مهمته ، وإن خرج الذى لاشىء عليه أعاد الكرة حتى يقع بيده واحد من ذينك الاثنين كأن تلك القداح آلهة تأمره وتنهاه فلا يخالف لها أمراً ولا نهياً فأبطل كل ذلك الاسلام ونهى عنه لأنه لا يليق بالمؤمن الذى ينطوى على أنه لا يعلم الغيب إلا الله وأن الأمر كله بيده .

وَالرُّكَّعِ السُّجُود ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةَ عَبْدٍ تَحْتَ التُّرَاب وَثَوَابُهُ لِآثَارِهِ الخَالِدَةِ مُتَجَدِّدٌ مَمْدُود ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي عَلَّمَنَا كَيْفَ نَشْكُرُ نِعَمَ مَوْلَانَا الوَدُود ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ شَاكِرٍ مَا عَلَيْهِ لِرَبِّهِ مِنْ إِنْعَام .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا مِنَ النِّعَمِ مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يُحْصِيَهُ حِسَابُ الحَاسِبِين ، كَيْفَ لَا وَمِنْ أَجْلِنَا خَلَقَ تَعَالَى كُلَّ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَكُلَّ مَا فِي الأَرَضِين ، وَمَا مِنْ نِعْمَةٍ مِنْ كُلِّ تِلْكَ النِّعَمِ إِلَّا وَشُكْرُهَا مُتَّجِهٌ عَلَيْنَا أَجْمَعِين ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرْ نِعْمَةً فَقَدْ عَرَّضَهَا لِلزَّوَالِ وَبَرْهَنَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرِيقِ الكِرَام . فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ شُكْرَ النِّعْمَةِ أَمَانٌ مِنْ زَوَالِهَا وَمُوجِبٌ لِلْمَزِيد ، وَأَخْبَرَ أَنَّ كُفْرَ النِّعَمِ سَبَبٌ لِغَضَبِهِ تَعَالَى وَعَذَابِهِ الأَلِيمِ المَدِيد ، الأَمْرُ هٰكَذَا وَنَحْنُ مَغْمُورُونَ فِي نِعَمِهِ تَعَالَى وَكَأَنَّ شُكْرَهَا عَلَيْنَا حَرَام . وَلَيْسَ شُكْرُ النِّعْمَةِ إِلَّا أَنْ تَسْتَعْمِلَهَا فِيمَا خَلَقَهَا لَهُ اللهُ ، وَلَيْسَ كُفْرُ النِّعْمَةِ إِلَّا أَنْ تَسْتَعْمِلَهَا فِيمَا لَا يُحِبُّهُ رَبُّنَا وَيَرْضَاه ، فَاللِّسَانُ نِعْمَةٌ شُكْرُهَا أَنْ تَنْطِقَ بِخَيْرٍ وَكُفْرُهَا أَنْ تَنْطِقَ بِالشَّرِّ

وَلاَ تأْباه ، وهكذا كُلُّ نِعْمَةٍ فِي الأَجْسام أوْ خارِجَةٍ عنِ الأجْسام . وَإِنَّ مِنَ النعَمِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ نَشْكُرَها نعمة المال ، تِلْكَ النِّعْمَةُ الَّتِي أَصْبَحَ شاكِرُها كأَنَّهُ مَعْدُومٌ فِي هذِهِ الأَجْيال ، وإِنما نَتَفاخَرُ بِها فِي مطاعِمِنا ومشارِبِنا وملابِسِنا ومساكِنِنا وفِي كُلِّ الأَحْوال ، فَكَأَنَّ اللهَ تعالى أَنْعَمَ علينا بِنِعْمَةِ المالِ وأَوْجَبَ علينا شُكْرَها بِكُلِّ أنْواعِ الآثام . وَإِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَنْواعِ شُكْرِ المالِ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فى أُمُورٍ خالِدَةٍ تَنْفَعُ المُسْلمِين ، وَمِنْ أَفْضَلِ تِلْكَ الأُمُورِ الخالِدَةِ أَنْ تُرْفَعَ بِهِ المَساجِدُ وَتُهَيَّأَ لِأَصْنافِ المُتَعَبِّدِين ، فَإِنَّ اللهَ تعالى شَهِدَ لِفاعِلِي ذلِكَ بِالإِيمانِ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَبِأَنَّهُمْ مِنَ المُهْتَدِين ، وَوَعَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنْ بَنَى مَسْجِداً لِلهِ أَنْ يَبْنِيَ اللهُ لَهُ قَصْراً فى دارِ السَّلام . مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كانَ سَلَفُنا الصَّالِحُ يَتَسابَقُونَ فى بِناءِ المَساجِدِ تَسابُقَ الفُرْسان ، لِهٰذا إِنْ شَرَّقْتَ أَوْ غَرَّبْتَ رَأَيْتَ آثارَ المَساجِدِ لاَ تُحْصَى فى سائِرِ البُلْدان ، طالَ عَهْدُها فَتَهَدَّمَتْ فَتَرَكْناها مَهْجُورَةً وَحَسْبُنا أَنْ نُبَعْثِرَ المالَ فى سَبِيلِ الشَّيْطان ، تابَ اللهُ علينا مِنْ ذلِكَ وَوَفَّقَنا لِشُكْرِ نِعَمِهِ الَّتِي لاَ يَسْتَطِيعُ حَصْرَها أَلْسِنَةٌ وَلاَ أَقْلام .

(حديث) إِذا أَرادَ اللهُ بِقَوْمٍ خَيْراً أَمَدَّ لَهُمْ فى العُمُرِ ، وَأَلْهَمَهُمُ الشُّكْرَ . رَواهُ الدَّيْلَمِيُّ فى مُسْنَدِ الفِرْدَوْس .

(آخر) مَنْ بَنَى لِلّٰهِ مَسْجِداً وَلَوْ كَمَفْحَصِ (١) قَطَاةٍ لِبَيْضِهَا بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتاً فِى الْجَنَّةِ . رَوَاهُ أَحْمَدُ .

١٥٠ – الفــلاح

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى جَعَلَ مِنَ الْفَرَائِضِ الرِّضَى بِمَا آتَاه ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةَ مَنْ تَحَقَّقَ بِهَا رَضِيَ عَنْ مَوْلَاه ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَمُصْطَفَاه ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْفُضَلَاءِ الْفِخَام .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : الْفَلَّاحُ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الدَّوْلَةِ الَّتِى تُنْفِقُ مِنْهَا فِى جَمِيعِ الشُّئُون ، وَهُوَ غَوْثُهَا الْهُمَامُ إِذَا اشْتَدَّتِ الْكُرُوبُ وَتَلَفَّتَتْ عَلَى الْغَوْثِ الْعُيُون ، وَهُوَ خَادِمُهَا الْأَمِينُ فِى قَضَاءِ مَصَالِحِهَا إِذَا خَانَهَا الْخَائِنُون ، وَهُوَ عِمَادُهَا الَّذِى تَرْتَكِزُ عَلَيْهِ وَهُوَ الْقِوَام . وَهُوَ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى أَحَلُّ النَّاسِ قُوتاً لِأَنَّهُ يَكْتَسِبُهُ بِعَرَقِ الْجَبِين ، وَهُوَ أَتْعَبُ النَّاسِ بَدَناً فِى تَحْصِيلِ رِزْقِهِ فَهُوَ مِنْ أَوَائِلِ الصَّابِرِين ، وَهُوَ فِى الْغَالِبِ لَا يَزِيدُ كَسْبُهُ عَنْ قُوتِهِ فَهُوَ مِنْ فَرِيقِ الْمُتَوَكِّلِين ، هٰذَا مَقَامُ الْفَلَّاحِ الَّذِى تَنْقَضِى فِيهِ حَيَاتُهُ وَهُوَ نِعْمَ الْمَقَام . لٰكِنَّهُ الْيَوْمَ — وَا أَسَفَاهُ — غَلَبَ عَلَيْهِ الْجَهْلُ وَالطَّمَعُ وَالْحَسَدُ وَهِىَ صِفَاتٌ مُهْلِكَات ،

---

(١) مفحص القطاة مأواها الذى تتخذه لتبيض فيه كالعش لسواها ، والحديث يحرض على بناء المساجد أشد التحريض فإنه إذا كان يعد من يبنى مسجدا بالغ النهاية فى الصغر بيت فى الجنة فما بالك بجزاء من يبنى مسجدا كبيرا يسع الآلاف من الناس .

فبالجهل أصبح لا يخاف الله تعالى وإنما يخاف القانون وما له من بطشات، ولذلك في غفلة القانون يسرق وينتقم فيسم البهائم ويشق بطونها ويتلف المزروعات، ولو علم أن الله يتلف من أتلف أموال الناس ولا يرحم من لا يرحم الحيوان ما سرق ولا انتقم هذا الانتقام. وأما الطمع فجعله لا يفرق في كسبه بين ما حرمه وحلله الديان، ولذلك تراه يغش في جميع معاملاته ما دام الغش في الإمكان، وتراه ينقل الحدود فيغير معالم الأرض فيكون مصب لعنات الرحمن، وتراه لا يتهيب أن يسطو على زرع غيره وكأن زرعه عليه حرام، وتراه يناوئ أخاه في كل تصرفاته مناوأة العدو الجبار، فإذا باع أخوه أو أجر عرض هو أرخص من بيعه والإيجار، وإذا اشترى أخوه أو استأجر زاد هو عليه في شرائه والاستئجار، وكم يترتب على ذلك من البلايا ما يحزن القلوب ويطيش الأحلام. وأما الحسد فجعله كأنه لا شغل له إلا مراقبة أحوال الإخوان، فإن رأى عندهم خيرا نزل به من الغم والأسى ما تنهد منه الأبدان، وإن رأى شرا كاد يطير فرحا بمصيبة أخيه الإنسان، ولو استطاع أن لا يبقى لله نعمة على غيره فعل بكل إقدام. هذه حالة الفلاح يعرفها منه كل من عاشره وآخاه، وهي حالة لا يفلح معها امرؤ لا في دنياه ولا في أخراه، لكننا لا ننكر أن بين الفلاحين من

يتنزه عن كل ذلك ويخشى مولاه، فمن هذا الطراز فكن يا هذا تكن من رجال دار السلام.

(حديث) ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده. رواه البخاري.

(آخر) من أمسى كالا[1] من عمل يده أمسى مغفورا له. رواه الطبراني والأصبهاني.

(آخر) من كانت الدنيا أكبر همه فرق الله شمله وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له. رواه الطبراني.

١٥١ — الناس والمال اليوم

الحمد لله الذي أباح لنا كسب المال إذا كان بطرق مباحات، وأشهد أن لا إله إلا الله الذي هدد بالنار من يجمع المال بوسائل محرمات، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله الذي علمنا كيف نتورع عن المكاسب الخبيثات، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ذوي الهمم العوال.

(أما بعد) فيا عبد الله: لقد عظم المال في هذا العصر عظما لا يدانيه فيه عظيم، عظما به غدا مطمح أنظار الخلق في كل واد

(١) أي تعبا قد أعياه العمل

وإقليم ، عظماً من أجله ترتكب الدواهي حتى قتل المؤمن الكريم ، ولهذا تجد أنحاء الدنيا تشتعل فيها نيران الفتن من أجل هذا المال . من هذا أصبحنا ولا عظيم عندنا إلا من عنده من هذا المال الشيء الكثير ، وكلما كثر عنده هذا المال كلما ازداد عظمة عند الصغير منا والكبير ، ومن قل ماله قلت قيمته ومن لا مال عنده هو الرجل الحقير ، فالميزان الصادق للعظم والحقارة في هذا الزمان هو هذا المال القتال . نسي الناس دينهم في سبيل هذا المال ونسوا رب الدين ، ونسوا يوماً يجعل الولدان شيباً ويذهل المراضع عن الراضعين ، وبهذا فقدوا رشدهم وفقدوا كرامتهم وأصبحوا لا فرق بينهم وبين المجانين ، كيف لا وقد اختاروا حطاماً فانياً على جنة عرضها السموات والأرض لا يطرأ عليها زوال . هكذا الناس اليوم مع المال ولهذا يعيرون الفقير بالفقر ويزدرونه كل الازدراء ، بل ويعيره بذلك زوجته وأبواه وإخوته ولا تستبعد أن يعيره بذلك الأبناء ، بل هو ينظر إلى نفسه بعين الاحتقار إذا كان أقل مالاً من عارفيه والأصدقاء ، وكل هذا يغريه على أن يبذل كل وسعه في جمع المال ليلحق أغنياء الرجال . ومن هذا حاله يكون كل همه في جمع المال ليدفع عن نفسه عار الفقر بين الإخوان ، وحينئذ كل طريق يبدو له يوصل إلى المال يسلكه غير هياب ولا جبان ، فلو لمح

طَرِيقَ مَالٍ سَارَعَ إِلَيْهِ وَلَوْ رَأَى فِيهِ الْمَوْتَ رُؤْيَةَ عِيَانٍ ، وَالَّذِي بِهٰذِهِ الدَّرَجَةِ فِي الْحِرْصِ عَلَى جَمْعِ الْمَالِ لَا يُفَرِّقُ فِي كَسْبِهِ بَيْنَ حَرَامٍ وَحَلَالٍ . فَإِذَا لَاحَ لَهُ الْمَالُ مِنْ طَرِيقِ الْغِشِّ أَوِ السَّرِقَةِ أَوِ النَّصْبِ وَالِاحْتِيَالِ أَخَذَهُ بِلَا مُبَالَاةٍ ، وَلَوْ حَالَ وَلِيٌّ لِلّٰهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هٰذَا الْمَالِ نَحَّاهُ وَلَوْ بِالْقَتْلِ وَوَصَلَ إِلَى مُبْتَغَاهُ ، وَلَا تَنْدَهِشْ إِذَا قُلْتُ لَكَ إِنَّهُ يَقْتَحِمُ مُوبِقَةَ الْكُفْرِ إِذَا جَاءَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى هٰذَا الْمَالِ الَّذِي يَهْوَاهُ ، وَرَجُلٌ هٰذَا حَالُهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَيْسَ فِي هٰذَا جِدَالٌ . هٰذَا مَا عَلَيْهِ النَّاسُ الْيَوْمَ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ، وَهُوَ كَمَا تَرَى حَالٌ لَا يُرْضِي اللّٰهَ وَلَا رَسُولَهُ وَلَا يَرْضَاهُ ذُو دِينٍ ، وَلَوْ كَانَ هٰذَا التَّنَافُسُ عَلَى صَالِحَاتِ الْأَعْمَالِ لَبَرْهَنُوا عَلَى صِدْقِ إِيمَانِهِمْ وَكَانُوا رَشِيدِينَ ، وَلٰكِنْ مَاذَا نَقُولُ لَهُمْ وَقَدِ اتَّخَذُوا الْمَالَ إِلٰهَهُمْ وَنَسُوا اللّٰهَ وَمَا لَهُ مِنْ ثَوَابٍ وَنَكَالٍ .

(حديث) يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَسْلَمُ لِذِي دِينٍ دِينُهُ إِلَّا مَنْ هَرَبَ بِدِينِهِ مِنْ شَاهِقٍ إِلَى شَاهِقٍ ، وَمِنْ جُحْرٍ إِلَى جُحْرٍ فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ لَمْ تُنَلِ الْمَعِيشَةُ إِلَّا بِسُخْطِ اللّٰهِ ، فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ كَانَ هَلَاكُ الرَّجُلِ عَلَى يَدَيْ زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ وَوَلَدٌ كَانَ هَلَاكُهُ عَلَى يَدَيْ أَبَوَيْهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبَوَانِ كَانَ هَلَاكُهُ عَلَى يَدِ قَرَابَتِهِ أَوِ الْجِيرَانِ ، قَالُوا كَيْفَ ذٰلِكَ يَا رَسُولَ اللّٰهِ ؟ قَالَ يُعَيِّرُونَهُ

بِضِيقِ المَعِيشَةِ فَعِنْدَ ذَلِكَ يُورِدُ نَفْسَهُ المَوَارِدَ الَّتِي يُهْلِكُ فِيهَا نَفْسَهُ .
رَوَاهُ البَيْهَقِيُّ .

١٥٢ — هل الدنيا رمز للآخرة

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَرَنَا بِالاعْتِبَارِ لِأَنَّ الخَيْرَ كُلَّهُ فِي هَذَا الاعْتِبَارِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةً تَنْفَتِحُ بِهَا البَصَائِرُ وَالأَبْصَارُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الدُّرَّةُ اليَتِيمَةُ فِي عِقْدِ الأَخْيَارِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ مُهَاجِرِينَ أَوْ أَنْصَارٍ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : إِنَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى هَذِهِ الحَيَاةِ وَإِلَى الحَيَاةِ الثَّانِيَةِ نَظْرَةَ تَدَبُّرٍ وَاعْتِبَارٍ ، يَتَبَيَّنُ لَهُ بِلَا أَيِّ تَرَدُّدٍ أَنَّ هَذِهِ الدَّارَ رَمْزٌ وَاضِحٌ لِتِلْكَ الدَّارِ ، وَمَنْ فَهِمَ هَذَا كَانَ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى الآخِرَةِ بِعَيْنِ الإِبْصَارِ ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ طَارَ شَوْقاً إِلَى دَارِ الفَلَاحِ وَوَلَّى مَذْعُوراً مِنْ دَارِ البَوَارِ . تَرَى الرَّجُلَ هُنَا إِذَا كَانَ مُسْتَقِيماً لَا تُزْعِجُهُ المُزْعِجَاتُ أَيْنَمَا كَانَ ، يَنَامُ وَيَسْتَيْقِظُ وَيَرُوحُ وَيَغْدُو بِلَا اعْتِرَاضٍ عَلَيْهِ مِنْ أَيِّ إِنْسَانٍ ، وَذَلِكَ بِعَيْنِهِ حَالُ المُسْتَقِيمِ فِي الآخِرَةِ لَا يَحْزُنُهُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ الَّذِي يُشِيبُ الوِلْدَانَ ، يَتَمَتَّعُ فِي دَارِ الكَرَامَةِ بِمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ وَلَذَّتْ عَيْنُهُ دُونَ حَجْرٍ وَلَا إِعْسَارٍ . وَتَرَى الرَّجُلَ

361

هُنا إذا كانَ مُعْوَجًّا يَكُونُ لِاعْوِجاجِهِ كُلَّ ساعَةٍ فى أَهْوالٍ ، ساعَةً يُتَّهَمُ وَساعَةً يُقْبَضُ عَلَيْهِ وَساعَةً يُحاكَمُ إمّا بِالسِّجْنِ وَإمّا بِإعْدامِهِ فِى الحالِ ، كَذٰلِكَ المُعْوَجُّ يُلاقِى فى قَبْرِهِ وَعِنْدَ بَعْثِهِ وَفى مَوْقِفِهِ مِنَ المُزْعِجاتِ ما يُعِيدُ الجِبالَ ، ثُمَّ مآلُهُ النّارُ أَبَدًا إنْ كانَ كافِرًا وَإنْ كانَ مُؤْمِنًا فَبِقَدْرِ ما لَهُ مِنْ أَوْزارٍ . وَنَرَى الرَّجُلَ هُنا يَكُونُ مُخْلِصًا لِوَلِيِّ الأَمْرِ فَيَكُونُ بِهٰذا الإخْلاصِ فى خَيْرٍ كَثِيرٍ ، فَإذا تَعَرَّضَ لَهُ بِما لا يُناسِبُ وَلَوْ بِشَىْءٍ صَغِيرٍ كانَ فِى خَطَرٍ خَطِيرٍ ، كَذٰلِكَ مَنْ أَخْلَصَ لِوَلِيِّ الأَمْرِ كُلِّهِ سُبْحانَهُ وَتَعالَى لا يَعْلَمُ أَحَدٌ ما لَهُ مِنْ خَيْرٍ وَفِيرٍ ، وَهَيِّنُ سُوءِ الأَدَبِ ما كانَ فِى حَقِّ غَيْرِهِ فَإذا تَعَلَّقَ بِذاتِهِ المُقَدَّسَةِ كانَ فاعِلُهُ مِنَ الـكُفّارِ . هٰذِهِ أَمْثِلَةٌ سَهْلٌ أَنْ يَفْهَمَ العاقِلُ مِنْها كَيْفَ أَنَّ الدُّنْيا رَمْزٌ لِحَياةِ الجَزاءِ ، فَإذا أَطالَ التَّفَكُّرَ فِى هٰذا المَعْنَى أَطَلَّ عَلَى الآخِرَةِ مِنْ نَوافِذِ هٰذِهِ الرُّمُوزِ وَشاهَدَ مِنْها ما شاءَ ، وَمَنْ شاهَدَ آخِرَتَهُ فِى دُنْياهُ فَلْيُبَشِّرْ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ مِنَ السُّعَداءِ ، فَلْنَفْعَلْ ذٰلِكَ مُوَفَّقِينَ واصِلِينَ إنْ شاءَ اللهُ إلَى نَتِيجَةِ هٰذا الاعْتِبارِ .

(حديث) نَزَلَ القُرْآنُ عَلَى خَمْسَةِ أَوْجُهٍ حَلالٍ وَحَرامٍ ، وَمُحْكَمٍ وَمُتَشابِهٍ وَأَمْثالٍ . فَاعْمَلُوا الحَلالَ ، وَاجْتَنِبُوا الحَرامَ ، وَاتَّبِعُوا المُحْكَمَ (١) وَآمِنُوا بِالمُتَشابِهِ ، وَاعْتَبِرُوا بِالأَمْثالِ . رَواهُ البَيْهَقِىُّ .

(١) المحكم ما فهم معناه ، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه .

١٥٣ — التحريض على تعهد الزراعة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى مَكَّنَ لَنَا فِى أَرْضِهِ نَعْمُرُهَا وَنَسْتَثْمِرُهَا كَمَا نُحِبُّ وَنَشَاء ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِى أَمَرَنَا أَنْ نَسْعَى لِيُفِيضَ عَلَيْنَا بِمَالِهِ مِنْ آلَاء ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى حَرَّضَ عَلَى السَّعْيِ وَنَفَّرَ مِنْ خُمُولِ الْكُسَلَاء ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِى الْهِمَمِ الْعَلِيَّات .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللَّهِ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون ، فَوَظِيفَتُنَا الَّتِى مِنْ أَجْلِهَا خُلِقْنَا هِيَ الْعِبَادَةُ كَمَا تَسْمَعُون ، وَهِيَ وَظِيفَةٌ لَا تُسَامَى وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَصِلَ إِلَى مِثْلِهَا الطَّمَّاحُون ، كَيْفَ لَا وَسَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ نَتِيجَةٌ وَتِلْكَ الْعِبَادَةُ مُقَدِّمَاتُهَا الْقَطْعِيَّات . وَلَيْسَ بِخَافٍ عَلَيْكُمْ أَنَّ تِلْكَ الْعِبَادَةَ تَتَوَقَّفُ عَلَى قُوَّةٍ فِي الْبَدَنِ وَصَفَاءٍ فِي الْبَال ، وَتِلْكَ الْقُوَّةُ وَهَذَا الصَّفَاءُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَا وَالْبُطُونُ جَائِعَةٌ وَالْقُلُوبُ فِي بَلْبَال ، إِذَنْ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ إِنَّ الْعِبَادَةَ تَتَوَقَّفُ عَلَى أَنْ يَكُونَ عِنْدَ الْمَرْءِ مَا يَكْفِيهِ مِنْ مَال ، وَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ تَعَالَى مَنْ يُهَدِّدُهُ الْجُوعُ وَالْعُرْيُ دَائِمًا بِالْمَمَات . وَكُلُّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْمَالَ لَا يَأْتِي وَحْدَهُ وَإِنَّمَا يَأْتِي بِأَسْبَاب ، فَإِنَّ السَّمَاء لَا تُمْطِرُ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً كَمَا قَالَ ذَلِكَ لِلْكُسَالَى خَلِيفَتُنَا الثَّانِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب ، وَأَسْبَابُ تَحْصِيلِ الْمَالِ التِّجَارَةُ

363

وَالصِّنَاعَةُ وَالزِّرَاعَةُ حِرْفَةُ أُولِي الْأَلْبَاب ، وَلَيْسَ قُطْرُنَا هٰذَا بِقُطْرِ صِنَاعَةٍ وَلاَ تِجَارَةٍ وَلٰكِنْ هُوَ كَشُهْرَتِهِ قُطْرُ الزِّرَاعَات . وَإِذَا كَانَتِ الزِّرَاعَةُ سَبَبَ حَيَاتِنَا وَلَوْلاَهَا لَأَصْبَحْنَا عُرْضَةً لِلْفَنَاء ، وَإِذَا كَانَتْ سَعَادَتُنَا فِي حَيَاتِنَا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا وَلَوْلاَهَا لَكُنَّا مِنَ الْأَشْقِيَاء ، فَوَاجِبٌ إِذَنْ أَنْ نَبْذُلَ جُهْدَنَا فِي تَعَهُّدِهَا حِفْظًا لِحَيَاتِنَا وَقِيَامًا بِمَا تَقْتَضِيهِ طَاعَةُ أَرْحَمِ الرُّحَمَاء ، وَحَرَامٌ أَنْ نُفَرِّطَ فِي خِدْمَتِهَا إِلَى حَدِّ أَنْ تَكُونَ مُلاَذَ الآفَاتِ وَمَا لَهَا مِنْ فَتَكَات . وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ شَأْنَ الزِّرَاعَةِ عِنْدَنَا فَمَا لَنَا مَعَهَا بِهٰذَا الْكَسَل ، تَقْتُلُهَا قِلَّةُ الْمَاءِ أَوْ كَثْرَتُهُ فَلاَ نَتَحَرَّكُ حَرَكَةً نَأْمَنُ بِهَا أَنْ يَحْصُلَ ثَانِيًا هٰذَا الزَّلَلْ ، وَتَخْنُقُهَا الْحَشَائِشُ الْمُزَاحِمَةُ لَهَا دُونَ أَنْ نَعْمَلَ لِحَيَاتِهَا أَيَّ عَمَل ، وَتَحْصُدُهَا الْحَشَرَاتُ حَصْدًا وَنَحْنُ أَمَامَهَا مَكْتُوفُو الْأَيْدِي كَأَنَّ تِلْكَ الْحَشَرَاتِ حَيَّات . الْتَفِتُوا أَيُّهَا النَّاسُ لِزِرَاعَاتِكُمْ فَإِنَّهَا حَيَاتُكُمْ وَلَوْلاَهَا لاَ يَكُونُ لَكُمْ دِين ، وَخُصُّوا بِمَزِيدِ الْعِنَايَةِ زِرَاعَتَكُمُ الَّتِي تَتَوَقَّعُونَ رَوَاجَهَا بِارْتِفَاعِ ثَمَنِهَا وَكَثْرَةِ الطَّالِبِين ، وَأَلْقُوا رِدَاءَ الْكَسَلِ عَنْ كَوَاهِلِكُمْ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ الذُّلُّ وَالْفَقْرُ الْمُبِين ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأُمَمَ إِنَّمَا تَتَفَاوَتُ قُوَّةً وَضَعْفًا بِنِسْبَةِ مَا لَهَا مِنَ الْأَمْوَالِ الْوَافِرَات .

(حديث) إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ . رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي جَامِعِهِ .

١٥٤ — زيارة القبور

الحمد لله الذي خلق الموت ليكون طريقاً لنا من هذه الدار إلى تلك الدار ، وأشهد أن لا إله إلا الله الذي دعانا إلى زيارة القبور لينتفع بها ذوو الاعتبار ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله الذي لولاه ما سعد منا في الدارين ديار ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه خير بني آدم بعد النبيين .

(أما بعد) فيا عبد الله : زر القبور فإن وراء زيارتها من الفوائد ما يسر قلوب المؤمنين ، توقظ قلبك من غفلته وحسبك هذا فإن اليقظة آية المفلحين ، وتدر دمعك والبكاء من خشية الله تعالى يبعدك عن عذاب المجرمين ، وتزهدك في الدنيا والزهد معروف أنه من أخلاق أهل البصائر العارفين . زار القبور نبيك وكانت هذه الزيارة من عاداته المباركات ، وأمر بها أصحابه وعلمهم إذا زاروها أن يسلموا على من بها من المؤمنين والمؤمنات ، وعلمهم كذلك أن يدعوا لهم بالعافية وبمغفرة ما كان منهم من سيئات ، وعلمهم كذلك أن يدعوا لأنفسهم ويكون ذلك منهم قائمين لا قاعدين . هذا الدعاء منك لهم يفيدهم وينفعهم ويفرحون به الفرح العظيم ، وكذلك تنفعهم صدقاتك إذا وهبت ثوابها لهم بقلب سليم ، وكذلك تنفعهم قراءة القرآن إذا كانت لا للدنيا بل لوجه

اللهِ الكَرِيمِ ، وَهُمْ إِذَا رَأَوْكَ أَقْبَلُوا عَلَيْكَ وَرَدُّوا عَلَيْكَ السَّلَامَ فَرِحِينَ بِقُدُومِكَ عَلَيْهِمْ مُسْتَبْشِرِينَ . هٰذِهِ فَوَائِدُ الزِّيَارَةِ لٰكِنْ حَدَثَ الْيَوْمَ مَا جَعَلَهَا أَمْرًا يَسْتَنْكِرُهُ الرَّجُلُ الْوَقُورُ ، يَعْرِفُ ذٰلِكَ مَنْ يَرَاهُمْ أَيَّامَ مَوَاسِمِ الزِّيَارَةِ وَكَأَنَّهُمْ لِكَثْرَتِهِمْ خَرَجُوا مِنَ الْمَقَابِرِ لِلنُّشُورِ ، وَفِى الطُّرُقِ وَعَلَى الْمَقَابِرِ يَكُونُ مِنْ تَحَكُّكِ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ مَا يَتَفَتَّتُ لَهُ قَلْبُ الْغَيُورِ ، مِمَّا يُفْهِمُ النَّاظِرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَخْرُجُوا لِتِلْكَ الزِّيَارَةِ إِلَّا لِأَغْرَاضِ الْفَجَرَةِ الْفَاسِقِينَ . وَفِى الْعَوَاصِمِ وَأَشْبَاهِهَا مِنَ الْبِلَادِ يَتَكَلَّفُونَ شِرَاءَ مَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ صَدَقَاتٌ ، يَتَسَابَقُونَ إِلَى شِرَائِهِ وَيَتَفَاخَرُونَ بِكَثْرَتِهِ وَجَوْدَتِهِ لِيَكُونُوا فَوْقَ غَيْرِهِمْ بِدَرَجَاتٍ ، وَفِى سَبِيلِهِ كَمْ يَبِيعُ وَيَرْهَنُ الْفُقَرَاءُ مِنْ أَمْتِعَتِهِمْ لِئَلَّا تَتَوَجَّهَ عَلَيْهِمْ مَلَامَاتٌ ، وَكَثِيرًا مَا يَعْجِزُ الرِّجَالُ عَنْ شِرَائِهِ فَتَثُورُ النِّسَاءُ وَيَكُونُ الطَّلَاقُ الْحَكَمَ بَيْنَ الْكَثِيرِينَ . هٰذِهِ عَادَاتٌ لَا يَعْرِفُهَا الْإِسْلَامُ بَلْ لَا يَتَرَدَّدُ فِى الْحُكْمِ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا مِنَ الْمَحْظُورَاتِ ، وَكَيْفَ لَا يَحْظُرُ دِينُ الْكَمَالِ بَيْعَ الْأَمْتِعَةِ لِمُجَرَّدِ تَفَاخُرِ الْجَارَاتِ عَلَى الْجَارَاتِ ، وَكَيْفَ لَا يُحَرِّمُ ذَبْحَ الْعَفَافِ بِمُدَى الْفُسُوقِ فِى الطُّرُقِ وَفَوْقَ الْأَمْوَاتِ ، زُورُوا كَمَا أَمَرَكُمُ اللهُ أَيُّهَا النَّاسُ وَامْنَعُوا نِسَاءَكُمْ فَإِنَّ الْأَمْوَاتَ يَضِجُّونَ مِنْهُنَّ مُسْتَغِيثِينَ .

(حديث) كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُرِقُّ الْقَلْبَ وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ وَتُذَكِّرُ بِالآخِرَةِ فَزُورُوهَا وَلَا تَقُولُوا هُجْراً. رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ.

(آخر) لَعَنَ اللهُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ. رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَأَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ.

١٥٥ - التحريض على صون النساء داخل البيوت وخارجها

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَرَنَا أَنْ نَصُونَ نِسَاءَنَا لِأَنَّهُنَّ أَوْعِيَةُ الْأَوْلَادِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي عَلَّمَنَا أَنَّ التَّسَاهُلَ فِي شَأْنِ النِّسَاءِ فَسَادٌ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي كَانَ فِي الْغَيْرَةِ أَشَدَّ الْعِبَادِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ رِجَالِ الشَّهَامَاتِ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ: أَنْتَ فِي زَمَنٍ مُسِخَتْ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ رِجَالِهِ حَقِيقَةُ الْإِنْسَانِ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَقُولَ الْوَاقِعَ كُلَّهُ فَقُلْ: وَمُسِخَتْ مِنْهُمْ كَذَلِكَ حَقِيقَةُ الْحَيَوَانِ، يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ ذُكُورَ الْحَيَوَانَاتِ تَتَقَاتَلُ كَيْ تَسْتَقِلَّ بِإِنَاثِهَا وَلَا مُقَاتَلَةَ الشُّجْعَانِ، وَأُولَئِكَ الرِّجَالُ يَرَوْنَ مَا يَرَوْنَ عَلَى نِسَائِهِمْ دُونَ أَنْ يُعِيرُوهُ أَدْنَى الْتِفَاتٍ. لَا نَشُكُّ يَا هَذَا أَنَّ كَثِيراً مِنَ الرِّجَالِ الْيَوْمَ لَا تَحِسُّ مِنْهُمْ نِسَاؤُهُمْ

أىّ إنكار، مع أنّ أولئك النساء يكنّ على أسوإ حال فى داخل الدار وفى خارج الدار، فأمّا فى الدار فيدخل عليهنّ الأجانب فى ليل أو فى نهار، وهل ترى المرأةُ الرجلَ ويراها خاليين دون أن يفكرا فى الفاحشات. لعلّك لا تخالفنى فى أنّ ذلك الدخول هو باب الخطر، خصوصاً إذا علمت أنّ الذكر خلق حنّاناً للأنثى وخلقت هى حنّانة للذكر، ويتأكّد ذلك عندك إذا تذكّرت ضعف الإنسان أمام شهوته وهو بشر لا حجر، وهل فجرت فى بيتها أنثى إلاّ من دخول ذوى النفوس الفاجرات. وأمّا فى الخارج فأنت ترى بعينك الشوارع والحوارى مملوءة بالنساء، وقبل أن تبارح إحداهنّ منزلها تجرى عملية الطلاء لتنتقل من شوهاء لحسناء، وتتعطّر وتلبس من الثياب ما يغرى التقىّ وتخرج تتبختر إلى حيث تشاء، وعال الرجال يشترى ذلك العطر والطلاء والملابس وبإذن حضراتهم تخرج النساء على تلك الحالات. وليتهنّ يخرجن بين رجال من التقوى بالدرجة التى تردعهم عن قبيح الأفعال، ولكن بين رجال وصل السواد الأعظم منهم فى الفجور إلى حدّ لا يحكى ولا يقال، وإن شئت فقف نهاراً جهاراً فى أىّ شارع لترى بنفسك حقيقة الحال، ومع ذلك تطيب نفوس أولئك الرجال بخروج نسائهم إلى أىّ الجهات وفى أىّ الساعات، إنّى أرفع قدرك يا هذا أن تكون

كَأُولَئِكَ الَّذِينَ انْحَطُّوا فِى الْغَيْرَةِ عَنْ أَىِّ حَيَوَانٍ ، وَهَلْ يَرْضَى عَاقِلٌ بِحَالَةٍ تَهْدِمُ شَرَفَهُ وَتُدَنِّسُ نَسَبَهُ وَتُغْضِبُ عَلَيْهِ الدَّيَّانَ ، فَأَطِعْنِى يَا هٰذَا وَامْنَعْ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى أَهْلِكَ أَجْنَبِىٌّ وَلَوْ قِيلَ لَكَ إِنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمٰنِ ، وَلَا تَسْمَحْ لَهُنَّ بِالْخُرُوجِ وَإِنْ قَضَتْ بِذٰلِكَ ضَرُورَةٌ فَكُنْ مَعَهُنَّ كَالْأَسَدِ يَحْمِى الْغَابَاتِ .

(حديث) إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ ؟ قَالَ : الْحَمْوُ(١) الْمَوْتُ . رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ وَمُسْلِمٌ .

(آخر) يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْهَوْا نِسَاءَكُمْ عَنْ لُبْسِ الزِّينَةِ وَالتَّبَخْتُرِ فِى الْمَسْجِدِ ، فَإِنَّ بَنِى إِسْرَائِيلَ لَمْ يُلْعَنُوا حَتَّى لَبِسَ نِسَاؤُهُمُ الزِّينَةَ وَتَبَخْتَرْنَ فِى الْمَسَاجِدِ . رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ .

(آخر) إِيَّاكَ وَالْخَلْوَةَ بِالنِّسَاءِ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا خَلَا رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا دَخَلَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمَا ، وَلَأَنْ يَزْحَمَ رَجُلٌ خِنْزِيرًا مُتَلَطِّخًا بِطِينٍ أَوْ حَمَأَةٍ(٢) خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَزْحَمَ مَنْكِبُهُ مَنْكِبَ امْرَأَةٍ لَا تَحِلُّ لَهُ . رَوَاهُ الطَّبَرَانِىُّ .

(آخر) مَا مِنْ صَبَاحٍ إِلَّا وَمَلَكَانِ يُنَادِيَانِ وَيْلٌ لِلرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ ، وَوَيْلٌ لِلنِّسَاءِ مِنَ الرِّجَالِ . رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَالْحَاكِمُ .

---

(١) المراد بالحمو هنا قريب الزوج غير أصله وفرعه، وكم كشفت الأيام من بلايا للأقارب مع نساء أقاربهم فى ظل تلك القرابة وقد زاد ذلك فى هذا الزمن ، ثم زاد حتى أصبحنا ولا يؤتمن على المرأة أصل ، ولا فرع إلا إذا كان أمينا فى دينه شريفا فى نفسه

(٢) الطين الأسود .

١٥٦ - نحن امس واليوم مع المنكرات واثر ذلك فى الحالين

الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى أَمَرَنَا أَنْ نُنْكِرَ الْمُنْكَرَ وَهَدَّدَنَا بِالطَّرْدِ مِنْ رَحْمَتِهِ إِنْ نَحْنُ أَقْرَرْنَاهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللّهُ شَهَادَةَ عَبْدٍ لاَ يَصْبِرُ عَنْ نَهْيِ أَخِيهِ عَمَّا يَضُرُّهُ فِى دِينِهِ أَوْ دُنْيَاهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى قَامَ وَحْدَهُ أَمَامَ الْعَالَمِ يَنْهَاهُ عَمَّا لاَ يَرْضَاهُ مَوْلاَهُ ، اللّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا فِى الدِّينِ وَالدُّنْيَا شِفَاءَ الْمِلَلِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّهِ : كُنَّا مِنْ زَمَنٍ لَيْسَ بِبَعِيدٍ إِذَا وَقَعَتْ عُيُونُنَا عَلَى الْوَاحِدِ مِنْ أَهْلِ الْعِصْيَانِ ، غَضِبْنَا لِعِصْيَانِهِ غَضَباً تَلْتَهِبُ مِنْهُ الْقُلُوبُ وَتَثُورُ الْجَوَارِحُ أَيَّمَا ثَوَرَانٍ ، وَفِى ذَلِكَ كَانَ يَخْطُبُ الْخُطَبَاءُ وَيَكْتُبُ الْكُتَّابُ وَيُنْكِرُ الْجُمْهُورُ شِيبُهُمْ وَالشُّبَّانُ ، لِهٰذَا كَانَ أَهْلُ الْمَعَاصِي لاَ يَجْرُءُونَ عَلَى رَفْعِ رُءُوسِهِمْ بِمَا يَأْتُونَهُ مِنْ زَلَلٍ . كُنَّا مَعَهُمْ كَذَلِكَ وَهُمْ لاَ يَقْلُونَ عَنَّا مَحَبَّةً لِلدِّينِ وَغَيْرَةً عَلَى مَالَهُ مِنْ حُرُمَاتٍ ، فَكَانُوا إِذَا شَعَرُوا بِمَا يُشِيرُ إِلَى خَدْشِهِ هَاجُوا كَالأُسُودِ إِذَا هُوجِمَتْ فِى الْغَابَاتِ ، وَكَانَتْ لَهُمْ خَلَوَاتٌ يَتَضَرَّعُونَ فِيهَا إِلَى رَبِّهِمْ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ مَالَهُمْ مِنْ زَلاَّتٍ ، وَرُبَّمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْفَضَائِلِ مَا يَقِفُ أَمَامَهُ الْمُنْكِرُ عَلَيْهِمْ فِى خَجَلٍ . هٰكَذَا كَانَ أَهْلُ

المعاصي قريباً وهكذا كان معهم الجمهور ، انقضى ذلك الزمن مع الأسف وبهذه السرعة حدثت أمور منها الدنيا تضطرب وتمور ، كثرت المعاصي جهاراً ثم كثرت ثم كثرت كثرة حصرها ليس بمقدور ، بل تجاوز الأمر المعاصي الظاهرة وإلى زيغ العقيدة سرى وانتقل . فأصبحنا وكل امرئ حر في عقيدته حرية ليس لها حدود ، له أن يعتقد الواجب مستحيلاً والمستحيل واجباً دون أن تمنعه قيود ، فبعضهم ينكر كرامات الأولياء وبعضهم ينكر الشفاعة في اليوم المشهود ، وبعضهم ينكر المعراج وبعضهم ينكر عذاب القبر مع أن القرآن بكل ذلك نزل . بل منا من يعتقد أن جهاد الرسول وأصحابه كان للدنيا لا امتثالاً لما مولانا يقول ، ومنا من ينكر البعث وما بعده ومنا من ينكر اعتبار حديث الرسول ، وبذلك يهدم الإسلام هدماً لا تبقى معه فروع ولا أصول ، بل يمنا من بلغ به الجنون إلى اعتقاد أن لا إله ولا شرائع ولا رسل . لا تحسب أن ذلك يعتقدونه ويتكلمون به فقط بل وينشرونه في الصحف والمجلات ، يقرأه العالم والجاهل والصغير والكبير من المسلمين والمسلمات ، ومع هذا لا تشعر منهم بحركة إنكار على ذلك كأن الجميع أموات ، إن جزاء ذلك يا هذا عذاب سماوي ينزل بنا إن دمنا على هذا الحال الجلل .

(حديث) وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَاباً مِنْهُ فَتَدْعُونَهُ فَلاَ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ .

١٥٧ — الوصية بالنساء

الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَصَّانَا بِالنِّسَاءِ وَكَرَّرَ وَشَدَّدَ فِي هٰذِهِ الْوَصِيَّه ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةَ عَبْدٍ امْتَثَلَ تِلْكَ الْوَصَايَا بِأَخْلاَقِهِ الْمَرْضِيَّه ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي إِلَيْهِ يَنْتَهِي الرِّفْقُ لاَ سِيَّمَا فِي الْمُعَامَلاَتِ الزَّوْجِيَّه ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ مَطْمَحِ الأَنْظَارِ عِنْدَ الْكُرُوب .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : اتَّقِ اللهَ فِي زَوْجَاتِكَ وَاسْتَوْصِ بِهِنَّ خَيْراً فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَات ، كُنْ رَفِيقاً بِهِنَّ فِي مُعَامَلاَتِكَ وَتَجَاوَزْ عَمَّا لَهُنَّ مِنْ عَثَرَات ، لاَ تَظُنَّ أَنَّكَ مَغْلُوبٌ إِذَا أَغْضَيْتَ عَنْ هَفَوَاتِهِنَّ وَلَوْ كَانَتْ كَثِيرَات ، فَإِنَّ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَطْرُدَ الْمَرْأَةَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ لاَ يَتَصَوَّرُ عَقْلٌ أَنَّهُ مَغْلُوب . عَاشِرْهُنَّ بِمَعْرُوفٍ فَإِنَّ ذٰلِكَ فَرِيضَةٌ عَلَيْكَ فِي نَظَرِ الإِسْلاَم ، وَاحْذَرْ مُضَارَّتَهُنَّ وَإِلاَّ كُنْتَ فَاعِلاً مَا يَحْكُمُ دِينُكَ أَنَّهُ ظُلْمٌ حَرَام ، هُنَّ وَصِيَّةُ اللهِ تَعَالَى وَوَصِيَّةُ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَم ، فَانْظُرْ مَا ذَا تَعْمَلُ مَعَ وَصِيَّةِ رَسُولِكَ وَرَبِّكَ عَلاَّمِ الْغُيُوب . وَإِنْ رَأَيْتَ مِنْهُنَّ مَا لاَ تُحِبُّ فَعَلِّمْهُنَّ أَنَّ ذٰلِكَ لاَ يَلِيقُ

بِالْمَشِيرَاتِ الْكَرِيمَاتِ ، فَإِنْ لَمْ تَنْفَعِ الْمَوْعِظَةُ فَلَا بَأْسَ بِأَنْ تُظْهِرَ الْغَضَبَ عَلَيْهِنَّ بِالْهَجْرِ لَيَالَاتٍ ، فَإِنْ لَمْ تُفْلِحْ بِذَلِكَ فَأَنْتَ فِي حِلٍّ مِنْ تَقْوِيمِهِنَّ بِضَرَبَاتٍ لَيْسَتْ مُبَرِّحَاتٍ ، فَإِنْ كَرِهْتَ فَلَا تَظْلِمْ بَلْ فَارِقْهُنَّ بِمَعْرُوفٍ كَمَا أَمَرَكَ دِينُكَ الْمَحْبُوبُ . فَإِنْ فَارَقْتَ فَأَجْرِ عَلَيْهِنَّ مِنَ النَّفَقَةِ مَا يَكْفِي مَادُمْنَ فِي عِدَّتِكَ ، وَاتْرُكْ صِغَارَ أَوْلَادِهِنَّ فِي حَضَانَتِهِنَّ وَأَنْفِقْ عَلَيْهِمْ بِمِقْدَارِ حَالَتِكَ ، هَذِهِ النَّفَقَاتُ مِنْ آكَدِ الْفَرَائِضِ الَّتِي فُرِضَتْ عَلَيْكَ فِي مِلَّتِكَ ، فَقُمْ بِهَا مُثَابًا مُكَرَّمًا فِي دَارَيْكَ بِمَا يَسُرُّ الْقُلُوبَ . لَا تَكُنْ كَأُنَاسٍ إِنْ عَاشَرُوا النِّسَاءَ عَاشَرُوهُنَّ بِمُعَامَلَاتٍ لَا تَحْتَمِلُهَا حَتَّى الْكِلَابُ ، وَإِنْ فَارَقُوا تَرَكُوهُنَّ بِأَوْلَادِهِنَّ يُعَانِينَ مِنَ الْجُوعِ وَالْعُرْيِ مَا يُذْهِلُ الْأَلْبَابَ ، وَإِنْ أُجْبِرُوا عَلَى النَّفَقَةِ بِحُكْمِ الْقَاضِي رَاوَغُوا مُرَاوَغَةَ الثَّعَالِبِ وَالذِّئَابِ ، وَرُبَّمَا قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ تَخَلُّصًا مِنَ النَّفَقَةِ وَأَحَدُهُمْ بِهَذَا التَّخَلُّصِ فَرِحٌ طَرُوبٌ . إِنَّ هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالَهُمْ مُسِخَتْ إِنْسَانِيَّتُهُمْ بَلْ حَيَوَانِيَّتُهُمْ وَصَارُوا لَا يَشْعُرُونَ كَالْجَمَادَاتِ ، وَإِلَّا فَأَرِنِي حَيَوَانًا وَاحِدًا يَفْعَلُ بِأَوْلَادِهِ كَمَا يَفْعَلُ هَؤُلَاءِ بِأَبْنَائِهِمْ وَالْبَنَاتِ ، لَقَدْ عَصَى هَؤُلَاءِ بِسُوءِ الْعِشْرَةِ وَسُوءِ الْفِرَاقِ وَتَرْكِ النَّفَقَةِ وَعَصَى بَعْضُهُمْ بِالْقَتْلِ أَقْسَى الْجِنَايَاتِ ، فَلْيَنْتَظِرُوا مِنَ الْحَكَمِ الْعَدْلِ مَا يُكَافِئُ هَذِهِ الْجَرَائِمَ مِنْ أَنْوَاعِ الْإِهَانَةِ وَهُوَ عَلَيْهِمْ غَضُوبٌ .

(حديث) كَفَى بِالمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ . رَوَاهُ الحَاكِمُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالإِمَامُ أَحْمَدُ .

(آخر) خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي مَا أَكْرَمَ النِّسَاءَ إِلَّا كَرِيمٌ ، وَلَا أَهَانَهُنَّ إِلَّا لَئِيمٌ . رَوَاهُ ابْنُ عَسَاكِرَ .

١٥٨ — العـدل بين الزوجات

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَبَاحَ لَنَا أَنْ نَتَزَوَّجَ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةَ عَبْدٍ جَمَلَ العَدْلَ بَيْنَ زَوْجَاتِهِ الحَاكِمَ المُطَاعَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي كَانَ إِذَا سَافَرَ بِإِحْدَى زَوْجَاتِهِ سَافَرَ بِهَا بِالإِقْرَاعِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَهْلِ العَدَالَةِ المُنْصِفِينَ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللَّهِ : وَاجِبٌ عَلَيْكَ إِذَا تَزَوَّجْتَ غَيْرَ وَاحِدَةٍ أَنْ تَعْدِلَ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ ، تَبِيتُ عِنْدَ إِحْدَاهُنَّ كَمَا تَبِيتُ عِنْدَ الأُخْرَى وَالوَاجِبُ فَقَطْ هَذَا البَيَات ، وَكَذَلِكَ تَفْعَلُ فِي المَطْعَمِ وَالمَلْبَسِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ النَّفَقَةِ إِنْ كُنَّ فِي الغِنَى مُتَسَاوِيَات ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ كُنْتَ فِي نَظَرِ دِينِكَ مِنْ عِدَادِ الظَّالِمِينَ . لَا تَظُنَّ الأَمْرَ فِي هَذَا العَدْلِ هَيِّنًا بَلِ اعْلَمْ أَنَّهُ عَظِيمٌ وَعَظِيم ، مَنْ أَخَلَّ بِهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَحَدُ شِقَّيْهِ سَاقِطٌ كَمَا أَخْبَرَ الرَّسُولُ الكَرِيم ، وَهُوَ جَزَاءُ

يُنَاسِبُ جُرْمَهُ لِأَنَّهُ أَسْقَطَ نَاحِيَةَ الْمَظْلُومَةِ بِإِخْلَالِهِ الذَّمِيمِ، وَيَا لَيْتَ الْأَمْرَ يَقِفُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ بَلْ وَرَاءَهُ النَّارُ دَارُ الْمُذْنِبِينَ. وَكَيْفَ يَكُونُ الْأَمْرُ فِى هَذَا الْعَدْلِ هَيِّنًا وَقَدْ جَعَلَهُ رَبُّنَا شَرْطًا فِى جَوَازِ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ، مَنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لَا يَقُومَ بِهِ كَانَ هَذَا التَّعَدُّدُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَحْظُورَاتِ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ رَبُّنَا شَرْطًا لِأَنَّهُ الضَّمَانُ الْكَافِى لِلْهُدُوءِ بَيْنَ الضَّرَّاتِ، أَمَّا الْجَوْرُ فَيُلْهِبُ نَارَ الْغَيْرَةِ فِى قَلْبِ الْمَظْلُومَةِ وَلَيْسَ وَرَاءَ هَذَا إِلَّا الْبَلَاءُ الْمُبِينُ. هَذَا حُكْمُ اللهِ الَّذِى أَصْبَحَ الْعَمَلُ بِهِ كَأَنَّهُ حَرَامٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلِذَلِكَ غَدَا هَذَا الْعَدْلُ لَا وُجُودَ لَهُ بَيْنَ مَنِ اخْتَارُوا التَّعَدُّدَ مِنَ الْمُتَزَوِّجِينَ، يَتْرُكُ أَحَدُهُمُ الْمَكْرُوهَةَ تُقَاسِى مِنْ آلَامِ الْغَيْرَةِ مَا تُقَاسِى شُهُورًا وَسِنِينَ، وَهُوَ مَعَ الْمَحْبُوبَةِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ كَأَنَّهُ لَاعَنَ تِلْكَ الْمَكْرُوهَةَ فَحَرُمَتْ عَلَيْهِ أَبَدَ الْآبِدِينَ. لِتَعْلَمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ أَنَّ حَنِينَ الْمَرْأَةِ إِلَى زَوْجِهَا يَزِيدُ بَعْدَ زَوَاجِهِ عَلَيْهَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَاتٍ، وَقَدْ كَانَتْ قَبْلَ زَوَاجِهِ لَا تَصْبِرُ عَنْهُ سَاعَةً فَكَيْفَ تَصْبِرُ بَعْدَ الزَّوَاجِ شُهُورًا وَسَنَوَاتٍ، أَطِلِ التَّفَكُّرَ فِى هَذَا لِتَفْهَمَ مِنْهُ بِثَاقِبِ فِكْرِكَ كَيْفَ تَكُونُ الْعَاقِبَاتُ، لَعَلَّكَ إِذَا تَزَوَّجْتَ غَيْرَ الْأُولَى تَسْلُكُ طَرِيقَ الْعَدْلِ وَتَنْفِرُ مِنَ الْجَوْرِ وَالْجَائِرِينَ. أَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْجَائِرُ فَجَدِّدْ إِيمَانَكَ إِنْ كُنْتَ تَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا الْعَدْلَ لَيْسَ مِنَ الدِّينِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ مِنْهُ وَتَرَكْتَهُ فَأَنْتَ إِذَنْ مِنَ الْمُعْتَدِينَ

325

المُفْسِدِين ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْرِفُ مِنْ نَفْسِكَ الصَّبْرَ عَلَى غَضَبِ اللهِ وَبَطْشِهِ فَتَمَادَ عَلَى جَوْرِكَ أَيُّهَا الْمِسْكِين ، وَإِنْ كُنْتَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ فَتُبْ إِلَى اللهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ يَقْبَلُ مَتَابَ التَّائِبِين .

(حديث) إِذَا كَانَتْ عِنْدَ الرَّجُلِ امْرَأَتَانِ فَلَمْ يَعْدِلْ بَيْنَهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ سَاقِطٌ . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُمَا .

(آخر) كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَيَعْدِلُ وَيَقُولُ اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا (١) أَمْلِكُ . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُمَا .

١٥٩ ـ الأمة والمعاصى اليوم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِطَاعَتِهِ يَعِزُّ الطَّائِعُ وَلَوْ كَانَ مَمْلُوكاً يُسَاد ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي بِمَعْصِيَتِهِ يَذِلُّ الْعَاصِي وَلَوْ كَانَ مِنْ بُيُوتِ الْأَمْجَاد ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي بِدِينِهِ تَبَيَّنَ الْغَيُّ مِنَ الرَّشَاد ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ انْقَضَتْ حَيَاتُهُمْ فِي مُحَارَبَةِ الْمُنْكَرَات .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : لَعَلَّ الدُّنْيَا لَمْ تَرَ عَصْراً كَهَذَا الْعَصْرِ فِي جُرْأَةِ أَهْلِهِ عَلَى الْعِصْيَان ، لَيْسَ ذَلِكَ فَقَطْ فِيمَنْ لَمْ يَدِنْ بِدِينِ الْإِسْلَامِ بَلْ وَفِيمَنْ بِهِ دَان ، ضَجَّتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ وَمَا فِيهِمَا مِمَّا

---

(١) يعنى الميل القلبي .

وَصلَ إِلَيهِ في المعَاصِي الإِنسان ، وَإِنْ شئتَ فزُرْ أيَّ جهةٍ مِنْ جهاتِ العَالم تَرَ ما يَتقطعُ لهُ قلبُكَ حسرات . افتتنَ النَّاسُ بزَخارِفِ الدُّنيا فاستولتْ عليهمْ ونسُوا يومَ الحِساب ، فأصبحتِ المعاصِي أمراً مألوفاً عندهُمْ ولوْ كانَ كفراً بربِّ الأرْباب ، وغلِبَ المُستقيمونَ على أمرِهِمْ فلمْ يستطيعُوا إزالتَها فتمادى المُجرمونَ على انتهاكِ الآداب ، فتفاقمَ الخطبُ ثمَّ تفاقمَ إلى أنِ التهبتِ الدُّنيا بالمُوبقات . خفَّ الزِّنى حتَّى صارَ يُفعلُ علناً والغيورُ يُسمُّونهُ رجعياً لا يعرفُ الحُرِّيَّه ، معَ أنَّ الزِّنى مِنْ بينِ المعاصِي عارٌ تسودُّ لهُ الوجُوهُ وتنتكسُ الرُّءوسُ وتنهدمُ بيُوتُ المجْدِ العليَّه ، وهانَ القتلُ حتَّى صارتْ إراقةُ دماءِ المُؤمنينَ مِنَ الأمُورِ العاديَّه ، معَ أنَّ أهلَ السَّمواتِ والأرضِ لوِ اشتركُوا في دمِ مؤمنٍ لكبَّهُمُ اللهُ جميعاً في دارِ الإهانات . ومِنْ آياتِ الرُّقيِّ اليومَ أنْ تستغنيَ عنْ حليلاتِكَ بإتيانِ الغِلمان ، معَ أنَّ القُرآنَ يحكِي عنْ أمَّةٍ كانتْ تفعلُ ذلكَ أنَّها خُسِفَ بها وأمطرتْ حجارةً ولعنها الرَّحمن ، وكذلكَ مِنْ أكبرِ أسبابِ التَّقدُّمِ اليومَ أنْ تتعاملَ بالرِّبا وتُحرِّضَ عليهِ الإخوان ، معَ أنَّ الرِّبا مِنْ بينِ سائرِ المعاصِي توعَّدَ فاعلَهُ بالحربِ ربُّنا في آياتِهِ البيِّنات . وهذهِ الخمرُ تُباعُ في حاناتِها كالشَّهدِ يُباعُ في حانُوتِهِ وهيَ أمُّ الخبائثِ والآثام ، وهذهِ

شهادة الزور يتبرع بها وهي توجب النار لفاعليها قبل أن ينقلوا الأقدام، وأما الأرض فاغتصابها أصبح براعة مع أن المغتصب يكون طوقا لمغتصبه في دار الانتقام، وأما الأموال والأعراض فحدث عن الاستخفاف بها ولا حرج عليك في صيغ المبالغات. وهذه المعاملات أصبحت لا تخلو من الغش الذي توعد بالتبرؤ من فاعله رسول الله، وهذه مأمورات الإسلام غدت تترك تنزها عنها بل ويضحك على من فعلها تقربا لمولاه، وأما السحر — وهو من أكبر الكبائر — فقد صار من أروج الحرف يرتزق به كثير بلا مبالاه، دعك من كل المعاصي واعلم أن الكفر أصبح له دعاة منا ينشرون الدعوة إليه بلسان الجرائد والمجلات. إن هذا وأضعافه حاصل من أمة أرسل إليها أشرف رسول بأشرف دين، ولا يزال يتلى بينها كتاب الله ولا تزال فيها سنة سيد المرسلين، هذه حقيقة نذكرها والأسى يملأ القلب على جماعة المؤمنين، فهل لنا أن نغير ما بنا من المعاصي ليغير الله ما بنا من بلايا ونكبات.

(حديث) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال: أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك وابك على خطيئتك. رواه الترمذي وابن أبي الدنيا والبيهقي.

١٦٠ - الزنى

الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى أَمَرَنَا بِالتَّزَوُّجِ حَتَّى لَا نَتَرَدَّى فِى مَهَاوِى الْفَاحِشَاتِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّهُ شَهَادَةَ حَازِمٍ قَضَى عَلَى أَسْبَابِ الزِّنَى فَعَاشَ طَاهِراً وَعَاشَتْ نِسَاؤُهُ طَاهِرَات ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى عَلَّمَنَا كَيْفَ نَجْتَنِبُ أَسْبَابَ الْمُحَرَّمَات ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْكِرَامِ الْأَبْرَار .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّهِ : لَقَدْ فَشَا وَبَاءُ الزِّنَى فِى هٰذَا الزَّمَانِ فُشُوّاً آلَمَ قُلُوبَ الْعُقَلَاءِ ، فُشُوّاً أَتَى عَلَى بِنَاءِ الْعَفَافِ مِنْ أَسَاسِهِ فَعَلَى ذٰلِكَ الْعَفَافِ الْعَفَاءِ ، فُشُوّاً جَعَلَ عُقَلَاءَ الْأُمَّةِ يُفَكِّرُونَ فِى لُزُومِ الْكَشْفِ عَلَى الْعَرُوسَيْنِ قَبْلَ الْبِنَاءِ ، لِأَنَّ الْأَمْرَاضَ السِّرِّيَّةَ فَشَتْ بِفُشُوِّ الزِّنَى وَجَعَلَتْ تَلْتَهِمُ الزُّنَاةَ كَمَا تَلْتَهِمُ الْهَشِيمَ النَّار . فَالزَّانِى إِذَا كَانَ مَرِيضاً يَسْرِى مِنْهُ الْمَرَضُ إِلَى الزَّانِيَةِ أَوْ يَسْرِى مِنْهَا إِلَيْه ، وَيَلْزَمُ كُلًّا مِنْهُمَا ذٰلِكَ الْمَرَضُ السِّرِّىُّ حَتَّى يَقْضِىَ الْقَضَاءَ الْأَخِيرَ عَلَيْه ، بَلْ وَيَقْضِىَ عَلَى كُلِّ مَنْ يَلِدُهُ مَا دَامَ ذٰلِكَ الْمَرَضُ الْخَبِيثُ لَدَيْه ، وَأَىُّ امْرِئٍ يَرْضَى لِنَفْسِهِ وَلِأُمَّتِهِ هٰذَا الدَّمَار . إِنَّ فُشُوَّ الزِّنَى إِلَى هٰذَا الْحَدِّ لَهُ أَسْبَابٌ عِنْدَنَا وَاضِحَات ، إِذَا قَضَيْنَا عَلَى تِلْكَ الْأَسْبَابِ قَضَيْنَا عَلَى تِلْكَ الْفَوَاحِشِ الْفَاضِحَات ، فَمِنْ تِلْكَ الْأَسْبَابِ خُرُوجُ

النساء من بيوتهن إلى الشوارع متعطرات متبرجات ، لسان حالهن ينادي بأعلى صوته تعالوا تعالوا أيها الزناة الفجار . إن خروج النساء بهذه الحالة جعل الرجال يتعرضون لهن فى كل زمان ومكان ، ولو خرجت أعف امرأة لتعرضوا لها بأقوال وأفعال يخجل من حكايتها اللسان ، وقد يكون مع المرأة أبوها أو زوجها ولا تنجو من أعتداءات الفتيان ، ولعلك بهذا فهمت أن خروج المرأة فى هذا الزمان خطر عليها من أكبر الأخطار . ومن تلك الأسباب دخول الأجانب على المرأة ولو كانت وكانوا من الأولياء ، فإن الأجنبي إذا وقعت عينه على المرأة فأعجبته أو أعجبها كان من وراء ذلك كل البلاء ، وأخطر الأجانب على المرأة أقارب زوجها وأقارب أبويها فإنهم يدخلون عليها صباح مساء ، وفى ظل تلك القرابة يكون ما يكون مع الدوام والاستمرار . ومن تلك الأسباب تأخير زواج من بلغ من الشابات والشبان ، فإنه بمجرد بلوغه تهيج عليه الشهوة الحيوانية هيجان النيران ، فإذا لم يكن بجانبه حلال يطفئ به ذلك الهيجان ، أطفأه بما يعقب له العار فى هذه الدار ويعقب النار فى تلك الدار . ومن تلك الأسباب اعوجاج الأزواج وخيانتهم بالاتصال بفاجرات النساء ، فإن المرأة إذا عرفت أن زوجها أصبح لغيرها أصبحت لغيره دون مراء ، هذه أهم أسباب الزنى فلنقض عليها

قضاء أهلِ الغيرةِ الحكماء، ودعونا من التساهلِ مع النساء فإنّ هذا التساهلَ لا يكونُ أبدًا من الأحرار.

(حديث) إذا زنى الرجلُ خرجَ منهُ الإيمانُ فكانَ عليهِ كالظلّةِ، فإذا أقلعَ رجعَ إليهِ الإيمانُ. رواهُ الترمذيُّ والبيهقيُّ والحاكمُ وأبو داودَ واللفظُ لهُ.

(آخر) عنْ أمِّ المؤمنينَ السيدةِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالتْ: لوْ أدركَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ ما أحدثَ النساءُ لمنعهنّ المساجدَ كما منعتْ نساءُ بني إسرائيلَ. رواهُ البخاريُّ.

١٦١ — الطقاطيق والروايات

الحمدُ للهِ الذي في امتثالِ أوامرهِ شغلٌ للعاقلِ عنْ كلِّ لهوٍ ولعبٍ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ شهادةَ عبدٍ لا يتحرّكُ إلاّ في دائرةِ ما منهُ طلبَ، وأشهدُ أنّ سيّدَنا ومولانا محمّدًا عبدُهُ ورسولُهُ سيّدُ الدعاةِ إلى ما يحبّ، اللهمّ صلِّ وسلّمْ وباركْ على سيّدِنا محمّدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ ومنْ نزّهَ نفسهُ عنِ الشائناتِ.

(أمّا بعدُ) فيا عبدَ الله: لقدْ حدثَ في هذهِ الأزمنةِ وانتشرَ انتشارَ الجرادِ ما يعرفُ بيننا (بالطقاطيقِ) والرواياتِ، وأصبحَ ذلكَ الشغلَ الشاغلَ لمطابعِنا ومكاتبِنا ورجالِنا ونسائِنا وفتيانِنا والفتياتِ،

فلاَ تُطبَعُ (طَقْطُوقَةٌ) أَوْ رِوَايَةٌ إلاَّ وَيَتَخطَّفُونَهَا وَلَوْ بَلَغَ مَا طُبِعَ مِنْهَا الآلاَفَ وَالمِلْيونات . وَلَمْ يَكْتَفُوا بِمُجَرَّدِ تِلْكَ القِرَاءَةِ بَلْ كُلَّ مَسَاء تَرَاهُمْ حَوْلَ مَسَارِحِ التَّمْثِيلِ وَالرَّقْص مِثْلَ الذُّبَاب ، لِيَرَوْا بِأَعْيُنِهِمْ وَيَسْمَعُوا بِآذَانِهِمْ تَفْسِيرَ مَا قَرءُوا فى أَشْخَاصِ أَهْلِ الفَنِّ وَأَصْوَاتِهِمُ العِذَاب ، وَلَمْ يُشْبِعْهُمْ كُلُّ ذَلِكَ بَلِ اشْتَرَوُا (الْفُونُوغْرَافَاتِ) تُسْمِعُهُمْ فى بُيُوتِهِمْ مِنْ ذَلِكَ مَا لَذَّ لَهُمْ وطَاب ، ذَلِكَ فَوْقَ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنْ أَبْنَاء الشَّوَارِعِ الَّذِينَ أَصْبَحَ النُّطْقُ بِالْفُحْشِ فِيهِمْ مَلَكَات . كَانَتِ النَّتِيجَةُ لِكُلِّ هذَا أَنْ فَسَدَتِ الأَخْلاَقُ كَمَا تَرَى فَسَاداً بَعِيداً مَعَهُ الصَّلاَح ، فَإِنَّكَ لاَ تَرَى وَلاَ تَسْمَعُ مِنْ تِلْكَ الطَّقَاطِيقِ وَالرِّوَايَاتِ إلاَّ مَا يُحَرِّضُكَ عَلَى العِشْقِ بِلاَ أَىِّ جُنَاح ، مِنْ تَوَجُّعٍ لِفِرَاقِ حَبِيب لاِئِنٍ مِنْ هَجْرِهِ لاِسْتِعْطَافٍ بِهِ يَنْقَادُ بَعْدَ الجِمَاح ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ المُغَازَلاَتِ الَّتِي لاَ يَسَعُ رَقِيقَ الدِّينِ إلاَّ أَنْ يَخْضَعَ لِمَا لَهَا مِنْ تَأْثِيرَات . إِنَّ طَقْطُوقَةً أَوْ رِوَايَةً وَاحِدَةً مِنْ ذَلِكَ تَكْفِي لِأَنْ تَكْتَسِحَ أَمَامَهَا أَخْلاَقَ أَقْطَار ، فَكَيْفَ بِقُطْرٍ وَاحِدٍ كَهذَا وَقَدْ هَجَمَ عَلَى أَخْلاَقِهِ كُلُّ ذَلِكَ الجَيْشِ الجَرَّار ، وَإِذَا عَلِمْتَ أَنْ لاَ قِيمَةَ لِعِلْمِ الدِّينِ عِنْدَنَا تَبَيَّنَ لَكَ مَبْلَغُ مَا نَزَلَ بِأَخْلاَقِنَا مِنْ خَسَار ، وَلاَ عِلاَجَ لِهذَا إلاَّ أَنْ نَهْجُرَ المَسَارِحَ بِطَقَاطِيقِهَا وَرِوَايَاتِهَا وَنَرْجِعَ إِلَى الإِسْلاَمِ دِينِ الكَمَالاَت .

(حديث) أُوصيكَ بتقوى اللهِ تعالى في سِرِّ أمرِكَ وعلانيتِهِ، وإذا أسأتَ فأحسِنْ، ولا تسألَنَّ أحداً شيئاً، ولا تقبِضْ أمانةً، ولا تقضِ بينَ اثنينِ. رواهُ أحمدُ.

١٦٢ – الكوكايين وأشباهه

الحمدُ للهِ الذي حرَّمَ علينا ما يضرُّ دينَنا وعقولَنا والأبدان، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ الذي نصبَ لنا معالمَ الهدايةِ حتَّى لا يحارَ إنسان، وأشهدُ أنَّ سيِّدَنا ومولانا محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ الذي ليسَ مِنْ خُلُقِهِ التكلُّفُ في شان، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ على سيِّدِنا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ الوقَّافينَ عندَ الشُّبُهات.

(أمَّا بعدُ) فيا عبدَ اللهِ: لقدْ جُنَّ النَّاسُ اليومَ بالموادِّ الَّتي أثبتَتِ التَّجارِبُ أنَّها بلاءٌ مُبين، وهيَ الَّتي يدعونَها بينَهُمْ بالمعاجينِ والمنازيلِ و (الكوكايينِ والمورفينِ والهوريين)، نعمْ جُنُّوا في سبيلِ تحصيلِها جُنوناً لا يُساميهِ جُنونٌ في العالمين، كيفَ لا وهُمْ مِنْ أجلِها يُقدِّمونَ أرواحَهُمُ الغاليةَ ضحيَّات. حرَّمَها خالقُهُمْ ورازقُهُمْ ومَنْ إليهِ مصيرُهُمْ فلمْ يُبالُوا بذلكَ التَّحريم، وهذا معناهُ أنَّهُمْ لا يكترِثونَ بغضبِهِ تعالى ولا بما لهُ مِنْ عذابٍ أليم، وحرَّمَتْها الحكومةُ وتوعَّدَتْ مَنْ يُضبَطُ بشيءٍ منها بوعيدٍ يُزعِجُ القلبَ عظيم، فلمْ يعبئُوا بذلكَ وسلكُوا في إخفائِها وتهريبِها طُرُقاً حارَتْ أمامَها

الحكومات. معنى هذا أنهم استعدوا لعذاب الدنيا والآخرة في سبيل تعاطي تلك المواد، مع أنها بالوعة الأموال وسوسة العقول والغول الذي تهدم به الأجساد، يتعاطاها أحدهم فيذهب عقله ويذبل بدنه ثم يذبل حتى يهلك وتستريح منه العباد، وهل يرضى عاقل أن يشقى في الدنيا والآخرة لشيء هو السموم القاتلات. وإن قالوا إنها تنفعهم مع النساء فهل لشهوة بهيمية يقتل المرء نفسه ويرضى لها بالشقاء، على أن دعوى النفع كاذبة وإنما ارتخت أعصابهم فتخيلوا تلك الخيالات البلهاء، والحق أن أحدهم تعتصره تلك المواد فيصبح وهو في عنفوان شبابه هو والمرأة سواء، فاهجر تلك السموم يا هذا وأرنا نشاطك في العمل لجنة عرضها الأرض والسموات.

(حديث) نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر[1]. رواه أحمد وأبو داود.

١٦٣ — الكوكايين وأخواته

الحمد لله الذي رفع قوما حتى جعلهم فوق الملائكة المقربين، وأشهد أن لا إله إلا الله الذي وضع آخرين حتى جعلهم دون الأنعام والشياطين، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله أرفع

(١) المفتر الذي إذا شرب أحدث حرارة في البدن وضعفا يورث خدرا في الأطراف.

خلق الله أجمعين ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين لم تر مثلهم الأرض والسموات .

(أما بعد) فيا عبد الله : لعلك رأيت بعينك أنواع الحيوانات تتحامى المضار ، تحاميا تكون معه فى أمن من أن يصيبها أى ضار ، تهرب من السباع المفترسة تبتعد عن الحفر العميقة تفر إذا رأت النار ، إلى غير ذلك مما يدلك قطعا أنها تميز وتتحفظ من المهلكات . إن فى زمننا هذا أناسا أحط تمييزا من هذه الحيوانات ، منهم بل أولهم أولئك الذين يتعاطون الكوكايين وما له من أخوات ، أولئك الذين يرون كل يوم ما لهذه السموم من ضحيات ، ومع ذلك يتهافتون عليها كأنها السبب الوحيد لدخول الجنات . يجود أحدهم على شرائها حتى لا يبقى له درهم ولا دينار ، فإذا فنى ذلك أقبل يبيع من عقاره حتى لا يبقى عقار ، فإذا انتهى ذلك أخذ يبيع من متاع داره حتى تخرب الدار ، فإذا كان ذلك أصبح نكبة على الأمة بنصبه واحتياله والسرقات . ويا ليته يستفيد من وراء ذلك فائدة تنفعه فى دينه أو دنياه ، وإنما الذى يستفيده مرض يشتعل منه مخه فيشتعل كله حتى قدماه ، يذهب منه عقله وتنهد قوته ويلاقى من الآلام ما يكره معه الحياه ، ولا يزال يتقلب فى أليم عذابه حتى يتجرع كأس الممات . فكم من غنى لما تعوده أصبح بين قومه من أذل الفقراء ، وكم

385

مِنْ قَوِيّ لَمَّا اعْتَادَهُ غَدَا أَحَطَّ وَأَضْعَفَ الضُّعَفَاءِ، وَكَمْ مِنْ نَبِيلٍ عَاقِلٍ تَمَادَى عَلَى تَعَاطِيهِ حَتَّى صَارَ أُضْحُوكَةَ الصِّبْيَانِ وَالسُّفَهَاءِ، وَكَمْ مِنْ حَيّ كَانَ يَمْلَأُ الْأَرْضَ نَشَاطًا أَمْعَنَ فِي تَنَاوُلِهِ حَتَّى اغْتَالَتْهُ الْمَنِيَّاتُ. إِنَّ مَنْ يَرَى كُلَّ هٰذَا بِعَيْنِهِ ثُمَّ يَتَنَاوَلُ ذٰلِكَ الْجَوْهَرَ السَّامَ، لَا يَشُكُّ عَاقِلٌ فِي أَنَّهُ أَحَطُّ وَأَنْزَلُ مِنْ دَرَجَةِ الْأَنْعَامِ، فَإِنَّ الْأَنْعَامَ تَتَحَامَى مَا يَضُرُّهَا وَهٰذَا يُقْدِمُ عَلَى قَتْلِ نَفْسِهِ دُونَ أَيِّ إِحْجَامٍ، فَارْفَعْ نَفْسَكَ يَا هٰذَا عَنْ أَنْ تَكُونَ مِنْ فَرِيقٍ أَحَطَّ تَمْيِيزًا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ.

(حديث) لَا ضَرَرَ (١) وَلَا ضِرَارَ. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَه.

١٦٤ — الكوكايين

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي مَا سَعِدَ مَنْ سَعِدَ إِلَّا بِخَشْيَتِهِ وَالْوُقُوفِ عِنْدَ مَا حَدَّهُ لَهُ مِنْ حُدُودٍ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ الَّذِي مَا شَقِيَ مَنْ شَقِيَ إِلَّا بِالْغَفْلَةِ عَنْ جَلَالِهِ وَتَعَدِّي مَا لَهُ مِنْ أَوَامِرَ وَعُهُودٍ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي بِأَدَبِهِ الْأَسْمَى سَمَا عَلَى كُلِّ مَوْجُودٍ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانَتْ تَبْتَهِجُ بِرُؤْيَتِهِمُ الْقُلُوبُ وَالْعُيُونُ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّٰهِ: لَقَدِ ابْتُلِيَ النَّاسُ الْيَوْمَ بِبَلِيَّةٍ لَا نَظِيرَ لَهَا بَيْنَ الْبَلِيَّاتِ، بَلِيَّةٍ لَا تَتْرُكُ صَاحِبَهَا إِلَّا إِذَا خَرَّبَتْ بَيْتَهُ وَأَلْحَقَتْهُ

(١) أي لا تبتدئ أخاك بأيّ ضرر ولا تكافئه على ضرر أنزله بك.

بالأموات ، بلية دونها الأوبئة الفتاكة والأمراض المعضلة والسموم القاتلات ، هذا حالها بل وفوق هذا ولع الناس بها كالجنون . تلك البلية الكبرى والمصيبة العظمى هي ما يدعونه بالكوكايين ، ذلك السم الذي من ابتلي به أصبح لا يصلح لا لدنيا ولا دين ، تنحل قواه ويعتريه من المرض العقلي ما به يحسب من المجانين ، فيعيش باقي أيامه بلا عقل يدبر ولا قوة بها أي عمل يكون . نعم كشفت لنا الأيام أن من لزم تلك المادة لزمه مرض لا يرجى له شفاء ، مهما كثرت الأدوية وتلونت ومهما برع الأطباء ، مرض يسمح المبتلى به أن يخرج عن كل ما يملك لو نجع فيه دواء ، مرض يستشفي كثير من مصابيه بجهنم الدنيا وهي السجون . من أجل ذلك لو سمع أهل امرئ أنه يتناول ذلك الكوكايين ، يقع ذلك الخبر على رءوسهم كما تقع الصواعق على رءوس الغافلين ، لأنه خبر ينطوي على شقاء قريبهم في دارية الشقاء المبين ، وإذ ذاك لو علموا أنه مات لاستقبلوا ذلك الخبر وهم مستبشرون . ذلك لأن حياته بعد شم ذلك السم تكون مهددة دائماً بالزوال ، ويا ليته يموت بسهولة بل بعد ما يلاقي هو وأهله ما يلاقون من أهوال ، وليس ذلك وحده الذي يكون بل يضيع كل ما يملك ويسرق من مال ، يضاف إلى ذلك ذهاب عقله وإذن لا يموت إلا وهو في نيران

الأَلَمِ مفلسٌ مِنَ المَالِ مَجْنُون . مَنْ عَرَفَ مَا هُوَ الكُوكَايِينُ لاَ يَسْتَكْثِرُ عَلَيْهِ كُلَّ مَا ذَكَرْنَا مِنْ بَلِيَّات ، فَإِنَّهُ مَادَّةٌ إِذَا لَمَسَتْ أَىَّ عُضْوٍ بَطَلَ شُعُورُهُ حَتَّى بِآلاَمِ الْجِرَاحَات ، فَانْظُرْ مَاذَا يَكُونُ فِعْلُهُ إِذَا وَصَلَ بِالاَسْتِنْشَاقِ لِلْمُخِّ وَهُوَ أَرَقُّ وَأَخْطَرُ مَا لَنَا مِنْ حَاسَّات ، فَأَشْفِقْ عَلَى نَفْسِكَ مِنْهُ يَا هٰذَا فَإِنَّ ضَرَرَهُ فَوْقَ مَا يَتَصَوَّرُ الْمُتَصَوِّرُون .

(حديث) اُجْتَنِبُوا هٰذِهِ الْقَاذُورَاتِ الَّتِي نَهَى اللهُ تَعَالَى عَنْهَا . رَوَاهُ الحَاكِمُ وَالْبَيْهَقِيُّ مِنْ حَدِيث .

١٦٥ — الصحف أمس واليوم

الحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي حَرَّمَ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ مَا كَانَ فَسَاداً أَوْ سَبَباً فِي فَسَاد ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةً تَنْفَعُ الْمُعْتَرِفَ بِهَا يَوْمَ التَّنَاد ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى لِلْعِبَاد ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ مَا قَرَءُوا إِلاَّ صَحَائِفَ الْوَحْيِ الْحَكِيم .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : كَانَتِ الصُّحُفُ الْعُمُومِيَّةُ فِيمَا مَضَى مَكْتَباً يَتَخَرَّجُ مِنْهُ مَهَرَةُ الْكُتَّاب ، وَكَانَتْ عَضُدَ الْمَظْلُومِ تَبْسُطُ ظُلاَمَتَهُ حَتَّى لاَ يَبْقَى فِيهَا أَدْنَى ارْتِيَاب ، وَكَانَتْ مُحَامِياً عَنِ الدِّينِ مُخْلِصاً تُدَافِعُ عَنْهُ كَمَا يُدَافِعُ عَنْ حَرَمِهِ الْغَيُورُ الرَّفِيعُ الآدَاب ، وَكَانَتِ

الصاعقة الساحقة لمن تخيلت فيه انحرافا عن الصراط المستقيم . نعم كانت كذلك وفوق ذلك ورحم الله ذاك الزمان ، ولهذا ما رفع الإلحاد رأسه إذ ذاك ولو رفعها لطارت بسيف الحق أبشع طيران ، أما اليوم فأصبح الأمر فى هذه الصحف فوضى لايقف عند حد ولا يضبط بميزان ، ولهذا حدث ما حدث مما تراه بعينك ولا تحتاج فى معرفته إلى خبر عليم . من الصحف اليوم صحف وقفت نفسها على رمى الناس بالدواهى فى أعراضهم الكريمات ، فإذا سد فمها بمبلغ من المال سكتت أو انقلبت تمدح مدائح غاليات ، ومن الصحف من اختصت بترويج إباحية النساء فلا تنشر إلا الغراميات ، من صور تحرك الساكن أو كلام تستحى العفيفة أن تقوله لزوجها فى مخدعها الكريم . ومن الصحف من التزمت حرفة نشر الإلحاد وتأييده بكل أنواع التأييد ، وغرضها الأسمى من ذلك أن تقلع شجرة الإيمان من قلوب العبيد ، وقف الدين أمامها يحلل ويحرم ولها أغراض وصولها إليها مع ذلك بعيد ، فهى تحاول أن تقضى عليه لتصل إلى أغراضها فى أمن من ذلك التحليل والتحريم . يصل إليها المقال الذى يقطر كفرا فتسارع إلى نشره فى الحال ، وكلما كان أعرق فى الكفر كلما كانت العناية به فوق المقال ، فإذا أردت أن ترد على ذلك رأيت قبول ردك من أبعد درجات المحال ، وهكذا كل مقال

يتضمن فضيلة أو رذيلة يعامل من تلك الصحف بهذا الحال الذميم .
هذه صحف قراءتها تعدي النفوس وتمرض الدين مرضا قد يقضي عليه ، بل قد كان ذلك وها أنت ذا ترى بعينك أخلاق فتياننا وفتياتنا وما وصلت إليه ، فواجب عليك أيها المؤمن هجر مثل تلك الصحف والاقتصار على ما لا ترى ضررا لديه ، واحذر أن تستهين بتلك الأصناف الساقطة من الصحف فإن ضررها ضرر عظيم .

(حديث) تكون دعاة إلى أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها هم قوم من أهل جلدتنا يتكلمون بألسنتنا فالزم جماعة المسلمين وإمامهم ، فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت كذلك . رواه البخاري ومسلم .

١٦٦ - معضلة الزواج

الحمد لله الذي جعل الزواج من مهمات الدين سواء للرجال أو للنساء ، وأشهد أن لا إله إلا الله الذي جعل الزواج سببا من أسباب يسار الفقراء ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله الذي زوج وتزوج بلا تكلف ولا عناء ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الغر الميامين .

(أما بعد) فيا عبد الله : ينبغي أن تعلم أن الزواج له شأن عظيم في دين الإسلام ، فإن به تحفظ الفروج وتغض الأبصار عن أن تطمح لحرام ، وبه نكثر فتقوى الأمة ويباهي بنا الأمم نبينا يوم القيام ، ويكفي في فضله إخباره صلى الله عليه وسلم أن من تزوج فقد عصم شطر الدين . هذا شأن الزواج ومع ذلك أصبح بيننا من المشكلات ، أما الفتيان فينظرون إليه كما ينظر التقي لرذيلة من الرذيلات ، زهدهم فيه هائمات الشوارع وهاويات البيوت السرية والمومسات ، وزادهم نفرة منه خشية أن يصبحوا آباء بنات وبنين . وأما الفتيات فيحول بينهن وبينه — إن خطبن — عادة من أقبح العادات ، هي تغالي الآباء في الجهاز تغاليا كثيرا ماخربت بسببه بيوت عامرات ، لذلك تشب الفتاة وتشيب وأعصاب أبيها من شبح جهازها في اضطرابات ، ومن أجل هذا كم فجرت ذات عفاف وكم برح المرض بذات بدن بدين . إن الدواء لهذه المعضلة أن تستأصل جرثومة البغاء العلني والسري كل الاستئصال ، وبذلك تغلق أبواب الزنى في وجوه الزناة فيرغمون إلى قرع باب الحلال ، إذا كان هذا وأضيف إليه تساهل الآباء في الجهاز زال الإشكال ، فلينهض لذلك العقلاء وليصدعوا في هذا الأمر بالحق فإن الحال شنيع ومهين .

(حديث) مِسْكِينٌ مِسْكِينٌ مِسْكِينٌ رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ امْرَأَةٌ وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا مِنَ الْمَالِ ، وَمِسْكِينَةٌ مِسْكِينَةٌ مِسْكِينَةٌ امْرَأَةٌ لَيْسَ لَهَا زَوْجٌ ، وَإِنْ كَانَتْ غَنِيَّةً مِنَ الْمَالِ . رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعَبِ .

(آخر) شِرَارُكُمْ [١] عُزَّابُكُمْ وَأَرَاذِلُ مَوْتَاكُمْ عُزَّابُكُمْ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو يَعْلَى .

١٦٧ — نواه مختلفة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَتَسَابَقُ أَرْبَابُ الْعُقُولِ إِلَى امْتِثَالِ أَمْرِهِ إِجْلَالًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي لَا يَقْتَحِمُ نَهْيَهُ إِلَّا مَنْ ضَلَّ سَعْيًا وَخَابَ آمَالًا ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَطْيَبُ الْخَلْقِ أَقْوَالًا وَأَفْعَالًا ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَعَلَى كُلِّ مَنْ سَارَ مُسْتَنِيرًا بِهُدَاه .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : لَا تَيْأَسْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَحْمَتِهِ إِلَّا كَافِرٌ ذَمِيم ، وَلَا تَأْمَنْ مَكْرَهُ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ الْأَمْنَ مِنْ مَكْرِهِ خُسْرَانٌ عَظِيم ، وَلَا تُحِبَّ الْفَسَقَةَ فَإِنَّ حُبَّكَ لَهُمْ يَجْعَلُكَ مَعَهُمْ فِي عَذَابِهِمُ الْأَلِيم ، وَلَا تُعَادِ أَهْلَ الْاسْتِقَامَةِ فَإِنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ وَمَنْ عَادَى أَوْلِيَاءَ اللهِ عَادَاهُ اللهُ . وَلَا تَخُنْ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ أَجْنَبِيَّةٍ فَإِنَّ هَذَا النَّظَرَ بَابُ الْعَارِ وَالنَّار ، وَلَا تَخْلُ بِأَجْنَبِيَّةٍ وَإِلَّا كَانَ

---

(١) ليسمع هذا أبناء هذا الزمن الذين أصبح الزواج فى نظرهم رذيلة يفرون منها .

الشَّيْطَانُ ثَالِثُكُمَا يَدْعُوكُمَا إِلَى غَضَبِ الْجَبَّار ، وَلاَ تَتَشَبَّهْ بِالنِّسَاء وَإِلاَّ كُنْتَ مَلْعُونًا عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكَ سَيِّدِ الْأَخْيَار ، وَلاَ تَصْبُغْ شَيْبَكَ بِالسَّوَادِ فِي غَيْرِ حَرْبٍ فَإِنَّهُ صَبْغٌ مَوْلاَكَ لاَ يَرْضَاه . وَلاَ تَسْتَخِفَّ بِالْعُلَمَاءِ وَلاَ بِأَهْلِ الشَّيْبِ وَلاَ بِأَئِمَّةِ الْعَدْلِ فَإِنَّ الِاسْتِخْفَافَ بِهِمْ شَأْنُ الْمُنَافِقِين ، وَلاَ تَتَسَمَّعْ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ يَكْرَهُونَ سَمَاعَكَ وَإِلاَّ صُبَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي أُذُنَيْكَ الرَّصَاصُ وَهُوَ مُذَابٌ سَخِين ، وَلاَ تَعُدْ فِي هِبَتِكَ وَإِلاَّ كُنْتَ كَالْكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ يَتَنَاوَلُهُ تَنَاوُلَ الْجَائِعِين ، وَلاَ تَحْلِفْ إِلاَّ بِرَبِّكَ فَإِنَّ الْحَلِفَ بِأَيِّ مَخْلُوقٍ ذَنْبٌ مَا أَشَدَّهُ وَمَا أَقْسَاه . وَلاَ تُسَارِرْ أَحَدًا وَمَعَكُمَا ثَالِثٌ فَقَطْ فَإِنَّ ذَلِكَ إِهَانَةٌ لِلثَّالِثِ وَإِيذَاء ، وَلاَ تَخْرُجْ مِنْ بَلْدَةٍ وَلاَ تَدْخُلْ إِلَيْهَا إِذَا كَانَ فِيهَا وَبَاء ، وَلاَ تَطْمَعْ فِيمَا بِأَيْدِي النَّاسِ وَإِلاَّ أَوْرَثَكَ ذَلِكَ ذُلاًّ لاَ يَرْضَاهُ أَهْلُ الْإِبَاء ، وَلاَ تَدْخُلِ الْمَسَاجِدَ وَأَنْتَ آكِلٌ ثُومًا أَوْ بَصَلاً أَوْ كُرَّاثًا فَإِنَّ الدِّينَ يَشْمَئِزُّ مِنْ ذَلِكَ وَيَأْبَاه . وَلاَ تَتَّخِذْ فِي بَيْتِكَ كَلْبًا أَوْ صُورَةً أَوْ جَرَسًا فَإِنَّ ذَلِكَ يَمْنَعُ دُخُولَ الْمَلاَئِكَةِ الْكِرَام ، وَلاَ تَمُنَّ بِالصَّدَقَةِ وَلاَ تُطِلْ ثَوْبَكَ كِبْرًا وَلاَ تُرَوِّجْ مَبِيعَكَ بِالْحَلِفِ بِرَبِّ الْأَنْعَام ، مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِ وَلَهُ عَذَابٌ يَذُوقُ مِنْهُ مَا يَذُوقُ مِنْ آلاَم ، وَلاَ تُعَذِّبْ حَيَوَانًا بِأَيِّ عَذَابٍ خُصُوصًا بِالنَّارِ

وَإِلاَّ عَذَّبَكَ رَبُّكَ عَذَاباً لاَ تُطِيقُ أَدْنَاه . وَلاَ تُمَاطِلْ فِى أَدَاءِ الحُقُوقِ فَإِنَّ المُمَاطَلَةَ لاَ تَلِيقُ بِذَوِى الشَّرَفِ وَالْوَقَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلاَتَنْتِفْ شَيْبَكَ فَإِنَّهُ نُورُ الإِسْلاَمِ وَلاَ تَأْكُلْ بِشِمَالِكَ فَإِنَّهُ أَكْلُ الشَّيَاطِينِ ، وَلاَ تَنْظُرْ مِنْ ثَقْبِ دَارٍ بِلاَ إِذْنٍ وَإِلاَّ (١) حَلَّ لِأَهْلِهَا فَقْءُ عَيْنِكَ دُونَ قِصَاصٍ مِنَ الْفَاعِلِينَ ، وَلاَ تُقَامِرْ فَإِنَّ الْمُقَامَرَةَ مَا تَعَوَّدَهَا امْرُؤٌ إِلاَّ أَفْسَدَتْ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ وَأُخْرَاه .

(حديث) مَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ تَعَالَ أُقَامِرْكَ فَلْيَتَصَدَّقْ . رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ .

١٦٨ — الانسان أمام آلاء الله تعالى

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى بَلَغَتْ عِنَايَتُهُ بِنَا أَنْ جَعَلَنَا سَادَةَ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا الأَرْضَ وَالسَّمٰوَاتِ وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْكَائِنَاتِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الدُّرَّةُ الْيَتِيمَةُ فِى عِقْدِ مَا بَرَأَ فَاطِرُ السَّمٰوَاتِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ شَكُورٍ صَبَّارٍ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللَّهِ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ لَكَ هٰذَا الْعَالَمَ أَرْضَهُ وَالسَّمٰوَاتِ ، خَلَقَ لَكَ بِحَارَهُ وَجِبَالَهُ وَنَبَاتَهُ وَكَوَاكِبَهُ وَجَمَادَهُ

---

(١) هذا معنى حديث رواه البخارى ومسلم وبه أخذ الجمهور ، وبعض العلماء فهم منه أنه خرج مخرج التغليظ .

وَالحيوانات ، وَبِكَ شغل ملائكته ولك أنزل كتبه وأرسل رسله ليبلغوك شرائعه السماويات ، وما إلى ذلك من النعم التي أفعمت بها هذه الدار . إن ربك أكرمك بكل هذا ثم ابتلاك بما كلفك به من نواه وأوامر ، ليظهر أتقوم بما كلفك به قيام العبد الشاكر أم تعصيه عصيان الكافر ، فإن برهنت على صدق عبوديتك أضاف إلى إكرامك هنا إكرامك فى اليوم الآخر ، وأدخلك الجنة دار كرامته وإحسانه وقد أعدها لأمثالك الأخيار . دار لا تهرم فيها ولا تتعب ولا تجوع ولا تظمأ ولا تشعر بسأم ، لك فيها من الكرامة ما تشتهى نفسك آمنا من طروء موت وسقم ، وإن كنت لا تحترم أمراً ولا نهياً ولا يكون منك على ذلك ندم ، فاستعد لدار الانتقام التى أعدها المنتقم لفريق الفجار . دار فراش من فيها نار وغطاؤه نار ولباسه نار وطعامه وشرابه نار . كلما نضج جلده بدل سواه وإن استغاث أغيث بعذاب تندك له الجبال وتنهار . إذن واجب أن تشكر لتكون فى دار الكرامة بعيداً عن دار الأشرار ، وإذا لم تعص الله تعالى بنعمه فقد قمت بذلك الواجب وكنت من عداد الأبرار .

(حديث) لأنا أشد عليكم خوفاً من النعم منى من الذنوب ألا إن النعم التى لا تشكر هى الحتف القاضى . رواه ابن عساكر .

١٦٩ — الرياء

الحمدُ لله حمدَ عبدٍ إذا عملَ خيراً أخلصهُ لله الواحدِ القهَّار ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ شهادةً يبرأُ المُخلِصُ فيها منْ شوائبِ النظرِ إلى الأغيار ، وأشهدُ أنَّ سيِّدنا ومولانا محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ الذي علَّمنا أنَّ الرِّياءَ وصْفُ المنافقينَ الفُجَّار ، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ وباركْ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ أهلِ الصَّفاءِ الأبْرار .

(أمَّا بعدُ) فيا عبدَ الله : لعلَّكَ ترى أناساً يعملُونَ الخيرَ ويجتهدُونَ فيهِ كلَّ الاجتهاد ، لا ينفتحُ أمامَ أحدِهمْ بابُ خيرٍ إلاَّ ويُجاهِدُ فيهِ بكلِّ ما يُمكنُهُ منْ جهاد ، صعبُ الخيراتِ كسهلِها عندَهُ وبعيدُها كقريبِها لا يُفرِّقُ فيها بَيْنَ وادٍ ووادٍ ، هُوَ مُغرَمٌ بها كُلَّما سنحَ لهُ نوعٌ منها طابَ لهُ عملُهُ وإليْهِ طار . هذا الصنفُ ليْسَ بقليلٍ بيْننا بلْ كثيرٌ وكثير ، إذا وقعتْ عينُكَ عليْهمْ أعجبُوكَ وكانَ لهُمْ في نفسِكَ قدْرٌ كبير ، لكنَّكَ لوْ بحثْتَ عنْ حقيقةِ ما ينطوُونَ عليْهِ أسِفْتَ عليْهمْ أسفَ الخبير ، إذْ يظهرُ لكَ أنَّ القومَ يعملُونَ ما يعملُونَ لا تقرُّباً إلى ربِّهمْ فقطْ كما يُوهِمُ ظاهرُهُمُ الغرَّار . نعمْ يظهرُ لكَ أنَّهمْ لا يخصُّونَ بصالحاتِ أعمالِهمْ ربَّهمْ بلْ يُشرِكُونَ معهُ العباد ، يعملُونَ لتمتلِئَ العيُونُ والصدُورُ بإجلالِهمْ وتنطلِقَ الألسنةُ بالثناءِ عليْهمْ في كلِّ ناد ، ولتلتفَّ الناسُ حولَهُمْ

أينما كانوا معتقدين فيهم أنهم الأفاضل الأمجاد ، هذا ما يعملون له أعمالهم الصالحة وهذا ما يتعبون فى سبيله تعب الأخيار . إنا نبشر هؤلاء أن كل ما يعملونه مردود عليهم مضروبة به منهم الوجوه ، يجيئون يوم القيامة وليس فى صحائفهم ولا موازينهم شىء يسرهم مما عملوه ، يقولون صمنا وصلينا وحججنا وتصدقنا وجاهدنا ويعددون ما قدموه ، فيقال لهم فعلتم ذلك ليقال وقد قيل ثم يؤمر بهم إلى النار وبئس القرار . إذن لو مدحهم الناس مهما مدحوهم لا يدخلهم هذا المدح الجنان ، كما أن هذا المدح مهما غلا لا ينجى الممدوحين من عذاب النيران ، وكذلك لا يخفف هذا المدح عنهم أهوال يوم القيامة وإن كان المدح جليلا وإن كان ، ولا يجعل هذا المدح قبر الممدوح روضة من رياض الجنة ولا يطفىء ما به من نار . ولا يطيل هذا المدح عمر الممدوح عما قدر له لحظة من اللحظات ، ولا يكثر رزقه عما قسم له ربه بمقدار مليم ولو ملأت المدائح الأرض والسماوات ، ولا يدفع هذا المدح عن الممدوح مقدار ذرة مما كتب أن يناله من نكبات ، إذن لا ينفع هذا المدح عاشقيه لا فى هذه الدار ولا فى تلك الدار . إنما ينفع الإنسان مدح واحد فقط وهو مدح مولانا العليم الحكيم ، وهو لا يمدح أحداً إلا إذا أطاعه مخلصاً فى طاعاته واجتنب هذا الشرك الذميم ، فاقطع

نَظَرَكَ فِي طَاعَاتِكَ يَاهٰذَا عَنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ وَمَحِّضْهَا لِخَالِقِكَ الْكَرِيمِ، وَإِذَا كَانَ هٰذَا الْمَدْحُ هٰكَذَا فَالْعَمَلُ إِذَنْ لِأَجْلِهِ نَارٌ عَلَى الْعَامِلِ وَشَنَار.

(حديث) إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ (١) الْأَصْغَرُ قَالُوا يَا رَسُولَ اللّٰهِ وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ ؟ قَالَ الرِّيَاءُ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبَيْهَقِيُّ

١٧٠ — الخمر

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي مَا شَرَّفَنَا بِمَقَامِ الْعُبُودِيَّةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ وَهَبَنَا الْعَقْلَ الْجَلِيلَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ الَّذِي حَظَرَ الْخَمْرَ لِيَحْفَظَ لَنَا الْمَقَامَ النَّبِيلَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي حَرَّمَ كُلَّ مُسْكِرٍ كَثِيرَهُ وَالْقَلِيلَ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ مَعْدِنِ الْكَمَالَاتِ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللّٰهِ : إِذَا كُنْتَ لَا تَعْرِفُ نَفْسَكَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ مِنْ فَصِيلَةِ الْحَيَوَانِ، مِنْ وَادِي الْكَلْبِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْقِرْدِ وَالثَّعْلَبِ وَالْحِمَارِ وَالْعَقْرَبِ وَالثُّعْبَانِ، تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ وَتَطَأُ وَتَنَامُ وَتَنْمُو أَنْتَ وَهِيَ فِي ذٰلِكَ سِيَّانِ، لٰكِنْ بِالْعَقْلِ مَيَّزَكَ عَنْهَا رَبُّكَ بَلْ جَعَلَكَ بِالْعَقْلِ سَيِّدَ الْمَوْجُودَاتِ. أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْخَمْرَ تُغَطِّي هٰذَا الْعَقْلَ

---

(١) الشرك الأكبر أن تعتقد أن لربك شريكا تعامله معاملته سبحانه وتعالى، وهو شرك الكفار الذين كانوا يعبدون الأوثان. والشرك الأصغر فعل المؤمنين المرائين الذين يعبدون الله تعالى وحده ولكنهم يشركون معه الناس لا في أنهم يعبدونهم ولكن في حب الثناء عليهم من أجل عبادته تعالى، وهو من كبائر الذنوب يحبط ثواب الأعمال ويستحق فاعله النار.

وَتجعله كأنَّهُ لَيسَ بِموجود ، فمَنْ تعاطى الخمرَ هوى مِنْ شاهقِ مَجْدِهِ إلى مُستوى الخنازيرِ والقرود ، ومَعنى هذا أنَّهُ انحطَّ اختياراً عَنْ أسمى مَركزٍ إلى أسفلِ مَركزٍ مَوجود ، هذا تحديدُ قدرِ شاربِ الخمرِ وهوَ مِنَ الحقائقِ المُدهشات . يُصدِّقُ هذا التحديدَ مَنْ يرى شاربَ الخمرِ وقدِ استولى عليهِ الشراب ، فإنَّكَ ترى مَنْ معهُ يجرُّهُ كما يجرُّ أيَّ دابةٍ مِنَ الدواب ، بلِ الدابةُ تمشي هادئةً إذا جُرَّتْ لا تُتعِبُ مَنْ يقودُها أيَّ إتعاب ، وهذا يَميلُ بقائدِهِ هكذا وهكذا حتَّى يُكلِّفهُ متاعبَ كثيرات . الدابةُ إذا رأتْ حُفرةً تباعدتْ عنها تتَّقي التردِّي لأنَّهُ ضرر ، أمَّا شاربُ الخمرِ فتكونُ أمامَهُ الحفرةُ فلا يتَّقيها ويَسقطُ فيها كالحجر ، والدابةُ إذا حاولتَ أخذَ طعامِها منها قدْ تُحاربُكَ حرباً فيهِ الخطر ، وشاربُ الخمرِ تُسلبُ منهُ نقودُهُ مهما كثُرتْ دونَ مُدافعاتٍ ولا ممانعات . معنى هذا أنَّ شاربَ الخمرِ وقتَ شربِهِ أرجحُ منهُ البهيم ، إنَّ عجباً أنْ يكونَ هذا قدرَ المخمور وهوَ يعتقدُ أنَّهُ وحدَهُ العظيم ، ولكنْ لا عجبَ فهوَ مسلوبُ العقلِ فليسَ بغريبٍ أنْ يعتقدَ أنَّ الشيطانَ ملكٌ كريم ، ولوْ تذكَّرَ أنَّهُ قضى على إنسانيتِهِ لفهمَ أنَّهُ فى أسفلِ الدرجات . مَنْ أرادَ أنْ يعرفَ قدرَ السكيرِ فلينظرْ ضحكَهُ والخمارُ يصفعُهُ على قفاه . ولينظرْ رقصَهُ أمامَ الصغارِ كأنَّهُ قردٌ يُرقِّصُهُ القرَّادُ ليُضحِكَ مَنْ يراه ، ولينظرْهُ

399

وَهُوَ يَجْرِي وَرَاءَ أُمِّهِ أَوْ بِنْتِهِ لِيَقْضِيَ مِنْهَا مُنَاه ، وَلْيَنْظُرْهُ وَامْرَأَتُهُ تَمْسَحُ لَهُ مَا قَذَفَهُ عَلَى ثِيَابِهِ مِنَ الْقَاذُورَات . هٰذَا قَدْرُ السِّكِّيرِ فِي نَظَرِنَا أَمَّا عِنْدَ ٱللهِ فَهُوَ كَعَابِدِ الْأَصْنَام ، مَلْعُونٌ هُوَ وَمَنْ عَصَرَ الْخَمْرَ وَمَنْ بَاعَهَا وَمَنْ حَمَلَهَا إِلَيْهِ وَسَاقِيهِ الظَّلَّام ، النَّارُ فِي انْتِظَارِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَرَى مِنْ آلَامِهَا مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى الْأَفْهَام ، وَهُوَ جَدِيرٌ بِهٰذَا لِأَنَّ مَنْ ذَهَبَ عَقْلُهُ لَا يَتَوَقَّى شَيْئًا مِنَ الْمَحْظُورَات .

(حديث) مَنْ لَقِيَ اللهَ مُدْمِنَ خَمْرٍ ، لَقِيَهُ كَعَابِدِ وَثَنٍ [1] . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ .

(آخر) لَعَنَ اللهُ الْخَمْرَ وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا وَبَائِعَهَا وَمُبْتَاعَهَا وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ وَآكِلَ ثَمَنِهَا . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالْحَاكِمُ .

١٧١ — كيف نعرف ربنا

هل لا يشقى إلا الجاهل به تعالى

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي إِنَّمَا يَخْشَاهُ مَنْ عَرَفَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِين ، وَأَشْهَدُ أَنْ

(١) وجه المماثلة بينهما أن كلا منهما أهدر عقله — عابد الوثن عبد ما لا ينفع ولا يضر — وشارب الخمر أقدم على القضاء على عقله الذى هو به انسان بلا فائدة لا بل مع الضرر الذى لا ينكره عاقل فى الدنيا والآخرة ، أو أن شارب الخمر كافر كعابد الوثن لأن الشأن فى شارب الخمر عند شربها أن يكون فرحا مسرورا مستملحا لها ومستعذبا وذلك آية الاستحلال ولا شك أن من وصلت به الغفلة وقت شربها إلى استحلالها — كان كافراً بلا تردد .

لا إلهَ إلاَّ اللهُ الذى أساسُ الخيرِ معرفتهُ بآثارِهِ وبما وصفَ نفسَهُ فى الدين ، وأشهدُ أنَّ سيدَنا ومولانا محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ سيّدُ العارفينَ بربِّ العالمين ، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ على سيّدِنا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ وكلِّ عارفٍ بربِّهِ ذى الجلال .

(أمَّا بعدُ) فيا عبدَ اللهِ : لا تستبعِدْ نعمةً تحصُلُ لكَ ولا نقمةً تزولُ عنكَ فربُّكَ على ذلكَ قدير ، وإذا فعلتَ أىَّ فعلٍ بأىِّ مكانٍ فتأكَّدْ أنَّهُ تعالى بكَ بصير ، وإذا نطقتَ فلا تشُكَّ أنَّهُ تعالى السَّميعُ يسمعُكَ أسررتَ أمْ نطقتَ بصوتٍ جهير ، ومهما أدهشكَ الخلقُ بأفعالِهم فاعلمْ أنَّهُ تعالى هوَ وحدَهُ الفعَّال . إذا ملكتَ شيئًا فلا تغترَّ واعلمْ أنَّهُ تعالى مالكُكَ ومالكُ ما ملكتَ ، وإذا وهبتَ لأحدٍ هبةً فلا تمُنَّ فإنَّهُ تعالى الوهَّابُ لِما وهبتَ ، ولا تظُنَّ أنَّهُ تعالى يُضيعُ صالحَ عملِكَ فإنَّهُ الشَّكورُ لِما عملتَ ، ولا تيأسْ مِنْ رحمتِهِ فإنَّهُ الغفورُ وإنْ كانتِ الذنوبُ أمثالَ الجبال . وإذا كُنتَ ذليلاً فلا تستبعِدْ أنْ يُعزَّكَ فإنَّهُ تعالى المعزُّ يُعزُّ الأذلاء ، وإذا رأيتَ عزيزًا فلا تستغربْ أنْ يذلَّ فإنَّهُ تعالى المذلُّ يُذلُّ الأعزاء ، ولا تتصوَّرْ أنَّهُ يتصرَّفُ بلا حكمةٍ فإنَّهُ الحكيمُ بغايةِ الحكمةِ يفعلُ ما يشاء ، ولا تظُنَّ أنَّهُ يجهلُ سرًّا فإنَّهُ العليمُ بكلِّ شىءٍ والجهلُ عليهِ تعالى مُحال . وإذا كثُرَ أوْ قلَّ رزقُكَ فلا تتوهَّمْ

أن ذلك منك فإنه تعالى الرزاق ، وإذا ولدت ذكوراً أو إناثاً فلا تعتقد أن ذلك من ناحيتك فإن ربك المصور الخلاق ، وإذا سألت فمنعك أو أعطاك أخوك فاعلم أنه تعالى المعطي المانع يوفق أو لا يوفق للإنفاق، وإذا احتجت شيئاً دنيوياً أو أخروياً فاسأله تعالى فإنه مجيب السؤال . وإذا استعظمت آثامك فتب إليه تعالى يقبل متابك فإنه هو التواب الكريم ، وإذا رأيت مجرماً ممهلاً فانتظر له داهية فإنه تعالى المنتقم ذو البطش العظيم ، ومهما رأيت ذا سلطان وقهر فاعلم أنه مقهور له تعالى فإنه القهار الحكيم ، واعلم أنه الودود الذي يتودد بجزيل إحسانه إلى كل من يتودد إليه بصالحات الأعمال . لا تخف أن يظلمك إذا أثابك أو عاقبك فإنه الحكم العدل الذي لا يجور ، ولا تأمن أخذه الشديد إذا تعديت حدوده فإنه القوي الغيور ، هو الذي أحيانا ويميتنا ويبعثنا لأنه المحيي المميت الباعث وإليه تصير الأمور ، ومن لاذ إليه في شدائده لطف به لأنه اللطيف بأدباه الرجال . وإذا عميت عليك مسالك الخير فاستهده يهدك لأنه النور الهادي من الضلال ، وكل إليه أمورك فإنه الوكيل الحفيظ الذي لا يخون ولا يخطئ في حال من الأحوال ، هكذا فاعرف ربك تكن من أهل السعادة لأنه البر

الرءوفُ بعارفيهِ الأبطال، واعلمْ أنهُ لا يشقى أحدٌ أبداً إلا إذا كانَ بهِ تعالى منَ الجهال.

(حديث) يا ابنَ الخطاب اذهبْ فنادِ في الناسِ لا يدخلُ الجنةَ إلا المؤمنونَ. رواهُ مسلمٌ وأحمدُ.

١٧٢ — ماذا يكون لو اقمنا الحدود

الحمدُ للهِ الذي جعلَ المحارمَ حِماهُ وحمى هذا الحمى بعقوباتٍ رادعاتٍ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ شهادةً كمْ حفظتْ أهلها منْ مُهلكاتٍ، وأشهدُ أنَّ سيدنا ومولانا محمداً عبدُهُ ورسولُهُ الذي بدينهِ تبينتِ الأنوارُ والظلماتُ، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ وباركْ على سيدنا محمدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ الهادينَ المهتدينَ.

(أمَّا بعدُ) فيا عبدَ اللهِ: إنَّ الدينَ أساسُ السعادةِ في هذهِ الدارِ وفي دارِ البقاءِ، فمنْ لا دينَ لهُ فهوَ في الدارينِ منْ أهلِ الشقاءِ، إذنْ يجبُ أنْ نحافظَ على الدينِ اعتقاداً وعملاً كما في كتابنا وسُنتنا الغراءِ، والقتلُ في الدنيا والنارُ الأبديةُ في الآخرةِ للمستهينِ بالدينِ وليسمعْ جماعةُ المرتدينَ. ومما لا يُنكرهُ عاقلٌ أنَّ هذهِ الحياةَ رأسُ مالِ الإنسانِ، بها يعملُ لسعادتهِ دُنيا وأُخرى وبدونها هذا العملُ ليسَ في الإمكانِ، إذنْ حفظُ هذهِ الحياةِ واجبٌ ليصلَ بها المرءُ إلى حياةِ الأبدِ في أمانٍ، والقتلُ جزاءُ المعتدي عليها والنارُ تنتظرهُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ إِخْوَانِهِ السَّفَّاكِينَ . وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الدِّينَ وَالْحَيَاةَ لَا يُحْفَظَانِ إِلَّا بِمَا لِلْعَقْلِ مِنْ تَدْبِيرٍ ، إِذَنْ حِفْظُ هَذَا الْعَقْلِ وَاجِبٌ لِيَقُومَ بِوَظِيفَتِهِ قِيَامَ الْحَازِمِ الْقَدِيرِ ، فَمَنْ تَنَاوَلَ أَيَّ مُسْكِرٍ يُغَيِّبُهُ فَقَدْ جَنَى عَلَى الدِّينِ وَالدُّنْيَا جِنَايَةَ شِرِّيرٍ ، فَوَاجِبٌ أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ حَدُّ الشُّرْبِ وَلَوْ قَتَلَهُ فَلْيَسْمَعْ فَرِيقُ السِّكِّيرِينَ . وَكَذَلِكَ تَعْلَمُ أَنَّ الْمَالَ مَادَّةُ الْحَيَاةِ لَا يَعِيشُ أَحَدٌ بِغَيْرِ الْمَالِ ، بِهِ يَشْتَرِي مَآكِلَهُ وَمَلَابِسَهُ وَمَسَاكِنَهُ هُوَ وَمَنْ يَعُولُ مِنْ عِيَالٍ ، إِذَنْ يَجِبُ حِفْظُهُ وَالْيَدُ الَّتِي تَسْرِقُهُ تُقْطَعُ لِتَكُونَ عِبْرَةً لِلْأَمْثَالِ ، وَمَقْطُوعُ الْيَدِ ضَاعَتْ حَيَاتُهُ مَعَ فَضِيحَتِهِ أَيْنَمَا كَانَ فَلْيَسْمَعْ طَوَائِفُ السَّارِقِينَ . وَلَا يَخْفَى عَلَيْكَ أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا تَخْرَبُ إِذَا لَمْ تُرَبَّ الْأَبْنَاءُ ، وَالْأَبْنَاءُ لَا تُرَبَّى إِلَّا إِذَا كَانَ مَعْرُوفًا نَسَبُهُمْ إِلَى الْآبَاءِ ، إِذَنْ حِفْظُ النَّسَبِ وَاجِبٌ وَالزِّنَى يُضَيِّعُهُ وَإِذَا ضَاعَ خَرِبَتِ الدُّنْيَا بِلَا مِرَاءٍ ، لِذَلِكَ يُقْتَلُ الزَّانِي الْمُحْصَنُ رَجْمًا وَيُجْلَدُ غَيْرُهُ مِائَةً وَلَوْمَاتَ فَلْيَسْمَعْ حِزْبُ الزَّانِينَ . وَمَعْرُوفٌ لَكَ أَنَّ الْقَذْفَ بِالزِّنَى يُسِيءُ السُّمْعَةَ وَيُسَوِّدُ الْعَمَائِمَ وَيُطَأْطِئُ رُءُوسَ الْعُظَمَاءِ ، وَكَثِيرًا مَا يُرِيقُ دِمَاءً وَيُشَكِّكُ فِي أَبْنَاءٍ وَيُفَرِّقُ بَيْنَ زَوْجَيْنِ فِي غَايَةِ الصَّفَاءِ ، لِهَذَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَجَعَلَ جَزَاءَهُ ثَمَانِينَ جَلْدَةً لِيَكُفَّ عَنِ الْقَذْفِ السُّفَهَاءُ ، لِيَسْمَعْ هَذَا أُنَاسٌ لَيْسَ عِنْدَهُمْ أَحْلَى مِنْ إِسْنَادِ الزِّنَى لِلْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ . إِنَّ الْمُحَرَّمَاتِ حِمَى رَبِّنَا وَكُلُّ حِمَى

يُحْرَسُ بِحُرَّاسٍ أُمَنَاء ، لِيَحْفَظُوهُ بِهَيْبَتِهِمْ مِنْ أَنْ يَنْتَهِكَ حُرْمَتَهُ وَيَقْتَحِمَهُ مُعْتَدٍ مِنَ اللُّؤَمَاء ، وَقَدْ حَمَى رَبُّنَا مَا سَمِعْتَ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ بِمَا سَمِعْتَ مِنَ الزَّوَاجِرِ لِيُمِيتَ الاعْتِدَاء ، فَلَوْ أَقَمْنَا الْحُدُودَ لَاسْتَقَامَ الْأَمْرُ وَاسْتَتَبَّ الْأَمْنُ وَلَكِنَّا أَبَحْنَا الْحِمَى بِقَتْلِ الْحَامِينَ .

(حديث) إِقَامَةُ حَدٍّ بِأَرْضٍ خَيْرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ مَطَرِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا [1] . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَابْنُ حِبَّانَ وَاللَّفْظُ لَهُ .

١٧٣ — داهية الاعراض عن حفظ القرآن

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَكْرَمَ هٰذِهِ الْأُمَّةَ بِتَوَاتُرِ كِتَابِهَا تَوَاتُرًا لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ انْقِطَاع ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْنَا حِفْظَ كِتَابِهِ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالضَّيَاع ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَيْرُ هَادٍ مُطَاع ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ مَنْ يَرْعَى الذِّمَم .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : إِنَّ أُمَمَ الْأَنْبِيَاء تَتَفَاضَلُ بِمَا لَهَا مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَات ، وَمِنْ أَنْبَلِ أَعْمَالِ الْأُمَمِ عِنَايَتُهَا بِكُتُبِهَا الَّتِي يَخْتَصُّهَا

---

(١) إنما كان الأمر كما أخبر حضرة مولانا الرسول صلى الله عليه وسلم لما أن غاية المطر أن ينبت الزرع وينمو ويكثر الخصب . وذلك خير للناس في دنياهم — أما إقامة حد بجهة من الجهات فيردع أشد الردع عن المعاصي ويلزم السبيل الأقوم ، وذلك خير للناس في دينهم — ولا شك أن خير الدين أجل من خير الدنيا ، زد على ذلك أن الاستقامة سبب قطعي لتيسير الأرزاق — أما المطر فقد ينزل ولا يفيد وقد ينزل فيفسد .

بِهَا فَاطِرُ الأرْضِ وَالسَّمٰوَات ، وَلَوْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ أَىُّ الأُمَمِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَسْمَاهَا دَرَجَات ، فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ الأُمَّةَ المُحَمَّدِيَّةَ هِىَ أَفْضَلُ الأُمَمِ بِشَهَادَةِ رَبِّ الأُمَم . أُرْسِلَ إِلَيْهَا حَضْرَةُ نَبِيِّهَا خَاتَمِ الرُّسُلِ فَاسْتَقْبَلَتْهُ أَفْخَمَ اسْتِقْبَال ، آمَنَتْ بِهِ بِكُلِّ قَلْبِهَا وَوَقَفَتْ بِجَانِبِهِ تُؤَيِّدُهُ بِأَرْوَاحِهَا وَالأمْوَال ، وَعَنْهُ تَلَقَّتْ كِتَابَهَا مُقْبِلَةً عَلَيْهِ إِقْبَالاً يَفُوقُ كُلَّ إِقْبَال ، عَرَفَتْ مَكِّيَّهُ وَمَدَنِيَّهُ لَيْلِيَّهُ وَنَهَارِيَّهُ سَفَرِيَّهُ وَحَضَرِيَّهُ نَاسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ أَحْكَامَهُ وَالحِكَم . حَفِظَتْ أَلْفَاظَهُ وَضَبَطَتْ إِعْرَابَهُ وَأَحْكَمَتْ تَرْتِيلَهُ لاَ تُخْطِئُ فِى لَفْظٍ وَلاَ إِعْرَاب ، جَعَلَتْهُ رِيَاضَ عُقُولِهَا تَتَنَزَّهُ فِى أَرْجَاءِ مَعَانِيهِ لاَ تَمَلُّ الذَّهَابَ وَالإِيَاب ، وَكَمْ قَطَفَتْ مِنْ ثِمَارِ تِلْكَ الرِّيَاضِ مَا يُسْكِرُ عَبِيرُهُ الأَلْبَاب ، وَكَمْ غَرَّدَ بِآيَاتِهِ العَابِدُوهَا مِنْهَا وَلاَ تَغْرِيدَ السَّوَاجِعِ بِأَحْلَى النَّغَم . لَيْسَ حُكْمٌ مِنْ أَحْكَامِهِ إِلاَّ وَكَانَ مَيْدَانًا تَتَسَابَقُ فِيهِ مَلاَيِينَ المَرَّاتِ سَوَابِقُ الأَفْكَار ، وَلَيْسَ لَفْظٌ مِنْ أَلْفَاظِهِ إِلاَّ وَذَاقَتْ عُذُوبَةَ تِلاَوَتِهِ أَلْسِنَةُ مَلاَيِينَ المَلاَيِينِ مِنْ أَهْلِهِ الأَطْهَار ، وَلَيْسَ وَجْهٌ مِنْ وُجُوهِهِ إِلاَّ وَتَسَلْسَلَ تَوَاتُرُ رِوَايَتِهِ تَسَلْسُلاً يَقْطَعُ لِسَانَ الإِنْكَار ، وَلَيْسَ لَنَا مَوْلُودٌ إِلاَّ وَهُوَ مَقْصُودُهُ بِمُجَرَّدِ أَنْ أُمِيطَتْ عَنْهُ تَمَائِمُهُ وَانْفَطَم .

كَذَّابٌ مَنْ يَقُولُ أَسْتَطِيعُ حَصْرَ حُفَّاظِ القُرْآنِ مِنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ الجَلِيلَه ، وَيَجِلُّ فِى نَظَرِكَ حَافِظُهُ وَهُوَ لَمْ يَتَجَاوَزِ العِقْدَ الأَوَّلَ مِنْ

حَيَاتِهِ النَّبِيلَه ، وَمِثْلُهُ الآلاَفُ وَالملاَيِينُ مِنْ كُلِّ عَصْرٍ يُتْقِنُونَ حَقَّ الإِتْقَانِ حِفْظَهُ وَتَرْتِيلَه ، كَيْفَ لاَ وَهُوَ دِينُنَا وَأَهَمُّ مَا تَتَّجِهُ إِلَيْهِ مِنَّا جِيَادُ الهِمَمِ . مَا رَأَى الوُجُودُ قَطُّ أُمَّةً عُنِيَتْ بِكِتَابِهَا عِنَايَةً تُمَاثِلُ أَوْ تُدَانِي هٰذِهِ العِنَايَات ، وَلٰكِنْ دَهَانَا فِي هٰذَا العَصْرِ دَاهِيَةُ الإِعْرَاضِ عَنْ حِفْظِ هٰذَا القُرْآنِ وَهِيَ كَارِثَةُ الكَارِثَات ، وَلَوْ دَامَ هٰذَا قَلِيلاً مِنَ الزَّمَنِ لَأَصْبَحْنَا وَحِفْظُ القُرْآنِ بَيْنَنَا حِكَايَات ، وَالعَجَبُ أَنَّ الأُمَّةَ سَاهِيَةٌ لاَهِيَةٌ وَهِيَ مُهَدَّدَةٌ فِي أَقْدَسِ شَيْءٍ عِنْدَهَا مُحْتَرَم . إِنَّ هٰذَا حَالٌ يُغْضِبُ اللهَ وَيُحْزِنُ رَسُولَهُ وَالمُؤْمِنِينَ وَيَسُرُّ إِبْلِيسَ وَجُنُودَهُ أَعْدَاءَ الإِسْلاَم ، وَهَلْ يَسُرُّكَ أَنْ تَسُرَّ إِبْلِيسَ وَجُنُودَهُ وَتُغْضِبَ اللهَ وَرَسُولَهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَم ، إِنَّ عَاراً عَظِيماً أَنْ يَحْتَاجَ المُسْلِمُ فِي المُحَافَظَةِ عَلَى حِفْظِ القُرْآنِ لِكَلاَم ، فَقَاوِمُوا أَيُّهَا النَّاسُ هٰذِهِ الدَّاهِيَةَ وَإِلاَّ فَهٰذِهِ حَيَاةٌ خَيْرٌ مِنْهَا العَدَم .

(حديث) لَتُنْتَقَوُنَّ كَمَا يُنْتَقَى التَّمْرُ مِنَ الحُثَالَةِ فَلَيَذْهَبَنَّ خِيَارُكُمْ وَلَيَبْقَيَنَّ شِرَارُكُمْ ، فَمُوتُوا إِنِ اسْتَطَعْتُمْ . رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه وَالحَاكِمُ .

(آخر) لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُرْفَعَ الرُّكْنُ [1] وَالقُرْآن . رَوَاهُ السِّجْزِيُّ .

---

(١) الركن ركن بيت الله الحرام يهدم ويرفع مافيه وهو الحجر الأسود ، وقد ورد هدم الكعبة وانقطاع زيارتها فى غير ماحديث — أما رفع القرآن فيعنى به انتزاعه من الصدور كما جاء فى أحاديث ، والقرآن هو النور الالهى فى الأرض ، فإذا رفع أصبح الناس يسعون فى الدنيا

١٧٤ ـ آثار الدين فى العاملين به وغير العاملين

الحمدُ للهِ الذى يُعِزُّ مَنْ يعملُ بدينِهِ ويُذِلُّ مَنْ لا يعملُ بهذا الدين ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ شهادةَ مَنْ لمْ يتيقّنْها فليسَ مِنَ المسلمين ، وأشهدُ أنَّ سيدَنا ومولانا محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ خيرُ خلقِ اللهِ أجمعين ، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ وباركْ على سيدِنا محمدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ وكلِّ مؤمنٍ مفضال .

(أمّا بعدُ) فيا عبدَ الله : كانَ سلفُنا يزورُ بعضُهُمْ بعضًا فكانتْ مجالسُهُمْ مجالسَ بركاتٍ ورحمات ، كانوا يتزاورونَ شوقًا إلى بعضِهِمْ ومذاكرةً للعِلْمِ وتذكّرًا للمماتِ وما بعدَ الممات ، يتساءلونَ عنْ أورادِهِمْ ومقدارِها فى الصلاةِ والصيامِ والأذكارِ والصدقات ، هذا مدارُ مجالسِهِمْ لا يخطئونَهُ ولا يخطرُ غيرُهُ لهُمْ على بال . أينَ مِنْ هذا مجالسُنا وهى مواردُ غضبٍ ومقتٍ ولعنٍ وانتقام ، لأنَّ ما يجرى فيها يدورُ حولَ الطعنِ واللعنِ والتمزيقِ فى أعراضِ الكرام ، نتساءلُ كمْ مرتّبُ زيدٍ وكمْ فدانٍ عندَ عمرٍو وكمْ إيرادُ همّام ، أليسَ ذلكَ قطعًا لما بيننا وبينَ سلفِنا مِنَ الاتصال . كانتْ أسفارُهُمْ للقاءِ أحبارِ الأمّةِ أوعيةِ العلمِ مهما كانوا بعيدين ، يتلقّونَ عنهُمْ علمَ الكتابِ

بلا هدى ولا نظام — فالفوضى التى يكونون عليها حينئذ تخرب الدنيا وتجعلها غير صالحة للبقاء ، وحينئذ يذهب النور الآخر نور الكواكب فتنتثر وتذهب ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات .

وَالسُّنَّةِ وَيَتفقهُونَ عليهم في الدين ، أمّا نحنُ فإلى لِقاء لَيْلَى وَسُعْدَى نُسافِرُ نَتلقّى دُرُوس شهوات البهيميِّين ، أليس مِنَ العجب أن يكونَ أولئكَ الناسُ سلفنا وبيننا وبينهم هذا الانفصال . كانَ حُبُّهُمْ لبعضهم وتوادهم وتراحمهم فوق ما نتصوّرُ فى هذا الزّمان ، ومَنْ يَتصوّرُ اليومَ أنّ المرء يقدّمُ طعامهُ لأخيه وهُوَ في مخمصةٍ جوْعان ، أينَ حالنا منْ هذا ونحن نرى أحدُنا أخاهُ أوْ أباهُ يموتُ جوعاً وهُوَ يَمرحُ جذلان ، أليس هذا بُرهاناً قاطعاً على أنّ سلفنا كانُوا بحال وأصبحنا بحال . كُنْتَ تمرُّ ببيُوتهم خصُوصاً بالليل فلا تسمعُ إلاّ دوِيّ أصواتهم بذكر الله وتلاوة القرآن ، نعمْ كُنْتَ تسمعُ منهُمْ من ذلكَ مايثيرُ كوامنَ أشواقكَ إلى فعلِ ما يُرضِي الرّحمٰن ، والآنَ لا نسمعُ مِنْ بُيُوتنا إلاّ ما يُحرّضُكَ على الفسْقِ مِنْ أغانٍ غراميّةٍ وألحان ، يُردّدُها النّايُ والعودُ والكمنجةُ والفونوغرافُ والرّاديُو والنساء ذواتُ الأصواتِ الرّخيمةِ والرّجال . كانُوا يُحبُّونَ الدين بكُلِّ قُلُوبهمْ فكانُوا يغارُونَ عليهِ كما يغارُ السّبُعُ على العرين ، فكانُوا لا يلمحُونَ مُخالفاً لهُ إلاّ ثارُوا عليهِ كما يثُورُ على مُهاجمِ الحرمِ الغيُورُ الأمين ، أمّا نحنُ فنرى منْ يرتدُّ عن الدينِ فلا تتحرّكُ منّا شعرةٌ على أولئكَ المُرتدّين ، لهذه الفوارقِ بيننا وبينَ سلفنا عزّوا رضِيَ اللهُ عنهُمْ وأذلّنا عدوُّنا هذا الإذلال .

(حديث) خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ (١). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ.

١٧٥ هل بصلاحنا يصلح أبناؤنا وبفسادنا يفسدون !

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَرَنَا بِالْاسْتِقَامَةِ لِنَكُونَ قُدْوَةً حَسَنَةً لِلْمُقْتَدِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي عَلَّمَنَا كَيْفَ نَكُونُ مَعَ أَبْنَائِنَا كَمُؤَدِّبِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ سَيِّدُ الْهَادِينَ وَالْمُهْتَدِينَ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ وَالِدٍ مِفْضَالٍ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : أُمْشِ بَيْنَ رُبُوعِنَا وَادْخُلْ بُيُوتَنَا وَتَتَبَّعْ كُلَّ الشَّوَارِعِ وَالْحَارَاتِ، وَأَرْسِلْ طَرْفَكَ وَاحْكُمْ بِعَقْلِكَ فِيمَا تَرَى مِنْ أَخْلَاقِ أَبْنَائِنَا وَالْبَنَاتِ، أَنْتَ إِنْ فَعَلْتَ هَذَا رَجَعْتَ مِنْ مَطَافِكَ وَقَدِ امْتَلَأَ قَلْبُكَ حَسَرَاتٍ، لِمَا تُشَاهِدُ مِنْ فَسَادٍ فِي الْأَخْلَاقِ وَقُبْحٍ فِي الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ. نَشَأَ الْأَوْلَادُ فِي بُيُوتٍ لَا تَعْرِفُ الْفَضَائِلَ بَلْ وَلَا أَسْمَاءَ الْفَضَائِلِ، لَهُمْ آبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ يَتَقَلَّبُونَ لَيْلَهُمْ وَنَهَارَهُمْ إِمَّا فِي الرَّذَائِلِ أَوْ فِيمَا يُوَصِّلُ لِلرَّذَائِلِ، كُلُّهُمْ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ وَقَعُوا

(١) أى يكون أولئك الأقوام من الغفلة بدرجة تجعلهم فى غاية الجرأة حتى على اقتحام كبائر المعاصى فيشهد أحدهم زورا ولايبالى ويحلف برب العالمين كاذبا ولا يبالى — والذى بهذه الحالة لا تستبعد عليه معصية أيا كانت .

فى أسر الشيطان صادهم بما له من حبائل ، إن دعا لبوا دعاءه وإن أمر بأى منكر سارعوا إلى الامتثال . بين هؤلاء وفى أحضانهم ترعرع أبناؤنا فلم يروا من الخير حتى الخيال ، فعلى نهج آبائهم نشأوا وفى طريقهم ساروا لا يلوون إلى يمين ولا شمال ، وأنت تعلم أن أفعل شىء فى نفس الأبناء ما يرون عليه آباءهم من الأفعال ، ولعلك لا تجهل أن الأمم قديماً لأجل أفعال آبائها كذبت رسل ربها الكبير المتعال . وأنت لليوم ترى الولد يشيب على ما شب عليه بين الآباء ، فإن كان بيته بيت تقى كان تقياً وإلا كان من الفسقة الأدنياء ، تأكد أن هذا هو الكائن ولو تعلم الولد وكان من كبار الأذكياء ، وفى قصة ميلاد السيدة الجليلة مريم لسيدنا عيسى ما يحقق هذا المقال . سر هذا أن أول ما يرى الأولاد فى الدنيا هو فعل الآباء والأمهات ، وللآباء والأمهات قدرهم الأعلى وحنانهم الأغلى عند الأبناء وأسنانهم حديثات ، فيكون لأفعالهم قدرها عند الأبناء يقلدونهم فيها معتقدين أنها الواجبات ، يشبون وتشب معهم فتكون كالغرائز انتزاعها منهم فى درجات المحال . إذن على الآباء والأمهات أن يكونوا قدوة حسنة لبناتهم والبنين ، لا يقولون ولا يفعلون إلا الحسن الجميل لينشأ عليها أولئك الأبناء المساكين ، هم مسئولون عنهم يذمون عند الله والناس إن أساءوا تربيتهم ويمدحون

إِنْ كَانُوا مِنَ الْمُحْسِنِين، هَلْ مِنْ سَمِيعٍ يَسْمَعُ هٰذَا وَيَعْمَلُ بِهِ لِيَكُونَ أَبْنَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ الْكَمَالِ .

(حديث) كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ .

المواقيت السنوية

١٧٦ — حالنا فى ديننا . الهجرة

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى أَخْرَجَ نَبِيَّهُ وَعِبَادَهُ مِنْ أَشْرَفِ بَلَدٍ لِكَىْ يَنْصُرَ دِينَ الْإِسْلَامِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ الَّذِى فَرَضَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْىَ عَنِ الْمُنْكَرِ لِيَنْكَمِشَ الْفَجَرَةُ اللِّئَامُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى وَقَفَ أَمَامَ أَهْلِ الدُّنْيَا يَدْعُوهُمْ إِلَى دِينِهِ بِكُلِّ إِقْدَامٍ ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدَ إِشَارَتِهِ فِى كُلِّ حَالٍ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّٰهِ : إِنَّ مِمَّا يُوجِعُ الْقَلْبَ مَا عَلَيْهِ الْإِسْلَامُ الْيَوْمَ مِنْ هَوَانٍ ، ذٰلِكَ الْهَوَانُ الَّذِى لَا أَظُنُّ أَنَّهُ رَآهُ فِى زَمَنٍ مِنَ الْأَزْمَانِ ، قَدِ انْتُهِكَتْ حُرُمَاتُهُ وَدِيسَتْ شَعَائِرُهُ وَكَانَ مِنَ التَّهَاوُنِ بِهِ مَا كَانَ ، كَأَنَّهُ وَاللّٰهِ مَا هُوَ دِينُنَا وَلَا نَعْرِفُهُ وَلَا عَلَاقَةَ لَنَا بِهِ بِحَالٍ . مَا بَقِىَ وَاجِبٌ مِنْ وَاجِبَاتِهِ إِلَّا تَجَاهَرَ بِتَرْكِهِ جَمَاهِيرُ مِنَّا حَتَّى الْإِيمَانَ ،

وَلاَ رَأَيْنَا مُحَرَّمًا مِنْ مُحَرَّمَاتِهِ إِلاَّ اقْتَحَمَهُ طَوَائِفُ مِنَّا حَتَّى الْكُفْرَ بِالرَّحْمٰنِ ، وَالَّذِي يَزِيدُ الْقَلْبَ وَجَعًا إِهْمَالُنَا لَهُ وَإِعْرَاضُنَا عَنْهُ وَهُوَ بِذٰلِكَ الشَّأْنِ ، حَتَّى كَانَ مِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ مَا يَجْزَعُ لَهُ كُلُّ بَصِيرٍ مِفْضَال. كَانَ أَنْ فَهِمَ مِنَّا غَيْرُنَا أَنْ لاَ قِيمَةَ لِهٰذَا الدِّينِ عِنْدَنَا وَوُجُودُهُ وَعَدَمُهُ سَوَاء ، فَطَمِعُوا فِى كُفْرِنَا بِهِ وَدُخُولِنَا فِى دِينِهِمْ وَصَارَحُونَا بِهٰذَا الْهُرَاء ، بَنَوْا بَيْنَنَا مَدَارِسَ وَمُسْتَشْفَيَاتٍ يَدْعُونَ فِيهَا أَبْنَاءَنَا وَمَرْضَانَا إِلَى دِينِهِمْ بِكُلِّ أَنْوَاعِ الدُّعَاء ، لاَ بَلْ دَخَلُوا بُيُوتَنَا لِهٰذَا وَكَمْ كَفَّرُوا بِدَهَائِهِمْ مِنْ أَبْنَاءٍ وَنِسَاءٍ وَرِجَال . هٰذَا بِكُلِّ مَعْنَاهُ مَوْجُودٌ بَيْنَنَا يَعْرِفُهُ الصَّغِيرُ مِنَّا وَالْكَبِيرُ وَلاَ كَأَنَّهُ مَوْجُود ، وَلَيْسَ بَعْدَ هٰذَا بُرْهَانٌ يَدُلُّ عَلَى هَوَانِ هٰذَا الدِّينِ وَمَا لَنَا إِزَاءَهُ مِنْ جُمُود ، نَحْنُ لاَ نُقَدِّرُ هٰذَا الدِّينَ قَدْرَهُ وَلَوْ قَدَّرْنَاهُ مَا كُنَّا مَعَهُ بِهٰذَا الْحَالِ غَيْرِ الْمَحْمُود ، كُنَّا عَلَى الْأَقَلِّ نُحَافِظُ عَلَيْهِ فِى أَنْفُسِنَا فَنَكُونُ عِنْدَ ذٰلِكَ الْغَيْرِ مَوْضِعَ احْتِرَامٍ وَإِجْلاَل . إِنَّ هٰذَا الدِّينَ دِينُ اللهِ تَعَالَى خَالِقِ هٰذِهِ الْأَرْضِ وَهٰذِهِ السَّمَاوَات ، كَانَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بِبَعْضِ الْآيَةِ مِنْهُ مَلَكٌ جَلِيلٌ عَلَى رَسُولٍ خُتِمَتْ بِهِ الرِّسَالاَت ، أَرَادَهُ أَعْدَاؤُهُ بِسُوءٍ حِينَمَا نَزَلَ وَكَذٰلِكَ أَرَادُوا الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَالْمُؤْمِنَات ، فَأَخْرَجَهُ رَبُّهُ مِنَ الدَّارِ الَّتِي أَهْلُهَا هٰكَذَا إِلَى دَارٍ بِهَا اعْتَزَّ هُوَ وَمَا لَهُ مِنْ آل ، أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ أَنْ يُهَاجِرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَيَتْرُكُوا مَكَّةَ بَلَدَ آبَائِهِمْ

وَالجُدُود ، مَكَّةَ الَّتِي لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ بَلْدَةٌ تُسَامِيهَا فِي شَرَفِهَا البَاذِخِ المَعْهُود ، فَعَلَ ذٰلِكَ رَبُّنَا مُحَافَظَةً عَلَى دِينِهِ وَعِبَادِهِ مِنْ ضَرَرِ عَدُوٍّ حَقُود ، دِينِهِ الَّذِي لَوْلاَهُ مَا سَعِدَ امْرُؤٌ فِي الحَالِ وَلاَ فِي المَآل. صَدَعَ المُؤْمِنُونَ بِهٰذَا الأَمْرِ وَبِالمَدِينَةِ اجْتَمَعَ أُسُودُ الإِسْلاَمِ المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَار ، وَهُنَاكَ أُمِرُوا أَنْ يُدَافِعُوا عَنْ دِينِهِمْ كُلَّ مَنْ أَرَادَهُ بِسُوءٍ مِنَ الكُفَّار ، فَوَقَفُوا أَمَامَ العَالَمِ كُلِّهِ يُؤَيِّدُونَ دِينَهُمْ بِأَرْوَاحِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ أَمَامَهُمْ رَسُولُهُمُ المُخْتَار ، وَبِهٰذَا كَانَ العَزِيزَ وَكَيْفَ لاَ يَكُونُ كَذٰلِكَ وَيَدُ الدِّفَاعِ عَنْهُ يَدُ كُمَاةٍ أَبْطَال . مَا كَانُوا إِذْ ذَاكَ بِقُوَّتِنَا وَلاَ يَبْلُغُونَ مِنْ عَدَدِنَا اليَوْمَ عُشْرَ مِعْشَار ، لٰكِنْ كَانَ لَهُمْ مِنَ الثِّقَةِ بِاللهِ وَبِتَأْيِيدِهِ مَا لاَ نَشْعُرُ بِهِ فِي هٰذِهِ الأَعْصَار ، فَهَلْ لَنَا أَنْ نَعْمَلَ لِعِزِّهِ كَمَا كَانَ يَعْمَلُ أُولٰئِكَ السَّلَفُ الأَطْهَار ، بِئْسَ القَوْمُ نَحْنُ إِذَا لَمْ نَفْعَلْ ذٰلِكَ وَلَوْ بِإِنْكَارِ مُنْكَرَاتِنَا فَقَطْ بِالمَقَال.

(حديث) بِئْسَ القَوْمُ قَوْمٌ لاَ يَقُومُونَ لِلّٰهِ بِالقِسْطِ ، بِئْسَ القَوْمِ قَوْمٌ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالمَعَاصِي فَلاَ يُغَيِّرُونَ . رَوَاهُ الدَّيْلَمِيُّ .

١٧٧ — مقدار فضل ربنا علينا
هل نهاجر إذا لم نستطع شكره

الحَمْدُ لِلّٰهِ حَمْدَ عَبْدٍ صَدَقَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ فَلَمْ يَصُدَّهُ عَنْهَا شَدِيد ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةَ إِنْسَانٍ لاَ يَرْتَضِي وَطَنًا إِلاَّ مَا يَكُونُ

فِيهِ أَمَامَ صَالِحَاتِ الْأَعْمَالِ كَمَا يُرِيد ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَيْرُ مَنْ عَبَدَ مَوْلَاهُ الْغَنِيّ الْحَمِيد ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ تَرَكُوا أَوْطَانَهُمْ فى سَبِيلِ دِينِهِمُ الْقَوِيم .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : إِنَّ رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ وَبَاطِلٌ كُلُّ مَا عَدَاه ، هُوَ وَحْدَهُ خَلَقَ كُلَّ هٰذَا الْوُجُودِ مِنْ أَدْنَاهُ لِأَعْلَاه ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي أَيِّ فِعْلٍ وَلَا وَزِيرَ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَمْضَاه ، لَهُ التَّصَرُّفُ وَحْدَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ لِأَنَّهُ الْعَلِيمُ الْحَكِيم . خَلَقَنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيمَا خَلَقَ وَجَعَلَنَا وَاسِطَةَ عِقْدِ هٰذِهِ الْكَائِنَات ، لَا نَوْعَ مِنْ أَنْوَاعِ هٰذِهِ الْعَوَالِمِ يُمَاثِلُنَا مِنَ الْعُلْوِيَّاتِ كَانَ أَمْ مِنَ السُّفْلِيَّات ، وَكَمَا خَلَقَنَا وَحْدَهُ تَكَفَّلَ وَحْدَهُ بِرِزْقِنَا وَبِكُلِّ مَا لَنَا مِنْ حَاجَات ، هُوَ أَخْبَرَ بِذَلِكَ وَهُوَ وَحْدَهُ الْقَادِرُ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ الْغَنِيُّ الْكَرِيم . كُلُّ هٰذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ مُحْتَاجَةٌ إِلَيْهِ وَلَا حَاجَةَ لَهُ هُوَ إِلَى هٰذِهِ الْمَخْلُوقَات ، لِأَنَّ لَهُ الْكَمَالَ الْمُطْلَقَ وَالْحَاجَةُ نَقْصٌ وَالنَّقْصُ عَلَيْهِ مِنَ الْمُسْتَحِيلَات ، إِذَنْ مِنْهُ تَعَالَى كُلُّ نِعْمَةٍ عَلَيْنَا بَاطِنَةً تِلْكَ النِّعَمُ أَوْ ظَاهِرَات ، وَلَوْلَا فَضْلُهُ مَا رَأَيْنَا هٰذَا الْوُجُودَ وَلَا رَأَيْنَا مَا فِيهِ مِنْ خَيْرٍ عَمِيم . إِذَنْ وَاجِبٌ عَلَيْنَا إِزَاءَ كُلِّ هٰذَا أَنْ نَشْكُرَهُ تَعَالَى

415

شُكرَ العَبيدِ المُخلِصينَ ، نَعبُدُهُ وَحدَهُ كَما خَلَقَنا وَحدَهُ وَتَكَفَّلَ بِحاجاتِنا أَجمَعينَ ، هُوَ لِذلِكَ خَلَقَنا فَوَظيفَتُنا كُلُّنا أَنْ نَعبُدَهُ مُخلِصينَ لَهُ الدّينَ ، وَهذِهِ العِبادَةُ مِنْ مَصلَحَتِنا لِأَنَّها تُبَرهِنُ عَلى أَنَّ العَبدَ شاكِرٌ لَيسَ بِلَئيمٍ . غَيرُ مُرَخَّصٍ لِمُكَلَّفٍ أَنْ يَترُكَ هذِهِ العِبادَةَ وَإِلّا تَعَرَّضَ لِغَضَبِ اللهِ ، كَما أَنَّ القائِمَ بِأَدائِها كَما أُمِرَ يَنالُ مِنهُ تَعالى ثَوابَهُ وَرِضاهُ ، وَمَنْ عودِيَ بِمَكانٍ وَشُدِّدَ عَلَيهِ في تَركِها وَجَبَ عَلَيهِ أَنْ يُهاجِرَ لِسِواهُ ، كَما هاجَرَ سَيِّدُ الخَلقِ وَأَصحابُهُ إِلى المَدينَةِ ذاتِ المَقامِ الفَخيمِ . هاجَروا فِراراً بِدينِهِمْ مِنْ مَكَّةَ وَهِيَ أَشرَفُ بَلدَةٍ بَينَ جَميعِ البِلادِ ، وَلَمّا عَلِمَ مَولاهُمْ صِدقَ نَواياهُمْ جَعَلَ أَقدامَهُمْ فَوقَ جِباهِ العِبادِ ، وَأَدخَلَهُمْ مَكَّةَ قَهراً كَما أُخرِجوا مِنها قَهراً لِيُرغِمَ بِأَولِيائِهِ آنافَ أَهلِ العِنادِ ، وَإِنَّما فَعَلَ ذلِكَ رَبُّنا لِيُرِيَنا عاقِبَةَ الصّالِحينَ حَتّى في هذِهِ الدّارِ قَبلَ دارِ التَّكريمِ .

(حديث قدسي) قالَ اللهُ إِنّي وَالإِنسَ وَالجِنَّ في نَبَإٍ عَظيمٍ أَخلُقُ وَيُعبَدُ غَيري ، وَأَرزُقُ وَيُشكَرُ غَيري . رَواهُ الحاكِمُ في التّاريخِ وَالطَّبَرانِيُّ وَالبَيهَقِيُّ في الشُّعَبِ وَغَيرُهُمْ .

١٧٨ (— لمناسبة المولد النبوي الشريف)

الحَمدُ للهِ الَّذي جَمَّلَ الوُجودَ بِإيجادِ حَضرَةِ نَبِيِّنا أَكرَمِ الخَلقِ

وَصفوةِ العالمين ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ الذى أرسلَ هذا الرسولَ الأمىَّ رحمةً للأولين والآخرين ، وأشهدُ أنَّ سيدَنا ومولانا محمداً عبدُه ورسولُه أشرفُ عبدٍ أتى بأشرفِ دين ، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ وباركْ على سيدِنا محمدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ وعلى كلِّ عبدٍ مستقيم .

(أما بعدُ) فيا عبدَ الله : اشتهرَ أنَّ نبيَّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وُلِدَ فى الثانى عشرَ من هذا الشهرِ الكريم ، وكانَ ذلكَ ببلدِ اللهِ الحرامِ مكةَ ذاتِ المقامِ العظيم ، وأنتَ تعلمُ أنَّ مكةَ بلدةٌ شديدةُ الحرِّ تكتنفها الجبالُ اكتنافَ الهالةِ بالبدرِ الوسيم ، فموقعُها الطبيعىُّ يُبعدُها عن العلمِ وعن كلِّ شأنٍ فخيم . فى هذا البلدِ نشأ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَ قومٍ أعراب ، يعبدونَ الحجارةَ من دونِ اللهِ تعالى وأمرُهم دائماً فى اضطراب ، ليسَ بمحترمٍ عندَهم أموالٌ ولا أرواحٌ ولا أعراضٌ ولا أنساب ، لذلكَ كانتْ نيرانُ الفتنِ تلتهبُ دائماً بينَ ربوعِهم كالتهابِها فى الهشيم . بينَ هؤلاءِ شبَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ممتازاً بصفاتٍ تبيَّنَ أنها لمقامِ الرسالةِ مقدِّمات ، لذلكَ كانَ بينهم ملءَ العيونِ والصدورِ حتَّى لقَّبوهُ الأمينَ فى تلكَ العصورِ المظلمات ، كانَ صادقَ القولِ حلوَ الخطابِ أميناً وفياً حليماً لا تستفزُّه رعوناتُ الجهالات ، بعيداً عن اللهوِ حتَّى فى حداثتِه نفاراً من الوثنيةِ بما جُبِلَ عليهِ من طبعٍ سليم . بعدَ هذهِ النشأةِ وبينَ أولئكَ

الأَعْرَاب بَعَثَهُ اللهُ تعالى إلى جميعِ العالمين، فَصَدَعَ بالأَمْرِ وَوَاجَهَ العالمَ كُلَّهُ بالدَّعْوَةِ إلى دِينِهِ الحَقِّ المتين، ولا تَسأَلْ عَمَّا أَحْدَثَتْهُ تِلْكَ الدَّعْوَةُ مِنَ انْقِلَابٍ هائِلٍ تَعَدَّى أَثَرُهُ الدُّنيا إلى يَوْمِ الدِّين، انْقِلَابٍ عَلَيْهِ تَقُومُ القِيَامَةُ وَعَلَى آثارِهِ يُرَتَّبُ جَزَاءُنَا الأَبَدِيَّ مَوْلَانَا العَلِيم. أَشْرَقَ نُورُ دِينِهِ فَمَلأَ الأَرْضَ وَكَانَتْ مِنْ جَهْلِ الجاهِلِيَّةِ في ظَلَام، فَخَفَقَتْ أَعْلَامُ دِينِهِ في نَوَاحِي الدُّنيا وَغَدَا أَوْلِيَاءُ الأَصْنَامِ في ضِرَام، وَدَوَى صَوْتُ العَدَالَةِ في أَطْرَافِ المَعْمُورَةِ فَحَلَّ مَحَلَّ الفَوْضَى أَحْكَمُ نِظَام، وَتَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُ الوِدَادِ في أَرَاضِي القُلُوب فَأَخْمَدَتْ بَرَاكِينَ الضِّغْنِ القَدِيم. ارْتَعَدَتْ فَرَائِصُ أَهْلِ الكُفْرِ لَمَّا رَأَوْا هذا الانْقِلَابَ السَّرِيعَ البَاهِر، وَأَرَادُوا تَأْيِيدَ بَاطِلِهِمْ فَاكْتَسَحَهُمْ وَاكْتَسَحَ بَاطِلَهُمْ جَيْشُ الحَقِّ القَوِيُّ الظَّافِر، وَكَيْفَ تَقِفُ ثَعَالِبُ الكُفْرِ أَمَامَ ضَرَاغِمِ الإِيمَانِ الكَوَاسِر، وَكَيْفَ يَثْبُتُ ظَلَامُ الوَثَنِيَّةِ أَمَامَ نُورِ التَّوْحِيدِ الصَّمِيم. كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْمَلَ الخَلْقِ لا فَرْقَ بَيْنَ إِنْسِهِمْ وَمَلَكِهِمْ وَالجَانّ، وَكَانَ دِينُهُ الَّذِي دَعَا العَالَمَ إِلَيْهِ أَكْمَلَ الأَدْيَان، فَاجْتَمَعَ كَمَالُ شَخْصِهِ وَكَمَالُ دِينِهِ فَلَمْ يَسَعِ النَّاسَ أَمَامَهَا إِلَّا التَّسَابُقُ إِلَى تَمَامِ الإِذْعَان، وَمَنْ جَهِلَ هذا حَارَ كُلَّ الحَيْرَةِ في تَعْلِيلِ ذَلِكَ الانْقِلَابِ العَظِيم. إِذَنْ لَيْسَ بِبِدْعٍ أَنْ يَحْتَفِلَ الوُجُودُ بِأَسْرِهِ بِذِكْرَى مَوْلِدِ هذا الرَّسُولِ وَهُوَ بِهذا المِقْدَار، فَإِنَّا

نفعلُ اليومَ مالا يُفعلُ لذِكرى كثيرٍ وفيهمْ مَنْ ليْسَ لهُ أثرٌ مِنَ الآثار ، فجميلٌ بلْ غايةُ الجمالِ أنْ نحتفلَ بذكرى مولدِهِ وهوَ رحمةُ الخلقِ هنا وفى دارِ القرار ، وأجملُ مِنْ هذا أنْ يكونَ معَ الاحتفالِ بهِ سُلوكُ نهجِهِ الموصّلِ إلى النعيمِ المُقيم .

(حديث) سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ عنْ صومِ الاثنيْنِ فقالَ : فيهِ وُلِدتُ [1] ، وفيهِ أُنزِلَ علَيَّ . رواهُ مُسلِمٌ .

١٧٩ — قراءة قصة المولد النبوى بالمنازل ماذا حدث باسمها ؟

الحمْدُ للهِ الّذي جعلَ مِنْ أُصولِ الإيمانِ حُبَّ الأنبياءِ والمُرسلين ، وأشْهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ شهادةً مَنْ لمْ يُوقِنْ بها فليْسَ بذي دِين ، وأشْهدُ أنَّ سيّدَنا ومولانا مُحمّداً عبْدُهُ ورسولُهُ صفْوةُ خلْقِ اللهِ

---

(١) هذا أصل عظيم يدل دلالة ظاهرة على أنه ينبغى أن يفرح المؤمنون باليوم الذى ولد فيه صلى الله عليه وسلم ، وكيف لايفرحون به وفيه ظهر سيد الوجود ومهبط الأنوار والأسرار الالهية وينبوعها الفياض على كل مسلم فى مشارق الأرض ومغاربها ، ثم ها أنت ذا تسمعه صلى الله عليه وسلم يقول وهو لا ينطق عن الهوى — إنه ينبغى لكل مسلم أن يشكر الله تعالى على ولادته صلى الله عليه وسلم وظهوره فى هذا العالم شكرا يصل به إلى أن يتخذ يوم ولادته وردا يصومه من كل أسبوع — وإذا كان الأمر هكذا فما الذى يمنعنا أن نسمح له صلى الله عليه وسلم ونطيع فنفرح كل عام فرحا أضخم وأفخم باليوم والشهر اللذين ولد فيهما صلى الله عليه وسلم — إن ذلك أمر ينساق إليه الذهن بلا أىّ تردد بمجرد سماعه هذا الحديث الشريف فليعرفه أناس تنطعوا وحظروا ذلك الفرح وهم لايشعرون فى أىّ مقام هم . لكن مع هذا لاينبغى أن يخلط الجد بالهزل ولا أن يتوسل بالطاعة إلى المعصية .

أَجْمَعِينَ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ سَارَ كَمَا كَانُوا يَسِيرُونَ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : إِنَّ حُبَّ هٰذِهِ الْأُمَّةِ لِنَبِيِّهَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُحَدُّ بِمِقْدَارٍ ، وَهٰذَا شَيْءٌ مَعْرُوفٌ بِالضَّرُورَةِ لَيْسَ بِمُحْتَاجٍ إِلَى إِخْبَارٍ ، وَهٰذَا الْحُبُّ لَيْسَ بِخَفِيٍّ بَلْ فِي غَايَةِ الظُّهُورِ بِمَا لَهُ مِنْ آثَارٍ ، وَإِنْ شِئْتَ فَاذْكُرِ اسْمَهُ بَيْنَ جَمْعٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَانْظُرْ مَاذَا يَكُونُ . وَمِنْ تِلْكَ الْآثَارِ مَا اعْتِيدَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَعْصَارٍ ، مِنْ تِلَاوَةِ قِصَّةِ مَوْلِدِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بُيُوتِ الْأَخْيَارِ ، يَرْجُونَ بَرَكَةَ تِلْكَ السِّيرَةِ فِي بُيُوتِهِمْ وَفِي أَعْمَالِهِمْ وَفِي الْأَعْمَارِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مِنْ مَكَارِمِ أَخْلَاقِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا بِهِ يَتَجَمَّلُونَ وَيُفْلِحُونَ . ذٰلِكَ هُوَ الْمَوْلِدُ الَّذِي يَحْرِصُ عَلَى فِعْلِهِ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ ، وَهُوَ عَادَةٌ مِنْ أَجَلِّ الْعَادَاتِ بَلْ قُرْبَةٌ مِنْ أَفْضَلِ الْقُرَبِ الَّتِي تُرْضِي الرَّحْمٰنَ ، وَهَلْ هِيَ إِلَّا ذِكْرُ شَمَائِلِهِ وَأَخْلَاقِهِ الَّتِي مَنَّ بِهَا عَلَيْهِ مَوْلَاهُ الْمَنَّانُ . وَمَنْ بِهِ ذَرَّةٌ مِنَ الْعَقْلِ يَسْتَنْكِرُ ذِكْرَ شَمَائِلِ سَيِّدِ الْخَلْقِ الْأَمِينِ الْمَأْمُونِ . لٰكِنْ حَدَثَ فِي هٰذَا الزَّمَانِ عَظَائِمُ مِنَ الْفُحْشِ بِاسْمِ هٰذَا الْمَوْلِدِ الْكَرِيمِ ، أَنْتَنَتْ بِهَا اللَّيَالِي وَكَانَتْ تَفُوحُ مِسْكًا وَتُشْرِقُ بِنُورِ الرَّسُولِ الْعَظِيمِ ، ذٰلِكَ الَّذِي حَدَثَ هُوَ أَنَّ قُرَّاءَ الْمَوْلِدِ يَهْجُرُونَ سِيرَتَهُ هَجْرًا يَسْتَفِزُّ الْحَلِيمَ ، وَيُغَنُّونَ طُولَ اللَّيْلِ بِقَصَائِدَ وَمُوَشَّحَاتٍ

بِهَا مَا بِهَا مِمَّا يَعَافُهُ الْمُتَّقُونَ . لاَ تَسْمَعُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ مِنْ بَعْدِ الْعِشَاءِ إِلاَّ ذِكْرَ رَبَّاتِ الْجَمَالِ وَالدَّلاَلِ، يَصِفُونَ مِنْهُنَّ الْخُدُودَ وَالنُّهُودَ وَالْقُدُودَ وَالْأَعْطَافَ وَالْأَرْدَافَ الثِّقَالَ ، وَيَصِفُونَ مَا بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ الْعُشَّاقِ مِنْ شَوْقٍ وَلِقَاءٍ وَتَوَجُّعٍ وَهَجْرٍ وَوِصَالٍ ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِمَّا لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُذْكَرَ وَيَسْمَعَهُ الْمُؤْمِنُونَ . كُلُّ ذَلِكَ يَتَمَتَّعُ بِسَمَاعِهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ مِنْ مُغَنٍّ ذِي صَوْتٍ رَخِيمٍ ، وَكَمْ أَفْسَدَ هَذَا الْغِنَاءُ مِنْ نِسَاءٍ وَرِجَالٍ لِأَنَّهُ تَحْرِيضٌ عَلَى الْفَسَادِ عَظِيمٌ ، وَشَيْءٌ هَذَا حَالُهُ لاَ يَتَرَدَّدُ ذُو دِينٍ فِي الْحُكْمِ عَلَيْهِ بِالتَّحْرِيمِ ، كَيْفَ لاَ وَهُوَ رُقْيَةُ الزِّنَى وَبَرِيدُ الْخَنَا وَبُغْيَةُ إِبْلِيسَ الْمَلْعُونِ. إِنَّ بَيْتًا يَحْصُلُ بِهِ هَذَا لاَ بُدَّ أَنْ تُبَادِرَ إِلَيْهِ الْكُرُبَاتُ لاَ الْبَرَكَاتُ ، وَلاَ بُدَّ أَنْ يُسْرِعَ إِلَيْهِ الْخَرَابُ بِشُؤْمِ هَاتِيكَ الْمُغَازَلاَتِ، فَإِنْ كُنْتَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ تُحِبُّ أَنْ تَتَبَرَّكَ بِذِكْرَى مَوْلِدِ نَبِيِّكَ فَلْيَكُنْ بِذِكْرِ شَمَائِلِهِ السَّامِيَاتِ ، وَإِنْ أَبَيْتَ إِلاَّ أَنْ تَتَلَذَّذَ بِذِكْرِ زَيْنَبَ وَلَيْلَى فَمَا أَنْتَ بِمُحِبِّ الرَّسُولِ بَلْ أَنْتَ الْمَفْتُونُ .

(حديث) لَمْ يَرْفَعْ أَحَدٌ صَوْتَهُ بِغِنَاءٍ إِلاَّ بَعَثَ اللهُ لَهُ شَيْطَانَيْنِ عَلَى مَنْكِبَيْهِ يَضْرِبَانِ بِأَعْقَابِهِمَا عَلَى صَدْرِهِ حَتَّى يُمْسِكَ . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا .

(أثر) وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « الْغِنَاءُ رُقْيَةُ الزِّنَى » .

١٨٠ – يستقبل بها شهر رجب

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَ بَعْضَ الْأَشْهُرِ عَلَى بَعْضِهَا وَهُوَ رَبُّ الْأَوْقَاتِ وَسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ مِنَ الْأَيَّامِ الْفَاضِلَةِ أَيَّامَ رَجَبِ الزَّاهِرَاتِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي عَلَّمَنَا مَا لِرَجَبٍ مِنْ فَضَائِلَ قَيِّمَاتٍ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ كِرَامِ الْأَنَامِ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللَّهِ: يُوشِكُ أَنْ يَحِلَّ بِكَ شَهْرٌ مِنَ الْأَشْهُرِ الْمُمْتَازَةِ وَهُوَ شَهْرُ رَجَبٍ، فَإِنَّهُ مِنَ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ الَّتِي نَدَبَ إِلَى صِيَامِهَا سَيِّدُ الْعَجَمِ وَالْعَرَبِ، وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ يُفْهِمُكَ أَنَّ مَرْتَبَةَ هَذِهِ الْأَشْهُرِ مِنْ أَسْمَى الرُّتَبِ، وَبِهَذَا أَقَرَّ الْإِسْلَامُ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ إِجْلَالِ هَذِهِ الْأَشْهُرِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ. إِذَنْ يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَفْرَحَ بِأَيَّامِ رَجَبَ هَذِهِ الْفَاضِلَاتِ، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِيهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِكُلِّ أَنْوَاعِهَا الْمُبَارَكَاتِ، فَإِنَّ ثَوَابَ الْأَعْمَالِ فِي الْأَيَّامِ الْفَاضِلَةِ أَجَلُّ وَأَكْثَرُ مِنْهُ فِي الْمَفْضُولَاتِ، وَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَصُومَ أَيَّامَ هَذَا الشَّهْرِ كُلَّهَا فَلْيَفْعَلْ فَإِنَّهُ دَأْبُ الْكِرَامِ. وَاحْذَرْ أَنْ تَسْمَعَ لِأَقْوَامٍ يَنْهَوْنَ عَنْ صِيَامِ هَذَا الشَّهْرِ وَيَرَوْنَهُ مِنْ قَبِيلِ الزَّلَلِ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ لَا يُعْجِبُهُمُ الْعَجَبُ وَلَا الصِّيَامُ فِي رَجَبٍ كَمَا يَقُولُ الْمَثَلُ، قُلْ لِهَؤُلَاءِ يَا هَذَا إِنَّكُمْ بِنَهْيِكُمْ هَذَا تَنْهَوْنَ عَنْ صَالِحِ

العمل ، وهذا القرآن يذكر من ينهى عبداً إذا صلى ويعد نهيه هذا من الإجرام . وكذلك أوصيك أن تبالغ في البعد عن سيئات الأعمال في هذا الشهر الكريم ، فإن السيئة في الأيام الفاضلة أشنع منها في غيرها كما يصرح القرآن الحكيم ، وعامل الأشهر الحرم كلها كما تعامل هذا الشهر في هذا الأدب العظيم ، واقرأ قوله تعالى : فلا تظلموا فيهن أنفسكم تتحقق أن هذه الشهور شهور عظام .

(حديث) عن بعض الصحابة قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا نبي الله أنا الرجل الذي أتيتك عام الأول ، قال فمالي أرى جسمك ناحلاً ؟ قلت يا رسول الله ما أكلت طعاما بالنهار ما أكلته إلا بالليل . قال من أمرك أن تعذب نفسك ؟ قلت يارسول الله إني أقوى . قال صم شهر الصبر ويوما بعده ، قلت إني أقوى قال صم شهر الصبر ، ويومين بعده ، قلت إني أقوى ، قال صم شهر الصبر ، وثلاثة أيام بعده ، وصم أشهر الحرم . رواه ابن ماجة

١٨١ — الاسراء والمعراج

الحمد لله الذي لا حد لإكرامه لأحبابه لأنه رب الكرام ورب الأغنياء ، وأشهد أن لا إله إلا الله الذي سيد أحبابه نبينا خاتم الأنبياء ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله الذي لا يعلم إلا الله ما نال ليلة الإسراء من آلاء ، اللهم صل وسلم

وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ وَفَوْا لَهُ حَقَّ الْوَفَاء .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ هٰذَا الْوُجُودَ مَبْنِيًّا عَلَى نَوَامِيسَ وَعَادَاتٍ ، وَقَدِ اطَّرَدَتْ عَادَتُهُ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ فِعْلَ شَيْءٍ فَعَلَهُ بِأَسْبَابٍ وَمُقَدِّمَاتٍ ، فَيَخْلُقُ الْوَلَدَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ وَالشِّبَعَ بِالْأَكْلِ وَالنَّجَاةَ فِي الْبَحْرِ بِرُكُوبِ السَّفِينَاتِ ، وَيَخْلُقُ الْاحْرَاقَ بِمُمَاسَّةِ النَّارِ وَالرِّزْقَ بِالْكَدِّ وَالْحَيَاةَ بِاسْتِنْشَاقِ هٰذَا الْهَوَاءِ . لَيْسَ مَعْنَى هٰذَا أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ فِعْلَ شَيْءٍ إِلَّا بِمَا لَهُ مِنْ أَسْبَابٍ ، إِنَّا إِنْ فَهِمْنَا هٰذَا نَسَبْنَا لَهُ مَالَا يَرْضَاهُ وَلَا يَرْضَاهُ لَهُ ذَوُو الْأَلْبَابِ ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ ـ كَمَا قُلْنَا ـ أَنَّ ذٰلِكَ عَادَةٌ تَتَجَلَّى لَنَا بِهَا الْحَقَائِقُ بِلَا أَدْنَى ارْتِيَابٍ ، وَأَمَّا هُوَ تَعَالَى فَقَادِرٌ أَنْ يَفْعَلَ بِلَا سَبَبٍ وَأَنْ لَا يَفْعَلَ وَقَدْ تَكَرَّرَ فِعْلُ السَّبَبِ مِنْ غَيْرِ إِحْصَاءٍ . أُلْقِيَ سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمُ فِي النَّارِ فَجَعَلَهَا عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا لِأَنَّهُ رَبُّ النَّارِ ، وَخَلَقَ مِنَ الْبَشَرِ بِلَا وَالِدَيْنِ وَبِلَا وَالِدٍ وَبِلَا وَالِدَةٍ لِنَعْلَمَ أَنَّهُ الْقَدِيرُ الْمُخْتَارُ ، وَشَقَّ الْبَحْرَ شَوَارِعَ لِسَيِّدِنَا مُوسَى وَقَوْمِهِ فَاجْتَازُوهُ بِلَا رُكُوبِ سَفِينَةٍ وَلَا مُعَانَاةِ أَخْطَارٍ ، وَحَصَلَ خَرْقُ نَوَامِيسِ هٰذَا الْوُجُودِ بِلَا حَصْرٍ فِي كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَمُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ . بَلْ فِي زَمَنِكَ هٰذَا مَالَوْ رَآهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِهِ لَعَدَّهُ خَارِقًا لِلنَّوَامِيسِ بِلَا أَدْنَى جِدَالٍ ، فَإِنَّكَ تَغُوصُ فِي الْبَحْرِ بِالْغَوَّاصَاتِ وَتَطِيرُ فِي الْجَوِّ بِالطَّيَّارَاتِ وَتَقْطَعُ فِي سَاعَاتٍ آلَافَ الْأَمْيَالِ ، وَتَسْمَعُ

(بِالرَّادْيُو) غِنَاءَ أُورُوبَّا وَخُطَبَهَا وَتَتَكَلَّمُ (بِالتِّلِفُونِ) مَعَ صَدِيقِكَ وَبَيْنَكُمَا سَفَرُ مِئَاتِ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِ ، فَعَجِيبٌ نَامُوسٌ يَقُولُ إِنَّ الْإِنْسَانَ يَقْطَعُ آلَافَ الْأَمْيَالِ فِى سَاعَاتٍ وَيَكُونُ طَيْرًا فِى الْهَوَاءِ وَسَمَكًا فِى الْمَاءِ . هٰذِهِ أَسْرَارٌ وَضَعَهَا رَبُّنَا فِى مُلْكِهِ تَبْدُو فِى أَوَّلِهَا مُدْهِشَةً كَأَنَّهَا مُسْتَحِيلٌ كَانَ ، وَقَدْ يُكْتَشَفُ فِى الْمُسْتَقْبَلِ مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْأَسْرَارِ مَا يَصْغُرُ بِجَانِبِهِ كُلُّ مَا اكْتُشِفَ لِلْآنَ ، لِيَسْمَعَ هٰذَا ثُمَّ لِيَسْمَعْهُ قَوْمٌ يَسْمَعُونَ الْإِسْرَاءَ وَالْمِعْرَاجَ فَيَقُومُونَ فِى وَجْهِهِمَا يُنْكِرُونَهُمَا أَشَدَّ النُّكْرَانِ ، مُسْتَبْعِدِينَ أَنْ يَقْطَعَ الرَّسُولُ كُلَّ تِلْكَ الْمَسَافَاتِ الْبَعِيدَةِ وَيَعُودَ فِى بَعْضِ لَيْلَةٍ غَرَّاءَ . إِنَّ مَنْ يَرَى عَجَائِبَ هٰذَا الزَّمَانِ لَا أَدْرِى كَيْفَ يُنْكِرُ الْمِعْرَاجَ وَالْإِسْرَاءَ ، لِيَعْلَمْ مُنْكِرُ ذٰلِكَ أَنَّهُ بِإِنْكَارِهِ هٰذَا يَطْعَنُ فِى قُدْرَةِ رَبِّنَا عَلَى مَا يَشَاءُ ، وَأَنَّهُ مَعَ هٰذَا يُنْكِرُ خَبَرَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَيُخَالِفُ أَئِمَّةَ الدِّينِ الْعُلَمَاءَ ، وَأَنَّهُ فَوْقَ هٰذَا يَكُونُ مُسْتَكْثِرًا خَرْقَ نَوَامِيسِ الْكَوْنِ لِصَفْوَةِ الْكَوْنِ وَهٰذَا شَأْنُ عُمْىِ الْبَصَائِرِ الْجُهَلَاءِ .

(حديث) عُرِجَ بِى حَتَّى ظَهَرْتُ بِمُسْتَوًى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ (١) الْأَقْلَامِ . رَوَاهُ الطَّبَرَانِىُّ .

---

(١) صريف الأقلام صريرها وصوتها وهذه الأقلام بيد الملائكة يكتبون بها ما أمروا أن يكتبوه — وظهرت بمعنى علوت — بمستوى أى على مكان أستوى عليه ، والغاية التى فى الحديث تدل على أن هذه الكتابة بمكان بلغ النهاية فى العلو — وهو إخبار منه صلى الله عليه وسلم أنه أكرم من ربه إكراما بلغ المنتهى — والأقلام والكتابة يناسبان ذلك الملأ الأعلى فلا نعلم نحن كيف هما .

١٨٢ ـ أحباب الله وأعداؤه وما لكل منهما

يخطب بها لمناسبة الاسراء

الحَمْدُ لِلّهِ الوَدُودِ الّذِي لا يَنْقَطِعُ وِدادُهُ عَمّنْ والاه، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلاّ اللهُ شهادَةَ عِبادِهِ الّذِينَ لا يَعْرِفُونَ رَبّاً سِواه، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا وَمَوْلانا مُحَمّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَسَيِّدُ أَحْبابِهِ التُّقاه، اللّهُمّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبارِكْ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحابِهِ الّذِينَ كانُوا إِذا ذُكِرَ فَضْلٌ فَإِلَيْهِمْ يُشار.

(أَمّا بَعْدُ) فيا عَبْدَ اللهِ: إِنّ لِلّهِ تَعالَى أَحْباباً مِنْ عِبادِهِ كَما لَهُ مِنْهُمْ أَعْداء، أَمّا أَعْداؤُهُ فَهُمُ الّذِينَ انْحازُوا إِلَى عَدُوِّهِ إِبْلِيسَ وَأَطاعُوهُ فِيما يَشاء، فَهؤُلاءِ مَظْهَرُ بَطْشِهِ تَعالَى وَانْتِقامِهِ وَقَهْرِهِ وَلَهُمْ أَعَدَّ النّارَ دارَ الأَشْقِياء، لَهُمْ فِيها مِنْ أَنْواعِ العَذابِ ما لَوْ نَزَلَ بَعْضُهُ بِطَوْدٍ لانْهار. وَأَمّا أَحْبابُهُ فَهُمُ الّذِينَ عَرَفُوا أَنّهُ خالِقُهُمْ وَرازِقُهُمْ وَإِلَيْهِ مَصِيرُهُمْ يَوْمَ الجَزاء، فَآمَنُوا بِهِ تَعالَى وَآمَنُوا بِمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَهُداةِ خَلْقِهِ الأَنْبِياء، وَلازَمُوا طاعَتَهُ عَزّ وَجَلّ وَأَبَوْا أَنْ يُطِيعُوا عَدُوّهُ كُلَّ الإِباء، وَإِذا غالَطَ صِغارُهُمْ مَرّةً فَاغْتَرّوا بِذلِكَ العَدُوِّ فَزِعُوا إِلَيْهِ تَعالَى بِالمَتابِ وَالاعْتِذار. هؤُلاءِ هُمْ أَحْبابُ مَوْلانا وَخاصَّتُهُ وَصَفْوَتُهُ مِنْ جَمِيعِ العِباد، وَهُمْ أَهْلُ وِدادِهِ وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ وَإِحْسانِهِ الّذِي يَتَوالَى عَلَيْهِمْ وَيَزْداد، وَبِمِقْدارِ إِقْبالِهِمْ عَلَى طاعَتِهِ

وَإِخلاصِهِمْ فيها يَكُونُ منهُ العطاءُ والإمدادُ ، لا بَلْ هوَ الشكورُ الذي يُجازي على قليلِ العملِ بكثيرٍ مِنْ فضلِهِ المِدْرار . صدّقْ إذا قيلَ لكَ إنهمْ يقرءونَ ما في ألواحِ القلوبِ وبهِ يُخبرونَ ، بلْ إذا قيلَ لكَ إنهمْ يرونَ بعيونِ قلوبِهِمْ ما في ملكوتِ السمٰواتِ فصدِّقْ ما يقولونَ ، وصدِّقْ إذا قيلَ لكَ إنهمْ أنفسَهُمْ صعدُوا إلى السمٰواتِ وأخذُوا بها يروحونَ ويجيئونَ ، هُمْ أهلُ ودادِهِ ووِدادُهُ لا يقفُ عندَ حدٍّ لأنهُ الكريمُ الغنيُّ المختار . فمِنْ توددِهِ لحضرةِ نبينا ﷺ أنهُ أسرى بهِ ليلاً إلى المسجدِ الأقصى وكانَ بالمسجدِ الحرامِ ، ثُمَّ رفعهُ إلى سدرةِ المنتهى فوقَ السمٰواتِ السبعِ حيثُ سمعَ صريفَ الأقلامِ ، وهنالكَ أوحى إليهِ ما أوحى وأراهُ ما أراهُ حتى داري الإهانةِ والإكرامِ ، ثُمَّ أعادهُ إلى مكانِهِ بمكةَ كلُّ ذلكَ في بعضِ ليلةٍ فاعتبرُوا يا أولي الأبصار . ومِنْ توددِهِ لسيدنا عيسى أنهُ كانَ يُحيي لهُ الموتى ويخلقُ لهُ الطيرَ منَ الطينِ ، ومِنْ توددِهِ لسيدنا موسى أنهُ جعلَ لهُ البحرَ شوارعَ يمشي فيها بالمؤمنينَ ، ومِنْ توددِهِ إلى خليلِهِ سيدنا إبراهيمَ أنهُ جعلَ النارَ برداً وسلاماً عليهِ وقدْ كانَ أججها عدوٌّ لعينٌ ، ولقدْ غيّرَ وجهَ المعمورةِ وأغرقَ أهلها توددًا إلى سيدنا نوحٍ العبدِ الشكورِ الصبّار . هذهِ أمثلةٌ مِنْ توددِهِ تعالى لأحبابِهِ ذكرناها لتعلمَ كيفَ يكونُ توددُهُ لعبادِهِ الصالحينَ ، وهيَ

مِنْ طِرَازِ تَوَدُّدِهِ إِلَيْهِمْ فِى الدُّنْيَا أَمَّا تَوَدُّدُهُ إِلَيْهِمْ فِى الآخِرَةِ فَفَوْقَ تَقْدِيرِ الْمُقَدِّرِينَ ، وَلَيْسَ هٰذَا التَّوَدُّدُ قَاصِراً عَلَى الأَنْبِيَاءِ بَلْ لِلأَوْلِيَاءِ مَا لَهُمْ مِنْهُ لِأَنَّهُمْ عَلَى أَقْدَامِ النَّبِيِّينَ ، فَاسْلُكْ سَبِيلَهُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ تَكُنْ مِنْ أَحْبَابِ رَبِّنَا وَتَرَ مِنْ أَنْوَاعِ وِدَادِهِ مَا تَقِفُ أَمَامَهُ فِى انْبِهَارٍ .

(حديث) إِنَّ اللّٰهَ تَعَالَى قَالَ : مَنْ عَادَى لِى وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ (١) ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَىَّ عَبْدِى بِشَىْءٍ أَحَبَّ إِلَىَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ (٢) الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِى

---

(١) الولىّ : هو المؤمن التقى ، أى الذى يفعل ما أمره به ربه ويترك ما نهاه عنه امتثالا لأمره تعالى ونهيه ، وإذا هفا بادر إلى المتاب إجلالا لربه أن يخالفه ، وتطهيراً لنفسه من درن تعلق به ، فالمؤمن الذى بهذه الدرجة وصل تعظيم ربنا عزّ وجلّ له إلى أن يتوعد من يعاديه هذا التوعد الذى يذهل العقول ، وهل هناك وعيد فوق إعلان ربّ السموات والأرض الحرب على عبد هو عدم صرف ؟ نعم إنّ هذا الوعيد بلغ المنتهى فى التهويل ، ولعلّ القارئ اللبق لا يخفى عليه أن المراد من إعلان هذه الحرب لازمه لا حقيقته وهو إهلاك من يعادى أولياءه سبحانه وتعالى وجدير والله بهذا الإهلاك من تصل به الجرأة إلى معاداة خاصة خالق السموات والأرض الواحد القهار ، وهو فى الوقت نفسه لا يمكنه أن يعادى خادم ملك ، ولا وزير ، ولا خادم واحد من أهل القوّة والبطش ولو لم يكن من الملوك والوزراء ، نعم لا يمكنه عداوته رهبة وخوفاً من سيده ، وإذا كان هذا حاله مع من اتصلوا بعباد فى منتهى الضعف ، ويمكنك أن تقول انهم عدم صرف بالنسبة لربهم — فكان ينبغى أن لا تقلّ عن ذلك هيبته لأهل الصلة بربنا ربّ الملوك والوزراء وأهل القوّة والبطش ، فانه تعالى يغار عليهم ويحميهم ممن يعتدى عليهم ، وكفى بهذا الوعيد حماية لهم ورادعا للمعتدين عليهم ، وكم سحقت البلايا أناساً استخفوا بأولئك العباد العظماء الذين لم يرضوا غير هذا المولى الكريم مفزعاً لهم ولا ملاذاً .

(٢) الكلام على التشبيه تقريباً للمتول أى كنت فى قضاء ما يريد كسمعه يسمع ما يهمه أو يبصره أو يمشى إليه وعدّ يده لفعله هذا من غير أن يسأل ، وإن سأل محبوباً أجبت سؤاله ، وإن استعاذ

يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَ بِي لَأُعِيذَنَّهُ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .

١٨٣ — عشاق الفضائل . يستقبل بها شهر شعبان

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا شَرَفَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا شَرَفُ طَاعَتِهِ فِيمَا نَهَى وَأَمَرَ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةَ عَبْدٍ مَا عَظُمَ فِي نَظَرِهِ إِلَّا طَاعَةُ رَبِّهِ فَكَانَ نَظَرُهُ أَسْمَى نَظَرٍ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي حَارَتْ فِي تَقْدِيرِ مَبْلَغِ عُبُودِيَّتِهِ الْفِكَرُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِي الْقَدْرِ السَّامِي وَالْمَقَامِ الْكَبِيرِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللَّهِ : لَمْ يَنْقَطِعِ الْخَيْرُ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ رَغْمَ مَا تَرَى مِنْ فَسَادٍ عَظِيمٍ ، بَلْ لَوْ بَحَثْتَ لَرَأَيْتَ بَيْنَنَا

من مكروه أعذته منه ، وهو مقام يبدو فى غاية العظمة ، وما هو والله بعظيم أبداً على من بيده ملكوت كل شىء الذى إذا أراد شيئاً كان ، الكريم الذى لاغاية لكرمه ، الشكور الذى يجازى على القليل بالكثير ، إن أحدنا إذا كان له خادم وتخيل فيه الأمانة والإخلاص والصدق فى الخدمة يسلمه مفاتيح خزائنه ويتركه يتصرف فى كل مايجيز لنفسه أن يتصرف فيه من ماله ، هذا مبلغ تقديرنا للمخلصين لنا وهذا مبلغ اكرامنا لهم ، فهل تستبعد أنت ان يكرم رب الكرام بما تسمع — عباداً علم منهم الصدق فى العبودية علم الخالق الذى لاتخفى عليه خافية . لاتستبعد يا أخى ، واعلم أن إكرام ربنا لهؤلاء الناس فوق ماتتصور ، ولا تظن أنى أبالغ فى هذا التعبير ، هو والله كما أقول لك ، ولا تطمع أن تعلم كنه ذلك، فإن مابين الملوك وخاصتهم لايعلمه سواهم ، فكيف بما بين رب الملوك وبين أحبابه ، جعلنا الله من محبيهم فى الدنيا والآخرة « ولا حرمنا من لطفه وعطفه فإنه اللطيف العطوف .

مِئاتٍ وآلافاً مِنَ العِبادِ ذوِي القَدْرِ العَظِيمِ ، لا يَظْهَرُونَ لنا وعِنْدَهُمْ مِنَ العارِ المُخْزِي أنْ يَعْمَلَ العامِلُ لِلظُّهُورِ الذَّمِيمِ ، وإنَّمَا يَعْمَلُونَ لِيَرَى عَمَلَهُمْ واحِدٌ فَقَطْ هُوَ مَوْلاهُمُ العَلِيمُ الخَبِيرُ . تِجارَتُهُمُ الَّتِي يَنْتَظِرُونَ الرِّبْحَ مِنْها صالِحاتُ الأعْمالِ ، هِيَ شُغْلُهُمْ وهِيَ راحَتُهُمْ وهِيَ مَحْبُوبُهُمُ الَّذِي تَنْتَهِي إلَيْهِ الآمالُ ، لا تُشْبِعُهُمُ الفَرائِضُ الَّتِي أَلْزَمَهُمْ بِأَدائِها رَبُّهُمْ ذُو الجَلالِ ، بَلْ يَتَجاوَزُونَها إلَى النَّوافِلِ ولا يَقْنَعُونَ مِنْها إلاّ بِالشَّيْءِ الكَثِيرِ . إذا أَقْبَلَ اللَّيْلُ عَلَيْهِمْ فَرِحُوا بِهِ واسْتَقْبَلُوهُ أَحْسَنَ اسْتِقْبالٍ ، لِما أنَّ فِيهِ خَلْوَتَهُمْ وتَمَتُّعَهُمْ بِخِدْمَةِ رَبِّهِمِ الكَبِيرِ المُتَعالِ ، يُغْلِقُ النّاسُ أَبْوابَهُمْ عَلَى أنْفُسِهِمْ فَيَكُونُونَ مَصَبَّ اللَّعَناتِ لِما هُمْ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الأَحْوالِ ، وهؤلاءِ إذا أَغْلَقُوا أَبْوابَهُمْ كانُوا مَهْبِطَ الرَّحَماتِ لِما هُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ وفِيرٍ . يَجْمَعُونَ المالَ كَما يَجْمَعُهُ غَيْرُهُمْ ورُبَّما زادُوا عَلَى الغَيْرِ مَرّاتٍ . لَكِنْ غَيْرُهُمْ يَجْمَعُهُ لِيَكْنِزَهُ أوْ لِيَصْرِفَهُ فِي سَبِيلِ شَهَواتِهِ ولَوْ مَحْظُوراتٍ ، وهؤلاءِ يَجْمَعُونَهُ لِجائِعٍ يُطْعِمُونَهُ أوْ عارٍ يَكْسُونَهُ أوْ بائِسٍ يُواسُونَهُ أوْ لِتَفْرِيجِ الكُرُباتِ ، أَبْصَرَتْ عُيُونُ بَصائِرِهِمْ نَعِيمَ الجَنَّةِ فَعافُوا الدُّنْيا وما لَها مِنْ مَتاعٍ حَقِيرٍ . يَصُومُ سِواهُمْ شَهْرَ رَمَضانَ بِكُلِّ تَعَسُّفٍ فَإذا انْقَضَى حَرُمَ الصِّيامُ ، وكَثِيرٌ مِنَ النّاسِ يُفْطِرُونَ ذَلِكَ الشَّهْرَ الواجِبَ انْهِزاماً أمامَ شَهَواتِ النِّساءِ والطَّعامِ ، وهؤلاءِ إذا

أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ رَمَضَانُ رَقَصَتْ قُلُوبُهُمْ فَرَحًا وَاسْتَقْبَلُوهُ بِوُجُوهِ الْكِرَامِ، فَإِذَا انْتَهَتْ أَيَّامُهُ تَسَابَقُوا فِى نَفْلِ الصِّيَامِ وَالشَّهَوَاتُ الْبَهِيمِيَّةُ شَأْنُهَا لَدَيْهِمْ حَقِيرٌ. لِهَؤُلَاءِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ عُشَّاقِ الْفَضَائِلِ نَقُولُ هَا هُوَ ذَا قَدْ أَقْبَلَ شَهْرُ شَعْبَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ كَانَ يَخْتَصُّهُ حَضْرَةُ الرَّسُولِ ﷺ بِكَثْرَةِ الصِّيَامِ فِيهِ لِمَا أَنَّهُ شَهْرٌ عَظِيمُ الشَّأْنِ فَانْتَهِزُوا هَذِهِ الْفُرْصَةَ أَيُّهَا النَّاسُ وَاقْتَدُوا بِنَبِيِّكُمْ تَكُونُوا مِنَ الْفَضْلِ فِى أَشْرَفِ مَكَانٍ، وَجَّهَ اللهُ رَغَبَاتِنَا وَإِيَّاكُمْ إِلَى مَا بِهِ تَيْسِيرُ أُمُورِنَا فِى الْيَوْمِ الْعَسِيرِ.

(حديث) عَنْ أُمِّنَا الْجَلِيلَةِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ النَّبِىَّ ﷺ فِى شَهْرٍ أَكْثَرَ صِيَامًا مِنْهُ فِى شَعْبَانَ، كَانَ يَصُومُهُ إِلَّا قَلِيلًا بَلْ كَانَ يَصُومُهُ كُلَّهُ (١). رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ وَمُسْلِمٌ.

١٨٤ — التقوى. لاستقبال ليلة نصف شعبان

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى جَعَلَ تَقْوَاهُ سَبَبًا لِرِضَاهُ عَنِ الْعَبْدِ فِى دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةَ مَنْ أَخْلَصَ فِيهَا نَالَ

---

(١) ثبت أنه صلى الله عليه وسلم صام شهر شعبان كله ووصله برمضان، وثبت أنه صام منه كثيرا، فقول السيدة الجليلة كان يصومه إلا قليلا إشارة إلى حالة، وقولها بل كان يصومه كله إشارة إلى حالة أخرى، وصرح صلى الله عليه وسلم بالمعنى الذى كان من أجله يكثر الصيام فى هذا الشهر وهو أن الأعمال ترفع فيه فكان يحب أن يرفع عمله وهو صائم، فهل من مقتد برسوله صلى الله عليه وسلم.

مايتمناه ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبده ورسوله الذى لا يشقى من اهتدى بهداه ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تشبه بهم من المؤمنين والمؤمنات .

(أما بعد) فيا عبد الله : اتق الله تعالى ولا تقدم على تقواه مهمًا من أمورك مهما كان ، هذه وصية أوصيك بها وأشدد عليك فى مراعاتها ما دامت مراعاتها فى الإمكان ، وإنما وصيتك بها بتلك الشدة لأن ربنا وصى بها كل نوع الإنسان ، فلم ينزل على البشر كتاب سماوى إلا وعلى هذه التقوى تدور وصاياه الحكيمات .

هذه التقوى هى أن تتعلم من دينك ما أوجب وحرم عليك رب الكائنات ، وأن تعمل ما وجب وتترك ما حرم مراعيًا ما لديك من هذه المعلومات ، بشرط أن يكون ذلك خالصًا لوجه ربك لا تلتفت فيه لمدائح المخلوقات ، فإن الالتفات إلى مدائحهم يحبط الأعمال ويبطل ما لها من مثوبات . وصانا ربنا بالتقوى ووعدنا — وهو الصادق — أن يجازينا عليها خير الجزاء ، ليس ذلك فى الدنيا فقط أو فى الآخرة بل فيهما مع تمام الوفاء ، ففى الدنيا يفرج تعالى عنك ما نزل من الشدائد وينصرك دائمًا على الأعداء ، وييسهل لك طرق الأرزاق فلا تجد فى سبيلها شيئًا من المشقات . ليس ذلك فقط بل ويعزك بين الخلق عزًا ليس معه هوان ، وينير لك قلبك نورًا

تُمَيِّزُ بِهِ الحَقَّ مِنَ الزُّورِ وَالبُهْتَانِ ، وَيَجْعَلُكَ حُرًّا لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَيْكَ سُلْطَانٌ حَتَّى وَلَا لِلشَّيْطَانِ ، وَيَهَبُكَ مِنَ الثَّبَاتِ مَا تَكُونُ مَعَهُ أَثْبَتَ مِنَ الرَّوَاسِي إِذَا اشْتَدَّتْ عَوَاصِفُ البَلِيَّاتِ . وَأَمَّا مِنْ نَاحِيَةِ الآخِرَةِ فَيُمِيتُكَ عَلَى دِينِكَ دُونَ أَنْ تُؤَثِّرَ عَلَيْكَ الفِتَنُ وَلَا الفَاتِنَاتُ ، وَلَا يَجْعَلُ قَبْرَكَ حُفْرَةً مِنْ حُفَرِ النَّارِ بَلْ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الجَنَّاتِ ، وَلَا يَبْعَثُكَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى بَلْ بَصِيرًا نُورُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ يُذْهِبُ الظُّلُمَاتِ ، وَيُؤَمِّنُكَ يَوْمَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ الَّذِي يُشِيبُ الوِلْدَانَ وَيُذْهِلُ المَرَاضِعَ وَيُسْقِطُ الحَامِلَاتِ . وَفَوْقَ هَذَا يُحَاسِبُكَ حِسَابًا يَسِيرًا أَوْ يُدْخِلُكَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَلَا يَجْعَلُكَ فِي أَيِّ دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجَاتِهَا بَلْ فِي أَعَالِي دَرَجَاتِ الأَحْبَابِ ، كُلُّ هَذَا يُكْرِمُكَ بِهِ إِنْ سَمِعْتَ نَصِيحَتِي وَكُنْتَ مِنَ الأَتْقِيَاءِ الأَنْجَابِ ، وَمِنَ التَّقْوَى أَنْ تُحْيِيَ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ وَتَصُومَ يَوْمَهَا لِتَحْظَى بِمَا لَهُمَا مِنْ بَرَكَاتٍ.

(حديث) إِنِّي لَأَعْرِفُ آيَةً لَوْ أَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا أَخَذُوا بِهَا (١) لَكَفَتْهُمْ : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَالحَاكِمُ وَابْنُ حِبَّانَ وَالدَّارِمِيُّ

(١) أي لو أن الناس جميعاً اتقوا ربهم لجعل لهم منافذ ينفذون منها من شدائد الدنيا والآخرة ورزقهم رزقاً يسيرا سهلا لايتعبون فيه ، ولايعلمون من أين جاءهم ، ولكنهم لم يتقوه فهم فيماهم فيه من العناء والكد في كسب الرزق من ناحية وضيقه من ناحية أخرى .

١٨٥ — لاستقبال شهر رمضان

الحمدُ لله الذي كَتَبَ علينا كما كَتَبَ عَلَى مَنْ قبلنا طاعة الصيام ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ الذي اختصَّ الصائمين بباب الريّان يدخلون منه وحدَهم دارَ السلام ، وأشهدُ أنَّ سيدَنا ومولانا محمدًا عبدُه ورسولُه الذي أخبرَ أنَّ الصومَ جُنَّةٌ تحولُ بينَ المكارِه وبينَ الصوَّام ، اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ على سيدِنا محمدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ عظماءِ الفضلاء .

(أمّا بعدُ) فيا عبدَ الله : إليكَ أزُفُّ تهنئتي لا بمالٍ ولا بجاهٍ ولا بتفريجِ كُربةٍ ولا بانتصار، أنا لستُ الآنَ بصددِ التهنئةِ بالدنيا ولا بما لها من أنواعِ المسارّ، إنما أزفُّ إليكَ تهنئتي بإقبالِ شهرِ رمضانَ عليكَ وهوَ شهرُ سعادةِ الأخيار، وأرجو أنْ تصومَه موفقًا لآدابهِ بعيدًا عن الجهلاءِ وعمّا يفعلُ الجهلاء. لِتعلَمْ أيُّها المؤمنُ أنَّ اللهَ تعالى فرضَ صيامَ هذا الشهرِ على كلِّ مكلَّفٍ من بني الإنسان، لا فرقَ بينَ أنْ يكونَ ذكرًا أو أنثى حرًّا أو عبدًا أبيضَ أو منَ السودان، الكلُّ عليهمْ أنْ يصوموه لا رُخصةَ لأحدٍ في فطرِ يومٍ من أيامهِ كائنًا مَنْ كان، إلاّ إذا كانَ مريضًا أو مسافرًا أو مرضعًا أو حاملاً خافتا على أنفسِهما أو على الأبناء. لهؤلاءِ أنْ يفطروا وعليهمْ أنْ يقضوا ما أفطروا من أيام، وكذلكَ تقضي الحائضُ والنفساءُ ولا

يجوز لهما الصيام ، وإن أفطر الشيخ الفانى فعليه الفدية ولا قضاء عليه باتفاق الأفهام ، فأنت ترى من هذا أن الفطر لم يبح إلا لأعذار فى الصوم معها عناء . لعلك بهذا فهمت مبلغ تشديد الله تعالى فى صيام السليم المقيم ، وإذا علمت أن فريضة الصوم لم تسقط عن أمة تبين لك أن هذا الصيام أمر عظيم ، وتزداد عظمته عندك إذا علمت أن القتل جزاء من تجاهر بالفطر استخفافا بهذا الشهر الكريم ، أضف إلى ذلك أن من صامه إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه كما قال خاتم الأنبياء . هذا مقدار شهر رمضان عند الله تعالى وعند خيار الأنام ، فاحفظه وانظر إلى أى حد وصل التهاون به فى هذه الأيام ، وصل إلى درجة لا يكاد يصدقها من لم يرها من أهل الإسلام ، كيف لا وأنت إذا خرجت إلى الشوارع أو دخلت البيوت وجدت الناس كعادتهم مفطرين بلا أدنى حياء . إن هذه حالة تبرهن على أنا أصبحنا لا نحسب لمستقبلنا الأبدى أى حساب ، ولو كان يخطر على بالنا ذلك المستقبل ما كنا مع ركن من أركان ديننا بهذا الحال العجاب ، صم شهرك أيها المؤمن واحذر أن يفطر من عائلتك شابة مكلفة أو شاب ، وإلا كنت مسئولا عن ذلك كما يسأل عن الرعية الرؤساء .

(حديث) كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . رواه

الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

(آخر) مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا [١] غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

١٨٦ — هل لم نخلق إلا للابتلاء . لاستقبال شهر رمضان

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَوْلاَ ابْتِلاَؤُهُ لاَدَّعَى الْكَاذِبُ مَقَامَ الصَّادِقِينَ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةَ عَبْدٍ صَالِحَاتُ أَعْمَالِهِ عَلَى صِدْقِ عُبُودِيَّتِهِ بَرَاهِينُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَخْبَرَ أَنَّ فِي رَمَضَانَ تُفَتَّحُ الْجِنَانُ وَتُغَلَّقُ النِّيرَانُ وَتُغَلُّ الشَّيَاطِينُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانَ لَهُمْ بِرَمَضَانَ اعْتِنَاءٌ أَيُّ اعْتِنَاءٍ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : أَنْتَ إِنَّمَا خُلِقْتَ فِي هٰذِهِ الدَّارِ لِلاِبْتِلاَءِ وَالاِمْتِحَانِ ، وَكُلُّ مَا خُلِقَ فِيهَا إِنَّمَا خُلِقَ فِتْنَةً لَكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ ، فَالتَّكَالِيفُ الشَّرْعِيَّةُ فِتْنَةٌ لَكَ كُلُّهَا وَاجِبَاتُهَا وَمُحَرَّمَاتُهَا سِيَّانِ ، وَالْفَقْرُ وَالْغِنَى لَمْ يُخْلَقَا إِلاَّ فِتْنَةً لَكَ مِنَ الْفُقَرَاءِ كُنْتَ أَمْ مِنَ الأَغْنِيَاءِ . وَالصِّحَّةُ وَالْمَرَضُ وَالْقُوَّةُ وَالضَّعْفُ وَالْعِلْمُ وَالْجَهْلُ كُلُّهَا لَكَ ابْتِلاَءَاتٌ ، وَكَذٰلِكَ الْجَاهُ وَالْخُمُولُ وَالذَّكَاءُ وَالْبَلَهُ وَالْعُقْمُ وَالنَّسْلُ ذُكُورُهُ

---

(١) أى لم يحمله على صيامه إلا إيمانه بأن ربه فرضه عليه فهو يصومه امتثالا لأمر مولاه — وهو لا يرجو على مشقته فى صيامه جزاء يكافأ به إلا من ربه سبحانه وتعالى الذى له يصوم .

وَالْبَنَات ، وَكَذٰلِكَ السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ وَاللَّذَّةُ وَالْأَلَمُ وَالْغُمُومُ وَالْمَسَرَّات ، وَكَذٰلِكَ الْفَصَاحَةُ وَالْعِيُّ وَالْجَمَالُ وَالْقُبْحُ وَالنَّصْرُ وَالْخِذْلَانُ وَحَرُّ الصَّيْفِ وَبَرْدُ الشِّتَاء . هٰذَا امْتِحَانٌ يَطُولُ زَمَنُهُ لِأَنَّهُ كُلُّ حَيَاتِكَ فِى هٰذِهِ الدَّار . وَتَكْثُرُ مَوَادُّهُ لِأَنَّهَا التَّكَالِيفُ كُلُّهَا مَعَ مَا يَنْزِلُ بِكَ مِنْ مُحْزِنٍ وَسَارٍّ ، وَيَعْظُمُ مَجْهُودُهُ لِأَنَّه عَقْلِيٌّ وَبَدَنِيٌّ وَمَالِيٌّ لَا يَوْمًا وَلَا سَنَةً بَلْ بِالْاسْتِمْرَار ، لِذٰلِكَ يَعْظُمُ جَزَاؤُهُ لِأَنَّهُ إِمَّا الْجَنَّةُ دَارُ السُّعَدَاء وَإِمَّا النَّارُ دَارُ الْأَشْقِيَاء . فَيَا بُشْرَاكَ ثُمَّ يَا بُشْرَاكَ إِنْ أَنْتَ أَحْسَنْتَ الْإِجَابَةَ فِى هٰذَا الْامْتِحَان ، وَيَا وَيْلَكَ ثُمَّ يَا وَيْلَكَ إِنْ أَنْتَ أَخْطَأْتَ هٰذَا الْإِحْسَان ، وَإِنَّمَا تُحْسِنُ الْإِجَابَةَ بِالصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاء وَشُكْرِ النَّعْمَاء وَامْتِثَالِ التَّكَالِيفِ امْتِثَالَ إِذْعَان ، وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْكَ ذٰلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذَا هُوَ السُّقُوطُ الَّذِى أُعِيذُكَ مِنْهُ بِرَبِّ الْعَطَاء . وَإِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْابْتِلَاءَاتِ الَّتِي ابْتُلِيتَ بِهَا صِيَامَ شَهْرِ رَمَضَان ، وَهَا هُوَ ذَا قَدْ أَقْبَلَ فَاسْتَقْبِلْهُ بِامْتِثَالِ الْمُؤْمِنِ الْكَبِيرِ الْإِيمَان ، لَا تَغْلِبْ عَلَيْكَ شَهْوَةُ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ فَتُفْطِرَهُ فَإِنَّ مَعَ ذٰلِكَ الْفِطْرِ غَضَبَ الدَّيَّان ، فَإِنْ أَمْكَنَكَ أَنْ تَتَحَمَّلَ ذٰلِكَ الْغَضَبَ فَدُونَكَ فَافْعَلْ مَا تَشَاء . حَسْبُكَ يَا هٰذَا مُحَرِّضًا عَلَى صِيَامِ هٰذَا الشَّهْرِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِسْلَام ، وَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ مَنْ صَامَهُ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآثَام ، وَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ هٰذَا الْوَعْدَ بِعَيْنِهِ لِمَنْ أَحْيَا

لَيالِيهُ الغُرّاء بِالقِيام ، وَهَلْ يُظَنُّ بِمُؤْمِنٍ أَنْ يَتأَخَّرَ عَنْ مَوْسِمِ فَضْلٍ لاَ يُدانِيهِ مَوْسِمٌ آخَرُ لِلعامِلِينَ الأُدَباء .

(حديث) مَنْ صامَ رَمَضانَ إِيمانًا وَاحْتِسابًا غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ . رَواهُ البُخارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُما .

(آخر) مَنْ قامَ رَمَضانَ إِيمانًا وَاحْتِسابًا غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ . رَواهُ البُخارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُما .

١٨٧ — قيمة الحياة وقيمة رمضان والحث على حبس الجوارح فيه على ما ينبغي

الحَمْدُ للهِ الَّذِي فَسَّحَ فِي آجالِنا حَتَّى يَجِدَ العاصِي وَقْتًا يَتَذَكَّرُ فِيهِ وَيَعْتَذِرُ لِمَوْلاه ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ شَهادَةَ عَبْدٍ لِشِدَّةِ حُبِّهِ لِطاعَةِ رَبِّهِ يُحِبُّ طُولَ الحَياه ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا وَمَوْلانا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَمُصْطَفاه مِنْ صَفْوَةِ الخَلْقِ الهُداه ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبارِكْ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحابِهِ ذَوِي السَّبْقِ الفائِقِ فِي مَيادِينِ الوَلاء .

(أما بعدُ) فَيا عِبادَ الله : يَتَمَنَّى كُلُّ امْرِئٍ مِنَّا أَنْ تَطُولَ حَياتُهُ ثُمَّ تَطُولَ فِي هذِهِ الدَّار ، وَكُلَّما طالَتْ حَياتُهُ عامًا تَمَنَّى أَنْ تَطُولَ أَعْوامًا كِبارُنا فِي ذلِكَ كَالصِّغار ، لِذلِكَ أَحَبُّ دَعْوَةٍ إِلَيْنا نَدْعُو وَيُدْعَى لَنا بِها الدَّعْوَةُ بِطُولِ الأَعْمار ، وَإِذا ما دَعا عَلَيْنا بِالمَوْتِ داعٍ غَضِبْنا مِنْه وَاعْتَبَرْناهُ أَلَدَّ الأَعْداء . ما أَخْطأَ النّاسُ فِي هذا بَلْ أَصابُوا كُلَّ الإِصابَةِ

فى حبّ طولِ الحياه ، فإنّ الحياةَ رأسُ مالِ العبدِ بها يُدرِكُ كلّ مايتمنّاه، يتوبُ يُصلّى يصومُ يحجُّ يعطِفُ على الفقراء تقرّباً إلى مولاه، وما إلى ذلكَ من أنواعِ البرّ التى بها ينالُ العبادُ خيرَ الجزاء . يُصبحُ الحىّ ويُمسى وصحيفتُهُ فى ازديادٍ من الخيرات ، وكلّما امتدّتْ حياتُهُ كلّما ازدادتْ صحيفتُهُ حسنات ، وتُطوى هذهِ الصحيفةُ فلا يُزادُ فيها حسنةٌ إذا انتهتِ الحياةُ ومات ، إلّا إذا كانَ قبلَ الموتِ عملَ ما يبقى نفعُهُ مُخلصاً فيهِ إخلاصَ النبلاء . فالمؤمنُ إنّما يُحبُّ طولَ الحياةِ لأنّهُ بطولِها يتمتّعُ كثيراً بصالحاتِ الأعمال ، وكلّما كثُرتْ صالحاتُ العبدِ كلّما ارتفعَ قدرُهُ عندَ ربّهِ ذى الجلال، من هذا تعلمُ أنّ أطولَ الطائعينَ عمراً أحظاهمْ عندَ ربّهِ بالدّرجاتِ العوال ، ولعلّكَ من هذا فهمتَ أنّ طولَ الأجلِ معَ حُسنِ العملِ أفضلُ الآلاء . لكنْ منَ النّاسِ منْ يصرِفُ حياتَهُ فى قضاءِ شهواتِهِ حتّى المحرّمات ، وهذا المسكينُ كلّما طالتْ حياتُهُ كلّما ازدادتْ صحيفتُهُ منَ السيّئات ، إذنْ أطولُ العاصينَ عُمراً شرُّهمْ منزلةً عندَ بارئِ الكائنات ، ولعلّكَ منْ هذا فهمتَ أنّ طولَ الأجلِ معَ سوءِ العملِ شرُّ أنواعِ الشقاء . أنتَ الآنَ فى رمضانَ يا هذا وهوَ وحدَهُ عُمرٌ طويلٌ جدّاً لمنْ رامَ الثّوابَ الجزيل ، فإنّ فى لياليهِ الغرّاء ليلةً واحدةً خيراً منْ ألفِ شهرٍ كما فى التّنزيل ، وأمّا صيامُهُ وقيامُهُ فلا يعلمُ بكمْ ألفِ شهرٍ إلّا مولاكَ

الْجَلِيلِ ، فَاحْبِسْ فِيهِ جَوَارِحَكَ عَلَى مَا يَنْبَغِي تَكُنْ كَأَنَّكَ عِشْتَ فِي عَمَلِ الصَّالِحَاتِ حَيَاةَ الْمُعَمَّرِينَ الْفُضَلَاءِ .

(حديث) خَيْرُ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ ، وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ (١) . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَأَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ .

١٨٨ — عادات الناس اليوم فى رمضان

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي إِنَّمَا أَنْزَلَ دِينَهُ لِيَتَأَدَّبَ عِبَادُهُ بِآدَابِهِ الْقَوِيمَاتِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ شَهْرَ رَمَضَانَ مِنْ أَجَلِّ مَوَاسِمِ الْخَيْرَاتِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْأُسْوَةُ الْحَسَنَةُ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَوْفَى أَصْحَابٍ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللَّهِ : إِنَّ لِلنَّاسِ الْيَوْمَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ عَادَاتٍ لَا يُقِرُّهَا دِينُ الْإِسْلَامِ ، وَكَيْفَ يُقِرُّ دِينُ الْكَمَالَاتِ عَادَاتٍ تَأْبَاهَا طِبَاعُ الْكِرَامِ ، أُدْخُلْ بُيُوتَ اللَّهِ تَعَالَى وَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ بِصَلَاةِ الْقِيَامِ ، تَجِدْهُمْ يَلْعَبُونَ وَهُمْ يَعْبُدُونَ مَالِكَ النَّوَاصِي وَالْأَلْبَابِ .

---

(١) إذا طال عمر المرء وهو كل يوم فى خير — كان له من أيامه الطويلة التى عاشها خيرات كثيرة تضاف إلى بعضها لا يساويه فيها من قصر عمره عن عمره — ومثل هذا كلما كان طويل الأجل كان أجلّ — ومن ساء عمله وطال أجله كان له بكل يوم سيئات تضاف إلى ما سبقها من السيئات فيجتمع الشىء الكثير من سيئاته لطول أيامه — ولا شك أن من لم يعش مثله لا يكون فى منزلته من الشر وإن كان سيء العمل لأنه يكون أنقص سيئات منه بقصر أيامه ، وحينئذ كلما كان سيء العمل أطول عمرا كان شرا من سواه كما أخبر الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام

يقرءون فتعجب من قراءتهم ولا تصدق أبداً أن ما يغمغمون به قرآن ، ويركعون ويسجدون فتظن أنهم لشدة عجلتهم يتقلبون فى نيران ، وأثقل الأئمة ظلاً عندهم من يصلى التراويح بخشوع وباطمئنان ، ولذلك يفرون منه ويتسابقون إلى من يمر بها مر السحاب . ثم التفت لعادتهم مع القراء الذين يدعونهم للتبرك بتلاوتهم كلام الله ، تجدهم يجربون القارئ فى صوته وصنعته ويرضى هو بهذه التجربة المزدراه ، فإن ظهر حسن الصوت متقن النغمات قبلوه وإلا نبذوه نبذ النواه ، لأنهم لا يريدونه للتبرك كما يقولون بل ليقع عند الزوار موقع الإعجاب . فإذا نجح كتبوا له وثيقة بالأجر ليقاضيهم بها إذا ما طلوه ، فإذا حل بساحتهم اختاروا له أحط مكان وفيه أجلسوه ، فإذا ابتدأ يتلو أصغوا له بمقدار الإعجاب به ثم أهملوه ، فقل لى بربك أيليق أن يصدر هذا من رجل يؤمن بيوم الحساب . ومن عاداتهم سهرهم فى ليالى هذا الشهر حتى يروا بياض النهار ، لا يسهرون لطاعة بل للدخول عند عمرو والخروج من عند عمار ، فإذا حان وقت السحور ملئوا بطونهم وقد أثقلت ظهورهم الأوزار ، لأن مجالسهم إنما تنعقد لتمزيق الأعراض والطعن فى الأحساب والأنساب . وإنما يسهرون كل ذلك السهر ليناموا النهار ولا يشعروا بألم الصيام ، فإذا انتبهوا ولم

يَنْتَهِ الْيَوْمُ تَشَاغَلُوا عَنِ الصَّوْمِ بِالْأَعِيبَ حَرَام ، فَإِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ مَالُوا إِلَى أَصْنَافِ الْمَآكِلِ مَيْلَةَ الْهُمَامِ الْمِقْدَام ، وَلَا يَنْثَنُونَ عَنْهَا إِلَّا وَقَدِ انْحَلَّتْ أَبْدَانُهُمْ مِنْ كَثْرَةِ مَا تَنَاوَلُوا مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَاب .

مِنْ هٰذَا تَعْلَمُ أَنَّ رَمَضَانَ الْيَوْمَ مَوْسِمُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَنَوْمٍ وَذُنُوبٍ مُهْلِكَات ، وَقَدْ كَانَ الْمَوْسِمَ الْفَخْمَ الَّذِي فِيهِ تُفَاضُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ النَّفَحَاتُ الْإِلٰهِيَّات ، فَاعْرِفْ قَدْرَهُ يَا هٰذَا وَلَا تُشَارِكِ النَّاسَ فِي عَادَاتِهِمْ تِلْكَ الْقَبِيحَات ، وَإِلَّا خَرَجْتَ مِنْهُ مَغْضُوبًا عَلَيْكَ مُسْتَحِقًّا عِنْدَ الْعَدْلِ الْإِلٰهِيِّ الْعِقَاب .

(حديث) مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلّٰهِ حَاجَةٌ (١) فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ .

(غيره) رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ . رَوَاهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ وَالْحَاكِمُ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَالْبَيْهَقِيُّ وَالطَّبَرَانِيُّ .

---

(١) ليس لله تعالى حاجة فى أن يدع عبد طعامه وشرابه وإن ترك قول الزور والعمل به ، أى النطق بما لا يرضى الله والعمل بما لا يرضى الله — فإن الله غنى عن العالمين ، والحاجة صفتنا نحن — إذن هذا التعبير كناية عن أن ربنا لا يتقبل صيام امرئ يقول أو يعمل زورا — والحديث شديد وشديد على أبناء هذا العصر الذين يصومون ويدخلون شهر الصيام ليله ونهاره بقول الزور وحمله فليقرءوه ثم ليقرءوه ليعرفوا أين هم مما يرضى ربنا عز وجل — ومن هذا الكلام تفهم الحديث الذى بعد هذا .

١٨٩ — حياة العمل وحياة الجزاء

يستقبل بها العشر الأواخر من رمضان

الحَمْدُ لِلّهِ حَمْدَ امْرِئٍ عَرَفَ قَدْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَإِلَى القِيَمَةِ مِنْهُمَا مَالَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ شَهَادَةً تَهْدِي أَهْلَهَا إِلَى أَقْوَمِ الطُّرُقِ وَخَيْرِ الأَعْمَالِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الهَادِي بِحَالِهِ وَمَقَالِهِ إِلَى أَشْرَفِ الأَحْوَالِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَنْصَارِ الفَضِيلَةِ وَحُمَاةِ الآدَابِ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّهِ: أَنْتَ لَكَ حَيَاتَانِ حَيَاتُكَ الحَاضِرَةُ وَالحَيَاةُ الثَّانِيَةُ بَعْدَ بَعْثِ الأَجْسَامِ، أَمَّا حَيَاتُكَ هٰذِهِ فَأَنْتَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّهَا تَنْتَهِي فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ، فَإِنَّكَ تُشَاهِدُ بِنَفْسِكَ كُلَّ يَوْمٍ مَصَارِعَ المَوْتَى وَكَأَنَّهُمْ مَا كَانُوا بَيْنَ الأَنَامِ، وَتَعْلَمُ أَنَّ جَمِيعَ الأُمَمِ مِنْ أَوَّلِ الدُّنْيَا لِهٰذَا الجِيلِ تَحْتَ التُّرَابِ. وَأَمَّا حَيَاتُكَ الثَّانِيَةُ الَّتِي بَعْدَ البَعْثِ فَلَيْسَ لَهَا أَبَدًا نِهَايَاتٌ، وَهِيَ الحَيَاةُ الحَقِيقِيَّةُ الَّتِي يَسْتَحِيلُ مَهْمَا تَمَادَى الأَبَدُ أَنْ يَلْحَقَهَا مَمَاتٌ، يُحْيِيكَ اللّهُ لَهَا بَعْدَ مَوْتِكَ لِيُجَازِيَكَ فِيهَا عَلَى مَا عَمِلْتَ هُنَا مِنْ حَسَنَاتٍ أَوْ سَيِّئَاتٍ، فَحَيَاتُكَ هٰذِهِ حَيَاةُ العَمَلِ وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَحَيَاةُ الجَزَاءِ مِنْ ثَوَابٍ وَعِقَابٍ. أَلَيْسَ مِنْ أَعْجَبِ العَجَبِ أَنْ يَكُونَ الأَمْرُ هٰكَذَا وَنَحْنُ عَلَى هٰذِهِ الحَالِ،

قصرنا همنا على هذه الحياة وجعلناها مع الأسف منتهى الآمال ، لها أجسامنا ولها قلوبنا لها أرواحنا ولها ما لنا من أموال ، فكأننا لم نخلق إلا لهذه الحياة ولمتاعها الفاني الكذاب . وأما حياة الأبد فليس لها منا – وا أسفاه – ولا قدر نقير ، نسيناها ونسينا ما ينفعنا بها كما ينسى الشيء الحقير . لذلك لا نبالي بما نفعل من شر ولا بما نترك من خير كثير ، وهل هذه حياة قوم صدقوا في إيمانهم بالله ويوم الحساب . إن أهل الصدق يا هذا كل همهم العمل للحياة الأبديه ، وأعمالهم التي تراها للدنيا وسائل يتوسلون بها لتلك الحياة الحقيقيه ، يضنون بعقولهم أن تقدم فانيا منغصا على باق يستحيل أن تكدر لذاته السرمديه ، ويستحيون أن يقفوا موقفا فيه يرضون شهواتهم ويغضبون رب الأرباب . هكذا كن يا هذا وأمامك ميدان يتسابق فيه الصادقون وهو العشر الأواخر من رمضان ، فيه ليلة القدر التي من أحياها غفرت ذنوبه وأصبح من المخاوف في أمان ، وفيه كان يشمر للطاعة سيد الخلق ويوقظ أهله لينالهن مما يفاض فيه من إحسان ، فشمر لإحيائه يا هذا كما شمر سيد الخلق ومن تبعه من ذوي الألباب .

(حديث) كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره ،

وَأَحْيَا لَيْلَهُ ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ (١) . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

(آخر) تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوِتْرِ مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

(آخر) مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ .

١٩٠ — مبلغ ولوع الناس بالمنافع العاجلة
التحريض على إخراج صدقة الفطر

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ امْرِئٍ جَعَلَ هَمَّهُ الْعَمَلَ لِلْآخِرَةِ فَكَانَ ذَا الرَّأْيِ الرَّشِيدِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً هِيَ الرُّكْنُ الشَّدِيدُ لِأَهْلِهَا مِنْ دَرْكِ الْوَعِيدِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَنُورُهُ الْهَادِي إِلَى النَّهْجِ الْحَمِيدِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ نَهَجَ مَنَاهِجَهُمُ النَّيِّرَاتِ .

---

(١) شد المئزر كناية عن التشمير للعبادة تشميرا ليس بمعتاد بين ذلك « وأحيا ليله » أى كله ، والسر فى ذلك أن هذا العشر فيه ليلة القدر ، وليلة القدر من الليالى التى لايراها العبد إلا مرة واحدة فى العام كله ، وفضلها لايستهين به إلا أحد رجلين : إما رجل لايقدر الأمور قدرها أو رجل فى قلبه مرض يحل منه عقدة التصديق بقدر الليلة — فبحاله ومقاله أرشدنا صلى الله عليه وسلم إلى أن ليلة القدر فى هذا العشر الأخير لنطلبها لنصل إلى فضلها الكبير الذى أعده ربنا للقائمين بطاعته فيها — وإنما كان يوقظ أهله صلى الله عليه وسلم فى هذا الظرف حرصا على فائدتين — استنت الأمة من أولها هذه السنة الكريمة فكنت ترى المساجد فى العشر الأخير من رمضان مفعمة بالمتكفين بها الذين هجروا بيوتهم وأزواجهم وأولادهم لاعمل لهم فى ليلهم ونهارهم إلا طاعة الله يطلبون رضاه بإحياء تلك الليالى . ولكنا نقول مع الأسف إن هذه السنة قد ماتت كباقى ما مات من الدين فى هذا الزمان الذى أحيا الدنيا وأمات الآخرة ولله فى خلقه مراد لابد أن ينفذه ، وهو حسبنا ومولانا نعوذ به من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

(أمّا بعدُ) فيا عبدَ الله : لقدْ غلبَ على القُلوبِ اليوْمَ حبُّ المنافعِ العاجلةِ الدُّنيويّه ، غلبةً أفقدتْنا رُشدَنا وعدلتْ بنا عن الطَّريقِ المرضيّه ، فنحنُ اليوْمَ لا ننهضُ لعملٍ إلاّ إذا كانَ يترتّبُ عليْهِ منافعُ وقتيّه ، كأنّا لا نُؤمنُ ببعثٍ ولا حسابٍ ولا نيرانٍ ولا جنّات . أحدثَ ذلكَ عندَنا ذهولاً عمّا هوَ أهمُّ منْ هذهِ المنافعِ بكثيرٍ ، ذهولاً جعلَنا لا نُفكّرُ في حياتِنا الأبديّةِ ولا في مُلكِها الخالدِ الكبيرِ ، وإذا رأيتَ منْ يعملُ أوْ يُحاولُ عملاً ينفعُ في ذلكَ العالمِ الخطيرِ ، فتأكّدْ أنَّ الذي دفعهُ لعملهِ حظٌّ منَ الحُظوظِ العاجلاتِ . تسمعُ منْ وقتٍ لآخرَ أنَّ فلاناً جادَ في سبيلِ برٍّ بمقدارٍ منَ الأمْوالِ ، فتُذيعُ الصُّحُفُ العُموميّةُ ذلكَ في أنحاءِ العالمِ وتُدندنُ حوْلهُ الأيّامَ الطِّوالَ ، جميلٌ هذا ثُمَّ جميلٌ لوْ كانَ بإخلاصِ الرّجُلِ التّقيِّ المِفضالِ ، ولكنْ أينَ الإخلاصُ منْ رجُلٍ إنّما يُقدّمُ ما يُقدّمُ ثمناً لتلكَ الدّندناتِ . وإنْ شئتَ أنْ تتحقّقَ هذا فاذهبْ إلى بلادِ أولئكَ الأسخياءِ ، وانظُرْ مبلغَ عطفِهِمْ على منْ حوْلهُمْ منَ المساكينِ والفُقراءِ ، إنّكَ لوْ فعلتَ هذا رجعتَ وأنتَ جازمٌ أنّهُمْ صفوةُ الأشحّاءِ ، فإنّكَ تجدُ البُؤسَ يعملُ عملهُ لا في منْ حوْلهُمْ فقطْ بلْ وفي آبائِهِمْ والأُمّهاتِ . ولا تفزعْ إذا قُلتُ لكَ إنَّ هؤلاءِ وأمثالَهُمْ لا يُؤدّونَ الزّكاةَ وهيَ دينُ الفُقراءِ ، لا يُؤدّونها وهُمْ يعلمونَ أنّها

أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ يَغْضَبُ لِمَنْعِهَا رَبُّ الآلَاءِ ، لَا يُؤَدُّونَهَا لِأَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ مَنْفَعَةً عَاجِلَةً لَهُمْ مِنْ ذَاكَ الْأَدَاءِ ، وَهَلْ تَتَصَوَّرُ أَنْتَ أَنَّ مَانِعَ الزَّكَاةِ يَعْمَلُ بِإِخْلَاصٍ شَيْئًا مِنَ الْمَبَرَّاتِ النَّافِلَاتِ . بَلْ لِهٰذَا الْمَعْنَى بِعَيْنِهِ يَمْنَعُونَ زَكَاةَ الْفِطْرِ وَهِيَ قَدْرٌ يَسْتَخِفُّهُ حَتَّى الْبُخَلَاءُ ، فَإِنَّهَا عَلَى الْوَاحِدِ ثُلُثُ كَيْلَةٍ أَوْ رُبُعُهَا أَوْ سُدُسُهَا عَلَى حَسَبِ اخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ ، يَمْنَعُونَهَا وَهِيَ طُهْرَةٌ لِلصَّائِمِ مِنَ الرَّفَثِ وَاللَّغْوِ كَمَا أَخْبَرَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَهَلْ مَنْ يَمْنَعُ قَدْرًا زَهِيدًا كَهٰذَا وَهُوَ فَرِيضَةٌ يَهْتَمُّ بِالْآخِرَةِ وَأَعْمَالِهَا الصَّالِحَاتِ . إِنَّ حُمْقًا بَالِغًا يَا هٰذَا أَنْ تَخْتَارَ فَانِيًا حَقِيرًا عَلَى بَاقٍ عَظِيمٍ ، وَأَيُّ عَقْلٍ يَرْضَى أَنْ يُقَدِّمَ أَنْفَاسًا مَعْدُودَةً عَلَى حَيَاةِ الْأَبَدِ وَنَعِيمِهَا الْمُقِيمِ ، لَيْسَ مَعْنَى هٰذَا أَنْ تَتْرُكَ الْمَنَافِعَ الْعَاجِلَةَ بَلْ أَنْ تَجْعَلَهَا وَسِيلَةً لِلْقِيَامِ بِمَا يُحِبُّ مَوْلَاكَ الْكَرِيمُ ، فَاعْلَمْ ذٰلِكَ وَبَادِرْ بِإِيصَالِ زَكَاةِ الْفِطْرِ إِلَى مُسْتَحِقِّيهَا إِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ مِنَ الْوَاجِبَاتِ .

(حديث) فَرَضَ رَسُولُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَكَاةَ الْفِطْرِ صَاعًا[1] مِنْ تَمْرٍ ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ عَلَى الْعَبْدِ وَالْحُرِّ وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَمَرَ أَنْ تُؤَدَّى بَعْدَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلَاةِ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

---

(١) الصاع مكيال كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم اختلف العلماء في تقديره بمكاييلنا اليوم ، وتحرير ذلك يطول فليراجع ذلك في كتب الفقه .

١٩١ – لماذا كان صائم شهر رمضان صادق العبودية

خطبة عيد الفطر

اللهُ أكبر ٩ مرات [١] ، اللهُ أكبرُ ما طهّر الصيامُ أبدانَ الصائمينَ مِنَ الخُبثِ كما يُطهّرُ المالُ بزكاةِ الأخيار ، اللهُ أكبرُ ما ضاعفَ اللهُ للصائمينَ جزاءهُمْ وأجابَ دعاءهُمْ وغفرَ لهمُ الأوزار ، اللهُ أكبرُ ما أجزلَ عليهِمُ النّعمةَ فجعلَ صمتَهُمْ تسبيحاً ونومَهُمْ كعبادةِ الأبْرار ، اللهُ أكبرُ ما كانَ الصومُ حِصناً حصيناً يقِي أهلَ الصيامِ نارَ سقَر ، اللهُ أكبرُ ٣ ، اللهُ أكبرُ ما حافظُوا على صيامِهِمْ وقالوا لِمَنْ شاتمَهُمْ إنّا صائمُون ، اللهُ أكبرُ ما كانَ لهُمْ فرحتانِ فرحةٌ عِندَ لقاءِ ربِّهِمْ وفرحةٌ وهُمْ يُفطِرُون ، اللهُ أكبرُ ما جلَّ مَنْ يُفطِرُونَ عِندهُ حتّى ترضَى عنهُ الملائكةُ وعليهِ يُصلُّونَ ، اللهُ أكبرُ ما كانتْ رائحةُ أفواهِهِمْ أطيبَ عِندَ اللهِ مِنْ ريحِ المسْكِ إذا ذكا وبهر ، اللهُ أكبرُ ٣ ، اللهُ أكبرُ ما جعلَ اللهُ لِمَنْ يُفطِّرُهُمْ مِنَ الحلالِ مِثلَ مالهُمْ مِنْ ثواب ، اللهُ أكبرُ ما كانَ هذا الصيامُ شفاءً للأبْدانِ ممّا بِها مِنْ أوْصاب ، اللهُ أكبرُ ما جعلَ تعالَى لِكُلِّ شيْءٍ باباً وجعلَ الصيامَ للعِبادةِ هُوَ البَاب ، اللهُ أكبرُ ما اختصَّ الصائمُونَ ببابِ الرّيّانِ لا يَدْخُلُ مِنهُ سِواهُمْ جنّاتِ المقرّ ، اللهُ أكبرُ ٣ وللهِ الحمْد.

---

(١) ويكبر فى أول الخطبة الثانية سبع مرات فى العيدين .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَكْرَمَ أَهْلَ وِدَادِهِ بِأَيَّامِ أَعْيَادِهِ وَجَعَلَهَا لَهُمْ مِنْحَةً عَاجِلَه ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةَ عَبْدٍ لَا يَعْرِفُ الْعُصَاةَ وَلَا أَعْمَالَهُمُ السَّافِلَه ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى بِهِ نِلْنَا شَرَفَ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَه ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ بِهِمُ الْإِسْلَامُ انْتَصَرَ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللَّهِ : لَقَدْ بَرْهَنَ عَلَى صِدْقِ عُبُودِيَّتِهِ كُلُّ مَنْ صَامَ شَهْرَ رَمَضَانَ ، نَعَمْ بَرْهَنَ بِذَلِكَ لَا أَىَّ بُرْهَانٍ بَلْ أَبْلَجَ وَأَصْدَقَ بُرْهَان ، فَإِنَّهُ كَفَّ عَنْ شَهَوَاتِ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ كُلَّ ذَاكَ الزَّمَان ، وَهَلْ تَدْرِى مَا يَحْصُلُ بَيْنَ تِلْكَ الشَّهَوَاتِ وَبَيْنَ نُفُوسِ الْبَشَر . تَلْتَهِبُ نِيرَانُ الْحُرُوبِ طُولَ الْيَوْمِ بَيْنَ الصَّائِمِ وَبَيْنَ هَذِهِ الشَّهَوَات ، فَيَهْجُمُ الْعَطَشُ بِجُنْدِهِ عَلَى مُهْجَتِهِ هَجَمَاتِهِ الْقَاسِيَات ، وَتَحْمِلُ جُيُوشُ الْجُوعِ عَلَى مَعِدَتِهِ الضَّعِيفَةِ حَمَلَاتِهَا الْمُذْهِلَات ، وَتَهِيجُ عَلَيْهِ مِنْ زَوْجَتِهِ جُيُوشٌ تَأْبَى إِلَّا قَضَاءَ الْوَطَر . وَلَا تَسْتَبْعِدْ أَنْ تَتَّفِقَ عَلَى مُهَاجَمَتِهِ كُلُّ تِلْكَ الْجُيُوشِ الْقَوِيَّه ، لَا مُتَعَاقِبَةً بَلْ فِى آنٍ وَاحِدٍ تَنْقَضُّ عَلَيْهِ لِقَضَاءِ مَآرِبِهَا الْبَهِيمِيَّه ، فَيَقِفُ أَمَامَهَا مَوْقِفًا تَتَجَلَّى فِيهِ بِأَجْلَى مَظَاهِرِهَا الشَّجَاعَةُ الْإِنْسَانِيَّه ، كَأَنَّهُ جَبَلٌ عَصَفَتْ حَوْلَهُ الْعَوَاصِفُ وَهُوَ بِعَصْفِهَا مَا شَعَر . وَإِنَّمَا لَمْ يَنْهَزِمْ أَمَامَ كُلِّ تِلْكَ الْجُيُوشِ لِأَنَّ مَعَهُ مَا هُوَ أَقْوَى مِنْهَا بِكَثِيرٍ ، مَعَهُ إِيمَانُهُ الصَّادِقُ

وَإِجْلَالُهُ الْبَالِغُ لِخَالِقِهِ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ ، وَمَنْ كَانَ هٰكَذَا لَا يَنْهَزِمُ وَلَوِ الْعَالَمُ كُلُّهُ بَعْضُهُ لِبَعْضِهِ عَلَيْهِ ظَهِيرٌ ، لِأَنَّ مَعَهُ اللّٰهَ تَعَالَى وَمَنْ كَانَ مَعَهُ الْقَدِيرُ الْقَاهِرُ قَهَرَ . هٰكَذَا يَخْرُجُ الصَّائِمُ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ بِيَدِهِ لِوَاءُ هٰذَا النَّصْرِ الْعَظِيمِ ، فَمِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ يَتَوَلَّى مُكَافَأَتَهُ بِنَفْسِهِ مَوْلَاهُ الشَّكُورُ الْكَرِيمُ ، وَمِنْ أَجْلِ هٰذَا يَغْفِرُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذُنُوبِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، لِذٰلِكَ كَانَ هٰذَا الْيَوْمُ عِيدَهُ يَفْرَحُ فِيهِ بِهٰذِهِ الْمِنَنِ وَيُسَرُّ . إِلَيْكَ أَيُّهَا الْبَطَلُ الصَّبُورُ أُقَدِّمُ عَظِيمَ تَهْنِئَاتِي بِهٰذَا الْمَقَامِ ، وَأَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَكَ النَّصْرُ دَائِمًا عَلَى شَهَوَاتِكَ الْحَرَامِ ، فَإِنَّكَ إِنْ كُنْتَ كَذٰلِكَ كَانَتْ أَعْيَاداً لَكَ جَمِيعُ الْأَيَّامِ ، وَكُنْتَ دَائِمًا مَغْفُورَ الذَّنْبِ بَعِيداً عَنِ النَّارِ وَمَا لَهَا مِنْ شَرَرٍ .

(حديث) كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي (١) وَأَنَا أَجْزِي بِهِ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

---

(١) فى الصوم معان جليلة ليست فى غيره من العبادات — فيه فطم النفس عن شهوتى البطن والفرج فطما يطول كل اليوم — وهاتان الشهوتان هما شغل الناس الشاغل وعليهما تهالكهم ولأجلهما كل سعيهم وتعبهم — فهو من هذه الجهة مشقة لا تساميها مشقة فى أى عمل — أما الصلاة فلا تمنع الانسان من تينك الشهوتين إلا دقائق معدودة، وبعد هذه الدقائق يفعل مايشاء — والحج وإن منع من شهوة الفرج زمن الإحرام — لا يمنع من شهوة البطن بل يترك الإنسان فيها حرا كما يشتهى — والزكاة لا تتعرض لواحدة منهما — وفى الصوم قطع دابر الرياء الذى يعد أكبر آفة لأعمال المؤمنين فإنه يحبط ثوابها — والسر فى قطعه لدابر الرياء أنه أمر سلبي صرف هو ترك الطعام والشراب طول اليوم ، وهذا الترك لا يرى أصلا فلا يتعرض الصائم للرياء بحال من حيث إنه صائم — وهذا المعنى ليس فى غير الصيام فإن الصلاة والحج والزكاة أمور يراها الناس

١٩٢ — الحث على المبادرة فى الحج

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ امْرِئٍ يَتَعَجَّلُ فى أداء الحُقُوقِ خَوْفَ طُرُوءِ الأَعْذَارِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِى دَعَا إِلَى الحَجِّ وَشَدَّدَ عَلَى غَيْرِ أَهْلِ الإِعْسَارِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى فِى بَابِ الخَيْرِ عَلَّمَنَا البِدَارَ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ عَبْدٍ إِلَى الخَيْرِ مَيْلُهُ وَالحَنِينُ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللَّهِ: يَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ حَجَّ بَيْتِ اللَّهِ تَعَالَى أَحَدُ أَرْكَانِ الإِسْلَامِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَطَقَ بِهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَأَجْمَعَ

بأعينهم، ومن هنا ينفتح باب الرياء على مصراعيه، فلا يسلم من شائبة من شوائبه إلا من عصمه الله واصطفاه — وفى الصوم تشبه بالملإ الأعلى من ناحية التنزه عن الأكل والشرب، فالصائم يكون حين صومه كالملإ الأعلى — وفيه صفاء الفكر بخلوّ المعدة التى امتلاؤها أكبر سبب يحول بين الفكر وأداء وظيفته كما ينبغى، ولذلك يقولون البطنة . تذهب الفطنة — وإذا صفا الفكر عرف حقائق الأشياء هى كما واقتنع بها وعمل على ماتقتضى وذلك هو الفضل العظيم — وفى الصوم ضعف البدن ، وهو إذا ضعف ضعفت الشهوة ، وإذا ضعفت الشهوة بعد الإنسان عن الخطر فإنه لايقود المرء إلى المخاطر إلا الشهوات ، ولهذا السرّ وصى نبينا صلى الله عليه وسلم الشباب أن يصوموا إذا لم يستطيعوا أن يتزوجوا — ولما أن الصوم فيه كل هذه المعانى الفخيمة أضافه ربنا عزّ وجل إلى نفسه ، وإن كانت كل الأعمال له ، فهو تعالى بهذه الإضافة نوّه برفعة قدر الصيام — ولفت العقلاء إلى هذه الأسرار البديعة — وحرض كل مؤمن على أن يكثر من هذا الصيام لينال أجره الفريد الذى لايحيط مخلوق بقدره ، وإنما هو تعالى وحده الذى يعلمه — أفهمنا تعالى أن ثواب الصيام بهذا القدر بقوله — وأنا أجزى به — فإن ربنا لا نهاية لغناه ولا نهاية لكرمه ، وإذا أراد إعطاء لايمنعه أحد لأنه القدير الذى لايغلب ، فاذا قال تعالى فى جزاء الصوم — وأنا أجزى به — مع أنه المجازى على كل الأعمال — كان معنى ذلك أنه جزاء يناسب غناه وكرمه . فيكون جزاء لا نهاية له ، وهو وعد يلهب القلوب شوقا إلى الصيام — والحديث أصل عظيم فى إظهار الصوم بين سائر العبادات بمظهر ضخم فخم ، فاحرص عليه .

عَلَيْهِ أَئِمَّةُ الدِّينِ الأَعْلَامِ ، لَكِنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَى الْمُعْسِرِ وَلَا يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ فِي كُلِّ عَامٍ ، وَإِنَّمَا يَجِبُ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي الْعُمُرِ عَلَى الْمُسْتَطِيعِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ أَنْ تَحُجَّ فَبَادِرْ وَكُنْ مِنَ التَّسْوِيفِ عَلَى حَذَرٍ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الِاحْتِيَاطِ أَنْ تُسَوِّفَ وَقَدْ وَجَبَ عَلَيْكَ الأَدَاءُ وَاسْتَقَرَّ ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي لَعَلَّهُ يَطْرَأُ عَلَيْكَ مَا يَمْنَعُكَ وَمَوَانِعُ الْخَيْرِ عَدَدُ الْمَطَرِ ، وَهَلْ تَرْضَى لِنَفْسِكَ أَنْ تَمُوتَ وَأَنْتَ بِهَذِهِ الْفَرِيضَةِ الْعُظْمَى مَدِينٌ . مَعَاذَ اللهِ أَنْ يَرْضَى بِذَلِكَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِاللهِ تَعَالَى وَبِمَا لَهُ مِنْ ثَوَابٍ وَعِقَابٍ ، إِنَّمَا يَرْضَى بِهِ رَجُلٌ يَرْتَابُ فِي دِينِهِ أَوْ لِشِدَّةِ غَفْلَتِهِ كَأَنَّهُ مُرْتَابٌ ، فَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ الْمُسْتَطِيعُ هَا هُوَ ذَا طَرِيقُ الْحَجِّ مَفْتُوحٌ أَمَامَكَ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، فَأَرِنَا نَشَاطَكَ وَبَرْهِنْ بِأَدَاءِ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ عَلَى أَنَّكَ مِنْ صَادِقِي الْمُؤْمِنِينَ . وَاحْذَرْ أَنْ تَسْمَعَ مَا يُذِيعُهُ بَعْضُ ضِعَافِ الإِيمَانِ مِنْ أَنَّ طَرِيقَ الْحَجِّ صَعْبٌ وَشَدِيدٌ ، وَيُهَوِّلُونَ فِي ذَلِكَ وَيُبَالِغُونَ حَتَّى يُمَثِّلُوهُ بِمِثَالٍ يُفْزِعُ الرَّجُلَ الصِّنْدِيدَ ، لَا تُصَدِّقْهُمْ خُصُوصًا فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي فِيهِ السَّيَّارَاتُ قَرَّبَتِ الْبَعِيدَ ، ثُمَّ انْظُرْ هَلْ شَكَا تِلْكَ الشَّكْوَى حُجَّاجُ أُورُوبَّا وَسَفَرُهُمْ طَوِيلٌ وَفِي غَيْرِ سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لِتَعْلَمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ أَنَّ كُلَّ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَكَّةَ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ عَلَى أَكْثَرِ تَقْدِيرٍ ، أَنْتَ فِيهَا فِي سَبِيلِ اللهِ رَاكِبٌ مُسْتَظِلٌّ تَسْهَرُ الْحُكُومَةُ عَلَى رَاحَتِكَ طُولَ الْمَسِيرِ ، وَمِنَ الْمُضْحِكِ

أَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّ المَوْتَ يَنْتَظِرُكَ بِالْحِجَازِ كَمَا يَقَعُ ذٰلِكَ فى نُفُوسِ كَثِيرٍ ، كَيْفَ ذٰلِكَ وَأَنْتَ تُؤْمِنُ أَنَّ لِلْمَوْتِ حَدًّا لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ فى أَىِّ مَكَانٍ وَفى أَىِّ حِينٍ . فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ وَتَقَدَّمْ إِلَى الْحَجِّ إِنْ كُنْتَ مُسْتَطِيعاً فَإِنَّكَ بِذٰلِكَ تَتَقَدَّمُ إِلَى الْجَنَّاتِ ، وَكُنْ مِنْ صَالِحِى عِبَادِ اللّٰهِ الَّذِينَ يَتَلَذَّذُونَ بِمَا يَبْذُلُونَ فى طَاعَةِ رَبِّهِمْ مِنْ أَمْوَالٍ وَمِنْ مَجْهُودَاتٍ ، وَقَبْلَ السَّفَرِ أَدِّ دُيُونَكَ وَاسْتَسْمِحْ خُصُومَكَ وَتُبْ تَوْبَةَ صِدْقٍ مِمَّا قَدَّمْتَ مِنْ سَيِّئَاتٍ ، وَاجْتَهِدْ أَنْ تَكُونَ مَحْفُوظَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ حَلَالَ النَّفَقَةِ تَرْجِعْ وَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ الْمُفْلِحِينَ .

(حديث) مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ فَإِنَّهُ قَدْ يَمْرَضُ الْمَرِيضُ وَتَضِلُّ الضَّالَّةُ ، وَتَعْرِضُ الْحَاجَةُ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَه .

١٩٣ — التشويق إلى الحج

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى أَكْرَمَنَا بِفَرِيضَةِ الْحَجِّ إِكْرَامًا تَرْقُصُ طَرَبًا لِتَصَوُّرِهِ الْأَفْكَارُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ الَّذِى جَعَلَ الْحَجَّ يُكَفِّرُ حَتَّى كَبَائِرَ الْأَوْزَارِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى أَخْبَرَ أَنَّ الْفَقْرَ يَذْهَبُ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ كَمَا يَذْهَبُ خَبَثُ الْحَدِيدِ بِالنَّارِ ، اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ عَبْدٍ لِأَمْرِ مَوْلَاهُ سَمِيعٍ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللّٰهِ : فى هٰذِهِ الْأَيَّامِ تَشْتَعِلُ بَيْنَ جَوَانِحِ

أهلِ الاذواقِ نيرانُ الأشواقِ إلى ناحيةِ الأقطارِ الحجازيه ، فى هذهِ الأيامِ تخفقُ القلوبُ خفقانَ العلمِ المنصوبِ إلى هاتيك البطاحِ القرشيه ، فى هذهِ الأيامِ يقلقُ الأشباحَ حنينُ الأرواحِ إلى تلكَ المشاهدِ المكيه ، فى هذهِ الأيامِ يبذلُ أهلُ المناياتِ نهايةَ المجهوداتِ للاستعدادِ لذلكَ المقصودِ الرفيع . وقريباً يبارحونَ الأوطانَ يودعهُم الأقاربُ والخلانُ فى بكاءٍ لفراقهم وإعوال ، فيعرضونَ عنهم مستهينينَ بفراقهم لما أنهُ فى سبيلِ رضى ربهم الكبيرِ المتعال ، وفى مراكبِ البخارِ يجوبونَ القفارَ ويخوضونَ البحارَ مواصلينَ الأيامَ بالليال ، وعندَ المواقيتِ يخلعونَ المخيطَ ويأتزرونَ ويرتدونَ ويحرمونَ بعدَ الغسلِ المشروع . وبعدَ ذلكَ تسمعُ من حينٍ لآخرَ أصواتهُم بالتلبيةِ تشقُّ الفضاء ، ويامَا أحيلاهُم والسياراتُ تسرى بهم فى تلكَ الاوديةِ كما يسرى فى مسالكهِ الهواء ، وكلما علوا شرفاً أو هبطوا وادياً عجُّوا بالتلبيةِ ويامَا ألذَّ ذلكَ العجيجَ فى سمعِ النجباء ، فإذا قاربوا الرحابَ المكيةَ ترجلوا أدباً معَ تربةٍ وطئها بقدميهِ خيرُ البريةِ مولانا الشفيع . فإذا تشرفتِ الأقدامُ بالمسجدِ الحرامِ ووقعتِ العيونُ على الكعبةِ بيتِ مولانا العليّ ، فلا تسألْ عن وجدٍ تأججَ فى القلوبِ ودمعٍ على المحاجرِ مسكوبٍ وزفراتٍ وأناتٍ ينصدعُ لها القلبُ الصخريّ ، وحينئذٍ تراهُم فى طوافِ

الْقُدُومِ يَتَمَاوَجُونَ فِى كَثْرَتِهِمْ تَمَاوُجَ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ اللُّجِّىِّ ، وَمِنْهُمُ الدَّاعِى وَالْبَاكِى وَمَنْ أَخْرَسَتْهُ الْهَيْبَةُ لِبَيْتٍ هُوَ قِبْلَةُ الْعَالَمِ رَفِيعِهِ وَالْوَضِيعِ . فَإِذَا رَأَيْتَهُمْ بِعَرَفَةَ تَذَكَّرْتَ يَوْمَ الْمَحْشَرِ وَقَدِ اشْتَغَلَ بِالتَّمَلُّقِ لِرَبِّهِ كُلُّ إِنْسَانٍ ، فَإِذَا تَحَرَّكُوا بِالْإِفَاضَةِ مِنْهُ تَمَثَّلَتْ أَمَامَ عَيْنِكَ سُيُولٌ تَنْهَمِرُ فِى وِدْيَانٍ ، فَإِذَا لَمَحْتَهُمْ عِنْدَ رَمْىِ الْجَمَرَاتِ وَذَبْحِ الْهَدَايَا لَمَحْتَ مَظْهَرَ عُبُودِيَّةٍ يَعْجِزُ عَنْ شَرْحِ مَبْلَغِهِ اللِّسَانُ ، فَإِذَا تَمَّ حَجُّهُمْ بِطَوَافِ الْإِفَاضَةِ وَالسَّعْىِ وَالْحَلْقِ أَصْبَحُوا مِنْ كَيْدِ الدَّارَيْنِ فِى حِرْزٍ مَنِيعٍ . وَلِتَمَامِ حَظْوَاتِهِمْ يُوَجِّهُونَ بَعْدَ طَوَافِ الْوَدَاعِ مَطِيَّاتِهِمْ لِزِيَارَةِ ضِيَاءِ الْعُيُونِ وَنُورِ الْقُلُوبِ وَحَيَاةِ الْأَرْوَاحِ ، وَبِهٰذِهِ الزِّيَارَةِ تَتِمُّ نِعْمَتُهُمْ فَيَرْجِعُونَ وَلَا جَزَاءَ لَهُمْ إِلَّا الْجَنَّةُ دَارُ أَهْلِ الصَّلَاحِ ، مِنْ هٰؤُلَاءِ فَكُنْ يَا هٰذَا يُمْحَ ذَنْبُكَ وَيَمُتْ فَقْرُكَ وَتَكُنْ جَدِيراً بِأَنْ تُدْرَجَ فِى سِجِلِّ أَهْلِ الْفَلَاحِ ، وَاحْذَرْ أَنْ تَكُونَ كَمَنْ يُبَعْثِرُونَ الْآلَافَ فِى حَجِّ أُورُوبَّا وَمَغْرَمٌ عِنْدَهُمْ أَنْ يُنْفِقُوا دِرْهَماً وَاحِداً فِى حَجِّ بَيْتِ رَبِّهِمُ الْبَدِيعِ .

(حديث) مَنْ حَجَّ لِلّٰهِ فَلَمْ يَرْفُثْ (١) ، وَلَمْ يَفْسُقْ (٢) رَجَعَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ . رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ وَمُسْلِمٌ .

---

(١) الرفث : الكلام المتعلق بالشهوة الجنسية أمام النساء ، وإنما حرّم ربنا الرفث فى أيام الحج لأنه يهيج المنفين ، وربما أدّى ذلك إلى فساد الحج .

(٢) الفسق عمل أىّ محرم يفسق به الإنسان ، وإنما نصّ صلى الله عليه وسلم على ذلك فى

١٩٤ — زيارة الرسول، صلى الله عليه وسلم

الحَمْدُ لِلّهِ الّذِى جَعَلَ زِيارَةَ نَبيِّهِ مِنْ أَفضَلِ القُرُبات ، وأَشهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ الّذِى كَمْ لَهُ عَلَى زَائِرِى المُصْطَفَى مِنْ نَفَحات ، وأَشهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا وَمَوْلاَنا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَيْرُ مَنْ رَأَتِ الأَرْضُ وَالسَّمٰوَات ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبارِكْ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحابِهِ وَكُلِّ المُؤْمِنِين .

(أَمّا بَعْدُ) فَيا عَبْدَ اللهِ : أَنْتَ تُؤْمِنُ إِيماناً غَيْبِيّاً بِحَضْرَةِ مَوْلاَنا وَنَبِيِّنا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَم ، وَما كانَ قَطُّ أَنْ تَشَرَّفْتَ بِزِيارَتِهِ وَهُوَ حَيٌّ لِتَباعُدِ الأَيّام ، وَتَتَمَنَّى أَنْ لَوْ كانَ ذٰلِكَ وَبَذَلْتَ فِى سَبِيلِهِ كُلَّ ما بِهٰذِهِ الدّارِ مِنْ حُطَام ، لِتَنالَ ما نالَ مَنْ رَآهُ وَزارَهُ حَيّاً مِنْ أَصْحابِهِ خَيْرِ الأُمَمِ بَعْدَ النَّبِيِّين . هٰذا حالُكَ فِى الدُّنْيا وَأَنْتَ مِنْ أَجْلِهِ فِى حَسَراتٍ عَلَى ما فاتَكَ وَأَحْزان ، لاَ تَتَحَسَّرْ وَلاَ تَحْزَنْ وَأَنا أَدُلُّكَ عَلَى شَىْءٍ لَوْ فَعَلْتَهُ كُنْتَ كَمَنْ زارَهُ وَرَآهُ رُؤْيَةَ عِيان ، زُرْهُ فِى رَوْضَتِهِ المُطَهَّرَةِ تَنَلْ هٰذِهِ الأُمْنِيَةَ الغالِيَةَ الَّتِى لاَ تُدْرَكُ أَبَداً بِأَثْمان ، زُرْهُ زُرْهُ زُرْهُ مُتَأَكِّداً أَنَّهُ حَىٌّ يَراكَ وَيَسْمَعُ خِطابَكَ كَما يَرَى وَيَسْمَعُ سائِرَ الزّائِرِين . لَيْسَ هٰذا فَقَطْ فائِدَةَ زِيارَتِهِ فِى رَوْضَتِهِ الَّتِى دُونَها حَتَّى

زمن الحج مع أن المكلف ممنوع من ذلك دائما لأن شنيعا جداً أن يكون الإنسان فى طاعة هى ركن من أركان الإسلام ، ثم فى الوقت نفسه يجاهر بالمعصية من يطيعه .

الْعَرْشُ الْعَظِيمِ ، بَلْ إِنْ زُرْتَهُ نِلْتَ فَوْقَ ذَٰلِكَ الْأَمْنَ مِنْ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا عَلَى دِينِكَ الْكَرِيمِ ، وَنِلْتَ مَعَ ذَٰلِكَ شَفَاعَتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِى يَوْمٍ يُشِيبُ الْوِلْدَانَ أَلِيمٍ ، وَبِهَذَا تَكُونُ مِنْ أَهْلِ دَارِ الْكَرَامَةِ وَتَنْجُو مِنْ دَارِ الْإِهَانَةِ دَارِ الْمُجْرِمِينَ . إِنَّ الْخَطِيبَ لَا يَقُولُ ذَٰلِكَ مِنْ نَفْسِهِ بَلِ الَّذِى قَالَهُ نَفْسُ الرَّسُولِ ، وَالرَّسُولُ لَا يَقُولُ حَرْفًا وَاحِدًا مِنْ نَفْسِهِ بَلْ عَنْ رَبِّهِ كُلُّ مَا يَقُولُ ، إِذَنْ فِى زِيَارَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ نِهَايَاتُ الْمَأْمُولِ ، وَشَىْءٌ هَذَا قَدْرُهُ لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ قَادِرٌ عَلَيْهِ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْمُتَهَاوِنِينَ الْجَافِينَ . فَلْتَكُنْ زِيَارَةُ نَبِيِّكَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ مِنْ أَهَمِّ مَا يُهِمُّكَ مِنَ الْقُرُبَاتِ ، خُصُوصًا بَعْدَ أَنْ دَعَاكَ رَبُّكَ إِلَيْهَا فِى كِتَابِهِ وَفِى سُنَّةِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ وَالتَّسْلِيمَاتُ ، وَأَنْتَ تَرَى الْأُمَّةَ مِنْ أَوَّلِهَا لِلْيَوْمِ مُتَّفِقَةً عَلَى فِعْلِهَا تَسُوقُهَا الْأَشْوَاقُ وَالرَّغَبَاتُ ، وَمَنْ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ لَا يُحِبُّ زِيَارَتَهُ بَلْ وَمُجَاوَرَتَهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ . فَإِذَا تَوَجَّهْتَ إِلَيْهِ فَأَكْثِرْ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَتُبْ إِلَى اللَّهِ وَأَخْلِصْ فِى الْمَتَابِ ، وَلَا تَدْخُلِ الْمَدِينَةَ إِلَّا مُغْتَسِلًا إِنِ اسْتَطَعْتَ مَاشِيًا عَلَى قَدَمَيْكَ لِتَحْفَظَ بِذَٰلِكَ الْآدَابَ ، فَإِذَا صِرْتَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَاسْأَلْهُ الِاسْتِغْفَارَ لَكَ وَاطْلُبْ أَنْتَ الْمَغْفِرَةَ مِنْ رَبِّ الْأَرْبَابِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الصَّلَاةَ فِى مَسْجِدِهِ بِأَلْفِ صَلَاةٍ فِى سِوَاهُ فَأَكْثِرْ مِنْهَا هُنَاكَ تَكُنْ مِنَ الرَّابِحِينَ ، وَلَا تَنْسَ صَاحِبَيْهِ أَبَا بَكْرٍ

وَعُمَرَ سَلِّمْ عَلَيْهِمَا وَزُرِ الْبَقِيعَ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْمُقَامِ ، وَلْيَكُنْ عَلَى بَالِكَ أَنَّ بَيْنَ قَبْرِهِ وَمِنْبَرِهِ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ فَخُصَّهَا بِجُلُوسِكَ وَالْقِيَامِ ، إِنَّ وُجُودَكَ بَيْنَ يَدَيْ نَبِيِّكَ فُرْصَةٌ فَانْتَهِزْهَا وَاطْلُبْ أَنْ يَسْأَلَ لَكَ مَا تَشَاءُ مِنْ مَوْلَى الْإِنْعَامِ ، أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ لَا يُمِيتَنِي وَإِيَّاكَ حَتَّى يُكْرِمَنَا بِكَرَامَةِ زِيَارَةِ هٰذَا الرَّسُولِ الْأَمِينِ .

(حديث) مَنْ زَارَنِي بَعْدَ مَوْتِي فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي[1] . رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ .

(آخر) مَنْ جَاءَنِي زَائِرًا لَمْ تَنْزِعْهُ حَاجَةٌ إِلَى زِيَارَتِي كَانَ حَقًّا عَلَيَّ أَنْ أَكُونَ لَهُ شَفِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَالدَّارَقُطْنِيُّ وَأَبُو بَكْرِ بْنُ الْمُقْرِي .

---

(١) من زار النبي صلى الله عليه وسلم وهو حى حياته الدنيوية يكون من أصحابه الذين لهم فى الفضل درجة لا يماثلهم فيها أحد من غير النبيين — ولما كان هذا معنى رفيعا يتحسر على فواته كل مؤمن به عليه الصلاة والسلام ، والمؤمنون الذين تلحقهم هذه الحسرة لا يعلم عددهم إلا الله ، فان من عدا الصحابة من عهدهم الى يوم القيامة لم ينالوا تلك الدرجة — لما كان الأمر هكذا خفف الأمر صلى الله عليه وسلم عن كل من لم يره مثلنا وفاتته زيارته بتأخره عن زمنه صلى الله عليه وسلم أو بعائق حاقه عن ذلك وهو فى زمنه — وأفهمنا أنه يمكننا أن نتدارك مافاتنا من زيارته صلى الله عليه وسلم ، وهو حى حياته الدنيوية بزيارته وهو حى فى روضته المطهرة الشريفة : فان ذلك إن كان منا كنا بهذه الزيارة أفضل من سوانا ممن فى عصورنا بتحقق شفاعته صلى الله عليه وسلم لنا كما تسمع الوعد بذلك فى الحديث التالى — ونلنا من الشرف مالا يعلمه الا الله بوقوع نظره الكريم علينا ونحن بين يديه وسماعه بأذنه الشريفة خطابنا ونحن نتكلم معه صلى الله عليه وسلم كما لو كنا معه فى الدنيا تماما — لكن لما كان اسم الصحبة وفضلها الخاص بها لا يكون إلا لمن اجتمع به من المؤمنين فى حياته الدنيوية — قال عليه الصلاة والسلام مشبها (فكأنما زارنى فى حياتى) .

(آخر) مَنْ لَمْ يَزُرْ قَبْرِى فَقَدْ جَفَانِى [١]. رَوَاهُ ابْنُ النَّجَّارِ وَغَيْرُهُ.

١٩٥ — حال الناس اليوم مع الدنيا والآخرة يستقبل بها عشر ذى الحجة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَخْلُقْ فِى الْأَيَّامِ أَفْضَلَ مِنَ الْعَشْرِ الْأُوَلِ مِنْ ذِى الْحِجَّةِ الْحَرَامِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةً تَسُوقُ أَهْلَهَا إِلَى عَمَلِ الْخَيْرِ خُصُوصاً فِى الْمَوَاسِمِ الْعِظَامِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى كَانَ يَصُومُ مِنْ أَوَّلِ ذِى الْحِجَّةِ تِسْعَةَ أَيَّامٍ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِى السَّبْقِ فِى مَيَادِينِ الْخَيْرَاتِ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَدَ اللهِ: لَقَدْ نَشِطَ النَّاسُ الْيَوْمَ لِلدُّنْيَا نَشَاطاً يَسْتَوْقِفُ الْأَنْظَارَ، نَشَاطاً لَا يَعْتَرِيهِ فُتُورٌ فِى لَيْلٍ وَلَا فِى نَهَارٍ، نَشَاطاً يَسْتَسْهِلُ الصَّعْبَ وَيَسْتَعْذِبُ الْهَوَانَ وَالصَّغَارَ، نَشَاطاً أَنْسَاهُمْ حَتَّى أَنْفُسَهُمْ وَمَا لَهَا مِنْ رَاحَاتٍ. لَمْ يَتْرُكُوا طَرِيقاً يُوَصِّلُ إِلَيْهَا إِلَّا مَهَّدُوهُ وَسَلَكُوهُ، وَلَا حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا حَائِلٌ إِلَّا أَغْمَضُوا عَنْهُ وَدَاسُوهُ، وَلَا عَرَضَ لَهُمْ فِى سَبِيلِهَا خَطَرٌ إِلَّا اسْتَهَانُوا بِهِ وَاقْتَحَمُوهُ، وَلَوْ لَاحَ لَهُمْ فِى طَرِيقِهَا مُزْرٍ بِالشَّرَفِ تَقَدَّمُوا إِلَيْهِ بِخُطًى وَاسِعَاتٍ.

---

(١) جفاؤه صلى الله عليه وسلم صعب وشديد لاينتظر أن يكون من المؤمنين به عليه الصلاة والسلام، ولذلك فهم بعض الأئمة من هذا التعبير وجوب زيارته صلى الله عليه وسلم. أما مقام الحب والشوق إليه صلى الله عليه وسلم فلاخلاف فى وجوبها عنده.

أَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّهُمْ يَسْرِقُونَ وَيُرَابُونَ وَيُزَوِّرُونَ وَيَحْتَالُونَ وَيَغُشُّونَ لِلْوُصُولِ إِلَى الْمَالِ ، أَلَمْ تُخْبَرْ أَنَّهُمْ يُرَوِّجُونَ أَمْكِنَةَ تِجَارَاتِهِمْ بِتَخْدِيمِ أَرْبَابِ الْجَمَالِ وَرَبَّاتِ الدَّلَالِ ، أَلَمْ يَبْلُغْكَ أَنَّهُمْ يَتَّجِرُونَ حَتَّى بِالْأَعْرَاضِ وَيَقْتُلُونَ حَتَّى الْآبَاءَ لِيَبْلُغُوا مِنَ الْمَالِ الْآمَالَ ، لَا تَعْجَبْ وَتَأَكَّدْ أَنَّهُمْ لِأَجْلِ هٰذَا الْمَالِ يَكْفُرُونَ بِخَالِقِ الْكَائِنَاتِ . هٰذَا كُلُّهُ حَاصِلٌ لِأَجْلِ الدُّنْيَا وَأَهْلُهُ لَوْ بَحَثْتَ عَنْهُمْ كَثِيرٌ ، وَمِنْهُ تَعْلَمُ أَنَّ نَشَاطَ النَّاسِ الْيَوْمَ لِلدُّنْيَا جَاوَزَ حَدَّ التَّقْدِيرِ ، أَمَّا حَالُهُمْ مَعَ الْآخِرَةِ فَاسْمَعْ أَذْكُرْهُ لَكَ ذِكْرَ الْخَبِيرِ ، ذِكْرًا تَنْفَطِرُ لَهُ الْقُلُوبُ وَتَرْتَعِدُ الْفَرَائِصُ وَتَسِيلُ الْعَبَرَاتُ . أَمَّا عِلْمُهَا وَهُوَ الْوَحْيُ الْإِلٰهِيُّ فَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ أَنْ كَانَ مَوْضِعَ الْعِنَايَاتِ ، يَوْمَ أَنْ كَانَ يَنْشَأُ عَلَى الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ صِبْيَانُنَا وَالْبَنَاتُ ، يَوْمَ أَنْ كَانَتْ شَمْسُ أَنْوَارِهِ تَسْطَعُ فِي سَمَاءِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، أَمَّا نَحْنُ الْيَوْمَ فَحَسْبُنَا مَا أَفْسَدَ أَخْلَاقَنَا مِنْ عِلْمِ الطَّقَاطِيقِ وَالرِّوَايَاتِ . وَأَمَّا عَمَلُ الْآخِرَةِ فَآهٍ عَلَى أَيَّامِهِ وَرِجَالِهِ ثُمَّ آهٍ ، تِلْكَ الْأَيَّامُ الَّتِي كَانَتْ كُلُّهَا أَمْنًا وَرَخَاءً وَوَلَاءً أُخُوَّةً وَمُصَافَاةً ، وَأُولٰئِكَ الرِّجَالُ الَّذِينَ كَانُوا لَا مَحْبُوبَ لَهُمْ يَحِنُّونَ إِلَيْهِ إِلَّا طَاعَةَ اللّٰهِ ، أَمَّا نَحْنُ الْيَوْمَ فَكَفَانَا مِنَ الْعَمَلِ هٰذِهِ الْمَدَنِيَّةُ الْفَاجِرَةُ الَّتِي تَهْزَأُ بِالصَّالِحِينَ وَأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَاتِ . نَحْنُ الْآنَ نَسْتَقْبِلُ عَشْرَ ذِي الْحِجَّةِ وَهِيَ أَيَّامٌ لَيْسَ أَحَبَّ إِلَى اللّٰهِ مِنْهَا أَيَّامٌ ، صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ

مِنْهَا يُكَفِّرُ آثَامَ عَامٍ مَضَى وَفِيمَا يَأْتِي آثَامَ عَامٍ ، أَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَدْعُوَ عُشَّاقَ المَدَنِيَّةِ إِلَى إِحْيَائِهَا بِأَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ وَالصِّيَامِ ، إِنَّا إِذَنْ نَكُونُ قَدْ وَقَفْنَا مَعَهُمْ مَوْقِفًا نَسْتَحِقُّ مَا نَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ مِنْ سُخْرِيَاتٍ . فَإِلَيْكُمْ أَنْتُمْ وَحْدَكُمْ أُوَجِّهُ خِطَابِي يَا بَقِيَّةَ الصَّالِحِينَ وَيَا عُمَّارَ بُيُوتِ اللهِ ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا أَنْتُمْ أَهْلَ السَّعَادَةِ فِي هَذَا الزَّمَانِ الَّذِي عَظُمَتْ عَلَى الدِّينِ بَلَايَاه ، أَدْعُوكُمْ لِأَنْ يَرَاكُمْ مَوْلَاكُمْ فِي هَذَا العَشْرِ مُقْبِلِينَ جُهْدَكُمْ عَلَى مَا يَرْضَاه ، لِتَرْبَحُوا مِنْهُ لِآخِرَتِكُمْ مَا تَفْرَحُونَ بِهِ يَوْمَ يَحْزَنُ أَرْبَابُ البَطَالَاتِ .

(حديث) مَا مِنْ أَيَّامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ العَشْرِ ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَلَا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَه .

(آخر) صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ إِنِّي أَحْتَسِبُ (١) عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ

---

(١) أى أرجو أن يكفر الله به الخ — وأنت تعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لايرجو هذا الرجاء شهوة منه ، بل هو وحى من ربه عز وجل بلغه لأمته — وإنما عبر بهذا التعبير ليعلمنا الأدب مع ربنا حتى لانهجم عليه بحكم من الأحكام الغيبية لا ندرى أهو عنده تعالى كما حكمنا أم لا — ولأن هذا الغفران يكون إذا قبل الله تعالى الصيام ، ولم يكن هناك سبب لرده على صاحبه — ومن جملة هذه الأسباب بل من أكبرها أن تعتقد فى نفسك أنك وصلت فى الإخلاص إلى درجة بها لايرد الله لك عملا ، فان هذا هو الاعجاب بعينه وهل ينفع مع الاعجاب عمل — وبهذا تعلم أن هذا الرجاء ليس لحسنه غاية وإن كان مبنيا على وحى — ولا تظن أن هذا يقال فقط فى جزاء هذا الصيام بل يجب أن تفهم أنه يقال فى أجر كل عمل وإنما يجىء التعبير فى أجر بعض الأعمال بطريق الجزم رعاية لحال القبول ، فإن الله إذا قبل كافأ ولابد بما وعد . فليعلم .

السُّنَّةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسُّنَّةَ الَّتِي بَعْدَهُ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ .

(آخر) أَرْبَعٌ لَمْ يَكُنْ يَدَعُهُنَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صِيَامُ عَاشُورَاءَ ، وَالْعَشْرِ ، وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْغَدَاةِ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَاللَّفْظُ لَهُ .

١٩٦ — يستقبل بها عيد الأضحى

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ إِرَاقَةَ دَمِ الْأَضَاحِي يَوْمَ عِيدِ الْأَضْحَى مِنْ أَجَلِّ الْقُرُبَاتِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةً مِنْ حَسَنَاتِهَا دُخُولُ أَهْلِهَا الْجَنَّاتِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي عَظَّمَ مِنْ شَانِ هَذِهِ الْأُضْحِيَاتِ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ أَهْلِ الْإِيمَانِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : يَزْعُمُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُمْ بِمُجَرَّدِ قَوْلِهِمْ آمَنَّا يَدْخُلُونَ دَارَ الرِّضْوَانِ ، وَهُوَ زَعْمٌ فَاسِدٌ لَا يَحْتَاجُ فَسَادُهُ عِنْدَ النَّظَرِ السَّلِيمِ لِبُرْهَانٍ ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْتَلِي عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الِابْتِلَاءَاتِ مَعَ دَعْوَى الْإِيمَانِ ، لِيَتَبَيَّنَ لَهُمْ صِدْقُهُمْ أَوْ كَذِبُهُمْ وَحِينَئِذٍ يَسْتَحِقُّونَ الْجِنَانَ أَوِ النِّيرَانَ . فَمِنْهُمْ مَنْ يَبْتَلِيهِ بِشِدَّةِ الْفَقْرِ حَتَّى تَمُرَّ عَلَيْهِ الْأَيَّامُ بِلَا طَعَامٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْتَلِيهِ بِالْأَمْرَاضِ الْمُبَرِّحَةِ الَّتِي لَا يَهْدَأُ مَا لَهَا مِنَ آلَامٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْتَلِيهِ بِفَقْدِ الْأَحِبَّةِ وَمِنْهُمْ

مَنْ يَبْتَلِيهِ بِإِيذَاءِ اللِّئَامِ ، وَعَلَى قَدْرِ فَضْلِ الْعَبْدِ يَكُونُ قَدْرُ ابْتِلَائِهِ كَمَا أَخْبَرَ جَمَالُ الْأَكْوَانِ . خَلِيلُ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ خَلِيلُهُ ابْتُلِيَ فَأُمِرَ بِذَبْحِ وَلَدِهِ وَقُرَّةِ عَيْنِهِ إِسْمَاعِيلَ ، وَلَمَّا عَلِمَ إِسْمَاعِيلُ بِهَذَا الْأَمْرِ أَذْعَنَ لَهُ لِأَنَّهُ أَمْرُ مَوْلَاهُ الْجَلِيلِ ، وَفِعْلًا أَمْسَكَ الْخَلِيلُ السِّكِّينَ وَمَدَّ عُنُقَهُ لِلذَّبْحِ إِسْمَاعِيلُ النَّبِيلُ ، نَعَمْ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ كَمَا قَالَ عَنْهُ الْقُرْآنُ . شَرَعَ الْخَلِيلُ فِي قَطْعِ نَسْلِهِ لِلَّهِ فَجَعَلَ تَعَالَى فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، وَاسْتَسْلَمَ الذَّبِيحُ لِلذَّبْحِ فَكَانَ مِنْ أَبْنَائِهِ نَبِيُّنَا صَفْوَةُ الْخَلْقِ وَرَحْمَةُ رَبِّ الْأَرْبَابِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى وَهُوَ غِيَاثُ الْمُسْتَغِيثِينَ وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ أَغَاثَهُمَا فِي الْحَالِ بِفِدَاءٍ عُجَابٍ ، وَهَكَذَا تَكُونُ عَاقِبَةُ مَنِ اسْتَسْلَمُوا وَخَضَعُوا لِابْتِلَاءِ مَوْلَاهُمْ وَلَوْ فِيهِ تَلَفُ الْأَبْدَانِ .
عَلِمَ رَبُّنَا ضَعْفَنَا فَرَحِمَنَا وَلَمْ يَبْتَلِنَا بِمِثْلِ هَذَا الْبَلَاءِ الَّذِي يُذْهِلُ لُبَّ اللَّبِيبِ ، وَلَكِنَّهُ أَمَرَنَا أَنْ نُرِيقَ دَمَ الْأَضَاحِي يَوْمَ عِيدِ الْأَضْحَى لِنَتَذَكَّرَ هَذَا الْحَادِثَ الرَّهِيبَ ، وَبِذَلِكَ نَشْكُرُهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَحْمَتِهِ بِنَا وَمُعَافَاتِهِ لَنَا مِنْ مِثْلِ هَذَا التَّكْلِيفِ الْمَهِيبِ ، فَهَلْ نَحْنُ مُرِيقُو تِلْكَ الدِّمَاءِ لِيَكُونَ ذَلِكَ مِنَّا عَلَى شُكْرِهِ تَعَالَى أَبْلَجَ بُرْهَانٍ . إِنَّ ذَلِكَ وَاجِبٌ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ عَلَى الْمُقِيمِ الْمَالِكِ نِصَابًا سُنَّةٌ عِنْدَ غَيْرِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَلْتَكُنِ الْأُضْحِيَةُ قَدْ أَتَمَّتْ خَمْسَ سِنِينَ مِنَ الْإِبِلِ وَسَنَتَيْنِ مِنَ الْبَقَرِ وَسَنَةً مِنَ الشَّاءِ ، وَلَا تُجْزِئُ إِذَا قُصِدَتْ لِلْأَكْلِ وَلَا إِذَا

نَقَصَتْ عُضْواً وَلاَ إِذَا كَانَتْ عَجْفَاء ، وَإِذَا كَانَتْ مِنَ الإِبِلِ أَوِ الْبَقَرِ كَفَتْ سَبْعاً وَلاَ تَكْفِي إِذَا كَانَتْ مِنَ الْغَنَمِ غَيْرَ إِنْسَان . يَأْكُلُ مِنْهَا صَاحِبُهَا هُوَ وَعِيَالُهُ إِنْ لَمْ تَكُنْ مَنْذُورَةً وَيَتَصَدَّقُ عَلَى الْفُقَرَاء ، وَلاَ يَبِيعُ جِلْدَهَا وَلاَ يُعْطِي الْجَزَّارَ أُجْرَتَهُ مِنْ لَحْمِهَا وَلَهُ أَنْ يُهْدِيَ مِنْهَا لِلأَغْنِيَاء ، وَيَجُرُّهَا بِرِفْقٍ إِلَى الْمَنْحَرِ وَلاَ يَسُنُّ السِّكِّينَ أَمَامَهَا وَيُسَمِّي عِنْدَ ذَبْحِهَا رَبَّ الآلاَء ، وَلْيَتَوَلَّ بِنَفْسِهِ ذَبْحَهَا إِنْ كَانَ يُحْسِنُ ذَلِكَ وَإِلاَّ فَحَسْبُهُ مُؤْمِنٌ يَقُومُ أَمَامَهُ بِهَذَا الشَّأْن . يَفْعَلُ كُلُّ امْرِئٍ مِنَّا ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْعِيدِ وَلَكِنْ بَعْدَ الصَّلاَة ، وَلَيْسَتْ بِأُضْحِيَةٍ أَبَداً مَا يَذْبَحُهَا قَبْلَ صَلاَةِ الْعِيدِ وَلَوْ عِنْدَ ذَهَابِهِ لِمُصَلاَّه ، وَلْنَتَدَارَكْ مَا فَاتَنَا مِنَ الْخَيْرِ فِي الْعَشْرِ بِصِيَامِ الْبَاقِي وَالاجْتِهَادِ فِي طَاعَةِ اللهِ ، وَلْنَمْنَعْ نِسَاءَنَا عَنِ الْخُرُوجِ إِلَى الْمَقَابِرِ فَإِنَّ مِنَ الْفُجُورِ خُرُوجَهُنَّ إِلَيْهَا فِي هَذَا الزَّمَان .

(حديث) مَنْ ضَحَّى طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ مُحْتَسِباً لِأُضْحِيَتِهِ كَانَتْ لَهُ حِجَاباً مِنَ النَّار . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِير .

(آخر) إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحَرَ مَنْ فَعَلَ هَذَا فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا ، وَمَنْ نَحَرَ قَبْلَ الصَّلاَةِ فَهُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ لَيْسَ مِنَ النُّسُكِ فِي شَيْء . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

١٩٧ – خطبة العيد الأكبر

اللهُ أَكْبَرْ ٩ اللهُ أَكْبَرُ مَا رَأَى الْحُجَّاجُ كَثْرَةَ مَوَانِعِ الْخَيْرِ فَتَعَجَّلُوا بِالْحَجِّ قَبْلَ الْفَوَاتِ ، اللهُ أَكْبَرُ مَاهَانَتْ عَلَيْهِمْ نَفَقَاتُهُ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهَا تُخْلَفُ عَلَيْهِمْ أَضْعَافاً مُضَاعَفَات ، اللهُ أَكْبَرُ مَا اشْتَدَّتْ رَغْبَتُهُمْ فِيهِ لَمَّا عَلِمُوا أَنَّهُ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْمُوبِقَات ، اللهُ أَكْبَرُ مَا الْتَهَبَتْ قُلُوبُهُمْ شَوْقاً إِلَيْهِ حِينَمَا فَهِمُوا أَنْ لاَ جَزَاءَ لِلْمَبْرُورِ مِنْهُ إِلاَّ الْجِنَان . اللهُ أَكْبَرْ ٣ اللهُ أَكْبَرُ مَا صَافَحَتِ الْمَلاَئِكَةُ رُكْبَانَهُمْ وَعَانَقَتْ مُشَاتَهُمْ سُرُوراً بِمَا يَعْمَلُون ، اللهُ أَكْبَرُ مَا كَانُوا فِي ضَمَانِ رَبِّهِمْ وَهُمْ ذَاهِبُونَ وَهُمْ آيِبُون ، اللهُ أَكْبَرُ مَا عَلِمَ تَعَالَى أَنَّهُمْ وَفْدُهُ فَأَعَاذَهُمْ مِمَّا يَسْتَعِيذُونَ مِنْهُ وَآتَاهُمْ مَا يَسْأَلُون ، اللهُ أَكْبَرُ مَا وَعَدَ مَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ فِي طَرِيقِهِ أَنْ يَبْعَثَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي أَمَان . اللهُ أَكْبَرْ ٣ اللهُ أَكْبَرُ مَا عَلِمُوا أَنَّ الْحَجَّ بِالنَّفَقَةِ الْحَرَامِ لاَ يُقْبَلُ فَتَحَرَّوْا النَّفَقَاتِ الْحَلاَل ، اللهُ أَكْبَرُ مَا عَرَفُوا أَنَّ الْمُسْتَطِيعَ يَسْأَلُ الرَّجْعَةَ إِذَا مَاتَ قَبْلَ الْحَجِّ فَبَادَرُوا مُبَادَرَةَ الأَبْطَال ، اللهُ أَكْبَرُ مَا حَفِظُوا ثَوَابَهُمْ مِنَ الإِحْبَاطِ بِحِفْظِ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الرَّفَثِ وَالْفُسُوقِ وَالْجِدَال ، اللهُ أَكْبَرُ مَا زَارُوا نَبِيَّهُمْ فَمُنِحُوا عَلَى هٰذِهِ الزِّيَارَةِ بِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي حُسْبَان ، اللهُ أَكْبَرْ ٣ وَلِلّٰهِ الْحَمْد .

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي جَعَلَ أَيَّامَ الأَعْيَادِ ضِيَافَةً لِعِبَادِهِ الصَّالِحِين ،

465

وَأشْهَدُ أنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ الَّذِي جَعَلَ الجَنَّةَ ضِيَافَتَهُ الْكُبْرَى لأُولَئِكَ الْعَامِلِينَ ، وَأشْهَدُ أنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الدَّاعِي إِلَى تِلْكَ الضِّيَافَةِ جَمِيعَ العَالَمِينَ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ عَبْدٍ إِلَى طَاعَةِ اللهِ حَنَّانٍ .

(أمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللهِ : لَقَدْ عَلَّمَنَا الدِّينُ أنَّ الأَعْيَادَ لاَ تَكُونُ إِلاَّ بَعْدَ الاِنْتِهَاءِ مِنْ طَاعَاتٍ ، وَمَعْرُوفٌ أنَّ الأَعْيَادَ كَرَامَاتٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ ، وَكَذَلِكَ عَلَّمَنَا الدِّينُ أنَّ الْكَوَارِثَ السَّمَاوِيَّةَ لاَ تَنْزِلُ بِالْعَالَمِ إِلاَّ بَعْدَ ارْتِكَابِ مَحْظُورَاتٍ ، وَمَعْلُومٌ أنَّ هَذِهِ الْكَوَارِثَ إِهَانَاتٌ يُهَانُ بِهَا ذَوُو الطُّغْيَانِ . مِنْ هَذَا فَهِمْنَا أنَّ الْكَرَامَةَ فِي الدُّنْيَا لاَ تَكُونُ إِلاَّ لِمَنْ أطَاعَ اللهَ ، وَفَهِمْنَا أنَّ الإِهَانَةَ إِنَّمَا تَنْزِلُ بِمَنْ أغْمَضَ عَيْنَهُ عَنْ دِينِهِ وَتَعَدَّاهُ ، وَقَدْ أفْهَمَنَا تَعَالَى أنَّ الأَمْرَ هَكَذَا يَكُونُ يَوْمَ نَلْقَاهُ ، مَنْ أطَاعَهُ هُنَا أكْرَمَهُ هُنَاكَ وَمَنْ عَصَاهُ هُنَا لَقِيَ هُنَاكَ الْهَوَانَ . كُلُّ الشَّرَائِعِ عَلَى هَذَا مِنْ أوَّلِ رَسُولٍ إِلَى حَضْرَةِ نَبِيِّنَا خَاتَمِ الأَنْبِيَاءِ ، كُلُّهَا تَعِدُ الطَّائِعَ بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَتَتَوَعَّدُ العَاصِيَ فِيهِمَا بِسُوءِ الجَزَاءِ ، وَأنْتَ لاَ تَجِدُ مِنْ أوَّلِ الدُّنْيَا لِلْيَوْمِ مَنْ يَعْرِفُ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعُقَلاَءِ ، فَالشَّرَائِعُ السَّمَاوِيَّةُ وَالْعُقُولُ الإِنْسَانِيَّةُ مُتَّفِقَتَانِ عَلَى أنَّ الطَّائِعَ يُكْرَمُ وَالْعَاصِيَ يُهَانُ . إِذَنْ تُوبُوا يَا أهْلَ المَعَاصِي فَإِنَّ المَعَاصِيَ عَارٌ عَلَى فَاعِلِيهَا وَنَارٌ ، إِنْ

أطَعْتُمُونِي فَيَا بُشْرَاكُمْ ثُمَّ يَا بُشْرَاكُمْ بِمَغْفِرَةِ رَبِّنَا الْكَرِيمِ الْغَفَّار، وَحِينَئِذٍ نَتَقَدَّمُ إِلَيْكُمْ فَرِحِينَ مُهَنِّئِينَ بِعِيدَيْنِ عِيدِ الأَضْحَى وَعِيدِ مَحْوِ الأَوْزَار، وَأَكْبَرُ الْعِيدَيْنِ لِلْعَاصِي عِيدُ الْمَتَابِ لِأَنَّ بِهِ يَرْضَى عَنْهُ رَبُّ الإِحْسَان. أَمَّا أَنْتُمْ يَا أَهْلَ الِاسْتِقَامَةِ يَا أَحْبَابَ اللهِ تَعَالَى يَا بَرَكَةَ هَذَا الْوُجُود، يَا مَنْ مِنْ أَجْلِكُمْ نُكْرَمُ وَنُمْهَلُ وَلَوْلَاكُمْ لَصُبَّ الْعَذَابُ فِي الأَرْضِ عَلَى كُلِّ مَوْجُود، أَمَّا أَنْتُمْ فَإِنِّي أَبْتَهِلُ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنْ لَا يَحْرِمَ الْوُجُودَ مِنْ وُجُوهِكُمُ الْمَيْمُونَةِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَدُود، بَارَكَ اللهُ فِي أَعْمَارِنَا جَمِيعاً حَتَّى نَرَى أَمْثَالَ هَذَا الْعِيدِ بَعِيدِينَ عَنْ كُلِّ كَدَرٍ وَعِصْيَان.

(حديث) مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ أَنْ يَطُولَ عُمُرُهُ وَيَرْزُقَهُ اللهُ الإِنَابَةَ. رَوَاهُ الحَاكِمُ.

(آخر) مَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَقِيَ غُفِرَ لَهُ مَا مَضَى، وَمَنْ أَسَاءَ فِيمَا بَقِيَ أُخِذَ بِمَا مَضَى وَمَا بَقِيَ. رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ.

١٩٨ — يختم بها العام ويستقبل بها العام الجديد

الحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَ شَهْرَ الْمُحَرَّمِ عَلَى كُلِّ شَهْرٍ مَا عَدَا رَمَضَان، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي بِصِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ يُجْزِلُ الإِحْسَان، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي مِنْهُ عَرَفْنَا أَنَّ الْمُحَرَّمَ شَهْرٌ عَظِيمُ الشَّان، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ

وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ مَنِ اقْتَفَى أَثَرَهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللهِ : أَنْتَ الآنَ فِي آخِرِ شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ وَهُوَ آخِرُ الْعَامِ ، فَإِذَا كُنْتَ حَكِيمًا فَاخْتِمْ صَحِيفَةَ عَامِكَ بِالْمَتَابِ مِمَّا عَمِلْتَ فِيهِ مِنْ آثَامٍ ، فَإِذَا فَعَلْتَ هٰذَا مَحَتِ التَّوْبَةُ ذُنُوبَكَ وَكَانَ خِتَامُ الْعَامِ خَيْرَ خِتَامٍ ، وَحِينَئِذٍ تَسْتَقْبِلُ عَامَكَ الْجَدِيدَ مَغْفُورَ الذَّنْبِ مِنَ مِنَ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ . وَإِنْ كُنْتَ مِنْ تُجَّارِ الآخِرَةِ ذَوِي الرَّغْبَةِ الصَّادِقَةِ فِي الثَّوَابِ الْعَظِيمِ ، فَصُمْ شَهْرَ الْمُحَرَّمِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ لِأَنَّهُ شَهْرٌ كَرِيمٌ ، هُوَ شَهْرُ اللهِ أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ لِيُفْهِمَنَا بِذٰلِكَ أَنَّ قَدْرَهُ قَدْرٌ فَخِيمٌ ، وَانْظُرْ أَنْتَ مَا ذَا يَكُونُ لَكَ مِنَ الثَّوَابِ إِذَا صُمْتَ شَهْرَ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَيْسَ فِي السَّنَةِ كُلِّهَا بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرٌ يُمَاثِلُهُ مِنْ جَمِيعِ الشُّهُورِ ، فَمَنْ تَقَدَّمَ إِلَى صِيَامِهِ نَالَ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ مِنْ عَظِيمِ الْأُجُورِ ، وَمَنْ كَانَ ضَعِيفَ الْإِرَادَةِ أَمَامَ شَهَوَاتِهِ لَا يَقْوَى عَلَى هٰذَا الْعَمَلِ الْمَبْرُورِ ، فَلْيَصُمْ يَوْمَ عَاشُورَاءَ وَيَوْمًا قَبْلَهُ وَيَوْمًا بَعْدَهُ كَمَا وَصَّى بِذٰلِكَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ . وَإِنَّمَا وَصَّى بِذٰلِكَ نَبِيُّنَا لِأَنَّ يَوْمَ عَاشُورَاءَ مِنَ الْأَيَّامِ الْمُبَارَكَاتِ ، صَامَهُ سَيِّدُنَا نُوحٌ وَسَيِّدُنَا مُوسَى شُكْرًا لِلهِ عَلَى نَجَاتِهِمَا وَقَوْمِهِمَا مِنَ الْمُهْلِكَاتِ ، وَتَمَّتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ بِإِغْرَاقِ أَعْدَائِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا يُدَبِّرُونَ لَهُمُ النِّكَايَاتِ ، وَهَا هُوَ ذَا نَبِيُّنَا خَاتَمُ الرُّسُلِ يُحَرِّضُنَا عَلَى صِيَامِهِ وَيُقَرِّرُ أَنَا أَوْلَى بِهِ مِنَ

المُوسَوِيِّينَ . وَمِمَّا لاَ أَصلَ لَهُ فِي دِينِنَا طَبْخُ الْحُبُوبِ وَالتَّكَحُّلُ يَوْمَهَا وَالْبَخُورُ الَّذِي يُبَاعُ قَبْلَهُ بِأَيَّام ، وَكَذَلِكَ مَا يُصْنَعُ يَوْمَهَا مِنَ الْحُزْنِ عَلَى قَتْلِ سَيِّدِنَا الْحُسَيْنِ كَمَا تَفْعَلُ الأَعْجَام ، وَكَذَلِكَ تَكَفُّفُ النِّسَاء فِي الْعَشْرِ الأَوَّلِ مِنَ الشَّهْرِ لِتَطُولَ أَعْمَارُ أَبْنَائِهِنَّ الْكِرَام ، وَكَذَلِكَ وَقْفُ عُقُودِ الزَّوَاجِ فِيهِ أَوْ فِي غَيْرِهِ تَشَاؤُمًا وَهُوَ تَشَاؤُمُ الْجَاهِلِينَ .

وَمِنْ بَرَكَاتِ يَوْمِ عَاشُورَاء أَنَّكَ لَوْ وَسَّعْتَ فِيهِ عَلَى عِيَالِكَ النَّفَقَات ، وَسَّعَ اللهُ عَلَيْكَ السَّنَةَ كُلَّهَا وَرَأَيْتَ فِي أَيَّامِهَا الْبَرَكَات، وَمِنْ بَرَكَاتِهِ أَنَّ صِيَامَهُ يُكَفِّرُ مَا عَمِلْتَ فِي سَنَةٍ قَبْلَهُ مِنْ سَيِّئَات ، وَلَعَلَّ كُلَّ هٰذَا يُحَرِّضُكَ عَلَى أَنْ تَكُونَ فِيهِ وَفِيمَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الصَّائِمِين .

(حديث) أَفْضَلُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ الْمَكْتُوبَةِ ، الصَّلاَةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، وَأَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ ، صِيَامُ شَهْرِ اللهِ الْمُحَرَّمِ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

(آخر) صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ إِنِّي أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ ، وَصِيَامُ عَاشُورَاء إِنِّي أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ وَابْنُ مَاجَهْ .

(آخر) صُومُوا يَوْمَ عَاشُورَاء وَخَالِفُوا الْيَهُودَ ، صُومُوا يَوْمًا قَبْلَهُ ، وَيَوْمًا بَعْدَهُ . رَوَاهُ أَحْمَدُ .

469

١٩٩ — خطبة عقد نكاح

الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي نَدَبَنَا إِلَى الزَّوَاجِ وَجَعَلَهُ سَبَبًا لِسَعَةِ الأَرْزَاقِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّهُ الَّذِي بِبَرَكَةِ هٰذَا الزَّوَاجِ حَفِظَ الأَخْلَاقَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي وَصَّى الزَّوْجَيْنِ بِمُعَاشَرَةِ الْوِفَاقِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ زَوْجٍ حَكِيمٍ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَإِنَّ اللّهَ تَعَالَى شَرَعَ النِّكَاحَ لِأَنَّهُ يُمْنٌ عَلَى الْوُجُودِ وَبَرَكَاتٌ، بِهِ يَحِلُّ التَّعَارُفُ مَحَلَّ التَّنَاكُرِ وَالْقُرْبُ مَوْضِعَ الْبُعْدِ وَالنُّفْرَةِ تَخْلُفُهَا مَوَدَّاتٌ، وَبِهِ تُغَضُّ الأَبْصَارُ وَبِهِ تُحْصَنُ الْفُرُوجُ وَبِهِ تَكُونُ النُّفُوسُ عَفِيفَاتٍ، وَبِهِ تَكُونُ الذُّرِّيَّةُ فَيَعْمُرُ الْوُجُودُ وَيُوَحَّدُ وَيُعْبَدُ مَوْلَانَا الْعَظِيمُ. وَبِهِ يَعْرِفُ كُلُّ وَالِدٍ وَلَدَهُ فَيُرَبِّيهِ بِكُلِّ عَطْفٍ وَحَنَانٍ، وَبِذٰلِكَ يَكُونُ التَّنَاصُرُ وَالتَّعَاوُنُ وَيَكُونُ التَّوَارُثُ بَيْنَ بَنِي الإِنْسَانِ، وَبِهِ تَخِفُّ أَعْبَاءُ الْحَيَاةِ فَتَقُومُ النِّسَاءُ بِتَدْبِيرِ الْمَنَازِلِ وَتَقُومُ الرِّجَالُ بِقُوتِ الأَرْوَاحِ وَالأَبْدَانِ، وَبِهِ يَجِدُ كُلٌّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ سَمِيرًا لَا يُمَلُّ حَدِيثُهُ وَأَنِيسًا لَا يُفَارِقُهُ حَتَّى فِي مَخْدَعِ النَّوْمِ الْكَرِيمِ. هٰذَا الزَّوَاجُ سُنَّةُ الرُّسُلِ قَبْلَنَا وَبِهِ امْتَنَّ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْبَرِيَّهْ، فَقَالَ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً، وَإِنَّا نُهَنِّئُ الْعَرُوسَيْنِ بِاتِّبَاعِ هٰذِهِ السُّنَّةِ وَبِمَا لَهَا مِنْ

آثارِ عليه ، ونسألُ ربَّنا أنْ يُوفِّق بينهما وأنْ يرزقهما الذُّرِّيَّة الصالحة إنَّهُ سميعٌ رحيم .

(حديث) مَنْ رزقه اللهُ امرأةً صالحةً فقدْ أعانهُ على شطرِ دينِهِ فليتَّقِ اللهَ فى الشطرِ الباقى . رواهُ الطَّبرانىُّ فى الأوسطِ والحاكمُ والبيهقىُّ .

٢٠٠ — النعت

الحمدُ للهِ الذى نتقلَّبُ جميعاً فى بحبوحةِ كرمِهِ ولاَ ربَّ لنا سواه ، وأشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ الذى لاَ يجازِى أحداً إلاَّ بما قدَّمتهُ يداه ، وأشهدُ أنَّ سيِّدنا ومولانا محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ ورحمتُهُ الكبرى لِمَنْ والاه ، اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ الذينَ كانُوا فى ظلماتِ الضَّلالِ بدورَ إرشاد .

(أمَّا بعدُ) فيا عبدَ اللهِ : أنتَ فى دارِ المعاملةِ فعامِلْ نفسكَ وربَّكَ وإخوانكَ بخيرِ المعاملات ، وأمَّا معاملتُكَ لنفسِكَ فأنْ تلزمَها أشرافَ الأمورِ وتجنِّبَها الخسيسات ، وأمَّا معاملتُكَ لربِّكَ فأنْ تذعنَ لِمَا كلَّفكَ بهِ مِنْ واجباتٍ ومحظورات ، وأمَّا معاملتُكَ للعبادِ فما تحبُّ أنْ يعاملكَ بهِ العباد . هذهِ معاملاتٌ إنْ أنتَ قمتَ بها كنتَ ولاَ شكَّ مِنْ أهلِ المخافةِ مِنَ الدَّيَّان ، فيكونُ جزاؤكَ كما قالَ ربُّكَ : ولِمَنْ خافَ مقامَ ربِّهِ جنَّتان ، هذا فى الآخرةِ وأمَّا

فِي الدُّنْيا فَتَفْرِيجُ الكُرُوبِ وَتَيْسِيرُ الأَرْزَاقِ كَمَا قَالَ القُرْآن ، وَإِنْ أَنْتَ أَخْلَلْتَ بِهَا كُنْتَ مُهَدَّداً فِي دَارَيْكَ بِأَهْوَالٍ تَتَفَتَّتُ لَهَا الأَكْبَاد.

وَنَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ يَا بَارِئَ هَذَا الوُجُود ، وَيَا مَنْ مِنْ فَيْضِ جُودِهِ كُلُّ جُود ، (أَنْ تُؤَيِّدَ الإِسْلَامَ وَالمُسْلِمِين ، وَأَنْ تُعْلِيَ بِفَضْلِكَ كَلِمَةَ الحَقِّ وَالدِّين ، وَأَنْ تَشْمَلَ بِعِنَايَتِكَ وَتَوْفِيقِكَ ، مَلِكَنَا المُعَظَّمَ المَلِكَ فُؤَاداً الأَوَّلَ ، نَصَرَهُ الله) ، وَأَجْزِلِ اللَّهُمَّ إِحْسَانَكَ عَلَى مَنْ نَصَرُوا دِينَكَ وَأَيَّدُوا نَبِيَّكَ وَحَمَوْا حِمَاه ، وَامْلَأْ قُلُوبَنَا بِحُبِّكَ وَحُبِّ مَنْ أَحَبَّكَ وَخُذْ بِنَوَاصِينَا إِلَى مَا تَرْضَاه ، وَاجْعَلْ كُلَّ هَمِّنَا آخِرَتَنَا وَهَوِّنْ عَلَيْنَا الدُّنْيَا وَمَا تَتَقَاضَاه ، وَعَامِلْنَا يَوْمَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ بِمَا تُعَامِلُ بِهِ أَوْلِيَاءَكَ يَا رَحِيمُ يَا جَوَاد .

٢٠١ — التحريض على الاستعداد للآخرة وذكر بعض آيات الساعة

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَا خَلَقَ هَذَا الوُجُودَ لِيَكُونَ لَنَا دَارَ خُلُود ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ شَهَادَةً لَا يُنْكِرُهَا إِلَّا كَفُورٌ جَحُود ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَى جَمِيعِ البِيضِ وَالسُّود ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَكُلِّ شَكُورٍ صَبَّار .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ الله : لَقَدْ أَخْبَرَ دِينُنَا أَنَّ لَنَا حَيَاةً أُخْرَى

نُجازى فيها على ما كان منّا هنا من أعمال ، من عمل خيراً هنا جُوزىَ هناك بالجنّة ومن عمل شرّاً جُوزىَ بدار النّكال ، هذا الإيمانُ بتلك الحياة قيّد المؤمنين أن يتقدّموا إلى شىء يُغضب ربّنا ذا الجلال ، وألزمهم طريق الخير مخافة أن يُطردوا عن الجنّة ويُقذفوا فى النّار . لا شكّ فى تلك الحياة الثانية لأنّ الله تعالى أخبر بها فى الكتاب الحكيم ، وأخبر بها جميع الرّسل من أوّلهم إلى حضرة خاتمهم سيّدنا الرّسول الكريم ، وأخبر ﷺ بعلامات لها يزداد بها إيماناً ذو القلب السّليم ، وهذه العلامات صغرى وكبرى فاسمع من الصّغرى ما تكون به فى انبهار . منها التّطاول فى البنيان وقد طال حتّى أصبح يناطح السّحاب ، ومنها فشوّ الزّنا وقد فشا حتّى صاروا يتسافدون فى الطّرق مثل الكلاب ، ومنها شُرب الخمر وقد حصل بدرجة ترى النّقص فى ترك الشّرب وترى الكمال فى الشّراب ، ومنها بدوّ الشّحناء بين النّاس وقد بدت وهذه قلوبنا تغلى من بغضنا غليان القدر الفوّار . ومنها ظهور البغى وأنت تعلم إلى أىّ حدّ وصل هذا بين المؤمنين ، ومنها قتل الأخ أخاه وقد كان وزيد عليه قتل الآباء والبنين ، ومنها تقليدنا للأجانب وقد قلّدناهم حتّى نسينا عاداتنا والدّين ، ومنها لعن آخر هذه الأمّة أوّلها وقد لعنّاهم وقلنا فى أكابرهم ما يُفتّت أكباد الأحرار . ومنها فشوّ

الجَهْلِ الدِّينِيِّ وَقَدْ فَشَا الْيَوْمَ لِدَرَجَةٍ يَنْصَدِعُ مِنْهَا الفُؤَادُ ، وَمِنْهَا قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَعَدَمُ الْعَمَلِ بِهِ وَهٰذَا لَا يَخْفَىٰ وُجُودُهُ حَتَّى عَلَى الْأَوْلَادِ ، وَمِنْهَا ظُهُورُ الشُّحِّ وَقَدْ وَصَلَ شُحُّنَا إِلَى حَدِّ مَنْعِ الزَّكَاةِ وَأَنْتُمْ أَشْهَادٌ ، وَمِنْهَا تَصْدِيقُ الْمُنَجِّمِينَ وَقَدْ وَصَلْنَا فِي هٰذَا إِلَى أَنَّا كَأَنَّا لَا نُؤْمِنُ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ . وَمِنْهَا كَثْرَةُ الْقَتْلِ وَقَدْ كَثُرَ ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى صَارَ يَقْتُلُ نَفْسَهُ الْإِنْسَانُ ، وَمِنْهَا فُشُوُّ الرِّبَا وَقَدْ فَشَا ثُمَّ فَشَا حَتَّى عَمَّ الْأَقْطَارَ وَالْبُلْدَانَ ، أَخْبَرَ بِهٰذِهِ الْعَلَامَاتِ وَغَيْرِهَا قَبْلَ أَنْ تَكُونَ نَبِيُّنَا صَفْوَةُ الْأَكْوَانِ ، وَأَمَّا الْعَلَامَاتُ الْكُبْرَىٰ فَسَتَكُونُ كَمَا كَانَتْ هٰذِهِ لٰكِنْ قُبَيْلَ الْحَيَاةِ الثَّانِيَةِ حَيَاةِ الْاِسْتِقْرَارِ . إِذَا كُنْتَ تُؤْمِنُ بِهٰذَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ فَمَالِي أَرَاكَ فِي جُرْأَةٍ عَظِيمَةٍ عَلَى الْعِصْيَانِ ، وَإِنْ كُنْتَ لَا تُؤْمِنُ بِهِ فَجَدِّدْ إِيمَانَكَ فَإِنَّهُ لَا مَعْنَى بَعْدَ مَا سَمِعْتَ لِعَدَمِ الْإِيمَانِ ، وَاسْتَعِدَّ لِتِلْكَ الْحَيَاةِ الثَّانِيَةِ فَبَعْدَ قَرِيبٍ تَرَاهَا رُؤْيَةَ عِيَانٍ ، وَيَا نَدَامَتَكَ هُنَاكَ إِنْ لَمْ تَكُنْ مُسْتَعِدًّا لَهَا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْمَتَابِ مِنْ جَمِيعِ الْأَوْزَارِ .

(حديث) إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ ، وَيَكْثُرَ الْجَهْلُ ، وَيَكْثُرَ الزِّنَى ، وَيَكْثُرَ شُرْبُ الْخَمْرِ ، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ ، حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقَيِّمُ الْوَاحِدُ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

(آخر) لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا آكِلَ

الرِّبَا فَإِنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ[1]. رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَأَبُو دَاوُدَ وَالْحَاكِمُ.

٢٠٢ — اليــوم الآخر

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَمَا بَدَأَ الْخَلْقَ يُعِيدُهُمْ لِيَنَالُوا جَزَاءَ مَا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالٍ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً تُخَفِّفُ مَا لِيَوْمِ الْبَعْثِ مِنْ أَهْوَالٍ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي بَيَّنَ لَنَا هَوْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِأَفْعَالِهِ وَالْأَقْوَالِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ أَعَدُّوا عُدَّتَهُمْ لِذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ.

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عِبَادَ اللَّهِ : إِنَّ أَمَامَكَ يَوْمًا مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ كَمَا قَالَ الْقُرْآنُ، يَجْتَمِعُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ لَا يَغِيبُ مِنْهُمْ إِنْسَانٌ، وَفَوْقَ رُءُوسِهِمْ تَكُونُ الشَّمْسُ بِمِقْدَارِ مِيلٍ كَمَا أَخْبَرَ صَفْوَةُ الْأَكْوَانِ، وَلَوْ دَعَا إِذْ ذَاكَ دَاعٍ أَوْ أَبْصَرَ مُبْصِرٌ لَأَسْمَعَ وَأَبْصَرَ جَمِيعَ أَفْرَادِ هَذَا النَّوْعِ الْكَرِيمِ. هَذَا الْيَوْمُ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يُسْقِطُ الْحَوَامِلَ وَيُذْهِلُ الْمَرَاضِعَ وَيُشِيبُ الْوِلْدَانَ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي فِيهِ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ آبَائِهِ وَأَبْنَائِهِ وَأَشِقَّائِهِ وَأَصْدَقِ الْإِخْوَانِ،

---

(١) الإخبار بهذه الأشراط برهان قاطع على نبوته صلى الله عليه وسلم لا يرتاب فيها مع ذلك البرهان إلا أعمى البصيرة أو عنيد جبار — ولينظر القارئ فشو الربا فى زمننا هذا ولينظر هذا الحديث ولينظر كثرة الجهل والزنى وشرب الخمر، وليتحسر على من يكذب هذا الرسول الكريم مع هذه البراهين القاطعة، ومن راجع مبحث أشراط الساعة الصغرى من كتب السنة رأى العجب العجاب، ومن يرى هذه الأشراط ثم يكذب بالساعة وما الخبر بها إلا كأى خبر من هذه العلامات التى نراها بأعيننا وقد أخبر بها الرسول صلى الله عليه وسلم كإخباره بالساعة.

وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِى لَوْ مَلَكَ فِيهِ الْمَرْءُ جَمِيعَ الْخَلْقِ لَافْتَدَى بِهِمْ غَيْرَ مُتَبَاطِئٍ وَلَا وَانٍ ، وَلِمَ لَا وَهُوَ بِذٰلِكَ كَانَ يَتَخَلَّصُ مِنْ كَرْبٍ عَظِيمٍ وَعَذَابٍ أَلِيمٍ . هٰذَا الْيَوْمُ هُوَ يَوْمُ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ وَيَوْمُ التَّغَابُنِ وَهُوَ الْيَوْمُ الْعَسِيرُ الْعَبُوس ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِى فِيهِ يُلْجِمُ الْعَرَقُ النَّاسَ وَتَغْلِي مِنْ شِدَّةِ حَرَارَةِ الشَّمْسِ الرُّءُوس ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِى فِيهِ تَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى مِنْ شَرَابِ الْكُئُوس ، وَلٰكِنْ لِهَوْلِ الْآلَامِ وَآلَامِ الْأَهْوَالِ تَطِيشُ الْأَلْبَابُ فَلَا يَعِي الرَّجُلُ الْفَهِيم . هٰذَا الْيَوْمُ مَا هُوَ بِتِلْكَ الشِّدَّةِ إِلَّا عَلَى مَنْ عَتَوْا وَاسْتَخَفُّوا بِحُقُوقِ رَبِّ الْآلَاءِ ، أُولٰئِكَ الَّذِينَ مَلَكَتْهُمْ شَهَوَاتُهُمْ فَأَصْبَحُوا يَلْعَبُ بِهِمُ الشَّيْطَانُ كَمَا يَشَاء ، وَأَمَّا مَنِ احْتَرَمُوا أَوَامِرَ اللهِ تَعَالَى فَأَدَّوْهَا وَخَافُوا مَا لِهٰذَا الْيَوْمِ مِنْ لَأْوَاء ، فَأُولٰئِكَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فَمِنْهُمْ كُنْ يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْحَكِيم .

(حديث) يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي [1] وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ وَتَدْنُو الشَّمْسُ مِنْهُمْ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَتَحَمَّلُونَ . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ .

(آخر) وَالَّذِى نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ (يَعْنِي ذٰلِكَ الْيَوْمَ)

---

(١) هذا الداعي إما داع مخصوص من الملائكة الكرام أو أن الأصوات فى الآخرة تكون فى الرفعة بحالة غير حالة الأصوات فى الدنيا ، حتى يكفى الصوت لإسماع جميع ما خلق الله ، من أول الدنيا إلى آخرها ، وكذلك يقال فى البصر .

عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ (١) عَلَيْهِ مِنَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ يُصَلِّيهَا فِى الدُّنْيَا . رَوَاهُ الطَّبَرِىُّ وَالْبَغَوِىُّ .

٢٠٣ - أهل النار

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى تَوَعَّدَ بِالنَّارِ الْأَبَدِيَّةِ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجَانِّ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً مَنْ لَمْ يَعْتَرِفْ بِهَا خُلِّدَ فِى لَهَبِ النِّيرَانِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى أَتْبَاعُهُ دِينٌ وَالتَّخَلُّفُ عَنْهُ إِلْحَادٌ وَكُفْرَانٌ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْأَكَابِرِ الْأَطْهَارِ .

(أَمَّا بَعْدُ) فَيَا عَبْدَ اللَّهِ : سَيَجِىءُ يَوْمٌ يَتَغَيَّرُ فِيهِ هَذَا الْعَالَمُ وَيَنْتَهِى نِظَامُهُ هَذَا الَّذِى تَرَاهُ ، فَتَنْتَثِرُ الْكَوَاكِبُ وَتَتَسَاقَطُ وَتُطْوَى السَّمَاءُ كَطَىِّ الصَّحِيفَةِ يُزِيلُهَا اللَّهُ ، وَتَتَبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَتُمَدُّ كَمَا أَخْبَرَ الْقُرْآنُ وَقَرَّرَهُ الْهُدَاه ، وَيُنْفَخُ فِى الصُّورِ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ فَنَقُومُ مِنْ قُبُورِنَا أَحْيَاءً كَمَا كُنَّا فِى هَذِهِ الدَّارِ . وَحِينَئِذٍ يُحْشَرُ الْكَافِرُ أَعْمَى لَا يَرَى أَصَمَّ لَا يَسْمَعُ أَخْرَسَ لَا يَنْطِقُ بِالْكَلَامِ ، يَمْشِى عَلَى وَجْهِهِ لَا رِجْلَيْهِ لِيَعْلَمَ مِنَ الْأَوَّلِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْإِهَانَةِ

---

(١) هذه بشرى للمؤمنين من أكبر البشائر ، ولله الحمد على لطفه بعباده ، ومما يؤيد هذه البشرى للمؤمنين قوله تعالى : (فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير) فإنه إذا كان عسيرا على الكافرين ، وليس بيسير عليهم بعنوان كفرهم - يكون يسيرا على من خالفهم فى هذا العنوان وهم المؤمنون ، نسأله وهو الكريم الرحيم أن يتوفانا على دينه غير ضالين ولا مضلين ولا متخذين لنا ملاذا سواه نلوذ به فى السراء والضراء آمين .

لا الإكرام ، وَيكونُ أسودَ الوَجهِ في مُنتهى العَطَشِ مَوْقِفُهُ مِقدارُهُ
خَمسونَ ألفاً مِنَ الأعْوام ، لَيسَ بَينَهُ وَبَينَ الشَّمسِ في شِدَّةِ حَرِّها إلاّ
مِقْدارُ ميلٍ كَما قالَ سَيِّدُ الأخْيار . إذْ ذاكَ يَقِفُ ذاهِلَ العَقلِ شاخِصَ
البَصَرِ لا يَرتَدُّ إلَيهِ طَرْفُهُ وَفُؤادُهُ هَواء ، وَيُعطَى كِتابَهُ بِشِمالِهِ مِنْ
وَراءِ ظَهرِهِ فَيَتَمَنَّى أنَّهُ لَمْ يُعطَهُ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الأحْياء ، ثُمَّ يُؤمَرُ بِهِ
إلَى النّارِ وَيُسلَكُ في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعونَ ذِراعاً لِكُفرِهِ بِوَلِيِّ الآلاء ،
وَبَعدَ أنْ يَدخُلَها لا يَخرُجُ مِنها أبَداً وَلا يَزيدُهُ إلاَّ عَذاباً مَوْلاهُ
القَهّار . إذا اسْتَغاثَ مِنَ العَطَشِ يُغاثُ بِماءٍ يَشْوي الوُجوهَ وَيُذيبُ
الأمْعاءَ وَيُذيبُ الجُلود ، تُحيطُ بِهِ النّارُ مِن كُلِّ ناحِيَةٍ وَشِدَّةُ حَرِّها
عَلَيهِ تُذيبُ الجُلْمود ، كُلَّما نَضِجَ جِلدُهُ بُدِّلَ سِواهُ لِيَذوقَ عَذابَ
الكُفرِ بِاللهِ الكَريمِ الوَدود ، يُضرَبُ بِمَقامِعَ مِنْ حَديدٍ لا يَعلَمُ
إلاّ هُوَ وَرَبُّهُ ما لَها مِنْ مِقْدار . كُلُّ هذا العَذابِ يُعانيهِ وَلا يَموتُ
فَيَستَريحَ وَلا يَحيا حَياةَ هَناء ، وَسَواءٌ أصَبَرَ أمْ لَمْ يَصْبِرْ هُوَ خالِدٌ في
هذا العَذابِ خُلوداً ما لَهُ انْتِهاء ، هذا أقصَى عَذابٍ يُتَصَوَّرُ لِأنَّهُ
جَزاءُ أقصَى جَريمَةٍ هِيَ الكُفرُ بِبَديعِ السَّماء ، وَإنَّما خُلِّدَ الكافِرُ في
النّارِ لِأنَّهُ كانَ يَنوي أنْ يَعيشَ أبَداً وَهُوَ ظَلومٌ كَفّار . هذا عَذابٌ
تَصَوُّرُهُ فَقَطْ يُطيشُ العُقولَ وَيُذهِلُ النُّفوسَ وَيُفَتِّتُ الأكْباد ،
فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنهُ أيُّها المُؤمِنُ وَاسْألْهُ أنْ يُميتَكَ عَلَى الإيمانِ وَحُسْنِ

الِاعْتِقَادِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْكَافِرَ يَطْلُبُ الرَّجْعَةَ لِلدُّنْيَا لِيَعْمَلَ صَالِحًا فَلَا يُجَابُ لِهَذَا الْمُرَادِ، وَهَا أَنْتَ ذَا فِي الدُّنْيَا فَاجْتَهِدْ فِي الصَّالِحَاتِ لِيُعِيذَكَ رَبُّكَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ.

(حديث) يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثٍ.

(آخر) لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ (١) قَطَرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.

(آخر) لَوْ أَنَّ دَلْوًا مِنْ غَسَّاقٍ (٢) يُهْرَاقُ فِي الدُّنْيَا، لَأَنْتَنَ أَهْلَ الدُّنْيَا. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.

٢٠٤ (٣) — الجنــة (٤)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَرَنَا أَنْ نُسَارِعَ إِلَى الْجَنَّةِ بِعَمَلِ الصَّالِحَاتِ،

---

(١) ثمر شجرة أخبر ربنا أنها تخرج فى أصل الجحيم. (٢) ما يسيل من صديد أهل النار.

(٣) هذا العدد ٢٠٤ ما فى هذا الديوان من الخطب — ويضاف إليها اثنتان وثلاثون ومائة خطبة فى ديوانى (النفحات الزينية) — ويضاف إلى ذلك اثنتان وستون خطبة فى ديوانى (تاج الخطب النبرية) فيكون الكل ثمانية وتسعين وثلثمائة خطبة أى أربعمائة خطبة إلا خطبتين اثنتين وهذا هو معنى قولى فى طالعة هـذا الديوان (وبه يبلغ ما كتبته من الخطب قريبا من أربعمائة خطبة كل خطبة لها قيمتها وفائدتها إن شاء الله).

(٤) ابتدأت هـذا الديوان بخطبة فى العقل — أشير بذلك إلى أن العقل أصل التكاليف وأساسها الأول — وأتبعت خطبة العقل خطبا تعرف العبد ربه — أشير بذلك إلى أن معرفة الله لعابديه العقلاء مقدمة على كل عبادة، فإن العابد محال أن يعبد ربا يجهله — وجعلت آخر الديوان

خطبة فى اليوم الآخر للتناسب . وقدمت عليها خطبة فى بعض أشراط الساعة ـ ليكون الشىء ومقدمته معا ـ وليصدق بالساعة من يرى أشراطها بعينه ـ ومثل من يكذب بالساعة بعد رؤية أشراطها مثل من تقول له وراء هذا الحائط رجل وآية وجوده أن تسمع صوته فيسمع صوته ويعترف به ، ثم ينكر وجود الرجل ، وأخرت عن خطبة اليوم الآخر خطبتين ، إحداهما فى وصف النار ، والثانية فى وصف الجنة ـ أشير بذلك إلى أن هاتين الدارين هما دار الجزاء وإليهما المنتهى لا شىء بعدهما ـ وليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينة ـ وقدمت خطبة النار على خطبة الجنة ـ أشير بذلك إلى أن أهل النار كثير عن أهل الجنة وكثير ، وكيف لا وأهل الجنة واحد فقط من ألف ، والباقى للنار ـ ولأن عصاة المؤمنين يدخلون النار أولا يطهرون من قذر معاصيهم ثم يخرجون منها إلى الجنة ـ ولأن أهل الجنة جميعا حتى من يدخلونها بغير حساب ـ لا يدخلونها إلا بعد أن يردوا النار ، كما يقول تعالى : وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا . ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ـ وليكون الختام المطلق بالجنة وهو خير ختام ـ وأشرت بخطبة الابتداء والانتهاء معا إلى أن من صحب العقل من أوله وجعله الأمير على نفسه يستملى الحق من كتب الاسلام كهذا الديوان ثم يرغم هذه النفس على العمل بمقتضاه ـ يكون منتهاه الجنة إن شاء ربى عز وجل ـ . ربى وفقنى لكتابة هذا الديوان ، وهو وحده إحسان أعجز العجز كله عن القيام بشكره ـ وأردفت هذه المنة بمنة أخرى ما أضخمها وما أجلها وما أنفعها ، وهى تيسير الطريق لطبعه ـ وما هذه وهذه بأول منتك علىّ يا مولاى ، بل هى منن لا تحصى ، يتلو بعضها بعضا لا تنقطع لحظة واحدة ـ وليس هذا بعجيب منك فأنت وحدك الكريم المنان ، المحسن الدائم الاحسان . كل كرم من فيض كرمك ، وكل إحسان من آثار إحسانك : الخلق كلهم حتى من يعبد غيرك منهم ـ مغمورون فى بحار فضلك ، يتقلبون طول حياتهم فى بحبوحة نداك . اللهم إنى أبسط يدى يد الذل والافتقار إلى غيوث إنعامك المنهمرة دائما على عبادك ـ أن تجعل من تلك النعم قبول كتابى هذا ، وتعميم النفع به بين العباد والبلاد ـ ولا أقف عند هذا الحد فى طلبى منك ، وأنت رب الكرام وخالق المحسنين ، فأسألك أن تتقبل منى كل كتاب كتبته أو أكتبه نصيحة لعبادك ، وأن تطيل أجلى وعلى يدى تظهر من أنوار دينك ما يليق بفضلك وإحسانك ، فإنى العبد الذى لا يرى لسواك فضلا وإحسانا ، بل لا يرى سواك لولاك إلا عدما صرفا وسلبا محضا ـ ولا يكفينى كل هذا منك وأنت الذى لاحد لغناك ، ولا نهاية لجودك وعطائك فأبتهل إليك يا من على موائد جودك يتسابق فى هذه الدار الغنى والفقير ، والصغير والكبير ، والسيد والعبيد ، والملوك والرعية ، والعاقل والعاجز ، والأبيض والأسود ، والشرق والغربى ، والعجمى والعربى ، بل وفى دار القرار يتسابق أولياؤك إلى ما أعددت لهم فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ـ من يرى كرمك هذا يا مولاى ومولى كل هذا الوجود ، ثم لا يطمع فى كرمك ويطمع ، ويسأل ثم يسأل . اللهم إنى أسألك خاتمة خير بها تلحقنى بمن أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ، اللهم آمين ، اللهم آمين .

الفانيات ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله الذي وصف الجنة ليلهب إليها الأشواق الخامدات ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه خير أمة رأتها العينان .

(أما بعد) فيا عبد الله : أنت تسمع بالجنة وهل تدري ما هي الجنة وما لها من مقدار ، هي دار جعلها الكريم القادر دار ضيافة يكرم فيها عباده الأخيار ، لا تظن أنها ضيافة ثلاثة أيام كضيافاتنا بل أبدية تناسب الغني المختار ، ولا تظن أن الكرامة فيها تحد بل كل ما تشتهي تجده أمامك مهما كان . سنك فيها ثلاث وثلاثون سنة وجمالك كأضواء كوكب دري أو كالبدر عند التمام ، ولباسك السندس والإستبرق لا يفنى شبابك ولا يتغير جمالك ولا تبلى لباسك الأيام ، أدنى لؤلؤة في تاجك تضيء ما بين مشرقها ومغربها والدنيا ظلام ، وسوارك لو بدا لهذا العالم لطمس نور الشمس نوره المتوهج المزدان . تنظر إلى جنانك وأزواجك ونعيمك وخدمك وسررك مسيرة ألفي عام ، هذا لو كنت أدنى أهلها منزلة فكيف لو كنت من أسماهم في المقام ، لك فيها خيمة من لؤلؤة واحدة طولها ثلاثون ميلاً فانظر قدر هذا الإنعام ، أزواجك اثنتان وسبعون وخدمك ثمانون ألفاً لو كنت أحط أهل الجنان . لو اطلعت إلى أهل الارض واحدة من أزواجك لأضاء نورها ما بين الأرض

481

وَالسَّمٰوَات ، وَلَمَلأَ مَا بَيْنَهُمَا رِيحُهَا الْعَطِرُ وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنْ هٰذِهِ الْكَائِنَات ، تَرَى مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ لَحْمِهَا لِكَمَالِ حُسْنِهَا وَصَفَاءِ جَوَارِحِهَا الْكَرِيمَات ، بِكْرٌ أَبَداً لاَ تَمَلُّ مِنْ إِتْيَانِهَا وَلَوْ مَكَثْتَ الأَبَدَ مَشْغُولاً بِهٰذَا الإِتْيَان . صَوْتُ الْحُورِ الْعِينِ إِذَا غَنَّيْنَ فِيهَا لاَ يَسْمَعُ أَحْلَى مِنْهُ الْعَبِيد ، يَقُلْنَ نَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلاَ نَبْأَسُ وَنَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلاَ نَسْخَطُ وَنَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلاَ نَبِيد ، طُوبَى لِمَنْ كَانَ لَنَا وَكُنَّا لَهُ وَيَا مَا أُحَيْلَى هٰذَا النَّشِيد ؛ فَا كِهَتُكَ فِيهَا لاَ يَمْنَعُكَ مِنْ تَنَاوُلِهَا مَانِعٌ وَلاَ تَنْقَطِعُ فِى أَىِّ زَمَان . أَمَّا لَذَّةُ رُؤْيَةِ رَبِّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَتَقْصُرُ عَنْ شَرْحِهَا الْعِبَارَات ، فَإِذَا رَأَى الْعَبْدُ رَبَّهُ تَلاَشَى فِى نَظَرِهِ كُلُّ مَا فِى الْجَنَّاتِ مِنْ لَذَّات ، وَهٰذِهِ الرُّؤْيَةُ تَلِيقُ بِاللّٰهِ تَعَالَى لاَ مُوَاجَهَةَ فِيهَا وَلاَ كَيْفَ وَلاَ جِهَات ، وَأُحِبُّ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ لَذَائِذَ الْجَنَّةِ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَفْقِدَهَا بَعْدَ أَنْ يَشْعُرَ بِهَا الإِنْسَان . هٰذِهِ هِىَ الْجَنَّةُ الَّتِى تَسْمَعُ بِهَا أَيُّهَا الأَخُ وَلاَ كَأَنَّكَ بِهَا مِنَ الْمُؤْمِنِين ، هٰذِهِ هِىَ الْجَنَّةُ الَّتِى لَوْ صَدَقَ إِيمَانُكَ بِهَا لَطِرْتَ شَوْقاً إِلَيْهَا مَعَ الصَّادِقِين ، شَغَلَتْكَ عَنْهَا زَخَارِفُ هٰذِهِ الْحَيَاةِ فَنَسِيتَهَا أَوْ أَعْرَضْتَ عَنْهَا مَعَ الْمُعْرِضِين ، أَمَا آنَ لَكَ أَنْ تَنْتَبِهَ وَتُقَدِّرَهَا قَدْرَهَا وَتُقْبِلَ عَلَى الْعَمَلِ لَهَا مِثْلَ صَادِقِ الإِيمَان .

(حديث) إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَيَنْظُرُ فِى مُلْكِهِ أَلْفَىْ سَنَةٍ يَرَى أَقْصَاهُ كَمَا يَرَى أَدْنَاهُ يَنْظُرُ إِلَى أَزْوَاجِهِ وَخَدَمِهِ . رَوَاهُ

التِّرْمِذِيُّ وَأَبُو يَعْلَى وَالطَّبَرَانِيُّ وَالبَيْهَقِيُّ وَأَحْمَدُ وَاللَّفظُ لَهُ .

(آخر) أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ الَّذِى لَهُ ثَمَانُونَ أَلْفَ خَادِمٍ وَاثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ زَوْجَةً وَيُنْصَبُ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ وَيَاقُوتٍ كَمَا بَيْنَ الْجَابِيَةِ إِلَى صَنْعَاءَ . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ فى صَحِيحِهِ .

خاتمـــة الطبع

بقلم حضرة صاحب الفضيلة رئيس التصحيح بالمطبعة الأستاذ الشيخ أحمد سعد على

الحمد لله ربّ العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

﴿ وبعد ﴾ فالى الأمة الأسلامية عامة ، وإلى المرشدين منها خاصة ، نزف مع الاغتباط ـ بشرى لا ككل البشائر ، بل بشرى ترقص لها القلوب طربا ، وتترك الألباب سكرى ، بشرى لانبالغ ، إذا قلنا إنها ترضى ربنا عزّ وجلّ ، وتسرّ رسولنا صلى الله عليه وسلم ، وتدع علماءنا هداة الخلق وقد امتلأت أفئدتهم سرورا وفرحا ـ بشرى هى غاية مايتمناه المرشدون لقساة القلوب ليقضوا على قسوتها ، ويرجعوا إليها لينها ورقتها ـ ونهاية مايصبو إليه الواعظون لعمى البصائر ليزيلوا غشاوتها ، ويعيدوا إليها بصرها ونورها ، وأقصى ما ينشده المصلحون لفاسدى الاستعدادات ليصلحوا استعداداتهم حتى يصدر عنها من الآثار الطيبة ما يتناسب مع أسمى نوع خلق الله تعالى وهو نوع الانسان .

تلك البشرى هى تمام طبع هذا الديوان المخطوط بقلم من النور الذى له من اسمه أعظم نصيب ألا وهو :

منتهى آمال الخطباء ، ومنار المسترشدين النبلاء

الذى تعجز يراعة ذوى البراعة من الكتاب أن يصفوه كما ينبغى له : أسلوب فى الارشاد لاشك فى أنه نسيج وحده ، ومعنى لا ندرى كيف وصل من الدنو إلى حيث صار فى متناول بسطاء العقول ، مع أنه من السمو بدرجة ربما كانت تستعصى على أسماها وأسناها .

483

وإنى أرجو أن يفهم القارئ أن الديوان فوق ما أصف ، كيف لا وهو من إنشاء صاحب الفضيلة والارشاد العلامة الكبير الشيخ :

مصطفى أبو سيف الحمامى

الذى أصبح بفضله وأدبه وبيانه وعلمه ميدانا تتسابق فى وصفه أفكار أكابر علماء الاسلام وأمراء الأقلام فى هذا العصر ، فبعضهم يقول : إنه ملك البيان ، وهو لقب لا نعلم لليوم من لقب به من علماء الأمة ، وبعضهم يقول : إنه خطيب الكرة الأرضية ، وهو لقب لا ينقص عن سابقه فى فخامته وضخامته ، وبعضهم يقول : إنه خطيب الاسلام ، وهو وصف ما أروعه وما أكمله ، وبعضهم يقول : إنه خطيب الشرق ، وهو وصف يمت إلى ما قبله بصلة الاخاء .

وإنى لا أرى فريقا من هذه الفرق بعد عن الحقيقة فيما ذهب إليه فانّ كل مايقولون ملموس لاينكره إلا مريض القلب ، أو أبله لايعرف مقدار العلماء العاملين.

أما نحن فلا يخالطنا أدنى شك فى أن فضيلته شمس الهداية فى هذا الزمان ، وشهادة كبار العلماء له ناطقة بذلك نطقا لا يخفى على أحد ، ومن شاء فليرجع إلى تقاريظهم لكتبه النافعة العديدة وخصوصا — ما تحلى به هذا الديوان . أطال الله حياته ، ونفع الاسلام والمسلمين بنفثات قلمه ، وجعل هذا الديوان مبعث هداية ومنبع إرشاد ، وقد زاد جمالا على جماله بطبعه البهيج الذى تبتهج بمرآه العيون ، وتسرّ به النفوس ، ولا بدع فى ذلك فهو مطبوع بالمطبعة التى لا تسامى فى استعدادها وعنايتها ودقتها فى طبع الكتب العلمية النفيسة .

مطبعة شركة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بسراى رقم ١٢ بشارع التبليطه بجوار الأزهر الشريف بمصر .

* * *

كان تمام طبع هذا الديوان البديع فى يوم الخميس ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هـ (٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٢ م) .

مدير المطبعه

رستم مصطفى الحلبى

صواب الخطا

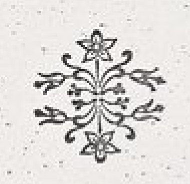
يحسن القارئ كثيرا إذا أصلح نسخته على ما يأتى ، فانه صواب ما عثرنا عليه من الخطأ المطبعى فى الكتاب :

صفحه	سطر	صواب	صفحه	سطر	صواب
٩	٢	تنفر	٥٥	١٠	أمَا مالا تنكرهُ أنْ يراك
٩	١٧	يروجون	٥٩	١٥	أنحاء
١٠	١٦	وهو	٦٠	٢	كثير
١١	٢	لاينتفع	٦٠	١٤	حفلاتهم
١٥	١٥	تنفيذها كأن	٦٤	١٨	ويغْشون
١٩	٣	فلأنه	٧٠	٥	وأقرض
٢٢	٨	عباسي	٧٧	٢	غدًا
٢٣	١٤	عليه وسلم	٧٧	٦	التعظيم
٢٥	٩	الذكرَ	٧٨	٢	عندَهم
٢٧	١٠	ولينظروا	٨٦	٥	المقابَلات
٢٨	١٣	عمرُ	٨٧	١٧	والعوامّ
٣٥	١٥	دعواهم	٨٨	٥	يغُش
٣٧	١٧	لا تتصوّر	٨٨	١٧	من بطن
٤٦	٥	مردويه	٨٩	٨	مواقع
٥٠	١٦	يطوفُون	٩٤	١٤	والزائرين
٥٠	١٧	المعامَلات	١٠٠	١٠	لايغُش

485

صفحه	سطر	صواب
١١٩	١١	ورذائل
١٢١	١٥	لِمَخُوفات
١٢٤	١٢	خشوعٍ
١٣٧	١٢	وماتوا
١٦٤	١٦	الجدلُ
١٦٩	١٥	لَحِقُوا
١٧٣	١٢	الناسَ
١٧٨	٤	مابه
١٧٩	١٨	المِظَم
١٨٤	١٢	القَدْر
١٩٤	٦	مُهِمك
٢٠٦	١٧	يأتى
٢٠٧	٣	آكَد
٢٠٩	١٥	كُلّ
٢١٩	٧	الرَّعاع
٢٣٤	١٣	يلي
٢٣٥	١٢	وعرفُوا
٢٣٦	٦	ونحنُ
٢٤٥	١٥	ونلوطُ
٢٥١	١	الذين
٢٥١	٤	تجاوزَ
٢٥١	١٥	عجزُوا
٢٥٦	٩	لا يزيد
٢٦١	٧	الحوضَ
٢٦٢	٣	دَممتك
٢٦٥	١٠	دينه
٢٧٢	١٨	الأعلى هو المال ، لهذا نحب
٢٨١	٦	إنسانٍ
٢٨٦	١٣	فى حبه
٢٩٧	١٩	اعتقاده
٣٠٣	٧	ويهدِم
٣٤٠	١١	الزنى
٣٥٣	١٤	وكأنّ
٣٦١	٩	حقّ غيره
٣٦٣	٧	مَلاذ
٣٦٥	٤	وكأنّهم
٣٦٥	١٣	لا يترددُ
٣٧٢	٦	آكَد

صفحه	سطر	صواب	صفحه	سطر	صواب
٣٨٤	٨	يتعاطَون	٤١١	١	ليكون
٣٨٦	٨	الأدويةُ	٤٣٥	١٨	وهو
٣٩١	٩	أطيب	٤٣٧	١	فضل
٣٩٣	٢	الشرَف	٤٥٠	١	إلى المحج
٤٠٠	١٦	بلا حكمة	٤٥٠	١٣	الأشياء كَمَا هِيَ
٤٠٥	٦	عرَفَتْ	٤٥٢	٦	تَوْبَةً
٤٠٥	١١	العابدون منها			



فهرس

ديوان منتهى آمال الخطباء

صفحة

489

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

93

صفحة

صفحة

495

صفحه

صفحه

﴿ تمت الفهرست ﴾

FRONT

FRONT

bic
y
s
e


PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
PAIR>
32101 032678599


Princeton University Library
32101 100240595